الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

تصنيف

روجر أوف ويندوفر (ت١٢٣٧)

(٤٤٧—١٢٣٥م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء التاسع والثلاثون (٢)

دمشق ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

الجزء الثاني

(١٢٠١ — ١٢٣٥)

كيف جرى تتويج ملك وملكة الانكليز في كانتربري

عـام ١٢٠١م،فيه احتفل الملك جـون بعيد الميـلاد في غـولفـورد Guilford ووزع هناك عـدداً من أثواب العيـد بين فرسـانه، وفي محاولة من هيـوبرت، رئيس أساقفـة كـانتربري أن يجعل نفسه على مستـوى الملك، فعل الشيء نفسـه في كانتربري مما أثارغضب الملك الى درجـة عالية جداً، وبعد ذلك انطلق الملك الى نورثأمبرلاند، واستخرج مبلغاً كبيراً من المال من سكان تلك الكونتيـة ، ثم إنه عـاد الى كـانتربري بصحبة ملكته ، وفي اليوم التالي ليوم عيد الفصح، جرى تتويجهما معاً في ذلك المكان ، وتكلف أثناء الاحتفـال رئيس أسـاقفـة كـانتربري نفقـات عـاليـة وبشطط واسراف أثناء عنايتـه بها ، وفي يوم عيـد الصعود التالي ، أصدر الملك في تويكبري Tewkesbury إعلاناً ، بأن يكون الايـرلات ، والبـارونات مـع جميع الذيـن يدينون بالخدمـة العسكرية اليـه، مستعـدين مع خيـولهم وأسلحتهم في بورتماوث لينطلقوا معه نحو المقـاطعات فيما وراء البحر، في يوم أحد العنصرة المقبل، لكن عندمـا حل الموعد المقـرر، حصل كثير منهم على الاذن للبقـاء وعـدم الذهاب، حيث دفع كل منهم الى الملـك مـاركين من الفضة عن كل محلجة.

كيف عبر الملك جون وملكته البحر الى نورماندي

بعد الاحتفـال بعيد العنصرة في بورتماوث، أقلع الملك مـع ملكته في اليـوم التـالي ، ووصـلاً بعـد كثير من الاضطراب الى نورمـاندي، وبعـد ذلك بوقت قصير عقـد الملكان الفـرنسي والانكليزي مـؤتمراً قـرب جـزيرة أندلي حيث جـرى الاتفاق على شروط سـلام، وبعـد مضي ثلاثة أيام ، ذهب الملـك جـون الى باريس بناء على دعـوة من الملك الفـــرنسي ، واحتفي بـه هناك في قصر ذلك الملـك الذي اتخذ لنفسـه سكناً في مكان آخر، وبعـلما احتفي به هناك بتشريف زائـد

وكما يليق بملك، غادر وذهب الى شينون، وفي الوقت نفسه، ولكي يكون السلام مضموناً بشكل أعظم، لقد تقرر، وتثبت بالكتابة، أنه إذا ما أراد الملك الفرنسي خرق شروط السلام، بأية طريقة من الطرق، وهي الشروط التي تقدم ذكرها، فإن بارونات المملكة الفرنسية ، الذين اتخذهم ضمانة له، سوف يتحللون من جميع الولاءات له، ولسوف يلتحقون بالملك الانكليزي في القتال ضد الملك الفرنسي ، ومن ثم ارغامه على الحفاظ على السلم المذكور، وعقدت الاتفاقية نفسها على الجانب الانكليزي .

وثارت في هذا العام عواصف رعدية مرعبة ، وبروق ، وبرد ، مع أمطار فيضانات ، مما أرعب عقول الناس ، وسبب أذى عظيماً في مناطق كثيرة.

وفي هذه الآونة أيضاً ، جرى إعطاء جزء من أربعين من مداخيل الكنائس لمساعدة أرض الميعاد ،وجاء ذلك بناء على مبادرة من البابا انوسنت، وجرى إرغام النبلاء والعامة سواء — بواسطة العقوبات الرسولية — ممن وضع شارة الصليب جانباً على إعادة حملها.

حول نشوب خلاف بين ملكي فرنسا وانكلترا

عام ١٢٠٢م، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد في أرجينتان Argentan في نورماندي، وأثناء الصوم الكبير التالي عقد مؤتمر بين ملكي فرنسا وانكلترا، على مقربة من غولنتون Gulentune وفي هذا الاجتماع قام الملك الفرنسي، وهو يحمل كراهية قاتلة ضد الملك الانكليزي ، بتوجيه الأمر إليه وهو مغضب بوجوب أن يتخلى على الفور إلى آرثر كونت بريتاني عن جميع الممتلكات التي بين يديه في هذا الجانب من البحر، أي : نورماندي ، وتور ، وأنجو ، وبواتو،

وطلب منه أشياء أخرى كثيرة ، الأمر الذي رفضه الملك الانكلزي ، ولم يستجب له ، ولدى رؤية الملك الفرنسي نفسه أنه لم ينجح بتحقيق غاياته في المؤتمر، قام في اليوم التالي بهجوم مفاجيء على قلعة بوتافانت ، وسواها بالأرض وزحف من هناك فاستولى بالقوة على بلدة أوجي Augi مع قلعة ليون liuns وعلى عدد آخر من الحصون، كما انه حاصر قلعة ريدبونت Radepount لمدة ثمانية أيام، لكن بسبب قدوم الملك الانكليزي ضده ، تراجع من ذلك المكان باضطراب، غير انه تحول بعد عدة أيام نحو غورني -Gour naye وبشق فتحة في البحيرة ، تمكن بقوة اندفاع الماء من تهديم الجزء الأعظم من الأسوار التي أحاطت بالمدينة ، ونتيجة لهذا هربت الحامية،ودخل الملك الفرنسي ، وأخضع المدينة دون أن يعارضه أحد، ثم انه عاد الى باريس، ووضع آرثر بعهدة أناس أمناء، وأعطاه مائتي جندي فرنسي لمرافقته في بواتو ، وكانت الغاية من ذلك القيام بغارات عسكرية بغية التمكن من إخضاع تلك المناطق لصالح آرثر،وعندما كانت هذه القوات تزحف نحو الأمام مع ضجة كبيرة ، وصلت اليها رسالة بأن الملكة اليانور كانت مقيمة في قلعة ميرابو، ومعها حامية صغيرة ، ولذلك وجه جنود هذه القوات اندفاعهم للهجوم على تلك القلعة ، وجاء ذلك باتفاق عام منهم، وألقوا الحصار على القلعة، ولعدم وجود قوة كافية لدى الحامية لمقاومتهم استسلمت القلعة لهم باستثناء البرج الذي كانت فيه الملكة اليانور ، التي اعتصمت فيه مع عدد قليل من الجنود، ولم يستطيعوا الاستيلاء على هذه القلعة ، ولذلك وجهوا هجماتهم ضد البرج، وقدم في تلك المنطقة الى مساعدة آرثر جميع النبلاء والعساكر ذوي المراتب في بواتو، وقام واحد بشكل خاص اسمه هيوج، ولقبه لى برون وكان ايرل التخوم فأعلن عن نفسه بأنه عدو للملك الانكليزي، بسبب الملكة ايزابيل، حيث قيل بأن ذلك الايرل كان مرتبطاً بها

كزوجة له بكلمة الفم، وذلك قبل أن تتزوج من الملك جون، وبذلك شكلوا قوة كبيرة هناك، واستمروا بالحملات الشديدة على القلعة من أجل الاستيلاء عليها بأسرع وقت ممكن.

النصر الرائع الذي حصل عليه الملك جون في ميرابو

وعندما وجدت الملكة نفسها في هذا المأزق ، بعثت رسالة مع استخدام كل سرعة ، الى الملك ، الذي كان وقتذاك في نورماندي، ترجوه بإلحاح وتحثه بعاطفة الأمومة أن يقدم الى مساعدتها ، ولدى تلقي الملك هذه الأنباء انطلق بسرعة مع قوة شديدة ، وسار ليلاً ونهاراً، وقطع مسافة طويلة بشكل أسرع مما هو معتقد ،ووصل الى ميرابو وعندما علم الفرنسيون وشعب بواتو بأن الملك كان على طريقه، خرجوا بصفوف صاخبة وكلها أبهة للتصدي له،والقتال معه، وعندما التقى كل فريق مع الآخر وهما على تعبئة ، ومصطفين للقتال ، وعند الاشتباك ، صمد الملك بشجاعة لحملاتهم الشديدة ، وأخيراً أرغمهم على الفرار ، وطاردهم بسرعة فائقة بوساطة فرسانه، حتى أنهم دخلوا القلعة ساعة دخول الفارين إليها ، ثم أعقب ذلك قتال حاد جداً داخل أسوار القلعة، إنما مالبث ذلك أن حسم بوساطة الشجاعة العالية الصيت للانكليز،ووقع أثناء القتال بالأسر مائتي فارس فرنسي ، مع جميع نبلاء بواتو، وأنجو، وذلك مع آرثر نفسه ، ولذلك لم يتمكن ولا واحد من العدد كله من النجاة والعودة، ومن ثم الحديث عن النازلة التي ألمت ببني منطقته، وبعدما وضع جميع أسراه بالقيود وبالأغلال، ألقى بهم في عربات ، وهي طريقة جديدة ووسيلة غير معتادة للنقل، وأرسل الملك بعضاً منهم إلى نورماندي، وبعضهم الى انكلترا، وسجنهم في قلاع حصينة، منها ليس هناك من خوف من إقدامهم على الفرار ، لكن آرثر أبقي في فالي Falis ،في سجن مضيق عليه.

كيف انسحب الملك الفرنسي
وهو مضطرب من حصار قلعة آركوي

وأثناء وقوع هذه الحوادث في قلعة ميرابو، زحف الملك الفرنسي مع جيش كبير ضد قلعة أركوي Arques وألقى الحصار عليها وصفّ مجانيقه حولها، ولمدة خمسة عشر يوماً بذل قصارى جهده بوساطة القصف واللغم لخرق الأسوار والدخول منها، ومن جانب آخر قاومت حامية القلعة بشجاعة، وسعت بوساطة رمي الحجارة والنشاب الى طرد الأعداء ، وإبعادهم الى مسافة بعيدة، وعندما وصلت أخبار أسر آرثر وأتباعه الى مسامع الملك الفرنسي ، انسحب من الحصار وهو مغضب، وفي أثناء تراجعه دمّر وأحرق كل مكان وصل اليه ، حتى أنه حول الديرة العائدة الى رجال الدين إلى رماد ، ووصل أخيراً إلى باريس، ومكث من دون نشاط حتى نهاية ذلك العام .

موت آرثر كونت بريتاني

وبعد مرور بعض الوقت ، قدم الملك جون الى قلعة فالي ، وأمر بجلب ابن أخيه آرثر الى حضرته، وعندما مثل أمامه ، خاطبه الملك بلطف، ووعده بكثير من التشريفات، وسأله أن يفصل نفسه عن الملك الفرنسي، والالتحاق به هو نفسه ، بحكم أنه مولاه وعمه ، لكن أرثر— السيء المشورة — رد عليه برعونة وتهديد ، وطلب من الملك أن يتنازل له عن مملكة انكلترا وعن جميع المناطق التي امتلكها الملك رتشارد وقت موته، وقال بأن هذه الممتلكات جميعاً عائدة له بموجب حق الوراثة، وأكد بوساطة القسم أنه ما لم يقم الملك جون بسرعة بإعادة المناطق المتقدم ذكرها إليه، فإنه سوف لن يتمتع بالسلام أية مدة من الزمن، وانزعج الملك كثيراً لدى سماعه

كلماته وأمر بوجـوب نقل آرثر الى روان ، ليسجن في البرج الجديد هناك ، وأن تشدد عليه الحراسة ، إنما بعد مضي وقت قصير ، اختفى آرثر المذكور.

وقدم الملك جون في هذا العام نفسه الى انكلترا ، وجرى تتويجه في كانتربري من قبل هيوبرت رئيس أساقفة ذلك المكان،وكان ذلك في الرابع عشر من نيسان، وأبحر بعد هـذا الى نورماندي، وبعد وصوله الى هناك ظهـر رأي حـول وفـاة آرثر ، وقـد عمّ انتشـاره خـلال المملكة الفـرنسية والقـارة بشكل قيل فيه باتهام الملك جـون، وبأنه قد قتله بيـده شخصياً ولذلك ابتعـد كثير من الناس بعواطفهم عن الملك منـذ تلك السـاعـة والى الأبد وذلـك حيثما ملكوا الجرأة ، واحتفظوا بأعمق مشاعر العداوة ضده.

كيف تخلى النبلاء الانكليز عن الملك جون في انكلترا وهجروه

عام١٢٠٣م، فيه أمضى الملك جون عيد الميلاد في كين Caen في نورمـاندي، حيث القى جـانبـاً كـل تفكير بالحرب ، واحتفل مع ملكته بشكل فخم وأطال نومه في الصباح حتى وقت الافطار، لكن حدث أنه بعد انتهاء وقار أيام عيد الفصح التي روعيت، قام الملك الفرنسي فجمع جيشاً كبيراً ، واستولى على عدة قـلاع كانت عائدة الى ملك انكلترا، وهدم بعضها وسـواها بالأرض، لكن القلاع الحصينة أبقـاها سليمـة، ووصل أخيراً رسـول إلى الملك جـون مع الأخبـار قائـلاً بأن الملك الفرنسي قـد دخل الى أراضيك كعـدو،واستولى على كـذا وكذا من القـلاع، وحمل حكامهم بشكل مهين، وهم مـربوطين الى ذيول الخيـول ، وأتلف ممتلكاتـك ووزعهـا عن تصميم دون أن يعترضـه معترض، ورد الملك جون على هذه الأخبـار بقوله:« دعـوه

يفعل ذلك ، فمهما استولى عليه الآن ، سوف أسترده في يوم واحد »
و لم يتمكن هؤلاء الرسل ، ولا الآخرون الذين جلبوا له أية
أخبار أخرى مشابهة الحصول على جواب آخر ، وعندما سمع
الايرلات والبارونات والنبلاء العائدون للمملكة الانكليزية —
الذين كانوا حتى ذلك الوقت مرتبطين به ومؤيدين له بثبات —
كلماته هذه ورأوا كسله أمراً لا يمكن تقويمه حصلوا على إذنه ،
وعادوا الى الوطن ، متظاهرين أنهم سوف يعودون اليه، وهكذا
تركوا الملك مع عدد قليل من الجنود في نورماندي ، وقام هيوج دي
غورني Cournaye ، الذي منحه الملك جون كل التشريفات
وعهد اليه بقلعة مونتفورت ، بتسليمها الى ملك الفرنسيين وسمح
لجنوده بالدخول اليها أثناء الليل وبهذه الطريقة تخلى عن تابعيته
وعن ولائه للملك الانكليزي ، وهرب الى الملك الفرنسي، وفي
الوقت نفسه كان الملك الانكليزي مقيما مع ملكته دونما نشاط في
روان، حتى قيل بأنه كان مصاباً بالخبال بوساطة السحر، لأنه في
وسط كل خسائره وعاره كان يظهر ملامح مشرقة فرحة الى
الجميع ، وكأنه لم يخسر شيئاً ، وقدم الملك الفرنسي في الوقت ذاته مع
جيش كبير الى بلدة رويل Ruyl ، حيث كانت هناك قلعة فخمة ،
قام على الفور بتطويقها بآلات رميه الحربية لكن بعدما مركزهم ،
وقبل أن يقوم ولو بحملة واحدة، قام روبرت فتز— وولتر،
وسيردي كوينسي sayer de Quincy ، وهما النبيلان المسؤولان
عن القلعة بتسليمها سليمة الى الملك الفرنسي، دون أن تتعرض
حجرة واحدة من تلك القلعة للتحطيم ، ودون أن تصاب شعرة
واحدة من رأس أحد رجال حامية القلعة، لكن الملك الفرنسي الذي
كان غاضباً جداً ضدهم، أمر بهم فوضعوا في الأغلال، واحتفظ
بهم في سجن ضيق في كومبينCompegne ، حيث بقيوا في
وضع مهين حتى جرى دفع فدية ثقيلة من أجل اطلاق سراحهم ،

وعندمـا وجــد الملك الفـرنسي أن كل المعــارضـة له في نورمــاندي ومناطق ما وراء البحر الأخرى قد توقفت، زحف خلال المناطق كما يريد ودونها عائـق وأعاد الاستيلاء على عـدد من القلاع ، وقـام أيضاً في هذه الآونة بإلقـاء الحصـار على قلعـة صخـرة أندلي ، التي كـان الملك رتشارد قد بناها، لكن لحصانة القلعة ، ولإخلاص روجر دي لاسيlacy الذي كان لا مثيل له، وهو الذي كانت القلعـة موضوعة تحت عهــدتـه، لم يحصل الملك الفــرنسي على أي شيء مـن الحصــار باستثناء انه بمنعه الخروج على المحاصرين، منعهم من الحصول على المؤن ، وفي أثناء وقوع هذه الأحــداث، انفصـل بعــض الـنورمـان عن المـلك الانـكليــزي انفصــالاً نهائيــاً، وخـفــف آخـــرون العـلاقـات مـعـه والارتبـاط بـه.

كيف جاء الملك جون الى انكلترا واستخرج مبالغ كبيرة من المال من النبلاء

وعندمـا رأى الملك جـون أخيراً خطأه ، وانـه قـد حـرم من جميع الموارد الحربية، أخذ سفينة وأبحر بها بكل سرعة، ونزل في يوم عيد القـديس نيقـولا في بورتماوث ، ثم جـرى تحريضـه ضـد الايرلات والبـارونات ، بحجـة انهم قـد تخلوا عنه ، وهو في وسط أعـدائـه في القارة ، وانهم بتخليهم عنه قد فقـد القلاع والأراضي، فأخذ منهم سبع جميع ممتلكاتهم المتحـركـة، ولم يتمنع بهذا العمل من الاستيـلاء بعنف على الممتلكات الديرية أو ممتلكات كنائس الأبرشيات، ومن أجل تحقيق هذه الغـاية استخدم هيـوبرت رئيس أسـاقفة كـانتر بري وكيـلًا له في هذه السرقات المتعلقـة بممتلكات الكنيسـة، وغيوفـري فتــزـ بيتر، المســؤول عن العـــدالة في انكلترا ، فيما يختـص بسلع العلمانيين، ولم يوفر هذان أحداً لدى تنفيذهما لأوامرهما .

وعندمـا علـم الملك الفرنسي ، بـأن ملك انكلترا قد غـادر مناطق ما وراء البحار توجه مع قـوة كبـيرة نحو كل بلدة وقلعة في المنطقة، موضحاً الى السكان والى حكام القـلاع، بـأن مولاهم قد تخلى عنهم، وقال أيضاً بأنه هو السيـد الرئيسي لهذه المناطق ، وانه إذا كان الملك الانكليـزي قـد تخلـى عنهم بشكل شـائن، ليس في نيتـه فقـدان السلطة الرئيسيـة عليهم، التي هي عـائـدة اليـه، ولذلك رجـاهـم كأصـدقاء أن يستقبـلوه كسيـد لهم لعـدم وجود سيـد آخـر ، وقـد أعلن لهم وربط اعـلانه بالقسـم، انهم اذا لم يفعلوا ذلك طواعيـة ، وتجرأوا على الوقـوف ضـده، هو سـوف يخضعهم كأعـداء له ، ولسـوف يعلقهم على المشـانق، أو سيسلخهـم وهم أحيـاء، وقـرروا أخيراً، ووافقـوا بالاجماع بعـد كثـير مـن المناقشـات من على الطرفين، أن يقدموا رهـائن الى الملـك الفرنـسي ، مقابـل الحفـاظ على هدنـة لمدة سنـة واحـدة، فبعـد مـضي ذلـك الـوقت، انهـم إذا لم يتسلمـوا مساعـدة مـن الملـك الانكليـزي، سوف يحـولون وقتهـا اعترافهـم إليـه كحـاكم لهم، ولسـوف يعطونـه المدن والقـلاع، وبعـدما وصـل الملـك الفـرنسي الى هـذه الغـاية عـاد الى منـاطقـه.

ترقية وليم أسقفاً للنكولن

وفي هـذا العـام نفسـه جـرت سيـامـة المعلـم وليـم، رئـيس جـوقـة المرتلين ، والكاهن في كنيسـة لنكولن، أسقفـاً للكنيسـة نفسـها ، وتـمت السيـامـة في وستمنستر، في يوم عيـد القـديس بارثلميـو الرسـول ، من قبل وليم أسقف لنـدن، وترافع غيلبرت أسقف أوف روكستر، لصـالح دعـواه ومطـالبتـه شخصيـاً، لكنه لم ينجح ، لأن هيـوبرت رئيس أساقفـة كانتربري، كـان راقداً مـريضاً جداً.

كيف جرى منح المساعدات من أجل الحرب بشكل كبير الى الملك

عام١٢٠٤م، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد في كانتر بري، وقدم هيوبرت ، رئيس أساقفة ذلك المكان جميع الضروريات للاحتفاء بالملك، وبعد ذلك، وفي اليوم الذي جاء بعد عيد الختانة، التقى الملك مع النبلاء في اكسفورد في مؤتمر ، وفيه جرى منح الملك المساعدات من أجل الحرب وتمثل ذلك بماركين ونصف المارك من كل محلجة قطن، ولم يستطع الأساقفة ورعاة الديرة المغادرة من دون اعطاء وعد بتقديم العون نفسه.

كيف أصبح بشكل رائع زيت تمثال أم الرب لحماً

وحدثت في العام نفسه ، في اليوم الثالث قبل عيد الفصح ، معجزة هي الأعظم ادهاشاً ، تعلقت بزيت تمثال أم الرب في صيدنايا ، وكانت كما يلي: لقد صدف وجود سجناء من الجنود الصليبيين في قلعة دمشق ، وقد قام أحد الجنود بأخذ قارورة من صندوقه ، ووضع فيها بعضاً من الزيت الذي تساقط من تمثال أم الرب في صيدنايا ، وعندما نظر بدقة نحو القارورة التي وضع الزيت فيها وهو شفاف مثل الماء، ظهر الزيت أنه قد أصبح لحماً، لكنه انقسم الى قسمين : القسم الأول في الشطر الأسفل من القارورة ، والقسم الثاني في الشطر الأعلى ، ثم أخذ الجندي سكينه، وحاول أن يوحد ما بين الشطر الأعلى والشطر الأسفل ، لكن ما أن لامس حد السكين الزيت المتجسد، حتى تساقطت نقاط من الدم منه، مما أدهش الشمامسة والفرسان ، وجميع السجناء ، الذين كانوا ينظرون اليه، وبما أن كثيرين يجهلون الحقيقة المتعلقة بتمثال الرب هذا، انه موائم كثيراً، أن نتحدث عن أصله، الى الذين لا يعرفونه ، وذلك في

سبيل تقديم الثناء الى أم الرب المذكورة.

حول أصل التمثال المذكور وحول بعض معجزاته

عاشت هناك في دمشق، التي هي المدينة العاصمة لسورية عقيلة محترمة، ارتدت ثوب راهبة، وصار عملها هو عبادة الرب بأعظم خشوع، ولكي تكون أكثر حرية في ممارسة واجباتها الدينية، ومن أجل أن تتجنب صخب المدينة، انسحبت نحو مكان اسمه صيدنايا، يبعد ستة أميال عن المدينة المذكورة أعلاه، وبنت هناك لنفسها بيتاً ومصلى تشريفاً الى أم الرب المقدسة، وقامت بواجبات الضيافة نحو الحجاج والفقراء، وحدث أن قدم راهب من مدينة القسطنطينية الى القدس من أجل التعبد، ورؤية الأماكن المقدسة، وبترحاب استقبل من قبل الراهبة المتقدمة الذكر ولدى معرفة هذه الراهبة أنه كان ذاهباً الى المدينة المقدسة، توسلت اليه بتواضع وبإلحاح، أن يجلب لها لدى عودته من القدس تمثالا ما، أي صورة مرسومة ما لتضعها في مصلاها، يمكن أن تريها أثناء صلواتها، شبيه أم الرب، وبإخلاص وعدها بأنه سوف يجلب لها صورة، وبعدما وصل الى القدس، وأدى واجباته الدينية، ولدى فراغه استعد للعودة، فنسي وعده للراهبة، وبعدما خرج من المدينة، وفيما هو على طريق عودته، وصل اليه صوت من السماء يقول له: «لماذا عدت فارغ اليدين؟أين هو التمثال الذي وعدت أن تأخذه الى الراهبة»؟

ولدى تذكيره بهذا الشيء، عاد الراهب الى المدينة، وذهب الى المكان الذي كانت تباع فيه التماثيل، واشترى واحداً أرضاه وحمله معه أثناء عودته،ولدى وصوله الى مكان اسمه غيث Cith كان هناك الأسد كامناً في عرينه، يتولى افتراس البشر، وقد خرج الأسد لاعتراض الراهب على طريقه لكنه أخذ يلعق قدميه، وهكذا نجا تحت حماية النعمة اللاهوتية دونما أذى، ووقع بعد ذلك في مكمن

للصــوص، وعنــدمـا كـــانوا على وشك إلقـاء القبض عليـــه بعنف، ارتعبـــوا كثيراً من صــوت أحـــد الملائكة ، الذي قـــرعهم، لذلك لم يعـودوا قـادرين لا على الكلام ولا على الحركـة، ثم ان الراهب ألقى نظرة على الصـــورة التي حملهـــا، فعـرف بوجـــود بعض الفضـــائل اللاهوتيـة الخفيـــة فيهـا، ثم انه أزعج نفســـه بالتفكير حـــول كيف يمكنه خداع الراهبة ، وبالتالي أن يحمل الصورة معه الى بلاده، ولدى وصوله الى مدينة عكا، صعـد الى ظهر سفينة، راغباً إذا أمكن العودة الى الوطن لكن بعدما أبحروا بأشرعة ممدودة لعدة أيام، ثارت فجأة عاصفـة، وكانوا مـرعوبين كثيراً الى حـد أن كل واحد رمى مـا معه من سلع في البحـر ، وعندما كان الراهـب — بين البقية — على وشك أن يرمي حقيبتـه الى الأمواج، قال له مـلاك الرب :«لاتفعل هذا بل ارفع الصــورة عـالياً بين يديك نحـو الرب»، وعندمـا رفع الصــورة عاليـاً مطيعاً بذلك أوامـر الملاك ، توقفت العاصفـة على الفور ، وبما أن البحـارة لم يكونوايعرفـون الى أين هم ذاهبـون، عادوا الى مـدينة عكا، ثم ان الراهب علم بما أراده الـرب من الصــورة ، وأنه يرغب أن يفي بوعـده ، ولذلك عـاد الى الراهبة ، وتمتـع أخيراً بضيافتهـا ، وهي لم تعرفه بسبب تواتر الضيــوف ، ولذلك لم تسأله عن الصورة ، ولدى رؤية الراهب ذلك فكر ثانية بأخذ الصـورة معه والعودة الى الوطن ، ولكنه عندما حصل في الصباح البـاكر على الإذن بالمغادرة ، ذهب الى المصلى للصـلاة وبعـدمـــا أدى عبـاداته أراد الخروج ، فلم يتمكن من العشـور على البـاب ، ولذلك وضع الصـــورة التي كـان يحملهـــا على المذبح في المصلى ولدى فعله ذلك رأى البـاب مفتوحـاً، لكنه عندمـــا أخـذ الصـــورةمجدداً ، وسعى إلى الخروج لم يستطع ثانيـــة العثـور على البـاب،وأخيراً عندمـا رأى أن الفضيلة اللاهوتيـة تحيط بالصــورة وضعها على مذبح المصلى وعـاد ثانية الى الراهبـة ، وقص عليها بالتـدريج وبانتظام جميع الأحوال التي أحـاطت بالصورة كما

حكينا أعلاه، وبناء عليه قال بأن إرادة الرب قضت ببقاء الصورة هناك، ومن ثم أن يجري تعبدها بالتشريف الذي تستحقه وبناء عليه أخذت الراهبة الصورة ، وباركت الرب وأمه ، من أجل جميع ما قصه عليها ذلك الراهب، هذا وقرر الراهب نفسه امضاء بقية حياته في ذلك المكان نفسه ، بسبب المعجزات التي تسبب الرب بها بوساطة صورة أمه ، ثم بدأت الصورة تنال الاحترام من الجميع، وأعجب الجميع بأعمال الرب العظيمة والرائعة من خلالها (١).

كيف أخذ تمثال أم الرب يرشح زيتاً

وبعد هذه الأحداث، بنت الراهبة مكاناً بدا لها أكثر تكريما لوضع التمثال فيه، وطلبت من كاهن ظنت أنه كان أعظم جدارة منها نفسها، وكان مشهوراً بقداسته، كما اعتقدت، ليضع عليه ثيابه المقدسة، وليتولى نقل التمثال الى المكان المتقدم ذكره، وكان هو — على كل حال — قد خاف من لمسه، لأنه بعدما وضع على المذبح ، أخذ يرشح، ولم يتوقف من ذلك الحين عن اعطاء سائل واضح ونقي تماماً مثل الزيت، وتولت الراهبة في البداية مسح هذا البلل بقطعة رقيقة من القماش الكتاني، غير أنها اشترت فيما بعد وعاء صغيراً من النحاس الأصفر، جمعت فيه الزيت، الذي وزعته على المرضى وكان كلما جرى استخدامه باسم الرب وباسم أمه شفى أمراضهم، وأبقاهم بصحة حتى هذا الحين، انما عندما اقترب الكاهن المتقدم ذكره من التمثال من دون اهتمام ليأخذه وينقله ما أن لمس السائل الذي تدفق منه ، حتى يبست يداه، ومات بعد ثلاثة أيام وذهب الى الرب، ولم يتجرأ بعد هذا أحد على لمس هذا التمثال أو نقله من مكان الى آخر، باستثناء تلك الراهبة وحدها ، وبعد أمد وضعت المرأة المتدينة وعاء من الزجاج تحت التمثال حتى يمكن جمع الزيت الذي كان يتدفق منه، وحفظه لتزويد المرضى المحتاجين له به.

١— تقدمت هذه الحكاية برواية أخرى في ص ٤٢١٠—٤٢١١

كيف أخرج ذلك التمثال نفسه حلمات من اللحم

ومع مرور الأيام وقعت وقائع لم يسمع بمثلها حتى الآن، لأن ذلك التمثال المتقدم ذكره أنتج أنواعاً قريبة من الصدور اللحمية ، وبدأ يكسوها باللحم بطريقة مدهشة وبناء عليه بدا التمثال نزولاً من الصدر مغطى باللحم كلياً ، ومن هذا الجسد تساقط السائل من دون توقف،وأخذ رهبان الداوية، أثناء الهدنة مع صلاح الدين بعضاً من هذا الزيت، الى بيتهم لتوزيعه على الحجاج الذين كانوا يقدمون الى هناك للصلاة ، ولكي يتولوا، مع الاحترام، تمجيد واحترام أم الرب ونشر ذلك في مختلف مناطق العالم، ويوجد هناك بالحقيقة رهبان في بعض أجزاء الدير، للقيام بالواجبات الدينية، لكن المكانة والسلطة هي بيد الراهبات صدوراً عن الاحترام لتلك المرأة التي تقدم ذكرها ، والتي كانت أول من سكن ذلك المكان ، وبنت مصلى هناك على شرف مريم المقدسة، أم الرب .

كيف استرد سلطان بصره بوساطة هذا التمثال

وحدث في ذلك الحين ان سلطان دمشق الذي كان أعمى في أحد الأيام، أن هوجم من قبل مرض في العين، حتى لم يعد قادراً على الرؤية بها، وصار أعمى كلياً، وقد سمع بالتمثال المتقدم ذكره، الذي عمل من خلال قدرة الرب كثيراً من المعجزات ، فذهب إلى المكان ودخل إلى المصلى ومع أنه لم يكن مسيحياً كان لديه ايمان بالرب وأنه من خلال تمثال أمه، من الممكن ان تسترد صحته، وانكب على الارض وبقي ساجداً وهو يصلي وعندما نهض من صلاته رأى الضوء مشتعلاً في المصباح الذي كان معلقاً وهو يصلي، وعندما نهض من صلاته رأى الضوء مشتعلاً في المصباح، الذي كان معلقاً امام تمثال مريم أم الرب، واكتشف— لسروره— بأنه قد استرد بصره، وبناء عليه قام هو، وجميع الذين كانوا معه، ورأوا هذا، فمجد الرب ولأن أول شيء كان قد رآه

هو الضوء مشتعلاً في المصباح، عمل عهداً للرب، انه سوف يعطي منذ ذلك الحين وصاعداً، سنوياً ستين عياراً من الزيت الى مصابيح ذلك المصلى، الذي استرد فيه بصره من خلال فضائل مريم المباركة، أم الرب.

كيف استسلمت نورماندي وممتلكات ماوراء البحر الأخرى إلى حكم الملك الفرنسي

تمكن في هذه الآونة جيش الملك الفرنسي، الذي كان يحاصر قلعة صخرة أندلي، منذ قرابة العام، من لغم وتهديم جزء كبير من الأسوار، لكن النبيل والمقاتل روجر، قسطلان شيستر استمر في الدفاع عن المدخل ضد الفرنسيين ، إنما نقصت مؤنه أخيراً، وبلغت به الحاجة إلى حد، أنه لم يعد من الممكن تقديم وجبة واحدة من الطعام لأي عسكري، وكان يفضل أن يموت في القتال على الجوع، وبناء عليه حمل هو وجنوده أسلحتهم، وركبوا خيولهم ، وقاموا بحملة من القلعة، لكن بعدما قتلوا عدداً ممن تصدوا لهم ، وقعوا أخيراً بالأسر، مع أن ذلك كان بصعوبة كبيرة، وهكذا سقطت قلعة صخرة أندلي في يدي الملك الفرنسي في السادس من آذار، وحمل روجردي لاسي مع جميع أتباعه إلى فرنسا، حيث احتجز طليقاً بعد تعهده بعدم الفرار، وذلك بسبب الشجاعة التي أظهرها في الدفاع عن قلعته، وبناء على هذا أرسل جميع المتملكين للقلاع في مناطق ما وراء البحر مع المواطنين وبقية رعايا ملك انكلترا، رسلاً إلى انكلترا لإخبار الملك عن الوضع الحرج الذي باتوا فيه، وان عليهم في ذلك ، وفقاً لشروط المعاهدة، وقد اقتربوا من موعد نهاية الهدنة إما ان يسلموا المدن والقلاع إلى الملك الفرنسي، أو تعريض الرهائن إلى التلف ، أي الرهائن الذين كانوا قد أعطوهم إلى الملك، وعلى هذه الرسالة أجاب الملك جون جواباً أعطاه إلى جميع الرسل، بأن قال عليهم عدم توقع مساعدة منه، والذي عليهم عمله هو

فعل الذي يرونه هو الأفضل ، وهكذا سقطت جميع أنواع الدفاع في تلك المناطق، ووقعت نورماندي كلها، وتور، وأنجو، وبواتو، مع المدن، والقلاع، والممتلكات الأخرى، باستثناء قلاع: روشيل Rochelle، وثوارThouars، ونيورزNiorz ، وصارت ضمن ممتلكات ملك فرنسا، ولدى إخبار الملك الانكليزي بذلك لم يهتم لأنه، كان يتمتع بجميع مباهج الحياة مع ملكته، حيث اعتقد انه بصحبتها قد امتلك كل شيء أراده ، فضلاً عن ذلك لقد شعر بالاطمئنان، من خلال ضخامة الثروة التي جمعها، وكأنه بها يستطيع ان يسترد الأراضي والممتلكات التي فقدها.

موت غودفري أسقف وينكستر وخلافة بطرس دي روبيبس له

وفي الأول من نيسان من هذا العام نفسه ظهر في الهزيع الأول من الليل، في الجزئين الشمالي والشرقي من السماء احمرار ، اعتقد كثير من الناس انه نار حقيقية ، والأكثر ادهاشاً من هذا كله أنه ظهر في الجزء الأكثف من ذلك الاحمرار، بعض النجوم اللامعة ، واستمرت هذه الظاهرة حتى منتصف الليل.

ومات في العام نفسه غودفري أسقف وينكستر، وقد خلفه بطرس دي روبيبس Rupibus ، وكان رجلاً من مرتبة الفروسية ، وماهراً في فن الحرب، وقد جرى تعيينه بالأسقفية لصالح الملك جون، وقد انطلق إلى روما، وبعدما وزع هداياه بكرم كبير، بادر مسرعاً إلى الكنيسة في وينكستر ليجري تكريسه أسقفاً ، ووقع هذا في هذا العام في اليوم الأخير من الفصح في يوم عيد القديس مرقص الانجيلي.

بعض الحوادث العجيبة

عام ١٢٠٥م، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد في تويكبري Tawkebesbury لكنه لم يمكث هناك يوماً واحداً، وفي الشهر

نفسه، أي شهر كانون الثاني تجمدت الأرض إلى درجة أن الأعمال الزراعية تأجلت من الرابع عشر من كانون الثاني حتى الثاني والعشرين من آذار ، وبسبب ذلك بيع في الصيف التالي حمل القمح بأربعة عشر شلناً، وفي حوالي عيد أحد العنصرة من العام نفسه، حشد الملك جون جيشاً كبيراً، وكأنه كان على وشك عبور البحر، ومع أن رئيس أساقفة كانتربري وكثير من الأساقفة أثنوه عن عزمه هذا ، فإنه أمر بجمع أسطول كبير في بورتماوث، ثم انه أقلع مع جماعة صغيرة في الخامس عشر من تموز ، وسافر في البحر، لكن ما لبث ان غيّر مقصده، فقد نزل في اليوم الثالث في ستودلاند STUDLAND قرب وورهام WOR-HAM ولدى عودته أخذ مبلغاً هائلاً من المال، من الايرلات ، والبارونات، والفرسان، ومن رجال الدين، واتهمهم بأنهم رفضوا مرافقته إلى القارة لاسترداد ميراثه الضائع، وفي هذا العام ، استسلمت قلعة شينون إلى الملك الفرنسي.

موت هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري وانتخاب نائب رئيس الرهبان في كانتربري

وفي الثالث عشر من تموز من العام نفسه مات هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري في تنهام Tenham، مما بعث السرور في قلب الملك، الذي كان يتهمه بأنه كان على علاقة وطيدة مع الملك الفرنسي، وبعد وفاة رئيس الأساقفة ، وقبل ان يوضع جسده في القبر ، انتخب بعض صغار الرهبان من الكنيسة الديرية في كانتربري —من دون إذن الملك وموافقته — رينالد نائب رئيس الرهبان، ليكون رئيساً للأساقفة، وفي منتصف الليل، غنوا بعد انتخابه وأنشدوا Te deumووضعوه أولاً على المذبح الكبير ، ثم بعد ذلك على كرسي رئاسة الأساقفة، لأنهم كانوا خائفين من أن هذا الانتخاب الذي جاء من دون موافقة الملك، قد يصل خبره إلى مسامع الملك، فيمنعهم من متابعته والاستمرار به،

وبناء عليه، قام نائب رئيس الرهبان هذا ، بأداء قسم، بأنه لن يعد نفسه منتخباً من دون إذن رهبان الدير، ورسائل خاصة منهم، وانه لن يري الرسائل التي لديه إلى أي إنسان، وأخذ بعض رهبان الدير معه، وذهب إلى بلاط روما، وعمل هذا كله في سبيل إبقاء خبر الانتخاب مكتوماً عن الملك حتى يجدوا فيما إذا سيكون بإمكانهم في بلاط روما تنفيذ الانتخاب الذي تولوه ، وجعله فعالاً، لكن رئيس الأساقفة المنتخب ، ما أن نزل في فلاندرز حتى أهمل القسم الذي كان قد أداه، وأعلن بشكل مكشوف، بأنه كان رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وأنه كان ذاهباً إلى بلاط روما لتثبيت انتخابه، لا بل علاوة على ذلك جعل كل انسان يرى رسائل رهبان الدير التي كانت بين يديه، معتقداً بأنه بهذا سوف يفيد قضيته كثيراً ويرفع من شأنها، ووصل أخيراً إلى روما ، فتولى على الفور إخبار مولانا البابا بذلك ، وكذلك أعلم الكرادلة، وأظهر الرسائل وعرضها على الجميع، وبجرأة طلب من البابا تثبيت انتخابه بالمباركة الرسولية ، ولكن البابا أجابه بسرعة، بأنه سوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتمكن من تفحص الأمر ، في سبيل ان يكون أكثر وثوقاً حول الظروف المتقدم ذكرها.

انتخاب جون أسقف نورويك بناء على طلب الملك الانكليزي

وفي الوقت ذاته ، ما ان سمع رهبان كانتربري بأن نائب رئيس الرهبان لديهم قد خرق يمينه، وانه حالما وصل إلى فلاندرز، قد أعلن انه قد انتخب، وبذلك كشف سرهم، غضبوا كثيراً ، وبعثوا على الفور بعضاً من الرهبان من ديرهم إلى الملك، وطلبوا منه الإذن باختيار رئيس أساقفة يكون مناسباً لهم، ووافق الملك على الفور بلطف وبدون تردد على طلبهم، ولدى حديثه الخاص معهم ألمح بأن أسقف نورويك كان صديقاً كبيراً له، وانه هو وحده من بين الأساقفة الانكليز كان عارفاً بأسراره، وبناء عليه أكد لهم بأنه سوف يكون مفيداً له شخصياً

وللملكة، إذا كان بإمكانهم نقل الأسقف المذكور إلى رئاسة الأساقفة، وبناء عليه طلب من الرهبان بأن يقوموا مع كهنته الذين سوف يرسلهم إلى الدير، ان يتولوا تقديم هذا الطلب إلى رهبان الدير، ووعد بإضفاء منافع كثيرة على رهبان الدير إذا ما قرروا الاصغاء إليه، ولدى عودة الرهبان إلى مقرهم أخبروا إخوانهم الآخرين في الدير بأوامر الملك ، وبناء عليه اجتمع رهبان الدير جميعاً في بيت هيئة الكهنة، وفي سبيل إرضاء الملك والتصالح معه، وذلك بعد ما أغضبوه، وافقوا بالاجماع على انتخاب جون أسقف نورويك، وبعثوا على الفور بعض رهبان الدير إلى رئيس الأساقفة المنتخب، الذي كان في يورك يتولى تدبير بعض أعمال الملك ، لإخباره بالقدوم سريعاً إلى كانتربري، وبادر الرسل بتنفيذ رحلتهم المرسومة وأنجزوها بكل سرعة، ووجدوا الأسقف المذكور في نوتنغهام، فقام على الفور بتسوية أعمال الملك، وبادر مسرعاً إلى المناطق الجنوبية ، حيث التقى بالملك ، وانطلقا معاً يؤمان كانتربري، وفي اليوم نفسه اجتمع حشد عظيم في كنيسة رئاسة أساقفة كانتربري، وقام رئيس رهبان كانتربري فأعلن بحضور الملك ، وبشكل عام إلى الجميع عن انتخاب جون دي غري GRAI ، أسقف نوريك، ثم قام الرهبان باصطحابه ، وحملوه إلى المذبح الكبير وهم ينشدون «TE DEOM» وفي الأخير وضعوه على كرسي رئيس الأساقفة ، وبعد هذا الاحتفال وضع الملك في حوزة رئيس الأساقفة المنتخب جميع الممتلكات العائدة إلى رئاسة الأسقفية، وعاد الجميع إلى مساكنهم ، وبهذا عمل هذا الانتخاب نوعاً جديداً من الخطيئة الأولى، كما سوف تظهر النتيجة بشكل واضح.

الخلاف بين الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتربري وبين رهبان ذلك المكان نفسه حول اختيار رئيس للأساقفة

عام ١٢٠٦م ، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد في اكسفورد ،

وأرسل في الوقت نفسه بعض رهبان كنيسة كانتربري ، وكان بينهم بشكل خاص المعلم ايحاز دي برانتفيلد -EHAS DE BRANT FIELD أرسلهم إلى بلاط روما ، وزودهم بهدايا كبيرة من الخزانة الملكية من أجل الحصول من مولانا البابا على تثبيت لانتخاب جون أسقف نورويك، وأرسل أيضاً في الوقت نفسه بعض الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري وكلاء إلى روما لتقديم شكوى جادة أمام مولانا البابا، فحواها بأن رهبان كانتربري قد تهوروا بالقيام بانتخاب رئيس للأساقفة من دونهم، مع أنهم -وفقا للحق العام، والعادات القديمة - كان من المتوجب حضورهم الانتخاب مع الرهبان، وعرض الوكلاء أيضاً مراسيم وأمثلة حول القضايا المتقدمة، وجلبوا بعض الشهود، وقدموا بعض الشهادات، وبذلك حاولوا اظهار أنهم -أي الأساقفة المساعدين- قد اختاروا ثلاثة رؤساء أساقفة بالتعاون مع الرهبان، وفي المقابل، وعلى عكسهم، أكد الرهبان، أنهم بوساطة امتياز خاص من الحبر الروماني، وأنهم أيضا بوساطة عادة قديمة مجازة، قد اعتادوا على القيام بالانتخاب من دون الأساقفة، ووعدوا بالبرهنة على ذلك بوساطة شهود مناسبين، وبعد الفراغ من الاستماع إلى مرافعات الطرفين، وتقديم الشهود، وفحصهم بكل دقة، تقرر الحادي والعشرين من كانون الأول من قبل مولانا البابا من أجل اعلان الحكم بين الفريقين، وقد جاءوا لِسماع الشرعة التي تقررت.

كيف عبر الملك جون إلى بواتو
واستولى بالقوة على قلعة مونتأوبان

وفي أيام عيد العنصرة من العام نفسه، حشد الملك جون جيشاً كبيراً في بورتماوث، وركب ظهرالسفينة في الخامس والعشرين من حزيران، ونزل في التاسع من تموز في روشيل ROCHELLE ولدى سماع السكان بهذه الأقاليم بذلك طاروا فرحاً، والتحقوا سريعاً بالملك

وأعطوه وعوداً مؤكدة بالمال والمساعدة ، ثم انه زحف بعد ذلك متقدماً مع ثقـة أكبر، وأخضع شطراً كبيراً من تلك المنطقـة ، ووصل أخيراً إلى قلعـة مـونتـأوبان الفخمـة MONTAUBANالتي كـان فيهـــا جميع النبـلاء الأشـداء في تلك المنطقـة، وبشكل خـاص أعـداءه الشخصين، فهناك اتخذوا موقف الدفاع ، وقـام هو على الفور بنصب مجانيقه حولها، وبعد مضي خمسة عشر يوماً دمر شطراً كبيراً من القلعة بالرمي المتواصل للمجانيق والنشاب من القسي العقـارة والسهام، وتسلق الجنود الانكليز الذين كـانوا مشهـورين بهذا النـوع من فن الحرب، الأسـوار، وتبـادلوا ضربات مميتـة مع أعـدائهم، وبعـد مضي بعض الوقت سيطر الانكليـز، وسقطت الحامية وتم الاستيلاء على قلعة مونتأوبان الحصينة، وهي قلعة لم يستطع شـارلمان —فيما مضى —اخضـاعهـا بعد حصـار استمـرسبع سنوات، وأسماء النبلاء والرجـال المشهورين الذين استـولوا على القلعة بخيــولهم، وأسلحتهم، ونهبــوها، أكثـر مـن أن تحصى، وذكــر الملك الانكليزي في رسالـة له فيما بعد إلى رجال العدالة، والأسـاقفة، والنبلاء الآخـــرين في انكلترا، انه تم الاستيــلاء على القلعـــة في يوم القـــديس بطرس«في الأغلال» (١ —آب).

النيابة الرسولية لجون أوف فيرنتنو في انكلترا

قـدم في العـام نفسـه جـون أوف فيرنتنو FERENTINO ،نائب الكرسي الرسـولي، إلى انكلترا، وارتحل خــلالها فجمع مبلغـاً كبيراً من المال، وعقد أخيراً بعد يوم عيد القـديس لوقا الانجيلي، مؤتمراً في ردنغ، ومن ثم سـافر بعـده مسرعاً، فحـزم حقـائبه، وأخـذ طريقه إلى سـاحل البحر، حيث قال وداعاً لانكلترا.

وفي تلك الآونة أيضاً توسط بعض رجال الدين من مختلف البلدان ، ونشطوا بحماس بين الملكين، وحصلوا في يوم عيـد جميع القـديسين على وعـد منهما بالحفاظ على هدنة لمدة عـامين، ولذلك عاد الملك جـون إلى

انكلترا، ونزل في بورتماوث في الثاني عشر من كانون الأول، وفي عشية يوم الصعود من هذا العام نفسه، غادر هذه الحياة وليم أسقف لنكولن، وفي هذا العام تسلم جوسلين أوف ويلز، الذي انتخب أسقفاً لباث، من خلال وكالة وليم أسقف لندن ، المباركة.

القرار النهائي للبابا انوسنت فيما يتعلق برهبان كنيسة كانتربري

وفي تلك الآنة أرسل البابا انوسنت قراره النهائي إلى الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري، وكان فحواه كما يلي:«أحيلت إلينا مسألة سلطة الكنيسة والعادات المجازة، من أجل ان يكون البت في القضايا الكبرى في المسائل الكنسية من قبل الكرسي الرسولي، وبما انه قد ثار خلاف بينكم وبين أولادنا المحبوبين رئيس رهبان ورهبان كنيسة كانتربري، فيما يتعلق بحق اختيار رئيس الأساقفة ، فلقد ذكرتم انه ليس فقط بوساطة الحق العام، بل أيضاً بالعادة القديمة، عليكم عمل الانتخاب لرئيس الأساقفة بالتعاون معهم، وفي المقابل هم أجابوا انه بوساطة الحق العام، والامتياز الخاص، وكذلك بوساطة العادات المجازة، لهم الحق بانتخاب رئيس الأساقفة من دونكم، ولدى مناقشة القضية الخلافية بشكل قانوني أمامنا من قبل وكلاء صحيحين، استمعنا بعناية لما قاله الفريقان، ولما عرضاه أمام حضرتنا، فقد عرض فريقكم كل من مراسيم وأمثلة، وقدموا أيضاً بعض الشهود ، وأظهرتم بعض الشهادات، التي حاولتم من خلالها ان تبرهنوا انكم اخترتم ثلاثة رؤساء أساقفة بالتعاون معهم، في حين تبرهن بوساطة رسائل وشهادات أخرى أنكم توليتم في مكان آخر ووقت آخر القيام بانتخابات من هذا النوع من دونهم، هذا وتبرهن بشكل قانوني بوساطة الشهود الذين تقدموا لصالح الرهبان، بأن رئيس الرهبان مع الرهبان في كنيسة كانتربري، قد انتخبوا منذ وقت طويل وإلى الآن رؤساء أساقفة في بيت هيئة كهنتهم من دونكم ، وأنهم حصلوا على تثبيت لهذه

الانتخابات من الكرسي الرسولي، هذا وجرى التدوين من قبلنا ومن قبل أسلافنا في كتاب امتيازاتنا ، انه لدى وفاة رئيس أساقفة لكانتربري، لايجوز تعيين واحد مكانه بالغش أو بالقوة، بل يجري اختيار واحد من قبل غالبية الرهبان ذوي الحكم الصحيح بالرب، وفقاً لبنود القانون المقدس الذي يقرر أمور الانتخاب، وبناء عليه، بعدما سمعنا وفهمنا بوضوح جميع الذي عرض علينا ، وبما أنه من الواضح من خلال تأكيداتكم أنه لايجوز لكم القيام بانتخاب من دونهم ، وأنه عندما كان يجري انتخاب حرم الرهبان من المشاركة فيه، كان الانتخاب غير صحيح، وأيضاً انتخاباً قد عمل من قبل الرهبان من دونكم، عدّ جديراً وصحيحاً ، ولذلك جرى تثبيته من قبل الكرسي الرسولي، وعدّ قانونياً، وانه في كلتا الحالتين توجب بحكم الضرورة تثبيته، نقوم نحن بموجب نصيحة إخواننا فنفرض صمتاً دائماً عليكم بالنسبة لحق انتخاب رئيس أساقفة ، ونحرر بقرارنا الواضح هذا والمحدد، رهبان كانتربري من أي هجوم أو ازعاج من قبلكم ومن قبل خلفائكم، ونرسم أيضاً بموجب سلطاتنا الرسولية بأن يتولى رهبان كنيسة كانتربري وخلفائهم في المستقبل انتخاب رئيس الأساقفة من دونكم، صدر في كنيسة القديس بطرس، في روما ، في اليوم الحادي والعشرين من كانون الأول ، في السنة التاسعة من حبريتنا».

رؤيا تتعلق بمطهرة وبعقوبة الأشرار وبمجد المباركين

في هذا العام انشغل احد الناس، وكان بسيطاً بطبائعه، وكريماً بقدر ما سمحت له امكاناته المتواضعة وكان يعيش في بلدة اسمها تونستد TUNSTED (هي ربما توينسد TUINSTED في اسكس) تابعة لأسقفية لندن، انشغل بعد ساعة الصلاة المسائية، في أمسية يوم الرسولين: القديس سمعان، والقديس جود، في سقاية حقله الذي كان قد بذره في ذلك اليوم، وكان عندما رفع عينيه، رأى رجلاً مسرعاً نحوه

من مسافة ، وبعدما نظر إليه بدأ بالصلاة الربانية، وعندما وصل الغريب إليه، سأله أن ينهي صلاته، وأن يتحدث إليه، وتبعاً لذلك ، ما ان أنهى صلاته حتى تبادلا التحيات، وبعد هذا سأله الرجل الذي جاء إليه،. أين يمكنه ان يجد في الجوار مكاناً يكون مناسباً للاقامة لليلة واحدة، وعندما أطرى الرجل المسؤول كرم الضيافة عند جيرانه، وجد السائل عيباً في كرم الضيافة عند بعض الذين ورد ذكرهم، وفهم العامل وقتها بأن الغريب كان يعرف جيرانه، فسأله برغبة شديدة ، بأن يقبل الاقامة معه، وبناء عليه قال الغريب :«لقد استقبلت زوجتك امرأتين فقيرتين للاقامة معها ، وأنا أيضاً سوف اتحول إلى بيتك من أجل هذه الليلة ، حتى أتمكن من اقتيادك إلى مولاك، أي إلى القديس جيمس ، الذي إليه — حتى في الوقت الحالي — قد صليت بخشوع، لأنني أنا جوليان المضيف، ولقد أرسلت من أجلك، لأكشف لك بوساطة الوسائل اللاهوتية ، بعض الأشياء المخفية عن الناس في الأجساد، ولذلك اذهب إلى بيتك، واسع إلى تجهيز نفسك من أجل رحلة، وبعد ما فرغ الرجل من هذه الكلمات ، أي الذي كان يتحدث معه، اختفى من البقعة، وبادر العامل الذي كان اسمه تورشيل TURCHILL عائداً بسرعة إلى البيت ، وغسل رأسه وقدميه، ووجد امرأتين ضيفتين هناك، حسبما كان القديس جوليان قد أخبره من قبل، وألقى بعد ذلك بنفسه على الفراش الذي كان قد أعده في بيته بعيداً عن زوجته، من أجل كبح نفسه عن الشهوة الجنسية، ونام خارج الغرفة ، وما أن بات جميع أفراد البيت نائمين، حتى أيقظ القديس جوليان الرجل ، وقال «ها أنا ذا، حسب وعدي ، انه الوقت لنذهب معاً ، ودع جسدك يرتاح على الفراش ، حيث انها روحك فقط هي التي سوف تذهب معي، ولكي لا يظهر جسدك انه جسد ميت، سوف أنفخ فيه نفس الحياة»، وبهذه الوسيلة غادرا معاً البيت، القديس جوليان يشق الطريق ، وتورشيل يتبعه.

كيف أخذ الرجل بعد ماتحرر من الجسد إلى كنيسة كان فيها اجتماع للأرواح

وبعـدما ارتحلا إلى منتصف العـالم، وذلك حسب قـول دليل الرجل، واتجها نحو الشرق، دخلا إلى كنيسة ذات بناء رائع، كان سقفها مسنوداً بثلاثة أعمدة فقط، وكانت الكنيسة كبيرة وواسعة، لكن من دون تجزئة، وكلها على شكل قبـة واحدة، مثل قلاية راهب، وكـان هناك على الجهة الشمالية جدار، ارتفاعه ليس أكثر من ستة أقدام، وكان متصلاً بالكنيسة القائمة فوق ثلاثة أعمدة، وكان في وسط الكنيسة مكاناً واسعاً للتعميد، منه كـان يصدر لهبـاً كبيراً، ليس محرقاً، لكنه كـان يضيء الكنيسة كلهـا دونما توقف، وذلك مع الأماكن المحيطة بها، مثل شمس الهاجرة، وكان هذا الضـوء صـادراً -كما أخبره القـديس جـوليـان -عن العشـارين المستقيمين، وعندمـا دخلا إلى القـاعة، استقبلهما القـديس جيمس، وهو يرتدي قلنسـوة كـاهن، ولدى رؤيتـه الزائـر الذي أرسـل خلفـه، أمـر القـديس جوليـان، والقـديس دومنينوس Domninus ، اللذان كانا يتـوليان حـراسة المكان، أن يريا زائـره أمـاكن عقوبة الأشرار، وكـذلك بيوت الأخيـار، وبعدمـا قال هذا مـرّ عابراً، ثـم أخبر القديس جـوليان رفيقه بأن تلك الكنيسـة كانت المكان المعـدّ لاستقبال أرواح جميع الذين توفـوا مـؤخـراً إلى أن يمكن أن تعين لهم أمـاكن الاقـامـة، والمواضع وكذلك الادانة أو النجاة بوساطة كفارة المطهرة، التي هي مقررة لهم من قبل الرب، وصمم هذا المكان، من خلال وساطة مريم العذراء المجيدة، بشكل رحيم، لكي يمكن لجميع الأرواح التي ولدت مجدداً بالمسيح، أن تجتمع هناك، فـور مغـادرتها لـلأجسـاد، وهي متحـررة من هجمات الشيـاطين، ولكـي تتلقى الحكم وفقـاً لأعمالها، ولقـد رأيت في هذه الكنيسة التي اسمها «مجمع الأرواح»، كثيراً من أرواح المستقيمين، وهي كلها بيضاء، مع وجوه شباب، وبعدما أخذت إلى ماوراء الجدار الشمالي،

رأيت عدداً كبيراً من الأرواح، واقفة قرب الجدار، معلمة ببقع سوداء وبيضاء، وكان بعض هذه الأرواح بياضها أكثر من السواد، وأرواح أخرى كانت على عكس ذلك، وقد مكث الذين كانوا أكثر بياضاً باللون أقرب إلى الجدار، والذين وقفوا في الأماكن القصوى لم يمتلكوا مظهر بياض من حولهم، وظهروا وهم مشوهين في كل جزء.

العشارون الظالمون

على مقربة من الجدار كانت هناك بؤرة الجحيم، التي كان يصعد منها دخان من دون توقف، وهو دخان نتن جداً وله رائحة مقيتة، خلال الكهوف المحيطة، والقائمة في وجه الذين وقفوا هناك وكان هذا الدخان يصدر عن العشارين الظالمين المحبوسين، وعن جثث العشارين الظالمين، وكانت النتانة تسبب آلاماً لامثيل لها للذين كانوا مدانين بهذه الجريمة، وبناء عليه، بعدما شمّ الرجل هذه النتانة مرتين، انضغط عليه بها، حتى أنه أرغم على أن يسعل مرتين، وأعلن الذين وقفوا حول جسده، بأن جسده قد سعل في الوقت نفسه مرتين، وعندها قال له القديس جوليان: «يبدو أنك لم تعشر محصولك بشكل صحيح، ولهذا شممت هذه النتانة»، ولدى تسويغه عمله بسبب فقره، أخبره القديس بأن حقله سوف ينتج وفرة أكبر من المحاصيل، إذا مادفع العشر بشكل صحيح، وأخبره الرجل المقدس، أن عليه الاعتراف بهذه الجريمة في الكنيسة بشكل مكشوف إلى الجميع، وأن يطلب التحليل من الكاهن.

نار المطهرة والبحيرة والجسر، والكنيسة القائمة على جبل البهجة

وكان على الجانب الشرقي لتلك الكنيسة نار مطهرة كبيرة جداً، موضوعة بين جدارين، وكان أول هذين الجدارين قائماً في الجانب الشمالي، وكان الآخر قائماً في الجنوب، وكانا مفصولين عن بعضهما

بفسحة واسعة، امتدت طويلاً بالعرض على الجانب الشرقي، إلى بحيرة واسعة جداً، كان فيها يجري تعميد أرواح الذين كانوا يمرون خلال نار المطهرة، وكانت مياه البحيرة مالحة بشكل لامثيل له، وكذلك باردة، كما تبرهن فيها بعد إلى الرجل، وكان يوجد فوق هذه البحيرة جسر واسع جداً، مزروع كله بالشوك والحسك، وكان كل واحد مرغماً على المرور فوقه قبل أن يتمكن من الوصول إلى جبل البهجة، وكان مبنياً فوق هذا الجبل كنيسة كبيرة، ذات بناء رائع، كان واسعاً بما فيه الكفاية -كما بدت للرجل -لاستيعاب جميع سكان العالم، ثم اقتاده جوليان المبارك دون أن يجرح، خلال النار المتقدمة الذكر، وفوق البحيرة الآنفة الذكر، ومن ثم سار الاثنان مع بعضهما على الطريق الذي قاد من الكنيسة، خلال وسط اللهب، ولم تكن هناك مواد خشبية لإمداد تلك النار بالوقود، بل كان هناك نوعاً من اللهب، مرتفعاً، يشبه مايشاهد في أتون محمى بشكل كثيف، وكان اللهب موزعاً على جميع تلك الفسحة، وقد التهم الأرواح السوداء والمرقطة لمدة قصيرة أو طويلة، وذلك حسب درجات الجرائم، ونزلت الأرواح التي خرجت من تلك النار إلى تلك البحيرة المالحة والباردة، وذلك بناء على أوامر نيقولا المبارك، الذي ترأس على تلك المطهرة، وغمر بعض هؤلاء حتى مافوق الرأس، وبعضهم حتى الرقبة، وبعضهم الآخر حتى الصدر والذراعين،وبعضهم حتى السرة، وآخرون حتى الركب، ولم تصل المياه بالنسبة لآخرين حتى موطىء أقدامهم، والذي بقي بعد البحيرة هو اجتياز الجسر، الذي قام على الجانب الغربي للكنيسة، ومن أمام هذه الكنيسة عبرت بعض الأرواح بشكل ممل كثيراً وبطيئاً، وعبرت أرواح أخرى بشكل أكثر سهولة وسرعة، وعبرت أيضاً أرواح أخرى كما أرادت وبسرعة، دون أن تواجه أي تأخير أو مشاكل أثناء العبور، ذلك أن بعضهم مضى خلال البحيرة بطيئاً جداً، حتى أنهم مكثوا سنوات كثيرة، وسار الذين لم يتلقوا المساعدة من أي من القداسات الخاصة، أوالذين لم يسعوا أثناء حياتهم، للتخلص من

ذنوبهم بأعمال الصدقة تجاه الفقراء، ولدى وصول هؤلاء — أنا أقول — الى الجسر المتقدم الذكر، ومن ثم رغبتهم بالعبور فوقه الى المكان المخصص لهم للراحة ، ساروا بشكل موجع، بأقدام حافية، وسط الحسك الحاد والأشواك التي كانت قائمة فوق الجسر وكانوا عندما يصبحون غير قادرين على تحمل آلام الوجع الحاد، يضعون أيديهم على عصي حادة لتثبيت أنفسهم، ومنعها من السقوط، ووقتها عندما تنخرق أيديهم، كانوا يتدحرجون وهم يتألمون كثيراً ويعانون على بطونهم، وأجسادهم كلها فوق العصي الحادة، وذلك إلى أن يتمكنوا، من الزحف على النهاية القصوى للجسر، وهم ينزفون بشكل مرعب، وكلهم قد خرقت أجسادهم من كل طرف، إنما عندما يصلون الى قاعة الكنيسة المتقدم ذكرها، يحصلون هناك على مدخل سعيد ويتذكرون قليلا عذابهم الشديد.

كيف تولى القديس ميكائيل مع الرسولين بطرس وبولص توزيع الأرواح على الأماكن التي خصصت لها من قبل الرب

ثم بعد رؤية هذه الأشياء كلها عاد القديس جوليان والرجل من خلال وسط اللهب الى كنيسة القديسة مريم، ووقفا هناك مع الأرواح البيضاء التي وصلت مؤخراً ، وكانت هذه الأرواح مرشوشة بالماء المقدس من قبل القديس جيمس، والقديس دومنينوس، في سبيل أن يصبحوا أكثر بياضا ، وهنا مع أول ضوء يوم السبت ، جاء القديس ميكائيل رئيس الملائكة مع الرسوليين : بطرس وبولص ، لتوزيع الأرواح التي تجمعت في داخل الكنيسة وفي خارجها ، على الأماكن التي خصصت لهم من قبل الرب، وفقاً لما يستحقونه، لأن القديس ميكائيل أعطى الى الأرواح البيضاء أماناً بالمرور خلال وسط لهب المطهرة ومن خلال أماكن التعذيب

الأخرى حتى مدخل الكنيسة الكبرى التي بنيت على جبل البهجة، مع باب على الجانب الغربي مفتوح دوماً، أما بالنسبة للأرواح المدموغة ببقع سوداء وبيضاء ،والتي كانت جالسة خارج القاعة على الجانب الشمالي فقد جلبت من دون مناقشة حول أعمالها ، من قبل القديس بطرس، وأدخلت من خلال الباب القائم على الجهة الشرقية، الى نار المطهرة، حتى يتمكنوا أن يتطهروا بوساطة اللهب الثائر من وصمات ذنوبهم.

وزن الخير والشر

وجلس بطرس المبارك أيضاً في داخل الكنيسة عند نهاية الجدار الشمالي، وجلس في الجهة المقابلة للرسول الشيطان مع زبانيته، واللهب الكريه الرائحة ، الذي كان ينقذف من فم بؤرة الجحيم ، كان قريباً من قدمي الشيطان ، وكان مثبتاً على الجدار بين الرسول والشيطان ميزاناً معلقاً بشكل متوازن، وكان وسطه معلقاً في الخارج أمام الشيطان، وكان لدى الرسول وزنتين واحدة كبيرة ، وأخرى صغيرة ، وكانت الوزنة الأولى تشع مثل الذهب، وكان لدى الشيطان أيضاً وزنتين، الأولى سخامية، والثانية سوداء ثم اقتربت الأرواح السوداء وقدمت من جميع الاتجاهات، وهي في حالة خوف عظيم وارتجاف ،واقتربوا روحاً بعد أخرى في محاولة لوزن أعمالهم،أخيراً هي أم شراً، لأن الميزان المذكور يزن الأعمال العائدة لكل روح من الأرواح، وفقاً للخير أو للشر الذي فعله، وبناء عليه عندما كان الميزان يميل بنفسه نحو الرسول كان الرسول يأخذ ذلك الروح ، ويضعه من خلال الباب الشرقي المتصل بالكنيسة ، في النار المطهرة، فهناك يكفر عن شروره، لكن عندما كان الميزان يميل ويرجح نحو الشيطان وزبانيته، يسرع ذلك الروح ويبتعد. وهو يولول ويلعن الأم والأب، لأنهما أنجبا صاحبه، ويمضي نحو العذاب

السرمـــدي ، ويـرمى وسط أنين عظيـم في الأتون العميق والمتأجج بالنيران، الذي كـان عند قـدمـي الشيطان الذي كـان يتـولى الوزن، وغالباً ما ورد ذكـر وزن الخير والشر وفق هذه الطريقة في كتابات الآباء المقدسين.

حول أحد الأرواح الذي حوله الشيطان الى شكل فرس

وفي يوم السبت قرب ساعة المساء وعندما كان القديس دومنينوس والقديس جوليـان في الكنيسة المتقدم ذكرها، جـاء من الجهة الشمالية أحد الشيـاطين وهو على ظهر حصان أسـود وهو يجري بكل سرعة، وكـــان يحثـه خـــلال منعطفـــات المكان، وذلك وسـط كثير من الضجـة،وذهـب عـدد كبير من الأرواح الشريرة لاستقبـــاله، وهم يرقصون هناك ويزمجر أحدهم نحـو الآخر حول الصيد الذي جلب اليهم، وعندها أمـر القديس دومنينوس الشيطان الذي كـان ممتطياً للحصان، أن يقدم اليه مباشرة، وليخبره روح من الذي جلبه، ولكن الشيطان تمهـل كثيراً بسبب السرور العظيم الذي كــــان يتمتـع به فوق ذلك الروح التعيس، فتناول القديس على الفور سوطاً ، وجلد به بحـدة الشيطان، وبناء عليـه لحق بالقـديس إلى الجدار الشمالي، حيث وقف ميـزان الارواح، ثم سأل القديس الشيطان عن اسم صـاحب الروح الذي كـان يعـذبه على هذا الشكل بركـوبه له هكذا ، فأجـابه الشيطان قائلاً :« انه روح واحد من نبلاء مملكة انكلترا، قد مات في الليلة المتقدمـة من دون اعتراف ، ومن دون المشاركـة بتناول جسد الرب ، وكان بين الأخطاء التي اقترفها، وأعظمهـا جريمة، وحشيته نحو رجاله، الذين أنزل كثيراً منهم الى حالة العوز، وقد فعل ذلك، بشكل رئيسي بناء على تحريض زوجته ، التي دفعتـه دوماً نحو الأعمال الوحشيـة ، ولقـد مسختـه الى حصـان لأنه مسمـوح لنا تحويل أرواح المدانين الى أي شكل نرغب به، ولسـوف أقوم على الفـور بالنزول

معه الى جهنم ، وسوف أحوله نحو العذاب الأبدي، اذا لم تحل الآن ليلة الأحد، عندما تتوقف وظائفنا عن المباريات المسرحية ، وأن نوقع المزيد من العذاب الشديد على الأرواح البائسة »، وبعدما تفوه بهذه الكلمات، وجه نظره نحو الرجل، وقال للقديس :« من هو هذا الفلاح الواقف معك»؟وقد أجابه على سؤاله قائلاً «أولم تعرفه»؟ ووقتها أجابه الشيطان قائلاً: «لقد رأيته في كنيسة تيدستود Tidstude في اسكس في يوم عيد تكريسها»،ثم سأله القديس:«في أي ثوب دخلت الى الكنيسة »؟ فأجابه: «في ثوب امرأة ، لكن عندما تقدمت نحو جرن المعمودية عازماً على الدخول الى الهيكل، تصدى لي الشماس بمرشة الماء المقدس ، ورشني بها ، فجعلني أهرب بإندفاع شديد، وصرخت صوتاً عالياً وقفزت من الكنيسة حتى حقل وقع على مسافة فرسخين » وبين الرجل مع آخرين من أهل الأبرشية ، وشهدوا على الواقعة نفسها ، وأعلنوا أنهم سمعوا تلك الصرخة، وكانوا يجهلون تمامًا سببها .

المباريات المسرحية للشياطين

وقال بعد هذا القديس دومنينوس للشيطان :« نحن نرغب بالذهاب معكم لمشاهدة مبارياتكم». فأجابه الشيطان :« إذا ما رغبت بالذهاب معي ، فلا تجلب هذا العامل معك، لأنه سوف يقوم عند عودته الى بني جلدته من الفانين بإفشاء خبر أعمالنا مع الأنواع السرية من عذابنا، الى الأحياء، وسوف يكسب الكثير ويمنعهم من خدمتنا»، فقال القديس له:« سر مسرعاً وتقدم نحو الأمام وسوف أقوم أنا والقديس جوليان باتباعك » وبناء عليه سار الشيطان في الأمام، وتبعه القديسان، وأخذا الرجل معهما خلسة،.ثم إنهم مضوا في سيرهم نحو المنطقة الشمالية، وكأنهم كانوا يصعدون جبلاً وكان هناك بيتاً واسعاً جداً وله مظهر مظلم، تحيط به أسوار قديمة، وكان

فيه كثيراً من الأزقة(plateae) كانت ممتلئة من جميع الجهات بأعداد لا تحصى من المقاعد الحديدية المحماة، وكانت هذه المقاعد مبنية مع أطر حديدية تتقد اشتعالاً الى حد باتت فيه بيضاء لشدة الحرارة، وكانت هنالك مسامير مدفوعة فيها في كل طرف، من تحت ومن فوق ، ومن على اليمين وعلى اليسار، وعليهم جلست مخلوقات متنوعة الأوضاع والجنس، وكان هؤلاء مخروقين بالمسامير المحماة من جميع جهات أجسادهم، وكانوا مربوطين من كل جانب بأطر نارية، وكان هناك عدداً كبيراً جداً من هذه المقاعد، ومثل ذلك من حشود الناس الجالسين فوقهم، الى حد أن ما من لسان يمكن أن يكون قادراً على تعدادهم، وكان هنالك حول تلك الساحات جدرانا حديدية سوداء،وكان الى جوار تلك الجدران مقاعد أخرى، عليها جلس الشياطين على شكل دائرة، وكأنهم كانوا يتمتعون بمشاهدة منظرمفرح،وكل واحد يزمجز نحو الآخر بسبب عذابات المخلوقات البائسة، وكانوا يذكرونهم بجرائمهم المتقدمة ، وكان على مقربة من ذلك المشهد المقيت ، ولدى النزول من الجبال هناك — كما قلنا — جدار ارتفاعه خمسة أقدام ، منه من الممكن الرؤية بوضوح الذي يصنع دوما في مكان العذاب ذاك ، ثم انه وقف القديسان المتقدم ذكرهما قرب الجدار في الخارج، وأخذا يشاهدان الذي كانت تعاني منه المخلوقات البائسة في الداخل، وكان الرجل متخفياً بينهما، وقد شاهد ما كان يحدث في الداخل.

رجل متشامخ وعذابه

وعندما جلس خدم النار يشاهدون هذا المشهد المعيب،قال رئيس ذلك الحشد الشرير الى زبانيته:« اسحبوا الرجل المتشامخ من مقعده بعنف ودعوه يمثل أمامنا»، وبعدما سحب من مقعده وألبس ثوباً أسود، قام بحضور الشياطين الذين صفقوا له بالدور، فقلد

جميع حركات رجل متكبر متشامخ بلا حدود ، فكان يمد رقبته ، ويرفع وجهه، ويحدق بعينيه مع جبين مقطب ، ويزمجر عالياً بكلمات متعجرفة ، ويحرك كتفيه، وبصعوبة بالغة يحمل ذراعيه لتشامخه، وأما عيناه فكانتا تبرقان، لإعطاء نظرة تهديد ومظهراً مخيفاً، وكان ينهض على رؤوس أصابعه، ويجلس برجلين متشابكتين، يتنفس الصعداء، ويمد رقبته ويجعل وجهه مربداً، مظهراً علامات الغضب بعينين تقدحان ناراً ، وكان يضرب أنفه باصبعه، معطياً انطباعاً بتهديدات كبيرة وهكذا تورم وانتفخ بتكبر داخلي، وشكل بذلك موضوعا للضحك بالنسبة للأرواح اللابشرية ، وعندما كان يتفاخر متكبراً عارضاً لملابسه، وأثناء ربطه لقفازيه، تحولت ملابسه فجأة الى نار،أتلفت جميع جسد ذلك المخلوق البائس، وقام الشياطين أخيراً، وهم مشتعلون غضباً بتمزيق أطراف ذلك البائس طرفاً طرفاً بمخالب وكلاليب حديدية، وقام أحدهم بوضع دهن مع زفت ومواد دهنية أخرى في مقلاة حامية جداً، وأخذ يقلي كل واحد من الأعضاء، عند انتزاعه ، في ذلك الدهن الذي كان يغلي وفي كل مرة كان الشيطان يرش عليهم الدهن، كان يصدر من الأعضاء فحيحاً يشبه الصوت الذي يتسببه صب الماء البارد على الدم الذي يغلي، وبعد قلي الأعضاء هكذا، كانوا يتحدثون ثانية ويعود ذلك الرجل المتكبر الى شكله السالف ، ثم انه اقترب من ذلك الرجل البائس حملة المطارق الجهنمية مع مطارق، وثلاثة قضبان حديدية محماة لونها لذلك أحمر، وهي مطروقة مع بعضها وفق تريب ثلاثي ، ثم انهم وضعوا قضيبين عند ظهر جسده ، واحد الى اليمين وآخر الى اليسار، ثم قاموا بوحشية بدفع المسارين الحاميين في داخله بوساطة الطرق بمطارقهم، وكانت بداية هذين القضيبين عند قدميه، وقد خرقا صعوداً فخديه وحقويه حتى الكتفين، ثم لويا حول رقبته، أما القضيب الثالث فكانت بدايته عند وسطه، حيث مرّ بأمعائه، ووصل حتى أعلى

رأسه وبعد ما جرى تعذيب هذا البائس لوقت طويل، وفق الطريقة الموصوفة أعلاه، غرس بدون رحمة ، ثانية على كرسيه السالف، وعندما أجلس هناك، جرى تعذيبه من جميع الجهات بوساطة أظافر محماة حتى الاحتراق وبأصابعه الخمسة الممدودة، ثم انتزع بعد هذا من مكان التعذيب هذا ووضع في مقر الاقامة الذي عمله لنفسه عندما كان حياً لينتظر المزيد من العذاب.

حول أحد الكهنة

ثم جرى سحب كاهن بعنف من مقعده الناري للاستهزاء به، وأجلس أمامه هؤلاء العفاريت اللابشرية، من قبل خدم الذنوب، حيث قاموا بعد ذلك بقطع حلقومه من وسطه، وسحبوا لسانه وقطعوه من جذره ولم يقم هذا الكاهن — لدى تمكنه — بسداد ديون الناس الذين عهد اليه بأمر العناية بسلعهم الدنيوية، حيث أخذها منهم، لا بوساطة الإثارة الدينية ، ولابمثال الأعمال الطيبة، ولم يمنحهم التأييد بالصلوات أو بالقداسات ، وبعد ما — كما حكينا عما حدث للرجل المتكبر — مزقوا أطرافه طرفاً طرفاً، ثم أعادوه كما هو ، وأجلسوه في كرسي التعذيب .

حول أحد الجنود

وجلب بعده، ودفع نحو الأمام، أحد الجنود ، الذي كان قد أمضى حياته في قتل الناس الأبرياء في المبارزات والسرقات، وقد جلس على ظهر حصان أسود ، وبرفقته جميع أسلحته الحربية، وكان عندما يحث الحصان بالمهماز كان يقذف نحو الأمام لهباً من القار مع نتانة ودخان من أجل تعذيب ممتطيه وكان سرج الحصان مثقباً من جميع الجهات بمسامير نارية طويلة ، وكان الدرع والخوذة والترس والحذاء جميعاً مغلفين باللهب وكان الراكب مثقلاً جداً بحملهم

بسبب وزنهم، وكـانوا في الوقت نفسـه يحرقونه حتى العظام بعـذاب هائل، وبعـدمـا قـام تقليداً لعـاداته الماضيـة في الحرب، حث حصـانه ليركض بأقصى سرعـة وهـز رمحه ضـد الشيطان الذي تصـدى له، وأجبره على الترجل، ثم انه أنزل مـن على ظهـر حصـانه ، ومـزق الى قطع ، وقليت أطرافـه في السـائل المذكـور أعلاه ، وبعـد قلي أطرافـه أعيدت ولصقت ثـانية بالطريقة نفسهـا مثل الذين تقدمـوا قبله، ثم ربط بوسـاطة ثلاثة أوتاد، وعندما أعيـد الى ما كـان عليه غـرس بعنف في مقعده.

حول أحد المرافعين

وبعـد الجندي، جـرى سحب رجل كـان بـارعـاً جـداً بالقـانون الدنيوي، وشـد نحو الأمام الى الوسط مع عذاب شـديد ، جلبه على نفسـه من خلال سبيل شرير طويل نهجـه في الحياة ، ولقبـوله الهدايا من أجل منع القضـاء والحكم، وكـان هـذا الرجل معـروفـاً جـداً في المقـاطعات الانكليـزية، بين أوسـاط المراتب العليا، لكنه أنهى حيـاته بشكل بائس في السنة التي شـوهـدت بها هذه الرؤيا، ذلك أنه مـات بشكل مفـاجىء من دون عمل أية وصية، وجميع الثـروة التي كان قـد جمعهـا بجشعه الشرير ، قـد حرم منهـا كلياً ، وأنفقت من قبل غـرباء عنه، وكان قد اعتـاد على الجلوس في خزانة الملك، حيث غالبـاً ما كان يتلقى الهدايا من الفـرقاء المتخـاصمين، وأيضـاً بعدمـا جرى جـره نحو الأمام من أجل السخـرية منه، وذلك بحضور الأرواح الشريرة، أرغم بشكل مهين من قبل العفاريت على تقليـد أعمال حياته الماضية حيث كان يدير نفسه ساعة نحـو اليمين ثم ساعة أخرى نحو اليسار، ليعلم الفريق الأول كيف يعرض قضيته ، ثم ليعلم الفريق الثاني كيف يرد عليـه، وأثناء عمله هذا لم يتمنـع عن قبـول الهدايا، بل تقبل المال من فريق أول حيناً ، ثم من الفريق الثاني حيناً آخر ، وبعد عدّه لها

وضعها في جيوبه، وبعدما شاهد الشياطين لوقت طويل حركات هذا الرجل التعيس، صارت الأموال فجأة حامية، وأحرقت الرجل البائس بطريقة ليس فيها مرحمة، وقد أرغم على وضع قطع النقود في فمه، مع أنهم كانوا يحرقونه، ثم أرغم بعد ذلك على ابتلاعهم، وبعد ابتلاعه لهم قدم اليه إثنان من الشياطين مع عربة ذات دواليب حديدية، كلها مزروعة بأوتاد ومسامير، ووضعوها على ظهر المذنب، ودوروها في جميع الاتجاهات، وبذلك مزقوا ظهره كله بحركتها العنيفة المحرقة والسريعة وأرغموه على التقيؤ بالأموال التي ابتلعها وسط عذاب شديد، والآن مع عذاب أشد وأقسى وبعد التقيؤ بالمال، أمره شيطان بجمعهم ثانية، حتى يمكن اطعامه بهم ثانية، وبعد هذا بات خدم الجحيم مغضبين كثيراً، فأنزلوا به جميع أنواع العذاب التي ورد ذكرها أعلاه، وكانت زوجة هذا الرجل جالسة فوق واحد من المقاعد ذوات الأوتاد النارية لأنها كانت محرومة كنسياً في عدة كنائس، بسبب خاتم قد وضعته في علبة جواهرها دون أن أن تعرف، ثم أعلنت أنه قد سرق، وهي لم تتحرر من هذا الذنب ، ومنعها من ذلك موت مفاجىء.

حول زاني وزانية

وجرى الآن إحضار زاني وزانية الى أمام الشياطين الغاضبين ، وقد عرضا وهما متحدين باتصالهما القذر ، وكررا بحضور الجميع حركاتهما المهينة والمخجلة ، وذلك بخلجات عنيفة لإرباكهما، وسط لعنهما من قبل الشياطين، ثم بعد ما أصيبا بالخبال ، شرعا بتمزيق أحدهما الآخر، حيث غيرا الحب الظاهري، الذي بديا وهما يتمتعان به من قبل، أحدهما نحو الآخر، وبدلاه الى كراهية ووحشية ، ووقتها جرى تمزيق أطرافهما من قبل الحشود الغاضبة من حولهما، وعانيا من العقوبات نفسها مثل الذين تقدموا قبلهما، وجرى أيضا تعذيب جميع

الزناة الذين كانوا حضوراً بطريقة مشابهة وكانت شديدة وكثيفة الى حد أن آلامهم كانت من الهول بمكان، أن قلم الكاتب ليس كافياً لوصف ذلك.

المستهزئون

وبين المخلوقات البائسة الأخرى، جرى احضار اثنين من المستهزئين الى الوسط ، اللذان قاما مع تشويه مستمر بفتح فاهيهما حتى أذنيهما، وأدارا وجهيهما كل واحد نحو الآخر، وحدق كل واحد منهما بالآخر بأعين غاضبة عابسة ، ووضع في فم كل واحد منهما نهاية نوع من أنواع الرماح المحترقة، وكانا يأكلانه ويلوكانه بأفواه مشوهة، وسريعاً ما وصلا الى وسط الرمح، واقتربا من بعضهما حتى كادا يلتصقان، وبهذه الصورة مزق كل واحد، منهما الآخر، ولوثا وجهيهما بالدم.

اللصوص والمحرقون

وكان بين الذين أحضروا ودفعوا نحو الأمام ، لصوصاً وحراقين مع خارقين لحرمات الأماكن الدينية وقد وضع هؤلاء من قبل عبيد الجحيم فوق دواليب حديدية حمراء من شدة الحرارة، مغروسة بالحسك والمسامير، ولشدة حماوتها كانت ترسل باستمرار شرراً من النار كان يتساقط دوماً مثل المطر على أولئك التعساء الذين كانوا يدورون ، ويعانون من عذاب مخيف .

الباعة

ثم جاء الى البقعة أحد الباعة مع موازين زائفة ، وأوزان ، وأيضاً مع الذين مدوا أقمشة جديدة في حوانيتهم وشدوها الى درجة عظيمة في الطول وفي العرض حتى أن خيوطها تمزقت وتقطعت وعمل فيها فتحات ، وخاطوا بعد ذلك ببراعة متناهية هذه

الفتحات، وباعوا هذه الأقمشة في أماكن مظلمة، وانتزع هؤلاء بقسوة متناهية من مقاعدهم، وأرغموا على اعادة تمثيل حركات ذنوبهم الماضية لإهانتهم ولزيادة تعذيبهم،من قبل الشياطين، وفق الطريقة التي وصفناها عن الآخرين من قبلهم، ورأينا الى جانب هذا الرجل، على مقربة من المدخل الى الجحيم المنخفض، أربع ساحات، كان وضعها كما يلي: حوت الساحة الأولى عدداً لا يحصى من الأفران، ومراجل مليئة حتى الأعلى بزفت محترق وبعناصر أخرى ذائبة، وفي كل ساحة من هؤلاء كدست الأرواح مع بعضها ،وهي تغلي بحدة، ورؤوسهم مثل رؤوس الأسماك السوداء، وذلك بسبب عنف الغليان ، وكانوا يرغمون أحياناً على الصعود نحو الأعلى فوق السائل، وفي أوقات أخرى كانوا يهوون نحو الأسفل، واحتوت الساحة الثانية مثل ذلك مراجل ، لكن مليئة بالثلج وبالجليد المتجمد ، فيها كانت تتعذب الأرواح وسط آلام لا تحتمل، وكانت مراجل الساحة الثالثة مليئة بماء كبريتي يغلي وبأشياء أخرى ، وكان يصدر عن ذلك روائح نتنة ممزوجة بدخان قذر، وكان هناك الأرواح التي ماتت وسط قذارة شبقها، وهناك كانت هذه منطقة عذابهم الخاصة، واحتوت الساحة الرابعة على مراجل مليئة بماء مالح أسود، حدة ملوحته تنزع لحاء أي نوع من الأشجار مباشرة عند رميها فيها، وكان في هذه المراجل حشود من المذنبين ، والقتلة ، واللصوص والنهابين، والسحرة ، والرجال الأغنياء، الذين ظلموا أتباعهم بشكل غير اعتيادي واستخرجوا منهم الأموال بشكل غير عادل، وكانوا يغلون بشكل مستمر، وكان عبيد التعذيب واقفين من حولهم، يضغطون عليهم معاً في الداخل حتى لا ينجو أحد منهم من حرارة السائل الذائب، وكان الذين جرى غليهم لمدة سبعة أيام في هذا الدهن المائع، قد ألقي بهم في اليوم الثامن في البرد، في السائل الذي كان يغلي، وفي الوقت نفسه فإن الذين كانوا يغلون في الماء المالح، قد

جرى تعذيبهم فيما بعد في النتانة، وكانوا دوماً يرعون عمليات التغييرات هذه كل ثمانية أيام.

الكنيسة القائمة على جبل البهجة والوساطات التي عملت من أجل الأرواح

وبعد رؤية هذه الأشياء، وعند بداية ظهور صباح يوم الرب، تابع القديسان اللذان تقدم ذكرهما مع الرجل الذي كانا يقتادانه ، وساروا نحو جبل البهجة، وكان ذلك من خلال نار المطهرة ، والبحيرة، وفوق جسر الحسك والشوك، وذلك حتى وصلوا الى قاعة قائمةعلى الجهة الغربية من الهيكل الذي تقدم ذكره، والذي كان قائماًعلى الجبل، وقد كان هناك باب جميل وواسع، مفتوح بشكل دائم ، من خلاله جرى احضار الأرواح، التي جعلت بيضاء تماماً، من قبل القديس ميكائيل ، واجتمع في هذه القاعة الأرواح التي تطهرت، وكانت تصلي بكل حرارة، متوقعة سماحاً سعيداً الى ذلك المكان، ورأى الرجل في الجهة الجنوبية خارج الهيكل عدداً لا يحصى من الأرواح، وكلهم ووجوههم قد التفتت نحو الكنيسة، وكانوا يصلون من أجل الحصول على مساعدة أصدقائهم الذين كانوا أحياء، فبتلك المساعدة ربما يمكنهم نيل الإذن بالدخول إلى تلك الكنيسة، وكانوا كلما حصلوا على مزيد من المساعدة ،كلما اقتربوا أكثر من الكنيسة، ولاحظ في هذا المكان عدداً كبيراً من معارفه ، وكذلك أولئك الذين قد عرفهم بشكل عابر أثناء الحياة، وأخبر القديس ميكائيل الرجل وجدثه عن جميع أولئك الأرواح، وبين له بكم من القداسات يمكن لكل روح أن تنطلق متحررة ، ومن ثم يسمح لها بالدخول الى الهيكل، ولم تعان الأرواح التي كانت أيضاً تنتظر الإذن، من أية عقوبة، إذا لم يكونوا بانتظار أية مساعدة خاصة من أصدقائهم، ومع ذلك فإن جميع الأرواح التي وقفت هناك اقتربت

يومياً من مدخل تلك الكنيسة بوساطة المساعدة العامة للكنيسة كلها.

المراتب المتنوعة لتلك الكنيسة

ويعد احضار ذلك الرجل الى داخل الهيكل من قبل القديس ميكائيل، رأى هناك كثيرين كان قد رآهم في الحياة من كلا الجنسين، في ملابس بيضاء، كانوا يصعدون الى الهيكل، ويتمتعون بهناءة كبيرة، وكانت الأرواح كلما صعدت أعلى فوق سلالم الهيكل ، غدت أكثر بياضاً وأكثر اشعاعاً، وكان من الممكن أن يرى في تلك الكنيسة العظيمة كثيراً من المنازل الأعظم جمالاً، فيها سكنت أرواح الأتقياء، وكانت أكثر بياضاً من الثلج،وكانت وجوههم وتيجانهم تبرق مثل بريق الذهب، وكانوا يسمعون في ساعة محددة من كل يوم أغاني من السماء، وكأن جميع أنواع الموسيقى كانت تغنى بانسجام وبلحن جميل واحد، وكانت هذه الموسيقى تلطف وتنعش جميع سكان الهيكل في نعومتها المقبولة،أثناء تمتعهم بجميع الأنواع اللذيذة من اللحوم، لكن الأرواح التي كانت لاتزال واقفة منتظرة في القاعات في الخارج، لم تسمع شيئاً من هذه الأغاني السماوية، وكان في هذا المكان أيضاً، قد اتخذ عدد من القديسين مساكن لهم،حيث كانوا يستقبلون بسرور،أولئك الذين خدموا بشكل خاص أنفسهم بعد الرب في كل شي،حتى يمكنهم فيها بعد احضارهم على مرأى من الرب.

الجنة وآدم أبونا الأول

وانحرفوا بعد هذا جانباً، نحو الجهة الشرقية من الهيكل المتقدم ذكره،ووصلوا الى مكان جميل جداً،رائع بأنواع أعشابه ووروده،وكان مليئاً بالرائحة الطيبة الصادرة عن الأعشاب والأشجار،وهناك رأى الرجل نبعاً عظيم الصفاء،كان يتدفق على شكل أربعة جداول ألوان

مائها مختلفة،وكان فوق ذلك النبع شجرة ذات حجم مدهش،وارتفاع هائل،فيها وفرة من جميع أنواع الفواكه،ومن جميع أنواع الروائح الطيبة،وكان راقداً تحت هذه الشجرة وعلى مقربة من النبع رجل له شكل وسيم وحجم هائل،وكان مرتدياً من قدميه الى صدره ثوباً له ألوان متنوعة، ومن قماش جميل بشكل مدهش،وبدا هذا الرجل وكأنه يبتسم بالعين الأولى،ويبكي بالعين الثانية،وقال القديس ميكائيل:«إن هذا هو الأب الأول لبني البشر،إنه آدم، وهو يشير في العين التي يبتسم فيهاويعبر عن البهجة التي يشعر بها نتيجة مجد أبنائه الذين أنقذوا، وهو يعبر في العين الأخرى التي يبكي بها عن أسفه الذي يشعر به،بسبب عقوبة أبنائه والحكم العادل الذي صدر عليهم من الرب،أي على الذين أدينوا،وكان الثوب الذي تغطى به مع أنه لم يكن كاملاً،هو ثوب الديمومة،ورداء المجد، الذي حرم منه لدى اقترافه لذنبه الأول، ذلك أنه منذ أيام قابيل،ابنه الصالح،قد بدأ باسترداد هذا الثوب،واستمر يفعل ذلك خلال جميع أجيال أولاده الصالحين،ومثلما يشع النخبة بفضائلهم المتنوعة،كذلك يفعل هذا الثوب،المصبوغ بألوانه المتنوعة، وعندما سيكمل عدد النخبة من أولاده،وقتها سوف يلبس آدم كامل ثوب الخلود والمجد، وبذلك سوف يصل هذا العالم الى النهاية.

كيف عاد الرجل الى جسده

وبعد الابتعاد قليلاً عن هذا المكان،وصلوا الى أكثر الأبواب جمالاً،وكان مزيناً بالجواهر وبالأحجار الكريمة،وأشع السور الذي كان من حوله،وكأنه كان من الذهب،وما أن دخلوا ذلك الباب،حتى ظهر هيكل من النوع الذهبي،كان أكثر فخامة من الهيكل الأول،في جماله كله، وفي طيب رائحته،وفي أبهة أضوائه الشعشعانية،حتى أن الأماكن التي رأوها من قبل قد بدت ليست جميلة بالمقارنة مع هذا المكان، وبعدما دخلوا الى الهيكل، رأى الرجل في الجانب الأول،بيعةمتألقة بزينة

رائعــــة،وقــد جلـس فيهــا ثـلاث عـــذراوات يشعـن بجمال لايمكن وصفـه،وقد كن كما أخبره رئيس الملائكة: القـديسة كـاترين،والقديسـة مـرغـريت،والقديسـة أوسيـز osith، وعندمـا كان يتأمل معجبـــــاً بجمالهن،قـال القـديس ميكائيل للقـديـس جـوليـان:« أعـد هذا الرجل مباشرة الى جسده،لأنه إذا لم تتم إعادته بسرعة إليه،فإن المياه البادرة التي يرميهـا الواقفــون في وجهـه سـوف تخنقـه كليـاً»، وبعـد التفـوه بهذه الكلمات،لم يعـرف الرجـل كيف أعيـد الى جسـده، واستيقـظ وقـام من فـراشـــه،فقـد كـــان راقـداً على فـــراشــه، وهــو بدون وعي،لمدة يومين وليلتين،أي من سـاعـة مسـاء اليوم السـادس من الأسبـوع حتى مسـاء الأحد التالي،وهو كأنه غاط في نوم عميق،وحالما جاء الصباح حتى بادر مسرعـاً الى الكنيسـة،وبعد قيـامـه بقـداس، سأله الكاهن وبقيـة رجـال الأبرشيــة،الذين كـــانوا قـــد رأوه وكأنه بدون حيـــاة قبل وقت قصير مضى،ورجـوه أن يخبرهم عن الذي كشف له، وتردد- على كل حـال- من خلال سذاجتـه الكبيرة، في القيام بالحديث عن رؤياه، حتى ظهر له في الليلة التاليـة القديس جـوليان، وأعطاه أوامـر بأن يكشف كل الذي رآه،لأنه- كما قال- أُخذ من فراشه،بقصد أن ينشر على الناس جميعاً كل الذي سمعه، وفي طاعة منه لأوامر ذلـك القديس، قام في يوم عيد جميع القــديسين،وفي الأوقـــات التي تلـت ذلك،بالحديث عـن رؤياه بشكل واضح ومكشوف بـاللسان الانكليزي،وكل الذين رأوه عجبـوا مما حبي به من مقـدرة على الكلام بشكل غير اعتيـــادي،وهو الرجل الذي ظهــر من قبـل من خـــلال ســـذاجتــــه أنه جلف وغير قــــادر على الكلام، وباستمراره في حكايته عن الرؤيا التي رآها، قد جعل الكثيرين ينفعلون فيبكون، وينوحون بمرارة.

كيف ذهب غيوفري رئيس أساقفة يورك إلى المنفى

عام ١٢٠٧، فيـه احتفل الملك جون بعيد الميـلاد في وينكستر،بصحبة

نبلاء المملكة، وفيما بعد في أيام طهارة مريم العذراء المباركة،فرض ضريبة في جميع أرجاء انكلترا،قضت بجباية جزء من ثلاثة عشر جزءاً من السلع المنقولة وغير المنقولة،على العلمانيين، واللاهوتيين والأساقفة،مما سبب شكوى عامة بين الجميع،مع أنهم لم يتجرأوا على المصارحة بمعارضة ذلك،وكان غيوفري رئيس أساقفة يورك هو وحده الذي لم يوافق على الضريبة،وقد تحدث بشكل معلن ضدها،وغادر انكلترا بشكل سري،ولدى مغادرته لعن وحرم من شراكة المؤمنين بشكل خاص جميع الذين شاركوا في هذه السرقة، في رئاسة أسقفية يورك، وبشكل عام كان قراره ضد جميع الذين يهاجمون الكنيسة أو ممتلكات الكنيسة.

وهبت في هذا العام نفسه، في السابع والعشرين من شباط،عاصفة عنيفة،في حوالي منتصف الليل،فدمرت الأبنية،واقتلعت الأشجار، ولأنها ترافقت مع سقوط كميات ضخمة من الثلج فقد سببت هلاك المواشي وقطعان الأغنام والسائمة.

وقدم في هذا العام نفسه الامبراطور أوتو الى انكلترا،واجتمع للتحادث مع خاله، وبعد ذلك عاد الى مملكته،لكن بعدما تسلم من خاله مبلغ خمسة آلاف مارك من الفضة.

ونبغ في هذه الآونة،تحت رعاية البابا أنوسنت، طائفة من الواعظين اسمها الفرنسيسكان،ملأت الأرض ، وسكنت في المدن والبلدات بالعشرات والسبعات ، حيث لم يتملكوا ممتلكات بشكل مطلق، وعاشوا وفقاً للانجيل، وأظهروا فقراً شديداً، وساروا بأقدام حافية، وضربوا مثلاً عظيماً بالتواضع الى جميع الطبقات، وذهبوا في أيام الآحاد وفي أيام الأعياد، من أماكن إقامتهم ، يبشرون بكلمة الانجيل في كنائس الأبرشيات ، وكانوا يأكلون ويشربون كلما وجدوه بين الذين كانوا يتولون وعظهم، وكانوا متميزين جداً، نظراً لتقديرهم

لأعمال السماء، ولمحاولتهم بأنهم أنفسهم غير مرتبطين بقضايا هذه الحياة ، ولا بمتع الجسد ، ولم يحتفظوا بأي نوع من الأطعمة امتلكوه الى الغد ليستخدموه، بهدف اظهار أن فقرهم الروحي هو الذي يتحكم بعقولهم، ولكي يظهروا أنفسهم الى الجميع فقراء في ملبسهم وفي أعمالهم.

إلغاء انتخاب أسقف نورويك وكذلك انتخاب نائب الشماس من كانتربري

ومثل في هذه الآونة رهبان كنيسة كانتر بري أمام مولانا البابا، للترافع حول الخلاف المؤسف الذي تفجر بينهم أنفسهم، لأن شطراً منهم قدم رينالد، نائب رئيس رهبان كانتربري بوساطة رسائل صحيحة صادرة عن رهبان الدير ، على انه رئيس أساقفتهم المنتخب، وكرروا هذا مراراً ، وطالبوا بإلحاح تثبيت انتخابه، وكان لدى الشطر الآخرمن الرهبان . أنفسهم ، رسائل أيضاً أصيلة، تقدم بها جون أسقف نورويك ،وقد أظهروا من خلال مناقشات كثيرة أن انتخاب نائب رئيس الرهبان كان لاغيا، ليس فقط بسبب أنه عمل أثناء الليل، ومن دون الطقوس والاحتفالات المرعية، ومن دون موافقة الملك، بل أيضاً لأن هذا الانتخاب لم يجر من قبل الجزء المسن والأكثر حكمة بين رهبان الدير، وهكذا عرضوا هذه الأسباب، وطالبوا بوجوب تثبيت الانتخاب، الذي عملوه أمام شهود موائمين، في وضح النهار، وبموافقة الملك، وأثناء حضوره، ولدى عرض هذا الجانب من القضية وبعد الفراغ من سماعه وفهمه بوضوح، قام المرافع الممثل لحزب نائب رئيس الرهبان، فعرض بأن الانتخاب الثاني باطل وفارغ، فمهما قيل عن طبيعة الانتخاب الأول، سواء أكان صحيحاً أم غير صحيح، كان من المتوجب الغاء الانتخاب الأول قبل عمل الانتخاب الثاني ، ولذلك طالب بشكل

ثابت، بوجوب الاعتراف بالانتخاب الأول ، وأنه هو الصحيح.

وأخيراً رأى مولانا البابا ، بعد المناقشات الطويلة من كلا الجانبين ، أنه لا يمكن اتفاق الفريقين على تثبيت شخص واحد ، وأن الانتخابين معاً قد عملاً بشكل غير نظامي، وليس وفقاً لمراسيم القوانين المقدسة ، وبناء عليه واعتماداً على نصيحة كرادلته، قام فألغى الانتخابين ، ووضع حرمانا رسولياً على الفريقين ، وأمر بقرار حكم محدد أنه لا يجوز لأي منهما التقدم لنيل مرتبة رئاسة الأساقفة .

ترقية المعلم ستيفن لانغتون وتكريسه

ومع إلغاء الانتخابين المتقدمين ، لم يرغب مولانا البابا بالسماح لقطيع الرب بالبقاء مدة أطول من دون رعاية راعي أبرشية ، فأقنع رهبان كانتربري الذي مثلوا بحضرته كمرافعين في مسألة كنيسة كانتربري، بالقيام بانتخاب المعلم ستيفن لانغتون Langton ، وكان هناك كاهناً كاردينالا، وكان — كما قلنا — با رعاً في العلوم الأدبية، ومستقيماً، ومصقولاً في أخلاقه، وأكد أن ترقية ذلك الرجل سوف تكون مفيدة جداً الى الكنيسة الانكليزية كلها، ومثل ذلك الى الملك نفسه، وأجابه الرهبان وأوضحوا له، انهم لا يمتلكون التخويل، إلاّ بموافقة الملك، وباختيار الكهنة وبالتالي لا يستطيعون الموافقة على انتخاب أي شخص ، أو القيام بانتخاب من دونهم، وقال لهم البابا ، وكأنه يلقي على مسامعهم كلاماً قالوه:« إنكم تظنون أنكم تمتلكون سلطات مطلقة في كنيسة كانتربري، وإنه ليس من المعتاد انتظار موافقة الأمراء فيما يتعلق بانتخابات تعمل لدى الكرسي الرسولي ، ولذا آمركم بحكم طاعتكم، وتحت عقوبة الحرمان والتكفير من قبلنا،، آمركم أنتم الذين هنا، مهما كان عددكم ووضعكم — ففي ذلك كفاية تامة للقيام بالانتخاب— أن تقوموا بانتخاب الرجل الذي أعطيناكم إياه، ليكون رئيس أساقفة لكم، وأباً ، وراعياً لأنفسكم»،

ولم يتجرأ الرهبان على مواجهة قرار الحرمان الكنسي ، وأعطوا موافقتهم، بالاكراه وهم يتذمرون، وكان الوحيد بينهم الذي لم يوافق هو المعلم الياس دي برانتفيلد Brantfield ، الذي جاء من جهة الملك، وجهة أسقف نورويك ، وأنشد بقيتهم :« Te Deum »، وحملوا رئيس الأساقفة المنتخب الى المذبح، وبعد هذا تلقى التكريس من البابا المذكورفي مدينة فيتربو Viterbo، في السابع عشر من حزيران.

كيف بعث البابا انوسنت رسائل الى ملك انكلترا يطلب منه استقبال ستيفن لانغتون المكرس بمثابة رئيس للأساقفة

بعد تسوية هذه القضية ، بعث البابا انوسنت رسائل الى ملك انكلترا، يسأله برفق واخلاص أن يستقبل بلطف المعلم ستيفن لانغتون الذي هو كاردينال كاهن للقديس خريسوجونوس Chrysogonus والذي انتخب بشكل قانوني الى رئاسة أساقفة كانتربري والذي يعود أيضاً بأصوله الى مملكته ، وهو لم ينل لقب معلم في العلوم الدنيوية فقط ، بل هو دكتور في اللاهوت، وبما أن حياته وأخلاقه قد تفوقت على عظمة تعليمه ، فإنه بسماته سوف يكون ذا فائدة كبيرة الى روح الملك، وكذلك الى شؤونه الدنيوية.

وهكذا سعى البابا عن طريق حجج من هذا النوع وبعبارات مماثلة لطيفة ، أن يبذل قصارى جهده لاقناع الملك ونيل موافقته، وقام برسائله الى رئيس الرهبان وإلى الرهبان في كانتربري ، فأمرهم بحكم طاعتهم ، باستقبال رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، بمثابة الراعي لهم، وأن يطيعوه بتواضع في المسائل الدنيويةوكذلك في القضايا الروحية،وعندما أخيراً وصلت رسائل مولانا البابا الى علم الملك الانكليزي، غضب الى أقصى الحدود بسبب ترقية ستيفن لانغتون، وكذلك بسبب الغاء انتخاب أسقف نورويك، واتهم رهبان كانتربري

بالخيانة، وقال بأنهم فعلوا ذلك لأنهم تجاوزوا حقوقه فانتخبوا نائب رئيس الرهبان من دون إذنه، ثم انهم بعد ذلك قاموا حتى يلطفوا غلطتهم بإعطائه ترضية، فانتخبوا أسقف نورويك وأنهم أيضاً تسلموا مالاً من الخزانة من أجل نفقاتهم، في سبيل الحصول على تثبيت انتخاب الأسقف المذكور من الكرسي الرسولي ولكي يكملوا عدوانهم، انتخبوا هناك ستيفن لانغتون، الذي هو عدو مكشوف له، وحصلوا على تكريسه في رئاسة الأساقفة، وبناء على ما حدث، أرسل الملك المذكور، وهو يشتعل غضباً وانزعاجاً: فولك دي كانتلو Cantelu وهنري دي كورنهل Cornhill، وكانا أكثر الفرسان وحشية ولاانسانية، مع اتباع مسلحين، للقيام بطرد رهبان كانتربري، وكأنهم مذنبين بجريمة ضد جلالته المكلومة، وأن يكون الطرد من انكلترا، أو إنزال عقوبة كبرى، وبادر هذا الفارسان بكل سرعة الى إطاعة أوامر مولاهما،وانطلقا نحو كانتر بري، ودخلا الى الدير بسيوف مجردة، وأمرا رئيس الرهبان بقسوة بأن يغادر هو والرهبان مملكة انكلترا على الفور، بحكم كونهم خونة لجلالته الملكية، وأكدا باليمين بأن (الرهبان) إذا ما رفضوا فعل هذا، سوف يلقيان بنفسيهما النار في الدير، وفي المكاتب المتصلة به، ولسوف يحرقان الرهبان أنفسهم مع مبانيهم، وتصرف الرهبان بشكل لاعقلاني، وغادروا الدير من دون مقاومة، ومن دون أن يمدوا أيديهم ضد أي انسان، ولقد غادروا جميعاً باستثناء ثلاثة عشر مريضاً ،كانوا راقدين في المصحة، وغير قادرين على السير، ولقد عبروا مباشرة الى فلاندرز، حيث جرى استقبالهم بحفاوة من قبل راعي دير القديس بيرتينوس Bertinus وفي ديرة أخرى في القارة، وجرى بعد ذلك بناء على أوامر من الملك — وضع بعض الرهبان من طائفة القديس أوغسطين محلهم في كنيسة كانتر بري، ليقوموا بالواجبات هناك، وتولى فولك المتقدم الذكر تدبر توزيع ومصادرة

جميع ممتلكات الرهبان أنفسهم ، وفي الـوقت نفسه بقيت أراضيهم مع أراضي رئيس الأسـاقفـة من دون زراعـة، وحـدث طرد الـرهبـان المتقدم ذكرهم من ديرهم ونفيهم في الرابع عشر من تموز.

كيف ارسل ملك انكلترا رسائل تهديد الى البابا

وبعدمـا نفى الملك جون رهبان كـانتربري على هذه الصورة، بعث رسـلاً مع رسـائل البـابا ، اتهمـه فيهـا بعبـارات تهديدية بأنه قـام بشكل مهين بإلغـاء انتخـاب أسقف نورويك، وأنه كـرس رئيسـاً للأساقفة في كانتربري ستيفن لانغتون ، وهو رجل غير معروف لديه، لكنه معـروف منذ وقت طويـل، ومشهـور بعـداوته المعلنة في المملكة الفرنسية، ومما زاد وضاعف الاعتداء عليه وعلى التعرض للامتيازات العائدة لتـاجه ، أن موافقته، لم تعتمد بشكل أصـولي على سؤال الرهبان وأخذ مـوافقتهم ، وهم الرهبان الذين يحق لهم الانتخـاب، بل إن البابا أعطى بوقاحـة الحق بالاقدام على ترقية ستيفن هذا نفسـه، وأكد الملك أن عجبه بلا نهايةوكذلك دهشته، كيف أن البابا ، وكذلك بلاط روما كله، لم يتذكروا ما فيه الكفاية مكانة الملك الانكليزي بالنسبة للكرسي الرومـاني حتى الآن ، ولا المنافع التي حصل عليهـا هذا البـلاط من مملكة انكلترا ، ذلـك أن هذه المنـافع أكثـــر من منـافع جميـع البلدان الأخرى القائمـة على هذا الجانب من الألب، وأكثر من هذا أضاف بأنه سوف يقف مدافعاً عن حقوق تاجه، إذا كان ذلك ضرورياً حتى الموت، وأعلن أنه لن يتـزحزح ، ولا يمكن تحويله عن انتخـاب أسقف نورويك وترقيته، الذي يعرف أنه سيكون مفيداً له شخصياً ، وأوجز أخيراً القضية أنه إذا لم ينظر الى مصالحه في القضايا الخارجية، فلسوف يغلق الطريق البحـري في وجـه جميـع الذاهبين الى رومـا ، وبذلك لن تفرغ مناطقه من ثرواتها ، وهو لن يكون نفسه بذلك أقل قدرة على طرد أعـدائـه مـن هذه المناطق، لاسيما وأن هناك كثيراً من رؤسـاء

الأساقفة، والأساقفة وكهنة آخرين للكنيسة في انكلترا، كما في مقاطعاته الأخرى، وهم جميعاً مزودين بجميع أنواع المعارف، إذا ما أرادهم ، ولذلك هو لن يستجدي العدالة والقضاء من الغرباء خارج ممالكه ولدى عرض هذا كله على البابا من قبل الرسل ، كتب ذلك الحبر الأعظم جواباً له كما يلي:

جواب مولانا البابا إلى الملك الانكليزي

«من انوسنت، عبد عبيد الرب، إلى ولده المحبوب بالرب ، اللامع جون، ملك الانكليز، الصحة والمباركة الرسولية، عندما كتبنا اليك حول قضية كنيسة كانتربري، كتبنا بتواضع وبحرص، وباثارة لطيفة وطالبناك — إذا جاز لي أن أقول — بكل احترام لسموك، وقد كتبت جواباً لنا بتمرد وعصيان ، وبتهديد، وبملامة، وفي الوقت الذي أبدينا فيه نحوك احتراماً أكثر مما ينبغي، أظهرت نحونا احتراماً أقل مما ينبغي، لأنه إذا كان ولاءك ضروري جداً لنا، يبقى احترامنا ليس أقل فائدة لك، ومع اننا في مثل هذه الحالات لم نقدم احتراماً إلى أي أمير مثل الذي قدمناه إليك، لقد بذلت جهدك لانقاص كرامتنا بطريقة لم يفعلها أي أمير في مثل هذه القضية، أو فكر أن يفعل، ولقد عرضت بعض التعليلات التافهة، أكدت بها بأنك لن تعطي موافقة على اختيارنا لولدنا المحبوب، المعلم ستيفن ، الذي يحمل لقب كاردينال كاهن القديس خريسوجونوس لأنه كان من قبل صديقاً لأعدائك، ولم يكن شخصياً معروفاً لديك، علاوة على هذا، كما قال مثل سليمان:«ألقيت الشبكة عبثاً أمام عيون الطيور » حيث أننا نعلم ان ما عددته له ذنباً، ينبغي ان يعدّ له مجداً، لأنه عندما كان لبعض الوقت في باريس، كان يدرس الفنون الحرة، ولقد أحرز في ذلك تقدماً استحق عليه لقب استاذ، ليس في ميدان المعارف المدنية فحسب، بل في مجال العلوم اللاهوتية ،وهكذا بما ان حياته توافقت مع عقائده، أجيز بمركز كاهن فخري في كنيسة

باريس، وبناء عليه، انه لأمر عجيب بالنسبة لنا، كيف ان رجلاً بمثل هذه الشهرة، ومستمد لأصوله من مملكتكم ، غير معروف لديكم، حسبما جاء في تقريركم، فكيف ذاك خاصة عندما كتبتم له ثلاث مرات، بعد ترقيته من قبلنا إلى مرتبة كاردينال، وأنكم كنتم على استعداد لدعوته إلى خدمتكم، وكنت مسروراً لترقيته إلى مرتبة عليا، ونلفت هنا انتباهكم، انه قد ولد في مملكتكم من أبوين كانا مخلصين ومحبين لكم، وأنه عمل كاهناً في كنيسة يورك، التي كانت أعظم بكثير، وأعلى في مقامها من كنيسة باريس، هذا ولقد تبرهن ليس بسبب الجسد والدم، لا بل بشغله مقاما لاهوتيا ومنصبا ، انه بعواطفه أكثر اخلاصاً لك ولمملكتك، لكن رسلك أعطونا سبباً آخر لعدم موافقتك على انتخابه، وكان سبباً واقعياً، لأنك لم تسأل عنه من قبل الذين توجب أن يسألوا موافقتك عليه، وقد أوضحوا بأن الرسائل التي أمرناك فيها، أن ترسل وكلاء مناسبين إلينا حول هذه المسألة، لم تصل اليك، وأن رهبان كانتربري، وإن كانوا قد ظهروا أمامك، حول شأن آخر، لم يرسلوا رسائل أو رسلاً يطلبون موافقتك على هذه المسألة، وبناء عليه سألنا الرسل أنفسهم باخلاص كبير، انه إذا كان يرضينا أن نحفظ إليك شرف وجوب قيام رهبان كانتربري بطلب موافقة ملكهم، وبما أن ذلك لم يعمل ، ينبغي أن نمنح تأخيراً مناسباً لعمل ذلك، حتى لا يحدث أي انتقاص من حقوقك، وقدموا أخيراً شيئاً ما ضد شخص رئيس الأساقفة المنتخب، وهو أمر عمل علانية ، وكان من المتوجب حبس ألسنتهم عن قوله خاصة —لو أن ذلك كان صحيحاً— لا يمكن أن يعوق انتخابه، ومع أنه ليس من المعتاد عند عمل انتخاب لدى الكرسي الرسولي، انتظار موافقة أي أمير ، لقد جرى ارسال راهبين إليك، لمقصد خاص، هو طلب موافقتك ، لكنهما حجزا في دوفر، ولذلك لم يكونا قادرين على تنفيذ مهمتهما، وأما الرسائل حول الوكلاء، فقد سلمت بحضورنا إلى رسلك ، لكي يقوموا باخلاص بتسليمها إليك،

ونحن أيضاً الذين نمتلك سلطة كـاملة على كنيسة كانتربري نفسهـا، قد تنازلنا لطلب حظوة ملـك، ورسـولنا الذي سلم الرسـائـل الرسـوليـة إليك، سلمك أيضـاً رسائل رئيس الـرهبان والرهبـان الذين عملوا — بناء على أوامـر الهيئة الكهنوتيـة كلهـا لكنيسة كـانتربري —الانتخـاب المتقـدم ذكره، وقـد كتب هؤلاء في رسـائلهم إليك يطلبون مـوافقتك ، وبناء عليه إننا لا نرى أن نقوم ثانيـة، بعد كل هذه التصرفات ، فنطلب الموافقة الملكيـة ، ذلك أننا نسعى ، دون أن نميل إلى يمين أو يسار، لأن نعمل مـا تأمـربه القوانيين الشرعيـة للآباء المقـدسين أن يعمل، حتى لا يكون هناك تأخير أو مصاعب في عمل الترتيبات الموائمة، لكي لا يبقى قطيع الرب أي مـدة أطول من دون رعـايـة راعي، ولذلك ينبغي أن لا يكون هنـاك أي اقتراح إلى كيـاستـك الملكيـة أو حكمتـك ، في أننا سننحـرف عن اتمام هذا العمل ، وبما أن انتخـابات قانونيـة قـد عملت وفقاً للنظام من دون تزييف أو مكر ، وذلك لشخص مناسب ، وهنا لا يمكننا من دون أن نفقـد اسمنا الجيـد وسمعتنا ، وتعـريض ضميرنا للخطر ، إذا قمنا بتأخير اكمالها ، وبنا ءعليه يـا ولدنا المحبوب، الذي في سبيل كـرامتـه قدمنا تنازلات أكثـر مما ينبغي أن نقـدم، اسع لأن تقـدم احترامـاً مناسباً لكرامتنا ، حتى تنـال جزاء أوفى من نعمـة الرب ، ومن حظوتنا ، إنما إذا مـا تصرفت بشكل معـاكس ، فإنك سـوف تجلب على نفسك المتاعب وتضعهـا في مصاعب ، لن تتخلص منهـا بسهولة، لأنها ستكون متعلقة بالذي هو الأعلى، والذي له تنحني كل ركبة، من الذين هـم في السماء ، وعلى الأرض، وتحت الأرض، والـذي أعمالـه على الأرض نحن —مع أننـا لا نستحق — جـرى تعيننا لتنفيـذها ، وبناء عليـه لا تذعن لخطط الذين هم متشـوقون دومـاً لخلق الاضطراب لك حتى يمكنهم أن يصطادوا أفضل في الميـاه المضطربة ، بل اعهـد بنفسك إلى رعـايتنا الطيبـة، التي هي مـن المؤكـد تميل نحـو الثناء عليك ونحـو مجدك وكـرامتك، لأنه لن يكون سلبياً بالنسبـة لك في هذه القضيـة ، أن

تظهر مقـاومة للرب، وللكنيسـة، التي في سبيلها سفك منذ أمـد وجيز، الكاهن الأعلى توماس، الشهيد المبارك ، دمه ولا سيما أيضاً أنه منذ أيام والدك وأخوك، صـاحب الذكرى البهيـة ، قد جرى عندمـا كانا ملكين لانكلترا، إزالة هذه العادة الشريرة ، من أمام مندوبي الكرسي الرسولي ، ونحن إذا ما أذعنت بتواضع صحيح واستجبت لرغبتنا، سوف نهتم أن لا يلحقك أذى في هذه القضيـة، صـدر في اللاتيران، في السنة العـاشرة لبابويتنا».

وفي هذا العام نفسه ، في يوم عيـد القديس ريميغيوس Remigius ولدت الملكة ايزابيل ملكة الانكليـز للملك جـون ، أول أولادها، وقـد أطلق عليه اسم هنري، لأن ذلك كان اسم جده.

خسوف للقمر

عـام ١٢٠٨م ، فيـه احتفل الملك جـون بعيد الميـلاد ، في وندســور، حيث وزع ثيـاب العيد بين فرسـانه، وحدث في اليـوم الذي أعقب يوم طهـارة القديسـة مـريم خسوف للقمـر، ظهـر أولاً على شكل لون أحمر دموي، وفيما بعد على شكل داكن ، وفي تلك الآونة نفسها سدد كل من فيليب أسقف درم وغيوفري أسقف شيستر دين الطبيعة، وفي هذا العام أيضاً ولدت الملكة ايزابيل ولداً شرعياً للملك جون سمته رتشارد.

تحذير ملك انكلترا من قبل مولانا البابا

في هذا العام نفسـه ، بعدما علم البابا بأن قلب الملك جـون قد ازداد قسـوة، إلى حـد أنـه لابالاقناع ولا بالتهـديد سيقنع ويـذعن لاستقبـال ستيفن كرئيس لأساقفة كـانتربري، انزعج كثيراً ، وشعر بالحزن في قلبه، وقـام بناء على نصيحة كـرادلتـه، فأرسل أوامـر إلى وليم أسقف لندن ، ويوستـاس أسقف أوف ايـلاي ، ومـوغـرMouger أسقف وينكستر، بالذهاب إلى الملك المذكور، حـول قضية كنيسة كانتربري ، وأن يقـدموا

له نصيحة شاملة كي يتراجع أمام الرب في هذه القضية ، فهو بذلك سوف ينال حظوة المولى، لكن إذا ما وجدوه متمرداً وعاصياً ، كما هو حتى الآن، فقد أمرهم ان ينزلوا عقوبة الحرمان من شركة المؤمنين على انكلترا كلها، وأن يشجبوا الملك المذكور، وإذا لم يتوقف عن وقاحته بتلك الوسائل فهو — أي البابا—سوف ينزل به ضربة أكثر قسوة، لأنه من الضروري بالنسبة له قهره، فهو من أجل سلامة الكنيسة المقدسة ، قد أعلن الحرب وشنها ضد الشيطان وزبانيته، ودمر أجنحة الجحيم، وأعطى أيضاً بوساطة رسائل الكرسي الرسولي أوامر إلى نواب أساقفة كانتربري ، وإلى الكهنة الآخرين التابعين لتلك الأبرشية، أن عليهم بحكم طاعتهم ، استقبال رئيس الأساقفة المذكور كأب وكراعي، وأن يطيعوه بكل اخلاص.

كيف وضعت انكلترا تحت حرمان كامل من شركة المؤمنين

وتنفيذاً للمهمة الموكلة من البابا إلى أساقفة: لندن، وإيلاي، ووينكستر، ذهبوا إلى الملك جون ، وبعدما عرضوا بشكل صحيح الأوامر الرسولية ، توسلوا إليه بتواضع، وهم يبكون، أن يضع الرب أمامه، ويقوم باستدعاء رئيس أساقفة كانتربري والرهبان إلى كنيستهم، وأن يقدم التكريم والحب لهم بعاطفة كاملة، وأخبروه أن ذلك سوف يجنبه عار انزال عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، ثم إن المكافآت التي سوف ينالها —إذا فعل ذلك — هي مضاعفة لكرامته الدنيوية، ولسوف يضفى عليه بعد موته مجداً سرمدياً ، وعندما رغب الأساقفة المتقدم ذكرهم صدوراً عن التقدير للملك، إطالة الحوار، صار الملك أشبه بالمجنون لشدة غضبه، وانفجر يتفوه بكلمات التجديف ضد البابا وضد كرادلته، وأقسم باسم الرب، انه إذا ما تجرأوا هم أو أي كاهن مهما كان، على وضع ممتلكاته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، فإنه سوف يرسل جميع أساقفة انكلترا والكهنة والأشخاص من المكرسين إلى

البابا، ولسوف يصادر جميع ممتلكاتهم، وعلاوة على هذا أضاف ان جميع رجال الدين التابعين لروما أو للبابا نفسه، الذين سوف يجدهم في انكلترا، أو في مقاطعاته الأخرى، سوف يرسلهم إلى روما، وقد قلعت أعينهم وجدعت أنوفهم، حتى يمكن أن يعرفوا بهذه العلامات هناك ويجري تمييزهم عن الناس الآخرين، وزيادة على ما تقدم أمر الأساقفة بشكل جلي أن يحملوا أنفسهم بكل سرعة، وان يغربوا عن وجهه، إذا ما رغبوا بالحفاظ على أجسادهم وعدم تعريضها للأذى، وعندما لم يجد الأساقفة أية توبة لدى الملك ، غادروا، وقاموا أثناء الصوم الكبير التالي، دونما خوف ، بتنفيذ الواجب الذي طلبه منهم البابا ، وبناء عليه ألقوا في صباح يوم الإثنين، في اسبوع الآلام، الذي حل في ذلك العام، في الثالث والعشرين من آذار ، حرماناً عاماً من شراكة المؤمنين، على جميع انكلترا، وبما أن هذه العقوبة قد صدرت بموجب سلطات مولانا البابا، فقد جرى الالتزام بها ، دون الاهتمام بالأشخاص أو الإمتيازات، ولذلك توقفت جميع العبادات الكنسية عن الممارسة في انكلترا، باستثناء الاعتراف وتناول القربان في الحالات القصوى، وكذلك تعميد الأطفال، وحملت جثث الموتى أيضاً إلى خارج المدن والبلدات ودفنت على الطرقات والخنادق ، من دون صلوات، أو حضور للكهنة ، فهل أنا بحاجة لذكر المزيد ؟وغادر الأساقفة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف ايلاي، وموغر أسقف وينكستر، وجوسلين أسقف باث، وجايل أسقف هيرفورد ، انكلترا بشكل سري، معتقدين انه من الأفضل تجنب غضب الملك الحانق لبعض الوقت ، بدلاً من الاقامة من دون إحداث أي تأثير مفيد في بلاد واقعة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين.

كيف صادر الملك جون بسبب الحرمان ممتلكات رجال الدين

وقام ملك انكلترا وهو يشعر بغضب عظيم، بسبب الحرمان من شراكة المؤمنين ، فبعث عمد مناطقه والموظفين الآخرين للتفتيش،

بعثهم إلى جميع أرجاء انكلترا، معطياً أوامر مع تهديدات مرعبة إلى جميع رجال الدين والذين هم خاضعين لهم، بوجوب مغادرة انكلترا على الفور ، وأن يطلبوا منحه العدل من البابا لما لحقه من هذا الأذى، وأعطى أيضاً هذه الأوامر إلى جميع الأسقفيات ، ورعاة الديرة ، ورؤساء الرهبان ، والمسؤولين من العلمانيين، وأمر أيضاً بمصادرة جميع موارد كل اللاهوتيين، لكن كان رجال مجمع اللاهوتيين لانكلترا قد حولوا انتباههم بحذر إلى هذا الأمر، ورفضوا التخلي عن ديرهم، ما لم يتم طردهم بالعنف ، وعندما وجد وكلاء الملك هذا الوضع لم يرغبوا باستخدام العنف نحوهم، لأنهم لم يحملوا ترخيصاً من الملك للقيام بذلك لكنهم حولوا جميع ممتلكاتهم، إلى الإستخدامات الملكية، وأعطوهم القليل من علاوات الخبز والملابس من ممتلكاتهم، وجرى خزن جميع قمح رجال الدين في كل مكان ومنعه عنهم، وتحول لصالح الخزانة ، وأخذ عبيد الملك خليلات الكهنة ورجال الدين وأرغموهم على دفع فدية عن أنفسهن عالية جداً، ولدى العثور على رجال دين أو أشخاص مكرسين من أي نوع، على الطرقات وهم مسافرين، جردوا من خيولهم، وسلبوا وعوملوا بشكل مهين جداً من قبل زبانية الملك، وما من أحد منحهم العدالة، وفي هذه الآونة قدم بعض عبيد أحد العمد من منطقة تخوم ويلز إلى الملك ومعهم لص معتقل يداه مربوطتان خلفه، لأنه كان قد سلب كاهناً وقتله على الطريق، وسألوا عن رغبة الملك في التعامل مع هذا اللص في هذه القضية ، فأجابهم الملك على الفور«إنه قد قتل عدواً لي ، أطلقوا سراحه، ودعوه يذهب »، وبالنسبة إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة الذي وضعوا انكلترا تحت الحرمان من شركة المؤمنين، فقد جرى اعتقالهم حيثما تم العثور عليهم، وسلبهم من جميع ممتلكاتهم وسلعهم، وألقي بهم في السجن، وبينما كان الناس يعيشون في ظل هذه الشرور ويعانون منها ، كان الأساقفة المتقدم ذكرهم يقيمون في القارة، ويعيشون على جميع أنواع الطيبات، عوضاً

عن وضع أنفسهم سوراً لبيت الرب، وذلك كما قال المخلص:«عندما شاهدوا الذئب قادماً ، تخلوا عن الشياه وهربوا».

كيف تلقى الملك جون ولاء نبلاء انكلترا

وفي وسط هذه الاجراءات غير التقية وما يماثلها ، ولما نجم عنها من آثار بات الملك جون خائفاً انه بعد قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، ان يقوم مولانا البابا ، فينزل به عقوبة أشد، بحرمانه كنسيا بالاسم، أو بتحليل نبلاء انكلترا من الولاء له ، وذلك حتى لا يفقد حقوقه بالسيادة ، أرسل رجالاً مسلحين إلى كل واحد ذي مرتبة في انكلترا، ولا سيما إلى الذين كانوا يرتاب بهم، وطلب رهائن منهم يمكنه بوساطتهم، إذا ما جرى مع مرور الوقت حرمانه من ولائهم، أن يستدعيهم لأداء طاعتهم له كما ينبغي، وأذعن كثيرين إلى مطالب الملك وأعطى بعضهم إلى رسله أولادهم، وبعضهم أحفادهم، أو بعض أقربائهم الجسديين ، وعندما جاءوا أخيراً إلى وليم دي بروز Brause وكان رجلاً من أصل نبيل ، وطلبوا رهائن منه، كما أخذوا من الآخرين، قامت ما تيلدا زوجة وليم المذكور مع مجموعة من النساء الجريئات بإجابة الرسل ما قلن سمعنه من فمه:« إنني لن أرسل أولادي وأسلمهم إلى مولاكم، الملك جون، لأنه قتل بدناءة ابن أخيه آرثر، الذي كان من المتوجب عليه الاعتناء به وتشريفه»ولدى سماع زوجها كلامها هذا انتقدها، وقال:«لقد تحدثت مثل امرأة حمقاء ضد مولانا الملك، لأنني إذا كنت قد أغضبته في أي شيء فإنني سأكون على استعداد لتقديم ترضية إلى مولاي من دون رهائن وذلك وفقاً لقرار محكمته وأتباعي من البارونات، إذا ما شاء ان يحدد موعداً ومكاناً لمثل هذا العمل»، ولدى عودة الرسل إلى الملك، أخبروه بالذي سمعوه، ولقد غضب من ذلك غضباً شديداً، وبعث بشكل سري بعض الفرسان مع أتباعهم لاعتقال وليم وأسرته، لكن وليم كان تلقى التحذير من

بعض أصدقائه، فهرب مع زوجته، وأولاده ، وأقربائه إلى ايرلندا.

وفي هذا العام نفسه ، توقف الرهبان البيض ، بناء على صدور قرار الحرمان من شركة المؤمنين ، عن القيام بأعمالهم، لكن بعد ذلك استأنفوا القيام بممارسة واجباتهم المقدسة ، بناء على أمر راعيهم الرئيسي ، لكن هذا الاستئناف وصل إلى مسامع الحبر الأعظم ، فجرى توقيفهم وتعليقهم عن ممارسة أعمالهم، مما سبب لهم اضطراباً كبيراً.

كيف أرسل ملك الانكليز مبلغاً كبيراً من المال إلى ابن أخته أوتو

عام ١٢٠٩م ، فيه كان الملك جون في بريستول أيام الميلاد، ومنع هناك امساك الطيور في جميع أرجاء انكلترا ، وجاء بعد هذا هنري دوق سوابيا من عند أوتو ملك ألمانيا ، إلى انكلترا لرؤية الملك جون ، وبعدما تلقى مبلغاً من المال لاستخدامات أوتو المذكور عاد إلى وطنه ثانية، وفي هذا العام أيضاً ، جرى —بناء على وساطة ستيفن رئيس أساقفة كانتربري— السماح بإقامة الوظائف اللاهوتية مرة في الاسبوع ، ومنح ذلك إلى الكنائس الديرية في انكلترا، لكن الرهبان البيض منعوا من القيام، بهذا العمل لأنهم وإن كانوا قد تمنعوا مع بداية الحرمان عن أداء الواجبات الدينية ، قاموا فيها بعد بناء على أوامر راعيهم الرئيسي، فاستأنفوا أعمالهم، من دون استشارة البابا.

وفي هذه الآونة، تم رسم لويس بن فيليب ملك فرنسا، وابنه الأول وولي عهده الشرعي فارساً بحزام ، وتولى رسمه والده في كومبين، مع مائة نبيل معه .

كيف دخل ملك الانكليز بمعاهدة تحالف مع ملك الاسكوتلنديين

وحشد في هذه الآونة الملك جون قوة كبيرة ، ووجه سلاحه ضد سكوتلاندا ، وعندما وصل في كونتية نورثأمبرلاند إلى قلعة اسمها نورهام Norham صف هناك جيشه وأعده للقتال ضد ملك الاسكوتلنديين ، وعندما علم الملك الاسكوتلندي بذلك بات خائفاً من الاشتباك، لأنه كان يعرف نزعة الملك إلى جميع أنواع الوحشية ، ومع ذلك قدم لمواجهة ذلك الملك للتباحث من أجل السلام ، ولكن بما ان ملك انكلترا كان مغضباً ، فقد وجه اللوم إليه لأنه استقبل في مملكته الرعايا اللاجئين من مملكته، مع أعدائه المعلنين ، وقدم لهم المساعدة وأبدى اللطف نحوهم ، لاغضاب الملك الانكليزي وازعاجه، وعلى كل حال ، بعدما طرح جون جميع هذه القضايا أمام ملك الاسكوتلنديين المذكور ، دخلا في اتفاقية بموجبها كان الملك الاسكوتلندي سيدفع إلى الملك الانكليزي اثني عشر ألف مارك من الفضة كضمانة للسلام، وعلاوة على ذلك وكضمانة أفضل للسلام ، سوف يسلمه ابنتيه كرهينتين حتى يكون السلام بهذه الوسيلة ، أكثر تأكيداً بينهما، ثم غادر الملك جون من القلعة المتقدم ذكرها ، في الثامن والعشرين من حزيران ، وأعطى أوامره بإحراق جميع الأسيجة ، وبطم جميع الخنادق في جميع أرجاء غابات انكلترا ، حتى تكون المراعي مفتوحة من أجل رعي المواشي ، وتلقى بعد هذا الولاء من جميع مواليه الأحرار ، وشمل ذلك حتى الأطفال أبناء الاثني عشر عاماً في جميع أنحاء المملكة ، وبعد ما قدموا الولاء ، استقبلهم بقبلة السلام ، ثم صرفهم ، والأمر الذي لم يسمع به من قبل في العصور الماضية ، هو أن الويلزيين جاءوا إلى الملك في وودستوك وقدموا له الولاء ، مع أن ذلك كان مرهقاً للغني وكذلك للفقير.

وجرى في هذا العام نفسه تكريس أوتو ابن أخت ملك انكلترا ، امبراطوراً في روما من قبل البابا انوسنت في الرابع من تشرين الأول.

وفي هذه الآونة قتل واحـد من الكهنة ، كـان يدرس في اكسفـورد الفنون الحرة ، امـرأة بحـادث عرضي وعندمـا رآها ميتـة ، بحث عن نجاته بالفرار ، ولدى اكتشاف عمـدة المدينة مع أشخاص آخرين معه ، المرأة الميتة ، بدأ بالبحث عن القاتل في بيته ، الذي كان مستأجراً له، مع ثلاثة من رفاقـه الآخرين ، وتولى اعتقـال رفاقه الرهبـان الثلاثة ، الذين كانوا جاهلين تماماً بمسألة القتل ، وألقى بهم بالسجن ، وبعد مضي عدة أيام ، أخذوا بنـاء على أمر من الملك — في تحد منه لحقـوق الكنيسة — إلى خـارج المدينة وشنقـوا، وبناء عليـه، انسحب الكهنة من اكسفـورد، وكـان عددهم ثلاثة آلاف مـا بين طالب ومعلم ، وبناء على ذلك لم يبق أحد في الجامعـة كلها ، وذهب بعض هـؤلاء إلى كمبردج ، وآخرون إلى ردنغ، لمتابعة دراساتهم ، وبذلك تركوا مدينة أكسفورد شاغرة.

وجـرى في العـام نفسـه انتخـاب هيـوج ، رئيس شمامسـه ويلز، ومستشار الملك، لشغـل أسقفية لنكولن، وكان ذلك بتـدبير من الملك ، وتسلم بعـد الانتخـاب مباشرة من الملك اشرافـاً كـامـلاً ومطلقـاً على الأمور القضائية في الأسقفية كلها.

كيف جرى حرمان الملك جون كنيساً بالاسم

كان الآن قـد مضى قرابة العـامين على الملك جون ، وهو على حـاله كما كان من قبل ، واستمرت الأوضـاع الصعبة في جميع أرجاء انكلترا ، بسبب الحرمـان من شركـة المؤمنيين ، واستمـر هو في المطاردة الحادة والتعذيب ضـد رجال الدين ، وكذلك ضد بعض العلمانيين ، وقـد دمر تماماً كل أمل لدى كل انسان في حـدوث أي تحسن أو ترضية ، ولم يعد بامكان البابـا انوسنت تأجيل العقوبة على عصيـانه، ولهذا قام ، بناء على نصيحة كرادلته ، وفي سبيل إجتثـاث جذور هذه الاهانة بحق الكنيسة ، فأصدر أوامره إلى أساقفة : لندن ، وايلاي، ووينكستر، إلى اعلان عقوبة الحرمـان الكنسي ضد الملك المذكـور بالاسم ، وأن يجري التفـوه بشكل

مهيب بهذا القرار في كل يوم أحد وفي كل يوم عيد، في جميع الكنائس الديرية ، في جميع أنحاء انكلترا ، وذلك بهدف ان يصبح الملك بشكل حاسم منعزلاً عن كل انسان ، وعهد الأساقفة المتقدم ذكرهم، بموجب السلطات الرسولية باعلان هذا القرار، إلى الأساقفة أتباعهم ، الذين بقيوا في انكلترا، وإلى بقية رجال الكنيسة ، لكن هؤلاء من خلال الخوف ، أو التقدير للملك ، أصبحوا أمثال كلاب خرساء ، لا يتجرأون على العواء ، وبذلك تخلوا عن القيام بواجباتهم الملقاة على عواتقهم بموجب الوصاية الرسولية ، وأخفقوا في السير وفقاً نحو السبيل المعتاد للعدالة ، ومع ذلك صار القرار في وقت قصير معروفاً من قبل الجميع في الطرقات والشوارع، لا بل حتى في أماكن تجمعات الناس ، ووفر موضوعاً للمحادثات السرية بين الجميع، وكان من بين الناس غيوفري، رئيس شمامسة نورويك ، فقد كان في أحد الأيام جالساً في الخزانة في وستمنستر يتولى القيام بأعمال الملك ، فشرع يتكلم بشكل سري مع مرافقيه، الذين جلسوا معه ، وكان موضوع حديثهم القرار الذي صدر ضد الملك ، فقال انه ليس من السليم للناس المستقيمين المحافظة أية مدة أطول على ولائهم إلى ملك محروم كنسياً ، وبعد ما قال هذا ، ذهب إلى بيته ، دون ان يطلب إذن الملك ، ووصلت أخبار هذه الحادثة فوراً إلى مسامع الملك، فغضب غضباً شديداً، فبعث الفارس وليم تالبوت Talbot مع بعض الجنود لاعتقال رئيس الشمامسة ، وبعد اعتقاله غلوه بالأغلال ، وألقوه في السجن، وبعدما أمضى هناك بضعة أيام ، وضعوا على رأسه خوذة من الرصاص ، وذلك بناء أوامر من الملك ، وبعد أمد قهره الجوع والحاجة إلى الطعام مع وزن الخوذة الرصاصية ، ففارق إلى الرب .

حول النصيحة الشريرة للاسكندر الشرير

نال في أيام الحرمان ، لاهوتي مزيف، اسمه المعلم الاسكندر ، ولقبه

ماسون الحظوة Mason الحظوة لدى الملك ،وقد آثار بمواعظه الظالمة الملك إلى أبعد الحدود، للتصرف بشكل وحشي، وقد قال بأن هذا البلاء العام لم ينزل بانكلترا بسبب أي خطأ من الملك، بل بسبب شرور رعيته، كما أعلن بأن الملك كان عصا الرب ، وأنه عمل أميراً من أجل ان يحكم شعبه ، والرعايا الآخرين التابعين له ، بعصا من حديد، وان يكسرهم جميعاً «مثل إناء فخاري» وان يغلهم بقوة بأغلال ، مع نبلائه بقيود من حديد ، وبرهن من خلال بعض المناقشات المخادعة ، انه ليس من شأن البابا التورط بالشؤون المدنية للملوك أو لأي صاحب سلطة مهما كان، أو بالحكومات التابعة لرعاياهم ، لا سيما ان ما من شيء منح من قبل الرب للقديس بطرس ، إلاّ السلطة على الكنيسة فقط، وعلى ممتلكات الكنيسة ، وبهذا وما ماثله من زيف نال مكانة لدى الملك، وحصل على عدة منافع ، كانت قد انتزعت من رجال الدين ، بالعنف من قبل الملك المذكور ، لكن حالما وصلت شرور هذا الرجل إلى مسامع الحبر الأعظم، حتىٰ تدبر تجريده من جميع سلعه ومنافعه ، وأنزله بعد أمد إلى درجة من التعاسة ، انه أرغم بسبب الحاجة ، ان يقوم وهو يرتدي ثياب أشد الناس فقراً باستجداء خبزه من باب إلى باب ، ونظر الناس إليه بازدراء قائلين:«انظروا إلى الرجل الذي لم يتخذ الرب معيناً له ، لكن وضع ثقته في حشود ثرواته، وقوى نفسه بعبثياته، ولذلك لتختف ذكراه أمام الرب من على الأرض ، لأنه لم يضع في ذهنه إظهار المرحمة ولا تذكرها، ولهذا سوف يدمره الرب حتى النهاية ، وسوف يكون كلامه ضده كذنب ، وبذلك ليمح وجوده وذكره من أرض الأحياء».

تكريس هيوج أسقفاً للنكولن

حصل في العام نفسه هيوج الأسقف المنتخب للنكولن ، على إذن الملك، بالعبور إلى فرنسا، حتى يتمكن من الحصول على التكريس من

رئيس أساقفة روان، لكنه ماأن نزل في نورماندي، حتى ذهب إلى ستيفن، رئيس أساقفة كانتربري، وبعدما قدم طاعته القانونية إلى ذلك الأسقف، جرى تكريسه من قبله في العشرين من كانون الأول، وعندما جرى اكتشاف هذا من قبل الملك، استولى على الفور على تلك الأسقفية، وحول جميع الموارد فيها لاستخداماته الذاتية، كما أنه أعطى ختمه إلى وولتر دي غري، وعينه مستشاراً له، فاتخذ سرور الملك ومتعته وظيفته وعمله في إدارة جميع شؤون المملكة.

كيف أرغم اليهود على دفع فدية كبيرة

عام ١٢١٠م، فيه كان الملك جون في وندسور أيام عيد الميلاد، وكان جميع نبلاء انكلترا حضوراً ويتحدثون معه، دون الاكتراث بقرار الحكم الصادر بحقه، وكانت اشاعة حول ذلك قد عم انتشارها في جميع أنحاء انكلترا، إنما دون إعلان، ووصلت هذه الاشاعة إلى مسامع كل انسان، وسعى الملك إلى ايقاع الشر بكل من حاولوا تغييب أنفسهم والابتعاد عنه، وجرى بعد هذا بناء على أوامر الملك، اعتقال جميع اليهود من كلا الجنسين، في جميع أرجاء انكلترا، وأودعوا السجون وعذبوا عذاباً شديداً في تنفيذ رغبات الملك، بالنسبة إلى أموالهم، وتخلى بعضهم بعد التعذيب عن كل ماكان لديهم، ووعدوا بالمزيد، وذلك في سبيل النجاة، وأصر واحد من طائفة بريستول، حتى بعد تعذيبه بشكل مخيف، على عدم دفع فدية عن نفسه، أو وضع نهاية لآلامه، وبناء على ذلك أمر الملك رجاله بلكمه على خده، واقتلاع واحد من أسنانه يومياً، حتى يدفع له عشرة آلاف مارك فضي، وبعدما اقتلعوا له، خلال سبعة أيام، سناً كل يوم مع عذاب شديد عانى منه اليهودي، ولدى شروعهم بالعملية نفسها في اليوم الثامن، وجد اليهودي نفسه مرغماً على تقديم المال المطلوب، وسدد المبلغ وأنقذ سنه الثامن، مع أنه كان قد فقد سبعة.

الحرمان الكنسي للامبراطور أوتو

تذكـر في تلك الآونة أوتـو الامبراطور الرومـاني، اليمين الذي أداه لدى ترقيتـه إلى الامبراطورية مـن قبل البـابا، أي أنه سـوف يحافظ على كـرامـة الامبراطورية، وبقـدرما ستسمح له قـدرته سـوف يعيـد تجميع حقوقهـا الموزعة، وفي سبيل ذلك أمر بـاجراء بحث، بناء على يمين من قبل رجال قـانونيين، وذلك فيما يتعلق بقلاع مملكته، والحقـوق الأخرى العائدة إلى مقـامه الامبراطوري، وكل ماوجده عـائداً للعرش، سعى إلى تحويله لاستخـدامه الذاتي، وبهذا الصدد نشـب خلاف جدي بين البـابا وبين الامبراطور، لأنه عندما كان العـرش الامبراطوري شاغراً، استولى البـابا المذكـور، وتملك عـدة قـلاع مع أشيـاء أخـرى عـائـدة إلى الامبراطورية، وبناء عليـه، لأن الامبراطور سعى لاسترداد مـاهو عائـد إليـه، أثار كـراهيـة البـابـا، دون أن يستحق ذلك، وأغضب الامبراطور نفسـه أيضاً بشكل جـدي فريدريـك ملك صقلية، الذي كـان قد قـام، بالطريقـة نفسهـا، عندمـا كـان العـرش الامبراطوري ليس مشغـولاً، فـاستـولى على بعض الأمـاكن الحصينة، وبناء عليـه تولى البـابا المذكـور بوسـاطة الـرسل والرسـائل بشكل متـواتـر تحذير الامبراطور المذكـور، وطالبه بالتمنع عن إلحاق الضرر بكنيسة روما، وأيضاً بعدم الاقدام على تجريد ملـك صقليـة مـن ممتلكاته، لأنه مـوضـوع تحت الوصـاية الامبراطورية، ويقـال بأن الامبراطور قام بالرد على رسل البـابا قائـلاً:« إذا مـاأراد الحبر الأعظم ورغب بشكل غير عـادل بتملك حقـوق الامبراطورية، دعـوه يحررني من اليمين الـذي أرغمني على أدائـه أثناء تكريسي للمقام الامبراطوري، وهو اليمين الذي قضى باسترداد الحقوق المغتصبـة للامبراطورية، والحفـاظ على الحقـوق التي لدي»، لكن البـابا رفض تحليل الامبراطور من اليمين الذي اعتاد جميع الأباطرة على أدائه، أثناء تكـريسهم، على الانجيل المقـدس، ومن الجانب الآخـر، رفض

الامبراطور التخلي عن حقــوق الامبراطورية، التـي استرد معظمهـــا بالقـوة، ولذلـك أصـدر البـابا المذكـور قـراراً بـالحرمـان الكنسي ضـد الامبراطور، وحلل جميع نبـلاء ألمانيـا، وكـذلك نبـلاء الامبراطورية الرومانية من الطاعة له.

كيف قاد ملك انكلترا جيشاً إلى ايرلندا

حشد الملك جون في هذا العام جيشا كبيراً، في بمبروك Pembroke في ويلز، وأقلـع يريد ايرلنـدا، حيث وصل إلى هنـاك في الســـادس من حزيران، ولدى وصوله إلى دبلن التقاه أكثـر من عشرين مقدماً من تلك المنطقة وهـم خائفين جداً، وأدوا الـولاء له، وأدوا يمين التابعية إليه، ولم يفعل— على كل حـــال— بعضهـم ذلك، ورفضـوا القــدوم إلى الملك، لأنهم سكنوا في أمـاكن منيعـة، وقـرر الملـك هناك القـوانين الانكليـزية والأعراف الانكليـزية، وعين عمداً للمناطق ووكـلاء لحكم شعب تلك المملكة، وفقـاً للقـوانين الانكليـزيـة، كما عين جـون، أسقف نورويك، رئيساً للعـدالة هناك، وهو الذي أمر بضرب بنس لتلك البـلاد له الوزن نفســه مثل البنس الانكليـــزي، وأمـر بضرب نصف بنـس، وربع بنس مستـدير، وأمـر الملك أيضـاً باستخـدام النقـود بشكل عـام في انكلترا، ومثل ذلك في ايـرلندا، وأن نقـود المملكتين يتـــوجب وضعهما معـــا في خزانته، وبشأن استدارة هذه النقود كـان مورلين المتنبيء قد قال متنبئاً:« إن شكل التجـــارة ســـوف يكون مقســـومـــا، والنصف ســـوف يكون مستديـراً»، وسار الملك بعد هـذا وزحف مع قوة عظيمـة واستولى على عدد من حصـون أعدائه وهرب من أمـامه وولتر دي لاسي، وهو رجل من أصل نبيل، وجـاء فراره مع عـدد من الآخـرين، كانوا خـائفين من الوقوع بين يديه، ولدى وصـوله إلى منطقة ميث Meath حاصر زوجة وليم دي بـروز، ووليم ابنهـــا مـع زوجتـــه في حصن هنـاك، وأسرهـم، وأرسلهم مثقلين بالأغـلال إلى انكلترا، وأمـر بسجنهم والتضييق عليهم

في قلعة وندسور، وبعدما رتب الملك جون الأمور حسب هواه في الشطر الأعظم من ايرلندا، أقلع منتصراً نحو انكلترا، ونزل هناك في التاسع والعشرين من آب، ثم بادر مسرعاً إلى لندن، وأمر باجتماع كل أساقفة انكلترا بحضرته مع رجال الدين جميعاً، وقدم إلى ذلك الاجتماع العام: رعاة الديرة، والكهنة، وراعيات الديرة، والداوية، والاسبتارية، ورؤساء ديرة الـ Vills ، وطائفة كلوني، وآخرون من مناطق أجنبية، وأناس من كل مرتبة وطائفة، وأرغم هؤلاء جميعاً على دفع غرامات ثقيلة، والانفاق بشطط من موارد الكنيسة، حتى قيل بأن الأموال التي استخرجت تجاوزت مائة ألف باوند استرليني، أما بالنسبة للرهبان البيض، فقد جرى تمييزهم عن البقية، وذلك بعدما حرموا من امتيازاتهم، ومع ذلك أرغموا أيضاً على دفع أربعين ألف باوند من الفضة إلى الملك، في حملة الضرائب هذه.

وحدث في هذا العام أيضاً أن السيدة النبيلة ماتيلدا، زوجة وليم دي بروز، وابنها ووريثها وليم مع زوجته، وكانوا في السجن في ويند سور، بناء على أوامر الملك، قد ماتوا جوعاً في ذلك المكان.

كيف أخضع ملك انكلترا أمراء ويلز

عام ١٢١١م، فيه كان الملك جون، أيام عيد الميلاد في يورك، بصحبة ايرلات وبارونات مملكته، وحشد في العام نفسه هذا الملك جيشاً كبيراً في ويتتشيرش Whitchurch ، ومن هناك زحف إلى داخل ويلز، في الثامن من تموز، وتوغل بقوة عظمى إلى داخل تلك البلاد حتى سنودون Snowdon ، وقد دمر جميع الأماكن التي وصل إليها، وأخضع جميع الأمراء والنبلاء من دون معارضة، وتسلم ثمانية وعشرين من الرهائن، ضمانة لخضوعهم في المستقبل، وعاد بعد هذه النجاحات، في يوم عيد صعود القديسة مريم، إلى ويتتشيرش، وذهب من هذا المكان إلى نورثأمبتون، والتقى هناك برسولين مع رسائل من مولانا

البابا، وكانا: باندولف Pandulph ، وهو نائب شماس وكاردينال للكرسي الرسولي، ودوراند Durand ، وهو راهب من فرسان الداوية، وقد جاءا من أجل اعادة السلام بين الكهنة والملك، وبعدما تشاور الملك مع الرسولين منح برضا الإذن إلى رئيس الأساقفة والرهبان، وإلى جميع الأساقفة الذين تقدم ذكرهم بالعودة إلى مواطنهم بسلام، لكنه رفض تقديم العون إلى رئيس الأساقفة والأساقفة مقابل الخسائر التي عانوا منها، أو تقديم ترضية لهم مقابل ممتلكاتهم التي جرت مصادرتها، وعاد الرسولان إلى فرنسا دون إكمال عملهما، وبعد هذا فرض الملك جون ضريبة على الفرسان الذين لم يكونوا في الجيش في ويلز، وكان مقدارها ماركين على كل محلجة.

وأنهى في هذا العام رجل نبيل، هو الفارس المشهور روجر، قسطلان شيستر، حياته.

كيف نفى الملك الفرنسي رينالد كونت أوف بولون

وجرى في هذه الآونة بشكل غير عادل، طرد رينالد كونت أوف بولون، من كونتيته، من قبل الملك الفرنسي، مع أنه كان جريئاً، ومحارباً، وقد حرم من جميع ممتلكاته، وبعد طرده، أعطى الملك المتقدم الذكر، الكونتية نفسها إلى ابنه فيليب، مع ابنة الكونت المذكور، ووريثته الشرعية، وقد أعطاه الكونتية ليتملكها، ولتكن حقاً له إلى الأبد، وذهب الكونت رينالد، إلى انكلترا، واستقبل بتكريم من قبل الملك جون، وبكرم تسلم منه ثلاثمائة باوند كمورد أرضي، ومقابل ذلك قدم الولاء إلى الملك المذكور، وأقسم يمين التابعية.

موت وليم دي بروز

أنهى في هذه الآونة وليم دي بروز الأكبر حياته في كوربيل Cor-beil، وكان قد هرب إلى فرنسا من الملك جون، وقد دفن مع التشريف

في دير القديس فكتور في باريس.

وفي هذا العام تملكت الدهشة البابا انوسنت إلى أقصى الحدود تجاه قحة الملك جون وتمرده، في رفضه النصيحة المفيدة التي قدمها له رسله، الذين بعث بهم إليه لمناقشة شروط للمصالحة، فحلل من الولاء والتبعية للملك الانكليزي، الأمراء، وجميع الآخرين من أعلى المراتب وأدناها سواء، من الذين عليهم واجبات تجاه التاج البريطاني، وجاء هذا التحليل واضحاً، وتحت تهديد عقوبة الحرمان الكنسي، وقد أمرهم بدقة بوجوب تجنب الالتقاء به والتعامل معه، على المائدة، أو في مؤتمر أو محادثة، وفي أيام الحرمان هذه كان لدى الملك أكثر المستشارين شروراً، الذين لن أحذف أسماءهم، ولن أتخلى عن ذكرها جزئيا هنا، وهم: وليم، أخو الملك وايرل سالسبري، وألبيرك Alberic دي فيرل، ايرل أكسفورد، وغيوفري فتز— بيتر، المتولي للعدالة، وفيليب أوف درم، وبيتر أوف وينكستر، وجون أوف نورويك، ورتشارد مارشال المستشار، وهيوج دي نيفل المسؤول عن الغابات، ووليم دي وورثهام مدير الموانىء البحرية، وروبرت دي فيبونت Vipont، وأخوه إيفو Ivo، وبرين دي لآيل Lisle، وغيوفري دي لوسي، وهيوج دي باليول Bal-iol، وأخوه برنارد، ووليم دي كانتيلو Cantelu، وهنري دي كورنهل Cornhill، عمدة كنت، وروبرت دي بريبروك Braybrook، وابنه هنري، وفيليب دي أوليكوت Ulecote، وجون دي باسنغبورن Bas-singbourne، وفيليب مارسي Marcy قسطلان أوف نوتنغهام، وبيتر دي مولي Maulei، وروبرت دي غوغي Gaugi، وجيرارد دي أتي Atie، واينغلارد Engelard حفيده، وفولك ووليم بريأوري Briuere، وبيتر فتز— هيربيرت، وتوماس باسيت Bassett، مع كثيرين آخرين، أن تتولى ذكرهم سوف يكون أمراً متعباً، وقدم هؤلاء جميعا نصائحهم وفقاً لما رغبوا به في إرضاء الملك ولسروره، ليس وفقاً

للعقل، بل وفقاً لما أملته مسرات الملك ومتعه.

كيف رسم ملك انكلترا الاسكندر ابن ملك الاسكوتلنديين فارساً

عام ١٢١٢م، فيه كان الملك جون في ويندسور وفي يوم أحد الفصح، في الصوم الكبير التالي، أقام الملك المذكور احتفال العيد في لندن، في القديس بردجيت Bridget، في مشفى أوف كليركنول Clerkenwell، ورسم عند المائدة الاسكندر ابن ملك اسكوتلندا وولي عهده فارساً.

ومات في العام نفسه في بونتني Pontigny موغر أسقف وينكستر، الذي كان في المنفى، ورجلاً مشهوداً له من أجل حماية حقوق الكنيسة، ولمحافظته على العدل.

كيف جرى تحذير ملك انكلترا بوجود خيانة ضده

وخرج الويلزيون في هذه الآونة من مكامنهم، واستولوا على بعض قلاع الملك الانكليزي، حيث قتلوا كل الذين وجدوهم فيهم من فرسان وجنود سواء، كما أحرقوا عدة بلدات، وقاموا بعد هذا كله بجمع كميات كبيرة جداً من الأسلاب، فحملوا أنفسهم ثانية عائدين إلى مكامنهم من دون أية خسائر لأنفسهم، وعندما باتت هذه الأحداث معروفة من قبل الملك، غضب غضباً شديداً، وحشد جيشاً كبيراً من الفرسان والعساكر الرجالة، مقرراً الانتقام ونهب المناطق الويلزية، وافناء سكانها، ولدى وصوله مع جيشه إلى نوتنغهام، وقبل أن يأكل أو يشرب، أمر بثمان وعشرين شاباً، كان قد تسلمهم رهائن من الويلزيين، في العام الماضي، بتعليقهم على المشانق، انتقاماً للأعمال العدوانية التي اقترفها أبناء بلادهم، وعندما كان بعد هذا جالساً إلى المائدة يتناول طعامه ويشرب، وصل إليه رسول من ملك اسكوتلندا، وناوله رسائل، حذره فيها من وجود مؤامرة تحاك ضده، وإثر ذلك مباشرة وصل إليه

رسـول آخـر من ابنة الملك نفسـه، زوجـة ليـولين Leolin، ملك ويلز، وجلب الرسول الثـاني رسائل لاتشبه الرسـائل الأولى، وقد أخبر الملك بأن المحتويات كانت سرية، واختلى الملك به بعد الطعام جانباً، وأمره أن يشرح له معنى الرسـائل، فـوجـد أن الـرسـولين وإن قـدمـا من بلدين مختلفين قد حملا خبراً واحدا، وكان لهما غاية واحدة، وكان ذلك، أنه إذا ماواظب الملك على الحرب التـي بدأها، فإنه إما سيقتل من قبل نبـلائه، أو سوف يسلم إلى أعـدائه من أجل إهلاكه، وخاف الملك خـوفاً عظيماً لدى سماعه بهذا، ولأنه كان يعرف بـأن النبلاء الانكليز كانوا محللين من الولاء له، آمن أكثر بصحة ماجـاء بالرسائل، لذلك غيّر بعقلانية نواياه، وأمـر جيشه بالعـودة إلى الوطن، وذهب هو شخصيـاً إلى مـدينة لندن، حيث قام إثر وصـوله، بارسال رسل إلى جميع النبـلاء، الذين كان يشك بولائهم له شخصيـاً، وطلب رهائن منهم، حتى يتمكن بهذا من معرفـة الذين كـانوا على استعـداد لطاعتـه، والذين لم يكونوا على استعـداد لطاعته، ولم يتجرأ النبلاء على عدم طاعة أوامر الملك، فبعثوا بأولادهم، وحفيداتهم، وبآخرين من أقـربائهم، للحصول على رضا الملك، وبذلك خمد غضبـه إلى حد مـا، وقام— على كل حـال— يوستاس دي فيـزكي Vesci، وروبرت فتـز— وولتر، وكانـا عرضـة للتهمـة بتدبير المؤامـرة المذكـورة أعـلاه، وكـانا مـوضع شك عظيم لدى الملك وريبـة، فغـادرا انكلترا، فقـــد انسحب يوستـــاس إلى اسكوتلندا، وذهـب روبرت إلى فرنسا.

بطرس الناسك ونبوءته

قطن في هذه الآونة في كـونتية يورك، ناسك اسمـه بطرس، وقد عـدّ رجـلاً حكيما، بسبب أنـه أخبر عـدداً كبيراً من الناس بـوقـائع كثيرة حـدثت، وبين أشياء كثيرة كـانت مـوضع روح التنبؤ لديه، قـد تعلقت بجـون ملك الانكليز، حيث أعلن بشكـل مكشوف، وأمـام الجميع بأنه

لن يكون ملكاً مع حلول يوم عيد الصعود المقبل، لابل إنه تنبأ بعد ذلك أنه في ذلك اليوم سوف ينتقل تاج انكلترا إلى واحد آخر، ووصلت هذه التأكيدات إلى معرفة الملك، فأمر باحضار الناسك أمامه، وسأله الملك، عما إذا كان سيموت في ذلك اليوم، أو كيف أنه سيحرم من عرش المملكة، فأجابه الناسك:« كن متأكداً بأنك لن تكون في اليوم الذي تنبأت عنه، ملكاً وإذا ماتبرهن أنني أخبرت بالكذب، افعل معي ماتريده»، وهنا قال له الملك:« ليكن كما تقول»، ثم إنه عهد بالناسك ليوضع في السجن لدى وليم دي هاركورت Harcourt، الذي أثقلة بالسلاسل واحتفظ به في كورفي Corfe، بانتظار حادثة النبوءة، ومالبث اعلان الناسك هذا أن انتشر على الفور في الخارج، حتى وصل إلى أقصى المناطق النائية، وبذلك صدقه معظم الذين سمعوه، وآمنوا بماتنبأ، وكأن هذه النبوءة قد أعلنت من السماء، وكان في ذلك الحين في مملكة انكلترا، كثيراً من النبلاء تولى الملك فضح زوجاتهم وبناتهم، لإهانة أزواجهم وآبائهم، كما كان هناك كثيرين استصفاهم الملك وأنزلهم إلى الفقر الشديد، ومثل هذا كثيرين أيضاً كان قد تولى نفي آبائهم وأقربائهم، وحول ممتلكاتهم لاستخداماته الشخصية، وعلى هذا كان عدد أعداء الملك المذكور من الكثرة بمكان بقدر تعداد جميع نبلائه، وبناء عليه، لدى معرفتهم في هذه الأزمة، بأنهم كانوا محللين من الولاء لجون، كانوا مسرورين جداً، وإذا كان من الممكن تصديق الروايات، لقد أرسلوا أوراقاً مختومة بأختام كل واحد من النبلاء المذكورين، إلى الملك الفرنسي، يخبرونه أنه يمكنه أن يأتي بأمان إلى انكلترا، حتى يستحوذ على المملكة، ويتوج بكل تشريف وكرامة.

كيف صدر قرار بالخلع ضد الملك جون

وفي هذه الآونة، ذهب ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، مع الأسقفين: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف إيلاي، إلى روما،

وأخبروا البـــابـا بمختلف أعمال التمـــرد والجرائم التي اقترفهـــا ملك انكلترا، من وقت حرمانه مـن شركة المؤمنين حتى الوقت الحالي، فهو لم يتـوقف عن إلقــاء يد الاغتصـاب والاكـراه والوحشيــة على الكنيسـة المقدسة، معاداة منه للرب، والتمســوا بناء عليه بتواضع أن يتفضل البابا برحمتـه التقيـة بمساعـدة كنيسـة انكلترا، التي كـانت تعـاني من لحظات بقـائها الأخيرة، وحـزن البابا وقتهـا حـزناً عميقاً من أجل إقفـار مملكة انكلترا وعـزلتها، فقـام بناء على نصيحـة كـرادلته، وأسـاقفتـه، والناس العقـلاء الآخـرين، فقضى بشكـل محدد بأن جـون ملك انكلترا، ينبغي خلعه من على عرش تلك المملكة، وأنه يتوجب اختيار واحد أفضل منه من قبل البـابا، ليخلفه، وفي سبيل تنفيذ قـراره هذا، كتب مولانـا البابا، إلى فيليب ملك فـرنسا القـوي، يعفيـه من جميع ذنوبه، ويأمره أن يتـولى القيام بهذا العمل، وأعلمـه أنه بعدما يتمكـن من طرد الملك الانكليزي من عـرش تلك المملكة، فإن خلفـاءه سـوف يستحـوذون مملكة انكلترا بشكل أبدي، وبالإضافـة إلى ذلك كتب إلى جميع النبلاء الفـرسان، وإلى أمثالهم من رجال الحرب الآخرين، في مختلف مناطق المملكة، آمراً إياهم بحمل شارة الصليب، وأن يتبعوا الملك الفرنسي، على أنه قائدهم، حتى يمكن خلع الملك الانكليزي، وبذلك ينتقمـون للإهانة التي ألقيت على الكنيسة العالمية، كما أنه أمر بوجـوب عدّ جميع الذين قدموا شخصيا، أو قدّمـوا مساعـدة شخصية في خلع ذلك الملك المتمرد، مثـل الذين ذهبوا لزيارة ضريح الـرب، وأن يبقـوا آمنين تحت حماية الكنيســة، فيما يتعلق بممتلكاتهم، وأشخاصهم، واهتمامـاتهم الروحية، وبعث البـابا بعد هذا، من جانبه باندولف نائب الشماس مع رئيس الأساقفة والاسقفين، الذين ورد ذكرهم أعـلاه، إلى المناطق الفرنسية، حتى يمكن بحضـورهم تنفيذ جميع الأوامـر المذكــورة أعـلاه، ثم قـام باندولـف قبل أن يترك البـابا، وعندما كان البقية بعيدين عنه، فسأل البابا بشكل سري، واستوضح من قداسته، عن الذي سوف يـرضيه أن يفعل، إذا صدف ووجد أية ثمار في

توبة جون، وأنه سوف يقدم ترضيـة مقنعة إلى الرب، وإلى كنيسة روما، فيما يتعلق بجميع أعماله، وعندها أملى عليه البـابا صيغة بسيطة للسلام، وقـال: إذا مـاقـرر جـون الموافقـة عليهـا، يمكنه أن يجد الحظوة لدى الكرسي الرسولي، ولسوف يأتي فيما بعد وصف لهذه الشروط.

عودة رئيس أساقفة كانتربري مع الأسقفين المذكورين من عند الكرسي الرسولي وموت غيوفري رئيس أساقفة يورك

عـام ١٢١٣م، فيـه عقـد الملك جـون بلاطه في عيـد الميـلاد في وستمنستر، برفقة عدد ضئيل جداً، من الفـرسان كانوا في ركابه، ومات في تلك الآونة غيـوفري رئيس أساقفـة يورك، الذي كان قـد مضى على وجـوده بالمنفى سبعة أعـوام، وذلك بسبب دفاعـه عن حقوق الكنيسـة والحفاظ على العـدل، وفي شهر كـانون الثاني، مـن هذا العام نفسـه عاد ستيفن رئيس أسـاقفـة كـانتربري مع وليم ويوستـاس، أسقفي لندن وإيلاي، من بلاط رومـا، وعقـدوا مـؤتمراً في القارة، أعلنوا فيـه بوقـار مناسب عن القـرار الذي صـدر ضد الملك الانكليـزي بسبب عصيـانه، وجعلوا ذلك معلوماً من قبـل الملك الفرنسي، والأساقفـة الفرنسيين مع رجال الديـن، وكذلك إلى الشعب بشكل عـام، وبعد هذا، فـرضوا على الملك الفـرنسي وكـذلك على الآخـرين جميعـاً، باسـم مـولانا البـابا، أنه مقابل إعفـائهم من ذنوبهم، يتوجب عليهم القيـام جميعاً متحـدين بغزو انكلترا، وخلع جون من عرش المملكـة، وتعيين واحد آخر محله، وذلك تحت السلطة الرسـوليـة، التي هي جـديرة بالقيـام بذلك، ولدى رؤية الملك الفرنسي، مـاتشوّق إليه قد اقترب حـدوثه، عمل جميع استعداداته من أجل الحرب، وأمـر رعـاياه جميعـا سواء، والدوقـات، والكونتـات، والبـارونات والفـرسـان، والأتبـاع، بـأن يعـدوا أنفسهم مع الخيـول والسـلاح، وأن يحتشدوا بقـواهم في روان في اليـوم الثـامن من الفصح، وذلك تحت عقـوبة الوصم بـالجبن، ونيل تهمـة الخيـانة، ومـثل هـذا

أمـر جميـع سفنـه، وسفنـاً أخرى استطاع جمعـها، بأن تشحـن بشـكل جيـد بـالحبـوب، والخـمرة، والـلحوم، والمـؤن الأخـرى، حتى تكون لديهم وفـرة بجميـع الضروريـات التـي يحتاجهـا مثـل ذلـك الجـيش الكبـير.

استعدادات الملك جون لمقاومة أعدائه القادمين

ولدى اطلاع الملك جـون، بوسـاطة الجواسيس، عما كـان يجري في مقاطعات مـاوراء البحر، تولى إعداد أفضل دفاع يستطيعـه ضد الخطط، التي أعدت ضده، ولذلك أمر بإعـداد قائمة بجميع السفن في كل ميناء من موانىء انكلترا، وجـاء ذلك بوساطة تفـويض عمله لكل واحد من الوكلاء، في كـل ميناء للقيام بهذا العمل، وكان نـص التفويض كما يلي: «من جـون ملك انكلترا، الخ، نحن نأمـركم أن تقـومـوا فـور تسلمكم رسائلنا هذه، بـالذهاب شخصياً مع الوكلاء في المينـاء إلى كل واحد من المراسي الموجـودة في وكالتكم، وأن تعملوا لائحـة دقيقـة بجميع السفن التي تجدونها هناك، قـادرة على حمل ستـة خيـول أو أكثـر، وأن تأمـروا باسمنا القبـاطنة وكذلك أصحـاب هذه السفن، أن يكونوا هم أنفسهم، مع سفنهم وجميع الممتلكـات العـائـدة إليهم، في بورتماوث في منتصف الصـوم الكبير، وأن تكـون سفنهم مشحـونة بالمؤن وبالمعـدات بشكل جيد، مع بحارة مجربين، وعساكر جيدين، للدخول في خدمتنا، وليكونوا تحت تصرفنا من أجل خـلاصنـا، وأن تعـدوا وقتهـا وفيها بعـد لائحـة واضحـة وصحيحة بعـدد السفن التي وجدتموها في كل ميناء، ولمن هم، وكم من الخيـول تستطيع كل سفينـة أن تحمل، ثم أن تخبرونا كـم من السفن وما هي الأنواع، مما ليس موجـوداً في موانئهم في يوم الأحد بعد أربعـاء الرماد، وذلك كما أمـرنا، وسـوف يظل هذا التفويض قـائماً، من أجل الأمر نفسه، شهدت بنفسي، في المعبـد الجديد، في اليوم الثالث من آذار».

وبعدما عمل هذا بالنسبة للسفن وأعده، بعث الملك برسائل أخرى إلى جميع عمد مناطق مملكته، فيها الأوامر التالية:« من جون ملك انكلترا، الخ: أنذر بوساطة عمال جيدين، جميع الايرلات، والبارونات، والفرسان، وجميع الرجال الأحرار والأقنان— أينما كانوا، ومهما كان العقد الذي بين أيديهم، أنه يتوجب أن يكون لديهم سلاح، أو أن يتولوا شراء سلاح، والمقصود بهذا الذين قدموا الولاء لنا، وأقسموا على طاعتنا، ولديهم تقدير لنا، أن يكونوا هم أنفسهم، مع جميع مقتنياتهم في دوفر في نهاية الصوم الكبير المقبل، مجهزين بالخيول وبالسلاح، وبكل مايمكنهم إعداده وتوفيره، وذلك بغية الدفاع عن ذاتنا كما يدافعون عن ذواتهم، وعن أرض انكلترا، وينبغي أن لايتخلف انسان قادر على حمل السلاح، وذلك تحت عقوبة الوصم بالجبن، والإدانة بعبودية دائمة، وعلى كل انسان وجوب اتباع مولاه، وعلى الذين لايمتلكون أرضاً، ولكنهم قادرون على حمل السلاح، أن يقدموا ويشاركوا في خدمتنا كمرتزقة، وفضلاً عن هذا أرسل جميع المؤن الممكن نقلها، واجعل جميع الأسواق الموجودة في وكالتك أن تلحق بجيشنا، وأن لايعقد سوق في أي مكان آخر في وكالتك، وقم أنت نفسك بالحضور في ذلك المكان مع عمالك المتقدم ذكرهم، وكن متأكداً أننا نود أن نعرف كيف سارت الأمور في وكالتك، ومن الذي جاء ومن الذي لم يقدم، وانتبه بأن تقدم مزوداً بشكل جيد بالخيول وبالسلاح، حتى لانكون مرغمين على التعامل معك شخصياً، وينبغي أن يكون لديك ملفاً، لكي تتمكن من اعلامنا عن الذين بقيوا».

ولدى انتشار هذه الرسائل وتوزيعها في جميع أنحاء انكلترا، احتشد في موانيء البحر في مختلف المناطق، التي جذبت انتباه الملك مثل: دوفر، وفيفرهام، وايبسويتش Ipswich، أناس من مختلف الأحوال والأعمار، الذين لم يخافوا من شيء أكثر من خوفهم من اسم جبان، لكن بعد مضي

عدة أيام، نقصت المؤن لديهم بسبب أعـدادهم الكبيرة، ولذلك قام قادة الجيش بإعـادة أعداد كبيرة من النـاس إلى بيوتهم، ممن لم يكونوا رجـالاً مجربين، واحتفظوا عند الشـاطىء بالجنود، والأتبـاع والرجال الأحـرار، مع رجـال القسي الزيارة والرمـاة، علاوة على ذلك، قـدم جـون أسقف أوف نورويك إلى الملـك من ايرلندا، مع خمسمائـــة فـارس، وكتلة من الجنود الخيـالة، وقد استقبل بترحـاب كبير من قبله، ولدى اجتماع جميع القوات في بارهام داون Barham Down، جرى تعداد الجيش، فكان ستين ألفاً من الرجال الأشداء، بما فيهم الفرسان النخبة وأتباعهم، وهم مسلحـون بشكل جيد، ولو كـانوا على قلب واحـد، وتوجه واستعـداد واحـد نحو ملك انكلترا، والدفـاع عن بلادهم، ماكـان هناك أمير تحت السماء لايمكنهم الدفـاع ضده عن مملكة انكلترا، وقـرر الملك الاشتباك بأعدائـه في البحر، ليغرقهم قبل نزولهم إلى اليـابسة، لأنه امتلك اسطولاً أكثـر قـوة من اسطول الملك الفـرنسي، وفي هذه الخطة، وضـع أهدافـه الرئيسية في الدفاع.

قدوم باندولف إلى الملك

وعندما كان الملك الانكليزي مع جيشه ينتظر وصول ملك فرنسا إلى قرب ساحل البحر، وصل اثنان من فـرسان الداوية إلى دوفر، وقدما إلى الملك بطريقـة صـديقـة وقـالا له:« لقـد أرسلنا إليك أيها الملك الأعظم قوة، لفـائدتك نفسك، وفائـدة مملكتك من قبل باندولف نائب الشماس والصـــديق المقـــرب من مـــولانا البـــابا، وهو يرغـب بالاجتماع معك والتحـادث، ولســوف يقترح عليك شكل مصـــالحة، فيهـــا يمكن أن تتصـالح مع الـرب، ومع الكنيسـة، مع أنك قـد حـرمت من حقك في تملك انكلترا، من قبل بلاط رومـا، وجرت إدانتك بوساطـة قرار حكم صـادر عـن ذلك البـلاط، ولدى استماع الملك لحديـث هذين الداويين، أمرهما بعبـور البحر على الفور، واحضـار باندولف إليه، وبناء على هذه

الدعـوة جــاء باندولف إليـه، والتقى بالملك في دوفــر، وخــاطبه بهذه الكلمات:« اعلم بأن ملك فرنســا الأعظم قوة مـوجود الآن عند مصب السين مع اسطـول لاعــدّ لـه ولاحصر وجيش كبير من الفـــرســـان والرجالة، ينتظـر حتى يقوى بقوة كبيرة، كي يقـدم إليك ويهجم عليك وعلى مملكتك، وليتولى طردك بالقوة بحكم كونك عدواً للرب، وللحبر الأعظم، وليتولى بعـد ذلك، بتفويض من سلطة الكـرسي الرسولي، على مملكة انكلترا بشكل دائم، ولسوف يقـدم معه من هناك الأساقفة الذين نفيتهم منـذ زمن طويل مـن انكلترا، وذلك مع رجــال الـدين المنفيين والعلمانيين، فهـؤلاء سـوف يقدمـون له المسـاعـدة لاسترداد كـراسيهم الأسقفيـة بـالقـوة مع الممتلكات الأخــرى، وليقـدمــوا له في المستقبل الطاعة، التي أبدوها من قبل نحوك ونحو آبائك، علاوة على ذلك، لقد قـال الملك المذكـور بـأنه يمتلك أوراقـاً بالولاء والطاعــة من الغـالبيـة العظمى لنبلاء انكلترا، وهو على أساسهـا يشعر بالأمان والاطمئنان بأنه سوف يوصل العمل الذي شرع به إلى نهاية ناجحة تماماً، وعلى هذا فكر بمنافعك، وأقبـل على التـوبة، فـأنت في اللحظة الأخيرة، ولاتتأخــر في إرضاء الرب الذي أغضبتـه، ودفعته لأن ينتقم منك انتقامـاً ثقيلاً، وإذا كنت على استعــداد لتقـديم ضمانة كــافيـة، بأنك ســوف تخضع لحكم الكنيسـة، وأن تتـواضع بنفسك أمـام الـذي تواضع بنفسـه من أجلك، يمكنك وقتهـا أن تسترد سيـادتك، برحمة مـن الكرسي الرسـولي، وهي السيـادة التـي خلعت منهـا في رومـيـا بسبب تمردك، والآن فكر وتمعن، خشيـة أن يمتلـك أعـداؤك سبباً للضحـك عليك، ولاتضع نفسك في المآزق، التي منها لن تكون قادراً على التخلص، مهما رغبت بذلك».

كيف أثير الملك جون للاقدام على التوبة

واستمع الملك جـون، ورأى في الذي سمعـه الصـدق، وقـد غضب كثيراً، وارتعب لأنه شــاهد كـم هو الخطر قـريب من جميع الجهـات،

وتوفرت أربعة أسباب لحضه على التوبة والتكفير، وكان أولها أنه كان قد مضى عليه حتى الآن خمس سنوات وهو تحت الحرمان الكنسي، وأنه قد أغضب الرب والكنيسة المقدسة، إلى حد أضاع فيه جميع الآمال في إنقاذ روحه، وكان السبب الثاني هو خوفه الشديد من وصول الملك الفرنسي، الذي كان ينتظر قرب شاطىء البحر مع جيش لايعدّ ولايحصى، ولديه خطة لاسقاطه، وكان السبب الثالث خوفه من أنه إذا ماشتبك بالقتال مع أعدائه الذين اقترب وصولهم، أن يتخلى عنه نبلاء انكلترا، ويتركوه في الميدان لوحده، وأن يفعل ذلك شعبه أيضاً، أو أن يسلموه إلى أعدائه لتدميره، وكان السبب الرابع قد أرعبه أكثر من البقية، وتمثل باقتراب يوم صعود الرب، فوفقاً لنبوءة بطرس الناسك، التي تقدم ذكرها من قبل، سوف يفقد حياته الدنيوية ومعها حكم المملكة، وبما أنه قد دفع إلى حافة اليأس بهذه الأسباب وبأسباب مشابهة، فكان أن أذعن لضغط باندولف واقتنع، لكن ليس من دون ألم، فقبل بصيغة السلم المدونة أدناه، وأقسم بالانجيل المقدس بحضور باندولف، بأنه سوف يكون مطيعاً لحكم الكنيسة، وأقسم أيضاً ستة عشر من أكثر نبلاء انكلترا قوة، وتعهدوا أنه إذا ماأقدم على نقض وعده، سوف يبذلون كل ماوسعهم من طاقة في إرغامه على الوفاء به.

صك الملك جون الذي أعطاه ترضية لرئيس أساقفة كانتربري مع رهبانها ورجال الدين الآخرين وأساقفة انكلترا، ومن أجل إعادة ممتلكاتهم المصادرة

وفي اليوم الثالث عشر من أيار، الذي كان يوم اثنين، جاء بعد عيد الصعود المتقدم، اجتمع الملك مع باندولف، والايرلات، والبارونات، وعدد كبير من الناس احتشدوا هناك، في دوفر، وهناك وافقوا بالاجماع على صيغة السلام المكتوبة أدناه:

« من جون ملك انكلترا إلى جميع هؤلاء الحضور، والذين سيقدمون،

التحيات» إنه بوساطة هذه الرسائل المرخصة منا والمختومة بختمنا، نرغب أن يكون معلوماً، أنه قام بحضورنـا، وبناء على أوامرنا، البارونات الأربعة التـالية أسماؤهم: وليم ايرل سـالسبري، وهو أخونا، وريتالد كـونت أوف بولون، ووليم ايرل ويرني Warenne ، ووليم كونت أوف فيرار Fer-rars ، فأقسمـوا ضمانـة لأنفسنا، أننا سنقـوم باخـلاص بالحفـاظ على السلم الموصوف أدناه في جميع الأشياء، وبناء عليـه إننا نقوم في المقام الأول بالاقسـام بشكـل مهيب ودقيق، بحضـور النائب البـابوي، على الالتـزام بأوامر مـولانا البابا في جميع القضايا التي من أجلها حـرمنا كنسيا من قبله، وأننا سوف نمنح سـلاماً دقيقـاً ونلتزم به، ونقدم أمـاناً شامـلاً إلى الرجال المبجلين التـالي ذكـرهم: ستيفن رئيس أسـاقفـة كـانتربري، ووليم أسقف لندن، ويوستـاس أسقف ايلاي، وجـايل أسقف هيرفـورد، وجـوسلين أسقف باث، وهيـوبرت أسقف لنكولن، وإلى رئيس رهبـان ورهبـان كـانتربري، وإلى روبرت فتز— ولتر، ويوستـاس دي فيزكي، وأيضـاً إلى بقيـة رجال الـدين والعلمانيين المرتبطين بهذه المسألة، ونقسم بشكل علني، في الوقت نفسـه، بحضـور النائب البـابوي، أو المندوب البـابوي، بأننا لن نؤذيهم في ممتلكاتهم، أو نتسبب، أو نسمح بتعرضهـم للأذى بأشخاصهم، أو ممتلكاتهم، ولسـوف نلغـي جميع غضبنا عنهم، وسنستقبلهـم بحظوتنا، وسنحـافظ على هذا ونرعـاه بصدق وإيمان جيـد، وكـذلك لن نعيق رئيس الأساقفـة المتقدم ذكره مع الأساقفـة أو نتسبب بإعاقتهم، أو نسمح بذلك، أي بمنعهم عن أداء واجبـاتهم بكل حـرية، وبالتمتع بسلطـات كـاملة في أعمالهم الإدارية والقضـائيـة، وذلك كما ينبغي لهم أن يفعلوا، ولهذا سـوف نمنح رسائلنا موثقـة معتمدة سواء: إلى مولانا البـابا، وإلى رئيس الأساقفة المذكـور، وإلى كل واحـد من الأسـاقفـة، وأن نجعل أسـاقفتنا، وايرلاتنا، وباروناتنا، بقدر ماسيختاره منهم رئيس الأساقفـة المتقدم ذكره والأساقفة المذكـورين، يتقـدمـون بأيمانهم وبرسـائل معتمـدة مـوثقـة أنهم أنفسهم سيبذلون جهـودهم لرؤية السلام والترتيبات، قـد حفظت بثبات، وأنه إذا

ماحـدث— لاسمح الرب— فقمنا إما نحن بأنفسنا، أو بوسـاطة آخرين، بمخالفـة هذا، عليهم الالتزام بالأوامـر الرسوليـة، لصالح الكنيسـة، ضد الخارق لهذا السـلام ولهذه الترتيبات، وبذلك يمكن أن نفقـد بشكل أبدي إدارة الكنائس الشاغرة، وإذا حدث أننا لم نستطع اقناعهم بالموافقة على هذا الشطر الأخير من هذا اليمين، أي، بمعـارضـه ذلك، إمـا من قبلنا نحن أنفسنا، أو من قبل الآخـرين، عليهم الالتزام بـالأوامر الرسـولية لصـالح الكنيسة، ضد الخارقين لهذا السلام، ولهذه الترتيبات، وقدمنا في سبيل ذلك رسائلنا المعتمدة، وعهدنا إلى مولانـا البابا، وإلى كنيسة روما بجميع حقوق الرعـوية التي نمتلكها في الكنائس الانكليـزية، ولسوف نتـولى تحويل جميع هذه الرسـائل المعتمدة، التي منحت لضمانة رجـال الدين المتقدم ذكـرهم، وإلى رئيس الأسـاقفة، وإلى الأسـاقفة، قبل قـدومهم إلى انكلترا، وعلينا أن نطلب من رئيس الأساقفـة المذكور ومن الأساقفة، أنه باستثناء فقط كـرامة الرب، وشرف الكنـائس، عليهم تقـديم ضمانات مشفـوعـة باليمين وبالكتابة، أنهم سوف لن يعملوا لابأشخاصهم، ولابوساطة الآخرين، أية محاولة ضد شخصنا، أو ضد التاج، طوال الوقت الذي نمنحهم فيه الأمان المذكـور أعـلاه، وطوال محافظتنا على السـلام غير مخروق، ولسـوف نعيـد بشكل كامل جميع الممتلكات المصادرة، مع ترضية على خسائرهم، ويشمل ذلك رجال الدين، وكذلك العلمانيين، الذين لهم علاقة بهذا العمل، وليس ذلك فقط بالنسبـة لممتلكاتهم، ولكـن أيضـاً بالنسبـة لحقـوقهم، ولسـوف نحمي حقـوقهم المحفوظـة وبالنسبة لرئيس الأسـاقفـة، وأسقف لنكولن، سـوف نضمن ذلك من تاريخ تكريسهم، أمـا البقيـة فمن تاريخ بداية هذا الخلاف، ومـامن اتفـاقية، أو وعـد، أو منحـة، سوف تشكـل معوقـاً لهذه الضمانات، أو تسبـب خسـارة، أو تعيق استرداد الممتلكـات المصـادرة للأمـوات وللأحيـاء سـواء، كما أننا لن نحتفظ بأي شيء تحت حجـة خـدمات مستحقـة لنا، وفيما بعد سـوف يجري تقديم تعـويضات مناسبـة مقابل الخدمات التي تعمل لنا، وسنقوم منذ الآن باطلاق سراح، وصرف،

والاعادة إلى الحقوق جميع رجال الدين الذين هم موضوعين من قبلنا تحت الاعتقال، ومثلهم أي واحد من العلمانيين، الموجودين قيد الاعتقال بسبب هذا العمل، وفور وصول واحد، يكون شخصاً مناسباً لتحليلنا، سوف نقوم، من جانب أول بإعادة الممتلكات المصادرة، ثم تسليم الرسل الموكلين من قبل رئيس الأساقفة المذكور، والأساقفة، ورهبان كانتربري، مبلغ ثمانية آلاف باوند، تكون من الأموال الاسترلينية القانونية، لدفع ماهو مستحق، ومن أجل النفقات الضرورية، لكي يتم الانفاق عليهم من دون ديون أو اعاقة من قبلنا، ولكي يتمكنوا بكرامة من الاستدعاء والعودة إلى انكلترا، حالما يكون ذلك ممكنا، وأعني بذلك أن يكون الدفع إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري: ألفين وخمسمائة باوند، وإلى وليم أسقف لندن سبعمائة وخمسين باوند، وإلى يوستاس أسقف إيلاي سبعمائة وخمسين باوند، وإلى جوسلين أسقف باث سبعمائة وخمسين باوند، وإلى هيوبرت أسقف لنكولن سبعمائة وخمسين باوند، وإلى رئيس رهبان ورهبان كانتربري ألف باوند، وفور معرفتنا بأن السلام قد تثبت وتأكد، سوف نعين من دون تأخير إلى رئيس الأساقفة وإلى الأساقفة، وإلى رجال الدين، ولكل كنيسة لابل لها جميعاً، ونسلم إلى أيدي رسلهم أو وكلائهم جميع الممتلكات المتحركة، مع الحرية بإدارة هذه الممتلكات، ولسوف نصرفهم بسلام، وسوف ننقض بشكل معلن القرارات اللاقانونية، التي أصدرناها ضد اللاهوتيين، وأن نعلن بوساطة رسائلنا المعتمدة، التي سوف ترسل إلى رئيس الأساقفة، أن هذه الممتلكات ليست بأي حال من الأحوال عائدة لنا، وأننا سوف لن نصدر ثانية أحكاما ضد اللاهوتيين، وعلاوة على هذا سوف ننقض القرار اللاقانوني الصادر ضد العلمانيين، والمتعلق بهذه القضية، وسوف نعيد كل الذي تسلمناه من اللاهوتيين منذ صدور قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، وذلك باستثناء عرف المملكة وامتياز الكنيسة، وإذا ماثارت أية قضية حول الخسائر والمصادرات، أو أية كمية مخمنة منهم، فإن ذلك سوف يقرره نائب، أو موفد مولانا البابا، وذلك بعد سماع

الشهادات حول القضية، وبعدما يجري ترتيب هذا كما ينبغي، سوف يجري سحب قرار الحرمان من شركة المؤمنين، وبالنسبة للقضايا الأخرى، فإنه إذا ماتوفرت أية شكوك جديرة بالمعالجة، أو أثيرت، فإنها إذا لم تعالج من قبل النائب البابوي، أو من قبل مندوب مولانا البابا، يجري إحالتها إلى البابا نفسه، والذي سوف يقرره، سيجري الالتزام به، شهدت بنفسي في دوفر، في هذا اليوم الثالث عشر من أيار، في السنة الرابعة عشرة من حكمنا.

كيف تخلى الملك جون عن تاجه وعن مملكة انكلترا ووضعهما بين يدي البابا انوسنت

وهكذا جرى ترتيب الأمور، في اليوم الخامس عشر من أيار، والذي كان عشية يوم الصعود، ففي ذلك اليوم التقى الملك الانكليزي وباندولف مع نبلاء المملكة، وكان اللقاء في بيت فرسان الداوية قرب دوفر، وهناك قام الملك المذكور، أخذا بالمرسوم الذي أعلنه في روما، فتخلى عن عرش مملكتي انكلترا وايرلندا، ووضعهما بين يدي مولانا البابا، الذي كان يقوم بأعماله آنذاك، باندولف المذكور، وبعدما تخلى عنهما، أعطى المملكتين المذكورتين إلى البابا وإلى خلفائه، وأكد ذلك إلى البابا بالصك الوارد نصه فيما يلي:

« **من جون، بفضل الرب، ملك انكلترا، الخ، إلى جميع المؤمنين، من عبيد المسيح، الذين سوف يرون هذا الصك، الصحة في الرب**— نود أن يكون معلوماً بصكنا هذا المهمور بخاتمنا، أننا قمنا في كثير من الأشياء باغضاب الرب، وأمنا الكنيسة المقدسة ونحن الآن بحاجة قصوى إلى الرحمة اللاهوتية من أجل ذنوبنا، ولن نقوم هنا بتقديم تقدمة جديرة، كتكفير للرب، وبتسديد المطالب الحقة للكنيسة، مالم نذل أنفسنا أمامه الذي أذل نفسه من أجلنا، حتى الموت، ولقد خضعنا بوساطة إلهام من الروح القدس، وليس بدوافع خوف من قرار الحرمان من شركة المؤمنين، وفعلنا

ذلك بارادتنا ورضانا، وبناء على نصيحة عامة من باروناتنا قمنا بتعيين، ومنحنا للرب، ولرسوليه المقدسين بطرس، وبولص، وإلى أمنا الكنيسة المقدسة في روما، وإلى مولانا البابا انوسنت، وإلى خلفائه الكاثوليك، جميع مملكة انكلترا، وجميع مملكة ايرلندا، مع جميع الحقوق والمتعلقات، وذلك ككفارة عن ذنوبنا وعن ذنوب قومنا، من الذين هم أحياء ومن الأموات، ونحتفظ من هذا التاريخ فصاعدا بهذين البلدين وكالة عنه وعن كنيسة روما، كنائب وكيل، ونعلن عن هذا بحضور هذا الرجل المتعلم، أي باندولف الذي هو نائب شماس، وصديق مقرب من مولانا البابا، وقدمنا ولاءنا، وأقسمنا على التبعية لمولانا البابا، ولخلفائه الكاثوليك، وإلى كنيسة روما، بوساطة ماهو مكتوب هنا، ولسوف نؤدي ولاءنا ونقسم على التبعية، للأمور نفسها، بحضور مولانا البابا نفسه، إذا ماتمكنا من الذهاب والمثول أمامه، ولقد ربطنا خلفاءنا وورثتنا من زوجتنا بشكل دائم، بالطريقة نفسها، كي يقدموا الولاء، ويعلنوا عن التبعية من دون معارضة، إلى الحبر الأعظم، لهذا الوقت، وإلى كنيسة روما، وكعطاء ودليل على هذا الارتباط الدائم، سوف، لابل قررنا أن نعطي من الآن فصاعداً، من دخلنا، ومن مواردنا الخاصة، وجباية من المملكتين المذكورتين، إلى كنيسة روما، مقابل جميع الخدمات، والتوظيفات التي نحن ندين بها إليها— باستثناء بنس القديس بطرس— مبلغ ألف مارك من النقود الاسترلينية، سنويا، وأن يسدد ذلك كما يلي: خمسمائة مارك في يوم عيد القديس ميكائيل، وخمسمائة في عيد الفصح، وأن يكون ذلك: سبعمائة عن مملكة انكلترا وثلاثمائة عن ايرلندا، مبقين لنا ولورثتنا جميع حقوقنا، وامتيازاتنا، والعوائد الملكية، ورغبة منا في توثيق وتأكيد كل الذي كتب أعلاه، ربطنا أنفسنا وخلفائنا بعدم معارضة ذلك، وإذا ماتجرأنا نحن، أو واحد من خلفائنا على معارضة هذا، ليحرم بشكل دائم من حقه في المملكة، وليبق هذا الصك بما ارتبطنا به وبما منحناه، مؤكداً إلى الأبد.

شهدت على ذلك أنا نفسي في بيت فرسان الداوية، قرب دوفر، بحضور هنري رئيس أساقفة دوبلن، وجون أسقف نورويك، وغيوفري فتز— بيتر، ووليم ايرل سالسبري، ووليم ايرل بمبروك، وريتالد كونت بولون، ووليم ايرل ويرني، وسير ايرل وينتون، ووليم ايرل آروندیل، ووليم ايرل فيرار، ووليم بروير، وبيتر فتز— هيربرت، ووارن فتز— جيرالد، وكان هذا في اليوم الخامس عشر من مايس، في السنة الرابعة عشرة من حكمنا».

تقديم الملك جون الولاء إلى البابا وإلى كنيسة روما

بعد نسخ صك الملك المذكور أعلاه، قدمه إلى باندولف لأخذه إلى البابا انوسنت، وقدم بعد ذلك مباشرة، على مرأى من الجميع الولاء المدون فيما يلي: «أنا جون، بنعمة الرب ملك انكلترا، ومولى ايرلندا، سوف أكون من هذا الوقت، كما كنت من قبل، مخلصاً للرب، وللقديس بطرس، ولكنيسة روما، ولمولاي البابا انوسنت، ولخلفائه الكاثوليك، فأنا لن أعمل، ولن أتكلم، ولن أوافق على، أو أنصح بأي شيء، يمكن به أن يفقدوا حياة أو عضواً، أو أن يكونوا عرضة للاتهام بالخيانة، ولسوف أمنع الضرر عنهم، إذا ماكنت واعياً لذلك، وإذا كان بمقدوري أن أرمم ذلك، أو أنني سأخبرهم، عندما يكون بمقدوري فعل ذلك، أو أنني سوف أخبر بذلك إلى شخص، أعتقد متأكداً أنه سوف يخبرهم بذلك، وسأبقي الأمر سراً أية مسألة عهدوا بها إلي، أنفسهم شخصياً، أو بوساطة رسلهم، أو بالرسائل، وإذا ماعلمت بذلك، سوف لن أبوح بذلك إلى أي واحد، حتى لاأوذيهم، وسوف أساعد على الحفاظ والدفاع عن ميراث القديس بطرس، ولاسيما مملكتي انكلترا، وايرلندا، ضد جميع الناس، وذلك بقدر ما أستطيع، وهكذا ليكن الرب، والانجيل المقدس، بعوني، آمين».

وقد حدث هذا— كما قلنا— قبل عشية يوم الصعود، بحضور: الأساقفة، والإيرلات والنبلاء الآخرين، وتمّ التطلع إلى يوم الصعود في الغد، بعدم ثقة، ليس فقط من قبل الملك، بل من قبل جميع الآخرين، سواء

من الغائبين، أو الحضور، وذلك بسبب تأكيدات بطرس الناسك، الذي— كما ذكرنا من قبل— قد تنبأ إلى الملك جون، بأنه لن يكون ملكاً، في يوم الصعود، أو بعد ذلك، ولكن بعدما عبر اليوم المحدد، واستمر سليما وبصحة، أمر الملك ببطرس المتقدم ذكره، الذي كان مسجوناً في سجن في قلعة كورفي Corfe ، أن يربط إلى ذيل حصان في مدينة ويرهام، وأن يجر خلال شوارع البلدة، وأن يعلق بعد ذلك على المشنقة، مع ابنه، وقد بدا بالنسبة إلى كثيرين، أنه لم يكن يستحق العقوبة بمثل هذا الموت الوحشي، لأنه أعلن الحقيقية، لأنه لو أن الأوضاع التي ورد ذكرها أعلاه قد وقعت، وقدرت تمام التقدير، لتبرهن أنه لم يخبر بالزيف.

كيف عاد باندولف إلى فرنسا
مع جزء قد أعيد من الممتلكات المصادرة

عبر بعد هذا، باندولف البحر إلى فرنسا، آخذا معه الصكوك التي تقدم ذكرها، وكذلك ثمانية آلاف باوند من النقود الاسترلينية، حتى يتمكن أن يعمل تعويضاً جزئيا لخسائر رئيس الأساقفة، والأساقفة، ورهبان كانتربري، وآخرين كانوا يعيشون في المنفى، بسبب قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، وبما أن مقاصد الصكوك وصيغة السلام الذي تقدم ذكره منح الرضا لهم جميعاً، نصح باندولف بشدة الأساقفة الذين تقدم ذكرهم، بالعودة بسلام إلى انكلترا، حتى يتسلموا هناك بقية أموال التكفير، ثم قام بعد هذا فأشار على الملك الفرنسي بإلحاح— الذي عمل الاستعدادات لغزو انكلترا بالقوة— للإقلاع عن مقصده، ومن ثم العودة إلى وطنه بسلام، لأنه من غير الممكن بالنسبة له مهاجمة ملك انكلترا، من دون اغضاب الحبر الأعظم، ولا حتى مهاجمة الملك شخصيا، لأن ذلك الملك قدم ترضية للرب، وللكنيسة المقدسة، ولأحبارها المكرسين، كما أنه وعد بإطاعة الأوامر الكاثوليكية الصادرة عن مولانا البابا، وغضب الملك غضباً عظيماً عندما سمع بهذا، وقال بأنه قد صرف ستين ألف باوند على تجهيز

سفنه، وعلى تأمين المؤن والسلاح، وأنه تولى القيام بهذا الواجب المذكور بناء على أوامر من مولانا البابا، والتوبة من ذنوبه والتخلص منها، ولنقل الصدق لم يرغب الملك المذكور بالاذعان إلى اقتراح باندولف، لولا أن فيليب كونت فلاندرز رفض اتباعه، لأن ذلك الأمير كان قد عمل معاهدة مع الملك الانكليزي، ورفض العمل بشكل مضاد لتلك الاتفاقية، وعلاوة على ذلك قال الكونت بأن الحرب التي قرر القيام بها لاخضاع الملك الانكليزي، كانت غير عادلة، لأن مامن واحد من ملوك فرنسا— حتى ذلك الحين— قد ادعى بأية حقوق في المملكة الانكليزية، وفضلاً عن ذلك أضاف بأن الملك الفرنسي قد استولى بشكل غير عادل على أراضيه— أي الكونت— وعلى قلاعه، وكان آنذاك محتجزاً ميراثه، ضد شرائع العداله، ولقد كانت هذه أسبابه لرفض الذهاب معه إلى انكلترا.

كيف قام الملك الفرنسي بهجوم على كونت فلاندرز

وكان الملك الفرنسي غاضباً جداً، تجاه هذه الكلمات التي صدرت عن كونت فلاندرز، ولأنه لم تكن لديه ثقة به، أمره بمغادرة بلاطه على الفور، وبعد مغادرته، غزا أراضي الكونت، ودمر كل مكان وصل إليه بالنار، وجعل السكان طعمة للسيف، وأعطي أيضاً أوامر إلى البحارة وإلى قادة أسطوله— الذين كانوا، كما قلنا من قبل، ينتظرون عند مصب نهر السين، مجهزين بكميات من الأسلحة— بالإقلاع مبحرين، بدون تأخير نحو سواين Swine التي كانت مرسى فلاندرز، وأن يبذلوا جهدهم للالتقاء به هناك، بكل سرعة، وقد فعلوا ذلك، وقام كونت فلاندرز، الذي خاف كثيراً من هجومه، بارسال رسالة مستعجلة إلى الملك جون، يرجوه فيها بالحاح، ارسال بعض العساكر لمساعدته، ولدى سماع الملك الانكليزي بهذه الأخبار، أرسل إلى مساعدة الكونت، أخاه وليم، إيرل سالسبري، ووليم دوق أوف هوتلاند Houtland ، ورينالد كونت بولون، وهم عساكر مقتدرين، مع خمسائة سفينة، وسبعمائة فارس مع عدد كبير من

الجنود الخيالة والرجالة، وأبحر هؤلاء الجند مع ريح طيبة، لذلك وصلوا سريعاً إلى مرسى سواين، ولدى وصولهم إلى هناك، دهشوا لرؤيتهم تجمعا كبيرا وحشداً للسفن، وعرفوا عن طريق الكشافة، بأن هذا كان اسطول الملك الفرنسي، الذي وصل مؤخراً، وقد عرفوا أن المسؤولين عن حمايته كان عددهم قليل جداً، وهم مجرد بعض الملاحين، لأن الجنود الذين كانوا في الأسطول، وإليهم معهودة أموره، قد ذهبوا لجمع الأسلاب، وكانوا ينهبون ويسلبون أراضي الكونت، وعندما علم قادة الجيش الانكليزي بهذا، طاروا إلى السلاح، وهاجموا الأسطول بعنف، وفي الحال هزموا الملاحين، وقطعوا حبال ربط ثلاثمائة، من سفنهم كانت محملة: بالقمح، والخمور، والدقيق، واللحوم، والسلاح، ومخزومات أخرى، وأرسلوهم إلى البحر، لأخذهم إلى انكلترا، وبالاضافة إلى هؤلاء، ألقوا النيران في السفن وأحرقوا منها مائة أو أكثر، وأغرقوهم بعدما أخذوا جميع المخزومات التي كانت فيهم، وبهذه النازلة، فقد الملك الفرنسي، وتقريباً جميع نبلاء المناطق البحرية، جميع ممتلكاتهم الثمينة، وأثير بعد هذا، بعض من النبلاء الانكليز، بالحقد إلى أبعد الحدود، واندفعوا من سفنهم، وركبوا خيولهم، وحملوا أسلحتهم، وانطلقوا يطاردون الفرنسيين الذين هربوا من المقتلة، لكن الملك الفرنسي، الذي لم يكن بعيداً عن ساحة القتال، أرسل بعضاً من أكثر جنوده موثوقية لصد العدو، ومنع تقدمه، وللتأكد من معرفة من كان هؤلاء الأعداء، وبناء عليه حملوا على الفور أسلحتهم، وتصدوا للفئة المهاجمة، واشتبك الفريقان، لكن النبلاء الانكليز أرغموا على الفرار مع خسائر، ونجوا بصعوبة إلى سفنهم، وبعدما صعدوا إلى سفنهم، عاد الفرنسيون إلى معسكراتهم، وسأل الملك عن الذي حدث، ومن أين جاء الغرباء، فحدثه الجنود بأن أولئك كانوا من الجيش الانكليزي، الذي أرسل لمساعدة كونت فلاندرز، وعندها أخبروه بالكارثة التي وقعت، وبالخسائر التي لايمكن تعويضها بالنسبة لاسطوله، ولدى سماع الملك فيليب بهذا، تراجع بشكل مضطرب، وانسحب من فلاندرز، مع خسائر كبيرة بالنسبة

له، ولأتباعه.

تحليل الملك الانكليزي في وينكستر

ولدى سماع الملك الانكليزي بما حدث في فلاندرز، سرّ سروراً عظيماً، وفي سروره في نفسه لدى معرفته بأن وصول الملك الفرنسي قد تعلق الآن، على الأقل لبعض الوقت، أمر النبلاء، والجيش كله، الذي كان قد جمعه على مقربة من شاطىء البحر، من أجل الدفاع عن بلادهم، بالعودة إلى مواطنهم، ثم إنه أرسل مبلغاً كبيراً من المال إلى الجنود في فلاندرز، واعداً إياهم بمساعدة الامبراطور، بغزو أراضي الملك الفرنسي بالنار وبالسيف، وجمع الملك نفسه جيشاً كبيراً عند بورتماوث، عازماً على العبور إلى بواتو، مقرراً لجم الملك الفرنسي ومملكته في المناطق الغربية، مثلما فعل الذين كانوا في فلاندرز، في الشرق، وأن يبذل كل ماباستطاعته لاسترداد المناطق التي خسرها من ممالكه، لكن الأشياء سارت على العكس مما توقعه، لأن النبلاء الانكليز رفضوا اتباعه، مالم يتم أولاً تحليله من حكم الحرمان الكنسي، ووسط هذه المصاعب، أرسل الملك وقتها وثائق الأربعة والعشرين من الايرلات والبارونات إلى رئيس الأساقفة المذكور، وإلى الأساقفة معه، مع ضمانات أعظم، وأخبرهم بازاحة كل خوف، والقدوم إلى انكلترا، حيث هناك يمكنهم تسلم حقوقهم مع أمان عن جميع ممتلكاتهم التي حرموا منها، وذلك وفقا لشروط المصالحة التي كتبت من قبل، وبنصيحة من باندولف، قام هؤلاء، عندما باتوا جاهزين للعودة إلى الوطن، وهم: ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف إيلاي، وهيوبرت أسقف لنكولن، وجايل أسقف هيرفورد، بالركوب في السفينة بصحبة رجال الدين الآخرين والعلمانيين الذين كانوا منفيين بسبب الحرمان من شراكة المؤمنين، ونزلوا في دوفر في السادس عشر من تموز، ثم انطلقوا لرؤية الملك، ووصلوا إليه في وينكستر، في يوم عيد القديسةمرغريت العذراء، وعندما سمع الملك بوصولهم خرج لمقابلتهم،

وعندمـا رأى رئيس الأساقفـة والأساقفة، سجـد أمام أقـدامهم، والتمس منهم وهو يبكـي أن تكون لديهم رحمة عليـــه، وعلى مملكة انكلترا، ولدى رؤية رئيس الأساقفة المذكور والأسـاقفة التواضع العظيم للملك، أنهضوه من على الأرض، وأخذوه باليد من على الجانبين، واقتادوه إلى باب الكنيسة الكاتدرائية، حيث رتلوا المزمور الخامس، وكان ذلك بحضور جميع النبلاء الذين بكوا فرحاً، وقامـوا بتحليله وفقاً لعادة الكنيسة، وأثناء هذا التحليل أقسم الملك على الأناجيل المقـدسـة، بأنه سـوف يحب الكنيسـة المقـدسـة ورجـالها المكرسين، وهو سـوف يبـذل كل جهـد مستطاع لديه في الدفـاع عنهم، والحفاظ عليهم ضد جميع أعـدائهم، وأنه سوف يجدد جميع القوانين الجيدة لآبائه، ولاسيما قوانين الملك إدوارد، ولسوف يلغي القوانين السيئة، وسوف يحكـم رعاياه وفقـاً للقوانين والمراسيم العـادلة لمحاكمـه، وسوف يعيد الحقوق إلى الأفراد وإلى الجماعات، كما أنه أقسم، بأنه سوف يعيد، قبل عيـد الفصح المقبل الممتلكات المصادرة إلى جميع الذين لهم عـلاقة بقضيـة الحرمان من شراكة المؤمنين، وأنه إذا لم يفعل ذلك، سوف يوافق على إعادة قرار الحرمان الكنسي وتجديده، وفضلاً عن ذلك أقسم على الولاء والطاعة للبابا انوسنت، ولخلفـائه الكاثوليك، حسبما ورد مكتـوبا في الصك أعلاه، وعندها أخـذ رئيـس الأسـاقفـة، الملك إلى داخل الكنيســة، وأقـام هناك قداساً، واحتفل بعد ذلك رئيس الأساقفة والأساقفة والنبلاء، وعيدوا عند المائـدة نفسهـا مع الملك، وسط البهجـة والسرور، وأرسل الملك في اليـوم التالي رسائل إلى جميع عمد مناطق المملكة، آمـراً إياهم بارسال أربعة رجال تابعين من كل بلدة في اقطاعيتهم، مـع الناظر، إلى كنيسة القـديس ألبـان في الرابع من آب، حتى يمكن من خلالهم ومن خلال وكلائه الآخرين، القيام بالتقصي حـول الخسائـر والممتلكات المصـادرة لكل واحـد من الأساقفـة، وكم هو مستحق لكل واحد، ثم إنه أرسل بكل سرعة إلى بورتماوث، حتى يمكنه العبور من هناك إلى بواتو، وعهد بشؤون المملكة إلى غيوفري فتز— بيتر، وإلى أسقف وينكستر، مع أوامر بوجـوب التشاور مع رئيس أسـاقفة

كـانتربري في تدبر أمـور المملكة وإدارة شـؤونها، ولدى وصـول الملك إلى بورتماوث وصل إليه إلى هناك عـدد كبير جداً من الفـرسان، يتشكون أنهم أثناء اقامتهم الطويلة هناك قـد انفقوا جميع أموالهم، وبناء عليـه إنه مالم يتم تزويدهم بالمال من الخزانة، لن يكون بامكانهم اتبـاعه، ورفض الملك هذا، وغضب غضباً عظيماً، وركب السفن مع مرافقيه الخاصين، ونزل بعد ثلاثة أيام في غورنسي Guernscy ، في حين رجع نبلاؤه إلى ديارهم، وعندما رأى الملك نفسـه مهجـوراً على هذه الصـورة، أرغم ذاتـه على العـودة إلى انكلترا.

إعلان القوانين والحقوق

وأثناء حدوث هذا، عقد غيوفري فتز— بيتر مع أسقف وينكستر مؤتمراً في كنيسة القديس ألبـان، مع رئيس الأساقفة، والأساقفـة، ونبلاء المملكة، وخـلال المؤتمر جرى إخبـار الجميع بالسلام الذي عمله الملك، ونيـابة عن الملك المذكـور، صدرت الأوامـر بشكل دقيق، بوجوب الحفـاظ على جيع قوانين جده الملك هنري، من قبل الجميع في جميع أرجاء المملكة، وأن جميع القـوانين غير العادلـة يتوجب إزالتهـا كليـاً، ومنع جميع عمـد المناطق، مع المتولين لحفظ الغابات، ووكلاء الملك الآخرين، تحت طائلة فقدان الحياة أو أحد الأعضـاء، من استخراج أي شيء من أي واحد بالقـوة، أو ايقاع أذى على أي انســان، أو عمل أية أتاوة في أي مكـان من المملكة حسبما جـرت عادتهم، ؤوجـد الملك جون ذاته في الوقت نفسـه، مهجوراً من قبل بعض النبلاء كما ذكـرنا، فجمع جيشاً كبيراً، لإعادة المتمـردين إلى الطاعة ولتأدية واجبـاتهم، ولكنه مـاإن شرع باستخـدام الســلاح، حتى قـدم إليـه رئيس الأسـاقفـة إلى نورثأمبتـون وأخبره أنه سـوف يكون هناك كثيراً من الضرر بيمينه الذي أقسمه أثناء تحليله، إذا ماكـان سيقدم على إثارة حرب ضد أي انســان، من دون قـرار بلاطه، ولدى سماع الملك هذا، أجـابه وهو مغضب بأنه لن يتخلى عن شـؤون المملكة لصـالح رئيس الأسـاقفـة، لأن المسـائل

العلمانية ليست عـائدة له، وبناء عليـه، انطلق في اليوم التـالي في زحفه وهو حـانق، وأخـذ الطريق إلى نوتنغهـام، وتابع رئيس الأسـاقفـة— على كل حال— اللحاق به، وأعلن بكل جرأة، أنه مالم يتوقف عن مشروعه، سوف يلعن ويحرم من شراكـة المؤمنين، كل من يثير حرباً ضـد أي انسان، قبل أن يكون قد تحلل من الحرمان من شراكة المؤمنين، وذلك بالاضـافة إليه نفسه وحده، وهكذا حول رئيس الأساقفة الملك عن هدفه، ولم يتركه حتى أقنعه بتسميـة يوم لقـدوم البـارونات إلى بلاطه، وهناك يخضعـون لإجـراءات العدالة.

سبب هياج البارونات ضد الملك

وفي الخامس والعشرين من آب من العـام نفسـه، اجتمع ستيفن رئيس أساقفـة كانتربري، مـع أساقفة المملكة، ورعـاة ديرتها، ورؤساء الـرهبان، والشمامسة، والبـارونات في كنيسة القديس بـولص في مدينة لندن، وهناك منح رئيس الأساقفة الإذن إلى أعضـاء الكنائس الديرية وكذلك إلى الكهنة العلمانيين بإنشـاد القـداسـات بصـوت منخفـض، وذلك على مسمع من أسـاقفتهم، وفي هذا المؤتمر دعا— كما أكـدت التقـارير— رئيس الأسـاقفـة المذكور بعض النبلاء للاجتماع به على انفراد، وتناقش معهم منفردين حول المسألة التاليـة حيث قال:« هل سمعتم، كيف أنني عنـدما حللت الملك في وينكستر، جعلته يقسم أنه سوف يزيل القـوانين غير العادلة، وسوف يعيد القـوانين الجيـدة، مثل قوانين الملك ادوارد، وأن يـأمر بمـراعـاتهم من قبل جميع المملكة، وقـد تمّ الآن العثـور على صك هنري الأول، ملك انكلترا، وبامكانكم إذا مارغبتم، أن تطالبـوا بوساطته إعادة حقوقكـم الضائعة منذ زمن طويل إلى وضعهـا الماضي»، ووضع ورقـة في وسطهم، وقـد أمـر بأن تقرأ بصـوت مرتفع أمـام الجميع حتى يتمكنوا من سماعها، وكـان محتواها كما يلي:

« من هنري، بفضل نعمة الرب، ملك انكلترا، إلى هيـوج دي بوكلاندي

Boclande، المتولي لأمور العـدالة في انكلترا، وإلى جميع رعاياه المخلصين، وكذلك إلى الفرنسيين والانكليز في هيرتفورد شاير، التحيات:

اعلموا بأنني، برحمة من الرب، قـد توجت ملكاً، بموافقة عـامة من قبل بارونات مملكة انكلترا، ولأن المملكة قد ظلمت بمكوس غير عـادلة، أقوم أنا، صـدوراً عن الاحترام إلى الرب، وعن المحبـة التي أشعـر بها نحـوكم، بالوعـد في المقام الأول بأنني سـوف أجعل الكنيسة المقـدسة للرب كنيسـة حـرة، وبذلـك أنا لن أبيعهـا، أو أضمنهـا، كما أنني، لـدى وفـاة أي رئيس أساقفـة، أو أسقف، أو راعي دير، لن آخذ أي شيء مـن ممتلكات الكنيسة، أو من ممتلكات شعبها، حتـى يأخذ خليفته مكانه، وإننـي سوف أزيل منذ الآن جميع الممارسـات الشريرة، التي تعاني منهـا مملكة انكلترا ظلماً وبشكل غير عـادل، وهـذه الممارسـات الشريرة، أنا مقبل الآن على ذكـرها: إنه إذا مامـات أي بارون أو ايرل، أو أن واحد اً من الرعايا الآخـرين التابعين لي، والذين بحـوذتهم متلكات من عندي، فإن وريثـه لن يقـوم بانقـاذ أرضـه، حسبما كانت العادة في أيام أبي، بل إنه سوف يـدفع بدلاً عادلاً وقانونياً من أجلهـا، وبالطريقة نفسهـا سـوف يدفع التابعـون لبـاروناتي بدلا مماثلاً من أجل أراضيهم إلى مـواليهم، وإذا مـاأراد واحـد من بـاروناتي، أو من باقي رعاياي، أن يعطي ابنته، أو أخته، أو حفيدته، أو أية انثى قريبة له، للزواج، عليه طلب إذني حول هذه المسألة، وأنالن آخذ أيا من ممتلكاته في سبيل منح إذني، كما أنني لن أمنع اعطـائهـا للزواج، بـاستثناء أنه إذا رغب بإعطائهـا لواحـد من أعـدائي، وإذا حـدث لـدى وفـاة بارون ، أو أحـد من رعيتي الآخرين مـات، وترك وريثة هي ابنتـة، أنا سوف أقـوم— بناء على مشورة باروناتي— باعطائهـا زوجـة مع أرضها، وإذا حـدث لدى وفـاة زوج، أن بقيت زوجتـه من دون أولاد، فإنها سوف تأخـذ بائنتهـا من أجل أن تكون بمثـابة حصـة زواجهـا، ولن أعطيها زوجـة إلى زوج آخـر مـالم يكن ذلك بمـوافقتها، لكن إذا مـاعـاشت زوجـة ولها أولاد، إنها سوف تنال بائنتهـا

بمثابة حصة زواج، مادامت متولية حفظ نفسها وفقاً للقانون، وأنا لن أعطيها إلى زوج مالم يكن ذلك بموافقتها، وسوف تكون الوصاية على أرض الأطفال إما للزوجة، أو لواحد من أقرب الأقرباء، يكون حقيقاً بذلك وجديراً، ولسوف أفرض على باروناتي أن يتصرفوا بالطريقة ذاتها نحو أبناء وبنات، وزوجات المتعلقين بهم، فضلاً عن هذا إن المال العام الذي كان يؤخذ في أيام الملك ادوارد، قد جرى منعه منذ الآن، وإذا ماجرى اعتقال أي انسان سواء أكان ضارب نقود، أو شخص آخر، مع نقود مزيفة، ينبغي تطبيق العدالة الدقيقة عليه مقابل ذلك، وجميع المرافعات والديون العائدة والمستحقة لأخي الملك، إنني قد تنازلت عنها، باستثناء ماعاد إلى ضماناتي والديون التي جرى التعاقد عليها من أجل وراثة الآخرين، أو بالنسبة لتلك الأشياء العائدة بشكل صحيح إلى الآخرين، وإذا ماأوصى أي انسان بأي شيء بعقد لميراثه، إنني أعفيه، وأعفو عن جميع البدلات التي جرى العقد عليها من أجل مواريث صحيحة، وإذا ماكان واحداً من باروناتي أو من رعيتي مريضاً، فانني سوف أوافق على أي توزيع سوف يعمله بأمواله، وإذا لم يقم خلال الخدمة في الحرب أو المرض بتوزيع أمواله، فبإمكان زوجته، أو أولاده، أو أبويه، والمتعلقين الشرعيين به، توزيعها لصالح فائدة روحه، كما يرون أن ذلك هو الأفضل بالنسبة لهم، وإذا ماأراد أي بارون أو أي واحد آخر من رعيتي أن يعمل تكفيراً، إنه لن يدفع كفالة لحماية ماله، كما كان يفعل في أيام أبي، أو في أيام واحد من أجدادي، وإذا ماأدين أي واحد بالخيانة، أو بجريمة أخرى، فإن عقوبته سوف تكون حسب خطيئته، وإنني أعفو عن جميع جرائم القتل التي اقترفت قبل اليوم الذي توجت فيه ملكاً، لكن الجرائم التي اقترفت بعد ذلك، فإنها سوف تعاقب وفقاً لقانون الملك ادوارد، ولقد احتفظت بحوزتي بجميع الغابات التي كانت بيد أبي كما احتفظ بهم، وعلاوة على ذلك جميع الفرسان الذين يستحوزون أراضي مقابل خدمات، مسموح لهم من الآن فصاعداً الاحتفاظ بممتلكاتهم محررة من جميع الغرامات، ومن

الخدمات الشاذة، ذلك أنهم وقد أعفيوا هكذا من حمل ثقيل، يمكنهم تجهيز أنفسهم بشكل أفضل بالخيول وبالسلاح، وبذلك يكونون موائمين وجاهزين لخدمتي، وللدفاع عن مملكتي، وانني أمنح سلاماً مؤكداً في جميع مملكتي، وآمر بالحفاظ عليه من الآن فصاعداً، وأعيد إليكم قانون الملك ادوارد، مع التعديلات التي أجراها والدي، بوساطة نصائح باروناته، وإذا ماأخذ أي انسان أي شيء هو عائد إليّ، أو من ممتلكات أي شخص آخر، منذ وفاة أخي الملك وليم، عليه أن يعيد ذلك فوراً من دون أي تبديل، وإذا مااحتفظ أي انسان بأي شيء من ذلك، وجرى اكتشافه، فوقتها عليه أن يعوض إليّ بشكل ثقيل.

شهد: موريس أسقف لندن، ووليم الأسقف المنتخب لوينكستر، وجيرارد أسقف هيرفورد، والايرل هنري، والايرل سيمون، والايرل وولترجيفورد Gifford ، وروبرت دي مونتفورت، وروجر بيغود، وآخرون كثر».

وعندما جرت قراءة هذه الورقة، وتم استيعاب مقصدها من قبل البارونات الذين سمعوها، كانوا مسرورين كثيراً بها، وأقسموا جميعاً بحضور رئيس الأساقفة، بأنهم عندما سيرون فرصة موائمة، سوف يقفون مطالبين بحقوقهم، وإذا اقتضى الأمر سوف يموتون في سبيلها، وبإخلاص وعدهم رئيس الأساقفة أيضاً بمساعدته، بقدر ما هو متوفر بطاقته، وما أن تمت الموافقة على هذه المسألة واقرارها فيما بينهم، حتى ارفض الاجتماع، وانتهى المؤتمر.

حول هرطقة الألبينيين واعلان حملة صليبية ضدهم

وفي تلك الأونة كسب الهراطقة الفاسدون، الذين عرفوا باسم الألبينيين، والذين سكنوا في غاسكوني ، وفي أرومنياArumnia، وألبي Alby ، قوة عظيمة، في المناطق حول طولوز، وفي مملكة أرغون، حتى

أنهم لم يكتفوا بممارسة هرطقتهم سراً، كما كانوا يفعلون في المناطق الأخرى، بل إنهم بشروا بعقيدتهم الخاطئة بشكل مكشوف، وأقنعوا البسطاء وضعفاء العقول بالالتحاق بهم، وعرف الألبينيون بهذا الاسم نسبة إلى مدينة ألبا Alba ، حيث يقال بأن تلك العقيدة قد نشأت فيها، وأثارت أخيرا طائفتهم الشريرة غضب الرب بشكل كامل لدى تحديهم له، ونشرهم لكتبهم المتضمنة عقيدتهم بين الطبقات الدنيا، أمام أعين الأساقفة والكهنة، حيث لم يقيموا تقديراً لالكأس القربان، ولا للأواني المقدسة، ولااحتراماً لجسد ودم المسيح، وحزن البابا انوسنت حزناً عظيماً لدى سماعه بهذه الأشياء، وأرسل على الفور وعاظاً ومبشرين إلى جميع مناطق الغرب، وفرض على الزعماء والأناس المسيحيين الآخرين، وجوب حمل شارة الصليب في سبيل التحلل من ذنوبهم، ومن أجل استئصال هذا الوباء، وفي مواجهة لمثل هذه الكارثة، عليهم حماية الشعب المسيحي بقوة السلاح، وأضاف أنه بموجب سلطات الكرسي الرسولي، فإن كل من يشارك في أعمال الإطاحة بهذه الهرطقة، وفقاً لوصاياه، سوف يكون مثل الذين زاروا ضريح الرب، ولسوف تشمل الحماية للمشاركين كل من ممتلكاتهم وأشخاصهم وبناء على هذا التبشير اجتمعت حشود كبيرة جداً من الصليبيين، ولم يكن من الممكن تصديق الأعداد التي احتشدت في بلادنا.

زحف الصليبيين ضد الألبينيين

وبناء عليه عندما احتشدوا جميعاً، واستعدوا للقتال، قوض رئيس أساقفة نربونة، ونائب الكرسي الرسولي، وكانا في هذه الحملة، وقادة الجيش، وهم دوق بيرغندي، وكونت نافار، وكونت مونتفورت، معسكرهم، وزحفوا لإلقاء الحصار على مدينة بيزير Beziers، لكن قبل أن يصلوا إليها هرب عدد من أصحاب بعض القلاع، لأنهم امتلكوا ثقة صغيرة في أنفسهم، وجاء فرارهم لدى رؤيتهم لجيش الصليبيين، وقام

الفرسان والآخرون الذين تركوا مسؤولين عن القلاع المذكورة بالمضي بجرأة، بحكم أنهم كانوا كاثوليك جيدين، وسلموا أنفسهم مع ممتلكاتهم، وكذلك القلاع إلى الجيش الصليبي، وسلموا في عشية عيد القديسة مريم المجدلية قلعة سيرمين Cermaine الفخمة إلى الرهبان، وقام صاحب القلعة الذي امتلك عدة قلاع أخرى حصينة جداً، بعدما هرب مع آخرين، بانذار أهل مدينة بيزير، من خلال أسقف تلك المدينة، وذلك تحت التهديد بعقوبة الحرمان الكنسي، بأن عليهم اختيار واحداً من أمرين: إما أن يسلموا الهراطقة مع ممتلكاتهم إلى أيدي الصليبيين، أو أن يتولوا طردهم من بينهم، وإلاّ فإنهم سوف يحرمون كنسيا، وستكون مسؤولية دمائهم على رؤوسهم، ورفض الهراطقة مع حلفائهم بغضب القبول بهذا، وتبادلوا الأيمان بالدفاع عن المدينة، وعندما تعاهدوا وأدوا أيمانهم، كانوا يأملون بأن يكونوا قادرين على المقاومة والتصدي لحملات الصليبيين لوقت طويل، وبعدما وضعت المدينة تحت الحصار، في يوم عيد القديسة مريم المجدلية، بحث البارونات الكاثوليك عن وسيلة يمكنهم فيها انقاذ الذين كانوا بينهم في المدينة وكانوا كاثوليك، وقاموا بالمفاتحة من أجل تحريرهم، لكن الرعاع والطبقات الدنيا من الناس، قاموا بالهجوم على المدينة، من دون انتظار تلقي الأوامر من قادتهم، ومما أدهش المسيحيين، أنه عندما ارتفع نداء، إلى السلاح، وكان الجيش المؤمن مندفعاً من جميع الاتجاهات، قام الذين كانوا يدافعون عن الأسوار من الداخل برمي كتاب الانجيل من المدينة عليهم، وهم يشتمون اسم الرب وجدفوا ضده، وسخروا من مهاجميهم وقالوا: « انتبهوا إننا لانأخذ بشريعتكم، شريعتكم سوف تظل شريعتكم»، وثار غضب جنود الايمان بمثل هذا التجديف، واندفعوا في حملاتهم، وتمكنوا خلال أقل من ثلاث ساعات من الزمان من عبور الخندق، وتسلقوا الأسوار بعون الرب، وبذلك تمّ الاستيلاء على المدينة وقد نهبت في اليوم نفسه وأحرقت، ووقعت مذبحة عظيمة في صفوف الكفار، جاءت بمثابة عقوبة من الرب، وفي ظل حمايته، جرى قتل عدد

ضئيل جداً من الكاثوليك، وبعد مضي وقت قصير، عندما انتشرت أخبار هذه المعجزة في الخارج، فرق الرب أمام وجه الصليبيين، الذين شتموا اسمه وجدفوا ضد شريعته، وجاء ذلك وكأنه من دون مساعدة الصليبيين، ثم ارتعب أخيراً أتباع هذه الهرطقة الفاسدة، إلى درجة كبيرة، حتى أنهم هربوا إلى قمم الجبال، ولايمكن لانسان أن يصدق أنهم تركوا أكثر من مائة قلعة لاترام بين بيزير وكاركسون Carcassone ، مشحونة بالأطعمة، وبجميع أنواع المخزومات، مما لم يستطيعوا أخذه أثناء فرارهم.

الاستيلاء على مدينة كاركسون وعلى قلعتها

ونقل الصليبيون معسكرهم من هذا المكان، ووصلوا في يوم عيد القديس بطرس« في الأغلال»، إلى كاركسون، وهي مدينة كثيفة السكان، وماتزال حتى الآن ممجدة بشرورها، وغنية بثرواتها، ومحصنة بشكل جيد، وقاموا في اليوم التالي بالهجوم، وخلال ساعتين أو ثلاث ساعات عبروا الخندق، وتسلقوا على الأسوار، وسط زخات النشاب من القسي الزيارة، وطعنات الرماح، وضربات سيوف المدافعين الأشرار عنها، ونصبوا بعد هذا آلات الحرب، وفي اليوم الثامن جرى احتلال الربض الأكبر للمدينة، بعدما جرى قتل العدد الأكبر من الأعداء الذين عرضوا أنفسهم من دون خوف، وجرى تهديم أرباض المدينة، التي بدت وكأنها أوسع من بلدة، تهديماً كلياً، وهكذا حوصر الأعداء في الأزقة الضيقة للمدينة، وعانوا من كثرة أعدادهم، وأكثر من ذلك من الحاجة إلى المؤن، ولذلك قدموا أنفسهم وجميع ممتلكاتهم مع المدينة إلى الصليبيين، على شرط الحفاظ على أرواحهم صدوراً عن الرحمة، وأن يجري الاحتفاظ بهم على الأقل لمدة يوم واحد، وبعدما عقد البارونات اجتماعاً، تسلموا المدينة كما هي تحت الاكراه، وكان ذلك بالمقام الأول— برأي الناس— لأنها عدّت لاترام، والسبب الثاني، هو أنه لو جرى تدمير تلك المدينة كلياً، لن يكون هناك مكان لاقامة أي نبيل من الجيش، سوف يتولى حكم تلك المنطقة، كما أنه لن يوجد موضع في

المكان المحتل، يمكن له أن يسكن فيه، ولذلك: إن تلك الأرض التي سلمها الرب إلى أيدي عبيده، كان من الممكن الحفاظ عليها تشريفاً له، ولفائدة المسيحية، وجرى بناء عليه اختيار النبيل سيمون دي مونتفورت ايرل أوف ليستر، حاكماً لتلك المنطقة، وجاء ذلك بموافقة عامة من الأساقفة والبارونات، وإليه جرى تسليم النبيل روجر، الذي كان من قبل فيزكونت وحاكما لتلك المنطقة، ليكون سجيناً، وشمل التسليم المنطقة كلها، بما في ذلك حوالي مائة قلعة، قرر الرب خلال شهر واحد إعادتها إلى الوحدة الكاثوليكية، وكان بين هذه القلاع، بعضاً بلغن من القوة والمنعة، أن كن لايخفن— برأي الناس— إلاّ قليلاً من أي جيش كان، وبعد هذا الانجاز، عاد كونت نافار إلى الوطن مع شطر كبير من الجيش، في حين تابع دوق بيرغندي اللامع وبقية الأمراء، وزحفوا مع جيوشهم للقيام بإفناء هذه الهرطقة الفاسدة، ووضعوا بعد هذا بين يدي الايرل سيمون دي مونتفورت المزيد من القلاع التي استولوا عليها إما بوساطة الترغيب أو الترهيب.

إرسال رسل إلى طولوز من قبل الصليبيين

وبما ان مدينة طولوز موصوفة—كما قيل—منذ زمن طويل بهذا الذنب الدنس،بعث البارونات رسلاً خاصين إلى رئيس أساقفة سانتونغ san-tong وأسقف فورولي Foroli وفيزكونت أوف سينت فلورينتوس Florentius وإلى اللورد أكالد دي روزيلون Roussilon وإلى سكان المدينة، مع رسائل منهم، آمرين إياهم بتسليم هراطقة تلك المدينة إلى جيش الصليبين، وذلك مع ممتلكاتهم، وذلك إذا صدف وقالوا بأنه لم يكن هناك هراطقة، فإن هؤلاء المذكورين والذين جرى ذكر أسمائهم عليهم القدوم إليهم، وعمل اعلان واضح عن ايمانهم، وفقاً للعادة المسيحية ولكن أمام الجيش كله، وإذا ما رفضوا فعل هذا، فإنهم سوف يحرمون كنسياً، بالرسائل نفسها، قادتهم الرئيسيين ومستشاريهم، ويضعون

بلدة طولوز مع متعلقاتها تحت حرمان من شراكة المؤمنيين.

[وخلال ذلك العام نفسه، وأثناء الصيف التالي، نجم في فرنسا قيام عقيدة مزيفة، لم يسمع بمثلها من قبل، حيث قام شاب، كان ما يزال غلاماً في سنّه، لكنه صاحب عادات شريرة، قام بناء على إثارة من الشيطان، وذهب يتجول في المدن والقلاع في فرنسا، وهو ينشد بالفرنسية بهذه الكلمات: «أعد إلينا يا مولانا يسوع المسيح الصليب المقدس»وذلك مع اضافات أخرى كثيرة،وعندما رآه بقية الأطفال الذين من سنّه وسمعوه، تبعوه بأعداد ليس لها نهاية، وبما أنهم فتنوا بشرور الشيطان، تركوا آبائهم وأمهاتهم، وحاضناتهم، وجميع أصدقائهم، وصاروا يغنون بالطريقة نفسها مثل معلمهم،والذي كان مدهشاً ان ما من غلق كان من الممكن حبسهم فيه،كما لم يكن بالإمكان اقناعهم من قبل آبائهم ولا اعادتهم، وقد تبعوا معلمهم المذكور نحو شواطىء البحر المتوسط، وعبروه وساروا بمسيرات غنائية، ولم يكن بإمكان مدينة من المدن استيعابهم، بسبب أعدادهم،ووضع قائدهم نفسه في عربة مزينة مع سرير ومظلة، وقد أحيط بحرس مسلح كانوا يرفعون أصواتهم من حوله،وكانت أعدادهم كبيرة، حتى أنهم ضغطوا على بعضهم بعضاً، واعتقد أحدهم نفسه سعيداً، عندما كان يستطيع الحصول على خيط أو قطعة من ثيابه، لكن أخيراً، تآمر الشيطان الذي هو العدو القديم ضدهم، وهلكوا جميعاً إما على الأرض أو في البحر.

وفاة غيوفري فتز ـــ بيتر

ومات في العام نفسه غيوفري فتز—بيتر، وكان ذلك في اليوم الثاني من تشرين الأول، وكان المسؤول عن العدالة في انكلترا كلها، وكان رجلاً قوياً جداً، وصاحب سلطة واسعة، وسبب موته حزناً عظيماً للملكة كلها، وكان هذا الرجل عموداً ثابتاً للكنيسة، وكان رجلاً صاحب عقل نبيل، وعليماً بالقوانين وبالخزينة والموارد، وقد تمتن بأعماله الجيدة، وكان حليفاً

إما عن طريق القرابة أو برابط الصداقة، لجميع نبلاء انكلترا، ولهذا السبب خاف الملك من جانبه منه أكثر من خوفه من بقية رعيته، حيث كان لا يقيم أي اعتبار له، لأنه أمسك بأزمة الحكومة، ولذلك غدت انكلترا لدى موته مثل سفينة في البحر بلا ربّان، وكان هذا الاضطراب قد بدأ لدى موت هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وكان رجلاً نبيلاً ومخلصاً، وبعد وفاة هذين الرجلين، لم يعد بإمكان انكلترا التنفس، ولدى وفاة بيتر المذكور، واخبار الملك جون بذلك، قال وهو يضحك: «دعوه عندما يصير في جهنم يقدم التحية إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وذلك انه سوف يجده هناك بدون أدنى شك»، ثم التفت إلى الذين كانوا جالسين من حوله، فأضاف وهو يقول: بحق قدمي الرب، إنني الآن للمرة الأولى ملك انكلترا وسيدها»، ثم إنه امتلك منذ ذلك الوقت سلطة أكثر حرية للعمل بشكل مضاد لأيمانه واتفاقاته، التي عملها مع غيوفري المذكور، وليحرر نفسه من أغلال السلام التي ورط نفسه بها، وبناء عليه كان آسفاً لأنه اقتيد لإعطاء الموافقة على السلام المتقدم ذكره.

ارسال الملك وهو يائس رسلاً إلى أمير المؤمنين

وبناء عليه أرسل على الفور رسلاً سريين هم: الفرسان توماس هاردنغتون Hardington ورالف فتز—نيقولا، وروبرت أوف لندن، وكان رجل دين، إلى أمير المؤمنين، الملك الكبير لأفريقيا، والمغرب، واسبانيا، وهو الذي كان يعرف بشكل عام بلقب أمير المؤمنين، ليخبره، بأنه متطوعاً سوف يسلم إليه نفسه ويسلم مملكته، وإذا ما رغب سوف يليها منه مقابل دفع الجزية، وهوسوف يتخلى عن العقيدة المسيحية، التي يعدها عقيدة مزيفة، وسوف يرتبط مخلصاً بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).

ولدى وصول الرسل المتقدم ذكرهم إلى بلاط الأمير المتقدم الذكر، وجدوا عند الباب الأول بعض الفرسان المسلحين يتولون القيام بحراسة

مشددة، بسيوف مجردة، ووجدوا عند الباب الثاني لذلك القصر، عدداً أكبر من الفرسان المسلحين بشكل كامل، وكانوا أكثر أناقة في ملابسهم، وأقوى، وأعظم نبلاً من الآخرين، وقد تولى هؤلاء حراسة المدخل بدقة أكثر، بسيوف مجردة، وكان هناك عند باب الغرفة الداخلية عدداً أكبر من الحرس، ووضح من مظهرهم أنهم كانوا أقوى وأكثر حدة من الفرسان المتقدمين، واقتيدوا أخيراً بسلام، بإذن من الأمير نفسه، الذي يدعونه الملك الكبير، وأدخلوا إليه، وقام هؤلاء الرسل، بتقديم التحية باسم مولاهم ملك انكلترا، بكل احترام، وشرحوا شرحاً كاملاً أسباب قدومهم، وسلموا إليه بالوقت نفسه رسالة الملك، التي تولى مترجم، استدعي من قبله، تفسيرها إليه، وعندما فهم هدف الرسالة ومحتواها، قام هذا الملك الذي كان متوسط العمر، وسامياً، وله مظهر كله رجولة، كما كان فصيحاً، وواعياً حذراً في حديثه، قام بإغلاق كتاب كان ينظر إليه، لأنه كان جالساً وراء منضدة، حيث كان يدرس، ثم إنه بعدما فكر ملياً، وراجع الأمور مع نفسه، أجاب بلطف قائلاً: «كنت للتو أنظر في كتاب لحكيم اغريقي ومسيحي اسمه بولص، وقد كتب بالاغريقية، وقد أعجبتني أفعاله وأقواله كثيراً، وهناك على كل حال، أمر واحد متعلق به لم يعجبني، هو أنه لم يلتزم بحزم بالعقيدة التي ولد عليها، بل تحول إلى عقيدة أخرى، مثل هاجر ومتقلب، وإنني أقول هذا بالنسبة لمولاكم ملك الانكليز، الذي تخلى عن شريعة المسيحية التي هي الأكثر نقاء وتقوى، التي ولد في ظلها، وبما انه صاحب رغبات، ومتقلب، وغير مستقر، يرغب بالتحول إلى عقيدتنا»، ثم استطرد مضيفاً: «ويعلم الرب القادر العارف، أنني لو كنت بلا شريعة لقمت باختيار تلك الشريعة، ولدى قبولي بها، لتمسكت بها باصرار»، ثم إنه سأل عن أوضاع ملك انكلترا، وعن أحوال مملكته، وعلى هذا أجابه توماس، الذي كان الأكثر فصاحة قائلاً: «ينحدر الملك بشكل شهير ونبيل، من ملوك، كبار وأراضيه غنية، وفيها وفرة من جميع أنواع الثروات، في الزراعة، والمراعي، والغابات، ومنها يجري استخراج جميع

أنواع المعـادن وتصنيعها، وشعبنا شعب جميل بهي، وأصيل، وبارع بثـلاث لغـات هي: اللاتينيـة، والفرنسيـة، والانكليـزية، وكذلـك في متابعـة جميع الأعمال النظرية والعمليـة، وبلادنا—على كل حال— لا تمتلك بنفسهـا أية كميـات من كـروم العنب وأشجـار الزيتـون، وليس فيهـا أيضـاً أشجـاراً مناسبـة، لكنهـا تحصل على هذه الأشياء بكميـات كبيرة وافـرة من البلدان المجاورة عن طريق التجارة، والمناخ فيهـا صحي ومعتدل، وهي واقعة بين الغـرب والشمال، وتتلقى الحرارة من الغــرب، والبرد من الشمال، وتتمتع بأنواء هي الأكثـر مواءمـة، وهي محاطة تمامـاً بالبحـر، ولذلك تدعى باسم ملكة الجزر، ومملكتنا تحكـم منذ القـدم مـن قبل ملوك معمــدين، وشعبنا شعب حر، ويتمتع بالرجـولة، ولا يعترف بسلطان أحد إلا سلطان الرب، وكنيستنا وطقوسنا الدينيـة محترمة هناك أكثر من أي جـزء من العالم، وهي تحكم بسـلام بموجب قـوانيين البـابا وقوانيين الملك»، وتنهـد الملك بعمق لدى انتهــاء هذا الكلام، وأجــاب:« إنني لم أقـرأ قـط ولم أسمع بأن ملكاً يمتلك مثل هذه المملكة المزدهرة، التـي هي خـاضعـة له ومطيعـة، يرغب هكذا عن طواعيــة بتـدمير سلطانه بوضع بلاد هـي حـرة لأن تكون تحت الجزية، وذلك بإعطـاء غـريب مــا هو له وخــاص به، وبابدال السعــادة بالتعاسة، وبوضع نفسه على هـذه الصورة تحت إرادة واحد من الآخرين، بحيث يستــولي عليهــا هكذا من دون أذى، ولقــد قــرأت—بالحري— وسمعت من كثيرين بـأن كثيراً من الناس يشترون الحرية لأنفسهم مقــابل أنهار من دمــائهم، الذي هو عمل محمـود، لكننـي أسمع الآن بأن ملككم التعيس خامل وجبان، وهو لا يسـاوي شيئاً، لأنه يرغب بتحويل نفسه من رجل حـر إلى إنسـان عبد، فمثل هـذا هو أتعس الكائنات البشرية»، وسأل بعد هذا بإزدراء، مـا هو عمره، وحجمـه،وقوته،وفي جـواب لهذا السؤال، أخبر بأنه كان في الخمسين، أشيب تماماً، وقـوياً في جسده، ليس طويلاً، بل هو بالحري مـربوع مـدملج، وله شكل مناسب للقـوة، ولدى سماع المللك بهذا قال:«إن شبـابه وشجاعتـة ورجولتـه قد اختمـرت، وبدأ الآن يصبح

أكثر برودة، وخلال عشر سنوات—إذا عاش كذلك—سوف تنهار شجاعته، ولسوف تخونه قبل ان يتمكن من انجاز أي عمل صعب، وإذا ما بدأ الآن هو سوف يسقط نحو الانحدار، وسوف لن يكون صالحاً لشيء، لأن الانسان ابن الخمسين يغرق بعدم الادراك، ويعطي ابن الستين دلائل تشير إلى الانحدار، دعوه يحصل ثانية على سلام لنفسه، ويتمتع بالراحة»، ثم إنه بعدما قرأ جميع الأسئلة، وأجاب الرسل، انفجر بعد وقت قصير بالضحك، وذلك كعلامة على التعالي والغضب، ورفض عرض الملك جون بهذه الكلمات:«ذلك الملك هو بلا تقدير، لكنه ملك صغير، بلا عقل، وقد غدا عجوزاً، وأنا لا أهتم به، ولا أبالي به، وهو غير جدير بأي تحالف معي»، وبالنسبة لرالف وتوماس قال وهو ينظر إليهما شذراً:«لا تأتيا إلى حضرتي ثانية، ولا تدعا عينيكما تريا وجهي ثانية، إن شهرة، أو بالحري عدم شهرة ذلك الأحمق المرتد، الذي هو سيدكم، تصدر عنه رائحة كلها نتانة أشمها بأنفي».

وأخذ الرسل وقتها ينصرفون، وهم يشعرون بالخجل، عندها رأى الأمير روبرت الكاهن، الذي كان ثالث الرسل، والذي كان رجل دين صغير، ذراعه الأول أطول من الثاني، وأصابعه جميعاً مشوهة ذلك ان اصبعين كانا ملتصقين، وكان له وجه مثل وجه يهودي، فاعتقد أن مثل هذا الرجل اللافت للتأمل بشكله، ما كان ليرسل لتدبير أمور صعبة، ما لم يكن حكيماً وماهراً، وفهيماً متعلماً، ولدى رؤيته لقلنسوته الرهبانية، ورأسه الحليق في وسطه، أدرك من ذلك بأنه كان رجل دين، وهنا أمر الملك باستدعائه، لأنه عندما كان الآخران يتكلمان وقف هو حتى ذلك الحين صامتاً، على مسافة منه، ولذلك احتفظ به، وأبعد الآخرين، ثم كان له حديث سري طويل معه، وكان محتوى ذلك الحديث وفحواه—كما أباح روبرت ذلك فيما بعد لرفاقه—هو أن ذلك الملك قد سأله عما إذا كان الملك جون له طبائع عادية، وعما إذا كان له أولاد شجعان، وعما إذا كان

يمتلك طاقة طبيعية كبيرة، وأضاف أنـه —أي روبرت—إذا ما كذب عليه في هذه المسائل، هو لن يصدق مسيحياً ثانية، لا سيما إذا كان رجل دين، ثم إن روبرت— بناء على وعده كمسيحي— وعده بأن يعطيه إجابة صحيحة على جميع الأسئلة، التي سـوف يطرحهـا عليـه، وبناء عليـه أجـاب بشكل مؤكد، ان جـون كان طاغية، وليس ملكا، ومدمـرا أكثر منه حاكما، وظالما لشعبه، وصديقا للغرباء، وأسد على رعيته، وحمل بالنسبة للأجانب وللذين يقاتلون ضده، فبسبب فسـولته وتراخيه، قد فقـد دوقية نورماندي، وكثيرا من مناطقه الأخرى ، وأكثـر من هذا،هو متشوق لفقدان مملكة انكلترا، أو لتدميرها، وهوجشع في استخراج المال، ومهـاجما ومدمرا لممتلكات رعاياه الطبيعيين، وقد أنجب قليـلاً من الأولاد الأقوياء، أو بالحري لم ينجب أبداً أحد بشكل مطلق، بل فقط أولاداً على غرار أبيهم، وله زوجة مكروهة من قبله ومكروه من قبلها، زواجه لها سفاحاً، وهي شريرة، ومكشوفة، وإمرأة زانية، وبالنسبـة لهذه الجرائم غالباً مـا وجدت وهي مجرمة، وبناء عليـه أمر الملك باعتقال عشاقها، وخنقهم بالحبـل فوق فراشها، وعلى الرغم من هذا كله، إن هذا الملك نفسه حسود لكثير من نبلائه وأقربائه، وقد فضح بناتهم وأخواتهم اللائي كن في سن الزواج، وبالنسبة لمراعاته للديانة المسيحية هو متقلب ولا يمكن الوثوق به كما سمعـت». وعندمـا سمع الملك الأمير هذا كله هو لم يكتف بكراهيـة الملك جـون كما فعل من قبل، بل ازدراه، ووفقـاً لشريعته لعنه، وأضـاف:«لماذا يسمح الانكليز البؤسـاء لمثل هذا الرجل ان يكون حـاكماً وسيـداً عليهم؟ لا شك أنهم خـاملين وعبيـد»، فأجـابه روبرت:«إن الانكليز أكثـر الناس صبراً، حتى تجري اثارتهم وإلحاق الأذى بهم خارج حدود الاحتمال، وهم الآن مثل أسد، أو فيل، عندما يشعر نفسه قد جرح، أو يرى الدم، وهم الآن حـانقون، ومستعدون، ويعملون —مع أن ذلك جاء متأخـراً—لإزالة نير الظالم من على رقابهم، ولدى سماع الملك الأمير لهذا، لام الأناة اللينة للانكليز، التي أكد المترجم الذي كـان موجوداً طوال الوقت، أنها بالحقيقـة خـوف، وتحادث الملك مع روبرت حول عـدة

موضـوعات أخرى إلى جـانب هذا الموضوع تحدث فيها بعـد روبرت عنها وأخبرها رفـاقه في انكلترا، ثم إنه قـدم إليـه بعد ذلك عـدة هدايا ثمينة من الذهب والفضـة ومختلف أنواع الجواهر والحرير، ثم صرفـه وفق اتفاقـات صداقة، لكنه لم يقـدم التحية للرسولين الآخرين عنـدما تركاه، ولم يشرفهما بأية هـدايا، ثم إنهم عـادوا إلى الوطن، وأخبروا جـون بكل الذي رأوه وسمعوه ، وقـد بكى بحرقة في نفسـه بسبب إزدرائه من قبل الملك الأمير، ولأنه صد بالنسبـة لمقاصده،وقـام روبرت—على كل حال— بعـدم تقديم الهدايا الأجنبيـة التي منحت له، إلى الملـك، ولم يعـرفـه بها،مع أنه كـان من الواضح بأنـه استقبل بعناية أكبر من الآخـرين، وذلك على الرغـم من أنه صد في البداية، وأمر بالتزام الصمـت، ولهذا السبب أكرمه الملك جون أكثر من الآخـرين، ومنحـه عن طـريق المكافـأة—هذا المصـادر المغتصب الشرير—المسؤولية عـن دير القديس ألبان، مع أن رئاستـه لم تكن شاغرة، وهكذا منح هذا المعتدي على الإيمان غصبـاً لكاهنه ما كـان ملكاً لآخر، ثم قـام روبرت هذا دون الرجـوع إلى رأي آخـر،وعلى الرغم من إرادة راعي الدير القـائم، وهوجـون دي سل Cellالذي كـان رجلاً عظيم التـديـن، ومن أكثـر الناس علماً، فاستـولى على كل شيء، كان آنذاك في الكنيسـة وفي الدير حسبما رغب، ووظف ذلـك كله لاستخـدامـاته الخاصـة، وأثناء كل وكـالة، ندعوها، نحن طاعـة، عين لنفسه حـاجباً، يتسم بالحزم، وبالقـدرة على البحث عـن كل شيء، وبتلك الـوسـائـل استطاع روبرت، الكـاهن المذكور، خداع الكهنة والرهبان وابتزازهم بمبلغ يزيد عن ألف مارك، وقد أقـام—على كل حـال—تقـديراً لبعض الخدم الرئيسيين لراعـي الدير، ولراهب من سينت ألبان، اسمه لورانس، وكان فارساً لدى المفوض العام، وإلى لورانس الكاهن، وإلى المعلم وولتر الراهب، الذي كان أيضـاً رساماً، وقد احتفظ بهم أصـدقاء مقربين منه، وإليهم كـان يظهر مجوهراته، والهدايا الأخـرى السرية التـي نالها من الأمير، كما كـان يقص عليهـم الذي جـرى بينهما، وكـان متى هو الذي سمـع ذلك، وهو الذي كتـب هذه الحوادث

ورواها.

قرار جون بوضع انكلترا تحت الحكم البابوي

وبدأ الملك جـون منذ ذلك الحين، في تمتين هدفـه، الـذي فكر بالتراجع عنه، وأن يجعل الوضع أسوأ فـأسـوأ، لصـالح تدهور المملكة، وقـد كـره —مثل أفعى ســامــة— جميع الناس من ذوي المراتـب النبيلة في المملكة، وبشكل خاص سيردي كـوينسي، وورويرت فتز— وولتر، وستيفن رئيس أساقفة كـانتربري، وكان يعلم من خلال كثير من التجارب، بـأن البابا كان أكثر طموحـاً من بقية الناس، متفاخراً، ومتعطشـاً يسعى وراء المال، وكان مستعداً لاقتراف أي ذنب مقابل جـائزة، أو الوعد بمكافأة، ولذلك أرسل رسلاً، مع أوامر بالاسراع، وحـول معهم مبلغاً كبيراً من المال، له، مع وعد بالمزيد، وأنه سـوف يكون دوماً خـاضعاً له، يؤدي إليـه الجزية، على شرط، أن يسعى عندما تتوفر الفرصـة، لتحقير رئيس أساقفة كانتربري، وأن يحرم كنسيـا بارونات انكلترا، الذين وقفوا مـن قبل إلى جانبـه، وتشوق متطلعـاً لالحاق شروره بهم، بحـرمانهم من مـواريثهم، وسجنهم، وقتلهم، عندمـا يجري حرمانهم كنسيا، وهذه الخطط الشريرة التـي أبدعها، قد تولى تطبيقها وتنفيذها بشرور أعظم، كما سيأتي الحديث فيما بعد.

اهتمامات الملك جون بآرائه الشريرة حول الإيمان

وأصبح الملك جون في هذه الآونة مجنوناً، حتى أنه تصور أفكاراً شريرة حول قيـامة الموتى وقضايا أخرى تعلقت بالديانة المسيحيـة، وتفوه ببعض الألفـاظ الحمقاء التي لم يسمع بمثلهـا من قبل، ونعتقد أنه من المفيـد رواية حكـاية واحـدة من ذلـك، فقـد حدث أن جرى امسـاك وعل سمين جداً في الصيــد، وعندمـــا أحضر لسلخــه بحـــضرة الملـك، ضحك وقـــال سـاخراً: «كم هو سمين هذا الحيـوان، مع أنه كبر من دون أن يسمع قداسـاً قط».

غلبة أمير المؤمنين وفراره

وعـزم في هذه الآونة الملك أو أمير المؤمنين، الذي ورد ذكره أعـلاه، مع جيش كبير كـان قـد حشده،مع مـوافقـة جـون، كما قلنا من قبل، وأراد أن يستـولي بالقوة، على مملكة اسبـانيـا، وقد تشجع بسبب تقلب الملك جـون بالنسبة للعقيدة، وبسبب حرمـان مملكته من شراكة المؤمنين، وملك الجرأة، لكن الذي حـدث هو أن المسيحيين من أتباع ملك اسبـانيا، عندمـا سمعوا بهذا، تصـدوا له بشجاعـة ومزقـوا جيشه كله، وطردوه من البـلاد، وذلك بعـدمـا قتلوا أكبر أولاده، واستـولوا على رايتـه الملكيـة(١)، وكـانت هذه المعـركة ستكسب ملك أراغـون، وتعطيه شهـرة أبدية، لولا انه تكبر كثيراً وتعجـرف، وقـام بلا مبـالاة فـانتـزع من سيمـون دي مـونتفـورت، جميع الأرض التي حصل عليهـا من الألبينيين ليتـولى حكمهـا والاحتفـاظ بها، وجاء انتزاعه لها، على الرغم من تحريم البابا، الذي طلب منه عدم انتزاعها، ولذلك أشعل بعمله هذا حرباً ضده شخصياً].

وفي الرابع عشر من تشرين أول، مات غيوفري فتز—بيتر، المسؤول عن العدالة في انكلترا، وأنهى حياته.

موت ملك أراغون في موريلي

وكان في هذه الآونـة جرى تتويج ملـك أراغون في روما، من قبـل البابا انوسنت، لكن مع أنه قـد تلقى أوامر دقيقـة جـداً، بعدم تقـديم المساعـدة لأعـداء العقيـدة، أو إبداء اللطف نحوهـم، لم يلتزم بتقـوى بأوامـر الأب المقدس، فقام بلا مبالاة بالعمل ضد الوصاية الرسولية، ذلك أنه ما أن عاد إلى الوطـن حتـى التحـق بهراطقـة، تلـك المنطقـة نفسها، التي جـرى للتو

١— هذه المعركة هي معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٣م/ ، التي خسرها محمد الناصر لدين الله الموحـدي، وشكلت نتـائج هذه المعـركـة كـارثة حقيقيـة على الدولـة الموحـدية، وعلى عـرب الأندلس، انظر الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٦٠—١٦١ .

استردادها، تحت قيادة الرب وذلك بمساعدة الصليبيين، واتحد مع كونتات طولوز، وفويكس Foix وكومني Commengesوقام بصحبة سكان طولوز وجيش كبير، في اليوم الثالث من الاسبوع، بعد ميلاد القديسة مريم، وألقى الحصار على قلعة موريلي Murelle وبناء على هذه الأخبار، تلقى الآباء المبجلون: أساقفة طولوز، ونسمي NISMES والقديسة أغاثا، وبوردو، وأوز Uzes ولوفين، وكومني، ورعاة ديرة: كليرفو، ومانفيل Magneville والقديس تايبيروس، الأوامر بالاجتماع، من رئيس أساقفة نربونة، الذي كان نائب الكرسي الرسولي، من أجل تدبير أعمال الحملة الصليبية، وانطلقوا مع بعضهم مع سيمون دي مونتفورت، ومع جيش من الصليبيين، لتقديم العون إلى القلعة المحاصرة، ووصلوا في يوم الأربعاء، من الأسبوع المشار إليه أعلاه إلى قلعة إسمها سافاردون Savardon،ومن هناك أرسلوا رسلاً إلى القادة الذين كانوا يتولون الحصار عند موريلي، حيث قالوا بأنهم جاءوا للتفاوض معهم حول السلام، ولهذا رغبوا بالحصول على أمان يمنح لهم، وفي اليوم نفسه غادر الجيش الصليبي سافاردون، لأن الضرورات الملحة اقتضت ذلك وتطلبته، وأسرع ذلك الجيش لتقديم العون لقلعة موريلي، وقرر—على كل حال— الأساقفة الذين تقدم ذكرهم الإقامة عند قلعة اسمها هانترايف Hanterive ، وذلك في منتصف الطريق ما بين سافاردون وموريلي، حيث كانت على بعد فرسخين عن كل منهما، وأقاموا هناك ينتظرون عودة رسلهم، وعندما عاد هؤلاء ، جلبوا رسالة إلى الأساقفة من ملك أراغون، بأنه لن يمنحهم أمان، لأنهم وصلوا مع مثل هذا الجيش الكبير، الذي هم ليسوا بحاجة إليه، ولدى سماع الأساقفة بهذا دخلوا إلى موريلي مع الجيش الصليبي، في يوم الأربعاء من الأسبوع نفسه، ثم انهم أرسلوا على الفور اثنين من رجال الدين إلى الملك، وإلى سكان طولوز، لكنهما استقبلا بالمجافاة والسخريةمن قبل الملك في الجواب الذي أعطاه، ذلك لأنهما أرادا عقد مؤتمر معه، حول الأربعة البذيئين، الذين جلبهم الأساقفة معهم، هذا

وأخبرهما سكان طولوز—أي الرسولين— بأنهم متحالفين مع ملك أراغون، وأنهم لن يفعلوا شيئاً، إلاّإذا توافق مع رغبات الملك المذكور.

وعندما أخبر الرسولان هذا إلى الأساقفة ، قررهؤلاء الذهاب حفاة إلى الملك برفقة رعاة الديرة، ولدى اقترابهم على هذه الصورة، جرى اخبار الملك بذلك، ففتحت أبواب المدينة، وهنا كان ايرل مونتفورت وجميع الصليبيين غير مسلحين، لأن الأساقفة قد ذهبوا للتفاوض من أجل السلام، ومع ذلك حاول أعداء الرب أن يشقوا طريقهم بالقوة إلى البلدة، لكن بنعمة من الرب جرى صدهم ولم يحققوا ما نووه، ولدى رؤية الايرل مع الصليبيين عجرفتهم، وأنهم هم أنفسهم قد تطهروا كلياً من ذنوبهم بوساطة الندم في القلب ، وبالاعتراف الفعلي، صبوا على أنفسهم أسلحتهم، وذهبوا إلى أسقف طولوز، الذي كان مكلفاً بأعمال النائب البابوي هناك، وذلك بموجب صلاحيات السيد رئيس أساقفة نربونة، ولقد سألوه بتواضع وطلبوا إذنه للانقضاض والهجوم ضد أعداء الايمان، وكانت الأوضاع متأزمة، ولذلك جرى منح الإذن إليهم، وبناء عليه حملوا، بإسم الثالوث المقدس، على أعدائهم، أعداء الإيمان، على شكل ثلاث تشكيلات، وقدم أعداء الإيمان من جانبهم، وتقدموا من معسكرهم الحصين، على شكل عدة كتل من العساكر، ومع أنهم كانوا حشداً كبيراً بالمقارنة مع الصليبيين، فإن عبيد المسيح، اعتمدوا على مساعدته، وتسلحوا بالشجاعة من عليين، ولذلك قاتلوهم بجرأة، وتمكنوا على الفور،بفضل العلي الأعلى، بأيدي أتباعه، من شق طريقهم خلال الأعداء، وسحقوهم في لحظة ، لأنهم أداروا ظهورهم، وهربوا مثل الغبار أمام الريح، وقد نجا بعضهم من الموت تماماً بوساطة الفرار، ونجا بعضهم من السيف، لكنهم هلكوا بالماء، بينما جرى قتل آخرين في ميدان المعركة، ذلك أن ملك أراغون اللامع كان بين الذين سقطوا قتلى، ولأنه كان قد اتحد مع أعداء الإيمان، فقد توفر حزن عميق لذلك، ولأنه أغضب بصورة شريرة الكنيسة

الكاثوليكيـة، هذا ومن غير الممكن، بأية وسيلة من الـوسائل، ذكـر العـدد الصحيح للذين قتلوا، لكن بالنسبة للصليبيين، لقد فقدوا فارساً واحداً إلى جانب قلة من الجنود قد قتلوا، ووقعت هذه المعـركة، في اليوم السادس من الاسبوع، بعد ثمانية ميلاد القديسة مريم، في شهر ايلول من عام ١٢١٣.

وصول نيقولا أسقف توسكولوم والنائب للكرسي الرسولي إلى انكلترا

وفي أيام عيـد القديس ميكائيل من العـام نفسه، جـاء إلى انكلترا نيقولا أسقف توسكـولوم Tusuclum ونائـب الكرسي الرسـولي، وحل -بوسـاطة السلطة الرسـوليـة -الخلاف بين العرش والأسـاقفـة، ومع أن البلاد كانت تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، استقبل في كل مكان بحفاوة وبمسيرات مهيبة، ومع الموسيقى، والناس وقـد ارتدوا ثياب العيد، ولدى وصوله إلى وستمنستر، قام على الفور بتجريد وليم راعي الدير، الذي اتهم من قبل رهبـانه. بتبـديد النفقات، وبعـدم القـدرة على كبح نفسه جنسيـاً، وجـاء إليـه إلى المكان نفسـه، سكـان أكسفـورد، يطلبـون التحليل، بحكم نيابتـه، وبشأن فرضية الكاهنين، اللذيـن أتينا على ذكرهما أعلاه، وكـانا قد شنقا، فعين عقـوبة توبة لهم بين أشياء أخرى، بأن أمـرهم بالذهاب إلى كل واحدة من كنائس المدينة، وأن يخلعـوا أرديتهم، وأن يكونوا حفاة، حاملين للأسـواط في أيديهم، وأن ينشـدوا هناك المزمـور الخامـس عشر، وبذلك يحصلون على التحليل من كهنة الأبـرشيـات، وقـد سمح لهم بالذهاب إلى كنيسة واحدة في كل يوم، وذلك حتـى يكون الآخرون خائفين في المستقبل من اظهار مثل تلك الوقـاحة، وهكذا حدث أن النائب البـابوي الذي جاء إلى انكلترا مع سبعة خيـالة في ركابه، مالبـث بعد قليل أن سار خـارجاً مع قطار تألف من خمسين، ويحيط به لخدمته حاشية كبيرة جداً، وأخيراً اجتمع رئيس أساقفة كانتربري مع أسـاقفة ونبلاء المملكة في لندن، بحضور الملك والكاردينال، وهناك جرى نقاش لمدة ثـلاثة أيام بين العرش والكهنة حول

خسائر الأساقفـة وممتلكاتهم المصادرة، وتمّ إثر ذلك تقديم عرض من قبل الملك، يكون بمثـابة تعويض كـامل، وهو دفع مبلغ مـائة ألف مـارك فضي على الفـور، واذا ماتبين مـن خلال البحث أن حـراس الكنائس أو وكـلاء الملك الآخـرين قد أخـذوا، أكثـر من هذا المبلغ، فقـد تعهد الملك المذكـور بمـوجب يمين أداه مع تقـديم ضمانات، بأنه بمـوجب قرار مـن الأساقفـة والنائب البـابـوي نفسـه، سـوف يعمل ترضيـة قبل الفصح المقبل، تكون كـاملة شاملة لجميع ممتلكاتهم المصـادرة، ووافق النائب البـابوي على هذا، ورغب في تسوية الأمور على الفـور، وكان غاضباً لعـدم قبول العرض على الفـور، ولذلك توفـرت شكوك بأن النائب البـابوي قد انحـاز إلى جـانب الملك أكثر من انحيازه إلى الحق، ورغب الأساقفة -على كل حال -في إطالة الأعمال وتأجيلهـا، مستهـدفين إلى وضع شروط للعـرض، من أجل، أنهم بعـدمـا يعقدون اجتماعـاً، يعملون استقصـاءً حـول الممتلكات المصـادره، وحول خسائرهم، حتى يكون بقدرتهم فيما بعد اعلان المبلغ الذي توصلوا إليـه، وتحديد حجم خسائـرهم، وأن يتسلموا في الوقت نفسـه المبلغ الذي طالبـوا به، ولدى سماع الملك بهذا التأخير، الذي ناسبـه، أعطى على الفـور موافقته، وهكذا تفرقوا في ذلك اليوم دون تسوية أعمالهم.

كيف تخلى الملك جون عن تاجه مع مملكتي انكلترا وايرلندا ووضعهما بين يدي النائب البابوي

وفي اليـوم التـالي، اجتمعـوا كلهـم ثانيــة، في كنيسـة القــديس بولص الكاتدرائيـة، حيث جرت هناك نقـاشات متنوعـة حول إزالة الحرمـان من شراكة المؤمنين، أمـام المذبح الكبير، بحضور رجـال الدين والناس، حيث جـرى ثانيـة فـرض الخضـوع غير المشرف والظهـور المخـزي على الملك، فبموجب ذلك تخلى عن تاجه وعن المملكة، ووضعهما بين يدي البابا، وإليه سلم كـذلك مملكة ايرلندا مثل تسليمـه لمملكة انكلترا، أما بالنسبـة للصك الملكي، الذي كان قد ختم بالشمع مـن قبل، وجرى تسليمه إلى باندولف،

فقد ختم الآن بـالذهب، وجرى تسليمـه إلى النائب البابوي، لاستخـدامه من قبل مـولانا البـابا وكنيسـة رومـا، أمـا فيما يتعلق بـإعـادة الممتلكات المصادرة، فقـد عينوا موعـداً للاجتماع في ردنغ في اليوم الثـالث من تشرين الثاني، ولـدى اجتماعهم في اليوم المحدد، كما كـان مقرراً من قبل، وعنـدما اجتمعوا في اليـوم الثالث ثانيـة في وولنغفورد Wallingford، هناك وعد الملك، كما فعل من قبل، بأنه على استعـداد لإرضاء الأساقفـة وجميع البقية، بالنسبة للممتلكات التي جرت مصادرتها، لكن وضح أن هذا قليل الفائدة بالنسبـة للذين جـرى تهديم قـلاعهم، وتدمير بيـوتهم، والذين قطعت بسـاتينهم وغـاباتهم، وبناء عليـه وافق الملك ووافق الأسـاقفـة أيضـاً على الالتـزام بقـرار البـارونات الأربعـة، وأنهم سـوف يكونوا جميعـاً راضين بقـرارهـم، وفي السادس من تشريـن الثاني، اجتمعـوا مجدداً في ردنغ، وضم الاجتماع الملك، والنائب البابوي، ورئيس الأساقفـة، والأساقفة، والنبلاء، وجميع رجـال الدين الذين لهم علاقـة بأعمال الحرمان من شراكـة المؤمنين، وفي هذا الاجتماع أبرز كل واحـد، وكذلك جميعـا، ورقة تحتوي على تقـدير للممتلكات المصادرة، ولخسائرهم، ولكن بما أن النائب البابوي أظهر ميلاً إلى الملك، جـرى تأجيل الدفع، وذلك باستثنـاء مسألة رئيس الأسـاقفـة والأسـاقفة، الذين نفيـوا لمدة طويلة من انكلترا، حيث تسلمـوا هناك مبلغ خمسين ألف مارك من الفضة.

مراسلة البابا انوسنت إلى نيقولا أسقف توسكو لوم حول الكنائس الشاغرة

وأرسل في هذه الآونة البـابا انوسنت رسائل إلى نيقـولا، نائب الكرسي الرسـولي، كانت تستهـدف، وتحتوي مـايلي: «بما أن كنائس الرب لن تكون أفضل حالاً إلاّ عندما يجري تعيين أسـاقفة موائمين بها، وتزويدها بهم، من الذين لايرغبـون بامتـلاك سلطات عليهم، بقـدر العمل على ازدهارهم ورفعتهم، إننا نأمر أخوتكم بهذه الرسائـل، أخوتكم التي لنا ثقة كاملة بها،

أن تؤمنوا أشخاصاً موائمين، وفقاً لتقديركم لتتم سيامتهم لتولي مناصب الأساقفة ورعاة الديرة في انكلترا، التي هي شاغرة الآن، وأن يكون ذلك إما عن طريق الانتخاب، أو بوساطة التعيين القانوني، وأن يكون هؤلاء موضع اعجاب وتقدير ليس فقط بسبب مسلك حياتهم، بل أيضاً بسبب معارفهم وعلومهم، وأن يكونوا في الوقت نفسه مخلصين إلى الملك، ومفيدين إلى المملكة، وفعالين مؤثرين في تقديم النصيحة إلى الملك، وأن يتم الحصول على موافقة الملك قبل كل شيء، وإننا -على هذا -عندما أمرنا برسائلنا هيئات الكهنة للكنائس الشاغرة، بالالتزام بنصائحكم، اعملوا دوما وأنتم واضعين الرب أمام أعينكم، وتشاوروا حول هذه المسائل مع أناس حكماء وأشراف، يمكن أن يكونوا على دراية تامة بفضائل الأشخاص، خشية أن تنخدع بمهارة أي واحد، وفي حال توفر أي نقد أو معارضة، اعتمد على وسائل الرقابة الكنسية، وأرغمهم على الطاعة من دون اعتراض. صدر في اللاتيران، في الأول من تشرين الثاني، في العام السادس عشر من حبريتنا».

ولدى تلقي النائب البابوي هذه الصلاحيات من البابا، رفض نصيحة رئيس الأساقفة مع أساقفة المملكة، وذهب إلى الكنائس الشاغرة مع الكهنة ووكلاء الملك، عازماً على تعيينهم، وفقاً للعادات الشريرة القديمة لانكلترا، مع أنهم أشخاص ليسوا مناسبين لهذه المناصب، أما بالنسبة لبعض الطوائف الرهبانية المتنوعة، الذين أبدوا أسبابا للشكوى، وطلبوا الترافع أمام الحبر الأعظم، فقد علقهم وأرسلهم إلى بلاط روما، وأظهر نفسه نحوهم جافياً وغير انساني، حتى أنه لم يسمح لهم ولابينس واحد من أموالهم لتغطية نفقاتهم أثناء رحلتهم، علاوة على ذلك وزع الكنائس الأسقفية الشاغرة في مناطق متنوعة على كهنته، دون طلب موافقة رعاتهم، مما جعله ينال لنفسه لعنة الكثيرين عوضاً عن الثناء عليه ومدحه، لأنه استبدل العدالة بالأذى، والحكم العادل بالقرار الظالم.

مرافعة رئيس أساقفة كانتربري وشكواه حول التعيينات في الكنائس الشاغره

عام ١٢١٤م، فيه عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في ويندسور، وفي تلك الأثناء وزع ملابس العيد على عدد من نبلائه، واجتمع بعد ذلك ستيفن رئيس أساقفة كانتربري مع أساقفته المساعدين في دنستيبل Dunstable، لبحث شؤون الكنيسة الانكليزية هناك، لأنهم كانوا غاضبين إلى أبعد الحدود من النائب البابوي، لأنه -كما ذكرنا من قبل -رعى رغبات الملك دون التشاور معهم، فكان أن عين أشخاصاً غير مؤهلين للكنائس الشاغرة، وجاء ذلك بالقوة القسرية أكثر منه عن طريق الانتخابات القانونية، وبعد مناقشات كثيرة حول موضوع وآخر، أرسل رئيس أساقفة كانتربري اثنين من الكهنة إلى بيرتون على الترنت، حيث كان النائب البابوي هناك، ليمنعه بوساطة التدخل بالمرافعة والشكوى من جانب رئيس أساقفة كانتربري، من تعيين أساقفة في الكنائس الشاغرة، من دون استشارته، ومن دون تقدير المنصب العالي لرئيس الأساقفة، الذي يمتلك الحق بالتعيينات في كنائس أسقفيته، ولم يظهر هذا النائب البابوي أدنى اهتمام بهذه الشكوى، لابل إنه قام بموافقة من الملك، فبعث باندولف المتقدم ذكره، إلى بلاط روما، ليعمل ضد رغبات رئيس الأساقفة والأساقفة، ولدى وصوله إلى هناك، قام بحضرة الحبر الأعظم، بتلطيخ سمعة وأخلاق رئيس الأساقفة بدرجات عالية جداً، ولم يكتف بذلك بل أثنى على ملك انكلترا ومدحه مدحاً كثيراً، وأعلن أنه لم ير من قبل قط ملكاً متواضعاً ولطيفاً مثله، وبذلك نال الملك جون حظوة كبيرة في عيني البابا، وعلى كل حال، كان هناك شخص واحد في ذلك البلاط، قد عارض باندولف، وهو المعلم سيمون دي لانغتون، أخو رئيس أساقفة كانتربري، ولكن بما أن الصك المختوم ذهبيا المتعلق بخضوع مملكتي انكلترا وايرلندا، قد جلب مؤخراً من قبل باندولف إلى مولانا البابا، فإن معارضة المعلم

سيمون ومناقشـاته لم تلق أذناً صاغية، وعلاوة على مـاتقدم أعلن باندولف المذكـور بأن رئيس الأسـاقفـة والأسـاقفـة كـانوا متشـددين وجشعين في جباياتهم، وأيضاً في مسألة استرداد الممتلكات التي كانت مصادرة أيام قرار الحرمـان من شراكـة المؤمنين وأنهم ظلموا الملك نفسـه، وانتهكوا حقـوق المملكة بشكل غير عـادل، ولذلك جـرى تأخير مطلب رئيس الأسـاقفـة والأساقفة لبعض الوقت.

كيف عبر الملك جون البحر إلى بواتو

وبعث في العام نفسـه الملك جون بمبلغ كبير من المال إلى مقـدمي جيشه في فلاندرز، ليمكنهم من مضايقة ملك فرنسـا، ولينهبوا أراضيه، وليدمروا قـلاعه بغـارات هجوميـة، وعلى هذا، قامـوا بناء على أوامر الملك، فعـاثوا فساداً في أراضي كـونت دي غوسني Guisne بالنار والسيف، وألقوا الحصـار على قلعـة برنكهـام Bruncham ، ودمروها، وحملوا معهم بالأغـلال عدداً مـن الفرسـان مع خـدمهم، وذلك بعـدما أرغمـوهم على تسليم أنفسهم، كما أنهم حاصروا قلعة آريا Arria ، وبعدما أخضعوها، دمـروها بالنار، كما أنهم استـولوا بالقـوة على قلعـة ليين Liens ، حيث قتلوا أعــداداً كبيرة، وأودعــوا في السجن الذين أسروهم، كما أنهم نهبــوا أراضي لويس ابن الملك الفرنسي في تلك المنطقة.

وقام الملك جـون، بعدما بعث رسله إلى روما لسحب قـرار الحرمان من شراكـة المؤمنين، بالاقلاع من بورتماوث، في يوم طهـارة العذراء، وكـانت الملكة بصحبته، ونزل على اليابسـة بعد عدة أيام مع جيش كبير في روشيل، ومع انتشار أخبـار وصوله، قدم إليه عـدد من بارونات بواتو، وأقسموا له يمين الولاء، واستنأف بعـد ذلك زحفه مع قـوة كبيرة، فـاستولى على عـدد كبير من القلاع كانت ملكاً لأعدائه، والذي يود أن يعرف المزيد عما حدث هناك، عليـه أن يقـرأ الرسـالة التـي أرسلهـا الملك إلى رئيس العـدالة وإلى المسؤول عن الخزانة.

رسالة الملك جون حول زحفه في بواتو

«من جـون، بنعمـة الرب، الخ -ليكن معلـومـاً لديكما، أنه لدى انتهـاء الهدنة التي منحناها إلى كونتي: لى مـارش ،وأوجي، وعندما وجدناهما غير مستعـدين لصنع سـلام مـوائم معنا، قمنا في يوم الجمعـة الذي قبل أحـد الشعـانين، فعبرنا مع جيشنا إلى ميرفـانت Miervant، وهي قلعـــــة يمتلكها غيـوفري دي لوزغنان، ومع أن الكثيرين قـد لايصدقـون أنه كان من الممكن الاستيلاء عليها عنوة، استطعنا نحن في اليوم التالي، الذي وافق أمسية أحـد الشعانين، الاستيلاء عليهـا عنوة، بعد حملة واحـدة، استمرت من الصباح الباكر حتى الساعـة الواحدة، وتولينا في يوم أحد الشعانين من إلقاء الحصـار على قلعة أخـرى، عائدة إلى غيـوفري نفســه اسمها «نوفنت Novent »، كـان فيهـا قد اتخـذ غيوفري مع ولديه موقف الدفاع، وبعد متـابعة الرمـايات من آلات قـذفنا لمدة ثلاثة أيام، توفـرت فـرصة مناسبـة واقتربت من أجل الاستيلاء على القلعة المذكورة، وقتها جاء إلينا كونت لى مارش، وعـرض علينا بأن غيوفـري المذكور قد ترامـى علينا بنفسه يطلب الرحمة، ووضع نفســـــه وولديه، وقلعتـــه وكـل شيء فيهـا تحت رحمتنا، وعندما كنا هناك وصلت إلينا أخبار تحدثت بأن لويس ابن ملـك فرنسا قد ألقى الحصار على قلعة عائدة إلى غيوفري نفسه، اسمها «مونيونتور -Mu neuntur »، ولدى سماعنا بهذا قمنا على الفور بتحويل اتجاهنا للتصدي له، وبناء عليـــه حـدث أن كنا في يـوم الثـالوث المقـــدس في بارثني -Par thenay ، وإلى هناك قدم إلينا كـونتا: لى مارش، وأوجي، مع غيــوفري دي لوزغنان المتقدم ذكـره، وقدموا الولاء لنا، وأقسموا على التـابعية إلينا، وبما أننا كنا قد تفـاوضنا من قبل مع كونت لى مـارش من أجل اعطاء ابنتنا للزواج من ابنه، منحناه هذه الحظـوة، مع أن ملك فـرنسا كـان قـد طلبهـا لابنه، لكن بنوايا خيـانية، لأننا تذكـرنا ابنة أختنا التي تزوجت من لويس، ابن ذلك الملك، ونتيجـة تلك القضيـة، ولعل الرب يمنحنا نجاحـاً أكبر في

هذا الزواج، مما منحنا إياه في الزواج المتقدم، والآن بفضل نعمة الرب قد توفرت إلينا فرصة للقتال ضد عدونا الأبدي، الذي هو ملك فرنسا، وراء بواتو، نحن نخبركما بذلك لتفرحا بأخبار نجاحاتنا. شهدت على نفسي في بارثني، في السنة السادسة عشرة لحكمنا».

وفي الرابع والعشرين من حزيران، من العام نفسه، مات غيلبرت أسقف روكستر.

رسالة البابا انوسنت حول الغاء الحرمان من شراكة المؤمنين

وكتب في هذه الآونة البابا انوسنت إلى نيقولا أسقف أوف توسكولوم، حول إلغاء الحرمان من شراكة المؤمنين، كما يلي: «من انوسنت أسقف، الخ، إلى أخينا المبجل جون أسقف أوف نورويك، وإلى ابننا المحبوب روبرت دي مارسيكو Marisco ، رئيس شمامسه نورثأ مبرلاند، وإلى النبيلين توماس وآدم دي هاردنغتون، السفيرين المحبوبين لنا تماما في المسيح، وإلى جون ملك انكلترا اللامع، هذا من الجانب الأول، وإلى المعلم ستيفن دي لانغتون، وإلى أ A، وج G ، الكاهنين، رسولي أخينا المحبوب، ستيفن رئيس أساقفة كانتربري من الجانب الآخر، إنهم بعدما ظهروا أمامنا أعلنوا بتصميم واتفاق عام، أنهم حتى يتجنبوا خسائر كبيرة في الممتلكات، وخطراً حقيقياً على أرواحهم، إنه من الضروري جداً للمملكة، ومثل ذلك إلى الكهنة، أن يجري إلغاء قرار الحرمان من شراكة المؤمنين من دون تأخير، وبناء عليه، قمنا في إطار تقديرنا الأبوي، في سبيل الحفاظ عليهم، ومن أجل تقدم السلام، فاهتممنا بالقضية ورعيناها فيما بينهم، وكان أخيراً مع اذعانهم أن أبدعنا الشروط المدونة أدناه واتخذنا قرارنا حولها: يتوجب على الملك المتقدم ذكره أن يدفع إلى رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أسقفي لندن وإيلاي -أو إلى من يمكن لهم أن يعينوهم لاستلام ذلك - قدراً من المال، هو عندما يضاف إلى مادفعه الملك المذكور لنا سوف يصل إلى مبلغ قدره أربعين ألف مارك، وفور دفعه له، وتقديمه

الضمانات التي تقدم ذكرها، قم بالغاء قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، واحذف جميع مرافعات الاعتراض أو المخالفات، وعليه بعد هذا أن يدفع اثني عشر ألف مارك سنويا، في تاريخين محددين: ستة آلاف مارك في يوم ذكرى جميع القديسين، والمبلغ نفسه في يوم عيد صعود ربنا، وذلك حتى يكتمل دفع المبلغ كله، ومن أجل الوفاء بهذا، ربط الملك المذكور نفسه بيمينه الشخصية وبرسائل موثقة منه وممهورة بخاتمه، وبكفالة أسقفي وينكستر، ونورويك، وإيرلات: وينكستر، وشيستر، ووليم مارشال، أي ورثة الملك المذكور، وخلفائهم سوف يكونون مربوطين بتعهدات مماثلة، وبناء عليه إننا نأمرك برسائلنا الرسولية هذه بمتابعة السير في هذه القضية وفقاً للصيغة التي تقدم ذكرها، مالم تقدم جميع الفئات على اتخاذ قرار، وفقاً لإرادتها بالقيام بتسوية القضية بشكل آخر. صدر في اللاتيران في السنة السادسة عشرة من حبريتنا».

إعادة الممتلكات المصادرة

في الوقت الذي تلقى فيه نيقولا أسقف توسكولوم، ونائب الكرسي الرسولي، هذا التفويض بوساطة رسل مولانا البابا، كان ملك انكلترا في مناطق ماوراء البحر، وكان لدى مغادرته انكلترا، قد عهد بدوره في القضية إلى النائب البابوي مع وليم مارشال، وعقد النائب البابوي المذكور مؤتمراً عظيماً في كنيسة القديس بولص في مدينة لندن، فقد احتشد في ذلك المؤتمر: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، وآخرون لهم شأنهم في مسألة الحرمان من شراكة المؤمنين، وشرح النائب البابوي المذكور إلى الجميع شروط اعادة الممتلكات المصادرة، والتعويض عن الخسائر الذي جرى ترتيبه من قبل البابا في روما، مع موافقة الفرقاء، وأمر بوجوب اعطاء شهادة موثقة حول كمية المال الذي دفع إلى الأساقفة وللآخرين من قبل وكلاء الملك فيمايتعلق بمسألة الحرمان من شراكة المؤمنين، وبذلك فإنه عن طريقة معرفة مقدار المال

الذي دفع، من الممكن معرفة كم بقي ليدفع، وتبرهن بوساطة حساب دقيق مؤكد، أن رئيس أساقفة كانتربري ورهبان كانتربري مع أساقفة: لندن، وإيلاي، وهيرفورد، وباث، ولنكولن، قد استلموا قبل عودتهم إلى انكلترا من المنفى، اثني عشر ألف مارك، من العملة الاستيرلينية، من يدي باندولف، واستلموا أيضاً منذ وصولهم - أي أولئك الأساقفة المذكورين، والرهبان المتقدم ذكرهم - وأثناء المؤتمر الذي عقد في ردنغ في السادس من كانون الأول، مبلغ خمسة عشر ألف مارك، ليجري توزيعها فيما بينهم، وهذا المبلغ مع المبلغ المتقدم الأول الذي جرى استلامه، يساوي مجموعه سبعة وعشرين ألف مارك، والخمسة عشر ألفاً التي بقيت لتدفع لتكمل وتتم مبلغ الأربعين ألف مارك، بقيت تحت ضمانة أسقفي وينكستر، ونورويك، برسائل موثقة من الملك، لتكون ضمانة أوسع، وذلك وفقاً لما ورد في رسائل مولانا البابا.

إلغاء الحرمان من شراكة المؤمنين

وبعد ترتيب الأمور على هذه الصورة، ذهب في يوم الرسولين: القديس بطرس، والقديس بولص، نيقولا، أسقف توسكولوم، ونائب الكرسي الرسولي، إلى الكنيسة الكاتدرائية، وقام هناك وسط قرع النواقيس وانشاد «Te Deum» فألغى بشكل مهيب قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، الذي استمر لمدة ست سنوات، وثلاثة أشهر، وأربعة عشر يوماً.

كيف أجل النائب البابوي التعويض عن الممتلكات المصادرة

ولدى إلغاء الحرمان من شراكه المؤمنين، الذي تقدم ذكره، غضب النائب البابوي وانزعج بوساطة حشد لايعد ولايحصى من رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وفرسان الداوية والاسبتارية، وراعيات الديرة، والراهبات، ورجال الدين والعلمانيين، الذين سألوه تقديم تعويض لهم عن الخسائر والأضرار التي عانوا منها خلال أيام الحرمان من شراكة

المؤمنين، ذلك أنهم أكدوا، أنهم وإن لم يغادروا انكترا لقد عانوا من الظلم المتواصل للملك ولعملائه بالجسد وبالممتلكات، حتى جرت مصادرة جميع ممتلكاتهم وأسيئت معالمتهم شخصياً، إلى حد لم يعودوا يعرفون فيه إلى أين يذهبون فراراً من مطاردة وقسوة أعدائهم، وأجاب النائب البابوي حشد الشاكين قائلاً بأنه لم يرد ذكر لخسائرهم وأضرارهم في رسائل البابا، وبناء عليه هو لايجوز له، ولايمكن له قانونيا المضي أبعد من حدود الوصاية الرسولية، لكن مع ذلك نصحهم بتقديم شكوى حول خسائرهم وأضرارهم إلى البابا، وأن يطالبوا بمنحهم عدالة كاملة، والذي حدث على كل حال، أن جميع ذلك الحشد من رجال الدين الشاكين، فقدوا الأمل في حظ أفضل، لذلك عادوا ثانية إلى مواطنهم.

وأنهى في العام نفسه جون راعي دير كنيسة القديس ألبان حياته، وكان ذلك في يوم القديس كينيلم Kenelem ، الملك والشهيد، وكان رجلاً متديناً ومتعلماً، وجاء موته عن سن متقدم، في السنة التاسعة عشرة من أسقفيته.

كيف اقتاد الملك جون جيشه في بريتاني

وفي هذه الآونة اقتاد الملك جون جيشه وزحف به نحو الأمام من بواتو إلى بريطانيا الصغرى، ومكث هناك ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولدى وصوله إلى مدينة يدعوها سكانها باسم نانتي Nantes ، قرر الهجوم عليها، لكن السكان والفرسان الذين تركوا مسؤولين عن المكان من قبل الملك الفرنسي، عندما سمعوا باقتراب الملك الانكليزي، خرجوا للتصدي له، وعند جسر ليس بعيداً عن المدينة اشتبكوا بالقتال مع جيش الملك الانكليزي، ولحسن حظ الملك أنه حاز النصر، وأسر عشرين فارساً في المعركة، وكان بين الأسرى ابن ووريث روبرت دي دروز Drus خال الملك الفرنسي، وأثقل الملك هذا الفارس بالسلاسل، وحمله لدى عودته، وزحف الملك المذكور بعد هذا مع جيشه إلى قلعة روشو مين Rocheau

وألقى الحصار عليها، ولدى سماع ذلك من قبل لويس ابن Maine ، الملك الفرنسي، الذي كان أبوه قد بعثه ليوقف غارات الملك جون، بادر مسرعاً مع جيش كبير لمساعدة المحاصرين، ولدى معرفة الملك الانكليزي باقتراب الفرنسيين، أرسل كشافة من جيشه ليتعرفوا إلى عدد ومقدرة الأعداء الواصلين، وقام هؤلاء الكشافة بتأدية واجبهم الذي عين إليهم، ثم عادوا ليخبروا الملك بأنه - أي الملك الانكليزي -لديه قوة أكبر بكثير، ولذلك أقنعوه بالحاح للاشتباك بالأعداء في معركة مكشوفة، لأنه بفعله ذلك، هو بدون شك سوف ينال النصر على العدو، وتشجع الملك بهذه الأخبار التي جلبها له الكشافة، فأمر بحمل السلاح بالسرعة الممكنة، للاشتباك بمعركة مكشوفة مع لويس، لكن بارونات بواتو رفضوا اتباع الملك، قائلين بأنهم لم يكونوا مستعدين للاشتباك في معركة، وبما أن الملك جون كان يعرف تمام المعرفة الخيانة المعتادة لنبلاء بواتو، قام على الرغم من أن الاستيلاء على القلعة كان مؤكداً، برفع الحصار والانسحاب وهو غاضب جداً، وأيضاً عندما سمع لويس بأن الملك الانكليزي قد نقل معسكره، خاف من أنه سيهاجمه، ولهذا هرب بالاتجاه المعاكس لاتجاه الملك جون، وهكذا هرب كل جيش بشكل شائن وأدار كل جيش ظهره إلى الآخر.

كيف زحف الملك الفرنسي
ضد جيش الملك الانكليزي في فلاندرز

كان جيش الملك الانكليزي قد نشر في فلاندرز الدمار في عدة مناطق، وكان الآن يقوم بالعيث فساداً في بواتو بطريقة قاسية جداً، وكان في هذه الحملة أعظم العسكريين وأكثرهم خبرة مثل: وليم دوق هولاندا، ورينالد، الذي كان من قبل كونت بولون، وفيراند كونت فلاندرز، وهيوج دي بوفي Boves ، وهو جندي شجاع، مع أنه كان متوحشاً ومتعجرفاً، لأنه أظهر سلوكه الوحشي في تلك المناطق، حيث لم يوفر

لاالنساء ولا الأطفال الصغار، وكان الملك جون قد عين أخاه وليم ايرل سالسبري مارشالاً على ذلك الجيش، وعلى فرسان المملكة، ليقاتل بالاتحاد والتعاون معهم، وليدفع أيضاً من الخزينة إلى الجنود الآخرين، وعلاوة على ذلك كان هؤلاء المقاتلين قد تلقوا المساعدة والحظوة من أوتو، الامبراطور الروماني، مع جميع قوات دوقي: لوفين Louvaine، وبرابانت Bra-bant اللذان كانا ساخطين بالدرجة نفسها ضد الفرنسيين، وعندما وصلت أخبار هذه الزحوف إلى مسامع فيليب ملك الفرنسيين، بات خائفاً كثيراً، من أنه لن يكون قادراً على الدفاع عن ذلك الجزء من البلاد، ولاسيما أنه كان قد أرسل مؤخراً ابنه لويس مع جيش كبير إلى بواتو، للتصدي إلى الملك الانكليزي، ولإيقاف غاراته هناك، ومع أن ذلك الملك غالباً مافكر بالمثل العامي الذي يقول:

«المنصرف عقله نحو الكثير من الخطط

من الصعب أن يصمم على أي منها».

قام على كل حال بحشد جيش من الايرلات، والبارونات، والفرسان، والجنود الخيالة والرجالة، مع عوام المدن والبلدات، وزحف في قوة عظيمة للتصدي إلى أعدائه، وأصدر أوامر إلى كل كاهن ورجل دين، وقسيس، وراهبة لإعطاء الصدقات، ولتقديم الصلوات للرب، وللقيام بالقداسات من أجل ثبات المملكة، وبعد ذلك زحف بجرأة مع جيشه ضد العدو، وقد سمع بأن هذا العدو قد وصل بعيداً حتى جسر بوفني Bovine في منطقة بونتويي Pontoise ، فقاد قواته في ذلك الاتجاه، ووصل إلى الجسر المذكور، وعبر النهر مع جيشه، وهناك نصب معسكره، وكانت حرارة الشمس عالية جداً، كما هي العادة في شهر تموز، ولهذا قرر الفرنسيون التوقف قرب النهر من أجل انعاش الرجال وكذلك الخيول، ووصلوا إلى أمام النهر المذكور، في يوم السبت، حوالي ساعة المساء، وتولوا صف عجلاتهم وعرباتهم، وجميع الآليات التي حملوا فيها طعامهم وسلاحهم،

وآلات حربهم، وأسلحتهم، وعينوا على اليمين وعلى اليسار حراساً يراقبون جميع الطرقات، ومن ثم استراحوا هناك تلك الليلة، وعندما جاء الصباح، وعلم القادة الانكليز بأن الملك الفرنسي قد وصل، عقدوا مؤتمراً، وقرروا بالإجماع، الاشتباك بمعركة مكشوفة مع الأعداء، لكن بما أن اليوم كان يوم أحد، فإن الرجال الذين كانوا أكثر حكمة في الجيش، ولاسيما رينالد، الذي كان من قبل كونت بولون قالوا بأنه من غير اللائق الاشتباك بالقتال في مثل يوم العيد هذا، وتلويث مثل هذا اليوم بالقتل وبسفك الدماء البشرية، ووافق الامبراطور الروماني أوتو على هذا الرأي، وقال بأنه لم ينل نصراً قط في مثل ذلك اليوم، ولدى سماع هيوج دي بوفي Boves لهذا انفجر يجدف ويشتم، ودعا الكونت رينالد خائناً منحطا، وانتقده بامتلاكه لأراض وممتلكات واسعة تلقاها بمثابة هدايا من ملك انكلترا، وأضاف إذا جرى تأجيل المعركة في ذلك اليوم سوف تعزى إليه الخسارة التي لايمكن تعويضها، والتي سوف يعاني منها الملك جون، لأن «التأخير دوما خطير عندما تكون الأشياء جاهزة»، ورد الكونت على شتائم هيوج وهو مغضب وقال: «سوف يبرهن في هذا اليوم على أنني مخلص وأنك أنت خائن، لأنه حتى في هذا الأحد نفسه، سوف - إذا كان الأمر ضروريا - أقف مقاتلاً في سبيل الملك، حتى الموت، وأنت حسب عادتك، سوف تهرب من المعركة، وبذلك سوف تظهر نفسك بمثابة خائن منحط كثيراً بحضور الجميع» وبكلمات الشتائم هذه وبشتائم هيوج المذكور ثارت الحشود وتحمست للقتال، ولذلك طاروا إلى السلاح جميعاً، وبجرأة استعدوا للقتال، وعندما تسلحوا جميعاً، عبأوا أنفسهم في ثلاث مجموعات، حيث عينوا على المجموعة الأولى فيراند كونت فلاندرز، ورينالد ايرل بولون، ووليم ايرل سالسبري بمثابة قادة، وأعطوا قيادة المجموعة الثانية إلى وليم دوق هولاندا، وهيوج دي بوفي مع أتباعه البرابانتيين Brabant، وكانت قيادة المجموعة الثالثة قد عهد بها إلى أوتو، الامبراطور الروماني ورجاله المحاربين، وعلى هذه الصورة زحفوا متقدمين

ضد الأعداء، حتى باتوا على مرأى من الجيش الفرنسي، وعندما رأى الملك الفرنسي أن أعـداءه كانوا مستعدين للـلاشتباك بالقتال، أمـر بتدمير الجسر الذي وقع في خلفه، من أجل أنه في حالة محاولة أي واحد من جيشه وسعيه للفـرار، سوف لن يجد طـريقاً للهـرب، إلاّ من وسط الأعـداء، وعبأ الملك الفرنسي عساكره حول عرباته وآليـاته الأخرى التي تقدمت الاشارة إليها، ووقف هناك ينتظر هجوم أعـدائه، ومالبثت التشكيلات تحت قيـادة القادة الذين ورد ذكرهم أعـلاه، أن قامت بعـد وقت قصير بالحملة على صفوف الفـرنسيين، وكانت الحملة شـديدة إلى حـد أنهم تمكنوا في دقيقة من خـرق صفـوفهم، وشقوا طريقهم حتى إلى المكان الذي كـان فيه الملك الفـرنسي، وعندما رأى الكونت رينالد الملـك الذي كان قد حـرمه من ميراثه، وطرده من كونتيته، وضع رمحه جانباً، وكان قد أرغمه على الترجل، واستعد لقتله بسيفه، لكن واحداً من الجنود الذين كـانوا معينين حرساً شخصياً للملك، عرض نفسـه لضربة الكونت، وقد قتل عوضـاً عنه، ولدى رؤية الفرنسيين ملكهم على الأرض، اندفعوا بشـدة عظيمة وبغيرة لمسـاعدته، ومكنوه من امتطاء فـرسه ثانيـة، ثم استعر القتـال من على الجانبين وتقارعت السيـوف وصدر عنها شرر مثل البرق حـول رؤوس الخوذ، وكان الصراع حاداً جداً من على الطرفين، وصار الآن الكونتات الذين تقـدم ذكرهم الآن معزولين عن بقيـة أتباعهم من الجنود، وبات تقـدمهم وكـذلك تراجعهم نحو بقيـة الجيش متعـذراً، كما أن حملة الذين جـاءوا من بعـدهم قـد توقفت، وهكذا وجدوا أنفسهم غير قـادرين على الصمود في وجـه حملات الأعداد الكبيرة جداً من الفرنسيين، فاستسلموا أخيراً، وبهذه الصورة صار جميع الكونتات مع مجمـوعـة الجنود التي كـانت معهم، أسرى بعـدمـا كـانوا قـد أظهـروا شجاعة عظيمة.

نهاية المعركة

ولدى وقـوع هذه الأحـداث من حـــول الملك فيليب، قـام كـونتـات:

شامبين، وبيرشي، وسينت بول مع كثير من نبلاء المملكة الفرنسية بهجوم على مجموع العساكر التي ورد ذكرها أعلاه، وكان يقودها هيوج دي بوفي، وأرغموا ذلك النبيل على الفرار مع جميع العساكر الذين تجمعوا من مختلف المناطق، وفي أثناء فرارهم الدنيء لحق بهم الفرنسيون وطاردوهم بحد السيف حتى موضع تمركز الامبراطور، وهكذا بفرارهم ألقي ثقل القتال كله في لحظة واحدة على الأمبراطور، وقا م الكونتات الذين تقدم ذكرهم أعلاه باستدعائه، وبذلوا غاية جهودهم لقتله، أو لإرغامه على الاستسلام، لكنه أمسك سيفه الذي كان حاداً مثل شفرة بكلتا يديه، وسدد ضربات فائقة الشدة إلى الطرفين، فلطخ بالدماء كل من ضربه، أو أنزل الفرسان والخيول إلى الأرض، وخاف أعداؤه من الاقتراب منه، وقتلوا ثلاثة خيول تحته، غير أنه تمكن في كل مرة من معاودة الامتطاء، وجدد القتال بحدة أكبر، وتركه أعداؤه أخيراً مع أتباعه غير مقهورين، وتراجع هو من القتال دون أن يصاب شخصياً بالأذى أو أتباعه، وقدم الملك الفرنسي الشكر للرب، وهو مسرور بهذا النصر غير المتوقع، على أعدائه، ووقعت هذه المعركة في السابع والعشرين من تموز، وبسوء الحظ هذا أنفق الملك الانكليزي، من دون فائدة، الأربعين ألف مارك التي كان قد أخذها من رهبان طائفة السسترشيان، في أيام الحرمان من شراكة المؤمنين، وبذلك تحقق المثل الذي يقول:

«لن ينتهي سلب مهين نهاية جيدة قط»

ووصلت أخبار ماحدث إلى الملك جون، فانزعج كثيراً، وقال للذين كانوا من حوله: «منذ أن أصبحت متصالحاً مع الرب، وأخضعت نفسي ومملكتي لكنيسة روما، الويل لي، مامن شيء سار معي بشكل صحيح، وكل ماهو سيء الحظ قد وقع لي».

وفي هذا العام لنفسه، عندما كان جون، أسقف أوف نورويك، عائداً من بلاط روما، مات في منطقة بواتو، وحمل جسده إلى انكلترا، ودفن

مشرفاً في كنيسة نورويك.

عقد هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا

تم بعد وقوع الحوادث التي تقدم ذكرها أعلاه الاتفاق على عقد هدنة، وجاء ذلك بوساطة رجال الدين، وعقدت الهدنة في مناطق ما وراء البحر بين فيليب وجون، الملكين الفرنسي والانكليزي، وكان نصها كما يلي: «من **فيليب، بنعمة الرب ملك فرنسا، إلى جميع الذين سوف يرون هذه الأحرف، تحيات**: ليكن معلوماً من قبلكم، بأننا قد منحنا إلى الملك جون وإلى رجاله الذين ظهروا في الميدان إلى جانبه منذ هذه الحرب الأخيرة حتى يوم الخميس التالي بعد عيد تمجيد الصليب المقدس في أيلول، هدنة صحيحة منا ومن رجالنا الذي ظهروا في الميدان إلى جانبنا، حتى الفصح المقبل، وذلك سوف يكون في سنة ١٢١٥ لتجسيد الرب، وخمسة أعوام كاملة بعد الفصح المذكور، ومستثنياً أيضاً اليمين الذي أدته لنا بلدات فلاندرز، وهينلوت، ومثل هذا وبالطريقة نفسها مستثنياً إلى الملك جون الأسرى الذين تحت سلطانه، وسوف نبقى نحن ورعيتنا ومغامرونا في الوضع نفسه كما كنا في الخميس المتقدم ذكره، حتى نهاية الخمسة أعوام التي تقدم ذكرها، والذين سوف يتولون من جانبنا إملاء شروط هذه الهدنة وترتيبها، بيننا وبين ملك انكلترا، هم: ب— سافاري، وغي توربين Turpin راعي دير مارمونتير Marmontier وغ.G.رئيس شمامسة تور، ومن جانب ملك انكلترا: راعي دير القديس جون في انكلترا، وعميد الكرستاتون Christoton وأقسم هؤلاء جميعاً بثقة طيبة وباخلاص، من أجل تسوية جميع الخلافات والشكاوى التي يمكن ان تقوم في بواتو، أو أنجو، أوبريتاني، أوتور، وهم سوف يجتمعون في دير فولسيرلي Fulcirelle، ومن أجل الشكاوى الأخرى التي يمكن أن تقوم في بورج Bourges، وأوفرين، وفي كونتيتي لى مارش، وليموزين، ولسوف يجتمعون لترتيب الأمور في هذه المناطق».

وفي الخامس من تشرين أول في هذا العـام جرى تكريس رتشـارد عميد سـالسبري، ووولتر دي غـري مستشـار انكلترا، من قبـل ستيفن رئيس أسـاقفة كـانتربري، أسقفين، الأول منهما لكنيسـة شيستر، والثاني لكنيسـة وينكستر، وفي هذه الآونة أيضـاً، وفي التاسع عشر من تشرين الأول، كـان الملك جون قد أنهى جميع أعماله في مقاطعـات ماوراء البحر، لذلك عاد إلى انكلترا.

المؤتمر الذي عقده البارونات ضد الملك جون

وفي هذه الآونة اجتمع إيـرلات انكلترا وباروناتها، في كنيسـة القـديس إدموند، وكأنهم يريدون تأدية واجبات دينية، مع أن ذلك كان لسبب آخر، وبعـدمـا تبـاحثوا مـع بعضهم بشكل سري لبعض الوقت، وضع أمـامهم صك الملك هنري الأول، الذي كـانـوا قـد تسلمـوه، كما ذكـرنا من قبل في مدينة لندن من ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، ويتضمن هذا الصك بعض الامتيـازات والقـوانين التي منحت إلى الكنيسـة المقـدسـة، وإلى نبـلاء المملكة، وذلك إلى جـانب بعـض الامتيـازات التي أضافهـا الملك من قبل ذاتـه طواعيـة، وعـلى هـذا اجتمعـوا جميـعـاً في كنيسـة القديس إدمـوند الملك والشهيـد، وشروعـاً من الذين كـانوا مـن ذوي المناصب الأعلى، أقسمـوا جميعـاً على المـذبح الكبـير، أن الملك إذا رفض منـح هذه الامتيـازات والقـوانين، هم أنفسهم سـوف يتخلون عن ولائهـم له، وسيشنون الحرب ضـده، حتى يقـوم بتأكيـد كل شـيء طلبـوه في صك ممهـور بخاتمه، ووافقـوا أخـيراً بالاجماع أنهم بعـد الميـلاد سوف يذهبـون جميعـاً معـا إلى الملك، ويطلبـون تأكيـد الامتيـازات المتقـدم ذكـرها، وأن يقـومـوا في الوقت نفسـه بتجهيـز أنفسهـم بالخيـول وبالسـلاح، حتى إذا مـاسعى الملك إلى التخلص من يمينه، يمكنهم الاستيـلاء على قـلاعـه، وارغـامه على الاستجـابة لمطالبهم، وبعـدمـا رتبوا هـذه الأمور عـادوا إلى مواطنهم.

حول وليم راعي كنيسة القديس ألبان

جاء في هذا العام بعد جون راعي كنيسة القديس ألبان وليم، وكان راهباً من الكنيسة نفسها، وقد جرى انتخابه بشكل مهيب في يوم عيد القديس إدموند الملك والشهيد، الذي وافق اليوم الخامس من الاسبوع، وفي يوم القديس أندرو الرسول، الذي وقع في يوم الأحد الأول من ميلاد مولانا، جرى بشكل حبري ومهيب تكريسه أمام المذبح الكبير في كنيسة القديس ألبان من قبل أسقف إيلاي، ويحكى بأن ترقية هذا الرجل قد شوهدت في رؤيا ليلية من قبل أحد الرهبان، من ذلك الدير، وكان ذلك حتى قبل عمل الانتخاب، وكان أول راعي دير لكنيسة القديس ألبان الشهيد الانكليزي، ويلغود Willegod الذي كان أول راعي دير جرى تعيينه، وقد أمر بمراعاة الطريق النظامية للحياة، في الأول من آب، في سنة سبعمائة وأربع وتسعين، لتجسيد ربنا، وكان ذلك من قبل الملك أوفا Offa ملك الميركانيين Mercians ، بعد اكتشاف جسد الشهيد، وتقديم الرهبان، مع أن الكنيسة لم تكن قد بنيت بعد، وجاء بعد ويلغود وخلفه: ايدريك Edric، ثم وولسيوس Wolsius، ثم وولنوث Wol-noth، ثم ايدفرد Edfred، ثم وولسين Wolsin، ثم ألفريك Alfric، ثم ايلدرد Eldred، ثم ادمار Edmar، ثم ليوفريك Leofric ، الذي عمل رئيساً لأساقفة كانتربري، وجاء من بعده وخلفه ألفريك أخو ليوفريك المذكور، وجاء من بعد ألفريك وخلفه ليوفستان Leofstan، ثم فريدريك، ثم بولص، ثم رتشارد، ثم غيوفري، ثم رالف، ثم روبرت، ثم سيمون، ثم وارين Warinوخلف وليم جون، وبذلك كان وليم راعي الدير الثاني والعشرين الذي جرى تعيينه لهذا المنصب، في العام السادس عشر من حكم الملك جون.

الطلب الذي عمله بارونات انكلترا من أجل حقوقهم

كان عام ١٢١٥م هو العام السابع عشر من حكم الملك جون، فيه عقد

بلاطه في وينكستر في عيد الميلاد، وذلك لمدة يوم، حيث بادر بعد ذلك مسرعاً إلى لندن، واتخذ مقراً له في المعبد الجديد، وإلى هذا المكان، جاء إليه النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه، في صفوف عسكرية بهية، وطالبوا بتأكيد الامتيازات والقوانين العائدة للملك إدوارد، مع الامتيازات الأخرى الممنوحة لهم وإلى الملكة، وإلى كنيسة انكلترا، حسبما ورد ذكرها في الصك، وكذلك قوانين الملك هنري الأول، التي ورد ذكرها أعلاه، وأكدوا أنه كان قد وعد، أيام تحليله في وينكستر بإعادة القوانين، والامتيازات القديمة التي التزم بها، ووعد بيمينه بمراعاتها، ولدى سماع الملك اللهجة الجريئة للبارونات في عملهم مطالبهم، خاف كثيراً من هجوم من قبلهم، وذلك عندما رآهم مستعدين للقتال، وأعطى على كل حال جواباً، بأن مطالبهم كانت مسألة هامة وصعبة، ولذلك طالب بهدنة حتى نهاية الفصح، حتى يتمكن بعد تقدير وتمعن من إرضائهم، والحفاظ بالوقت نفسه على كرامة تاجه، وبعد كثير من المناقشات من على الطرفين، قام الملك -مع أنه لم يكن قانعا- بالحصول على رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف إيلاي، ووليم مارشال، ليكونوا ضامنين له، في أنه سوف يقوم في اليوم الذي جرى الاتفاق عليه، من دون اعتراض أو تعليل، بإرضائهم جميعاً، وبناء عليه عاد الجميع إلى مواطنهم، وأراد الملك -على كل حال- اتخاذ احتياطات من أجل المستقبل، فجعل جميع النبلاء في أرجاء انكلترا كلها يقسمون على الولاء له وحده، ضد جميع الناس، وأن يقوموا ببتجديد تابعيتهم، ولكي يكون أكثر ضماناً لنفسه، قام في يوم طهارة القديسة مريم، فحمل صليب ربنا، وقد لجأ إلى هذا العمل واقتنع به صدوراً عن الخوف أكثر منه قناعة بالتقوى.

ومات في العام نفسه يوستانس أسقف إيلاي في ردنغ، وكان رجلاً بارعاً في اللاهوت وكذلك بالمعارف الانسانية.

الأشخاص الرئيسيون الذين أرغموا الملك على منح القوانين والامتيازات

وفي اسبوع الفصح من هذا العام نفسه، اجتمع النبلاء الذين تقدم ذكرهم في ستامفورد مع خيول وسلاح، لأنهم كانوا قد أقنعوا الآن جميع نبلاء المملكة كلها بالالتحاق بهم، وشكلوا جيشاً كبيراً جداً، لأنه جرى تقدير وجود ألفي فارس في جيشهم، إلى جانب العساكر الخيالة والمرافقين والعساكر الرجالة، الذين كانوا مجهزين بعدة أشكال، وكان أعلى قادة هذا الطاعون: روبرت فتز -وولتر، ويوستاس دي فيسكي Vescy، ورتشارد دي بيرسي، وروبرت دي روس Roos، وبيتر دي بروس Brcuis، ونيقولا دي ستوتفيل Stuteville، وسير Saer ايرل أوف وينكستر، ور. R. ايرل أوف كلير، وهـ. H ايرل أوف كلير، والايرل روجر بيغود، ووليم دي مونبرى Munbray، وروجر دي كريسي Creissi، ورانولف Ranulph فتز - روبرت، وروبرت دي فيري Vere، وفولك فتز - وارين Warine، ووليم ماليت Mallet، ووليم دي مونتأكيوت Montacute، ووليم دي بوشامب Beauchamp، وس. S. دي كايم، ووليم مودوت Maudut ، وروجر دي مونت -بيغون Mont- Begon، وجون فتز - روبرت، وجون فتز -آلان، وغ. G. دي لافال Laval، وو.O. فتز -آلان، وو.W. دي فوكس Vaux، وغ.G. دي غانت Gant، وموريس دي غانت، ور.R. دي براكلي Brackele، ور. R. دي مونتفيكت Muntfichet، وو. W. دي لانفالي Lanvali، وغ.G. دي ماندفيل ايرل أوف اسكس، ووليم أخوه، ووليم دي هتنفيلد، وروبرت دي غريسليGrealei، وغ.Gمفوض أوف موتون Meau- tun، والاسكندر دي بونتير Puinter، وبيتر فتز -جون، والاسكندر دي سوتون Sutune، وأوسبرت دى بوبي Osbert de Bobi، وجون قسطلان سيشتر، وتوماس دي مولوتون Mulutune ، وآخرون كثر،

وكـان هؤلاء جميعاً متجـدين بالقسم، وكـانوا مـؤيدين برأي ستيفن رئيس أساقفة كـانتربري، الذي كان على رأسهم، وكان الملك في هذ الوقت ينتظر وصـول نبـلائه في أكسفـورد، وفي يوم الاثنين بعـد ثمانيـة الفصح، اجتمع البارونات المذكورون في بلدة براكلي Braekley، وعندما علم الملك بهذا، أرسل إليهم رئيس أساقفة كانتربري، ووليم مارشال ايرل بمبروك Pem-broke`، مع رجـال حكماء آخـرين، لمعـرفة أية قـوانين وامتيـازات كـانوا يطلبون، وبنـاء عليه سلم البارونـات إلى الرسل ورقة بقياس كبير تحتوي القوانين والأعراف القديمة للمملكة، وأعلنوا أنه مالم يقم الملك على الفور بمنحهم ذلك، وتأكيـد الممنوح بخـاتمه، فلسـوف يستـولون على قـلاعـه، ويرغمـوه على منحهم ترضيـة كـافيـة بالنسبـة لمطالبهم المذكـورة من قبل، وحمل رئيس الأسـاقفـة والرسل من أتبـاعـه الورقـة إلى الملك، وقـرأ وا له عناوين الورقة واحداً واحداً حتى أكملـوها، وعندما سمع الملك بمقاصد العناوين، قـال سـاخراً، مع غضب شـديد: «لماذا لم يطالب البـارونات بين هذه المطالب غير العادلة بمملكتي أيضاً؟ إن طلباتهم عـابثة وخيالية، وغير مؤيدة بأي عقل أو منطق مطلقاً»، وأعلن أخيراً وهو مغضب، وأيد إعلانه بالقسم، بأنـه لن يمنحهم مطلقـاً مثل هذه الامتيـازات، لأن ذلك سـوف يحوله ليكون عبداً لهم، والشطر الأكبر من هذه القـوانين والامتيازات التي طلبها النبـلاء وأرادوا تثبيت منحها لهم، قد جرى وصفهـا أعلاه في صك الملك هنري، وجـرى استخراج بعض منهـا من القـوانين القديمـة للملك ادوارد، حسبما سيوضحها هذا التاريخ في الوقت المناسب.

حصار قلعة نورثأمبتون من قبل النبلاء

وبما أن رئيس الأساقفة ووليم مـارشال لم يتمكنا بأية وسيلة اقناع الملك بالموافقـة على مطالبهم، فقـد عـادا -بناء على أمـر الملك - إلى البـارونات، وحكوا لهم تمامـاً كل الذي سمعوه من الملـك، وعندما سمع النبـلاء الذي قاله جون، عينوا روبرت فتز - وولتر قائـداً لجنودهم، ومنحوه لقب «قائد

جيش الرب والكنيسة المقدسة»، ثم إنهم طاروا أفراداً وجماعات إلى السلاح، ووجهوا قواتهم نحو نورثأمبتون، ولدى وصولهم إلى هناك، قاموا على الفور بإلقاء الحصار على القلعة، إنما بعدما أقاموا هناك مدة خمسة عشر يوماً، ورأوا أنفسهم أنهم كسبوا قليلاً، أو لم يحققوا أي تقدم، قرروا لذلك نقل معسكرهم، لأنهم جاءوا من دون مجانيق، ومن دون آلات الحصار الأخرى، ولأنهم لم يحققوا أهدافهم، زحفوا بشكل مضطرب إلى قلعة بدفورد Bedford وخلال ذلك الحصار قتل حامل راية روبرت فتز - وولتر مع آخرين، ذلك أنه أصيب برأسه بسهم قوس زيار، فمات، مما سبب الحزن لكثيرين.

كيف أعطيت مدينة لندن وسلمت إلى البارونات

وعندما وصل جيش البارونات إلى بدفورد، استقبل بكل احترام من قبل وليم دي بوشامب، وإليهم قدم إلى هناك أيضاً رسل من لندن، أخبروهم بشكل سري، أنهم إذا مارغبوا بالدخول إلى تلك المدينة، فعليهم الوصول إلى هناك فوراً، وتحمس البارونات بوصول هذه الرسالة الموافقة، وقوضوا معسكرهم على الفور، ووصلوا إلى وير Ware ، وزحفوا بعد ذلك طوال الليل، ووصلوا في الصباح الباكر إلى مدينة لندن، فوجدوا الأبواب مفتوحة، فدخلوا إلى المدينة من دون صخب، عندما كان السكان يقيمون الصلوات اللاهوتية، لأن أغنياء أهل المدينة كانوا يفضلون البارونات، وكان الفقراء يخشون من التذمر ضدهم، وحدث دخولهم في اليوم الرابع والعشرين من أيار، وكان يوم أحد هو التالي لما قبل صعود ربنا، وبعدما دخل البارونات إلى المدينة، مركزوا حرسهم وجعلوهم مسؤولين عن كل باب من الأبواب، ثم إنهم نظموا شؤون تلك المدينة بشكل جيد، وأخذوا بعد هذا رهائن من سكان المدينة، وأرسلوا رسائل إلى جميع أرجاء انكلترا، إلى الايرلات، والبارونات، والفرسان، الذين ظهروا أنهم مابرحوا مخلصين إلى الملك، مع أنهم تظاهروا بذلك فقط، ونصحوهم

مع التهديد، أنهم إذا أرادوا الحفاظ على سلامة ممتلكاتهم ومقتنياتهم، فماعليهم إلاّ التخلي عن الملك الذي كان حانثاً بقسمه، ومقاتلاً ضد البارونات، وأن يقفوا معهم بثبات، وأن يقاتلوا ضد الملك من أجل حقوقهم ومن أجل السلام، وأنهم إذا مارفضوا فعل ذلك فإنهم -أي البارونات -سوف يشنون الحرب ضدهم جميعاً، كما يشنونها ضد الأعداء المكشوفين، ولسوف يدمرون قلاعهم، ويحرقون بيوتهم والأبنية الأخرى، وسف يخربون حظائرهم، وحدائقهم وبساتينهم، وكانت أسماء بعض هؤلاء الذين كانوا لم يقسموا بعد على النضال في سبيل هذه الامتيازات: وليم مارشال، ايرل بمبروك Pembroke، ورالف ايرل أوف شيستر، ووليم ايرل سالسبري، ووليم ايرل ووريني Warrenne، ووليم إيرل ألبيمارل Albemarle، وهـ. H. ايرل كورنوول Cornwall، وو.W. دي ألبيني Albiney، وروبرت دي فيبونت Vipont وبيتر فتز - هيوبرت، وبرين Brian دي لى آيل، وغ. G. دي فيرنيفال Furnival ، وتوماس باسيت Basset، وهنري دي بريبروك Braibroc ، وجون دي باسنغبورن Bassingeburne، ووليم دي كانتيلو Cantelu ، وجون مارشال، ووليم بريويري Briuerre ، وقام الشطر الأكبر من هؤلاء إثر تسلمهم الرسائل من البارونات بالانطلاق إلى لندن، والالتحاق بهم، متخلين عن الملك كلياً، وتوقفت مرافعات الخازن ومحاكم عمد المناطق، في جميع أرجاء انكلترا، لأنه لم يعد هناك من يعمل قيمة للملك، أو يطيعه في أي شيء.

المؤتمر بين الملك وبين البارونات

عندما رأى الملك نفسه وقد هجر من الجميع تقريباً، حيث لم يبق معه من الأتباع الملكيين إلاّ أقل من سبعة فرسان، خاف من أن يقوم البارونات بالهجوم على قلاعه ومن ثم الاستيلاء عليهم من دون صعوبة، لأنهم لن يجدوا عائقاً يعيق عملهم، فتظاهر خداعاً، وود أن يعمل سلاما لبعض

الوقت مع البـارونات المتقـدم ذكرهم، ولذلك بعـث إليهم وليم مارشـال ايرل أوف بمبروك مع رسـل آخـرين مـوثوقين، وأخبرهم أنـه من أجل السـلام، وفي سبيل رفعة المملكة ومكانتهـا، على استعداد لمنحهم القـوانين والامتيـازات التي يطلبونها، كما بعث رسـالة مع هؤلاء الرسل أنفسهم إلى البـارونات، لتعيين يوم مناسب ومكان مـوائم للاجتماع، لاخـراج هذه المسائل إلى حيز التنفيذ، وبناء عليه جاء رسل الملك مسرعين تماماً إلى لندن، ورووا من دون خداع إلى البـارونات الذي فرض عليهم خـداعاً، فقـاموا وسط سرورهم العـارم، فحـددوا يوم الخامس عشر من حـزيران مـوعـداً للملك ليلتقي بهم، في حقل قائم فيمابين ستين Staines ووندسور، وتبعاً لذلك جاء الملك والنبـلاء في الوقت المحدد إلى المكان المتفق عليـه، لحضور المؤتمر المعين، وعندمـا مركـز أعضـاء كل فريق أنفسهـم بعيداً عن الفـريق الآخر، شرعوا في نقاش طويل حـول شروط السلام، وكان الذين حضروا من جـانب الملك ولصـالحه: ستيفـن رئيس أسـاقفـة كـانتربري، وهـ. H. رئيس أسـاقفة دبلـن، والأساقفـة: و . W. أسقف لندن. وب. P. أسقف وينكسر، و هـ . H. أسقف لنكـولن، وج ..J أسقف بـــاث، وولتر أسقف ووركستر، وو. W. أسقف كـــوفنتري، وبندكت أسقف روكستر، والمعلم باندولف الرجل المقرب من مولانا البابا، والراهب ألميرك -Almer ic مقدم فرسان الداوية في انكلترا، والنبـلاء: وليم مارشال ايرل بمبروك، وإيرل سالسبري، وايرل ووربي، وإيرل آورنديل، وألان دي غالوي -Gal wey، وو.W. فتـز -جيرالد،، وبيتر فتـز -هيربرت، وألان باسيت، ومتى فتز - هيربرت، وتـوماس باسيت، وهيوج دي نيفيل، وهيـوبرت دي برى Burgh مفـــوض بواتـو، وروبرت دي روبلي Ropley، وجـــــون مارشال، وفيليب دي أوبني، أما الذين كـانوا من جانب البارونات، فليس من الضروري تعـدادهـم وذكـر أسمائهم، لأن جميع نبـلاء انكلترا كـانوا مجتمعين مع بعضهم بأعداد من غير الممكن إحصاءها، وبعد ماجرى نقاش كثير من النقاط من كلا الجانبين، وجد الملك نفسه أدنى قوة من البارونات،

ولذلك وافق، دون أن يثير أية مصاعب، على القـوانين والامتيازات المدونة أدناه، وثبتها لهم بهذا الصك كمايلي:

صك الملك جون ليكون بمثابة منحة للحقوق العامة للبارونات

«**من جـون بفضل نعمـة الرب ، ملك انكلترا، الخ**، ليكن معلومـاً، أننا ونحن ننظر إلى الرب من أجـل سـلامـة نفسنا وسـلامـة نفـوس أجـدادنا وورثتنـا، ومـن أجـل تشريـف الرب، وتمجيد الكنيسة المقدسة، وتحسين أوضاع مملكتنا، تنازلناللرب، وقمنا بالتأكيـد في صكنا الحالي، أصالة عن أنفسنا وعن ورثتنا بشكل أبدي، بأن كنيسة انكلترا سـوف تكون كنيسة حرة، ولسوف نحفظ قوانينها كاملة سالمة وامتيازاتها غير مخروقة، ونحن نرغب بقدر ماهو ممكن بالحفاظ على حرية الانتخابات، التي تعد الأكثر أهميـة، والأعظم ضرورة للكنيسة الانكليـزية، وقد منحنا ذلك طواعيـة من قبل أنفسنا، وأكـدنا ذلك وثبتناه بصكنا، قبل قيـام أي خلاف بيننا وبين باروناتنا، وقـد حصلنا على تأكيـد لها وتثبيت من مـولانا البـابا انوسنت الثـالث، وسـوف نحتفظ بها نحن أنفسنـا، ونرغب بأن تراعى من قبل ورثتنا بإخلاص ووفـاء دائم، ومنحنا أيضاً إلى رعـايانا الأحرار في مملكة انكلترا، من أنفسنا، وعن ورثتنا بشكل دائم، جميع الإمتيـازات المدونة أدناه،لتكون لهم وليحتفظوا بها هم وورثتهم منا ومن ورثتنا،وإذا ما مات أي واحد من ايرلاتنا أو باروناتنا،أو أي واحد بحوزته ممتلكات منا بشكل رئيسي بخـدمـة فـروسيـة، وكـان وريثـه بعـد مـوته قـد بلغ السن(القانوني) وامتلك بدل التخليص، سوف يأخذ ميراثه، مقابل بدل التخليص القـديم، أي أن وريث ايرل—أو وريثته—سـوف يدفع مائـة باونـد من أجـل جميع بـارونيـــة الايرل، ويـدفع وريـث بارون—أو وريثتـه— مبلغ مـائـة مـارك من أجل بارونيـة كـاملة، ويدفع وريث فارس—أو وريثتـه— مبلغ مائـة شلن، كأقصى حد مقـابل جميع رسم فـروسيته، والذي يمتلك أقـل، دعوه يدفع أقل، وفقـاً للعـادة القديمـة

للأجـور، ولكـن إذا مـا كـان وريث أي واحــد من هؤلاء تحت السن (القانوني)، لـن يكون لمولاه الوصاية عليه أو على أرضـه، قبل أن يتلقى ولاءه وبعد ذلك سوف يكون مثل هذا الـوريث تحت الوصاية وعندما يصل إلى سن الحادية والعشرين، وقتهـا سـوف يستحـوذ على ميراثه من دون بدل أو غـرامـة، ومثل هذا إذا عمل الوريث، ورسم وهو مـا يزال تحت السن القانوني، فـارساً، ستبقى أرضه مع ذلك تحت وصـاية مولاه حتى يصل إلى السن الـذي تقـدم تحديده، وســوف يأخــذ الوصي على ممتلكات وريث تحت السن القـانوني من أرض الوريث المذكـور، دخـلاً معقـولاً فقط، ومكسـاً معقولاً، وخـدمـة معقـولة، ويكون هذا كله من دون الحاق تهديم، أو تخريب أو ضرر للشخص أو للممتلكات، وإذا ما عهدنا بالوصاية على مثل تلك الأرض، إلى أي واحد، سواء أكان عمدة أو أي واحد آخر، عليه أن يقـدم حساباً لنا عن صادرات تلك الأرض، وإذا مـا تسبب أثنـاء وصـايتـه بتخـريب أو تبـديد لها، ســوف نأخـذ تعويضات منه، وسوف يعهد بالأرض إلى اثنين من التابعين الاقطاعيين، وإلى رجلين حكيمين بذلك الرسم، الذين عليهم — بالطريقةنفسها — تقديم حساب إلينا، كما تقدم الذكر أعلاه، وعلى الوصي، مادام مسؤولاً عن تلـك الأرض، الانفــــاق من الانتــــاج، على جميع البيـــــوت والحدائق،والحظائـر، والبحيرات، والطواحين، والمنشآت الأخـرى لتلك الأرض، وعندما يصل الوريث إلى السن القانونية، أن يعيد الأرض إليه مجهـزة بالمحـاريث، وبالأشيـاء الأخـرى، وأن تكون على الأقل بحـالة جيــدة، كما تسلمهـا، وينبغي مــراعــاة هذه الأحكام جميعهـا من قبل الأوصيـاء على رئـاسـات الأسقفيـات، والأسقفيـات، ورعــاة الديرة، ورؤسـاء الرهبان، والكنائس، والمناصب العليـا الشاغـرة العائـدة إلينا، باستثناء وصايات أولئك التي ليست للبيع، ويمكن للوارثة الزواج دون أن يحط ذلك من قـدرها، ويمكن للأرملة إثر وفـاة زوجها مبـاشرة، أن تأخـذ دون أدنى صعـوبات، وتستحـوذ على حصـة زواجهـا أو الميراث

الذي امتلكته هي وزوجها، في يوم وفـاة ذلك الزوج، ويمكنها البقاء في البيت الرئيسي لزوجهـا لمدة أربعين يـومـاً بعـد وفـاة زوجهـا المذكـور، وخـلال ذلك الوقت سـوف تعطى لها بائنتهـا بعد تخصيصهـا لها، مـا لم تكن قد خصصـت لها من قبل، أو ما لم يكن ذلك البيت قلعـة، وإذا ما غادرت تلك القلعة، ينبغي تزويدهـا ببيت مناسب، يمكنها أن تقيم فيه حتى يجري تخصيص بائنتهـا لها، وفقـاً لما تقـدم ذكـره أعـلاه، ولسـوف تحصل على عـلاوة مناسبة لها شخصيـاً من الممتلكات العـامة، وسـوف يخصص لها من أجل بائنتهـا ثلـث حصـة من جميع أرض زوجهـا، التي كانـت له أثناء حياته، وذلك مـا لم تتسلم أقل كبائنة عند باب الكنيسـة، ولا ترغم أرملة على الزواج عندمـا تـرغب بالعيش من دون زوج، وإذا كانت تحتفظ بملكية منا، فعليهـا أن تقدم ضمانة بأنها لن تتزوج من دون مـوافقتنا، ولن نستـولي نحن أو وكـلاؤنا على أية أرض أو ممتلكات من أجل أي دين، ما دامت قطعـان المدين، الموجودة آنذاك بين يديه، كـافية لدفع الدين، والمدان نفسـه على استعـداد لتلبيـة طلبنا منهم، ولن يكون كفـلاء المدين ملزمين بشيء ما دام المدين نفسـه شخصياً قـادراً على أن يدفع الـدين، وإذا عجـز المدين نفســه عن دفع الديـن، لأنه لا يمتلك وسائل الدفع، أو رفض الدفع مع أنه قادر، على كفلائه دفع ديونه، وإذا ما رغبوا فإنهم يستحوذون على أراضي ودخل المدين حتى تتم ترضيتهم بالنسبة للدين، الذي كانوا قد دفعوه عنه، وذلك ما لم يظهر المدين نفسه بأنه تخلص من الدين بالنسبة لكفلائـه، ولسوف تمتلك مدينة لندن جميع إمتيازاتها القديمة، وعوائدها الحرة، علاوة على ذلك سوف نمنح، لا بل منحنا، بأن جميع المدن الأخرى، والبلدات، والقرى، وبارونيات الموانىء الخمسـة، وجميع موانئنا سـوف تمتلك جميع امتيـازاتها وعوائـدها الحرة، ولن يكون على أي واحـد تقديم خـدمات أكبر مقابل رسـم فارس، أو من أجل أي مستغل حر آخر، أكثر مما يتـوجب عليه الدفع مقابل ذلك، ولن تكون المرافعـات والشكاوى العـامـة مـرافقـة لمحكمـة بلاطنا، بل

يمكن عقدها في بعض الأماكن المحددة، وبالنسبة لكفالة الممتلكات المنتزعة حديثاً، وموت جد، فلسوف تعالج بكونتيتها بهذه الطريقة، وإذا كنا موجودين، أو كنا خارج المملكة، سوف يتولى ذلك رئيس العدالة لدينا، ورجال عدالتنا خلال كل كونتية مرة في العام، وسوف يقوم مع فرسان الكونتية بعقد المحكمة المتقدم ذكرها في كل كونتية، والأشياء التي لايمكن تدبرها من قبل المرسلين المتقدم ذكرهم في المحكمة المذكورة، سوف يجري تدبرها في مكان آخر من قبل المرسلين أنفسهم خلال رحلتهم، والأشياء التي يتعذر تدبرها،بسبب بعض المصاعب المتعلقة بنقاط القضية، من قبل المرسلين المذكورين، سوف تحال إلى رجال عدالتنا أصحاب المنصة، وهناك يجري تقديرها، ولسوف تعقد المحاكم المتعلقة بآخر التقدمات إلى الكنائس، دوماًوتعرض أمام رجال العدالة ذوي المنصة، وهناك يجري تقريرها، وسوف يجري تغريم رجل حر من أجل عدوان صغير، وفقط وفقاً لدرجة خطيئته، أو من أجل عدوانه الكبير، وفقاً لكبر عدوانه— باستثناء أنفسنا—سوف يجري تغريمها بالطريقة نفسها تاجر، باستثناء تجاراته، ونذالة أي انسان — باستثناء أنفسنا— سوف يجري تغريمها بالطريقة نفسها، باستثناء أدوات زراعته، إذا ترامى بنفسه على رحمتنا، ولن يجري عمل أي من العلاوات المتقدمة الذكر، إلاّعلى أساس يمين رجال مجربين وقانونيين من جيران تلك الكونتية، ويجري تغريم الايرلات والبارونات فقط من قبل المساوين لهم بالرتبة، ووقتها فقط وفقاً لدرجة جريمتهم، وما من رجل لاهوتي سوف يجري تغريمه وفقاً لدرجة منافعه اللاهوتية، بل وفقاً لممتلكاته المدنية ودرجة جرائمه، وما من مدينة أو شخص سيكون مرغماً على عمل جسر فوق نهر من الأنهار، ما لم يكن ذلك متوجباً عليه فعله بموجب الأعراف القديمة أو الامتيازات، وما من نهر سوف يجري تطويقه أو عمل سد عليه، باستثناء الذين طوقوا أو عملت عليهم سدود أيام جدنا الملك هنري، وما من عمدة منطقة، أو مفوض، أو

محقق، أو أي من نوابنا الآخرين، يجوز له إقامة دعوى أو مرافعة باسم تاجنا، وإذا كان أي انسان بحوزته رسوم علمانية عائدة لنا، ومات، وأظهر عمدتنا أو وكيلنا رسائلنا المعتمدة مع انذار منا حول الدين الذي لنا بذمة المتوفى، سوف يكون قانونياً للعمدة التابع لنا أو لوكيلنا مهاجمة قطعان الميت التي يمتلكها في ارضه المقطعة مدنياً، وتسجيل هذه القطعان في حساب ذلك الدين، وفقاً لتقدير رجال قانونيين، ولذلك مامن شيء يجوز نقله من هناك، حتى يجري تحديد ديوننا والتأكد من دفعها، والبقية تترك بعد ذلك الى وصي المتوفى ليقوم بتصفيتها وفقاً لارادته، واذا لم يكن مداناً لنا بأي شيء، فإن جميع القطعان سوف تعطى إلى الوصي، باستثناء حصص معقولة إلى زوجته وأولاده، ولايجوز لأي قسطلان أو نائبه أخذ قمح أو قطعان أي واحد ليس عائداً للبلدة الموجودة القلعة فيها، مالم يقم بدفع المال إليه، أو كان له تصرف آخر حسب ارادة البائع، لكنه إذا كان من أهل البلدة، فإن عليه أن يدفع الثمن خلال أربعين يوماً، ومامن قسطلان سوف يرغم أي فارس على الدفع له من أجل الاعتناء بالقلعة اذا مارغب بفعل ذلك شخصياً، أو لسبب مسوغ آخر، إذا لم يستطع فعل ذلك بسبب معقول، وإذا ما أردنا إرساله إلى الجيش، فإنه سوف ينفصل عن إشرافه ما دام محجوزاً من قبلنا في الجيش، وذلك بالنسبة للرسم الذي من أجله خدم في جيشنا، ولا يجوز لأي نائب أو عمدة، أو أي وكيل تابع لنا، أخذ خيول أو عربات عائدة إلى أي انسان من أجل حمل السلع، ما لم يدفع الإيجار المقرر منذ القديم، أي أن يدفع لأي عربة مع حصانين عشرة بنسات يومياً، ولكل عربة مع ثلاثة خيول أربعة عشر بنساً لكل يوم، ولا يجوز أخذ أية عربة عائدة إلى أي شخص لاهوتي، أو فارس، أو إلى أية سيدة، من قبل الوكلاء المذكورين، كما أننا لن نأخذ نحن، ولا وكلاؤنا، أو أي واحد من الآخرين أخشاباً عائدة لانسان آخر لعمل قلاعنا، أو للقيام بأي عمل من أعمالنا، ما لم يكن ذلك بموافقة الفئة العائدة إليها ملكية

الأخشـاب، ولسـوف نحتفظ بأراضي المدانين بجناية لمدة سنـة واحـدة ويوم واحد، وبعد ذلك سوف يجري تسليمهم إلى السادة المسؤولين عن الرسوم، وسوف تجري إزالة جميع الأسيجـة كلياً في نهر التيمس ومدوي Medway وخلال أوروبا كلها، باستثناء سـاحل البحر، والمذكرة التي اسمهـا « Praecipe» سـوف لن تصـدر بعـد الآن من أجل أي إقطاعي، كي لا يفقـد إنسـان حر بلاطه، ولسـوف يكون هناك مكيـال واحد للخمرة وللبيرة في جميع أرجـاء المملكة، وقياس واحد للقمح هو الربع اللندني، وعـرض واحـد بالنسبـة للأقمشـة المصبـوغـة بالألوان الخمـرية والرمـادية، سـوف تكون ذراعين في داخل كل شقـة مع وزن متوافق مع القيـاس، ولسوف لن يعطى من الآن فصاعـداً أمراً بالتحقق لأي واحد يحتاج إلى تحقيق، فيما يتعلق بحياة أو بعضو من الأعضاء، بل إن ذلك سـوف يمنح حراً من دون نكران، وإذا مـا استحوذ واحـد منا بالايجار مـزرعة، أو استئمار أرض، أو اقطاعيـة، وكانت بيـده أرض من شخص آخر مقـابل خدمة فارس، سوف لـن نتولى الاشراف على وريثه أو إدارة أرضه، التي هي ملك لآخر، بحجـة تلك المزرعة المستأجرة، أو الأرض المستثمـرة، أو الأقطاعيـة، ما لم تكـن المزرعة المستأجـرة نفسهـا عليها خـدمة فـارس، وسوف لن نتـولى الاشراف على وريث أو أرض مأخـوذة من آخر مقـابل خـدمة فـارس، تحت حجـة وجود أي ضـابط صغير مستحـوذ لها منا مقـابل خـدمـة تقـديم سكاكين أو أسهم أو أي شيء من هذا النوع، وما من وكيل سوف يضع انساناً منذ الآن فصاعداً أمام المحاكمة أو يجبره على أداء يمين بموجب حجته البسيطة، وذلك ما لم يتوفر له شهود موثوقين، يجري احضارهم من أجل هذا الغرض، ولا يجوز اعتقال أي إنسان حر أو سجنه، أو طرده مـن أي ملكية عائدة له، أو حرمانه من امتيازاته، وأعـرافه الحرة، كما لايجوز عدّه خارج القانون، أو عقوبتـه بأية وسيلة أخرى، كما لاتجوز مهـاجمته من قبلنا، ولاارسـاله إلى السجن مالم يكن ذلك بموجب قرار قـانوني صدر عن إنسان يساويه

مـرتبــة، أو بمـوجـب قـانون الأرض، ولن نبيـع الحق والعـدل إلى أي إنسان، كما لن نرفض ذلك، أو إلغـائه، وللتجـار— مالم يكونوا ممنوعين بشكل معلن— الحق بالخروج مـن انكلترا والدخـول إليهــا، ولهم حق الاقامة والسفـر بالبر وبالماء، وأن يبيعوا وأن يشتروا من دون أي ابتزاز، وذلك وفقـاً للأعراف القـديمة والعـادلة، مالم يكن الأمـر أثناء الحرب، وهم انتمـوا إلى البلـد الذي هو في حـالة حـرب معنـا، وإذا وجـد مثل هؤلاء في أراضينا لدى بدايـة حـرب من الحروب، يجري اعتقـالهم دون الحاق ضرر بهم شخصيـاً أو بسلعهم، وذلك حتى نعلم نحن، أو رئيس العـدالة لدينا، كيف تجري معـاملة تجار بـلادنا في البلد الذي هو بحـالة حـــرب معنا، وعما إذا كـــان تجارنا في حـــالة أمن معهـم، فهم وقتهـــا سيكونون بحالة سلم معنا، وإذا كان أي واحد يمتلك ملكية من ميراث عام، مثل مـن شرفية وولنغفورد، أو بولـون، أو لانكستر، أو نوتنغهام، أو من أي ملكية عـامة هي في أيدينـا، وهي بارونية، ومـات، فإن وريثه لن يدفع أي بدل، أو يقـدم أية خـدمة لنا،أكثـر مما يدفعـه أو يقدمـه إلى البارون، إذا كانت تلك البارونيـة بيدي بارون، ونحن سوف نستحوذها بالطريقـة نفسها كما استحوذها البـارون، كما أننا لن نستحوذ أيـة ملكية عامة بحجة مثل تلك البارونية أو الملكيـة العامة، أو نقوم بالوصاية على أي من رعيتنا، مالم يكن المستحوذ للبارونيـة أو الملكية العامة، مستحوذاً منا في مكان آخر بشكل رئيسي، ومـامن رجل حر سـوف يقوم من الآن فصاعداً باعطاء أو ببيع كثيراً من أرضه إلى أي إنسان، هو غير قادر على إدارتها، وذلك من البقيــة، وخـدمتهـا حق لمولاه مقـابـل ذلك الرسم، وجميع رعـــاة الديرة الذيـن لديهم من ملوك انكلترا صكـوك وقف، أو يمتلكون ملكيـة من خلال اقطاع قـديم، سوف يكونون مسـؤولين عن رعـاية تلك الديرة عندمـا تصبح شـاغـرة، وذلك كما ينبغي أن يفعلوا، وكما جاء الايضاح والإعـلان أعلاه، ولايجوز اعتقال أي رجل وسجنه، بسبب شكوى امرأة، من أجل مـوت أي واحد، باستثناء أن يكون ذلك

الرجل زوجهـا، ولايجوز من الآن فصاعـداً استحواذ أية كونتيـة إلاّ من شهر إلى شهـر، وحيث تكون الشروط المستخدمـة أطول، سوف تكون أطول، ومامن عمدة أو وكيل لها يمكنـه جعل شروطه في المائة أكثر من مرتين في السنة، ووقت ذلك فقـط في أوقات مناسبة ومعتـاد عليها، أي مرة بعد الفصح، وثانية بعد عيد القديس ميكائيل، ووفق الطريقة نفسها بالنسبـة للتعهد المفتوح، فإن ذلـك سوف يقع في الموعـد المذكور أي في عيـد القـديس ميكائيل من دون اخفـاق، وبذلك يمكن لكل إنسـان أن يمتلك امتيـازاته، مثلما امتلكهـا، واعتـاد أن يفعـل في أيام الملك هنري جـدنا، ومنذ ذلك الحين، أو ماحصل عليـه منذ ذلك الوقت، وبالنسبـة للتعهد المفتوح سوف يحافظ عليـه، وبذلك يمكن المحافظة على سلامنا، ولاتتعـرض العشـور للضرر، حسبما كـانت العـادة جـارية، وبذلك لن يطلب العمدة حجـة، وسوف يكون راضياً بما اعتاد العمـدة على تسلمه من أجل تقديم معاينتـه في أيام جدنا الملك هنري، كما أنه لن يسمح له من الآن فصاعداً، اعطاء أرضه إلى بيت ديني، وذلك من أجل استئناف تملكهـا بعـد وضعهـا في حـوذة ذلك البيـت الديني، كما لن يسمح لأي بيت ديني بتسلم أرض لإعادتها مستأجرة له، من الذي تسلموا ملكيتها منه، وإذا مـاأعطـى من الآن فصـاعـداً أي إنسـان أرضـاً إلى بيت ديني،وأدين بفعل ماتقدم، فإن أعطيته سـوف تكون لاغية كلياً، وسوف تصبح الأرض في حـوذة صـاحب الاقطاع، ولسـوف يجري من الآن فصاعداً أخذ بدل الخدمـة العسكرية، حسبما كان هو معتاد في أيام جدنا الملك هنري، وجميع الأعـراف المتقـدم ذكـرها والامتيـازات، التي هي عائدة لنا، وجرى منحها لمراعاتها في مملكتنا، وذلك نحو جميع رعايانا في مملكتنا، سـوف يجري التمسـك بها ومـراعـاتها من قبل كـل من رجـال الدين والعلمانيين، بقـدر مـاهي متعلقـة بهم وأيضـاً نحـو المتعلقين بهم، باستثناء مايتعلق برؤسـاء الأساقفة، والأساقفة، ورعـاة الديرة، ورؤساء الكهنة، والداوية، والاسبتـارية، والايرلات، والبـارونات، والفـرسـان،

وجميع الآخرين من اللاهوتيين وكذلك من العلمانيين، فهؤلاء سيكون لهم الامتيازات والأعراف الحرة مثلما كان لديهم من قبل، شهد هؤلاء الخ»، ولم يكن من الممكن تدوين الامتيازات والأعراف الحرة المتعلقة بالغابات على الورقة نفسها، مثلما جرى تدوين الامتيازات المتقدم ذكرها، لأنها لم تكن واسعة بما فيه الكفاية، ولذلك جرى تدوينهم ووضعهم في الصك التالي:

امتيازات الغابات

«**من جون بفضل نعمة الرب ملك انكلترا**، الخ، ليكن معلوماً أننا قمنا ونحن نتطلع نحو الرب، وفي سبيل حفظ نفسنا، وكذلك نفوس أجدادنا وخلفائنا، ومن أجل تمجيد الكنيسة المقدسة، ومن أجل تحسين مملكتنا، وبناء على محض اختيارنا وحريتنا، وأصالة عن أنفسنا ونيابة عن ورثتنا، فمنحنا الامتيازات المذكورة أدناه، للحفاظ عليها بشكل أبدي في مملكتنا انكلترا، ففي المقام الأول سوف يجري تفحص جميع الغابات التي عملها جدنا الملك هنري، ومن ثم تتم الموافقة عليها من قبل رجال قانونيين، وإذا عمل إنسان غابة من أشجار حرش إنسان آخر، أكثر مما هو عائد لملكيته، من أجل إيذاء المتملك لتلك الأشجار، سوف يجري على الفور عدم عدّها غابة، وإذا جعل أشجار أحراشه غابة، سوف تبقى غابة باستثناء المراعي العامة، والأشياء الخاصة في الغابة نفسها العائدة لاستخدامات المستحوذين عليها، وجميع الناس الذين يعيشون خارج حدود غابة من الغابات، لن يجري إحضارهم —من الآن فصاعداً— أمام المسؤولين عن قضايا العدالة المتعلقة بالغابات، بموجب استدعاء عادي، مالم يكن قد أدعي عليهم، أو كانوا كفلاء لشخص أو أشخاص لهم علاقة بغابة من الغابات، وكل الأحراش التي عملت غابات من قبل أخينا الملك رتشارد، سوف تُزال عنها هذه الصفة على الفور، مالم يكونوا أحراشاً في ممتلكاتنا، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة،

ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، والفرسان، والمزارعين المستأجرين الأحرار، الذين لديهم أشجار في الغابة، سوف يتملكون حيازة أشجارهم مثلما فعلوا في أيام تتويج الملك هنري المتقدم ذكره، وبذلك سوف يظلون دوماً أحراراً، دون التعرض للازعاج، أو الاتلاف، ومن أعمال التحرير التي عملت في هذه الغابات منذ ذلك التاريخ حتى بداية السنة الثانية لتتويجنا، وكل من يقوم من الآن فصاعداً، باقتراف اتلاف، أو أعمال شريرة، أو يقوم بتحرير في هذه الغابات من دون إذننا، سوف يقاضى من أجل أعمال الاتلاف والاضرار أو التحرير، وسوف يمضي مفتشونا خلال الغابات للقيام بالتفحص، كما كانت عليه العادة أيام تتويج جدنا المذكور الملك هنري، وليس عكس ذلك، والتحقيق، أو الرأي حول تخصيص طرق في الغابة للكلاب، سوف يؤخذ بعين التقدير من الآن فصاعداً، عندما يتوجب إجراء مسح، أي خلال كل سنة ثالثة، وعند ذلك سوف يجري اعتماد ذلك وفقاً لرأي وتقدير رجال قانونيين، وليس عكس ذلك، وإذا ماتم بعد ذلك العثور على أي كلب لايسير على الممشى، وقتها يجري تغريم صاحبه ثلاثة شلنات، ومن الآن فصاعداً لايجوز اعتقال أي ثور من أجل ممشى، بل يتوجب تقدير ذلك الممشى بشكل عام، بأن يكون بمقدار حجم ثلاثة حوافر من حافره الخلفي من دون الكرة، ولن يحتاج الكلاب من الآن فصاعداً إلى ممشى، مالم يكن ذلك في أماكن من المعتاد أن يكون لهم فيها ممشى، كما حدث في أيام تتويج جدنا المذكور الملك هنري، ولايجوز من الآن فصاعداً لموظف غابة أو رجل أحراش فرض أتاوات أو جمع حزم من القمح أو من بقية أنواع الحبوب، أو أغنام، أو خنازير، أو تجميع أي شيء، وبعد إجراء التفتيش، سوف يجري تعيين كثير من موظفي الغابات لحراسة الغابات، بناء على رأي ويمين إثني عشر مفتشاً، سوف يرون أن الموظف فيه كفاءة بالعقل ويمكنه القيام بالعمل، ولايجوز من الآن فصاعداً حجز الرعاة في مملكتنا إلاّ ثلاث

مـرات في السنة، أي قبل خمسـة عشر يومـاً من عيـد القـديس ميكائيل، عندمـا يأخـذ مـوظفـونا بالتجـوال من أجل فـرض الضرائب من أجل الحفاظ على أسيجـة غاباتنا، وفي أيام عيد القـديس مارتن، عندمـا يتولى هؤلاء الموظفـون أنفسهم جبـاية رسـوم الأسيجـة والرعـاية، وفي أثناء هذين الموعـدين سـوف يجتمع عمال الغـابات، والرعـاة، وأصحـاب الخضراوات، والجبـاة، وليس سواهـم، بموجب وثيقـة مكتـوبة، وثالث مـوعـد للرعاة سـوف يكون في اليـوم الخامس عشر قبل عيـد القـديس يوحنا المعمـدان، من أجل اطعـام مـواشينا، وفي ذلك الموعـد سـوف يجتمع: الرعاة، وعمال الغابات، وأصحاب الخضراوات، والجباة، ومامن أحد سـواهم بموجب وثيقة مكتوبة، وعـلاوة على ذلك، على أصحاب الخضراوات، وعمال الغابات، الاجتماع كل أربعين يومـاً خلال كل عام، لتفقد وصلات الغابات، وكذلك بالنسبة لأعشاب المروج ولحم الطرائد أثناء حضـور هؤلاء العـاملين في الغابـات، حيث سوف يجري حـزمهـا ووصلهـا أثناء وجـودهم، وبالنسبـة للرعـاة فإنهم سـوف يحبسـون في الكونتيات، التي اعتيـد على حبسهم فيها، ويمكن لكل رجل حـر جباية ضريبة لإصلاح حواجز أحراشه في الغابة، ولسوف يتسلم تعويضاته في سبيل ذلـك، ونحن نمنح أيضـاً الإذن لكل رجـل حـر في أن يجلب خنازيره إلى داخل غـابات ممتلكـاتنا، بشكل حـر وبدون معيقـات، وأن يسيج عليهم في أحـراشـه، أو في مكان آخـر حسب مـايـرضيـه، وإذا مـاتجولت خنازير أي رجل حـر في غاباتنا لمدة ليلـة واحدة، سـوف لن يتخذ ذلك حجة ضده حتى لايحرم من أي من ممتلكاته، كما أنه لن يحرم من الحياة أو من عضـو من أعضائه لقيـامه بالصيـد في غاباتنا، لكن إذا ماجرى اعتقال إنسان، وأدين بالاستيلاء على لحم طرائد، فلسوف يدفع غـرامـة ثقيلـة، إذا امتلك الإمكانـات لفعل ذلـك، وإذا لم يمتلك الإمكانات فلسوف يسجن لمدة سنة ويوم واحد، وإذا ماتمكن بعد مضي السنة واليوم من ايجاد كفلاء، وقتهـا يطلق سراحه من السجن، لكنه إذا

لم يستطع، فلسوف يناشد مملكتنا مملكة انكلترا، وإذا ماحدث أن قام أي رئيس أساقفة، أو أسقف، أو ايرل، أو بارون، أثناء قدومه إلينا بناء على أمرنا، بالمرور خـلال غاباتنا، يمكنه وقتها أخذ حيـوان أو حيوانين أمام مـوظف الغابة، وإذا لم يكـن موظف الغـابة مـوجوداً، عليـه أن يضرب بالبـوق، حتى لايبـدو، وكأنه أخـذهما سرقـة، ويمكنه أن يقـوم بالعمل نفسـه في طريق عودته، ويمكن لكـل إنسان حـر من الآن فصاعـداً، أن يبني في غـابتـه، من دون معيق، أو في الأرض التي يمتلكهـا في الغـابة، طاحـــوناً، أو أن يعمـل مطردة للصيـــد، أو بحيرة، أو بئراً للسماد، أو خندقـاً، أو يترك بقعـة منزرعـة، خلف مـاهو مسيج في أرض منزرعـة، بشرط أن لاتكون مضرة لأي واحد من جيرانـه، ويمكن لأي رجل حر أن يمتلك أنواعـاً من طيور العقـاب، أو من طيور الحر، أو النسـور، أو مالك الحزين، ويمكنه ببعض الطرق أن تكون لديه مناحل في أحـراشه، ومامن مـوظف غابات، هو ليس ضامن غـابة مقابل رسم يؤديه لنا على وكالته، يجوز له من الآن فصاعداً، جباية أية ضريبة طريق في وكالته، بل ضـامن الغابة الذي يـدفع رسم لنا مقابل وكـالتـه، يحق له أخذ ضريبـة طريق، ويكون مقـــدار ذلك: بنسين عن كل عـربة خـــلال نصف سنة، وبنسين آخرين مقابل النصف الآخر من السنة، ومن أجل حمولة حصان واحـــد ربع بنس عن نصف سنة، وربـع بنس عن النصف الآخـــر من السنة، وتتم جباية هذا فقط من الذين يأتون من خارج وكالته، للتجارة في وكـــالتـــه بناء على إذنه، ولشراء الأشجـــار، والحطب، والخشب، أو الفحم، ولأخـذهم إلى مكان آخـر للبيـع، وذلك حيثما يودون، أمـا من العـربـات الأخـرى ومن دواب التحميل، فلـن تؤخـذ ضريبـــة طريق، وتؤخـذ ضريبـة فقط من الأماكـن التي جرت العـادة على أخـذها من قبل، أمـا الذين يحملون على أكتـــافهم حطبهم، أو خشبهم، أو فحمهم للبيع فلن يدفعـوا أية ضريبة طـريق، وإن كانوا يعيشـون بهذه الوسيلة، ولن يتم دفع ضريبـة طريق مقابل أخشـاب الناس الآخرين في غـاباتنا،

بل فقط مقابل أخشاب ممتلكاتنا، ويمكن لجميع الملاحقين قانونياً، بمسائل تتعلق بالغابات، منذ أيام جدنا الملك هنري حتى موعد تتويجنا، العودة بسلام من دون عائق، وعليهم توفير كفالات جيدة، تضمنهم أنهم لن يقوموا ثانية بتسبيب الأذى لنا فيما يتعلق بغاباتنا، ولايجوز لأي سيد اقطاعي، أو شخص آخر إقامة شكاوى حول الغابة سواء فيما يتعلق بأعشاب أسقف البيوت أو لحم الطرائد، لكن يمكن لأي موظف غابة برسم، أن يرفع شكوى تتعلق بالغابة، أو بالأعشاب المرجية، أو لحم الطرائد. وعليه أن يرفع شكاويه إلى أصحاب الخضراوات في الكونتية، وبعد تدوينهم، وختمهم بخاتم أصحاب الخضراوات، يجري تقديمهم إلى رئيس موظفي الغابات، وذلك عندما يأتي إلى ذلك الجزء من البلاد، لينظر في دعاوى الغابات، ولسوف يجري حسم ذلك بحضوره، وإنها إرادتنا هي القاضية بمراعاة جميع الأعراف والامتيازات التي منحناها في المملكة، نحو رجالنا، ومن جانبنا سوف تجري مراعاتها من قبل جميع شعب المملكة، ومن قبل رجال الدين والعلمانيين نحو رجالهم».

حول الخمسة والعشرين بارون الذين جرى تعيينهم من قبل الملك لمراجعة القوانين التي تقدم ذكرها

«صدوراً عن محبتنا للرب، ومن أجل إصلاح مملكتنا، ولحلّ الخلافات التي نشبت بيننا وبين باروناتنا وتسويتها، قد منحنا هذه الأشياء، راغبين بالحفاظ عليهم سالمين ومرتكزين على قواعد ثابتة، ونحن نمنح إليهم الضمانات المدونة أدناه، وهي:

أن يقوم البارونات باختيار خمسة وعشرين باروناً ممن يريدون من بارونات المملكة، وذلك حسبما يرغبون، وسوف يقوم هؤلاء مع كل ما باستطاعتهم من قوة بمراعاة، وبالحفاظ، وبالتسبب بمراعاة السلام، والامتيازات التي منحناها، والتي أكدناها بصكنا الحالي لهم، وبناء عليه،

إذا ماقمنا نحن شخصيا، أو صاحب العدالة لدينا، أو وكيل تابع لنا، باقتراف خطأ بحق بأي واحد، بأية طريقة من الطرق، أو خرقنا وتجاوزنا أي شرط من الشروط لهذا السلام وهذا الضمان، وأمكنت البرهنة على هذا الأذى من قبل أربعة من بين الخمسة والعشرين باروناً، عندها سوف يقدم هؤلاء البارونات الأربعة إلينا، أو إلى رئيس العدالة لدينا، إذا ما كنا خارج المملكة، ويتولون شرح ماحدث وتبيان الخطأ لنا، ويطلبون منا تقديم ترضية من دون تأخير، وإذا نحن - أو كنا نحن خارج المملكة - أو رجل العدالة لدينا، لم نعط ترضية خلال أربعين يوماً، تحسب من اليوم الذي أشير به بالقضية لنا، سوف يحيل البارونات الأربعة القضية إلى بقية الخمسة والعشرين، وعندها يتولى البارونات مع جميع الناس في البلاد ازعاجنا ومضايقتنا، بجميع الوسائل التي بين أيديهم، مثل الاستيلاء على قلاعنا، وأراضينا، وممتلكاتنا، وبمختلف الوسائل الأخرى، حتى نقدم لهم الترضية، وفقاً لقرارهم، وذلك باستثناء شخصنا، وشخصيات الملكة وأولادنا، وبعد تقديمنا الترضية لهم، هم سوف يطيعوننا كما فعلوا من قبل، وعلى كل واحد في المملكة، هو سوف يختار، أن يفعل كذلك، أن يقسم أنه من أجل الحفاظ على الشروط المتقدم ذكرها، أن يطيع أوامر الخمسة والعشرين باروناً المتقدم ذكرهم، وأنه سوف يضايقنا بالاتحاد معهم، إلى أقصى حد بطاقته، ونحن نمنح إذناً حراً ومفتوحاً، بأن يقسم هكذا إلى أي واحد يختاره ليفعل هكذا، ونحن لن نمنع أحداً من أن يقسم هكذا، هذا ولسوف نجعل جميع الذين في مملكتنا، الذين اختاروا أن يقسموا بالاتحاد مع البارونات من أجل مضايقتنا وازعاجنا، أن يقسموا على إطاعة أوامرنا المذكورة أعلاه، إنما في جميع الحالات التي عهد بها إلى تدبير هؤلاء الخمسة والعشرين باروناً، إذا حدث بالصدفة ولم يتفقوا بين أنفسهم حول أي نقطة، أو أن أيا منهم لدى دعوتهم إلى الاجتماع رفض الحضور، أو كان غير قادر على الحضور، ومهما كان الأمر تتولى الأكثرية

منهم اتخاذ القرار، والقرار الذي سوف يتخذ من قبلهم، سوف يجري اقراره وتثبيته، وكأن الخمسة والعشرين قد وافقوا عليه، ويتوجب على الخمسة والعشرين باروناً أن يقسموا على أنهم يرعون باخلاص الشروط المتقدم ذكرها، وأن يبذلوا غاية جهودهم لجعلهم موضع الرعاية والتطبيق، ونحن لن نفعل شيئاً شخصياً أو بوساطة انسان آخر، في تسبيب نقض المنح والامتيازات المذكورة، أو إتلافها، وإذا ماجرى عمل أي منح من هذا القبيل، فسيكون ذلك لاغياً وفارغاً، ولن نقوم أنفسنا باستخدام ذلك أو من قبل أي انسان آخر، وجميع الخلافات والمهاترات، والضغائن التي ثارت بيننا وبين رعيتنا، ورجال الدين والعلمانيين، وذلك منذ نشوب الخلافات بيننا، قد أزلناها نهائياً، وتسامحنا بالنسبة لها كلها، وبالنسبة للذين تولوا مضايقتنا أكثر من سواهم، وأقصد بذلك أصحاب الأربع قلاع في: نورثأمبتون، وكنيلوورث Kenilworth، ونوتنغهام، وسكاربورا Scarborough، إن هؤلاء سوف يقسمون اليمين للبارونات الخمسة والعشرين، بأنهم سوف يتصرفون بقلاعهم، وفقا لما سيقرره هؤلاء أو الأكثرية منهم، ولما سيأمرونهم به أن يفعل، وسوف يجري تعيين شحن لهذه القلاع، يكونوا مخلصين دوما، ولايحنثون بأيمانهم، ولسوف نبعد من مملكتنا جميع الأجانب، وجميع أقرباء جيرارد دي أثي Athie ، الذين هم: انغلارد Engelard، وأندرو، وبيتر، وكـــــذلك غي دي تشانسيليس Chanceles، وغي دي سيغوإغني Ciguigny، وزوجة جيرارد المتقدم ذكره مع أولادهما، وغيوفري دي مارتن Martenn وأخويه، وفيليب مارك وأخويه، وغ. G. حفيده، وفالكو Falco، وجميع الفلمنكيين، واللصوص الذين يسببون الأذى لمملكتنا، وعلاوة على ذلك، إن جميع الانتهاكات التي اقترفت بسبب هذا الخلاف منذ عيد الفصح الأخير، الذي وقع في السنة السادسة عشرة من حكمنا حتى تجديد هذا السلام، هي معفية بشكل عام من قبلنا،بالنسبة لجميع

رجـال الدين والعلمانيين، وبالنسبـة لنا هي مسـامحة تماماً، وعـلاوة على ذلك لقـد تدبرنا منحهم شهـادات ورسائل معتمـدة من مـولانا ستيفن رئيس أساقفـة كانتربري، ومن هنري أسقف درم، ومن باندولف، نائب رئيس الشمامسـه، والصـديق المقـرب من مـولانا البـابـا، وكـذلك من الأساقفة المتقدم ذكـرهم، كضمانة لهذا وللمنح المتقدم ذكرها، وبناء عليه سوف نأمـر بدقة بأن تكـون الكنيسة الانكليزية حـرة، وأن تتملك جميع الرعيـة وتستحوذ على جميع الامتيـازات، والقوانين، والأعـراف، بشكل جيـد وبسـلام، وبصـورة حـرّة، وهادئـة، كـاملة وتامـة، لأنفسهم، ولورثتهم، منا ومن ورثتنا، في جميع القضـايا والأماكن كما قيل من قبل، وجرت أيضـاً تأدية قسم بحضور الذين وردت أسماؤهم أعـلاه، بمثابة شـاهد على أنفسنـا، وعلى البـارونات، بأننا سـوف نـرعى جميع المواد والشروط المتقدمـة الذكر باخلاص جيـد، ومن دون معيقات وتحفظات مخادعة. منح تحت أيدينا في الحقل الذي اسمـه رنيميد Runnymede، بين ستين ووندسـور، في اليـوم الخامس عشر من حـزيران، في السنة السابعة عشرة لحكمنا».

كيف أمر ملك انكلترا برسائل معتمدة بوجوب رعاية الامتيازات المتقدم ذكرها

بعـد هذا، بعث الملك جـون رسائل معتمـدة إلى جميع أرجـاء المناطق الانكليزية، أمـر فيها بكل دقـة جميع عمد المملكة كلهـا، بجعل السكان الموجودين في مناطق ادارتهم من كل مرتبة يقسمون على مراعاة القوانين التي كتبت أعـلاه والامتيـازات، وأن يقـومـوا بقـدر مـالديهم من قـوة بازعـاج الملك والضغط عليه، بالاستيـلاء على قلاعـه حتى يقوم بتنفيـذ جميع الشروط التي تقـدم ذكرها أعلاه، حسبما وردت في الصـك، وبعد هذا جاء كثير من نبلاء المملكة إلى الملـك يطلبون منه حقوقهم بالأرض والممتلكات، والولايـة على القـلاع، التي -كما قـالوا -عـائـدة إليهم

بموجب حق الوراثة، لكن الملك أجل هذه القضية، حتى يكون قد تبرهن بيمين رجال تابعين اقطاعيين، ماهو حق وواجب لكل واحد، ولكي تكون القضية أكثر تأثيراً وفعالية، حدد السادس عشر من آب، ليكون يوماً للجميع للقدوم إلى ويستمنستر، ومع ذلك أعاد إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري قلعة روكستر، وبرج لندن، لأنهما بموجب الحقوق القديمة يعودان إلى ولايته، ثم أنهى ذلك الاجتماع، وعاد البارونات مع الصك المذكور أعلاه إلى لندن.

كيف انسحب الملك جون بشكل سري إلى جزيرة وايت ووضع خططاً ضد البارونات

وحسبما ذكرنا، بعدما غادر البارونات المؤتمر، ترك الملك مع أقل من سبعة فرسان من بين جميع حرسه الشخصي وخدمه، وعندما كان مستلقيا في تلك الليلة من دون نوم في قلعة وندسور، خوفته أفكاره كثيراً وأرعبته، فهرب قبل انبلاج ضوء النهار خلسة إلى حزيرة وايت Wight، وأبدع هناك وهو يشعر بألم عظيم في عقله، خططا للانتقام من البارونات، وقرر أخيراً بعد كثير من التأملات، مع مساعدة بطرس الرسول، أن ينشد الانتقام من أعدائه بسيفين: السيف الدنيوي، والسيف الروحي، وبذلك إذا لم ينجح بالسيف الأول، يمكنه بشكل مؤكد تحقيق أهدافه بالسيف الآخر، ولكي يضربهم بالسيف الروحي، أرسل باندولف، نائب الشماس البابوي، مع مبعوثين آخرين، إلى بلاط روما، للتصدي بوساطة السلطات الرسولية لنوايا البارونات، كما أنه أرسل أسقف وينكستر ومستشار انكلترا، وجون أسقف نورويك، ورتشارد دي ماريسكو Marisco، ووليم غيرنون Gernon، وهيوج دي بوفز Boves ، مع ختمه الخاص، إلى جميع مناطق ماوراء البحر، للحصول على عساكر واكترائهم من هذه المناطق، واعداً إياهم بأرض، وبوفرة من السلع، وبمبالغ كبيرة من المال، ولكي يضمن طاعة الناس،

وانضمامهم إليـه، أمـرهم - إذا كـان الأمر ضروريا -منحهـم وثائق ضمانات من أجل الدفع إلى جميـع الجنود الذين سيلتقحـون بهم، ورتب أن يلتحقوا به في دوفـر في عيد القـديس ميكائيل، مع جميع الذين يمكن جذبهم إليهم، وعلاوة على ذلك، بعث برسـائل إلى جميع ولاة قلاعه في جميع أرجاء انكلترا، آمـراً إياهم أفراداً وجماعـات القيام بتـزويد قلاعهم بجميع أنواع المؤن والسـلاح، وبتحصين حصـونهم بالجنود، حتى يكون بامكانهم الدفاع عنهـم يوم تلقي الأمر بذلك، ثم إنه قـام بالوقت نفسه مع عدد قليل من الأتباع استعـارهم من حاشية أسقف نورويك، وشرع يشغل نفسـه في أعمال القـرصنة، وسخـر نفسـه من أجل كسب مـودة البحـارة في الموانىء الخمسـة، وهكذا أخفى نفسـه في الهواء الطلق في الجزيرة وقـرب شـواطىء البحـر، من دون أي مظهـر ملكي، لمدة ثلاثة أشهـر برفقة البحـارة، لأنه كان يفضل أن يمـوت على أن يعيش طويلاً دون أن ينتقم للإهانات التي ألحقها به البـارونات، وخلال ذلك الوقت جـرى بين الناس تداول تقـارير متنوعـة مـن قبل مختلف الناس حـوله، وقال بعضها بأنه تحول إلى صائد سمـك، وقال آخرون بأن صار تاجراً، وقـال بعض آخـر بأنه صـار قـرصـانا، وحكـى بعض الناس بأنه صـار مـرتداً، وبعـد مـا بحث عنه كثيرون، خـلال غيـابه المخطط له، بدون نجـاح، أخذوا يعتقـدون أنه قد غـرق، أو هلك بطريقة مـا من الطرق، وعـرف الملـك بجميع هذه التقـاريـر وتحملهـا برباطـة جأش منتظرا الوصول المتوقع لمبعـوثيه، الذي أرسل بعضهـم إلى بلاط روما، وبعضهم الآخر لتجنيد عساكر لمساعدته.

الافادات التي عملها رسل ملك انكلترا للبابا

ومثل في الوقت نفسه رسل ملـك انكلترا أمام مولانا البـابا في روما، وعـرضوا عليـه وبينوا العصيـان والمضار التي اقترفهـا بارونات انكلترا ضـد الملك المذكور، واستخـرجـوا منه بعض القوانين والامتيـازات غير

العادلة، التي جعلت كرامته الملكية غير ثابتة، وأنه بعد كثير من الخلافات فيما بينهم وبينه، اجتمع الملك المذكور والبارونات عدة مرات للتفاوض حول السلام، وأنه أعلن بوضوح أمامهم جميعاً، بأن مملكة انكلترا هي بموجب حق الحكم عائدة إلى كنيسة روما، ولذلك هو لايحق له، ولاينبغي له، عمل أية ترتيبات جديدة، من دون معرفة مولانا البابا، أو تغيير أي شيء في المملكة لأن التغيير يتوجب تغييره من قبل الحبر الأعظم، ومع أنه عمل حول ذلك مرافعة شكوى، وأنه وضع نفسه وجميع حقوق مملكته تحت حماية الكرسي الرسولي، فإن البارونات المذكورين، لم يعيروا أدنى اهتمام وتقدير لشكواه، وقاموا بالاستيلاء على مدينة لندن، التي هي عاصمة مملكته، حيث سلمت إليهم بشكل خياني، وهم حتى الآن مستولون عليها، وطاروا بعد هذا إلى السلاح، وامتطوا ظهور خيولهم، وطلبوا من الملك وجوب تأكيد القوانين المتقدم ذكرها. مع الامتيازات المذكورة، ولم يتجرأ الملك على رفض ماطلبوه، خشية أن يقوموا بمهاجمته، ثم أعطى الرسل المذكورون إلى البابا ورقة مكتوبة تحتوي بعض المواد من الصك المذكور، التي بدت أنها تؤيد قضية الملك كثيراً، وبعدما قرأهم البابا بدقة، قال متعجباً ومندهشاً: «هل يسعى بارونات انكلترا نحو الطرد من عرش مملكته، ملكاً قد حمل شارة الصليب، وهو موجود تحت حماية الكرسي الرسولي، وأن ينقلوا إلى آخر حكم الكنيسة الرومانية؟ بحق القديس بطرس لايمكننا تجاوز هذه الاهانة من دون عقوبتها»، ثم إنه قام بعد التشاور مع كرادلته، باصدار قرار حاسم لعن فيه الصك المذكور الذي قضى بمنح الامتيازات لمملكة انكلترا، وألغاه إلى الأبد، وكبرهان مؤيد لهذا، حول إلى الملك الانكليزي الاعفاءات التالية:

كيف جرى باعفاء من الكرسي الرسولي إلغاء الامتيازات التي منحت إلى البارونات الانكليز

« من انوسنت، أسقف وعبد عبيد الرب، إلى جميع المؤمنين بالمسيح، الذين سوف يرون هذه الورقة، أماني الصحة، والمباركة الرسولية، إنه مع أن ولدنا المحبوب جيداً بالمسيح جون الملك المشهور للانكليز قد أغضب الرب كثيراً، والكنيسة المقدسة - ولذلك غللناه بأغلال الحرمان الكنسي، ووضعنا مملكته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين - إنه مع هذا فإن الملك المذكور، بالهام من رحمته الذي لايرغب بموت المذنب، بل إنه يريد منه أن يهتدي وأن يعيش طويلاً بعد اهتدائه، وتوبته بكل تواضع إلى الرب، والكنيسة، وبتوبته هو لم يعط التعويض فقط للذين خسروا، وأعاد الممتلكات المصادرة، بل إنه منح حرية كاملة إلى الكنيسة الانكليزية، وعلاوة ذلك لقد قام بعد سحب القرارين، بالتخلي عن مملكته في انكلترا، وكذلك عن مملكته في ايرلندا، إلى القديس بطرس، وكنيسة روما، وقد تسلمها منا بحرية، على شرط دفع مبلغ سنوي مقداره ألف مارك، وتأديته قسم التابعية لنا، كما ظهر بامتيازه الممهور بخاتم ذهبي، ورغبة منه في منح المزيد من الترضية للرب القدير، حمل شارة الصليب الحي، من أجل الذهاب لتقديم العون إلى الأرض المقدسة، الأمر الذي كان يعد نفسه إليه مع كثير من النفقات، لكن عدو الجنس البشري، الذي عادته هي كراهية الأعمال الجيدة وحسدها، تمكن بفنونه الماكرة من إثارة بارونات انكلترا ضده، لذلك اختل نظام الأشياء وفسد، حيث أنه بعدما اهتدى وكان يقدم التكفير إلى الكنيسة، هوجم من قبل الذين وقفوا إلى جانبه أثناء عدوانه ضد الكنيسة، واخيرا عندما ثار الخلاف بينه وبينهم، وبعد تعيين عدة أيام للتفاوض حول السلام، جرى ارسال مبعوثين خاصين إلينا، وبعد مناقشة القضية مطولاً معهم، وبعد تداول طويل وتمحيص كامل، كتبنا بوساطة المبعوثين أنفسهم، إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أساقفة انكلترا، نأمرهم بأن يمنحوا عناية متواصلة ومساعدة مؤثرة، لإعادة السلام الحقيقي والوئام بين الفرقاء، ولإعلان أن جميع التكتلات والمؤامرات —إذا كان أي منها

قـد تشكل منذ بداية نشـوب الخلاف بين الملك والكهنة— هي ملغـاة بوسـاطة السلطـات الرسـوليـة، ولمنع، تحت التهـديد بعقـوبة الحرمـان الكنسي، أي واحـد من اظهـار مثل هـذه المظاهر في المستقبل، والقيـام بالوقت نفسه، بشكل لطيف ومؤثر بإنذار النبلاء والرجال ذوي المراتب في انكلترا، وأمـرهم بالسعي بوسـاطة مـؤشرات وبراهين واضحـة، وبتقـوى وتواضع، لعمل سلام مـع الملك، وعندئذ إذا مـا أرادوا طلب أي شيء منه، أن يسـألوه ذلك، إنما ليـس بشكل مهين، بل بتـواضع، مـراعين نحوه الاحترام الجدير بملك ومقـدمين إليـه الخدمات المعتـادة، التي قدمها إليـه هم وأجدادهم، ذلك أن الملك لا تجوز اهانته من قبلهم من دون حكم، وأنهم بذلك يمكنهم هكذا الحصـول بسهـولة أكبر على الذي كـان يسعـون له، وقـد طلبنا أيضـاً، ونصحنا الملك المذكـور، برسائلنا، وفـرضنا على رئيس الأساقفة المذكور والأسـاقفة ليطلبوا منه، وليحذروه، وليكون الأمـر بمثابة غفـران له من ذنوبه، أن يتـولى معاملة النبلاء المتقدم ذكرهم بلطف، وأن يولي شكاويهم العـادلة اهتماماً خاصاً، وبذلك يمكنهـم أن يعلمـوا، وأن ينالوا السرور، أنـه قـد تغير نحـو الأفضل، وأنه بهذه الـوسـائل يمكنهـم هم وورثتهم أن يكونـوا أكثـر استعداداً، وأكثـر إقبالاً على خدمتـه وخدمـة ورثته، وأن يمنحهم ضماناً كامـلاً بحرية الذهاب، والاقامة، والمغـادرة، وأنه إذا حدث أنه لم يمكن ترتيب السـلام فيما بينهم، فإنه يمكن للخـلافـات التي نشبت ايجاد حل لها وتسويتها في محكمة بلاطه بوساطة وكلائهم، ووفقاً لقوانين وأعراف المملكة، وحـدث أنه قبل أن يعـود الـرسل مع هذه النصيحـة الحكيمـة والعـادلة، أن قام هؤلاء البـارونات بالتخلي كليـاً عن يمينهم بالتابعيـة، (لأنه وإن قـام الملك بشكل غير عـادل بظلمهم، المتـوجب عليهم أن لا يعملوا ضده ما عملوه، وأن يكونوا في آن واحـد القاضي والمنفذ بالنسبة لقضيتهم، لأنه لا يجوز للأتباع التآمر بشكل مكشوف ضد مولاهم، ولا الفـرسـان ضـد ملكهم) وتجرأوا بالاتحاد مع آخـريـن هم أعـداءه

المكشوفين، على إثارة الحرب ضده، والاستيلاء على أراضيه بعد العيث فساداً فيها، وعلاوة على ذلك، لقد استولوا على مدينة لندن، التي هي عاصمة المملكة، حيث سلمت إليهم من خلال الخيانة، وفي الوقت نفسه، عندما عاد الرسل المذكورون، عرض الملك، بالتوافق مع وصايتنا، أن يظهر نحوهم عدالة صحيحة، لكنهم رفضوها، وحولوا أيديهم نحو اعتداءات أسوأ، بناء عليها توجه الملك نفسه، باسترعاء اهتمامنا، وعرض منحهم عدالة بحضورنا، والحق في تقدير هذه القضية عائد إلى حكمنا، وقد رفضوا هذا كلياً، ثم انه اقترح إليهم وجوب اختيار أربعة رجال بارعين من قبله ومن قبلهم من أجل أن يتمكن هؤلاء بالتعاون معنا، أن يضعوا نهاية للخلاف الذي نشب فيما بينهم، واعداً أنه سيتولى قبل كل شيء إزالة جميع الاساءات، التي ربما وقعت وعرفتها انكلترا في أيامه، لكنهم رفضوا محاولة هذا، وأخيراً شرح الملك إليهم—أنه ما دامت المملكة عائدة إلى كنيسة روما هو لا يمكنه، ولا يجوز له، من دون وصايتنا الخاصة، القيام بأية تغييرات فيها تأتي مضرة بنا، ولذلك توجه مجدداً بالشكوى إلى مسامعنا، واضعاً نفسه ومملكته، مع كرامتها وحقوقها تحت حماية الكرسي الرسولي، وبما أنه لم يحصل على أي شيء بهذه الوسائل، سأل رئيس الأساقفة والأساقفة القيام بتنفيذ وصايتنا، والدفاع عن حق كنيسة روما، وحمايته وفقاً لشروط الامتيازات التي منحت للذين حملوا الصليب، وبالإضافة إلى هذا، عندما لم يوافقوا على أي من هذه الشروط، ولدى وجود ه نفسه محروماً من كل عون ونصح، لم يتجرأ على رفض كل ما تقدموا بالمطالبة به، وبناء عليه لقد أرغم بوساطة القوة ومن خلال الخوف—الذي حتى أكثر الناس شجاعة عرضه للخضوع له—على الدخول باتفاقية معهم، هي لم تكن فقط شريرة ومنحطة، بل أيضاً غير قانونية، وغير عادلة، بل إنها تحط من كرامته ومن حقوقه وتزيلهما، وحسبما أخبرنا الرب من خلال نبيه في قوله: «لقد عينتك على الناس وعلى المملكة، لأقتلع

وأهدم، ولأبني ولأزرع» ومن خلال نبي آخر قوله:

«ارم وفكك أغـلال الشرور، ألق عنك أثقـال الظلم»، لهذا لم نختر المرور مرور الكرام بهذه الوقاحة الشريرة، المتجهة نحو ازدراء الكرسي الرسولي، والى محق الحقوق الملكية، والى اهانة الأمة الانكليزية، وإلى تعريض قضية الصليب للخطر، لولا أن قمنا بوساطة سلطاتنا بنقض كل شيء استخرج من مثل هذا الأمير الذي حمل الصليب، مع أنه كان على استعداد للحفاظ عليهم، وبناء عليه نقوم نيابة عن الرب، الأب القدير، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطة رسوليه: بطرس وبولص، وبوساطة سلطتنا، وبناء على نصيحة إخواننا، بشجب، وبإدانة كاملة لاتفاقية من هذا النوع، ونمنع الملك المذكور، تحت انزال عقوبة الحرمان الكنسي به من الحفاظ على الصك، أو على الضمانات والقيود التي أعطيت من أجل الحفاظ عليه، ونمنع أيضاً البارونات ومن معهم من ارغام الملك على الحفاظ على الصك أو على الضمانات والقيود التي منحت للحفاظ عليه، ونلغي هذا الصك كلياً، ونزيله وكأنه لم يكن، وأن لا يكون له أية فعالية، ونحذر أياً كان، الخ، ومهما كان، الخ، صدر في أغنانو Agnano في الرابع والعشرين من آب، في السنة الثامنة عشرة لحبريتنا».

البابا يلوم بارونات انكلترا من أجل اضطهادهم الملك

وبعدما ألغى البابا على هذه الصورة الامتيازات المتقدم ذكرها، كتب إلى بارونات انكلترا وفق الشروط التالية: «من انوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى نبلاء انكلترا، روح المشورة الأعقل، حبذا لو أنكم في اضطهادكم الذي تسرعتم في ممارسته ضد مولاكم الملك، أن التزمتم بعناية أكبر بيمينكم بالتبعية، واهتممتم بحقوق الكرسي المقدس، وبالامتيازات التي منحت إلى الذين حملوا الصليب، وبما أنكم من دون شك، لم تقوموا بإجراءات الادعاء بما عملتموه، ولذلك فإن

كل من شاهد مافعلتموه يرفض العدوان، خاصة وأنكم بالنسبة لقضيتكم، قد جعلتم أنفسكم القضاة والمنفذين، مع أن الملك المذكور كان قد استعد لمنحكم وفرة من العدالة في بلاط محكمته، وذلك بقرار من نظرائكم، ووفقاً لقوانين وأعراف المملكة، أو بحضرتنا نحن الذين نمتلك القرار بهذه القضية، بموجب حق السلطة، أو بحضرة محكمين يجري اختيارهم من كلا الجانبين، حيث يقومون متحدين بالاستدعاء والمرافعة في هذه القضية معنا، وبما أنكم لم تحاولوا أية واحدة من هذه الخطط، رفع شكواه إلى مسامعنا، ووضع نفسه ومملكته مع جميع امتيازاتها وحقوقها، تحت حماية الكرسي الرسولي، وأعلن صراحة أنه بما أن السلطة على تلك المملكة هي عائدة إلى كنيسة روما، لايمكنه —ولايجوز له— إحداث أي تغيير يسبب الضرر لنا، وبناء على هذا وبعد رؤيتنا لنوع الاتفاقية التي عملت، وهي اتفاقية أرغمتموه بالعنف وبالتهديد على عملها، وهي على هذا شريرة ومنحطة، وكذلك غير قانونية وغير عادلة، ولذلك يتوجب بشكل مسوغ رفضها من قبل الجميع، وذلك لسبب رئيسي هو نوعية الوسائل التي استخدمت للحصول عليها، ونحن الذين نرى أنه لزاماً علينا تأمين المنافع الروحية وكذلك الدنيوية للملك وكذلك للمملكة، نأمر برسائلنا الرسولية هذه، وننصحكم باخلاص شامل، أن تلتزموا بفضيلة الضروريات، وأن تتخلوا من قبل أنفسكم عن هذه الاتفاقية التي من هذا النوع، وأن تقدموا تعويضات إلى الملك وإلى أتباعه من أجل الأذى والضرر الذي ألحقتم به، حتى إذا ماسكن بوساطة مؤشرات التقوى الواضحة من عندكم والتواضع، يكون وقتها من الممكن أن يقدم طواعية من قبل ذاته تنازلات ينبغي تقديمها بموجب حقوقه بالمنح، وللقيام بمثل هذا نحن أيضاً سوف نقنعه، لأننا، وإن كنا لانرغب بحرمانكم من حقوقكم، نرغب منه التوقف عن مضايقتكم، حتى لاتكون مملكة انكلترا، في ظل حكمنا، عرضة للظلم بوساطة أعراف شريرة، وإلزامات غير عادلة،

وكل مـايتقـرر ويرسـم في هذا المجـال سـوف يجري تثبيتـه واعتماده إلى الأبد، وبناء عليــه، إن الذي يرغب بعـدم هـلاك أي انسـان، يمكنه أن يجعلكم تميلون للأخـذ بتـواضع بنصيحتنا الصحيحة وبـأوامرنا، خشيـة أنكم إذا مـاتصرفتم على العكس سـوف تجدون أنفسكم وقـد نزلتم إلى مضائق لايمكنكم النجاة منها من دون الكثير من الاضطراب، ومع أننا لانستطيع الحديث عن القضايا الأخرى، لانستطيع إخفاء الخطر العظيم المحيق بجميع شؤون الصليب، الذي سوف يكون في خطر حقيقي، مالم نقم، بوســاطة سلطاتنـا الرسـوليــة، معــاً بإلغــاء جميع الوعــود التي استخـرجت بالقـوة من ذلك الملـك، الذي حمل شـارة الصليب، مع أنه يرغب بالحفاظ عليهم، وبناء عليه عندما سيمثل رؤساء أساقفة وأساقفة انكلترا أمـامنا، أثناء المجمع العـام الذي سوف نعقـده من أجل معـالجة مسـائل الكنيسة الأكثـر إلحاحاً، أقـدموا أنتم أيضـاً على ارسال مـراقبين موائمين للمثـول أمامنا، واعهـدوا بأنفسكم من دون خوف إلى رعـايتنا الخيرة، لأننا تحت نعمـــة الرب، ســوف نعـــالـج القضـــايا بـإزالة كل الاساءات في مملكة انكلترا، وبذلك سيكون الملك راضياً وقانعاً بحقوقه العادلة وبكرامتـه وعزته، وأن يكون رجـال الدين والشعب بشكل عام متمتعين بالسلام وبالامتيازات المستحقة لهم.

صــدر في أغنانو في الرابع والعشريـن من آب في السنة الثـامنة عشرة من حبريتنا»، وبعـدمـا —على كل حال— تسلمـوا هذه الرسـائل، التي هي رسائل وعد ووعيد، لم يقلعوا عن أهدافهم، وذلك بسبب تصرفات الملك، وقاموا بمضايقته بحدة أكبر وبشدة أعظم.

استيلاء وليم دي ألبيني على إمرة قلعة روكستر

وكـان في الوقت نفســه النبيل وليم دي ألبينيAlbiney قد تلقى رسائل متوالية من البارونات في لنـدن، ولأنه تعرض للملامة بدرجات عـالية بسبب تأخـره عن القدوم إليهم، قـأم أخيراً في يوم عيد القـديس

ميكائيل بشحن قلعته قلعة أوف بلفوير Belvoir بما يكفيها —لابل أكثر مما يكفيها— من جميع أنواع المؤن والسلاح، عهد بها إلى عناية رجال كانوا مخلصين له، ثم ذهب إلى لندن، حيث استقبل هناك من قبل البارونات بكثير من البهجة، وقد قاموا على الفور باعلامه بخطة كانوا قد قرروها، وقد قضت باغلاق الطريق ضد الملك، وبذلك لن يكون أي طريق مفتوح أمامه من أي اتجاه إذا مارغب بإلقاء الحصار على مدينة لندن، ولذلك انتخبوا قوة كبيرة وقوية من العساكر وعيّنوا وليم دي ألبيني لقيادتها، لأنه كان رجلاً شجاعاً ومجرباً في الحرب، وبعثوا به لاحتلال بلدة روكستر، وكانت قلعتها قد عهد بها قبل وقت قصير بثقة من الملك، إلى رئيس الأساقفة، الذي سلمها إلى أعداء الملك، وأنا لاأعرف ماهي المشاعر التي دفعته إلى ذلك، الرب وحده يعرف ذلك، ولدى دخول أعداء الملك إليها، وجدوا المكان ليس فقط فارغاً من السلاح والمؤن، بل أيضاً من كل نوع من أنواع السلع والعتاد، وذلك باستثناء ماجلبوه معهم، مما خيب آمالهم وفكروا بمغادرتها، لكن وليم دي ألبيني شجعهم واستمر دوماً في رفع حماس أتباعه، ودفع أصحابه نحو أعمال الشجاعة، وقال إنه ليس قانونياً بالنسبة للفرسان التخلي، خشية أن يشكل ذلك وصمة عار لهم، ولكي لايدعون بالتدريج باسم الفرسان الهاجرون، وبذلك تحمسوا كثيراً وتشجعوا بكلماته، فجلبوا إلى القلعة ماوجدوه من مؤن فقط في بلدة روكستر، وكان تعداد هؤلاء الفرسان مائة وأربعين فارساً، ومعهم جميع أتباعهم، ولم يتوفر لديهم الوقت لجمع الأسلاب من المنطقة المحيطة بهم، أو تجهيز أنفسهم بالمؤن من أي نوع.

كيف حاصر الملك جون قلعة روكستر

بعدما استحوذ وليم دي ألبيني وأصحابه —كما ذكرنا أعلاه— على قلعة روكستر، وبعدما أقام الملك جون ثلاثة أشهر في جزيرة وايت،

أقلع من تلك الجزيرة وأبحر إلى دوفر، وإلى دوفر وصل إليه رسله الذين كان قد بعثهم إلى مناطق ماوراء البحر، وجلبوا معهم حشداً كبيراً من الفرسان والجنود، حتى أن كل من رآهم أصيب بالرعب والازدراء، فقد جاء من منطقتي بواتو وغسكوني النبيل ورجل الحرب سافاريك دي موليون Savariec de Maulion وقدم الأخوان غيوفري، وأولفردي بوتفيل Buteville تحيط بهما كتلة كبيرة من الفرسان والجنود، ووعدوا بتقديم طاعة مخلصة الى الملك، وجاء من مقاطعتي: لوفين، وبرابانت الفرسان الشجعان: وولتر بوك Buck وجيرارد وغودسكال دي سوسين Godeschal de Soceinne مع ثلاث وحدات من الجنود،ورماة القسي الزيارة، الذين تعطشوا إلى لا شيء أكثر من تعطشهم إلى الدم البشري، وجاء إلى جانب هؤلاء إلى الملك من كونتية فلاندرز، ومن مناطق ما وراء البحر الأخرى كل الذين اشتهوا جشعاً أملاك الآخرين، وهكذا منحوا الملك أملاً كبيراً في الدفاع عن نفسه، حيث كان من قبل قد فقد كل أمل ، وما أن سمع جون بأن وليم دي ألبيني وأتباعه قد دخلوا إلى مدينة روكستر، حتى زحف إلى هناك، مع جميع الحشود التي تقدم ذكرها، بكل سرعة، وفي اليوم الثالث بعد دخولهم إلى القلعة، أغلق جميع طرقهم للخروج وحاصرهم، وقام على الفور بنصب مجانيقه وبقية آلات رميه، وضايق المحاصرين بشدة بزخات من الحجارة ومن الأسلحة الأخرى، وتحمل المحاصرون حملاتهم من دون إحجام، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة.

وفاة هيوج دي بوفز

وجاء في الوقت نفسه هيوج دي بوفز، وكان فارساً شجاعاً، لكنه كان متكبراً، ورجلاً غير مستقيم، ووصل إلى ميناء كالي في فلاندرز لمساعدة ملك انكلترا، وركب في السفن في ذلك المكان، وأقلع مع جميع قواته، واتجه إلى دوفر، لكن ثارت عاصفة بشكل مفاجىء قبل أن يصل

إلى الميناء المقصود، وقد غرق وغرقوا جميعاً وابتلعهم البحر بأمواجه، وقذف جسد هيوج المذكور إلى الشاطىء مع عدد من الفرسان الآخرين والأتباع، وكان ذلك ليس بعيداً عن بلدة يارماوث Yarmouth وتم العثور في كل ميناء من شاطىء البحر ذاك على حشد كبير من أجساد الرجال والنساء حتى أن الهواء نفسه قد تلوث بنتانتهم، وجرى أيضاً العثور على عدد كبير من أجساد الأطفال، وكانوا قد غرقوا وهم في أسرتهم، وقد جرفتهم المياه إلى الشاطىء، وكان ذلك منظراً رهيباً لأعداد كبيرة من الناس، وقد تركوا—على كل حال جميعاً— ليجري التهامهم من قبل حيوانات البحر، ومن طيور الهواء، وبذلك لم ينج أحد من الأربعين ألف رجل وبقي حياً، فقد كان جميع هؤلاء الناس قد قدموا إلى انكلترا مع نسائهم وأطفالهم، مع نية طرد جميع السكان المحليين، وافنائهم تماماً، واستحواذ أراضيهم لأنفسهم بوساطة حق دائم، لأن الملك بطبائعه قد أعطى—كما قيل—إلى قائدهم هيوج دي بوفز المذكور كونتيتي: نورفولك Norfolk وسفولك Suffolk لكن نعمة الرب بدلت مقاصدهم نحو الأحسن، وعندما حملت أخبار فقدان هؤلاء الناس إلى الملك حزن بشكل مخيف، ولم يتناول طعاماً في ذلك اليوم، حتى المساء، وظل وكأن جنوناً قد تلبسه واستحوذ عليه.

الاستيلاء على قلعة روكستر وسجن الذين أسروا هناك

وفي هذه الآونة، عندما علم بارونات انكلترا بأن وليم دي ألبيني وأصحابه باتوا محاصرين في قلعة روكستر، أصبحوا مضطربين كثيراً، لأنهم قبل أن يدخل وليم دي ألبيني إلى القلعة قد أقسموا على الانجيل المقدس أنه إذا حدث وحوصر، سوف يزحفون لرفع الحصار، ومن أجل أن يظهروا أنهم يعملون شيئاً يتماشى مع يمينهم واخلاصهم بعهودهم، طاروا على الفور إلى السلاح، وشرعوا بالزحف نحو بلدة دبتفورد Deptford معتقدين أنهم سوف يرغمون الملك على رفع

الحصار، بغارة واحدة، ومع أنهم واجهوا ريحاً جنوبية لطيفة كانت تهب في وجوهم، وهي ريح لا تزعج بالعادة أحداً، تراجعوا وكأنهم قد واجهوا عدداً من الرجال المسلحين، وتخلوا عن الحملة دون انجازها، ومع أننا لاينبغي أن نتراجع أمام كل هبة ريح، أداروا ظهورهم لوليم المحاصر مع أتباعه، وعادوا إلى مكمنهم القديم، وعندما عادوا إلى مدينة لندن، تولوا تحصينها بشكل جيد، وشغلوا أنفسهم بالتسلي بلعبة النرد الخطيرة، وبشرب أفضل أنواع الخمرة التي اختاروها حسب تذوقهم، ومارسوا بقية أنواع الشرور، وتركوا رفاقهم المحاصرين في روكستر يتعرضون لخطر الموت، ويعانون من جميع أنواع المآسي، وعندما علم الملك كيف اقترب البارونات بأبهة كبيرة لرفع الحصار، وكيف أنهم تراجعوا بانحطاط وجبن، صار أكثر شجاعة، وبعث بمن يتولى جمع المؤن من جميع الاتجهات لدعم الجيش، ولم يسمح في الوقت نفسه للمحاصرين بأي وقت للراحة في الليل والنهار، لأنه أثناء رمي الحجارة من المجانيق والعرادات والنشاب من قبل رجال القسي الزيارة والنبالة، قام الفرسان وأتباعهم بحملات متوالية، وكان إذا ماعانى بعضهم من التعب الجسدي، كان يخلفهم آخرون جدد بالهجوم، وبهذه التغييرات لم يحظ الذين كانوا تحت الحصار بأية راحة، وعندما يئس المحاصرون من وصول أية مساعدة من البارونات سعوا إلى تأخير تدميرهم الذاتي، لأنهم كانوا مرعوبين جداً من وحشية الملك، ولكي لايموتوا من دون انتقام لأنفسهم أحدثوا مقتلة كبيرة في أوساط المهاجمين، وطال الحصار لعدة أيام بسبب عظم شجاعة وجرأة المحاصرين، الذين رموا حجراً مقابل كل حجر على العدو، واستخدموا سلاحاً ضد كل سلاح، من وراء الأسوار والشرافات، وأخيراً بعدما جرى قتل عدد كبير من القوات المهاجمة، وبعدما وجد الملك أن آلات قذفه كان لها تأثير خفيف، استخدم اللغامين، الذين تمكنوا في وقت قصير من هدم أجزاء كبيرة من الأسوار، وفي الوقت نفسه نقصت المؤن لدى المحاصرين، وقد أرغموا

على أكل الخيــول، لا بل حتى على أكل مطاياهم الثمينـة، واندفع جنود الملك الآن نحـو الثلم في الأسوار، وبحمـلات شديدة متـوالية أرغمـوا المحاصرين على التخلي عن القلعة، لكن ليس من دون خسائر كبيرة من جانبهم، ودخل المحـاصرون إلى البرج وسط حملات جنود الملك، الذين دخلوا إلى القلعــة مـن خــلال الثلم، وقــد تمكن وليـم دي ألبيني مع جنوده—بعد قتله لكثير منهم—من إرغامهم على التخلي عنها، وهنا لجأ الملك إلى استخدام لغـاميه ضد البرج، وبعد صعوبات جمة أحـدثوا ثلمة في الأسـوار، اتسعت لتستخـدم من قبـل المهـاجمين،لكن أثناء استخـدام جيشه وفـق هذه الطريقة، غـالباً ما أجبر جنوده على الإنسحـاب بسبب الخسائـر التي لحقت بصفوفهم وأنزلت بهم من قبـل المحاصرين،وأخيراً لم تبق لديهم أيـة مـؤن، وبناء عليــه رأى وليم دي ألبينـي مع النبــلاء الآخرين الذين كانوا معه أنه سيكون من العار بالنسبة لهم الموت جوعاً، في وقت لم يكن ممكناً فيـه قهرهم في القتـال، وبعد مـا عقد اجتماعـاً مع الآخرين في يوم عيـد القديس أندرو، تركت الحامية— وهي تقـريباً غير مصـابة—القلعـة، وذلك باستثناء فارس قـد قتل بوسـاطة سهم،وقـدم رجال الحامية، بعد المغـادرة، أنفسهم إلى الملك، وقد استمر هذا الحصار لمدة ثلاث أشهر تقـريباً، وكان الملك غـاضباً كثيراً بسبب عدد العسـاكر الذين قتلوا، وكـذلك بسبب المال الذي أنفقـه على الحصار، وفي غضبـه أمـر بتعليـق جميع النبـلاء على المشــانق، غير أن النبيل سـافــاريك دي موليون Savaric de Mouleon وقف أمام الملك وقال له:« مولاي الملك إن حربنا لم تنته بعـد، ولذلك عليك أن تقدر بدقة كيف يمكن أن تتقلب حظوظ القتـال، لأنك إذا أمرت الآن بشنق هؤلاء الرجـال، ربما يحدث أن يأسرني البـارونات من أعدائنـا، أو يأسرون آخرين من نبـلاء جيشك، ويحتـذون حــذوك، فيقـدمـون على شنقنا، لـذلك لا تدع هذا يحدث، ذلك أنه في مثل هذه الحالة مـا من أحـد سوف يقـاتل من أجل قضيتك»، وعندها أصغى الملك، وهو مكره، لهذه النصيحـة، ولنصـائح

رجال حكماء آخرين، وبناء عليه جرى بناء على أوامره إرسال وليم دي ألبيني، ووليم أوف لانكستر، وو. W دي اينفورد Einford وتوماس دي مولتان Muletan ، وأوسبرت دي غيفارد Gyffard وأوسبرت دي بوبي Bobi وأودينل Odinall دي ألبيني مع نبلاء آخرين، إلى قلعة كورفي، ليوضعوا تحت حراسة مشددة ، أما روبرت دي كورن Chourn ، ورتشارد دي غيفارد Giffard مع توماس أوف لنكولن، فأمر بسجنهم في قلعة نوتنغهام، كما أمر بسجن آخرين منهم في أماكن أخرى، أما جميع الجنود الأسرى فأعطاهم إلى جنوده حتى ينالوا فديتهم، وذلك باستثناء بعض رجال القسي العقارة الذين قتلوا عدداً كبيراً من فرسانه وعساكره أثناء الحصار، حيث أمر بشنق هؤلاء، وبهذه الانتكاسة ضعفت قضية البارونات كثيراً.

الحرمان الكنسي لبارونات انكلترا بشكل عام

ولدى رؤية البابا انوسنت في هذه الأيام أن البارونات العصاة لم يتوقفوا عن اضطهادهم للملك، قام بحرمانهم كنسياً، وعهد بتنفيذ هذا القرار إلى أسقف وينكستر، وإلى راعي دير ردنغ، وإلى باندولف نائب الشماس في كنيسة روما، بموجب الرسالة التالية:«من انوسنت، أسقف الخ، إلى ب. P. أسقف وينكستر، وراعي دير ردنغ، والمعلم باندولف، نائب الشماس في كنيسة روما، تمنيات ومباركات رسولية، لقد دهشنا كثيراً وغضبنا، لأن ابننا المحبوب كثيراً بالرب، جون الملك المشهور لانكلترا، مع أنه قدم ترضيات أكثر مما توقعنا إلى الرب والكنيسة، وخاصة إلى أخينا رئيس أساقفة كانتربري وإلى أساقفته، فإن بعض هؤلاء لا يظهرون الاحترام المستحق— أو الاحترام بشكل مطلق— إلى شؤون الصليب المقدس، وإلى وصاية الكرسي الرسولي، وإلى يمينهم بالتابعية، ولم يقدموا العون، ولم يظهروا مشاعر طيبة نحو الملك المذكور، وبالوقوف ضد الاضطرابات في المملكة، التي هي

بموجب حق السلطة، عائدة إلى كنيسة روما، هذا إن لم يكونوا مطلعين، أو لنقل مشاركين في هذه المؤامـرة الشريرة، لأنه غير محرر من وصمـة المشـاركـة، الـذي يخفق في التصـدي للمعتـدين، فكيـف عمل هؤلاء الأساقفة المتقدم ذكرهم في الدفاع عن ميراث كنيسة روما؟ وكيف قاموا بحماية الذين يحملون الصليب؟ وعجباً كيف أنهم لا يعارضون بأنفسهم الذين يسعـون إلى تدمير عبـادة المسيح؟فهـؤلاء الرجـال هم بدون شك أسـوأ من المسلمين، بما أنهم يسعـون لأن يطردوا مـن مملكتـه الرجل المأمول أن يقدم مسـاعدة إلى الأرض المقدسة، ولذلك فإن وقـاحة مثل هؤلاء الناس، ينبغي أن لاتسـود، ليس فقط لما تسببـه من مخاطر لمملكة انكلترا، لا بل أيضاً لما تقـود إليه في تدمير الممالك الأخـرى، وفوق ذلك كله مـا تؤدي إليه من تهديم جميع قضـايا المسيح، وبناء عليـه أقوم نيـابة عن الرب القـدير، الأب، والابن، والروح القـدس، وبوسـاطة سلطات الرسولين: بطرس، وبـولص، وبوساطة سلطاتنا الخاصـة، بوضع أغلال الحرمان الكنسي على جميع الذين يتولون مضايقة الملك مع مملكة انكلترا، وكذلك على جميع الشركاء في الجرم، وعلى جميع المحرضين التابعين لهم، ونضع ممتلكاتهم تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنين، ونحن نأمر بدقة متناهيـة رئيس الأساقفة المذكـور وأتباعه الأسـاقفة، بحكم فضيلة طاعتهم، أن يقـومـوا بشكل مهيب بإعـلان قـرارنا هذا في جميع أرجـاء انكلترا، وأن يكون ذلك في كـل يوم أحـد، ويـوم عيـد وسط قـرع النواقيس، والشمـوع مشتعلة، حتى يقـوم البـارونات المتقـدم ذكـرهم بتقديم ترضية إلى الملك حول خسائره، والإهانات التي ألحقوها به، وأن يعودوا بإخلاص إلى تأدية واجباتهم، ومن جانبنا نفرض أيضاً على جميع أتباع الملك المذكـور، تقديم المسـاعدة لهذا الملك في مـواجهة مثل هؤلاء المعتـدين، فـذلك سـوف يكون تكفيراً عـن ذنوبهم، وإذا مـا أهمل أي أسقف تنفيـذ أوامـرنا، ليكن معلوماً بـالنسبة له، أننا سـوف نوقفـه عن تأدية واجبـاته الأسقفية وسنسحب طـاعة الذين تحتـه، لأن من المشروع

أن الذين يهملون إطاعة الذين هم أعلى منهم والذين هم رؤساء لهم، أن لا تتم طاعتهم من قبل الذين هم أدنى منهم، وبناء عليه لا يجوز عدم تنفيذ الوصاية، أو تعطيلها من خلال تراخي أي واحد، وقد عهدنا إليكم بشؤون الحرمان الكنسي للبارونات المتقدم ذكرهم مع القضايا الأخرى المتعلقة بهذه الأعمال، وقوموا على الفور بوساطة رسائلنا الرسولية هذه، بتأجيل جميع مرافعات الشكاوي، والقيام بالاجراءات حسبما ترونه مناسباً، لكن إذا لم يعمل الجميع»، الخ.

انتخاب المعلم سيمون لا نغتون لكرسي يورك

وكان في هذه الآونة كهنة يورك منذ مدة طويلة من دون أسقف، لذلك حصلوا على إذن الملك واجتمعوا مع بعضهم لانتخاب واحد، ومع أنهم ضغط عليهم كثيراً وأغريوا من قبل الملك، لاستقبال وولتر دي غري Gray أسقف ووركستر، ليكون أسقفاً لهم، قاموا بسبب جهله برفضه، واستمروا في أعمال انتخابهم، فاختاروا سيمون لانغتون، الذي كان أخاً لرئيس أساقفة كانتربري، آملين أن ينالوا بعلمه الحظوة لدى الحبر الأعظم، لكن عندما بات خبر هذا الانتخاب معلوماً لدى الملك، بعث رسلاً إلى بلاط روما، وقام هؤلاء بحضرة مولانا البابا، بتقديم اعتراضات على الانتخاب، كما يلي: لقد أكدوا أن رئيس أساقفة كانتربري كان عدواً مكشوفاً لملك انكلترا، لأنه قدم التحريض للبارونات الانكليز للعمل ضد الملك المذكور، وأعطى موافقته على عملهم هكذا، وبناء عليه إذا ما جرت ترقية سيمون المذكور إلى مرتبة رئيس أساقفة يورك، وهو أخ لرئيس الأساقفة، فإن سلام الملك والمملكة لا يمكن أن يعيش طويلاً، وبعرضهم هذه الشكوى وأمثالها من الاعتراضات، أقنعوا البابا على الاتفاق معهم، ولذلك كتب إلى هيئة كهنة يورك كما يلي:

«من انونست، أسقف، الخ،عندما مثل المعلم لانغتون مؤخراً أمامنا

مع بعض الكهنة الآخرين من يورك، منعناه حرفياً من السعي للحصول على رئاسة أساقفة يورك، لوجود بعض الأسباب تمنعنا من السماح بذلك، وفيما يتعلق بما سمعه من كلمات منا، ذهب مع جميع الاحترام، واعداً باحترام هذا الأمر، ولذلك دهشنا، وغضبنا، كيف ان مطامحه أعمته، مع أنه يعرف أنه لا يمكن، بعد تحريمنا، وبعد وعده الصريح، أن ينتخب بشكل قانوني، وأن يعطي موافقته على مثل هذا الانتخاب، الذي وإن لم يعارضه أحد آخر، ينبغي أن نعده لاغيا وفارغاً، وهذا يتوجب ألا يكون مناسبة لخطيئة جديدة في انكلترا، أسوأ من السالفة، ولكي لا تبقى كنيسة يورك مدة أطول من دون رئيس أساقفة لها، نقوم بناء على نصيحة إخواننا، بوساطة رسائلنا الرسولية هذه، فنأمركم ونفرض عليكم بكل دقة بموجب فضيلة طاعتكم، بعدم قبول هذا الانتخاب، ولأننا لا يجوز لنا—ولا ينبغي—تحمل إهانة وتآمر من هذا النوع، من دون أي تعليل أو تردد، عليكم ارسال بعض إخوانكم مع تفويض كامل للمشاركة في مجمعنا العام الذي اقترب موعده، وأن يظهروا أمامنا مع الأول من تشرين الثاني، ووقتها يمكن مع نصيحتنا انتخاب، أو طلب رجل موائم ليكون رئيساً لأساقفتكم، أو أننا سوف نقوم منذ ذلك الوقت أنفسنا بتزويد كم برئيس أساقفة موائم لكم، ولسوف نتولى بشكل جدي انزال العقوبة بكل مخالف أومعارض، إذا وجد أي مخالف أو معارض، وستكون عقوبتنا بموجب العقوبات القانونية، وإذا ما أعطى سيمون المتقدم ذكره موافقته على هذا الإنتخاب، فإننا نرسم، كعقوبة لقبوله، أن يكون من الآن فصاعداً غير مؤهل، ولا يتمتع بالشرعية من الكرسي الرسولي، من أجل الانتخاب للمنصب الأسقفي، صدر في الثالث عشر من أيلول، في السنة الثامنة عشرة من بابويتنا».

تعليق ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

وبعد هذا مباشرة، توجه بطرس أسقف وينكستر، والمعلم باندولف، الصديق المقرب من مولانا البابا، شخصياً إلى رئيس أساقفة كانتربري،وأمراه نيابة عن البابا المذكور، بأن يطلب من أساقفته المساعدين التابعين لكنيسة كانتربري القيام بنشر حكم الكرسي الرسولي، الذي كان قد صدر في روما ضد بارونات انكلترا بشكل عام، وأن يقوم هو شخصياً أيضاً بذلك، بما أن واجبه يفرض عليه الاعلان عن ذلك في جميع أرجاء أسقفيته كل يوم أحد ويوم عيد، وكان رئيس الأساقفة آنذاك قد صعد ظهر سفينة ليذهب إلى روما، لحضور المجمع هناك، ولذلك طلب تأجيل الموضوع حتى يتمكن من الاجتماع مع البابا والتحادث معه، وأكد بشكل ثابت، أنه بالنسبة لنشر القرار، هناك قرار ضمني قد صدر ونشر بالفعل ضد البارونات، وأنه لا يمكنه تعميم القرار الجديد بأي شكل من الأشكال حتى يعلم ما يرغب به الحبر الأعظم حول المسائل المتقدم ذكرها، بكلمة الفم، ولدى رؤية الوكيلين المعهود إليهما بهذه القضية، أن رئيس الأساقفة لم يطع أوامر البابا، قاما بوساطة السلطات المخولة إليهما، بتعليقه ومنعه من الدخول إلى الكنيسة، وممارسة الصلوات اللاهوتية، وقد قام بمراعاة هذا بكل تواضع، وذهب إلى روما بمثابة أسقف معلق، ووقتها قام أسقف وينكستر مع أخيه النائب باندولف بإعلان أن جميع بارونات انكلترا، الذين سعوا إلى طرد الملك من مملكته، هم محرومين كنسياً، ونشروا القرار، وتفوهوا به ضدهم كل يوم أحد، وكل يوم عيد، لكن بما أن ما من أحد منهم قد ذكر بالاسم في قرار البابا، لم يهتموا مطلقاً بالقرار المذكور، بل عدوه فارغاً وبدون تأثير.

المجمع العام الذي عقده البابا انوسنت في روما

وفي العام نفسه، أي عام ١٢١٥م، جرى عقد مجمع مسكوني مقدس في شهر تشرين الثاني، في كنيسة المخلص المقدس في روما، وهي التي تعرف بالقسطنطينية، وقد ترأس مولانا البابا عليه في السنة الثامنة عشرة

من بابويتـه، وقـد حضره أربعمائـة واثني عشر أسقفـاً، وكـان بين الشخصيـات الرئيسيـة بين هؤلاء بطريركي القسطنطينيـة والقـدس، ولم يتمكن بطريرك أنطاكيـة من الحضـور، لأنه حبس بمرض شـديد، لكنه أرسل نائبـاً عنه هو أسقف طـرطوس، ولأن بطريرك الاسكندرية كـان تحت سلطان المسلمين، فقد بذل غاية جهده، حتى أرسل شماساً هو ابن عمـه —خـاله— مكانه، وكـان هناك سبعـة وسبعين رئيساً للأسـاقفـة ومطراناً بين الحضور، وأكثـر من ثمانمائة راعي دير ورئيس رهبـان، وأما وكلاء رؤسـاء الأساقفـة، والأساقفـة، ورعاة الديرة، ورؤسـاء الرهبان، وهيئات الكهنة، الذين كانوا غيـاباً، فعددهم ليس معروفاً، وكـان أيضاً بين الحضـور حشـد كبير من السفـراء من لدن امبراطور القسطنطينيـة، وملك صقليـة، التي انتخب امبراطوراً لرومـا، ومن انكلترا، وهنغـاريا، والقـدس، وقبرص، وأراغـون، مع أمـراء آخـرين، ونبـلاء، وأناس من مدن ومن أماكن أخرى.

وعندمـا اجتمع كل هؤلاء في المكان الذي تقدم ذكـره أعلاه، ووفقـاً لعادات المجامع المسكونية أخذ كل واحـد مكانه وفقاً لمرتبته، ألقى البابا أولاً خطاباً تشجيعيـاً، ثم تبع ذلـك قـراءة الستين بنداً على المجمع كله، وقـد بدت هذه البنود لبعضهـم مـوافقـة، ومملة لآخـرين، وشرع أخيراً يبشر حـول شؤون الصليب، واخضـاع الأرض المقـدسـة، وقد أضـاف مايلي:

«فضلاً عن هذا، مامن شيء قد حذف بالنسبة لقضية صليب المسيح، وإنها إرادتنا وأمرنا أن يقـوم البطاركة، ورؤسـاء الأساقفة، والأسـاقفة، ورعـاة الديرة، ورؤسـاء الرهبـان مع الآخـرين المعهـود إليهم بالمسـائل الروحية، بعرض مـوضوع الصليب إلى الناس الذين هم تحت رعايتهم، وإنني اتضرع باسم الأب والابن والروح القدس، الإله الواحـد وحده، والأبدي، إلى الملوك، والدوقـات، والأمـراء، والمركيـزات، والايرلات،

والبــارونات، والنبــلاء الآخــريـن، وإلى مجتمعــات المدن، والبلدات، والقرى، أنهم إذا كـانوا لايستطيعون الذهاب شخصياً لتقديم المسـاعدة إلى الأرض المقدسـة، أن يقومـوا بتجهيز عـدد مناسب من العساكـر مع جميع العتاد الضروري لمدة ثلاث سنوات، وذلك وفقـاً لوسائلهم، وهذا مقـابل اعفائهم من ذنوبهم، حسبما جـرى التعبير عن ذلك في الرسـائل العـامـة، وإرادتنا أيضـاً مـوجهـة إلى الذين يبنـون السفن من أجل هذا الهدف حيث أنهم سينالون نصيبهم من هـذا الإعفـاء من الذنوب، لكن بالنسبة لهؤلاء الذين يرفضون، إذا وجـد مثل هذا جاحدون، فإننا نعلن من جانبنا، أنهم من المؤكـد سوف يدفعون الحسـاب لنا في يوم الحساب العسير، للقاضي الصارم، وعليهم أن يقـدروا، قبل أن يقوموا بالرفض، بأية فـرصـة من الخلاص سوف يكـونون قادرين بها على الظهـور أمـام الرب الواحد، والابـن الوحيد الوليد للرب، الـذي الى يديه عهد الأب بجميع الأشياء، وذلك إذا ما رفضوا خـدمة ذلك المصلوب الوحيد، في خدمـاتهم الصحيحة، الذي بموجب عطائه هم مستحـوذون على الحياة، والذي هم بلطفه مدعومين، وبدمه قد جرى انقاذهم، ونحن من جانبنا نرغب في ضرب مثل لـلآخـرين، من أجل هـذه الأعمال، حيث سندفع ونمنح ثلاثين ألف بـاوند، إلى جـانـب أسطول، سـوف نـزود به الذين يريدون العبور من هذه المدينة، ومن المناطق المجاورة، وعلاوة على ذلك لقـد عيّنا لإنجـاز هذا، ثلاثة آلاف مارك من الفضـة، وهي التي بقيت لدينا من صـدقـات بعـض ذوي الإيمان الصحيح، وبما أننا نرغب في أن يشارك الأسـاقفة الآخرين للكنائس، وكذلك رجـال الدين بشكل عام، في كل من فضيلة ذلك وثوابه، رسمنا بأن يسهمـوا جميعاً مع كل الناس العـاديين والأسـاقفـة، من أجل مسـاعـدة الأرض المقـدسـة بجـزء من عشرين من مـواردهـم اللاهوتيـة لمدة ثلاثة أعـوام، ويستثنى من ذلك الذين حملوا الصليب، والذين على نيـة حمله، وقد انطلقـوا نحو الأرض المقـدسـة شخصيـاً، ونحن مع إخـواننا من الكرادلـة في كنيسـة رومـا

المقدسة، سوف ندفع عشر كامل من مواردنا، وتقضي أوامرنا أيضاً، بأن يبقى جميع رجـال الدين والعلمانيين، بعـد حملهم للصليب، آمنين تحت حمايتنا، وتحت حماية القديس بطرس، وأيضاً تحت حماية رؤساء الأساقفة والأساقفـة وجميع كهنة كنيسة الرب، وأن تكون ممتلكـاتهم أيضاً كما هي مـرتبـة، وتبقى كـذلك دون أن تلمس أو تتعـرض للاضطراب، وذلك حتى تاريخ الحصـول على معلومـات مـؤكـدة تتضمن خبر مـوتهم أو عودتهم، وإذا صدف وكان واحـد ممن سيذهب في هذه الصليبية مرتبطاً بيمين دفع فـائـدة، فإن المقـرضين سـوف يكونون مـرغمين بوسـاطة السلطات اللاهوتية على إعفائهم من يمينهم، وأن يتمنعوا عن استخراج الربا منهم، ونحن نشمل بهذا القـرار نفسـه اليهـود بوسـاطة السلطات المدنية، وذلك حتى يقتنعوا بفعل ذلـك، وعلاوة على ذلك ليكن معلوماً أن أسـاقفـة الكنيسـة الذيـن يهملون منح العـدالة إلى الصليبيين، أو إلى وكلائهم، أو إلى أسرهم، سـوف يواجهون عقوبات حـادة، وفضلاً على ماتقدم، لقـد قررنا —بناء على نصيحة رجال عقـلاء— أن الذين سوف يحملون الصليب هكذا، عليهم أن يعدوا أنفسهم للاحتشـاد في حزيران المقبل، والذين منهم قد قـرروا العبور بالبحـر عليهم الاحتشاد في مملكة صقليـة، وآخـرون في بـروندسيـوم Brundusium وبعضهم الآخر في مـرسيليا، وهي المكـان الذي قررنا، تحت احسـان الرب، أن نكون فيـه حـاضرين، حتى يمكن بوساطـة مساعـدتنا ورأينا، للجيش الصليبي أن ينتظم بشكـل صحيح، ومـن ثم ينطلـق مع تبريكـات الرب والكـرسي الرسـولي، ونحن نعهـد إلى رحمة الرب القـدير، وإلى سلطات الرسـولين المبـاركين: بطرس، وبولص، ونحن نمنـح بفضل السلطة التي أضفـاها الرب علينا —مع أننا لانستحق ذلـك، وهي سلطة الحل والربط— كل الذين انخـرطوا في هـذا العمل شخصيـاً، وعلى حسـابهم الذاتي، عفـواً كـاملاً عن ذنـوبهم التي سوف يكونون حقـاً نادمين عليهـا من قلوبهم، والتي سوف يعملـون اعترافاً بها، وكثواب على ذلك نحـن نعد زيادة في

خلاص أبدي، وإلى الذين لايأتون شخصياً للمشاركة، بل يرسلون على حسابهم أشخاصاً موائمين، وفقاً لإمكانياتهم، وأيضاً إلى الذين يأتون شخصياً، على حساب الآخرين، إننا مع ذلك نمنح عفواً عاماً عن ذنوبهم، وإنها إرادتنا أن يشمل هذا الغفران، الذين سوف يزودون من ممتلكاتهم الخاصة بعتاد خاص ومؤن لمساعدة تلك البلاد المذكورة، أو يقدمون نصائح معقولة، ومساعدات حول القضايا المتقدم ذكرها، وبالنسبة إلى جميع الذين سيذهبون في هذه الحملة، يضفي هذا المجمع المقدس والمسكوني عليهم نعمة صلواته ورغباته وأمانيه الطيبة، من أجل أن يتملكوا بشكل أفضل، خلاصاً دائماً، آمين».

الاتهام الذي عمل في روما ضدّ ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

برز في هذا المجمع راعي دير بولين Beaulien والفارسان توماس هاردنغتون Hardington وغيوفري دي كروكومب Crawcombe بمثابة وكلاء عن ملك انكلترا، ضد رئيس أساقفة كانتربري، واتهموه بشكل معلن بالتعاون مع البارونات الانكليز، وأكدوا أنه أبدى نحوهم التعاطف، وقدم النصيحة إلى البارونات المذكورين في محاولتهم لطرد الملك المذكور من عرش مملكته، ومع أنه تسلم رسائل من الكرسي الرسولي، تأمره بموجب الملامة اللاهوتية أن يوقف النبلاء عن اضطهادهم للملك، رفض أن يفعل ذلك، ولذلك جرى تعليقه من قبل أسقف وينكستر ورفاقه، ومنعه عن أداء الخدمات اللاهوتية، ومن دخول الكنيسة، ثم إنه بادر مسرعاً للقدوم إلى هذا المجمع، وبذلك أعطى برهاناً أظهر فيه نفسه أنه متمرد ضد الأوامر الرسولية، ولدى سماع رئيس الأساقفة لهذه الاتهامات ضده مع اتهامات أخرى، تصرف على الفور وكأنه قد أدين، واضطرب كثيراً، ولم يعط جواباً، سوى أنه طلب سحب التعليق، ويقال بأن البابا، عمل وهو مغضب هذه الاجابة قائلاً:

«إعلم ياأخانا، بحق القديس بطرس، إنك لن تحصل بسهولة على التحليل منا، بعدما أنزلت مثل هذا الأذى الكثير، ليس فقط بملك انكلترا، بل بكنيسة روما أيضاً، ولسوف نقوم بعد التداول مع إخواننا بتقرير كيف سنعاقب مثل هذه الخطيئة المتهورة»، وقام بعدما تناقش حول المسألة مع كرادلته بتثبيت قرار العقوبة الصادر ضد رئيس الأساقفة، بموجب الرسالة المكتوبة التالية:

تثبيت تعليق رئيس الأساقفة المذكور

«من انوسنت الأسقف إلى جميع الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتربري، تحيات، نحن نود أن يكون معلوماً من قبلكم جميعاً بشكل عام، أننا قد وافقنا على قرار التعليق الذي تفوه به أخانا المبجل ب. أسقف وينكستر، وأخانا ب. نائب الشماس المقرب منا والمنتخب لأسقفية نورويك، بموجب السلطات الرسولية، ضد ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، ونأمر بمراعاة هذا القرار وتطبيقه بدقة حتى يستحق رئيس الأساقفة المذكور —الذي طبق القرار على نفسه بكل تواضع— تحريره منه، على أن يقدم ضمانة تبعاً لنموذج الكنيسة، ووفقاً لقرارات الالتزام المفروضة على الآخرين، وبناء عليه إننا نأمركم بموجب هذه الرسائل الرسولية مع جميع الإخوان لديكم، أن تقوموا أنتم الأساقفة بمراعاة القرار المتقدم ذكره وتطبيقه، وأن لاتظهروا في الوقت نفسه أية طاعة لرئيس الأساقفة المذكور. صدر في اللاتيران في الرابع من تشرين الثاني هذا».

وبعد هذا قدم كهنة يورك المعلم سيمون لانغتون إلى البابا، طالبين تثبيت انتخابه، لكن البابا قال لهم:

«اعلموا أننا لانعدّه منتخباً، لأننا لعدة أسباب لن نسمح له بالترقية إلى مثل هذه المرتبة العالية، وبسبب أن ذلك الانتخاب قد عمل معاكساً

لتحـريمنا، فإننا نلغيه كليـاً، وندينه إلى الأبد، وإن قـرارنا يقضي أنه غير لائق شرعياً لأن ينتخب لمثل هذا المنصب الكهنوتي الرفيع من دون تحلة من الكرسي الرسـولي»، وإثر إلغـاء هذا الانتخـاب، أمـر البـابا الكهنة بالقيـام بإجـراءات انتخـاب آخـر، وإذا لم يفعلـوا ذلك هو سيقـوم بتزويدهم برئيس أسـاقفة مناسب لهم، وبناء عليه قـام الكهنة، بموجب التـوجيـه الذي تلقـوه، بانتخـاب وولترغـري أسقف ووركستر، وذلك بسبب —كما قالوا— نقاوته من الشهـوات الجسدية، لأنه استمر بالنقاء منذ ولادته حتى ذلك التاريخ، وعلى هذا أجابهم البابا المذكور:

«بحق القديس بطرس الطهـارة فضيلة عظيمة، ونحن نمنحكم إياه»، ولهذا بعدمـا تسلم الأسقف المذكور الطيلسـان، عاد إلى انكلترا، بعـدما ربط نفسـه، بـدفع مبلغ عشرة آلاف باوند من النقـود الاستيرلينيـة إلى بلاط روما، وبعدما أنجز الفارسـان: توماس هاردنغتون، وغيوفري دي كروكومب مهمتهما على هذه الصورة، عادا إلى انكلترا، وذهبا إلى الملك، الذي —كما تحدثنا من قبـل— كـان قـد أخضع قلعـة روكستر، وقـد قصـداه لإخبـاره بالأخبار الموافقـة، وفـرح الملك كثيراً في عقله، عندمـا سمع بأن بارونات انكلترا، قـد حـرمـوا كنسيـاً، وأن رئيـس أسـاقفـة كانتربـري قد جـرى تعليقه، وأن وولتر دي غري قـد جرت تـرقيته إلى رئاسة أساقفـة يورك، وأنه يمكنه أن يرتب الأمور، حسبما يشاء في قلعة روكستر، وبناء عليه قوض معسكره، وسار مسرعـاً نحو كنيسة القديس ألبـان، ولـدى وصـوله إلى ذلـك المكان، مضى إلى بيت هيئـة الكهنة، وبحضـور الرهبـان، أمـر بقراءة الرسـائل حـول تعليق رئيس أسـاقفـة كـانتربري وطالب على الفـور من رجـال المجمع الديري تثبيت التعليق المذكـور بأختـامهم، ومـن ثم إرسـاله إلى كنـائس انكلترا، وإلى الديرة، وكذلك إلى الكاتـدرائيات، ليتم نشره، ويصبح معروفـاً من قبل الناس، وإثر انتهـاء هيئـة الكهنة من هذا العمـل، ذهب مع عـدد قليـل من

مستشـاريه إلى داخل الدير، وعمل على إبداع خطط للإطاحـة بأعدائـه، ورتب الأمــور من أجل الدفع للأجـانب الذين كـانوا يقـاتلون تحت قيـادته، وبعـد ذلك قام الملـك بتوزيع جيشـه إلى قسمين، ليقـوم الشطر الأول بمهمة أعمال إنهاء اضطراب البـارونات الذين كانـوا مستقرين في مدينة لندن، في حين يتولى الشطر الثاني الذهاب تحت قيادته إلى الأجزاء الشمالية من انكلترا ليقـوم بالعيث فسادا بالمنطقـة كلها بالنار وبالسيف، ووقعت هذه الأحداث في كنيسة القـديس ألبان، في العشرين من كانون الأول، وكان القادة الذين جرى تعيينهم لقيـادة الجيش الذي تركه خلفه هم:وليم ايرل أوف سـالسبري، وهو أخـوه، وفـالكاسيـوس Fal-kasius وكان رجلاً خبيراً بالحرب، وسافاريل دي موليون مع جنود بواتو، ووليم بريوير Briwere مع جميع قـواتـه، ووولتر الذي لقبـه بوك Buck وهو الذي قـاد البرابانتيين، وكـان هنـاك آخـرون إلى جانبهم، حذفت ذكر أسمائهم.

كيف زحف الملك جون إلى الأجزاء الشمالية من انكلترا وعاث فساداً في تلك المنطقة

ثم غـادر الملـك جـون بلدة القـديس ألبـان، وزحف نحـو الشمال، واصطحب معـه: وليـم ايرل أوف ألبيمارل Albemarle وفيليب دي ألبيني، وجون مـارشال، والقادة من مناطق مـا وراء البحر: جيرارد دي سـوتنغين Sotengaine وغـودسيشـال Godeschal مع الفلمنكيين، ورجـال قسي زيارة مع أناس خـارجين على القـانون، ممن لا يخافـون الرب، أو يقيمـون تقديراً لانسـان، وقد استراح قليـلاً في تلك الليلة في دنستيبل Dunstable لكنه استأنف زحفه قبل انبلاج ضوء النهار باتجاه نورثأمبتـون ونشر قواته للقيـام باحراق بيـوت وأبنية البـارونات، حيث نهبهم وسلبهم كل مـا كـان فيهم مـن سلع ومـواشي، وبذلك دمـر كل شيء جاء في طريقه، وأعطى مشهداً مـرعباً لكل من شاهده، وحيث أن

النهار لم يقنع شرور الملك وشهوته لتدمير الممتلكات، أمر محرقيه بإلقاء النار في الأسيجة، والبلدات أثناء زحفه، حتى يمتع ناظريه بمشاهد الاتلاف التي لحقت بأعدائه، وأنه بوساطة السلب يمكنه أن يدعم عملاءه الأشرار في أعماله الظالمة، واتخذ جميع السكان من جميع الأوضاع والحالات والمراتب، الذين لم يلجأوا إلى ساحات الكنائس، أسرى، وبعد تعريضهم للعذاب أرغموا على دفع أتاوات ثقيلة، وكان شحن القلاع الذين تركوا مسؤولين عن حصون البارونات، عندما سمعوا باقتراب الملك، غادروا قلاعهم المتعذر احتلالها وهربوا إلى أماكن سرية، تاركين مؤنهم، ومختلف مخزوناتهم بمثابة غنيمة إلى أعدائهم القادمين، ووضع الملك أتباعه في هذه القلاع الفارغة، ووفق هذه الطريقة زحف مع أتباعه الأشرار إلى نوتنغهام.

أعمال السلب والنهب التي اقترفها جيشه في الجزء الجنوبي من انكلترا

وفي الوقت نفسه، كان وليم ايرل أوف سالسبري وفالكاسيوس مع العساكر التي تقدم ذكرها أعلاه، وهي التي تركها الملك معهما في بلدة سانت ألبان، قد أمرا ولاة قلاع: ويندسور، وهارتفورد، وبيركهامبستد، أن يمروا مع كتلة كبيرة من الجند من أمام مدينة لندن، ثم أن يعاودوا المرور لمراقبة البارونات ومضايقتهم، وللسعي لقطع المؤن والموارد عنهم، وبعد هذا نقلوا أنفسهم إلى كونتيات: اسكس، وهارتفورد، ومدلسكس، وكمبردج، وهنتنغدون، وجمعوا الأسلاب، وقاموا بأعمال النهب، وفرضوا غرامات على البلدات، وأخذوا أسرى من السكان، وأحرقوا أبنية البارونات، وأحرقوا الحدائق والحظائر، وقطعوا الأشجار في البساتين، ونشروا النار حتى ضواحي لندن، وحملوا معهم كميات هائلة من المنهوبات، وعندما قدم المراسلون من مختلف الأماكن يروون للبارونات جميع هذا ، نظر واحدهم نحو الآخر وقال :«الرب أعطى،

والرب انتزع وأخذ»،الخ وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني من هذا العام استولى فالكاسيوس على بلدة هامسليب Hamslape (لعلها هونسلو Hounslow) وكانت عائدة إلى وليم مودوت Moudut وجرى في اليوم نفسه الاستيلاء على قلعة تونبردج، وكانت ملكاً لايرل كلير، والذي تولى ذلك هي قوات شحنة قلعة روكستر، ووصل إثر ذلك مباشرة فالكاسيوس إلى قلعة بدفورد Bedford وطالب بتسليم القلعة من حاميتها، وحصلت الحامية على هدنة سبعة أيام، ولدى عدم تلقيها أية مساعدة من مولاها وليم دي بوشامب Beauchamp خلال ذلك الوقت، استسلمت الحامية وسلمت القلعة إلى فالكاسيوس المذكور في اليوم الثاني من كانون أول.

استسلام قلعة بيلفيور إلى الملك

عام ١٢١٦م، كان هو العام الثامن عشر من حكم الملك جون، ففي يوم عيد الميلاد كان في قلعة نوتنغهام، وقد نقل في اليوم التالي معسكره وارتحل فوصل إلى بلدة لانغر Langer حيث أمضى الليل هناك، وأرسل في الصباح رسلاً خاصين ومع تهديدات طالب بتسليم قلعة بيلفيور Belvoir من حاميتها، وكانت القلعة تحت عهدة نيقولا، وهو كاهن وابن لوليم دي ألبيني، مع الفارسين: وليم ستدهام Stud-ham وهيوج دي تشارنيل Charneles الذي سأل على الفور عن رأي رفاقه الفرسان وأتباعه، عما ينبغي فعله، لأنهم أخبروا من قبل رسل الملك على لسانه، أنه إذا ما تسلم اشارة واحدة عن رفضهم التسليم، فإن وليم دي ألبيني سوف لن يأكل ثانية، بل سوف يموت بشكل مهين، وعلى هذا كان وضع المحاصرين حرجاً من جميع الجوانب، ولم يعرفوا ما الذي عليهم أن يفعلوه، وبعد طول وقت أشار الجميع ووافقوا على انقاذ مولاهم من ميتة تعيسة، بتسليم القلعة، بدلاً من البقاء فيها، ومن ثم يفقدون مولاهم وبعد ذلك القلعة، ثم أخذ

نيقولادي ألبيني، وهيوج دي تشارنيل مفاتيح القلعة معهما وذهبا إلى الملك في لانغر، وسلما القلعة إليه على شرط أن يتعامل بشكل رحيم مع مولاهم، وأن يبقيا هما نفسيهما آمنين تحت حمايته، وبناء عليه جاء الملك في اليوم التالي إلى القلعة، وكان اليوم هو يوم عيد القديس جون الانجيلي، وبعدما تسلمها الملك عهد بها إلى غيوفري وأوليفردي بوتفيل Butevilleوكانا أخوين قدما من بواتو، وبعدما أقسم الجميع له يمين التابعية ويمين الطاعة المخلصة، منحهم رسائله موثقة، ضمن فيها لهم أماناً على جميع ممتلكاتهم.

أنواع العذاب التي عانى منها الشعب المسيحي

وقدم في الوقت نفسه شطر من جيش الملك إلى دوفنغتون، وكانت بلدة عائدة إلى جون دي لاسي، وقد وجدها الجنود غير مدافع عنها، فهدموها إلى الأرض، بأمر من الملك، وتوزع بعد هذا، هذا الجيش الشرير، وزحف نحو المقطاعات الشمالية، حيث أحرق الأبنية العائدة إلى البارونات، وسلب مواشيهم، ونهب ممتلكاتهم، ودمر كل شيء وصل إليه بالسيف، وتغطى وجه الأرض كلها بأطراف هؤلاء الشياطين، مثل الجراد الذي يتجمع من مناطق نائية لاقتلاع كل شيء من على وجه الأرض من البشر إلى المواشي، لأنهم كانوا يسعون هنا وهناك بسيوف مجردة، وخناجر مكشوفة، وقد نهبوا ودمروا البلدات، والبيوت، والأسيجة، والكنائس، ونهبوا كل انسان، ولم يوفروا لاامرأةولا طفل، وكانوا حيثما وجدوا أعداء الملك سجنوهم وغلوهم بالسلاسل، وأرغموهم على دفع غرامات ثقيلة، حتى الكهنة، عندما كانوا واقفين أمام المذابح نفسها،مع صليب الرب بأيديهم، وهم يرتدون الأردية المقدسة، جرى اعتقالهم، وتعذيبهم، وسلبهم، ومعاملتهم بالسوء، ولم يعد هناك لا أسقف، ولا كاهن ولا قسيس ليصب الزيت أو الخمرة على جراحهم، وأنزلوا عذاباً مشابهاً بالفرسان وبالآخرين من

كل وضع من الأوضاع، وعلقوا بعضهم من أوساطهم، وبعضهم من أقدامهم ومن أرجلهم، وبعضهم من أيديهم، وبعضهم من أصابعهم وأذرعتهم، ثم رموا ملحاً ممزوجاً بالخل في أعين هؤلاء التعساء، غير آخذين بعين التقدير أنهم خلقوا وفق صورة الرب، وكانوا متميزين بحملهم لاسم مسيحيين، ووضعوا آخرين فوق مراجل أو مشاوي، على نار فحم حامية، ثم قاموا بتغطيس أجسادهم المشوية بمياه باردة، وبذلك قتلوهم، وأثناء عمليات التعذيب كان إذا صرخ بعض هؤلاء التعساء بصرخات مؤلمة، وبأنات مرعبة، لم يكن هناك من أظهر نحوهم أية رحمة، ولم يكن هناك من شيء يقنع معذبيهم ويرضيهم غير المال، وقام عدد كبير بإعطاء جميع مقتنياتهم الدنيوية إلى معذبيهم، ومع ذلك لم يصدقوهم عندما أعطوهم كل شيء، أما الذين لم يمتلكوا شيئاً، فقد أعطوهم كثيراً من الوعود، من أجل أن يخففوا عنهم العذاب، أو على الأقل يوقفوه قليلاً، وهو العذاب الذي عانوا منه كثيراً، وكانت أعمال التعذيب هذه عامة ومنتشرة في جميع أرجاء انكلترا من قبل مواطنين آخرين، وتوقفت الأسواق وأعمال النقل والسفر، وعرضت البضائع للبيع في ساحات الكنائس فقط، وتوقفت أعمال الزراعة وتعطلت، وما من أحد تجرأ على الذهاب أبعد من حدود الكنائس، وفي هذه الآلام، التي تسببها البارونات، كان هؤلاء أنفسهم جالسين في لندن مثل نساء في آلام المخاض، مولين كل اهتمامهم إلى طعامهم وشرابهم، ومفكرين فقط بالملذات الجديدة التي يمكن أن توضع أمامهم، كي ترفع مشاعرهم بالغثيان، ولكي تعطيهم شهية جديدة، ومع أنهم تراخوا، لم ينم الملك حتى حصل على جميع أراضيهم، وممتلكاتهم، وقلاعهم، وبلداتهم، وسلطاتهم من الجنوب حتى البحر الاسكوتلندي.

حول الذين جرى تعيينهم حكاماً للقلاع المستولى عليها

عندما أصبحت ممتلكات البارونات المتقدم ذكرها معروضة تحت

تصرف الملك، عهـد الملك بـالمنطقـة الممتـدة مـابين نهر تيـز Tees وسكوتلندا مـع الممتلكات والقـلاع إلى هيـوج دي بـاليـول Baliol وفيليب دي أولكوت Ulcote ، وأعطاهما مـايكفـي من فـرسـان وجنود للدفاع عن ذلك الجزء من المنطقة، وعين في مدينة يورك روبرت أولبردج، وبرين دي لآيل، وغيـوفـري دي لاسي، وكلفهم بحـراسـة ممتلكات القلاع، وأعطاهم جنوداً، وأعطى إلى وليم ايرل ألبمارل -Albe marle حكم قلعتي روكنغهـام Rockingham وسوفي Sauvey وقلعة اسمهـا بيهام Biham ، كانت ملكاً لوليم دي كولفيل -Cole ville، وأسند إلى فـالكاسيـوس حكم قـلاع: أكسفـورد، ونورثأمبتـون، وبدفـورد، وكمبردج، وأعطى إلى رالف لى تايري Tyris قلعة بيركها مبستد، وعهد بالوصاية على قلعة هارتفورد إلى وولتر دي غدرفيل -Go darville ، وكان فارساً يعمل في خدمة فالكاسيوس، وأعطى الملك إلى هؤلاء وإلى سـواهم في جميع أرجـاء انكلترا، بما أنهم يقـدرون قيمـة أجسادهم وممتلكاتهم وعهد، أن يقومـوا بتدمير ممتلكات البارونات، أي أن يتولوا تدمير قـلاعهم، وأبنيتهم، وبلداتهم، وحدائقهم، وحظـائرهم، وبحيراتهم، وطواحينهم، ومثلما هو قـد بـدأ، أن يقـومـوا بانهاء الأعمال والمهـام بوحشية مسـاوية، ولأنهم لم يتجرأوا على معـارضة أوامـر الملك مارسوا من الوحشية بقـدر ماعينه لهم، أي جعلوا أمام مشهد من الناس أجمعين بيـوت البارونات وممتلكاتهم الأخـرى منظراً محزنا، وهكذا عـاد الملك من الشمال بعـدما رتب كل شيء وفقـاً لرغباته، وكـان الذي بقي تحت سلطة البارونات هناك قلعتي مـونتسوريل Montsorrel ، وقلعة أخرى كانت ملكاً لروبرت دي روز Roos في كونتية يورك، وبعدما أخضـع تلـك المنطقـة بوساطـة مـذبحة مـرعبة، سـار على طول حدود ويلز إلى المقـاطعـات الجنوبيـة، وطبـق وحشيتـه على جميـع الذين عـارضـوه، وحـاصر عدداً مـن القلاع واستـولى عليهـا وانتـزعهـا من أعـدائـه، وقـد دمـر بعضـاً من هذه القـلاع، وشحن بعضهـا الآخـر

بجنوده.

الحرمان الخاص للبارونات

وفي هذه الآونة جرى حرمان البارونات الانكليز -الذين سلف حرمانهم بشكل عام، من قبل الحبر الأعظم، لصالح ملك انكلترا -حرماناً فرديا، وفق الشروط التالية: «من انوسنت الأسقف، إلى راعي دير أبنغدون Abingdon ، ورئيس شمامسة بواتو، والمعلم روبرت المسؤول الرسمي عن كنيسة نورويك، تحيات: نحن نرغب في أن تعلموا بأننا قمنا في مجمعنا المسكوني الأخير، نيابة عن الرب القدير الأب، والابن، وروح القدس، وبوساطة سلطات الرسولين بطرس وبولص، وبوساطة سلطاتنا، بحرمان وبلعن بارونات انكلترا مع معاونيهم ومؤيديهم، بسبب اضطهادهم جون الملك الشهير للانكليز، الذي هو ملك قد حمل الصليب، والذي هو من الأتباع الاقطاعيين لكنيسة روما، ولمحاولتهم بوضعهم الحالي انتزاع المملكة منه، التي من المعروف أنها ملك للكنيسة الرومانية، وعلاوة على ذلك لقد حرمنا كنسيا ولعنا وشجبنا جميع الذين قدموا مساعداتهم أو أموالهم في سبيل مهاجمة تلك المملكة، أو لإعاقة الذين ذهبوا لمساعدةالملك المذكور، ونحن نضع أراضي البارونات المذكورين تحت الحرمان من شراكة المؤمنين في الكنيسة، ولسوف نضربهم بأيدينا بشدة أعظم إن لم يقلعوا عن نواياهم، ذلك أنهم في هذا المجال أسوأ من المسلمين، وإنه قرارنا في أن أي كاهن من أي مرتبة أو طائفة، إذا ماتجرأ على خرق قراراتنا المذكورة في الحرمان الكنسي، والحرمان من شراكة المؤمنين، ليكن معلوماً لديه وليكن متأكداً بأنه سوف يضرب بسيف الحرمان من شراكة المؤمنين، وسوف يخلع من كل منصب ومرتبة، وبناء عليه، اننا نعهد إليكم وإلى اخلاصكم، بموجب هذه الرسائل الرسولية القيام بنشر القرارات المتقدم ذكرها في جميع أرجاء انكلترا، والعمل بموجب

سلطاتنا على جعل هذه القرارات مرعية التنفيذ، دون تعرضها للخرق، أو إلى الترافع والشكوى ضدها بأي شكل من الأشكال، وعلاوة على ذلك، إن ارادتنا وأوامرنا تقضي أن تقوموا بموجب السلطات الرسولية بتوجيه الملامة بشكل علني، في جميع أرجاء انكلترا إلى بعض نبلاء انكلترا بحكم أنهم محرومين كنسيا، وأن تتدبروا بكل دقة تجنبهم من قبل الجميع ومقاطعتهم، وهؤلاء النبلاء هم الذين أعلن أسقف وينكستر، وابننا المحبوب كثيراً في الرب، راعي دير ردنغ، والمعلم باندولف، نائب الشماس التابع لنا، والصديق المقرب إلينا، والمفوض من قبلنا، حرمانهم كنسيا شخصياً، بسبب أنهم وجدوهم مجرمين في المسائل المتقدم ذكرها، وهؤلاء هم: سكان لندن، الذين كانوا المحرضين الرئيسين للجرائم المتقدم ذكرها، وروبرت فتز -وولتر، وس. S ايرل وينكستر، ور. R ابنه، وغ. G دي ماندفيل، وأخيه وليم، ور. R ايرل أوف كلير، وغ. G ابنه، وهـ. H . ايرل أوف هيرفورد، ور. R. دي بيرسي، وإ. E دي فيسكي، وج. له مفوض أوف شيستر، ووليم دي ماوبري Mowbray، ووليم دي ألبيني، وو. W ابنه، ور. R دي روز، ووليم ابنه، وب. P دي بروز، ور. R دي كريسي Cressy ، وجون ابنه، ورالف فتز -روبرت، ور.R ايرل بيغود، وهـ .H ابنه، وروبرت دي وير، وفولك فتز -وارن، وو.W ماليت، وو.W دي مونتأكيوت، وو.W فتز -مارشال، وو.W دي بوشامب Beau-champ ، وس. S دي كايم، ور. R دي مونت بيغون، ونيقولا دي ستوتفيل، وآخرين أيضاً ورد ذكرهم بالاسم في المرسوم، بمثابة مجرمين لاقترافهم الجرائم المتقدم ذكرها مع معاونيهم ومموليهم، وعليكم في كل يوم أحد، ويوم عيد القيام بشكل مهيب باعادة نشر القرار المذكور والأمر بالتقيد به بكل دقة، وأن تضعوا مدينة لندن تحت الحرمان من شراكة المؤمنين في الكنيسة، وأن تضعوا جانباً جميع مرافعات الشكوى، وأن توقفوا جميع أحاديث التذمر والشكوى

والمعارضة، تحت طائلة إنزال العقوبات الكنسية وتطبيقها، ونحن نأمركم بأن تقوموا بشجب المعلم غير فيس Gervase مستشار لندن، بحكم كونه محروماً كنسيا، الذي -كما سمعنا من المحكمين المتقدم ذكرهم- كان أكثر المضطهدين علانية للملك المذكور ولأتباعه، وعليكم تهديده بعقوبات أكثر شدة مالم يقم بالابتعاد عن أتباعه المعتدين، وإذا لم يلتزم الجميع، الخ، صدر في اللاتيران في اليوم السادس عشر من كانون الأول، في السنة الثامنة عشرة من بابويتنا».

تطبيق قرار العقوبات المتقدم ذكره

ولدى تسلم الرسائل التي تقدم ذكرها من قبل المحكمين، كتب البابا أيضاً إلى جميع كنائس انكلترا، وكاتدرائياتها، وديرتها يأمرهم بمايلي: «من انوسنت أسقف، الخ، نحن نأمركم بكل دقة بموجب وصايتنا هذه القيام بشجب بارونات انكلترا مع جميع معاونيهم ومحرضيهم بحكم كونهم محرومين كنسيا، وهم الذين قاموا باضطهاد مولاهم، الملك جون، ملك انكلترا، مع جميع الذين قدموا إليهم يد العون، أو المال، في سبيل الاستيلاء، أو الهجوم على المملكة المذكورة، أو عملوا على إعاقة الذين يذهبون لمساعدة الملك المذكور، وأن تعلنوا في أراضي البارونات المذكورين، بأنهم قد وضعوا تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنين، وأن تقوموا بشجب جميع البارونات الذين ورد ذكرهم أعلاه في رسالة مولانا البابا، وذلك بالاسم، بحكم كونهم محرومين كنسياً، مع جميع الآخرين الذين ورد ذكرهم بالاسم في قرار المحكمين المذكورين، وهم: وولتر دي نورتون، وأوسبرت فتز -آلان، وأولفر دي فوكس، وهـ. H دي بريبروك، ور.R دي روبل Ropele، وو. W دي هوبرجي Hobregge، وو. W دي موددييت Mauduit ، وموريس دي غانت Gant، ور. R دي بيركلي Berkley، وآدم أوف لنكولن، ور. R دي ماندفيل، وو. W دي لانفالي Lanvaley، وفيليب فتز -جون،

ووليم دي تونتونا Twintuna، وو.W دي هنتنغفيلد Huntingfield والاسكندر دي بونتون Puintune ، ور. R دي مونفكت -Mun fichet، ور. R دي غريسلي Gresley، وغيوفري مفوض أوف مينتون Meantune، وو. W رئيس شمامسة هيرفورد، وج. J دي فيربي Fereby، ور.R قسيس روبرت فتز -وولتر، والاسكندر دي سوتون Suttune، وو. W دي كولفيل Coleville، ور. R ابنه، وأوسبرت دي بوبي Bobi، وأوسبرت، وجيفارد، ونيقولا دي ستوتفيل Stuteville، وتوماس دي ميولتون Muletune، وسكان لندن، والمعلم غ.G المستشار، وأن تعلنوا بشكل عام بأن مدينة لندن موضوعة تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنين، وعليكم العمل على نشر قراري الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، وتجديد اعلانهما بشكل مهيب في كل يوم أحد ويوم عيد، في الكنائس وكذلك في الديرة بحكم كونها مدارس أبرشية تابعة لكم، وأن تنفذوا بشكل دقيق كل بند من بنود الوصاية الرسولية، وأن ترعوها بشكل صحيح من قبل أنفسكم ومن جانبكم، حتى لاتتعرضوا لملامة الكنيسة، التي هي جديرة بالعصاة، وداعاً».

وعندما جرى نشر قراري الحرمان الكنسي، والحرمان من شراكة المؤمنين هذين في جميع أنحاء انكلترا، وأصبحامعروفين من قبل الجميع، عاملتهما مدينة لندن وحدها من دون قبول لأن البارونات قرروا عدم الاعتراف بهما وتطبيقهما، وأن لايقوم الكنهة بنشرهما، لأنهم قالوا بين أنفسهم، بأن الرسائل جميعها قد جرى الحصول عليها تحت تمثيل زائف، ولذلك هي بلا أهمية ولسبب رئيسي مهم آخر هو أن إدارة الشؤون المدنية ليست عائدة إلى البابا، لأن الرسول بطرس وخلفائه قد عهد إليهم من قبل الرب بإدارة القضايا الكنسية والاشراف عليها، ولذلك لم يقيموا أي تقدير على الاطلاق لقرار الحرمان من شراكة المؤمنين أو

لقـرار الحرمـان الكنسي، بل أقـامـوا العبـادات في المدينة كلهـا، وكـانوا يقرعون النواقيس، ويرتلون بأصوات مرتفعة.

العيث فساداً في جزيرة إيلاي

وفي الوقت نفسه دخل وولتر بروس مـع البرابانتيين إلى جزيرة إيلاي من قـرب هيربي Herebeie ونهب جميع الكنائس في تلك الجزيرة، وأرغم السكان بأقسى أنواع العـذاب على دفع غرامـات ثقيلة، ولم يكن هناك مكان لـلالتجـاء يمكنهم أن يضعـوا فيـه ممتلكـاتهم لابل حتى أنفسهم، للحماية من الخطر، لأن ايرل أوف سالسبري وفالكاسيوس مع سافـاريك دي موليون قدمـوا من المناطق المجاورة، ودخلوا إلى الجزيرة بوساطـة جسر ستونتني Stunteney ، وعاثـوا فساداً بالمنطقـة كلها، ونهبـوا الكنائس واستـولوا على كل مـاتركـه النهابون المتقـدم ذكـرهم، ودخلوا أخيراً إلى الكنيسـة الكاتدرائية بسيـوف مجردة، وبعـدما نهبـوها تمكن رئيس المكان بصعوبة من انقاذها من الاحراق بدفع تسعة ماركات من الفضة، وجـرى سحب اللورد ستيفن رايدل Ridel من الكنيسة بالقوة، وفقد كل الذي امتلكه من خيول، وكتب، وأثاث منزلي، وسلع، وأواني، وحفظ بصعـوبة بالغـة نفسـه من التعذيـب، بدفع مائـة مـارك، وجرى اعتقال خمسة عشر فـارساً في هذه الجزيرة، مع آخرين من مختلف الأحوال والمراتب، وقام الأغنياء، والأكثر نبـلاً من الفرسان بالنجاة عبر البحر، وهربـوا بعد صعوبات كبيرة إلى لندن، وعلى كـل حال لم يتمكن بعض هؤلاء مـن اكمال رحلتهم بسبب اخفـاق خيـولهم من الضعف، وأخـــذوا أسرى، وهكذا وقـع كـل شيء في الجزيرة بـأيدي هـؤلاء اللصوص من دون معارضة.

كيف اختار بارونات انكلترا لويس ليكون ملكهم

أمـا وقد فقـد بارونات انكلترا كل شيء له قيمة لديهم في الدنيـا، كما

وضح من الرواية المتقدمة، وانعدم لديهم كل أمل بتحسن الأحوال، وباسترداد مافقدوه بوسائطهم، فكانوا في مأزق ولم يعرفوا كيف يعملون، ولذلك قرروا أخيرا، بموافقة عامة اختيار رجل قوي ليكون ملكاً، يتمكنون بوسائله من استرداد ممتلكاتهم، وامتيازاتهم السالفة، وبعد تردد طويل حول قرار من عليهم اختياره، قرروا بالاجماع تعيين لويس بن فيليب الملك الفرنسي ليكون حاكمهم، وليرفعوه إلى عرش انكلترا، وكان دافعهم الأساسي لهذا هو أن أفراد حشد الأجانب الذين أحاط بهم ملك انكلترا نفسه، كان معظمهم تحت حكم لويس وأبيه، وإذا ما أمكن بوساطة امكانيات هذين الملكين حرمان جون من مساعدتهم، فإنه سيترك معزولاً في الداخل وفي الخارج، وسوف يترك لوحده، غير قادر على التصدي لهم ومقاومتهم، وكان هذا القرار مرضياً لهم جميعاً، فأرسلوا س. S ايرل أوف وينكسر، وروبرت فتز - وولتر كمبعوثين خاصين إلى الملك فيليب وإلى ابنه لويس مع رسائل ممهورة بأختام جميع البارونات، يلتمسون بحرارة من الملك الأب أن يرسل ابنه ليحكم في انكلترا، وأن يأتي الابن ليأخذ التاج، وأسرع هذان الرسولان وأوصلا على الفور الرسائل إلى الملك الفرنسي، وإلى ابنه لويس، لكن فيليب، بعدما قرأ الرسائل، وفهم مقاصدهم، أخبر الرسولين بجوابه بأنه لن يرسل ابنه قبل—من أجل ضمانة كبرى— أن يتسلم رهائن جيدين من البارونات يكون عددهم على الأقل أربعة وعشرين، من أكثر الناس تميزاً في جميع المملكة، وبعد سماع الرسولين لهذا، أسرعا عائدين بقدر ما هو ممكن، وذكرا للبارونات الجواب الذي تلقياه، وعندما لم يجد البارونات حلاً آخر، أرسلوا الرهائن إلى الملك الفرنسي، وكان ذلك تلبية لرغباته وفق العدد الذي ورد ذكره أعلاه، ولدى وصول الرهائن، وضعوا في حبس أمين في كومبين، وتشجع لويس بهذا، فأعد عدته من أجل الحملة التي رغب بانجازها فوق كل شيء، لكن بما ان مغادرته للقيام بمثل هذه الحملة الصعبة كان لا يمكن

انجازها بسرعة، بعث قبل سفره رسلاً إلى البارونات لاعطائهم الأمل، وأيضاً لتجريب ولائهم، وكانت أسماء رسله هي: قسطلان القديس أومر، وقسطلان أراس Arras وهيوج ثاكون Thacun ويوستاس دي نيفل Neville وبلدوين بريتيل Bretel وو.W دي وايمز wims وجايلزدي ميلون Melunوو.Wدي بومونت -Beau mont،وجايلز دي هيرسي Hersi ، وبيزت دي فيرسي Biset de Fers، ووصل هؤلاء جميعاً مع حاشية كبيرة من الفرسان والأتباع إلى نهر التيمز، وللسرور العظيم للبارونات، وصلوا إلى لندن في السابع والعشرين من شباط.

وأعطى في هذه السنة ستيفن رئيس أساقفة كانتربري ضمانات في روما بأنه سوف يلتزم بقرار البابا حول القضايا التي تقدم ذكرها، فجرى تحريره من تعليقه، إنما على شرط أنه لن يذهب إلى إنكلترا، قبل استرداد السلام الكامل بين الملك والبارونات.

تجديد القرار الصادر ضد البارونات لتمردهم

وفي العام نفسه، رأى في أيام عيد الفصح راعي دير أبينغدون Abingdon ورفاقه من المحكمين استمرار تمرد البارونات مع سكان لندن، فأنزلوا بهم ضربات أشد وأثقل، وتولوا إعادة القرار، وأعطوا أوامر إلى جميع الكنائس الديرية في انكلترا لنشر القرار الذي كان قد صدر، وفق الصيغة التالية:«من هـ .H بنعمة الرب راعي دير أبينغدون، الخ في متابعة لتنفيذ أوامر الوصاية الرسولية المفروضة علينا، ومثلما كان مقصدنا في رسائلنا التي حولناها إليكم مؤخراً، نريد أن نفهمكم باستيعاب أكبر، أننا لم نقم هذه المرة فقط، بل غالباً ما أرسلنا رسائلنا تحتوي كلمات مرسوم مولانا البابا إلى هيئة كهنة القديس بولص، والقديس مارتن، وإلى غ. G دي بوكلاندي Boclande عميد الكنيسة المذكور، وإلى المجمع الديري للثالوث المقدس في لندن،

نأمرهم بوساطة السلطة الرسولية بالقيام على الفور بنشر قرارات الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، وعدم خرق مراعاتها وتنفيذها، وهي قرارات الحرمان التي صدرت ضد مضطهدي الملك المذكور، وضد مدينة لندن، ذلك أنهم قاموا من دون احترام بعدم تنفيذ قرار الوصاية الرسولية، وتحدوها، وقاموا بتمرد برفض نشر القرارات المذكورة، لا بل حتى بعدم الاعتراف بها، وتولوا وهم على دراية ومعرفة بالمساهمة في الخدمات اللاهوتية مع أولئك المحرومين كنسيا، وبذلك عبروا في كل جانب من الجوانب على أنهم خارقين لمراسيم مولانا البابا ورافضين بشكل علني لوصايته، الأمر الذي نحن على دراية كاملة به بوساطة رسائل موثقة من هيئة كهنة القديس بولص والقديس مارتن، وقد أرسلت خصيصاً إلينا من قبل كهنة ورسل العميد المذكور، وببراهين أخرى كافية، علاوة على ذلك وصل مؤخراً من المملكة الفرنسية بعض النبلاء مع عصبة من الفرسان المسلحين والأتباع، الذين نرغب في أن يغلوا جميعاً ويقيدوا بقرار الحرمان الكنسي، لأنهم يقومون بغزو مملكة انكلترا مراغمة لمولانا البابا وللكنيسة الرومانية، وهم ينبهونها يومياً، وجزئياً يحتفظون بتملكها، وبناء عليه إنه بموجب السلطات الرسولية، التي إلينا قد عهد بواجباتها وبأعمالها، نحن نشجب النبلاء المذكورين بمثابة محرومين كنسيا، وهم: قسطلان القديس أومر، وهيوج ثاكون، ويوستاس دي نيفيل، وقسطلان أراس Aras وبلدوين بريتيل، وو. W دي وايمز، وجايل دي ميلون، وو .W برمونت، وجايل دي هيرسي، وبيست دي فيرسي، مع معاونيهم، وجميع الذين منحوهم مساعدتهم، أو أموالهم، ضد الملك، لغزو مملكة انكلترا، والاستيلاء عليها، وكذلك العميد المذكور أعلاه، وكذلك جميع الكهنة ورجال الدين من كل مرتبة وطائفة في الكنائس المتقدم ذكرها، والمدينة ،الذين علموا بقرار الوصاية، وقاموا إما بتغييب أنفسهم، أو استخدموا كل وسيلة ، لمنع وصول القرارات إليهم

وتبلغهم بها، وبالسلطة نفسها نفرض عليكم أيضاً القيام بشجب جميع الذين تقدم ذكرهم أعلاه، بحكم كونهم محرومين كنسياً، وأن تتدبروا نشر ذلك في جميع أرجاء أبرشيتكم، وذكر العميد بالاسم وكذلك ذكر النبلاء المتقدم ذكرهم، وإنه باظهاركم الاهتمام بهذه القضية، وكذلك تلك التي وردت في رسائله الأولى إليكم، يمكنكم تجنب الاتهام بالاهمال لدى الحبر الأعظم، وبالحري نيل الاطراء والسمعة لديه من أجل يقظتكم، وداعاً».

كيف أرسل لويس رسائل تطمين إلى البارونات

وفي هذه الآونة كتب لويس إلى البارونات الذي كانوا مقيمين في لندن، وإلى سكان المدينة كما يلي:«من لويس الابن الأسن للملك فيليب، إلى جميع أصدقائه وحلفائه في لندن، الصحة وأفضل التمنيات، كونوا متأكدين أننا لدى اقتراب أحد الفصح سوف نكون جاهزين في كالي، بفضل الرب، وذلك من أجل عبور البحر، وبما أنكم تصرفتم بأنفسكم بتماسك وشجاعة في جميع شؤونكم، إننا بالمقابل نرسل إليكم وفرة من الشكر، ونحن نطلب منكم بإخلاص ونسألكم الاستمرار كما فعلتم دوماً، وتصرفتم بأنفسكم بكل شجاعة، ونحن نود أيضاً أن تكونوا متأكدين أننا سنكون لديكم خلال وقت قصير لمساعدتكم، ونحن نرجوكم باخلاص بالنسبة لهذه القضية، أن لا تثقوا بالاقتراحات الأخرى الزائفة، أو بالمكاتيب أو بالرسائل، لأننا نعتقد أنكم سوف تتسلمون رسائل مزيفة، ورسلاً مضللين، وداعاً».

وفي هذه الآونة خرج البارونات من لندن،وتوجهوا على شكل جماعة واحدة مع الفرسان الذين وصلوا مؤخراً من فرنسا للتمتع برياضة التبارز بالرماح فقط، ولبسوا دروعهم، وبعد إمضاء جزء كبير من النهار في حث خيولهم على الركض بسرعة، وطعن أحدهم الآخر برماحهم سدد واحد من الفرسان الفرنسيين رمحه ضد غيوفري دي

ماندفيل ايرل أوف اسكس وأصابه بجراحة قاتلة، وقام الايرل على كل حال بالعفو عن الرجل الذي جرحه، وبعد مضي عدة أيام مات، مما سبب حزن كثيرين عليه.

كيف قدم والو بمثابة ممثل للبابا إلى الملك الفرنسي

وفي تلك الآونة نفسها، جرى إرسال المعلم والو Walo من قبل البابا إلى فرنسا مع سلطات رسولية لمنع لويس من الزحف إلى انكلترا، ولدى وصوله إلى الملك فيليب قدم إليه رسائل استنكار من البابا، كانت محتوياتهاوأهدافها أن لا يسمح لابنه لويس بالذهاب إلى انكلترا كعدو، أو أن يقوم بالتضييق على الملك الانكليزي بأية طريقة من الطرق، بل أن يحميه ويحبه، لأنه تابع لكنيسة روما، وبحكم أنه رجل مملكته وحق حكمها عائد إلى كنيسة روما المذكورة، وفور قراءة الملك الفرنسي لهذه الرسائل أجاب:«لم تكن مملكة انكلترا قط ميراثاً لبطرس، وليست هي الآن، ولن تكون، لأن الملك جون، قد حاول منذ وقت طويل مضى، ظلماً انتزاع مملكة انكلترا من أخيه الملك رتشارد، ولذلك اتهم بالخيانة، وأدين بها بحضور ذلك الملك نفسه، وحكم عليه بموجب قرار صدر عن ذلك الملك نفسه في بلاطه، وقد تفوه بقرار الحكم هيوج دي بوساز Pusaz أسقف درم، ولذلك هو ليس ملكاً حقيقياً، ولا يمكنه التنازل عن مملكته، بالاضافة إلى ذلك هو لم يكن قط ملكاً شرعياً، ثم إنه خسر مملكته فيما بعد بقتله لآرثر، ولهذه الفعلة أدين في محكمة بلاطنا» ثم إنه قال أنه ما من ملك أو أمير يمكنه تسليم مملكته والتنازل عنها من دون موافقة باروناته، الذين مفروض عليهم الدفاع عن تلك المملكة، وإذا كان البابا مصر على الدفاع عن تلك الخطيئة، سوف يكون ذلك مثلاً على درجة عالية من السوء بالنسبة إلى جميع الممالك، ووقتها أبدى النبلاء معارضتهم وعبروا عن ذلك بصوت واحد، بأنهم سوف يعارضون تلك المسألة حتى الموت، والمقصود بذلك،

قيام ملك أو أمير وتمكنه حسب أهوائه وحده، بالتنازل عن مملكته، أو بجعلها تدفع الجزية وتحت سلطان هواها، لأن ذلك سوف يجعل نبلاء المملكة عبيداً، ووقعت هذه الأحداث في ليون في اليوم الخامس عشر بعد الفصح.

كيف منع المندوب البابوي نفسه لويس من الذهاب إلى انكلترا

وجاء لويس في اليوم التالي إلى حضور اجتماع، بناء على طلب أبيه، وقد نظر بوجه مقطب إلى المندوب البابوي، وجلس إلى جانب أبيه، ووقتها بدأ المندوب البابوي يرجو لويس بمختلف وسائل الاستعطاف بعدم الذهاب إلى انكلترا لغزو ميراث كنيسة روما أو الاستيلاء عليه، واستعطف والده كما فعل من قبل، بأن لا يسمح له بالذهاب، وقام الملك الفرنسي —على كل حال— بإجابة المندوب البابوي بهذه الكلمات:« لقد كنت دوماً حليفاً مؤمناً ومخلصاً لمولانا البابا، ولكنيسة روما، وسعيت في جميع الأحوال حتى الآن نحو رفع شأن البابا والكنيسة بشكل فعال، ولن ينال ابني لويس الآن نصيحتي بمحاولة القيام بأي شيء ضد كنيسة روما، وعلى كل حال إذا استطاع لويس أن يبرهن على وجود أي إدعاء محق في مملكة انكلترا، دعونا نسمع منه وأن نعطيه ما هو حق له» وبناء على هذا، نهض فارس كان لويس قد عينه للمرافعة باسمه، وأجاب على مسمع من الجميع قائلاً:«مولاي الملك، إنها حقيقة معروفة بشكل جيد من قبل الجميع بأن جون، المدعو باسم ملك انكلترا، محكوم عليه بالموت، بموجب قرار صدر عن نظرائه في بلاطكم، بسبب خيانته لابن أخيه آرثر، الذي قتله بيديه، ثم جرى خلعه بعد ذلك بوساطة بارونات انكلترا، من سلطانه عليهم، بسبب كثير من جرائم القتل واعتداءات أخرى وجرائم قد اقترفها هناك،ولهذا السبب شن البارونات المذكورون الحرب ضده، لطرده من عرش المملكة، وعلاوة على ذلك، أعطى الملك المذكور— من دون موافقة

نبلائـه— مملكة انكلترا إلى مولانا البابا، وإلى كنيسـة روما، حتى يتمكن من استئناف تملكهـا منهما، مقابل مبلغ ألـف مارك يدفعـه سنوياً وإذا لم يكن بـإمكانه إعطاء تـاج انكلترا إلى أي إنســان، مـن دون مــوافقــة البارونات، بإمكانه— على كل حال— الاستقالة، وبمجرد استقالته من حمل التـاج، توقف عن كـونه ملكاً، وبـاتت المملكة من دون ملك، ولا يمكن تسوية مشكلة المملكة الفارغة من دون معـرفة موقف البارونات، ولذلك اختاروا لويس ليكون مولى لهم، لسبب هو أن زوجته، التي أمها ملكة قشتـالة، هي الوحيدة البـاقية حيـة من بين جميع إخوان وأخـوات ملك انكلترا المذكور»، واحتـج النائب البابوي بأن الملك جـون قد حمل الصليب، وبناء على ذلـك، وبمـوجـب قـرار المجمـع المسكوني يستحق تملك السلم لمدة أربع سنـوات، وينبغي بقـاء جميع أمــلاكـه مضمــونة وسليمة تحت حماية الكرسي الرسولي، ولذلك يتوجب أن لا يشن لويس في ذلك الوقت الحرب على الملك المذكور، أو حـرمانه من مملكته، وعلى هذا رد وكيل لويس قـائـلاً:«لقـد شن الملك جــون قبل حمله للصليب الحرب على مـولانا لويس، وحــاصر ودمـر قلعـة بنكهـام، ومثل ذلك استولى على آريا، وأحرق الشطر الأكبر منها، واعتقل عدداً من الفرسان مع أتبـاعهم في ذلك المكان، ومـا زال يحتفظ بهم أسرى لديه، وحـاصر أيضاً قلعة لين Liens وقتل عدداً كبيرا من الناس في ذلك المكان، وعاث فساداً بالسيف والنار في كونتية غسني Gisnes التي هي اقطاع قـانـوني لمولانا لويس، وأكثـر مـن هذا إنه مـا انفك يشـن الحرب ضـد مـولانا لويـس حتى بعـد حمله للصليب، ولذلك يمكـن بشكل مسـوغ إثارة الحرب ضد الملك المذكور».

ولم يقتنع النائب البـابوي—على كل حـال— بهذه المسوغـات، فمنع لويس— كما فعل مـن قبل، تحت طائلة الحرمــان الكنسي— من محاولة الدخـول، ومنع أيضـاً أباه من السماح له بـالذهاب، ولدى سماع لويس

لهذا، قال لأبيـه:«مع أنني تابع اقطاعي لك، في الاقطاعيـة التي منحتني اياها في هذا الجانـب من البحـر، إنـه ليس من واجبك تقـرير أي شيء يتعلق بمملكة انكلترا، وبنـاء عليـه إنني أخضع نفسي لقـرار نظرائي، حول عما إذا كان يجوز لك منعي من طلب حقوقي، ولاسيما الحق الذي لايمكنك تقديم العدل لي بشأنه، ولذلك أسألك أن لاتعيق مقصدي في السعي وراء حقــوقي، لأنني من أجل ميراث زوجتـي، سـوف - إذا اقتضى الحال—أصـارع حتى الموت» ومـا أن أكمل لويس النطق بهذ ه الكلمات، حتى انسحب مـن الاجتماع مع أتبـاعــه، ولدى رؤيـة النائب البابوي لهذا، طلب من الملك منحـه أماناً حتى يصل إلى سـاحل البحر، وعلى طلبـه هذا رد الملك قـائـلاً:«نحن بسرور نمنحك أمـاناً بالمرور في أراضينا، لكن إذا صـــدف ووقعت في يدي يوستـــاس الراهب، أو في أيدي أي واحـد من رفـاق لويس الآخرين، المسؤولين عن البحـار، لا تلمني لأي شيء سوف يقع لك»،وإثر هذا غـادر النائب البابوي البلاط مغضباً.

كيف حصل لويس على إذن أبيه وذهب إلى انكلترا

وفي اليوم التـالي الذي كان يوم عيد القـديس مرقص الانجيلي، ذهب لويس إلى أبيه في ميلون Melun ورجاه عـدم إعاقة رحلتـــه المقترحة، وأضـــاف بأنه أعطى يمينـه إلى بارونات انكلترا، أنه ســوف يقـــدم إلى عونهم، ولذلك هـو بالحري يؤثر أن يجري حرمانه كنسيـاً لبعض الوقت من قبل البابا، ويفضل ذلـك على نيل تهمة الزيف والخداع، ورأى الملك اصرار ابنه وقلقـــه، فأعطاه إذنـه، وأرسله مع تبريكاته، وعنـدها أرسل لويس رسلاً إلى بـلاط روما، ليعرضـوا أمام البـابا حقوقه التـي يدعيها لنفسه في مملكة انكلترا، وبعد هذا بادر مسرعاً كل السرعة نحو شاطىء البحر، بصحبة ايرلاته، وباروناته وفـرسانه وعدد كبير من الأتباع، حتى يتمكن من الوصـــول إلى انكلترا قبل النائب البـــابوي، وعندمـــا وصل

وصحبه إلى ميناء كالي وجدوا هنـاك ستمائة سفينة، وثمانين غليون، كلها مجهـزة بشكل جيد، وكلهـا كـان يوستـاس الراهب قـد أعدها وجمعهـا بانتظار وصـول لويس، ولذلك أقلع الجميع على الفـور، وأبحـروا بكل سرعـة، باتجاه جـزيرة ثانت Thanet حيث رســوا في مكان يدعى ستانهور Stanhore في الحادي والعشرين من أيار، وكان الملك جون آنذاك في دوفـر مع جيشـه، لكن بما أنـه كـان محاطاً بمـرتزقـة أجـانب، وفرسان من مناطق ما وراء البحر، لم يغامر بمهاجمة لويس وقت رسوه، خشية أن يتخلوا عنه أثناء القتال، وينضموا إلى جانب لويس، وتخلى عن قلعة دوفـر، التي عهد بها إلى هيـوج دي بورغ Burgh واستمر في فراره حتى وصل أولاً إلى غولد فورد، Guldford وبعد ذلك إلى وينكستر، وعندمـا لم يجد لويس من يعترض سبيلـه نزل في سـاندويش، وأخضع على الفـور المنطقة كلهـا باستثناء قلعـة دوفـر، ثم إنه ذهب إلى لندن، واستقبل هنـاك بسرور عــارم من قبل جميع البــارونات، وتلقى الولاء والتـابعيـة منهم جميعـاً، ومن سكان المدينة الذين كـانوا ينتظرون وصـولـه هناك، وأقسم هو نفسـه على الأناجيـل المقـدسـة بأنـه سـوف يمنحهم قـوانين جيدة ويعيـد مـواريثهم لكل واحد منهم ولهم جميعـاً ، وكتب كـذلك إلى ملك الاسكـوتلنديين، وإلى جميع نبـلاء انكلترا، وبناء على هذه الأوامـر قــدم إليـه وليم ايرل وارني Warrene ، و.وW ايرل أوف آروندیل A rundel ، وو. W ايرل أوف ســالسبري، وو.W ميرسكال Marsckal الأصغر، وآخرون كثر بالاضافة إليهم، حيث تخلوا عن الملك جـون، وكأنهم كـانـوا متأكـدين تمامـاً بأن لويس ســوف يستحــوذ على المملكة، وعين لويس المعلم سيمــون لانغتــون مستشـاراً له، وهـو الذي تولى وعظ سكان لندن، وكـذلـك البـارونات المحرومين كنسياً، أثناء تأديتهم للخدمـات اللاهوتية، وأقنع أيضاً لويس بالموافقة عليها.

النائب البابوي والو يتبع لويس إلى انكلترا

وفي هذه الآونة، عندما سمع والو النائب البابوي، بأن لويس قد غادر إلى انكلترا، قام كنائب نشيط للكرسي الرسولي ووصايته، فعبر البحر للحاق به، وعبر من بين الأعداء دون أن يصاب بالأذى، ووصل إلى الملك جون في غلوستر، واستقبله هذا الملك بسرور عارم، وألقى بجميع آماله في أن يتمكن من مواجهة أعدائه عليه، وعندها جمع النائب البابوي جميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين الذين تمكن من حشدهم، وقام وسط قرع الأجراس، والشموع المشتعلة، فحرم بالاسم لويس المذكور مع جميع المتعاونين معه ومحرضيه، وخاصة المعلم سيمون لانغتون، وأمر بالوقت نفسه الأساقفة المذكورين وجميع الآخرين، بنشر هذا القرار في جميع أرجاء انكلترا كل يوم أحد ويوم عيد، وقد ردّ على هذا كله المعلم سيمون لانغتون، والمعلم غيرفاس دي هوبرجي Ho-bregge قائد جوقة المرتلين في كنيسة القديس بولص في لندن، وعدد من الآخرين، بأنهم قد عملوا مرافعة استئناف نيابة عن لويس، ولهذا هم يعدّون ذلك القرار لاغياً وفارغاً، وفي هذا الوقت تخلى جميع الفرسان والجنود من بلاد فلاندرز ومن مقاطعات ماوراء البحار عن قضية الملك جون وذلك باستثناء الذين هم من بواتو، وقد التحق بعضهم بلويس، وعاد بعضهم الآخر إلى وطنهم.

كيف أخضع لويس المقاطعات الجنوبية لانكلترا

وفي هذه الآونة غادر لويس مدينة لندن مع كتلة كبيرة من الفرسان، وهاجم كونتية كنت، ونظرا لعدم تصدي أحد له، أخضعها على الفور، وذلك باستثناء قلعة دوفر، وتابع زحفه فاستولى بالقوة على سسكس مع جميع البلدات والحصون، لكن كان هناك شاب اسمه وليم، رفض تقديم الولاء إلى لويس، وحشد جماعة من ألف نبال، ولجأ إلى الأحراش والغابات التي كانت كثيرة في تلك المنطقة، واستمر بالقتال ضد

الفـرنسيين خـلال تلك الحرب كلهـا، وقتل آلافاً كثيرة منهم، ووصل لويس أخيراً إلى مـدينة وينكستر، وقـد أخضعهـا مع القلعــة والمنطقـة المجـاورة كلهـا، وذهب هيـوج دي نيفيل إلى لـويس، وسلم إليـه قلعـه مالبورا Malborough ، وقدم الولاء له، وذهب لويس بعد هذا إلى أوديهام Odiham، وهي بلدة كـانـت عـائـدة بملكيتهـا إلى أسقف وينكستر، وألقى الحصـار على البرج، وكان في هذا البرج ثـلاثة فرسـان فقط وعشرة عساكـر، وقد دافعوا بشجـاعة عنه، وفي اليوم الثـالث، قام الفرسـان الثلاثة المتقدم ذكرهم مع جنودهم بهجـوم مباغت من البرج، وذلك بعدما كان الفرنسيون قد رتبوا مجانيقهم حول البرج، وقاموا بعدة حملات حـادة عليـه، وقـد أسر هؤلاء من الفــرنسيين مثل عـددهم من الفرسان والجنود، وعادوا إلى البرج واستردوه دون أن يعانوا من خسارة بينهم أنفسهم، وبعـدما -على كل حـال -استمر الحصار لمدة ثمانيـة أيام سلمـوا البرج إلى لويـس، وخـرجـوا منه أنفسهم وعــددهم ثلاثة عشر فقط، ومعهم خيــولهم وأسلحتهم مصــانة، مما سبب دهشــة كبيرة بين الفــرنسيين، وهكـذ وقعت جميع المناطـق الجنوبيــة تحت سلطـة لويس باستثناء قلعة دوفر، ووندسور، التي كـانت مشحونة بشكل جيد، تنتظر وصول لويس، وفي الوقت نفســه قام وليم دي مـانديفيل، وروبرت فتز -وولتر، ووليم دي هنتنغفيلد مع جيش قـوي من الفـرسـان والجنود، فأخضع كـونتيتي اسكس وسفـولك، ووضعهما تحت سلطة لويس، وفي أثناء حدوث هذا كله، وضع الملك جون مؤناً جيدة وأعتدة وأسلحة في قـلاع: وولنغفـورد، وكـورفي، وورهـام، وبريستـول، وديفيــزي De-vizes، مع أعداد أخرى كثيرة من الصعب ذكرها.

نشاطات رسل لويس في روما

وفي هذه الآونة كتب الرسل الذين أرسلهم لويس إلى بلاط روما إليه كمايلي: «إلى مولانا القوي جداً لويس الابن الأكبر لملك فرنسا، يتمنى له

الرسل: د. D دي كوربيل Corbeil، وإ i دي مونتفيستـــو -Mon tevisto، وغ. G لايمث Limeth، الصحـة والأدعية الصـالحة، ليكن معلومـاً من قبلكم ياصـاحب السمو أنه في يوم أحـد «ad mensem Pasclae »، وصلنا إلى مـولانا البـابا، من دون أذى لأنفسنا ولسلعنا، ومثلنا على الفور أمامه في اليـوم نفسه، وقد وجدناه مشرق النفس، لكن كما يبـدو لديه سبب مايـدفعه إلى الأسف، وعندمـا قـدمنا رسائلنا إليـه وحييناه باسمكم أجـابنا: «إن مولاكم ليس جديـراً بتحيتنا» فأجبته على الفور قائـلاً: « أعتقد ياأبانا أنك عندما تسمع أسبـاب وتعليلات مولانا سوف تجده جديراً بتحيتك، كمسيحي وكـاثوليكي، وواحداً مخلصاً لك دومـاً، ولكنيســة رومـا»، وهكذا انسحبنا من حضرتـه في ذلك اليـوم، ولكن أثناء انصرافنا، أخبرنـا قـداستـه بلطف عظيـم، أنه على استعـداد لمنحنا مقـابلة أخـرى، عندمـا نرغب، وفي الـوقت الذي نريده، وفي يوم الثلاثاء التالي أرسـل مولانا البابا واحداً من حاشيتـه، إلى مكان اقامتك، آمـراً إيانا بالقـدوم إليه، وبناء عليـه مثلنا على الفـور بحضرته، وبعدمـا عـرضنا قضيتنا، قال الكثير في جـوابه لنا، ومـا أن أكمل عرضــه، حتى ضرب صدره وتنهـد عميقاً، وقال: «الويل لي، إنـه في هذه المشاكل، لن تستطيع كنيســة الرب النجــاة من الاضطراب، لأنه إذا مــاقُهــر ملك انكلترا، سوف نجـد أنفسنا متورطين في مشـاكله، لأنه تابع اقطاعي لنا، ومتوجب علينا حمايته، وإذا ما قُهر مولاكم لويس، ففي تعرضه للضرر، ضرر لكنيســة رومـا، لأننا نعـدّ الضرر الذي يلحق به مثل الضرر الذي يلحق بنا أنفسنا، ولقد تمسكنا دومـاً بالأمل، ونحن نتمسك به الآن، في أن لايكون في جميع أوقـــات الحاجــة الســـلاح في قمع السلوان، وفي اضطهــاد اللاجئين إلى كنيسة رومـا»، وقال أخيراً بأنه يتمنى أن يمـوت الآن على أن يلحق بك أي أذى في هذه القضية، وهكذا غادرنا من عنده في ذلك اليوم، علاوة على ذلك، نحن -بناء على نصيحة بعض الكرادلة - بانتظار يوم عيد الصعـود، من أجل أن لايصدر أي قـرار ضدك، لأن

من عادة البـابا أن يكرر قراراته، ذلك أن البابا أخبرنا بنفسـه بأنه يتوقع رسائل من السيد والو، وداعاً».

فيما يلي

الاتهامات التي أثارها لويس وبارونات انكلترا ضد الملك جون

وكانت أول تهمة عرضت أمام مولانا البابا ضد الملك جون، من قبل الرسل المتقدم ذكرهم، أنه قام بشكل اجرامي بقتل ابن أخيه آرثر بيديه، وهو أسوأ أنواع القتل حسب تعريفات جرائم القتل الانكليزية، وبسبب هذه الجريمة أدين الملك المذكور وحكم عليـه بالاعدام، في محكمة بلاط الملك الفرنسي، من قبل قضاة من أمثاله مرتبة، وجاء اعتراض البابا على هذه التهمة، بأنـه لايمكن لبارونات الحكم عليه بـالموت، لأنه كان ملكاً معمـداً، وبالتـالي رئيسـاً لهم، ولايمكن أن يحكـم عليـه بالموت من قبل البارونات، لأنهم أدنى منه مـرتبة، ولأن الأعلى مـرتبة يمكنه من بعض الجوانب تدمير سلطة الأدنى مـرتبـة، وبـالاضـافـة إلى ذلك، واضح أنه معـارض للقـانون المدني، وعلى عكس القـانون الكنسي اصـــدار قـرار بالإعـدام على رجـل غير حـاضر، ولم يتم استـدعـاؤه، ولاتجريمـه، أو اعترافه بأنه مجرم، وعلى هذا أجاب الرسل قائلين: «إن من أعراف مملكة فـرنسـا، أن يكون للملك جميع أنـواع السلطات القضـائيـة على رعـاياه الاقطاعيين، وملك انكلترا من رعـــاياه الاقطاعيين، فقـد كـان كـــونتا ودوقـاً، ومع أنه كان في مكان آخـر ملكاً معمداً، هو بحكم كـونه ايرل ودوق، قـد كـــان تحت السلطان القضـائي لمولانا، ملك فـــرنسـا، وإذا مااقترف أي ايرل أو دوق مثل هذه الجريمـة في المملكة الفرنسية، يمكن -لابل ينبغي - الحكم عليـه بالإعدام مـن قبل نظرائه، وأكثـر من هذا، إنه حتى وإن لم يكن دوقـاً أو كونتـاً، أو تابعـاً اقطاعيا من رعـايا الملك الفـرنسي، واقترف هذه الجريمة في المملكة الفـرنسية، يمكن للبـارونات فيما يتعلق بجريمة اقترفت في تلك المملكـة، الحكم عليه بالاعدام، ومن

جانب آخر إذا كـان من غير المملكن الحكم على ملك انكلترا بالاعدام، لأنه ملك معمد، من الممكن قدومه إلى فرنسا، ومن ثم يدان بالقتل، من قبل البارونات لقتله آرثر، وعلى هذا أجاب البابا قائلاً: «هناك عدد كبير من الأباطرة والأمـراء، لابل حتى ملوك فـرنسيين، قـد أفيـد من قبل التاريخ بأنهم قتلوا كثيراً من الأشخاص الأبرياء، ومع ذلك نحن لم نقرأ بأن أي واحد من هؤلاء قـد حكم عليه بالاعدام، وعندمـا جرى سجن آرثر في ميربو، لم يكن انسـاناً بريئاً، بل كان مجرمـاً وخائناً لعمـه ومولاه الذي إليه قدم الولاء وأقسم على التابعية، لذلك من الممكن الحكم عليه بأسوأ أنواع الموت من دون محاكمة.

التهمة الثانية التي أثيرت من قبل المذكورين أعلاه ضد جون

وكانت التهمـة الثانية التي أثيرت ضـد الملك، أنه قد استـدعي مراراً للمثـول أمـام محكمـة بلاط فـرنسـا، وهو لم يظهـر شخصيـاً حتى ينال محاكمته، ولم يرسل أحداً نيابة عنه ليقوم بالاجابة عوضاً عنه، وعن هذه التهمـة رد البابـا، بأن ملك انكلترا لم يكن متمـرداً إلى درجة ظهـوره في المحكمة أو دعوته للمثول أمام المحكمة، وما من أحد يمكنه -أو ينبغي له - أن يعـاقب بالموت بسبب التمـرد أو العصيـان، ولذلك لايمكن لبـارونات فـرنسا الحكـم عليه بالموت، بل يمكـن لهم معاقبتـه بطريقـة أخـرى، أي بحرمـانه من اقطاعـه وتجريده منه، وقد أجـاب الرسل على هذا قـائلين: «إن العـرف في المملكة الفـرنسيـة، أنه عندمـا يتم اتهام أي واحد أمام القاضي بجريمـة قتل وحشية، ولم يظهر المتهم أمام المحكمة، ولم يرفع استئنافاً شرعياً يسوغ فيـه عدم ظهوره، فإنه يعد مجرماً، ويجري تجريمه وتجري ادانتـه بجميع التهم، حتى إلى حكم الاعدام، وكـأنه كان حاضراً»، وعلى هذا رد البـابا قائلاً، بأنـه من الممكن الحديث عن وجود اتفاق بين ملك فرنسا، ودوق نورماندي، أو عادة قديمة وبموجب ذلك يتـوجب على دوق نورماندي، إذا مـادعـاه ملك فرنسـا، أن يصل حتى

حدود دوقيتـه، ولذلك إنه إذا لم يستجب أثناء استدعـائه، هو لم يقترف جريمة، كما لايمكن بسبب ذلك عقوبتـه بمثل هذه الطريقة، وقال البابا أيضاً، وبما أن القـرار الذي صدر ضـد ملك انكلترا -لم يتم تنفيذه، لأنه لم يعـدم، فبمـوجب ذلك إن أولاده الذيـن ولدوا بعـد ذلك، ينبغي أن يخلفـوه في المملكة، لأن ملك انكلترا لم يقترف جـريمـة الخيـانة، أو الهرطقـة، لأن مقترفهما فقط لايحق لولده أن يرث والده، بسبب جريمـة أبيه، ورد الرسل على هذه الحجة قـائلين: «إن العادة في مملكة فرنسا، أنه عندما يصدر الحكم بالاعدام على أي واحد، فإن أولاده الذين ولدوا له بعـد صـدور الحكم عليـه لايحق لهم خـلافتـه»، هـذا ولم يرغب الرسل بمناقشـة هذه النقطة، ثم قال البـابا بعد ذلك، ومع أن ملك انكلترا قـد صـدر حكم الإعـدام عليـه، وقـد ولد له أولاد من صلبـه، فإن بلانشي لايجوز لها أن تخلفـه، بل يخلفه الأقـرب إليه من أسرته، أي أولاد أخيـه الأكبر، وعلى هذا أخت آرثر، أو أوتو، الذي هو ابن أخته الكبرى، وإذا ماتقرر بأن ملكة قشتالة ينبغي أن تخلفه، وبعد ذلك ابنتها بلانشي بحكم أنها ابنتها، وهذا لايمكن أن يكون صحيحاً ولا لائقاً، لأن الذكر ينبغي أن يكون هو المفضل، أي ملك قشتـالة، وإذا لم يتـوفـر ذكـر، فإن ملكة ليـون ينبغي أن تفضل لأنها الأكبر سناً، وعلى هذا رد الرسل قـائلين: « إن أبناء الأخ لاينبغي لهم أن يخلفوه، لأن الأخ لم يكن حيا وقت صدور القرار، وأخت ابـن أخيه آرثر لايجوز لها أن تخلفه لأنها لم تكـن منحدرة من خطه النسبي مبـاشرة، مع أنها ابنة أخيـه، ومثل هذا أم أوتو، لم تكن حيـة وقت صدور القـرار، لذلك هي لم تخلفه، وبالنتيجـة لذلك لايجوز لأوتو أن يخلفه، لكن ملكة قشتالة كـانت حية، وهي أخته، ولذلك يحق لها خـلافته، ولدى مـوت ملكة قشتالة فإن أولادها هم الذين يخلفـونها وينبغي أن يخلفوه، وعلى هذا رد البابا قـائلاً، بأن ملك قشتالة ينبغي أن يخلفه، لأنه كان الوريث الذكـر، أو ملكة ليون لأنها أكبر الوريثات سناً، وعلى هذا أجاب الرسل، بأنه عندما يكون هناك عدة ورثاء، يتوجب أن

يرثوا انسانا واحداً، إن الذي يأتي أولاً في الخلافة، يظل هو المحور، لكنه إذا ما أهمل الدخول في عملية الوراثة، يحل محله الذي يليه بالوراثة، وإذا مارغب بالدخول في عملية الوراثة، يتوجب تعيينه وتوريثه، وذلك وفقاً لعـادة معترف بها، مع استثناء حق الآخـر إذا مــاطالب به، وبناء عليـه دخل مولانا لويس إلى مملكة انكلترا، بحكم أنها مملكتـه، ولكن إذا توفر من هو أكثر قرابة منه، فليتقدم بدعـواه في هذه القضية، وسيلتزم مولانا لويس بما هو صحيح ويأخذ به.

الاعتراض الثالث ضد الملك جون

ثم قال البابا بأن مملكة انكلترا قد كانت مملكته، بحكم قانون التابعية الاقطاعية وبسببه، فلأجل ذلك قد تلقى قسماً يتعلق بها، وكذلك بسبب المورد الذي يدفع له من المملكة، وبما أنه لم يقترف ذنباً، فلايجوز للويس أن يشن الحرب عليه، لينتزع منه بالقـوة مملكة انكلترا، خاصة وأن ملك انكلترا مستحـوذ عدداً مـن الاقطاعات من ملك فـرنسـا، ولهذا السبب لاتجوز إثارة الحرب ضــــده، وفي ردهم على هذا قـــال الـرسل: «إنها الحرب، وحـرب عـادلة قـد خيضت ضـد ملك انكلترا، قبل أن تصبح هذه المملكة عـائــدة إلى قـداستكم، هذا وكـان وليـم صـاحب السيف الطويل وكثير آخرون قد قدموا مع قوة كبيرة من مملكة انكلترا، وأنزلوا كثيراً من الأذى بفرنسا، وسببوا كثيرا من الخسـائر للمولى لويس، لذلك يحق له بشكل مسوغ وعـادل شن الحرب ضد ملك انكلترا»، وعلى هذا رد البـابا قــائـلاً: إنه مع أن ملك انكلترا قــد شن الحرب على لويس، لايجوز للويس أن يهاجمه ويشن الحرب ضده، بل يتوجب أن يشتكى منه إلى مولاه، أي إلى البابا، الذي له ملك انكلترا تابع اقطاعي ومن رعيته، وعندها أجاب الرسل بأن العادة قـد جرت، أنه عندما تشن الحرب على أي واحــــد من قبل تابـع اقطاعي لواحـــد آخــر اعتماداً على سلطـاته ومسـؤوليته الخاصـة، يحق للذي شنت الحرب عليـه تقـديم شكوى إلى

مولى الرجل الآخر، وإذا ماأقدم ذلك المولى على حماية ذلك التابع أثناء استمراره بشن الحرب، فإن المولى نفسه هو الذي قام بشن الحرب، ووقتها قال البابا بأنه قد تقرر في المجمع المسكوني وجوب قيام سلام، أو هدنة لمدة أربع سنوات بين جميع المختلفين، من أجل تقديم ضمانة إلى الأرض المقدسة، ولذلك لايجوز للويس شن حرب على مملكة انكلترا، أثناء تلك المدة، ورد الرسل على ذلك قائلين بأن لويس عندما غادر فرنسا، لم توجه إليه دعوة للحفاظ على السلام، أو الهدنة، لابل حتى وإن تلقى شيئاً من هذا القبيل، فإنهم يعتقدون بوجود نوايا سيئة من جانب ملك انكلترا، ذلك أنه لن يحافظ لاعلى السلام ولا على الهدنة، ثم قال البابا بأن ملك انكلترا قد حمل الصليب، وبناء عليه إنه بموجب قرار المجمع المسكوني، فإنه يتوجب حمايته وحماية جميع ممتلكاته من قبل الكنيسة، وعلى هذا أجاب الرسل، بأن ملك انكلترا قد شن الحرب على لويس قبل أن يحمل الصليب، وقد أنزل به كثيراً من الأضرار، واستولى على قلاعه، لابل إنه مازال يحتجز لديه فرسانه وجنوده في السجن، وعلى هذا هو مايزال في حالة حرب ضد لويس، وهو لن يمنحه سلام ولن يقيمه معه، ولن يعطيه هدنة، مع أنه غالباً ماطلب منه فعل ذلك، ثم قام البابا بإخبارهم، أنه بموافقة عامة من المجمع المسكوني جرى حرمان بارونات انكلترا كنسياً مع محرضيهم، وبناء عليه فإن لويس قد أوقع نفسه تحت طائلة هذا القرار، وأجاب الرسل على هذا بأن مولاهم لويس لايقوم بمساعدة بارونات انكلترا، كما أنه ليس محرضاً لهم، بل هو يعمل فقط على نيل حقوقه، ولويس لم يعتقد، ولايمكنه أن يعتقد بأن البابا أو المجمع يمكن أن يقوما بحرمان انسان كنسيا بشكل غير عادل، لأنه في وقت صدور القرار لم يعلم قداسته بأن لويس لديه أي ادعاء أو مطالبة بمملكة انكلترا، وبما أن هذا قد تبرهن له، فإن لويس لم يعتقد بأن المجمع سوف ينتزع حقوقه منه، وقال البابا بعد هذا بأن ملك فرنسا، وكذلك ابنه لويس، قد قام حتى بعد صدور قرار الحكم ضد

ملك انكلترا من قبل البارونات الانكليز، بدعوة جون باسم ملك، وعدّه ملكاً، وعمل معاهدات معه بحكم كونه ملكاً لانكلترا، وعلى هذا أجاب الرسل، بأنه بعدما صدر قرار الحكم ضد الملك من قبل البارونات، لم يعدّوه قط ملكاً، لابل دعوه باسم «الملك المخلوع»، وفق الطريقة نفسها التي يعامل بها راعي دير أو أي واحد آخر جرى خلعه، وأخيراً قال البابا، بأنه سوف يتخذ قراره حول هذه القضايا، قبل وصول الرسل من عند والو.

كيف عاث لويس فساداً في المقاطعات الشرقية من انكلترا

وقام لويس في هذه الآونة بهجوم على المناطق الشرقية من انكلترا، ونهب مدن وبلدات اسكس، وسفولك، ونور فولك، وقد وجد قلعة نورويك مهجورة، فشحنها بجنوده، وفرض ضرائب على جميع هذه المناطق، كما أنه أرسل قوة كبيرة ضد بلدة لين Lynn ، حيث جرى الاستيلاء عليها، مع أخذ سكانها أسرى، وإرغامهم على دفع أتاوة كبيرة، وعاد الفرنسيون بعد هذا مع غنائم كبيرة وأسلاب إلى لندن، وقدم في ذلك المكان غيلبرت دي غانت Gantإلى لويس، وإليه قدم سيف كونتيه لنكولن، ثم بعثه لويس من هناك للتصدي لغارات حاميتي قلعتي: نوتنغهام، ونيوآرك Newark لقيامهما بتدمير جميع مساكن البارونات وأبنيتهم الجميلة بالنار في تلك المنطقة، مع الاستيلاء على الأراضي التي كانت بحوذتهم وملكاً لهم، وفي تلك الآونة أخضع روبرت دي روس Roos، وبيتر دي بروز، ورتشارد بيرسي مدينة يورك وجميع المنطقة لصالح لويس، واستولى غيلبرت دي غانت وروبرت دي روبلي Roppelleعلى مدينة لنكولن وتلك المنطقة باستثناء القلعة، وفرضوا ضريبة سنوية عليها كلها، وزحفا من هناك إلى هويلاند Hoyland، فنهباها، وفرضا ضريبة عليها، وأخضع ملك سكوتلندا جميع كونتية نورثأمبرلاند، لصالح لويس، باستثناء القلعتين

اللتين كـان هيـوج دي بيللول Baillul وفيليب دي هيولكوت Hu-lecotes يدافعان بشجاعة عنهما ضد المهاجمين من الأعداء، وجرى على كل حال اخضـاع جميع هذه المقاطعـات، وأقسمت يمين الولاء للويس، وجبى في هذا العــام والو النائب البـابوي ضرائب على الـوكـالات من الكنائس الكاتدرائيـة، ومن البيـوت الدينية في جميع أرجـاء انكلترا، أي خمسين شلنا من كل وكـالة، وعـلاوة على ذلـك فـرز جميع منافع الكهنة ورجال الدين الذين قدموا مساعدة، أو مشورة، أو رعاية لقضية لويس، وحوّل ذلك كله لاستخداماته شخصيا ولاستخدامات كهنته.

حصار قلعة دوفر من قبل لويس

وفي هذا العام نفسه، ألقى لويس مع قـوة كبيرة من الفرسان والجنود الحصـار على قلعة دوفـر، وكان ذلك في يوم عيـد ميلاد القـديس يوحنا المعمـدان، وكان قـد أرسل أولاً إلى أبيـه ليبعث إليه آلـة قذف يدعـوها الفـرنسيـون باسم «Malvoisine»، وقد صفـ الفرنسيون هذه الآلة والآلات الأخــرى أمــام القلعــة، وبدأوا يقصفــون الأســوار بشكل متواصل، لكن هيـوبرت دي بيرغ، الذي كان فـارساً شجاعـاً، قد تمكن مع مـائـة وأربعين فارسـاً وعـدداً كبيراً من الجنود كـانوا يدافعـون عن القلعة، من تدمير كثير مـن الأعداء، حتى إذا شعر الفـرنسيون بفـداحة خسـائـرهم نقلوا خيمهم وآلات رميهـم بعيـداً عن الأسـوار، وغضب لويـس لهذا عضبــاً عظيماً، وأقسم أنـه لن يغــادر المكـان حتى يجري الاستيـلاء على القلعة، ومن ثـم يتـم شنـق جمـيع أفراد الحاميــة، ولهذا قـام الفرنسيـون حتى يبثـوا الرعب في قلوبهم، ببناء عـدد من الحوانيت مع أبنيـة أخرى أمـام مـدخـل القلعــة، لذلك بدا المكان وكأنه سـوق، ذلك أنهم أملوا أنهـم ســوف يرغمـــوهـم على الخضـــوع بوســاطة الحصــــار الطـويل والجوع، بما أنهم لم يتمكنوا من اخضــاعهـم بقــوة السلاح.

الاستيلاء على قلعة كمبردج

وقامت في هذه الآونة نفسها مجموعة من البارونات الذين كانوا مقيمين في لندن بغارة داخل المنطقة القريبة من كمبردج، ونهبوها واستولوا على القلعة في ذلك المكان، وأسروا عشرين جنديا وجدوهم فيها، وحملوهم معهم، ومن هناك اجتاحوا كونتيتي نورفولك وسفولك، فنهبوا المنطقة وكذلك جميع الكنائس، واستخرجوا غرامات كبيرة من بلدات يارماوث Yarmouth، ودنويتش Dunwich، وابسويتش Ipswich ، ثم إنهم بعدما جمعوا منهوباتاً كثيرة من حول كولشستر Colchester ، وعاثوا فساداً بالمنطقة هناك وفق الطريقة نفسها، عادوا إلى مآويهم القديمة في لندن.

حصار قلعة ويندسور

وبعد هذه الأحداث، حشد البارونات قوة كبيرة، وألقوا الحصار على قلعة ويندسور، وأسندت قيادة هذا الجيش إلى كونت دي نافار Nev-ers، الذي كان منحدراً من الخائن غونلون Guenelon وبعدما رتب رجال هذا الجيش آلاتهم، قاموا بهجوم حاد على الأسوار، وكانت هذه القلعة تحت عهدة انغلارد دي آتي، وكان رجلاً عظيم الخبرة بالحرب، يحيط به ستون فارساً مع أتباعهم، وقد دافع هؤلاء عن القلعة بشدة ضد أعدائهم، وما أن سمع جون بأن قلعتي دوفر وويندسور كانتا تحت الحصار، حتى جمع جيشاً كبيراً من حاميات القلاع التابعة له، وبوساطة هذا الجيش اجتاح أراضي الايرلات والبارونات في أيام الحصاد، فأحرق بيوتهم ومحاصيلهم، وأنزل أضراراً واسعة بأعدائه، وتجول بعد هذا في كونتيات نورفولك، وسفولك، محدثاً دماراً مماثلاً بين ممتلكات ايرلات: آرنوديل، وروجر بيغود، ووليم دي هنتنغفيلد، وروجر دي كريسي، ونبلاء آخرين، وعندما رويت أخبار هذه الحوادث كلها إلى البارونات الذين كانوا يحصلون على قليل من التقدم، أو على لاشيء مطلقاً لدى

حصارهم لقلعة ويندسور، قرروا رفع الحصار، من أجل أن يقطعوا طريق الانسحاب على الملك جون، الذي كان آنذاك -كما قيل -ينهب ويجمع الأسلاب حول ساحل سفولك، وقاموا بناء عليه، وعلى وصية ونصيحة من كونت دي نافار -الذي يقال بأنه تلقى رشوة بوساطة الهدايا من الملك -فرفعوا الحصار أثناء الليل، وغادروا خيامهم، وزحفوا مسرعين نحو كمبردج، من أجل تطويق الملك، وكان الملك قد أنذر مقدماً بهذا، بوساطة الكشافة الجيدين، وحصل ذلك قبل وصول البارونات إلى كمبردج، وحمل نفسه مثل رحالة بارع، إلى بلدة ستامفورد، ومن هناك أخذ طريقه نحو الشمال، ولدى سماعه بأن قلعة لنكولن كانت تحت الحصار، سار بأقصى سرعة نحو ذلك المكان، وقام غيلبرت دي غانت مع النورمان الآخرين، الذين كانوا يحصارونها، بالفرار من أمامه، ذلك أنهم ارتعبوا من حضوره، وجاء فرارهم مثل البرق، والبارونات أيضاً، الذين لحقوا الملك، عندما وجدوا أنفسهم قد خدعوا، انغمسوا في أعمال السلب والنهب، وركزوا اهتمامهم على تدمير الممتلكات، ثم عادوا مع منهوباتهم إلى لندن، حيث عينوا بعض الفرسان لحراسة المدينة، ثم زحفوا للالتحاق بلويس عند دوفر، وقام الملك جون في الوقت نفسه بمتابعة زحفه نحو حدود ويلز، حيث حاصر قلاع البارونات في ذلك الاتجاه واستولى عليها، وأمر بهدمها جميعاً، وتسويتها بالأرض، وقد وفرت أعمال التهديم التي اقترفها بوحشية بين البيوت والمحاصيل العائدة للبارونات المذكورين، مشهداً محزنا لكل من رآه.

وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه، قدم الاسكندر، ملك الاسكوتلنديين، لخوفه من الملك جون، ووصل مع جيش كبير، إلى لويس عند دوفر، وقدم الولاء له، بالنسبة للامتياز الذي يستحوذ عليه من ملك الانكليز، لكن حدث له، وهو على طريقه إليه، أنه عندما كان

مجتازاً لقلعة برنارد في منطقة هيلويركفولك Hailwercfolk، التي كانت في اقطاعيـة هيـوج دي هيللول، قام هو ونبـلاء تلك المنطقـة بالركـوب والسير حول القلعة لاكتشاف مكان مكشـوف يمكن منه القيام بهجوم، وفي تلك الأثناء فـوّق رجل من داخل القلعـة قـوسه العقـار، وأطلقـه، فجـرح رجلاً من المرتبـة العليـا، هو يوستاس دي فيسكي، وأصـابه في جبهته، فخرق دماغه، وقد مات حيث هو، وكان يوستاس هذا متزوجاً من أخت ملك سكوتلنـدا، ولذلك حـزن هذا الملك عليـه كثيراً ومعـه الذين كـانـوا برفقتـه، وقـدم -على كل حـال - الملك المذكـور الولاء وعمله، حسبما كان قد جرى إعداده من قبل، ثم عاد إلى وطنه.

الكشف عن خيانة الفرنسي

وحـدث في هذه الآونة أن فيـزكـونت دي ميلون Melun ، وكان فرنسيا نبيلا، قدم إلى انكلترا مع لويس، قد وقع مريضا بشكل خطير في لندن، وعندمـا وجد أن مـوته قد اقترب، بعث وراء بعض البـارونات، الذين تركـوا في المدينة مسؤولين عنهـا، للحـديث معهم، وعمل على مسمع منهم جميعاً الاعتراف التالي حيث قال: «أنا حزين بسبب عزلتكم ودماركم، لأنكـم لاتعرفون الخطر المحيق بكم والمعلـق فوق رؤوسكم، لأن لويس ومعه ستة عشر كـونتا وباروناً فرنسياً قـد أقسموا، أنه ما أن يخضع انكلترا، ويتـوج ملكاً، حتى سيقـوم بـالحكم بنفي دائم على جميع الذين يقـاتلون الآن معــه ويضطهـدون الملك جـون، وسيكون حكمـه عليهم بحكم كونهم خونة ضد مـولاهم، ولسوف يدمر جميع عناصرهم مع بني جنسهم ويخرجهم مـن المملكة، وعليكم عـدم الارتيـاب بهذا، لأنني أنا الآن متمدد هنـا وأنا على حافة الموت، أعلن لكم وأنـا أخاطر بنفسي بأنني كنت واحــداً ممن أدى ذلك القسم مع لويـس، وبناء عليـه إنني أنصحكم أن تعـدوا العدة في سبيل نجاتكـم في المستقبل وأن تبقوا سراً الذي أخبرتكم بـه الآن»، ومع فــراغ هذا النبيـل من هذه الكلمات

مات، ولدى انتشار هذه المعلومات بين البارونات كانوا في وضع حرج، لأنهم عرفوا بإحاطة الاضطرابات بهم من كل جانب، لأن لويس لم يأبه بشكاويهم، فأعطى أراضيهم وقلاعهم التي أخضعها في أماكن متعددة إلى فرنسيين، لكن الذي ضايقهم أكثر من كل شيء، هو وصمهم بالخيانة، ولقد ازداد خوفهم وحذرهم أيضاً، بسبب ظروف حرمانهم كنسياً، يوماً بعد يوم، ولأنهم حرموا من الشرف والمكانة الدنيوية، ولذلك وقعوا في اضطراب عظيم في كل من الجسد والعقل، وفكر كثير منهم بالعودة بولائهم إلى الملك جون، لكنهم كانوا خائفين كثيراً بحكم الأذى الكبير الذي ألحقوه به، مما أثار سخطه عليهم، ومما قد يدفعه إلى عدم قبولهم حتى وإن كانوا تائبين.

موت الملك جون

في أثناء متابعة لويس حصار دوفر، واستمراره في ذلك من دون نجاح، اقترف جون مع قوة كبيرة أعمال دمار هائلة ونهب مريع في كونتيتي سفولك ونورفولك، وأخيراً أخذ طريقة من خلال بلدة لين Lunn ، حيث جرى استقباله بسرور من قبل السكان، وتلقى هدايا كثيرة منهم، ثم إنه تابع زحفه نحو الشمال، لكنه أثناء عبوره لنهر ويلستر Wellester فقد جميع عجلاته وعرباته وخيول حمل أثقاله مع جميع أمواله، وآنية ثمينة، وكل شيء له قيمة خاصة لديه، لأن الأرض انفتحت في وسط الماء، وسبب ذلك نشوء دوامات ابتلعت كل شيء، وكذلك الخيول والرجال، ولذلك ما من أحد نجا من هذه الكارثة، حتى الملك نفسه، ونجا هو بصعوبة بالغة مع جيشه، وأمضى الليلة التالية في دير اسمه سواينهد Swinehead، وشعر هناك بآلام مبرحة في قرارة نفسه حول الممتلكات التي ابتلعتها المياه، فاستبدت به حمى عنيفة وصار مريضاً، وازداد مرضه بنزيف معوي لأنه أتخم نفسه وأفرط في أكل الدراق، وشرب عصير الفواكه الجديدة، مما ضاعف حمّاه، وزاد

مرضـه، وغادر على كل حال ذلك المكـان في الفجر الباكـر، مع أنه كان موجوعاً، وأخـذ طريقه إلى قلعة لافورت Lafort ليعسكر هناك، وكان في ذلك المكان في حالة آلام مبرحة، إلى حـد أنه وصل بصعوبة في اليوم التـالي إلى نيوآرك وهـو على ظهر حصـان، وهناك أقعـده مـرضه، وقـام بالاعتراف بنفسه، وتلقى القربان مـن راعي دير كروكستون Croxton، وعين بعـد ذلـك ابنه الأكبر هنري وريثـاً له، وجعل مملكتـــه تقسم على تقديم الولاء له، كما أرسل رسائل ممهـورة بخاتمه إلى جميع عمد المناطق، وإلى شحن القـلاع في المملكة، يأمـرهم واحـداً واحـداً وجميعـاً بإطاعـة الابن المذكـور، وسأله بعـد هذا راعـي دير كـروكستـون أين يرغب أن يدفن، إذا توفي، فأجابه: « إلى الرب، وإلى القـديس وولستان Wolstan أعهـد بجسدي وروحي»، وبعـد هذا فارق هذه الحيـاة في الليلة التاليـة بعد يـوم عيد القديـس لوقا الانجيلي، وكان هـذ بعدما حكـم لمدة ثمانية عشر عـــامـاً ونصف العـــام، وألبس جســـده بثيـاب ملكيـــة وحمل إلى وورسستر Worcester ، وهناك دفن في الكنيسة الكـــاتدرائية بشكل مشرف من قبل أسقـف ذلك المكان، وعندمـــا كـــان الملك يقترب من الموت في نيـــوآرك، وصل إليـه رسل إلى هناك مـع رســائل من حـــوالي أربعين من البارونات، الذين رغبوا في عمل سلم معه ثانية، لكن بما أنه كان على حـافة الموت، لم يكن بإمكانـه إعطاء انتباهه لهم، وقـام أحدهم بنظم نقشه الذي سوف يحفر على قبره بالأبيات التالية:

Hoc In Sacrophago Sepelitur Regis Imago

Qui Moriens Multum Sedavit In Orbe Tumultum.

Hunc Mala Post Mortem Timor Est Ne Fata Sequantur.

Qui Lgis Haec, Metuens dum Cernis Te Mositurum,

Discute quid rerum pariat mefa dierum.

حكم الملك جون ثمانية عشر عاماً، وخمسة أشهر، وأربعة أيام.

حول تتويج هنري الثالث ملكاً على انكلترا ووقائع حكمه

وبعد وفاة الملك جون، وفي عشية عيد الرسولين سمعان وجود، جرى عقد اجتماع في غلوستر بحضور والو، مندوب الكرسي الرسولي، وكان بين الحضور هناك بطرس أسقف وينكستر، وسيلفستر أسقف وورسستر، ورالف ايرل أوف شيستر، ووليم مارشال، إيرل أوف بمبروك، ووليم ايرل أوف فيرار، وجون مارشال، وفيليب دي ألبيني، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان وعدد كبير من الآخرين، للاعداد من أجل تتويج هنري الابن الأكبر للملك جون، وفي اليوم التالي وكانت جميع الإعدادات قد اكتملت، اقتاد النائب البابوي برفقة الأساقفة والنبلاء المذكورين الملك بمسيرة مهيبة إلى الكنيسة الديرية من أجل تتويجه، ووقفوا هناك أمام المذبح الكبير بحضور رجال الدين والناس، وأقسم، على الأناجيل المقدسة والآثار الأخرى المقدسة للقديسين، بأنه سوف يلتزم بمراعاة التشريف، والسلام، والتبجيل نحو الرب، ونحو الكنيسة المقدسة، ونحو رجالها المكرسين، طوال أيام حياته، كما أنه أقسم بأنه سوف يظهر عدلاً دقيقاً إلى الشعب الذي عهد إليه العناية به، ولسوف يزيل جميع القوانين السيئة والأعراف الفاسدة، إذا توفر أي منها في المملكة، وسوف يلتزم بمراعاة القوانين والأعراف الجيدة، ويتدبر أمر الالتزام بهم ومراعاتهم من قبل الجميع، ثم إنه قدم الولاء إلى كنيسة روما المقدسة، وإلى البابا انوسنت، من أجل مملكة انكلترا ومملكة ايرلندا، وأقسم أنه طوال تملكه لهاتين المملكتين، سوف يدفع باخلاص الألف مارك التي أعطاها والده إلى الكنيسة الرومانية، ووضع بعد هذا بطرس أسقف وينكستر التاج على رأسه، وعمّده ملكاً بالطقوس المعتادة، بالصلاة والأناشيد التي تتلى أثناء أعمال التتويج،

وبعد الفراغ من أداء القداس ألبس الأساقفة والفرسان الذين تقدم ذكرهم أعلاه، الملك الثياب الملكية، وقادوه إلى المائدة، حيث أخذ الجميع مقاعدهم وفقاً لمراتبهم، واحتفلوا وسط الفرح والسرور، وتلقى الملك في اليوم التالي الولاء والتابعية من جميع الأساقفة، والايرلات، والبارونات، ومن الآخرين الذين كانوا حضوراً، ووعده الجميع بولاء مخلص له، وجرى تتويج هنري وهو في العاشرة من عمره، في يوم الرسولين سمعان وجود، الذي كان اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول، وبقي بعد تتويجه مستمراً تحت وصاية وليم ايرل أوف بمبروك، الذي كان المارشال الأعظم، والذي أرسل على الفور رسائل إلى عمد المناطق وإلى شحن وولاة القلاع في انكلترا، موجباً على كل واحد منهم وعلى الجميع طاعة الملك المتوج حديثاً، ووعدهم بممتلكات وبالاضافة إلى ذلك الكثير من الهدايا، على شرط الارتباط باخلاص بالملك المذكور، وبذلك ارتبط به بقوة جميع النبلاء وولاة القلاع الذين خدموا والده، لأنهم اعتقدوا أن ذنوب الوالد لاتجوز مطالبة الابن بها، وبناء عليه بدأ الجميع بالاستعداد للدفاع عن قلاعهم ولتقويتها بقدر الامكان، وتشجع الذين وقفوا إلى جانب الملك، لأنهم شاهدوا أن شركاءه في الآثام ومحرضيه عليها كانوا يجري حرمانهم كنسيا كل يوم أحد، وكل يوم عيد.

كيف غادر لويس دوفر لدى سماعه بوفاة جون

وعندما تلقى لويس والبارونات الذين كانوا يحاصرون دوفر أخبار وفاة الملك جون، كانوا مسرورين جداً، وكأنهم شعروا بثقة بأنهم على وشك استلام مملكة انكلترا، وأنها صارت الآن تحت سلطانهم وفي أيديهم، واستدعى لويس هيوبرت دي بورغ قسطلان قلعة دوفر للاجتماع به وقال له: «إن مولاك الملك جون قد مات، ولايمكنك مواصلة التمسك بالقلعة ضدي لوقت طويل، لأنك بدون حامي لك،

ولذلك سلم القلعـة، وصر مخلصاً لي، ولسوف أغنيك بالتشريفات، ولسوف تحتل مركزاً عالياً بين مستشاريي»، ويحكى بأن هيوبرت قد ردّ على هذا العرض قائلاً: « مع أن مولاي قد مات، إن لديه أولاد وبنات، يتوجب أن يخلفوه، وبالنسبة لتسليم القلعة، سوف أتشاور مع أتباعي من الفرسان»، ثم إنه عاد إلى القلعة، وأخبر رفاقه بالذي قاله لويس، وقد كان موقفهم بالاجماع رفض تسليمها له، خشية أن يوصموا بالخيانة، لخضوعهم الجبان، وعندما جرى ابلاغ هذا إلى لويس وإلى البارونات، قرروا الاستيلاء على القلاع الصغيرة في أرجاء المنطقة، حتى إذا مافرغوا من القلاع الصغيرة، وصارت بين أيديهم، يمكنهم مهاجمة القلاع الأكبر، ولذلك رفعوا الحصار، وعادوا إلى مدينة لندن، وإثر تراجعهم وفور ذلك خرج الفرسان الذين كانوا يدافعون عن القلعة، وأحرقوا البيوت والأبنية التي شيدها لويس في مواجهة القلعة، ثم نهبوا المنطقة، فحصلوا على كميات وافرة من المؤن ومن الضروريات للحصن وللحامية.

حصار قلعة هارتفورد والاستيلاء عليها

وبعد هذا زحف لويس في اليوم التالي لعيد القديس مارتن مع جيش كبير إلى بلدة هارتفورد، وألقى الحصار عليها، وصف آلات رميه من حول القلعة لقصف الأسوار، وقد تولى وولتردي غوداردفيل، الذي كان فارساً شجاعاً، من أتباع فالكاسيوس، الدفاع عنها مع جنوده، وأوقع قتلى كثيرين بين الفرنسيين، وحدث على كل حال أنه بعدما استمر الفرنسيون في مواصلة الحصار لوقت امتد من عيد القديس مارتن حتى عيد القديس نيقولا مقابل نفقات باهظة، استسلمت البلدة للويس، شرط الحفاظ على الحامية، وعلى ممتلكاتها وخيولها وأسلحتها، وهكذا جرى التنازل عن البلدة، فعمل روبرت فتز - وولتر طلباً بتسليمها له، قائلاً بأن المسؤولية عنها عائدة إليه بموجب حق قديم، ثم

سأل لويس رأي الفرسان الفرنسيين حول هذه القضية، فأخبروه بأن البارونات الانكليز غير جديرين بتولي المسؤولية عن مثل هذه الأماكن، لأنهم خونة لمليكهم، وبناء عليه أخبر لويس روبرت المذكور بأن عليه الانتظار صابراً حتى يكتمل اخضاع المملكة، فوقتها سوف يعطي لكل واحد حقوقه.

وفي هذا العام نفسه، وفي يوم عيد القديسة كاترين القديسة والعذراء، أطلق سراح النبيل وليم دي ألبيني وخرج من السجن، بعدما دفع غرامة قدرها ستة آلاف مارك فدية عن نفسه، ثم إنه قدم الولاء إلى الملك هنري، الذي عهد إليه بولاية قلعة لافورت، التي حافظ عليها بنشاط.

الاستيلاء على قلعة بيركها مبستد

وبعد الاستيلاء على قلعة هارتفورد، كما ذكرنا أعلاه، زحف لويس في يوم عيد القديس نيقولا إلى قلعه بيركهامبستد، وأحاط بها بآلات حربه، وأثناء قيام البارونات الانكليز بنصب خيمهم، وكانوا يسعون لإقامتهم بانتظام، قام فرسان وجنود الحامية بهجوم مباغت، استولوا فيه على الأثقال وعلى حاجيات البارونات، وتملكوا راية وليم دي ماندفيل، وعادوا بها إلى القلعة، آسفين أنهم لم يتمكنوا من إلحاق أضرار أكبر بهم، وفي اليوم نفسه، عندما كان البارونات جالسين عند المائدة، قام فرسان وجنود الحامية ثانية بانقضاض، ولكي يوقعوا البارونات بالاضطراب، حملوا أمامهم الراية التي كانوا قد استولوا عليها قبل وقت قصير، وفكروا بمهاجمتهم وهم غارين، لكن هؤلاء البارونات جرى انذارهم قبل وصولهم، ولذلك طردوهم وأعادوهم إلى القلعة، وفي فجر اليوم التالي أمر لويس بالمجانيق وببقية آلات الحرب، فنصبت من حول المدينة، وما أن فرغوا من ذلك حتى داوموا على رميها بزخات من الحجارة المدمرة، لكن فالران Walleran ، وكان ألمانيا واسع الخبرة

بشؤون الحرب، عمل مقاومة شجاعة ضدهم، وأوقع مذبحة كبيرة وسط الفرنسيين المحرومين كنسيا، وأخيراً على كل حال قام فالران المذكور بتسليم القلعة بعد حصار طويل، وجاء تسليمه لها بناء على أوامر الملك، وقد أعطاها إلى لويس مستثنيا خيول رجال الحامية وسلاحهم، وكان ذلك في العشرين من كانون الأول، وفي اليوم التالي الذي كان عيد القديس توماس، ذهب لويس، بعدما وضع أتباعه في القلعة، إلى القديس ألبان، وطلب من راعي الدير تقديم الولاء له، وعلى هذا أجابه راعي الدير بأنه لن يقدم الولاء له حتى يتحرر من الولاء الذي عمله إلى ملك انكلترا، وقد غضب لويس من ذلك كثيراً، وأقسم بأنه سوف يحرق الدير والبلدة كلها، مالم يفعل الذي طلبه منه، وأخيراً أعطى راعي الدير المذكور إلى لويس غرامة عن نفسه وعن البلدة، وجاء ذلك بعدما تلقى تهديداً عظيماً، وبناء على وساطة سير ايرل وينكستر، Sayr وحصل على هدنة من لويس حتى عيد طهارة العذراء، وبعدما دفع له ثمانية ماركات من الفضة، وبناء على هذا عاد لويس إلى مدينة لندن.

حوادث تتعلق بأرض الميعاد

وفي العام نفسه، ولدى انتهاء الهدنة المعمولة بين الصليبيين في أرض الميعاد والمسلمين، وأثناء العبور الأول، بعد المجمع المسكوني الذي عقد في اللاتيران، احتشد جيش الرب في قوة عظيمة في عكا تحت قيادة ثلاثة ملوك هم: ملك القدس، وملك هنغاريا، وملك قبرص، وكان بين الحضور دوق النمسا، ودوق بوهيميا مع أرتال طويلة من الفرسان من مملكة ألمانيا، وذلك مع عدد من الكونتات ورجال من مختلف المراتب، وكان موجوداً رؤساء أساقفة نيقوسيا، وسالزبورغ Salzburgh وآرجيا Argia، وهنغاريا، وبيوكس Bayeux، وباورج Bawerge، وسيسينو Ciceno، ومنستر Munster، وأوترخت، وكان معهم النبيل

والقوي وولتر دي أفيني Avennes ، وبالاضافة إلى هؤلاء بطريرك القدس، الذي حمل بتواضع كبير، وسط رجال الدين والناس، وبتبجيل رمز الصليب المانح للحياة، وقد انطلق خارجاً من عكا في اليوم السادس بعد عيد جميع القديسين، يؤم معسكر جيش الرب، الذي كان قد ذهب إلى خربة كرداني Recordana، وكانت هذه قطعة من صليب الرب حفظت مخفية، بعد فقدان الأرض المقدسة، والذين أخفوها هم من الصليبيين، وقد أخفوها حتى هذه الأيام، لأنه في أيام الصراع بين المسلمين الصليبيين في أيام صلاح الدين، جرى قطع الصليب، حسبما سمعنا من شيوخنا، وقد حملت قطعة منه إلى القتال، وهذه القطعة هي التي ضاعت هناك، لكن القطعة التي بقيت أخفيت، والآن أظهرت وعرضت، وقد زود بها جيش المؤمنين لتكون راية له، وقد زحف خلال سهل الفولة Faba إلى نبع طوبانيا Tubannia، وعانى الجيش من زحفه كثيراً في ذلك اليوم، وأرسل الكشافة للاستطلاع، حيث شاهدوا غباراً تسبب بإثارته العدو، لكنهم كانوا غير متأكدين فيما إذا كان الأعداء متراجعين، أم متقدمين للتصدي لهم، وزحفوا في اليوم التالي بين جبال جلبوع التي كانت على يمينهم، وبحيرة على يسارهم، ووصلوا إلى بيسان حيث كان العدو معسكراً، وخاف العدو من دنو جيش الرب الحي، لأنه كان جيشاً كبيراً، ويزحف بانتظام رفيع، وقوض العدو خيمه، وهرب، تاركاً المنطقة عرضة للسلب والنهب من قبل جنود المسيح، وفي عشية عيد القديس مارتن (٧ -تشرين ثاني) عبر جيش المؤمنين نهر الأردن، وقد استحم أفراده في ذلك النهر، واستراحوا هناك بهدوء لمدة يومين، حيث وجدوا وفرة من المؤن، وعملوا هناك ثلاث محطات على طول ساحل بحيرة طبرية، وعبروا خلال الأماكن التي تلطف ربنا فعمل بها معجزاته، وتحادث بشخصه مع الناس، وشاهدوا بيت صيدا، التي هي مدينة أندرو، وبطرس، واستولوا على حصن صغير، ورأوا أيضاً الأماكن التي دعا فيها المسيح تلاميذه، وسار فوق

الماء بقدمين حافيتين، وأطعم الحشود في الصحراء، وذهب إلى الجبال للصلاة، وحيث أكل بعد قيامته مع تلاميذه، ثم إنهم عادوا عبر طريق كفر ناحوم إلى عكا وهم يحملون مرضاهم معهم.

وعملوا بعد هذا حملة ثانية، وزحفوا نحو جبل الطور، حيث واجهوا أولاً ندرة في الماء، لكن بعد ذلك عثروا على وفرة عن طريق الحفر، وفقد مقدمو الجيش كل أمل في الصعود إلى الجبل، حتى جرى اخبارهم من قبل غلام مسلم بأنه من الممكن الاستيلاء على القلعة، ولذلك عقدوا اجتماعاً، وفي يوم الأحد الأول لشهر قدوم الرب (٣ -كانون أول)، عندما جرت قراءة قوله في الانجيل: «اذهبا إلى القرية التي أمامكما» (متى: ٢١/ ٢)، مضى البطريرك في المقدمة مع رمز الصليب، ووسط الصلوات، وانشاد الترانيم من قبل الأساقفة ورجال الدين، وصل الجيش إلى جانب الجبل، ومع أنه كان وعراً من كل جانب، وبدا أنه لايمكن تسلقه، إلاّ بوساطة ممر ملتوي، على الرغم من ذلك تسلقه الجميع غير هيابين، وتمكن جون ملك القدس، مع جنوده، من ترجيل قسطلان القلعة عن فرسه مع أمير، وكانا أول من هاجم العدو وتصدى له خارج الأبواب، وكانا يرغبان بالدفاع عن الجيب، وقد أربكاهما كثيراً وأرغماهما على الفرار، لكن الفخار الذي حصل عليه الملك وناله أثناء تسلقه للجبل، قد ضيعه في النزول، لأن عدداً من الداوية والاسبتارية والعلمانيين أصيبوا بالجراحة، عندما استرد العدو شجاعته، علماً بأن عدداً قليلاً قد قتل في هذه الحملة، وكذلك في الحملة المتقدمة التي أتينا على ذكرها، وقد أحضر الصليبيون معهم عدداً كبيراً من الرجال، والنساء، والأطفال، إلى عكا، حيث تولى الأسقف تعميد جميع الذين قدر على السيطرة عليهم بالالتماسات، أو بالمال، ووزع النساء بين الراهبات، وأمرهن بتعليمهن القراءة.

وفي الحملة الثالثة التي لم يكن البطريرك موجوداً فيها مع رجال

الدين ورمز الصلب، عانى جيش الايمان من المصاعب، ومن اللصوص وقطاع الطرق ومن قسوة الشتاء، ولاسيما عشية عيد الميلاد، فعندما كان رجال الجيش يزحفون، أزعجتهم الأنواء بعواصف الريح والمطر، في أحواز مدينة صور، وصيدا، وقرب الصرفند أيضاً، وقد واجهوا الكثير من المشاق، وعانوا من قسوة المناخ جسديا.

كيف فكر بارونات انكلترا مليا حول الحالة التعيسة لشؤونهم

عام ١٢١٧م، فيه كان الملك الصغير هنري أثناء عيد الميلاد في بريستول، برفقة والو، النائب البابوي، ووليم مارشال الوصي على الملك والمملكة، وتوفر في ذلك الحين الكثير من النقاش والحيرة بين بارونات انكلترا، حول أي حاكم يتوجب أن يعهدوا إليه بأنفسهم، هل هو هنري الصغير، أم لويس، ولأنهم عوملوا بشكل سيء كثيراً من قبل الفرنسيين، قام كثير منهم برفض مساعدتهم، وتضاعفت هذه الانفعالات العاطفية والدوافع المثيرة وازدادت بأعمال لويس نفسه الذي لم يقم وزنا لأيمانه وتعهداته، حيث أنه على الرغم من شكاويهم احتفظ بين يديه بأراضي وممتلكات وقلاع البارونات المذكورين، التي أخضعها بمساعداتهم، ووضع فرسانا أجانب وأناساً غرباء مسؤولين عنهم، هذا من جانب ومن جانب آخر، بدا أمراً مهيناً بالنسبة إليهم العودة بولائهم إلى ملك هم تخلوا عن الولاء له، خشية أن يعدوا مثل كلاب عائدة إلى قيئها، وفي وضعهم الصعب هذا من كل جانب لم يكن بامكانهم اصلاح أحوالهم المحطمة.

وفي العام نفسه، في العشرين من كانون الثاني قام فرسان وجنود حامية قلعة مونتسوريل Montsorrel بغارة لسلب ونهب المنطقة، لكن فرسان نوتنغهام علموا بمحاولتهم عن طريق كشافتهم، فخرجوا للتصدي لهم، واشتبكوا معهم بالقتال، فأسروا عشرة فرسان، وأربعة وعشرين جندياً، من الفئة العادية، وقتلوا ثلاثة، وبعد ذلك عادوا

منتصرين.

كيف نهب فالكاسيوس بلدة سانت ألبان

وفي العام نفسه، في الثاني والعشرين من كانون الثاني حشد اللص الشرير فالكاسيوس قوة من الفرسان واللصوص من حامية قلاع اكسفورد، وبدفورد، ووينسور، وتوجه إلى سانت ألبان، وكان التاريخ هو ليلة عيد القديس فينسنت Vincent، حيث وصل عند المساء، وقام بهجوم غير متوقع على المكان، فنهبه، واتخذ أسرى من الرجال والأطفال، وأودعهم في سجن مضيق عليهم، وقتل عند باب الكنيسة بالذات واحداً من أتباع البلاط كان يسعى للالتجاء إلى الكنيسة، وبعد اقتراف هذه الجريمة الشريرة من قبل أولئك وكلاء الشيطان، أرسل أوامر قضت بوجوب أن يرسل إليه وليم راعي الدير على الفور مائة باوند من الفضة، أو أنه سوف يتولى على الفور إحراق البلدة كلها، مع الدير والأبنية الأخرى، وبناء على ذلك، دفع له راعي الدير، بعد كثير من التردد، المبلغ، ذلك أنه لم يكن أمامه مخرج آخر، وقام فالكاسيوس بعد هذا ومعه رفاقه المحرومين كنسيا، فأسرع مبادراً معهم وهم يحملون السلاح، يؤم قلعة بدفورد، حيث أخذ معه أسلابه وأسراه، وزحف من ذلك المكان مع أتباعه إلى غابة وولبورغ Walburg، وأسر هناك روجر دي كولفيل Colevilleوستين من رجال الدين والعلمانيين معه، كانوا متخفين هناك من أجل جمع الأسلاب.

معاهدة بين ملك انكلترا وبين لويس

وفي هذه الآونة، جلب الرسل الذين ذهبوا لصالح لويس إلى بلاط روما، رسالة له، أنه مالم يغادر انكلترا، فإن قرار الحرمان الكنسي الذي تفوه به والو النائب البابوي ضده، سوف يجري تثبيته في يوم عيد عشاء الرب، وبناء على هذا عقدت هدنة فيما بين لويس والملك هنري تمتد

حتى شهر الفصح، وبموجب هذه الهدنة جرى الاتفاق على إبقاء كل شيء حتى ذلك التاريخ، على حاله كما كان يوم الحلف على الهدنة، وذلك فيما يتعلق بكل من القلاع والممتلكات الأخرى، وبعدها عبر لويس البحر أثناء الصوم الكبير، وباقدامه على هذه الخطوة لم يحظ ثانية بثقة ومحبة بارونات انكلترا، كما حصل من قبل، لأنه من هذه الفئة، عاد: وليم ايرل أوف سالسبري، ووليم ايرل أوف آرونديل، ووليم ايرل وارني، وآخرون كثر، على الفور، إلى ولائهم إلى الملك هنري، وارتبطوا بقضيته منذ ذلك التاريخ، ودعا مجددا المارشال الكبير ابنه الأكبر، وليم

وقيسارية، وهي ليست بعيدة عن البحر، ولهذا السبب، فإن الذين صعدوا على الطريق الضيق ونزلوا، وهم قاصدون للقدس سموها «District »، وعلى رأس منافع هذه القلعة وفوائدها، أن فرسان طائفة الداوية بعد مغادرتهم لمدينة عكا، التي كانت مليئة بجميع الذنوب والآثام، رغبوا بالإقامة بها حتى ترميم أسوار القدس، وكانت المنطقة المحيطة بها مليئة بوفرة بمصائد السمك، والبحيرات، والغابات، والمراعي، والمروج، والحقول، والأعشاب، والكروم، والحدائق والبساتين، ولم يكن المسلمون متملكون لأية بلدة فيما بين عكا والقدس، لذلك عانوا في سبيلها من خسائر كبيرة، وعلى بعد ستة أميال من جبل الطور، فيما بين القدس ونهر الأردن، يوجد ميناء طبيعي جيد، ولذلك ليس بامكان المسلمين الزراعة ولا الفلاحة في السهل الواسع القائم بينهما، لأنه موجود تحت حماية هذه القلعة، وبعد مافرغ جيش الرب من تحصين هذه القلعة، عاد إلى عكا.

العلامات في السماء التي أثارت مقاطعة كولون للمساعدة في الحملة الصليبية

في شهر أيار من هذه السنة، وفي اليوم السادس قبل أحد الشعانين، استيقظت مقاطعة كولون لأداء واجبها إلى المخلص، فقد ظهر في بلدة بيبون Bebon في فريزلاند، في السماء شكل الصليب في ثلاثة أماكن، واحد متجه نحو الشمال ولونه أبيض، وآخر باتجاه الجنوب له الشكل نفسه واللون، والثالث في وسط لون مظلم، على شكل صليب، وجسد انسان ممدد عليه مع ذراعين مرفوعين وممدودين، ومع مسامير مغروسة خلال القدمين واليدين، والرأس مطأطىء نحو الأسفل، وكان هذا الثالث في الوسط بين الاثنين الآخرين، وعلى الاثنين الآخرين لم يظهر تمثال جسد انسان، وفي وقت آخر ومكان آخر أيضاً، أي في بلدة في فريزلاند اسمها فوسرهوز Fuserhuse ، ظهر قرب الشمس هناك،

صليب له لـون أزرق، وقـد رآه أنـاس أكثـر من الذين رأوا الصلبـان المتقدم ذكرهم، وظهـر صليب ثالث في بلدة اسمها دوكثام Doctham حيث كان القديـس بونيفيس قد تتوج بالشهادة، وكـان قد تجمع في عيد الشهيد المذكـور، آلاف كثيرة من الناس مع بعضهم، وكان وقتها مـرئياً صليبـاً أبيض كبيراً، وكـأن لوحين قـد وضعـا عبر بعضهما بشكل اصطناعي، وقـد تحرك هذا الصليـب بشكل تدريجي من الشمال نحـو الشرق، وقد رأى ذلك عدة آلاف.

حصار قلعة ماونتسوريل

وفي العام نفسه، احتشد بعـد الفصح، بناء على أمر من وليم مارشال الوصي على ملك ومملكـة انكلترا، من أجل القـاء الحصـار على قلعـة مـاونتسـوريل Mountsorel: رالف ايرل شيستر، ووليم ايرل ألبيمارل Albemarle، ووليم ايرل فيرار Ferrars ، وروبرت دي فيبـونت Vipont، وبرين دي لى آيل، وو. W دي كـانتـلأب Cantelupe، وفيليب مارك Marc، وروبرت دي غوغي Gaugi ، وفالكاسيوس مع ولاة قلاعه، وعدد كبير آخر من حاميات القلاع المختلفة، وقد قاموا على الفـور بترتيب آلات حـربهم في مواضع منـاسبة، وطوقـوا القلعـة، وكـان آمـر الموقـع هنري دي بريبروك Braybrooke ، وكان هناك معه عشرة فرسان، وكانوا رجـالاً ذوي شجاعة كبيرة، وعدد من الخدم، الذين ردوا بشجـاعة على مهـاجميهم الحجر بحجـر، والسلاح بسـلاح، وقام المحـاصرون بعدما دافعـوا عن القلعة لعـدة أيام، وخشية منهم أن يتعرضوا للحاجة للمؤن، من خـلال حصار طويل، قاموا بمراسلة سير Sayr، الذي كـان وقتذاك في لندن، يرجـونه للقدوم فـوراً لمساعـدتهم، ووقتهـا ذهب الايرل المذكـور - الذي كـانت القلعـة عائـدة إليـه -إلى لويس، الذي كان قد عاد مؤخراً إلى لندن، من مقاطعات ماوراء البحر، وطلب منه أن يرسـل بعض المسـاعـدة، حتى يمكن بـوسـاطتهـا رفع

الحصار، وبعد التشاور فيما بينهما، وصلا إلى قرار إرسال قوة من الفرسان لرفع الحصار، ولاخضاع المنطقة كلها إلى لويس، وتنفيذا لهذه الخطة، خرج من مدينة لندن ستمائة فارس، وأكثر من عشرين ألف من الجنود،الذين اشتهوا تملك أملاك الآخرين، وكان هذا الرتل تحت قيادة كونت أوف بيرشي Perche آمر الجيوش بفرنسا، وسير ايرل وينكستر، وروبرت فتز -وولتر، مع عدد كبير آخر قدروا أنهم أهل لقيادة الحملة، وقوضوا مخيمهم في الثلاثين من نيسان، وكان ذلك يوم اثنين هو التالي قبل صعود ربنا، وزحفوا إلى القديس ألبان، وقد نهبوا كل مكان مروا به وعبروه، وتجول هؤلاء اللصوص الفرنسيون وقطاع الطرق في أرجاء البلدات ولم يوفروا لا كنيسة ولامقبرة ،واعتقلوا الناس من السكان من كل مرتبة، وبعدما عذبوهم بشكل مريع، استخرجوا منهم غرامات ثقيلة، أما بالنسبة لدير القديس ألبان، الذي كان قد دفع راعية قبل وقت قصير ماأرضى به لويس، بمبلغ كبير من المال، فقد نجا من أيدي اللصوص، حيث أنهم لم يستولوا على شيء سوى اللحم والشراب.

معجزة صليب الرب

ونقلوا في التالي معسكرهم، وزحفوا نحو بلدة دنستيبل Dun-stable، وفي بلدة رد بورن Redbourn، نهبوا كنيسة القديس أمفيبالوس Amphibalus ، وجردوا الرهبان حتى من ملابسهم الداخلية، واخذوا أيضاً آثار القديسين من فوق المذبح الكبير، ودنسوهم بأيديهم غير التقية، واستولى أحدهم على صليب مزين بالفضة والذهب، وكان يحتوي في داخله على قطعة من صليب مولانا، وخبأه في صدره دون أن يعرف ذلك رفاقه، وحدث أنه قبل أن يغادر القلاية تلبسه شيطان، فسقط أرضاً وهو يصر بأسنانه، ويخرج الزبد من فمه، ثم إنه نهض بسرعة بناء على إثارة الشيطان له، وسعى إلى ضرب أصحابه بسيفه، وقد أشفق هؤلاء على آلامه، وربطوا يديه، ودون أن يعرفوا

سبب ماحدث له، أخذوه إلى كنيسة فلامستد Flamstead في حالة من الجنون المخيف، ولدى دخول أولئك اللصوص إلى تلك الكنيسة بقصد نهبها، تصدى لهم كاهن، كان مرتديا لثوب أبيض، وقد أراد إيقاف الشيطان المتلبس لأولئك الرجال غير الأتقياء، ونظراً لخوفهم على رفيقهم المجنون الذي جلبوه معهم، توقفوا عن النهب، وهناك بحضور الرئيس وعدد كبير آخر، قفز الصليب المذكور خارجاً من صدر الرجل المجنون، وسقط على الأرض، وتناوله الرئيس ورفعه بكل احترام ودهشة، وأمسك به، وسأل اللصوص عنه، وتمكنوا أخيراً بعد تقدير للأمر وتفحص من أن يعرفوا، وكان ذلك بوساطة زيارة الرب هذه، بأنه قد سلب بشكل اجرامي من الرهبان الذين نهبوهم في البلدة المجاورة، وكانوا جميعا في حالة من الارتباك والخوف، خشية أن تتلبسهم روح الشيطان، وأن تتولى تعذيبهم، كما فعلت برفيقهم، ولذلك قاموا وهم يشعرون برعب كبير بإعطاء الصليب إلى الرئيس، ورجوه بفضيلة الرب، وبخوفهم من طائفته، أن يقوم قبل أن يتناول أي طعام، فيذهب إلى المكان، ويعيد الصليب إلى الرهبان، وبناء عليه ذهب الرئيس بكل سرعة إلى قلاية القديس أمفيبالوس، وسلم الصليب بكل احترام، وروى حكاية الحوادث الاعجازية المتعلقة به، إلى رئيس الرهبان وإلى الرهبان.

رفع الحصار عن قلعة مونتسوريل وحصار قلعة لنكولن

وصل جيش لويس وبارونات انكلترا إلى دنستيبل، وهناك أمضوا الليل، وفي الصباح زحف نحو الشمال، مسرعاً للتفريج عن قلعة منتسوريل المتقدمة الذكر، وعلم بهذا الزحف رالف ايرل أوف شيستر مع الآخرين الذين كانوا يحاصرونها، وقد أخبرهم بذلك كشافتهم، ولذلك رفعوا الحصار، وتراجعوا إلى قلعة نوتنغهام، حيث قرروا مراقبة تقدم أعدائهم، وعندما وصل البارونات إلى قلعة مونتسوريل،

وبعد ما نهبوا— وفقاً لطبائعهم المعتادة— المقابر والكنائس على طريقهم، تقرر بموافقة الجميع متابعة الزحف إلى لنكولن، حيث تولى غيلبرت دي غانت مع البارونات الآخرين الذين تقدم ذكرهم أعلاه، حصارها [مونتسوريل] لوقت طويل دونما نجاح، ثم إنهم قاموا بالزحف خلال وادي بلفيور Belvoir وهناك سقط كل شيء بأيدي هؤلاء اللصوص، وذلك بحكم أن جنود مملكة فرنسا الذين كانوا حثالة تلك البلاد وخبثها، هم لم يتركوا شيئاً دون أن يدمروه، ولذلك كان فقر الناس وتعاستهم هائلة جداً إلى حد أنهم لم يجدوا من الملابس ما فيه كفاية لستر عوراتهم، ووصلوا أخيراً إلى لنكولن، وقام البارونات بهجمات حادة على القلعة، وفي الوقت نفسه رد المحاصرون على رماياتهم من الحجارة والنشاب بزخات من الحجارة ومن الأسلحة القاتلة بشجاعة عظيمة.

كيف حشد ملك انكلترا جيشاً لرفع الحصار عن قلعة لنكولن

وأثناء وقوع هذه الوقائع، قام وليم مارشال، الوصي على الملك وعلى المملكة، بناء على نصيحة والو النائب البابوي، وبطرس أسقف أوف وينكستر وآخرين كانت بآرائهم تترتب أمور المملكة وتدار، بجمع جميع ولاة القلاع العائدة إلى الملك مع الفرسان الذين كانوا مسؤولين عن القلاع في مختلف أنحاء المملكة، وأمرهم—بناء على أمر الملك— بالاحتشاد في نيو آرك، في اليوم الثاني من اسبوع عيد الشعانين، ليزحفوا من هناك معهم لرفع الحصار عن قلعة لنكولن، وكانوا يتحرقون رغبة للالتحام مع الفرنسيين المحرومين كنسياً، وليقاتلوا أيضاً في سبيل بلادهم، وقد وصلوا مسرورين إلى المكان المحدد من قبل، في الوقت المعين، ووصل معهم النائب البابوي نفسه، وعدد كبير من الأساقفة الآخرين للمملكة، مع خيول وجنود، للهجوم بالأدعية وكذلك بالسلاح على أولئك العصاة لمليكهم والمتمردين على مولاهم البابا، فقد

بدا الأمر بالنسبة إليهم أنهم يمتلكون قضية عادلة للقتال من أجلها، ولا سيما أن ملكهم كان بريئاً، وبعيداً عن الذنوب، هذا الملك الذي يسعى الأعداء بصلفهم لحرمانه من ميراثه، وعندما احتشدوا جميعاً مع بعضهم، لوحظ وجود أربعمائة فارس في ذلك الجيش، وذلك مع حوالي مائتين وخمسين من رماة القسي الزيارة، وكان أيضاً موجوداً حشد لا يحصى عدده من الأتباع والخيالة، الذين يمكنهم في وقت الحاجة القيام بواجبات الجنود، وكان قادة هذا الجيش: وليم المارشال، ووليم ابنه، وبطرس أسقف وينكستر، وكان رجلاً بارعاً في فن الحرب، ورالف ايرل أوف شيستر، ووليم ايرل أوف سالسبري، ووليم ايرل فيرار، ووليم ايرل أوف ألبيمارل، وكان هناك أيضاً من البارونات: وليم دي ألبيني، وجون مارشال، ووليم دي كانتلو(ورداسمه من قبل: كانتيلوب) ووليم ابنه، وفالكاسيوس الشهير، وتوماس باسيت، وروبرت دي فيبونت، وبرين دي آيل، وفيليب دي ألبيني، مع كثير من ولاة القلاع المجربين بالحرب، وقد أقاموا ثلاثة أيام عند نيوآرك حتى تستجم الخيول وينتعش الرجال، وشغلوا بالوقت نفسه أنفسهم بالاعتراف، وبتقوية، أجسادهم بالمشاركة بدم وجسد مولانا، سائلين إياه حمايته ضد حملات أعدائهم، وهكذا كانوا جميعاً جاهزين لمواجهة المخاطر، وقد قرروا الحصول على النصر أو الموت في سبيل القضية العادلة.

كيف عندما احتشد جيش الملك شجع النائب البابوي رجاله جميعاً من أجل المعركة

وبعد أمد، نهض النائب البابوي، في اليوم السادس من اسبوع الشعانين، بعد إقامة قداس قربان مقدس، وأوضح للجميع، كيف أن قضية لويس كانت قضية غير عادلة ومعه أيضاً البارونات الذين التحقوا به، ولهذا السبب حرموا كنسياً، وصاروا غرباء بالنسبة لجماعة

الكنيسة، ولكي يشجع الجيش للقتال، وضع عليه أرديته البيضاء، وقام مع جميع رجال الدين الذين كانوا هناك بإعلان الحرمان الكنسي للويس بالاسم مع جميع المتعاونين معه ومشجعيه، وبشكل خاص أولئك الذين كانوا يتابعون حصار لنكولن ضد ملك انكلترا، مع جميع المقاطعات، في الداخل وفي الخارج، وأما بالنسبة للذين تولوا القيام بالمساعدة في هذه الحرب شخصياً، فقد منحهم بوساطة السلطة المخولة إليه من الرب القديرومن الكرسي المقدس، غفراناً كاملاً من جميع ذنوبهم، التي عملوا عنها اعترافاً صحيحاً، وكجائزة للصالحين، وعدهم بثواب خلاص سرمدي، ثم إنهم بعدما تلقوا جميعاً التحليل، ومباركة الرب، طاروا إلى السلاح، وامتطوا خيولهم على الفور، وقوضوا معسكرهم وكلهم سرور، ولدى وصولهم إلى ستو Stoue على بعد ثمانية أميال من لنكولن، أمضوا الليلة هناك من دون خوف، وجرى في الصباح تشكيل سبعة أفواج كثيفة وحسنة التكوين، وزحفوا ضد الأعداء، وكانوا يخشون فقط من أن يهرب هؤلاء الأعداء قبل وصولهم إلى المدينة، وسار حملة القسي الزيارة، طوال الوقت، أمام الجيش بمسافة تقارب الميل، وسارت عربات الأثقال ودواب التحميل خلف الجيش في الساقة مع المؤن والحاجات الضرورية، وفي الوقت نفسه رفرفت الرايات ولمعت الترسة في جميع الاتجاهات، وألقت الرعب في قلوب الذين رأوهم.

كيف خرج البارونات من مدينة لنكولن واستطلعوا جيش الملك

وكان البارونات الذين كانوا في المدينة مع الفرنسيين قد شعروا بثقة كبيرة، واطمئنوا إلى نجاحهم في مسألتهم، إلى حد أنه عندما أخبرهم رسلهم بوصول خصومهم ضحكوا منهم واستخفوا بهم، واستمروا في رمي قذائفهم من مجانيقهم لتدمير أسوار القلعة، لكن روبرت فتز—وولتر، وس.S إيرل أوف وينكستر، عندما رأيا بأن جنود

العدو باتوا قريبين من المدينة، خرجا لمراقبة وصولهم ولتعدادهم، وبعدما أكملا عملية مسح دقيقة وتقدير للعدو الواصل، عادا إلى المدينةإلى رفاقهما، وأخبراهم قائلين:«إن العدو المقبل ضدنا هو في تعبئة جيدة، لكننا أكثر منه بكثير،ولذلك فإننا نرى وجوب خروجنا من المدينة لتسلق الرابية للتصدي له، لأننا إذا فعلنا ذلك سوف نمسك أفراده مثل طيور القنبرة»، وجواباً على ما قالاه، قال كونت أوف بيرشي، وناظر الجيش وآمره: «لقد عددتموهم وفقاً لرأيكما، ونحن سوف نخرج الآن ونقدر تعدادهم وفق الطريقة الفرنسية»، وخرجا لاستطلاع الجيش المقبل للملك، وفي تقديرهما له انخدعا، لأنهما عندما رأيا العربات والأثقال في ساقة الجيش، مع الحرس الذين تبعوا الأرتال التي كانت معبأة من أجل القتال، اعتقدوا أن هؤلاء لوحدهم شكلوا جيشاً قائماً بذاته، لأنهما شاهدا حشداً كبيراً من الناس، مع أعلام خفاقة، لأن كل واحد من النبلاء كان معه علمين، علماً—كما تقدم وقلنا—كان يتبع العساكر على مسافة في الساقة مع الأثقال، وعلماً آخر كان يتقدم أمام أشخاص كل واحد منهم، حتى يكونوا معروفين عندما يشتبكون في القتال، وعلى هذا انطلت الخديعة على كونت بيرشي مع ناظر الجيش، وعادا في حالة من الشك وعدم التأكد، إلى رفاقهما، ولدى عودتهما إلى المدينة اقترحا على أصحابهما الخطة التالية، ولم يعترض أصحابهما على ما أشارا به، وكانا قد اقترحا تقسيم النبلاء حتى يمكن حراسة الأبواب، ومنع العدو من الدخول منها، حتى يتمكن الآخرون من الإستيلاء على القلعة، الأمر الذي سوف ينفذ فوراً، وقد وافق كثيرون على هذه الخطة، لكن بعضهم لم يوافق عليها، ثم إنهم تدبروا حماية الأبواب، فعينوا حرساً لهم واستعدوا من أجل الدفاع.

المعركة التي نشبت عند لنكولن ويسميها بعضهم«العادلة»

واقترب جيش الملك في الوقت نفسه من الجانب الأقرب من القلعة،

وعندما انكشف ذلك قادة القلعة أرسلوا رسولا خرج من باب خلفي للقلعة ليخبر قادة الجيش بالذي قد عمل في الداخل، وأخبرهم هذا الرسول أنهم إذا ما رغبوا فبإمكانهم الدخول إلى القلعة بتلك الطريقة، لكن أرسلوا فالكاسيوس مع جميع الفرقة التي كانت تحت قيادته، وكل رماة القسي الزيارة، ليقوموا بالعمل على شق طريق بالقوة خلال أحد أبواب المدينة ليدخل منه الجيش، ثم زحف الجيش كله نحو الباب الشمالي، وسعى نحو الاستيلاء عليه وفتحه بالقوة، ولم يعبأ البارونات بذلك، بل تابعوا رمي الحجارة الثقيلة من مجانيقهم ضد القلعة، وفي تلك الأثناء كان فالكاسيوس قد دخل إلى القلعة مع جماعة العساكر التي كانت تحت قيادته، ومعهم رماة القسي العقارة، ومركزهم بشكل مفاجئ على أسطحة الأبنية وعلى الشرافات، حيث من هناك رموا بأسلحتهم القاتلة ضد المهاجمين من البارونات، فكان أن ألقوا بالخيول وبرجالها على الأرض، وهكذا تمكنوا بطرفة عين من رمي قوة كبيرة من الجنود الرجالة، والفرسان والنبلاء، وعندما رأى فالكاسيوس أن عدداً كبيراً أشهرهم من نبلاء الأعداء، قد ألقى بهم على الأرض، شق طريقه بجرأة مع أتباعه واندفع من القلعة إلى وسط الأعداء، وقد وقع —على كل حال— أسيرا في أيدي الأعداد الكبيرة التي انقض عليها، وأخذوه، حتى جرى انقاذه بوساطة شجاعة رماة القسي العقارة لديه والفرسان، وتمكنت الكتلة الكبرى من جيش الملك، في الوقت نفسه من شق طريقها بالقوة خلال الأبواب، وانقض رجالها بشجاعة على الأعداء، وشوهد شرر النار وهو يتطاير، وسمعت الأصوات وكأنها رعود مخيفة، وهي صادرة عن ضربات السيوف على خوذات الرؤوس، لكن الذي حدث أخيرا هوأنه بوساطة رماة القسي العقارة، الذين ببراعتهم عقرت الخيول ورميت أرضاً وقتلت مثل خنازير، أخذ حزب البارونات يضعف كثيراً، لأنه عندما كبت خيولهم وقتلت، وقع المتطون لها أسرى، لأنه لم يكن هناك من ينقذهم، ثم إنه أخيراً عندما ضعف

البارونات على هذه الصـورة، ووقعت أعداد كبيرة من جنودهم أسرى،
وجرى وضعهم في أمـاكن أمينة، انقض فرسان الملك بصفـوف متراصة
على كونت بيرشي، وطوقـوه تماماً، وبما أنه لم يعد بإمكانه الصمـود أمام
اندفـاعهم القوي ضـده، دعـوه إلى الاستسلام حتـى ينجو بحيـاته لكنه
أقسم أن لا يستسلم لانكليـزي، لأن الانكليـز خـونه لملكهم الشرعي،
ولدى سماع ذلك انقض عليه فارس وطعنه بعينه،فخـرق دماغه، فسقط
إثر ذلك دون التفـوه بكلمـة أخـرى، وعندما رأت الكتـائب الفـرنسيـة
مقتل قائدها، شرعت بالفرار، وشـارك في ذلك الجنود الخيالة والرجالة،
مع خسائـر كبيرة، لأنه مزلاج الباب الجنوبي ، الذي شرعـوا بالفرار من
خلاله، كان قد وضع بشكل معكوس، مما أعاق فرارهم كثيراً، لأنه كان
عندمـا أي واحد يصـل إليه، ويرغب بالخروج مـن خلال ذلك البـاب،
كان يرغم على الترجل من على ظهـر حصانه، وبعد عبوره، كـان الباب
ينغلق ثانيـــة، ويسقط المزلاج من جـديد عبر البـاب كما كـــان من قبل،
وهكذا شكــل هذا معيقـــاً كبيراً، وسبب اضطـراباً عظيماً للفـــارين،
ولاحقت قوات الملـك الباورنات والفرنسيين الفـارين، ومع أن بعضهم
وقعـوا أسرى، فـإن رجـال الملك تظاهـروا فقط بمطاردتهم، ولولا أنهم
فعلوا ذلك بحكم العلاقات والقرابـات، ما من واحد منهم كان يمكن
له النجـاة، ودون أن أطيـل الرواية من دون هدف، كـــان من بين قـادة
الباورنات الذين وقعـوا أسرى: سير ايرل وينكستر، وهنري دي بوهون
Bohon إيرل أوف هيرفـــورد، والكونت غيلبرت دي غـــانت، الذي
جعل منه لويس مؤخراً إيرل لنكولن، وكان كونت دي بيرشي ممددا ميتاً
هناك، وكـــان مـن بين الذين اتخذوا أسرى من البـــارونـات: روبرت
فتـــز—وولتر،ورتشـــارد دي مـــونتفتشت Montfitchet ،ووليم دي
مـاوبري Mowbray ووليم دي بوشـامب Beauchamp ووليم دي
مودوت Maudut وأوليفر دي هينكورت Haencurt وروجردي
كـــريسي Creisiووليم دي كـــولفيــــل، ووليم دي روز Roos

وروبـــرت دي روبلي Roppele ورالف دي تشيندوت Choindut وآخرون كثر، أن تذكـرهم أمر متعب،وكان عدد الفـرسان الذي أسروا ثلاثمائـة، وذلك إلى جانب الجنود من خيـالة ورجـالة، وهؤلاء ليس من السهل تعـدادهـم، ودفن كـونت دي بيرشي في دير الاسبتـارية خـارج المدينة، أما رينالد الذي لقبه كروكوس Crocus وكان فارساً شجاعاً من حـاشية فـالكاسيوس، قـد قتل هناك، فقـد دفن في دير كروكستـون Croxton بشكل مشرف، وقـد قتل هناك في هذه المعركـة جنود من حزب البارونات، غير معـروفين من قبل أحد، ودفنوا خارج المدينة عند التقـاء أربعـة طرق مع بعضهـا، وذلك بحكم كـونهم محرومين كنسيـاً، وفقط الثلاثة الذين تقـدم ذكرهم أعلاه، قـد ورد ذكرهـم بأنهم قتلوا في هذه المعركة الكبيرة.

نهب المدينة وسلبها

وبعـد انتهاء المعـركة على هـذه الصورة، وجـد جنود الملك في المدينة عـربات البـارونات والفـرنسيين مع خيـول التحميل، وكلهم مثقلين بالأثقـال، وأواني الفضـة، ومختلـف أنواع الأثاث، وأدوات المنزل، وقـد أخـذوا ذلك كله بأيديهم مـن دون معـارضـة، ثم إنهم نهبـوا بعـد ذلك المدينة إلى آخـر أصغـر قطعة نقـد، ثم إنهم نهبـوا بعـد ذلك الكنائس في جميع أرجاء المدينة، وحطموا وفتحـوا الصناديق وغرف الخزن بالفؤوس والمطارق واستولـوا على الذهب والفضة التي كانـت فيهم، وعلى أقمشة من جميع الألوان، وعلى الزيـن النسـائيـة، وخـواتم الذهب، والأقـداح، والمجـوهرات، كما أن الكنيسـة الكاتدرائيـة لم تنج من هذا التـدمير، بل عانت مـن العقوبة نفسها مثل البقيـة، لأن النائب البابـوي أعطى أوامر إلى الفـرسان بمعـاملة جميع رجال الدين بمثـابة رجال محرومين كنسيـاً، وبالقـدر نفسـه بمثـابة أعـداء لكنيسـة رومـا وللملك انكلترا، منذ بداية الحرب،وخسر غيوفري دي دربنغ Drepinges قائد جوقة المرتلين في

هذه الكنيسة أحد عشر ألف مارك من الفضة، وبعدما استولوا هكذا على كل نوع من السلع، حتى إذا لم يبق أي شيء في أية زاوية من البيوت، عاد كل واحد منهم إلى مواليهم بمثابة رجال أثرياء، وجرى الاعلان عن السلم مع الملك هنري في جميع أرجاء المدينة، وقد أكلوا وشربوا وسط السرور والاحتفال، ووقعت هذه المعركة التي عرضت لويس والبارونات للسخرية، وأطلق عليها اسم «العادلة» في التاسع عشر من أيار، وكان ذلك يوم سبت في اسبوع أحد الشعانين، وقد بدأت فيما بين الساعة الأولى والساعة الثالثة، وانتهت من قبل الذين أداروها بشكل جيد قبل التاسعة، وكثير من نساء المدينة تعرضن للغرق في النهر، لأنهن—حتى يتجنبن الاهانة—أخذن قوارب صغيرة مع أولادهن وخدمهن من الاناث، والسلع الموجودة في بيوتهن، وقد هلكن وهن على طريق رحلتهن، وقد تم العثور فيما بعد في النهر من قبل الباحثين على أقداح من الفضة، وكثيراً من الأشياء كانت ذات فوائد كبيرة ومرابح للذين عثروا عليها، لأن القوارب كانت محملة أكثر مما ينبغي، ولم تعرف النساء كيف يتدبرن القوارب، فغرقن جميعاً لأن كل عمل، نفذ بسرعة كانت محصلته دوماً سيئة.

وبعد الفراغ من هذه الأعمال، أمر وليم المارشال جميع ولاة القلاع بالعودة إلى قلاعهم مع الأسرى، وأن يحتفظوا بهم هناك في سجون مضيقة، حتى يعلموا برغبة الملك حولهم، وعاد وليم المارشال المذكور في اليوم نفسه، قبل أن يتناول أي طعام، فقد عاد إلى الملك فأخبره بحضور النائب البابوي بالذي حصل، وهم بعدما صلوا إلى الرب وهم يبكون، ما لبثوا ان غيروا الدموع إلى ابتسامات، وفي الصباح وصل رسل إلى عند الملك، وأخبروه بأن الفرسان الذين كانوا في مونتسوريل قد غادروا القلعة وهربوا، وبناء عليه أمر الملك عمدة نوتنغهام بالذهاب شخصياً إلى القلعة وهدمها وتسويتها بالأرض.

فرار البارونات مع الفرنسيين من لنكولن

بعد مقتل كونت بيرشي— كما ذكرنا أعلاه— لجأ الجميع إلى الفرار خيالة ورجالة نحو مدينة لندن، وكان أبرز الشخصيات بينهم ناظر الجيش مع قسطلان أراس، وجميع الفرنسيين، وتعرض— على كل حال— كثير منهم للقتل، ولا سيما الرجالة، فقد قتلوا قبل وصولهم إلى لويس، لأن سكان البلدات التي عبروا منها أثناء فرارهم، خرجوا للتصدي لهم بالسيوف والهراوات، ونصبوا الكمائن لهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، ووصل حوالي المائتي فارس إلى لندن، ومثلوا أمام لويس، ليخبروه عن خسائرهم، وقد أخبرهم وهو موجه اللوم إليهم، أنه بسبب فرارهم، وقع أصحابهم بالأسر، لأنهم لو بقيوا للقتال لكان ربما من الممكن انقاذ أنفسهم، وكذلك انقاذ رفاقهم من الأسر ومن الموت، وينبغي أن نؤمن بأن هذه الهزيمة وقعت للويس ولبارونات انكلترا بمثابة جزاء من الرب، لأنهم كانوا قد أمضوا حتى الآن قرابة العامين تحت الحرمان الكنسي، ولولا أنه جرى تقويمهم بعقوبة ربانية، كان الناس سيقولون:«ليس هناك رب»ولن يكون هناك من يعمل بشكل صحيح، لا ولا واحد أبداً.

موت البابا انوسنت

وفي السادس عشر من تموز من العام نفسه، سدد البابا انوسنت دين الطبيعة البشرية، بعدما شغل كرسي الحبرية لمدة ثمانية عشر عاماً، وخمسة أشهر، وأربعة أيام، وقد خلفه هونوريوس، الذي كان معروفا من قبل باسم سينشو Cencio ، وهوالذي شغل الكرسي في الكنيسة الرومانية لمدة عشر سنوات، وسبعة أشهر وتسعة عشر يوماً.

كيف بعث لويس إلى أبيه يطلب منه عساكراً

وبعد سوء الحظ الذي ألم بلويس في لنكولن، بات يائساً من فعالية

قضيتـه، وبناء على نصيحـة تلقـاها، بعث رسـلاً إلى أبيـه، وإلى زوجتـه السيـدة بلانشي، يخبرهما بالخسـائـر المؤسفـة التـي ألمت به وبالبـارونات الانكليز في لنكولن، وهي خسائر حلت بهم - كما قال - من عند الرب أكثـر منهـا من عند الانسـان، وأن ملك الانكليـز قـد أصبح الآن قـوياً جداً، إلى حد أنه يستعرض قوة ضخمة خلال المدن والبلدات من حول لندن، ويمنعـه ويمنع أصحـابه من مغادرة المدينـة، وقال: «عـلاوة على ذلك، نحن بحاجة مع أتباعنا إلى جميع أنواع المؤن لتناقصها لدينا، ثم إنه لو توفـرت المؤن هنا نحن ليس لدينا وسـائط لشرائهـا، ولذلك إنني أخبرك ليس لدينا وسـائـل للمقـاومـة، أو لمغـادرة انكلترا، مـالم تزودني بعون عسكري قـوي»، وعندما وصلت هذه الأخبـار إلى الأب من ابنه، وإلى الزوجـة من زوجهـا، قلقـاً كثيراً لوجـوده في ذلك الوضع الصعب والضائقـة، وبما أن الملك كان خـائفاً من تقـديم العون إلى ابنـه المحروم كنسيا، ولأنه غالباً ماتعـرض إلى اللوم الشديد من قبل البابا، لأنه منحه موافقته ألقى بثقل المسؤولية عن الأعمال كلها على زوجة لويس، التي لم تكن بطيئة ولامتوانية في القيام بالواجب الذي فرض عليها، بل أرسلت إلى زوجها مساعدة مكونة من ثلاثمائة فارس شجاع مجهزين بشكل جيد بالعتاد من أجل الحرب، وتحيط بهم كتلة كبيرة من الجنود، لكن هذا كله لم يكـن مـن الممكـن كتمانـه عـن ملـك انكلترا، الـذي استرد الآن شجـاعتـه،وتوفـر لديـه جيش كبير، كما أنه قـد تملك جميع السـواحل الجنوبيـة، لـذلك قـرر محاصرة مـدينة لندن، ومـن أجل ذلك وبناء على نصيحـة المارشال الأكبر أنـاب فليب دي ألبيني، وجون مـارسـاك، مع بحارة الموانى الخمسـة، وكتلة كبرى من العسـاكر، للقيـام بمهمة مـراقبة البحاربكل دقة، وأن يعملوا على منع وصول الفرنسيين.

وفي يوم عيد القـديس بارثلميو، أوكلت قيـادة الاسطول الفرنسي إلى يوستاس الراهب وكـان رجلاً فـاسداً جداً، وقـرصاناً شريراً، وقـد أمر

بقيادة الأسطول سالماً إلى لندن، وأن يسلمه إلى لويس، ووقتها أقلعت سفن الجنود المذكورين بالبحر، مع ريح قوية مناسبة، ساقتهم بسرعة نحو انكلترا، لكنهم كانوا جاهلين تماماً بالاستعدادات التي عملت ضدهم، وبناء عليه بعدما قطعوا مسافة جيدة على طريقهم، قدم قادة اسطول ملك انكلترا بوساطة طريق التفافي مع ثمانين سفينة للتصدي لهم، ولذلك كان الفرنسيون خائفين من الاشتباك معهم في البحر، بوساطة سفنهم القليلة العدد، التي لم يتجاوز تعدادها الأربعين مابين غليون وسفينة عادية، ثم إن الحادثة التي وقعت في لنكولن والتي انتصر فيها عدد قليل على عدد كبير جداً، شجعت الانكليز، فهاجموا بجرأة مؤخرة العدو، وعندما اكتشف الفرنسيون هذا، هبوا إلى حمل سلاحهم، وعملوا مقاومة جريئة ضدهم، وأرسل فيليب دي ألبيني مع رجّالة رماة القسي الزيارة ورماته العاديين بنشابهم ونبالهم بين الفرنسيين، مما تسبب بمقتلة كبيرة بين الذين تصدوا لهم، وقد خرقوا سفن أعدائهم، وبلحظة واحدة أغرقوا كثيراً منها، كما أنهم ألقوا برماد كلس حامي فوق البحر، وقد حملت الرياح هذا الرماد، فأعمت عيون الفرنسيين، وقام اشتباك حاد بين الاسطولين، لكن اسطول الفرنسيين الذي لم يكن رجاله بارعين في القتال البحري، مالبث أن هزم، لأن ملاحية سقطوا أرضاً بوساطة أسلحة البحارة الانكليز ونشابهم، ذلك أنهم كانوا معتادين على القتال البحري، فطعنوهم بحرابهم ونشابهم، أو مزقوهم بسيوفهم ورماحهم، في حين تمكن آخرون من فتح ثغرات في قعر السفن، وأغرقوهم، ولذلك لم يعد لدى الفرنسيين أملاً بالنجاة، فرموا بأنفسهم طواعية بين الأمواج حتى لايؤخذوا أسرى من قبل أعدائهم، ذلك أنهم آثروا الموت على أن يقعوا أسرى بين أيدي الانكليز، أما النبلاء الفرنسيون الذين بقيوا أحياء فأخذوا أسرى، وقطر الانكليز المنتصرون خلفهم السفن المأسورة، وأبحروا بعد نصرهم الرائع نحو دوفر، ورأتهم الحامية العسكرية لذلك المكان، ورأت هذا الفضل

الرباني غير المتـــوقع، لذلـك خــرج رجــالها لاستقبــال أبناء وطنهم الواصلين، ووضعـوا الأسرى التعسـاء الفرنسيين في معتقـلات ضيقـة، وكــان بين الأسرى ذلـك الخائن لملك انكلترا، والقــرصــان الشرير، يوستـاس الراهـب، فبعـد بحث طويل عنه وجــدوه، وجـروه من مخبأ إحدى السفـن، وعندما وجـد نفسه أسيراً، عرض مبلغـاً كبيراً من المال مقابل حياته، وسلامة جســده، ووعد في أن يقاتل في المستقبل باخلاص تحت قيادة ملك انكلترا، لكن قال له رتشارد الابن غير الشرعي للملك جـــون، وهو الـذي أسره: « إنك أيها الخائن الشرير، لـن تخدع في هذه الدنيـا أي انســان بوعودك الـزائفة»، وبهذه الكلمات جـرد سيفـه وقطع رأسه، وجمع بعـد هذا أتباع الملك جميـع الأسلاب من السفن الفـرنسية، وتضمن ذلك: الذهب، والفضة، والأقمشة الحريرية، والأسلحة ،وعهد بالأسرى إلى سجـن أمين، وأخبر فيليب دي ألبيني الملـك بالـذي فعله، فقـدم على الفـور الشكر إلى المولى على هذا النصر الذي أرسلتـه السماء، والرب هو دائماً وفي كـل مكان مــدهـش بأعماله بين الناس، وعنـدمــا وصلت أخبـار هذه الحادثة إلى لويـس، كــان مـزعـوجـاً أكثـر من هذه الكارثة، مما شعر به إثر معركة لنكولن.

اتفاقية السلام التي عملت بين ملك انكلترا وبين لويس

وبعد هذا حشد المارشــال، الوصي على الملك والنائب له، جيشاً كبيراً من الفــرســان والجنود، وزحف بعــزم شـديد إلى مــدينة لندن، حيث حـاصرها من جميع الجهات بـراً وبحراً، وبذلك قطع الامـدادات والمؤن عن الحاميـــة العسكرية فيهــا، وفكـر أنه بذلك سيرغم أفـــرادها على الاستســلام، وعندمـا وجـد لويس نفسـه في هذا الوضع الحرج، أرسل رسالة إلى النـائب البابوي وإلى المارشال، أنه على استعـداد للتسليم وفق شروطهم جميعاً، على شرط أن يعملوا معه اتفاق سلام مناسب، يحفظون به كـرامته مع عـدم تعريـض أتباعـه للأذى، وبناء عليه، بما أن القضيـة

صارت بين أيديهم، ولأنهم رغبوا إلى أبعد الحدود بالتخلص من لويس، أرسلوا إليه شروطاً للسلام، دونت كتابة، وأخبروه أنه إذا ما وافق على الشروط، سوف يتعهدون بمنحه مخرجا حراً من انكلترا له شخصياً ولجميع أتباعه من المغامرين، لكنه إذا لم يوافق سوف يتدبرون تدميره، والحاق الأذى به من كل جانب، وعندما رأى لويس ومستشاروه هذه الشروط للسلام، كان مسروراً جداً بالسماح له بمغادرة انكلترا، حيث بدا له ولأتباعه أنه بلافائدة البقاء هناك أية مدة أطول، ولذلك أرسل رسالة إلى النائب البابوي، وإلى المارشال الأكبر، لتعيين مكان وموعد من أجل إبرام المعاهدة المذكورة وتنفيذها، ثم وافق الفرقاء على الشروط، واجتمعوا في مؤتمر قرب بلدة ستين Staines على نهر التيمز، لعقد السلام، وكان الملك هنري مع النائب البابوي والمارشال الأكبر، وآخرون كثر من الجانب الأول، ولويس مع الايرلات والبارونات والآخرون من أتباعه من الجانب الآخر، وكلهم هناك وافقوا بفضل النعمة الربانية على شروط السلام المدونة أدناه، وكان ذلك في الحادي عشر من ايلول.

صيغة السلام والعقوبات الثقيلة للمحرومين كنسيا بسبب الملك

وأقسم في المقام الأول لويس وجميع الذين كانوا محرومين كنسيا، وكل أتباعه من المغامرين، على الأناجيل المقدسة، أنهم سوف يلتزمون بقرار الكنيسة المقدسة، وأنهم سوف يكونون من الآن فصاعداً مخلصين لمولاهم البابا، ولكنيسة روما، وأقسم لويس أيضا أنه سوف يغادر على الفور انكلترا مع جميع أتباعه، وأنه لن يعود ثانية قط إليها مع نوايا شريرة، وأنه سوف يبذل أفضل جهوده لاقناع أبيه فيليب بأن يعيد إلى الملك الانكليزي هنري جميع حقوقه في مقاطعات ماوراء البحار، كما أنه أقسم أنه سوف يقوم على الفور بتسليم الملك وأتباعه جميع القلاع وكل الأراضي، التي احتلها هو وأتباعه في انكلترا أثناء الحرب، وأقسم ملك

انكلترا مع النائب البابوي والمارشال على الأناجيل المقـدسة، أنهم سوف يعيـدون إلى بـارونات انكلترا وإلى الآخـرين في المملكة جميع حقــوقهم ومواريثهم مع جميع الامتيازات التي طلبوها من قبل، والتي هي متعلقة بالخلاف الذي تفجـر بين جـون ملك انكلترا والبارونات، أمـا بالنسبـة للأسرى، والذين فـدوا أنفسهـم قبل إعـداد ترتيبـات السـلام، وكـذلك الذين تولـوا دفع جـزء من المال المتفق عليــه من أجل فـديتهم، هؤلاء جميعـاً لايجوز استرداد الذي دفعوه، لكن بالنسبـة للمتبقي فإنهم يحررون من دفعــه تمامــا، وفيما يختص بالأسرى الـذي أسروا في لنكولن، أو في القتال البحري قرب دوفر، سـواء أكانوا من جانب الملك، أومن جانب لويس، هؤلاء من المتوجـب اطلاق سراحهم في كل مكان، وعلى الفور، ومن دون أية صعوبات، ومن دون دفع أية فدية أو غرامة.

وبعـد إقـرار هذا كله جـرى تحليل لويس مع أتبـاعـه وفقـاً لطريقـة الكنيسـة، وأعطى كل واحـد منهم إلى الآخـر قبلة السـلام، لكن عـدداً كبيراً منهم فعل ذلك مخادعـة، وتظاهروا بالسرور تظاهراً، وعـاد لويس بعد هذا إلى لندن، حيث تسلم خمسـة آلاف باوند استرليني للانفاق على مااحتاج إليـه، ثم قام تحت توجيه المارشال الأكبر، بالتـوجه بكل سرعة إلى ساحل البحـر، ومن هناك عبر - وهو يحمل وصمة عـار أبدية -إلى فرنسا.

واستثني من الافـادة من هذا التحليل وهذا السلام، جميع الأسـاقفة، ورعـاة الديرة، ورؤساء الرهبـان، والكهنة، والمدنيين، وعدد من رجـال الدين، الذين قـدمـوا نصيحة وأظهـروا ميـلاً نحو لويس والبـارونات، وبشكل خــاص المعلم سيمــون دي لانغتــون، والمعلم غيرفــاس دي هوبيرج Hobregge اللذان اشتطا كثيراً في عنادهما، وكـانا وراء تقديم الخدمـات الدينيـة والقـداسـات إلى لويس وإلى البـاررونات المحـرومين كنسيـا، بوساطة كهنة محرومين كنسيـا، ولذلك استثنيـا من جميع المنافع،

وأرغما من قبل النائب البابوي على الذهاب إلى روما.

وفور مغادرة لويس لانكلترا، أرسل النائب البابوي مفتشين إلى جميع كونتيات انكلترا للبحث من أجل معرفة جميع الذين كانوا مجرمين، ولو بأقل المشاركات في العصيان، مهما كانت الطائفة الدينية التي انتموا إليها، ومهما كانت مراتبهم، وارسالهم إلى النائب البابوي بعد تعليقهم وتجريدهم من جميع المصالح، وقد قام بتوزيع مصالحهم بين كهنته، وهكذا أغنى أتباعه عن طريق افقار الآخرين، ووصل هيوج أسقف لنكولن إلى انكلترا أيضاً، ليسترد أسقفيته، وقد دفع ألف مارك استرليني نقداً لصالح البابا، ومائة إلى النائب البابوي، وحذا حذوه عدد من الآخرين من الكهنة ورجال الدين، حيث استردوا حظوة النائب البابوي مقابل تدمير الآخرين، وبمثل هذا الاستنزاف أفرغ حافظات نقود رجال الدين، والكهنة العلمانيين، وهكذا وحسب ما جاء في الانجيل، لقد جمع في مكان واحد، كل الذي كان متفرقاً في الخارج، وعمل من أجزاء متعددة كومة كبيرة.

كيف استعد سكان كولون وفريزلاند للزحف إلى الأرض المقدسة

وكان في هذه الآونة هناك حركة عظيمة لرجال شجعان ومقاتلين أشداء في مقاطعتي كولون،وفريزلاند، لأنهم قاموا منذ التبشير بالصليبية بعد المجمع المسكوني، بنشاط عظيم، فبنوا ثلاثمائة سفينة، وأقلعوا فيهن، للوفاء للرب بنذر الحج، ونشروا الأشرعة، ووصل الشطر الأعظم منهم مع أرتال كبيرة من الجنود إلى لشبونة، حيث تفجر خلاف شديد فيما بينهم، حول إلقاء الحصار على قلعة قوية اسمها القليعة Alchatia، فقد كان بعضهم متشوقاً لمتابعة الزحف، وأراد آخرون امضاء الشتاء حيث كانوا، وهكذا انقسم الاسطول، حيث أمضى القسم الأول منهم الشتاء

في غيطه Gaeta وسورنتو Sorrento ، وتولى القسم الآخر، وهو تحت قيادة قائدين هما: وليم دوق هولاندا، وجورج كونت ويز Weise إلقاء الحصار على القليعة، وأثناء انشغالهم بالحصار تجمعت قوة كبيرة من المسلمين ضدهم، واشتبك المسلمون معهم في القتال، وبوساطة العون الرباني غلبوا المسلمين، وجرى قتل ملك واحد من المسلمين، كما جرى قتل عدد آخر وأخذوا أسرى، وجرى أخيراً الاستيلاء على القلعة من قبل الألمان، واحتفظ بها الصليبيون.

حصار قلعة نيوآرك وروبرت دي غوغي

عام ١٢١٨م، فيه كان الملك هنري في أيام عيد الميلاد في نورثأمبتون، حيث قدم فالكاسيوس كل الضروريات من أجل الاحتفال الملكي، وكان في تلك الآونة في انكلترا كثير من النبلاء، كانت متعتهم الرئيسية أثناء الحرب الأخيرة، أن يعيشوا على النهب، والآن مع أنه أعلن عن السلام ومنح إلى الجميع، لم يكن بامكانهم منع أيديهم وإيقافها عن النهب، وكان رأس المثيرين لهذا العمل:

وليم ايرل أوف ألبيميرلي Albemerle ، وفالكاسيوس وولاة قلاعه، وروبرت دي فيبوت، وبرين دي آيل، وهيودي بالأويل Baliol، وفيليب مارسي، وروبرت غوغي، وعدد كبير آخر، الذين بتحد منهم لتحريم الملك، وضد موافقة الملاكين استأنفوا أعمال الاحتفاظ بين أيديهم بقلاع بعض الأساقفة والنبلاء مع أراضيهم وممتلكاتهم الأخرى، وكان بين هؤلاء روبرت دي غوغي، الذي رفض، بعد عدة انذارات من الملك تسليم هوغ أسقف لنكولن، قلعة نيوآرك مع البلدة ومتعلقاتها، مع أنها كانت حقاً لذلك الأسقف وأثارت هذه الظروف غضب المارشال الأكبر، فقام بناء على أوامر الملك فحشد جيشاً كبيراً، وزحف بصحبة الملك نفسه ضد القلعة المتقدمة الذكر، وعندما وصلا إلى أحوازها، أرسلا أمامهما بعض الجنود لمنع رجال الحامية من مغادرة

القلعـة، حتى لايتمكنوا من القيـام بهجـوم مفـاجيء ومن ثم يحرقـون البلدة، وعندمـا سمع روبرت وأصحـابـه بوصـول هذا الجيش، قـامـوا بانقضـاض عليه، لكنهـم أرغموا على التراجع ثانيـة بسبب قتـال جنود الملك، وقتل أثناء هذا القتال وليم دي ديفا Diva ، وكان فـارساً من حـاشيـة هوغ أسقف لنكولن، وجـاء قتله أثنـاء مطاردته للأعـداء وهم يتراجعون إلى القلعة، وقد جرح عـدد آخر، وقد انزعج الملك والمارشال الأكبر كثيراً تجاه هذا، وأمـرا بآلات حـربهما بالانتشـار والتمركـز حـول القلعـة ورمي الأسوار ومتـابعة القصف من المجـانيق، واستمر الحصـار لمدة ثمانية أيام تقريبا، خلاله تقدم أصدقاء روبرت المذكور بعرض سلام إلى أسقف لنكولن، وأخيراً توصل الفريقان مع مـوافقة الملك إلى اتفاق، قضى بوجوب أن يدفع الأسقف المذكور إلى روبرت غـوغي مائة باوند استرليني مقـابل المخـزونات في القلعــة، وبمـوجب هذه الشروط رفع الحصار، وعاد كل واحد إلى بيته.

زحف القوات الصليبية من عكا إلى دمياط

وجـرى في هذا العـام تنفيـذ خطط البـابا انـوسنت، التي كـانت قـد تقررت في مجمع اللاتيران، أي جلب جيش المسيح إلى أرض مصر، ففي شهـر أيار، كـانت المراكب والغـلايين مـع عـدد من سفن التحميل قـد جـرى تحضيرها، وأبحر جـون ملك القدس والبطريرك من عكا برفقـة أسـاقفة نيقـوسيـا، وعكا، وبيت لحم، ودوق النمسـا، ومقدمـو الداوية واسبتـارية القـديس يوحنـا، والقـديسـة مـريم الألمان وحشـد كبير من الصليبيين، وبدأت الريح تهب قليلاً، وتمتع جيش الرب برحلة مـوائمة، ووصل في اليوم الثالث إلى دمياط، ونزل وقتها بعض الجنود إلى اليابسة، واستحوذوا على هذه الأرض العدوة من دون سفـك للدماء، وتصدى لهم عدد قليل من الفـرسان المسلمين، وعندما جثا واحـد من الفريزيين على ركبتـه اليمنى فـوق الأرض، وحمى نفسـه برمحه بيـده اليسرى وهز

حربته وسيفه بيده اليمنى، رآه أحد المسلمين فخيل إليه أنه يلعب، لكنه مالبث أن تلقى فجأة الجراحه على يد الفريزي، وسقط الفارس وفرسه نتيجة لذلك على الأرض، وهرب الباقون، وهكذا اختط جيش المؤمنون معسكره فيما بين الساحل وشواطيء النيل، ونصب آخرون خيمهم من دون عائق، وصنع الرب المعجزة التالية لشعبه المؤمن، فقد كانت مياه النهر قرب البحر عند أول وصولهم حلوة المذاق، ولكنها صارت بعد ذلك مالحة، وصولاً حتى القلعة، التي كانت تبعد ميلاً عن دمياط، وعندما وصل الصليبيون إلى هناك حدث خسوف كامل للقمر، وفسر الصليبيون ذلك أنه يشير إلى هزيمة المسلمين، لأنهم تنبأوا فعزوا وقوع وقائع كبيرة إلى نقص أو زيادة تلك الظاهرة الفلكية.

حصار برج دمياط فوق نهر النيل

وشاهد بعد هذا أتباع المسيح في وسط نهر النيل، وليس بعيداً عن دمياط برجاً عاليا ورشيقاً قد بني بشكل قوى من الحجارة، ومنه امتدت سلسلة ضخمة جداً من الحديد عبر النهر إلى المدينة التي قامت على الشاطيء الآخر للنهر، وكان رأي الجميع وجوب احتلال ذلك البرج قبل إلقاء الحصار على دمياط، لكن قام الفريزلانديون، مع انعدام الصبر المعهود لديهم، بعبور النيل، واستولوا على خيول المسملين، وكانوا يرغبون بنصب معسكرهم على الطرف الأقصى من النهر، ووقفوا يقاتلون ضد المسلمين الذين خرجوا للقتال ضدهم، ولقد استدعوا -على كل حال -من قبل البطريرك، بموجب قسمهم بالطاعة، لأنه بدا بالنسبة لقادة الصليبيين أنه ليس مفيداً ترك البرج خلفهم مملوءاً بالمسلمين، ورأى قادة جيش المسيح، أنهم وإن كانوا متشوقين للسيطرة على ذلك البرج، من غير الممكن الاستيلاء عليه بالتجويع، بسبب قربه من المدينة، كما لايمكن لغمه بسبب قوة جريان الماء الذي يحيط به، كما لايمكنهم اخضاعه بالقصف من مجانيقهم وعراداتهم، لأنهم قد حاولوا

ذلك لعدة أيام، فحصلوا على قليل من التقدم أو على لاشيء، وفي وسط هذه المعضلة توصلوا إلى القـــرار التـــالي، وهو وصل بعض السفن والقوارب مع بعضها، وأن يعدوا بعض السلالم على قمم السواري، ووضعوا هناك بعض رماة القسي الزيارة والجنود، وقد أملوا بوساطة هذه الخطة بتحقيق غرضهم، ووقتها شيد دوق النمسا مع اسبتارية القديس يوحنا سلمين فوق القوارب، وقد رفعا نحو الأعلى في عيد القديس يوحنا (٢٤ حزيران) وقام المسلمون طوال الوقت بعمل مقاومة شجاعة، ومحزن أن نحكي بأن سلم الاسبتارية قد تحطم، وسقط جنودهم في النهر،، ومثل ذلك أيضاً حدث للسلم الثاني، أي سلم دوق النمسا وسقط بالطريقة نفسها مع سارية السفينة، وغرق الفرسان الشجعان والجنود في النيل وقد أخذ المسيح أرواحهم جميعاً إلى السماء، حيث تتوجوا مع الشهداء الممجدين، ولقد فرح المصريون كثيراً جداً، وسخروا من الصليبيين، وضربوا بأبواقهم استهزاءاً بهم، في حين كان الحال على العكس بالنسبة للصليبيين، حيث غلبهم الحزن واليأس، وقام الفريزلانديون والألمان بقيادة أدولفوس دي مونتي Adolphus de Monte ، وكان نبيلاً شجاعاً ومقتدراً، وقتها بتحصين سفينة بسواتر وبقلعة صغيرة وضعوها على رأس السارية، وهوجمت هذه السفينة بشدة من قبل جنود المدينة، والبرج، والجسر بالنفوط وبالمجانيق، وأخيراً اشعلوا النار فيها، وعندما أصبح الصليبيون خائفين أنها سوف تحترق كلياً، بذل الملاحون في السفينة جهوداً كبيرة لإطفاء النار، ووقتها أحدث رماة القسي العقارة من الداخل دماراً كبيراً بين المسلمين، وكانت سفن أخرى، أثناء ذلك الهجوم، تابعة للصليبيين، قد جرى تحصينها بالسواتر الدفاعية، وقد بادرت مسرعة نحو البرج بكل احكام، فتكبدت خسائر كبيرة بالرجال والممتلكات.

الاستيلاء على البرج المتقدم الذكر والشجاعة المدهشة للصليبيين

وبين الرب القدير أخيراً الخطة التالية، وقام المهندسون بإلهام منه، بامتلاك القدرة على تنفيذها، حيث قام الجيش الصليبي، على حساب الفرسان الألمان والفريزلانديين، وبالتعاون بين هذين الفريقين فوصلوا سفينتين مع بعضهما بالألواح الخشبية والحبال، وبذلك امتلكوا قاعدة ثابتة، فشيدوا أربع سواري، ووضعوا على رأسهم بريج على شكل سلة، وغطوه بالجلود لمنع تأثير النفوط، وشيدوا تحت البريج سلماً عالياً، وعلقوه بحبال قوية، فوصل إلى مسافة ثلاثين ذراعاً أمام قيدوم السفينة، وتم الفراغ من هذا العمل في وقت قصير، واجتمع قادة الصليبيون وقتها، لفحصه، ولمعرفة فيما إذا كان هناك أي نقص بالنفقات، أو بعبقرية الرجال، حتى يمكن تدارك ذلك، ولقد تلقوا جواباً أن مثل هذه الآلة لم يكن لها مثيل من قبل قد صنع من الخشب، واعتقد الصليبيون أنه يتوجب عليهم استخدام هذه المنشأة على الفور ضد البرج، لأن الجسر الذي وصل المسلمون به البرج، كان قد تدمر إلى حد كبير، بسبب الرمايات المتواصلة من آلات الفرنجة، وفي اليوم السادس قبل عيد القديس بارثلميو (١٨ -آب) زحف الصليبيون بشكل تقوي وبأقدام حافية، وبمسيرة مهيبة إلى الصليب المقدس، وسار رجال الدين في الأمام وهم ينشدون ويقرأون القداسات، وبتواضع التمسوا العون الرباني، وأن تكون القضية كلها محررة من جميع أنواع الغيرة والحسد، وفارغة من كل تفاخر ورعونة من قبل أي أناس كانوا آنذاك في الجيش، واستدعوا عدداً من القادة لرؤية نتيجة هذا الهجوم، مع أن الفريزلانديين والألمان كان فيهم كفاية لشغل السفن وادارتها.

وفي يوم عيد القديس بارثلميو (٢٤ -آب) الذي كان اليوم السادس من الاسبوع، مع أن النيل كان فائضاً كثيراً، وقوة التيار كانت معيقة جداً للعمل، سحبت الآلة نحو البرج، على الرغم من كثير من المصاعب والخطر، وسارت السفينة التي ربطت إليها تحت الأشرعة، في

حين سار البطريرك، ورجال الدين على طول الشاطىء وهم يصلون إلى الرب، وعندما وصلوا إلى البرج لم يكن من الممكن جلب هذه الآلة المزدوجة إلى الجانب الغربي، ولذلك سارت بشكل مباشر إلى الجانب الشمالي، وأخيراً جرى تثبيتها، وبعد طويل وقت تم ضمان تثبيتها بالحبال والمراسي، مع أن قوة المياه الفائضة كانت تهدد بدفعها بعيداً، وعندما رأى المسلمون ذلك، أقاموا ست آلات رمي على أبراج المدينة لتدمير الآلة، لكن احدى هذه الآلات التي كانت أكثر فعالية بالتهديم من البقية، تحطمت بعد عدة رمايات، وباتت غير صالحة، ومع ذلك هم لم يوقفوا جهودهم بل أرسلوا رماياتهم وقذفوا بزخات من الحجارة المدمرة، ووضعت السفينة الأولى المربوطة إلى الآلة تحت سفح البرج، لكن وسط خطر عظيم، لأن النفوط التي قذفت منه سقطت عليها مثل البرق، وسببت رعباً شديداً للفرنجة، لكن تم اخضاع النيران باستخدام الخل والحصا ووسائل إطفاء أخرى، ثم قام الذين يديرون الآلة بهجوم حاد، ووقتها كان البطريرك ساجداً على الأرض أمام الصليب، ورجال الدين واقفون وهم حفاة، يصرخون بأصوات عالية نحو السماء، ومدّ أعداء الصليب والمدافعون عن البرج، رماحهم نحو الأمام، وصبوا الزيت على الجزء الأعظم من السلم، ثم استخدموا النفوط، وألقوا النيران عليه، واندفع الصليبيون الذين كانوا بالداخل وتقدموا لاطفاء النار، وضغط وزنهم على رأس السلم ضغطا شديداً، أدى إلى سقوط الجسر المستدير المتحرك الموضوع أمام واجهة البرج، وهبوطه نحو الأسفل، وسقط حامل راية دوق النمسا من عليه، واستولى المسلمون على راية الدوق وسط شماتة كبيرة، ووقتها اعتقدوا أنهم أنفسهم المنتصرون فرفعوا صراخهم حتى عنان السماء، وعندما شاهد الصليبيون ذلك سجدوا بأجسادهم على الأرض يصلون وتابعوا وهم يضربون أيديهم ويصفقون، الدعاء إلى الرب، وأثناء هذا التضرع ورفع رجال شعب المسيح أيديهم نحو السماء، رفعت العناية الربانية السلم، وأطفأت

دموع أهل الايمان النار، ثم استرد الصليبيون شجاعتهم، فاصطرعوا بشجاعة مع المدافعين عن البرج، بالرماح وبالسيوف، والدبابيس والنشاب وأسلحة الحرب الأخرى، وكان هناك شاب شجاع من أسقفية ليبج، حيث كان هو أول من تسلق إلى البرج، ثم صعد إليه شاب من فريزلاند، وكان ممسكاً بيده عصا حديدية تستخدم من أجل فصل حبات القمح، وقد اتخذها سلاحاً للقتال، به مزق أعداء الايمان خلف الشرافات والسواتر الدفاعية، وأطاح بهم ذات اليمين وذات الشمال، وكان بين الذين قتلهم مسلم، هو الذي حمل الراية الصفراء للسلطان، وقد انتزعها، ثم تبع واحد الآخر في الصعود إلى البرج، مع أنهم ووجهوا بمقاومة عظيمة من الأعداء القساة والأشداء، وبعد لأي أمكن التغلب على المسلمين، وجاء بعد بكاء الصليبيين ونحيبهم، السرور والانتصار، لأنه لم يعد بامكان المسلمين تحمل ضغط الأعداد في البرج، ولذلك حاولوا النجاة بإلقاء أنفسهم من النوافذ، وقد غرق عدد كبير منهم، ذلك أن المياه كانت كثيرة وعميقة بالنسبة لهم، وجرى أسر حوالي المائة منهم وهم أحياء وجرى الاحتفاظ بهم من أجل الفدية، وقام المسلمون الذين تراجعوا إلى داخل البرج بإلقاء النار في سقفه، وبما أن الصليبيين المنتصرين وجدوا أنفسهم غير قادرين على تحمل الحرارة، عادوا إلى سلمهم، ثم إنهم أنزلوا الجسر، الذي كان متوضعا في الجزء الأسفل من الآلة، ووضعوه فوق سفح البرج، الذي كان ضيقاً بسبب المياه التي تدفقت من حوله، وقاموا - على كل حال -بمهاجمة باب البرج بمطارق حديدية، وقد دافع المسلمون عنه من الداخل، وكانت الآلة المزدوجة ماتزال مثبتة باحكام إلى البرج، لكن أخشاب السلم كانت قد تحطمت في أماكن كثيرة، ومع أن جدران الآلة قد خرقت من أماكن كثيرة بوساطة مقذوفات آلات الأعداء، استمرت ثابتة لايمكن تحريكها من الساعة التاسعة من اليوم السادس من الاسبوع حتى الساعة العاشرة من الأحد التالي، وأخيراً عجز المسلمون كلياً عن متابعة

الدفـاع عـن البرج، ولذلك طلبـوا منحهم هدنـة، وسلمـوا أنفسهـم إلى دوق النمسا، على شرط ابقائهم أحياء، وهكذا تمت السيطرة على البرج، وإثر ذلـك زود الصليبيـون أنفسهم بـالمؤن وبجنود جـدد، آملين بأن يتمكنوا بعد ذلك من اخضاع المدينة طالما أنهم أخضعوا البرج.

موت سيف الدين وتدمير أسوار القدس

بعـد الاستيـلاء على البرج في نهر النيل، بـات سيف الدين أكثـر شيخوخة في أيام الشرور، وكـان هو الذي حرم أبناء أخيه من ميراثهم، كما كان المغتصب الشرير لمملكة آسيا، وقد قهره -كما قيل -الحزن فمات ودفن في الجحيم، وقـد خلفـه ابنه المعظم عيسى، وكـان رجـلاً قـاسيـاً وشـديداً، حيث قام، انتقـامـا منه لحصار دميـاط بتـدمير مدينة القـدس الشهيرة تدميراً كلياً، وحـوّل أسوار تلك المدينة إلى أكـوام من الخرائب، وذلك باستثناء المسجـد الأقصى وبرج داوود، ثم إن المسلمين تشـاوروا من أجل تهديم الضريح الجليل لمولانا، وبعثوا برسائل تهديد حول ذلك إلى أهالي دمياط، من أجل مواسـاتهم وتطمينهم، والذي حدث على كل حـال، هـو أن مـا من واحـد منهم وضع يده على ذلك، صـدورا عن الاحترام الذي امتلكـه ذلك المكـان، لأنه كتب في كتـابهم الـذي هو القرآن، بأن مولانا يسوع المسيح قد حمل به وولد من قبل العذراء مريم، التي يعترفـون بأنها عـاشت بين الناس من دون ذنب، وأن المسيح كـان نبياً، لابل أكثر من نبي، لأنهم يؤكدون أيضاً مضيفين بأنه أعاد النظر إلى الأعمى، وشفى المجـذوم، وأعاد ميتـاً إلى الحياة، كما أنهم يعتقـدون بأن كلمة وروح الإله الحي قد صعدت إلى السماء، ولهذا السبب كان رجالهم العقلاء، يذهبون أثناء الهدنة إلى القدس، ويطلبون رؤية كتاب الأناجيل، فيحترمـونها ويبـدون اعجـابهم بطهـارة الشريعـة التي بشر بها المسيح، ولاسيما بانجيل لوقـا، قوله: «جـرى ارسـال ملاك الرب»، الأمـر الذي غالبا ماناقشـه المتعلمون منهم ورددوه، لكن شريعتهم جاءت عن طريق

اثارة الشيطان ومن خلال الراهب المرتد والمهرطق سرجيوس (كذا)، وقد كتبها محمد (صلى الله عليه وسلم) بالعربية، ونشرها وعلمها إلى المسلمين، وقد بدأت بالسيف، وحوفظ عليها بالسيف، ولسوف تنتهي بالسيف، وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه رجلاً أميا، كما برهن على ذلك من خلال القرآن، وقد بشر بالذي أملاه المهرطق المذكور أعلاه، ولأنه كان رجلاً قوياً، وسيداً للعرب، فقد تسبب عن طريق التهديد بالأخذ بشريعته...... (تكملة هذا الكلام حذفته لبشاعته القصوى ولعدم فائدته، ويرجح هنا أن مصدر مؤلفنا هنا هو المصدر نفسه في ج ٣٤ ص ٥٤ من موسوعتنا هذه).

وصول النائب البابوي بيلاغيوس وحجاج آخرون إلى دمياط

بعد اخضاع برج دمياط، كما تحدثنا أعلاه، وصل عدد كبير من الحجاج من مختلف الأصقاع لمساعدة الصليبيين، فيما كانوا يقومون به آنذاك، وكان بين الواصلين بيلاغيوس أسقف ألبانو، وهو نائب للكرسي الرسولي، ومعه المعلم روبرت دي كوركون Courcon، وعدد من الرومان، ووصل عدد من الأساقفة مع كونت نافار، ولدى تزايد المخاطر غادروا، مما سبب اضطراباً شديداً للصليبيين، ووصل في الوقت نفسه أيضاً إلى هناك من مملكة انكلترا رالف المشهور ايرل أوف شيستر، مع الايرل سير أوف وينكستر، ووليم ايرل أوف آروندیل، والبارونات:

روبرت فتز -وولتر، وجون قسطلان أوف شيستر، ووليم دي هاركورت Harcourt ، مع حاشية كبيرة، وأوليفر ابن ملك انكلترا، ووصل إلى هناك أيضاً إيرل أوف مارش، وايرل أوف بار Bar مع ابنه، وكذلك وليم دي كارنون، وايتيريوس دي توسي Iterius Tocce، وهيرفي دي أورسون Urson، وكثير آخرون.

الحملتان اللتان قام بهما المسلمون على الصليبيين في دمياط

وبعد هذا وصل المسلمون بشكل مفاجىء في يوم عيد القديس ديونيسيوس Dionysius ، مع سفن وعساكر، وهاجموا أطراف المعسكر، حيث كان الرومان قد نصبوا خيامهم، وقد جرى -على كل حال -صدهم بوساطة قوة صغيرة من الصليبيين، وقاموا بانسحاب سريع إلى مراكبهم، لكنهم لم يستطيعوا النجاة من سيوف مطارديهم، ومن قوة تيار النهر، فقد علم الصليبيون فيما بعد من المسلمين، بأن خمسمائة من المهاجمين قد غرقوا في النيل، ومن جديد هاجم الأعداء في يوم عيد القديس ديميتريوس Demetrius، في الصباح الباكر، معسكر الداوية، لكنهم ألحقوا ضرراً صغيراً بالصليبيين، لأنهم أرغموا على الفرار من قبل قوة من الخيالة أرسلت ضدهم، ودفعوا حتى الجسر الذي كانوا قد بنوه على مسافة من هناك، وقد توفر حوالي الخمسمائة منهم هم الذين قتلوا من قبل الصليبيين.

فيضان نهر النيل الذي عانى الصليبيون منه خسائر كبيرة

وفي العيد التالي للقديس أندرو الرسول، حدث في منتصف الليل أن ارتفعت أمواج البحر، وعملت دوياً مرعباً، وصل حتى معسكر الصليبيين، وترافق ذلك مع فيضان مفاجىء للنهر، أخذهم من الجانب الآخر على حين غرة، وطافت الخيام هناك، وتمّ فقدان المؤن، وحملت الأسماك من البحر ومن النهر إلى خيم الصليبيين، ومع أنهم أمسكوهم بالأيدي، لقد كانوا بغنى عن التمتع بطعمهم، ولولا وجود الخندق، الذي جرى حفره من قبل بموجب خطة حكيمة، وعمله، وإن كان لغرض مختلف، لولا ذلك لكان بإمكان القوى المتحدة للبحر والنهر، أن تجرف بعيداً الناس والخيول والسفن المحملة بالمؤن والسلاح، ولتمكن الأعداء من الاستيلاء عليهم، ولم ينج - على كل حال - من هذا المصير المراكب الأربعة التي بنيت عليها السواتر الدفاعية، من أجل الهجوم على

البرج، فقد جرف هؤلاء مع سفينة خا مسة حصرت بينهم، وشكلوا كومة واحدة على الضفة المواجهة، وهناك جرى تدميرهم بالنفوط أمام أعين الصليبيين، وأنقذ عمل الرب آلة الفريزلانديين، والألمان، التي بوساطتها تمت السيطرة على البرج، لكن سفن النقل في الميناء قد تقطعت حبالهن وفقدن.

المرض الذي هاجم عدداً كبيراً من الجيش الصليبي

وفي هذه الآونة جرت مهاجمة الكثيرين من جيش الصليبيين بأشد الأمراض، وهو مرض عجز الأطباء بفنهم عن إيجاد علاج له، لأن الآلام هاجمت بشكل مفاجىء الأقدام والأرجل، حيث ظهر الجلد عليهما فاسداً وأسود، وفي اللثة والأسنان انتزع عنصر أسود القدرة على الأكل، وغادرت أعداد كبيرة، بعدما هوجمت بهذا المرض، وبعدما تألمت وقتاً طويلاً، إلى الرب، لكن -على كل حال -الذين صارعوا ضد المرض حتى الربيع، نجو بفضل منفعة الحرارة لذلك الفصل، وحفظوا من الموت.

وفي هذا العام نفسه، جرى بوساطة تدخل والو، نائب الكرسي الرسولي، تعيين رتشارد دي ماريسكو Marisco، وكان رجل دين من حاشية الملك جون وصديقاً مقرباً منه، أسقفاً لدرم، وتمت سيامته وتكريسه في الرابع والعشرين من تموز.

موت وليم المارشال

عام ١٢١٩م، فيه أمضى الملك هنري عيد ميلاد السنة الرابعة من حكمه في أسقفية وينكستر حيث وفر بطرس أسقف ذلك المكان وسائل الضيافة والتسلية له، وفي هذا العام أيضاً مات وليم المارشال، والوصي على الملك، ونائب المملكة، وبعد موته أبقى الملك هنري في منصب الوصاية بطرس أسقف وينكستر.

حصار دمياط وآلام الصليبيين

وفي هذه الآونة، كان بيلاغيوس، نائب الكرسي الرسولي، قد عقد العزم على حصار مدينة دمياط، ولشدة رغبته بذلك، طلب من الصليبيين بعد الاستيلاء على البرج، القيام بعبور النيل، وبناء عليه، ساروا مع سفنهم، على الرغم من المخاطر العظيمة، صعوداً فوق النهر، بين المدينة والبرج المستولى عليه، لكن كانت هناك معيقات كبيرة بوساطة مجانيق المدينة وبوساطة النفوط، وأرغمت احدى سفن الداوية بقوة تيار الماء على التوجه إلى الضفة القريبة من المدينة، وهكذا ألقيت في مدى أسلحة العدو، وقد هاجمها الأعداء لوقت طويل بالمجانيق وبالجروخ الحديدية، وألقوا النفوط عليها من أبراج المدينة، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على انجاز ماأرادوه بسبب شجاعة المدافعين عنها، تسلق المسلمون على ظهرها، وبجرأة هاجموا الداوية، وبعد قتال طويل خرقت السفينة، إما من قبل المسلمين، أو من قبل الصليبيين أنفسهم -كما هو مرجح -ومضت نحو قعر النهر، مع المسلمين والصليبيين سواء، تاركة رأس الصاري وحده فوق الماء، ومثلما فعل شمشوم الذي قتل من الأعداء عدداً أكبر أثناء موته مما قتله أثناء حياته، فعل هؤلاء الشهداء من أجل المسيح،فقد أخذوا معهم من الأعداء إلى أعماق المياه، أكثر مما أمكنهم تدميرهم بسيوفهم، وقام المسلمون وقتها بترميم الجسر، وتركوا فتحه ضيقة فقط، وهكذا لم يعد بامكان سفن الصليبيين السير صعوداً، من دون التعرض للخطر من قوة تيار النهر، واشتعل -تجاه هذا - الفريزلانديون والألمان غضباً، وكان ذلك من حقهم، فهاجموا الجسر بشجاعة بوساطة السفن الكبيرة جداً، وبوساطتها تم الاستيلاء على الجسر، ولم يكن لديهم من عون سوى عون السماء، وبذلك تمكن أقل من عشرة رجال من الشعبين المتقدمي الذكر، من التصدي لجميع قوى مصر، ووصلوا إلى الجسر، ودمروه على مرأى من

جميع رجال الحشد الصليبي، الذين أعجبوا إلى أبعد الحدود بجرأتهم، ثم انهم استولوا على السفن الأربع التي عليهن وضعوا الجسر، وعادوا معهن منتصرين، وبذلك تركوا ممراً حراً مفتوحاً للصليبيين ليبحروا من خلاله، وبعدما جرى تنفيذ هذا، أدرك المسلمون الخطر الذي يتهددهم، فأقدموا على تحصين ضفة النهر المواجهة للصليبيين بخنادق، وبحواجز من طين الأرض، وسواتر دفاعية من الخشب، وبوسائل دفاعية أخرى، ثم إنهم مركزوا مجانيقهم هناك، وبذلك حرموا الصليبيين من كل أمل بالمرور من ذلك المكان، ومن القلعة التي هي على بعد حوالي ميل عن المدينة حيث وضعت الدفاعات الجديدة، وأغرقوا أيضاً سفنا عبر النهر، وغرسوا أيضاً تحت الماء في قعر النهر أعمدة، لكن عساكر المسيح ومراكبهم المحصنة والمقواة بالسواتر الدفاعية، والمشحونة بالرجال المسلحين، والتي سار خلفها الغلايين والسفن الاخرى تحت قيادة المسيح نجت كلياً من هذه المكامن والمصائد، ووضع عدو الايمان -على كل حال - كل خوف جانباً، وعبأ صفوفه، وصفها لمواجهة الحملة البحرية للصليبيين، وكان الصف الأول من قواتهم مكوناً من الجنود الرجالة، وقد اصطف على طول النهر، ومعه ترسة تشبه الدرابىء، وكان الصف الثاني خلفه مثل الاول ومن النوع نفسه، وكان الصف الثالث طويلاً ومشكلاً من الجنود الخيالة، الذين ضايقوا الصليبيين وهددوهم بزخات من الحجارة ومن الاسلحة الأخرى، لكن الرب الحقيقي، الذي لايسمح بامتحان شعبه أكثر مما يمكنه ان يحتمل، تجلى على معسكر عبيده، وحول أسى الصليبيين وحزنهم إلى سرور وفرح، لأنه في ليلة عيد القديسة أغاثا الشهيدة، وعندما كان جيش المسيح مصطفاً بنظام لعبور النهر في اليوم التالي، سببت الأمطار والرياح كثيراً من الضيق للصليبيين، لكن حدث في الليلة نفسها بفضل تدخل الرب، أن سلطان مصر وجيشه أصابهم الرعب، حتى أنهم تركوا خيامهم،دون أن يكون ذلك معلوماً من قبل المسلمين، الذين أمروهم بالتصدي

للصليبيين ومواجهتهم، فقد رأوا أن نجاتهم وسلامتهم هي بفرارهم، وبناء على ذلك، كان هناك رجلاً مرتداً، قد خرق الشريعة المسيحية لبعض الوقت، ولذلك قاتل لوقت طويل تحت إمرة السلطان، ولقد جاء هذا الرجل إلى ضفة النهر، وصرخ باللغة الفرنسية قائلاً: «لماذا أنتم متأخرون؟ مما أنتم خائفون؟ لقد هرب السلطان»، وبعدما قال هذا طلب أخذه إلى ظهر سفينة صليبية، وهكذا بث في الصليبيين روح الثقة، وحثهم على عبور النهر، وفي الفجر الباكر، وعند انتهاء قداس «دعونا جميعا نبتهج في الرب» والفراغ من أدائه، جرى إعلام الملك والنائب البابوي بهذا بوساطة صلوات الصليبيين، وبناء عليه عبر الصليبيون، لدى معرفتهم بفرار المسلمين، النهر من دون سفك للدماء، ومتحررين من كل أنواع المعارضة، لكن الوحول جعلت من الصعب الوصول إلى هذه الأرض المعادية، وذلك بسبب عمق المياه، ولذلك استطاعت الخيول بصعوبة بالغة تسلق الضفة، وكان الداوية أول من صعد إلى الضفة، ولذلك بادروا مسرعين نحو المدينة، وألقوا أرضاً المسلمين الذين تجرأوا فخرجوا من الأبواب للتصدي لهم وللصليبيين القادمين، وبطردهم الى المدينة وردهم إلى داخلها، استولى جيش المسيح على خيام السلطان، وعلى أسلاب المسلمين الفارين، كما أنهم نهبوا عدداً من الدرابيء، والغلايين والبراكيس، ومراكب أخرى، هي التي وجدوها تحت القلعة وذلك امتداداً حتى المدينة، وبسبب العبور غير المتوقع للصليبيين، كانت حشود من رجال المسلمين قد هربت من دمياط، تاركين زوجاتهم وأولادهم خلفهم، ووقتها حوصرت دمياط وطوقت من كل جانب، لأن الجنود قد انتشروا بوساطة جسر امتد على طرفي النهر.

الهجوم الأول الذي قام به المسلمون على الصليبيين بعد شروعهم بحصارها

وبعد ما تم تطويق المدينة على هذه الصورة، استرد أعداء الايمان شجاعتهم، وقاموا مع السلطان وعساكر حلب، فاستولوا على المكان الذي عبر منه الصليبيون بشكل غير متوقع، ولولا أنه بإلهام لاهوتي وعون رباني، وبشكل رئيسي بفضل شجاعة الألمان، الذين تمكنوا من استرداد المعسكر الأول الذي قام بين البحر والنهر، فلولا ذلك لتعرضت قضية المسيح إلى خطر عظيم، وذلك أن المسلمين المملتئين بالخداع، أصبحوا الآن متهورين ومندفعين كثيراً، ففي فجر يوم السبت قبل الأحد الذي يغنى فيه «عيناي دوماً على الرب» ودون أن يعرف الصليبيون، ألقوا بأنفسهم على شكل كتلة هائلة ووصلوا حتى الخندق، لكن بفضل شجاعة الجنود من كل من الخيالة والرجالة جرى صدهم، لأن الصليبيين كانوا قد عملوا خلفهم خندقاً واسعاً وعميقاً، وذلك كوقاية، حتى إذا ما قام عدو الايمان بهجوم عليهم، يمكنهم أن يكونوا سالمين.

الهجوم الثاني على الصليبيين

وفي أحد السعف (٣١—آذار)جمع العدو جيشاً كبيراً وقوياً، لمهاجمة خندق الصليبيين ثانية من جميع الجهات، وبشكل خاص جسر الداوية ودوق النمسا، الذي قام بالآونة الأخيرة بالتعاون مع الألمان، بالدفاع بشجاعة، وترجل فرسان المسلمون من على خيولهم مع نخبة قواتهم، وقاتلوا الصليبيين بشجاعة نادرة، وتساقط القتلى والجرحى في جميع الاتجاهات، وبعد لأي كسب المسلمون الجولة إلى حد أنهم استولوا على الجسر، وأحرقوا قسماً منه، ووقتها أمر دوق النمسا أتباعه بالانسحاب من الجسر، والسماح للعدو بعبوره، الأمر الذي لم يتجرأوا على القيام به، وخلال ذلك الوقت كله قامت النساء بشجاعة بتزويد الجنود الصليبيين بالماء، والخمرة، والخبز، والنشاب، وقدم الكهنة المساعدة أيضاً بصلواتهم، وبمباركة الرب، وبتضميد جراحات الجرحى، وفي ذلك

اليـوم المقـدس، لم يسمح للصليبيين بفـرصـة القيـام بحمل أية سعف نخيل، غير القسي العقـارة، والأقـواس العـادية، والحراب والسيـوف، والترسـة ، والسهام، لأن أعـداءهم ، كانـوا يرغبون بتحـرير المدينة من الحصـار والمحـاصرين لها، لذلك داومـوا هجماتهم بدون توقف، وفعلوا ذلك من شروق الشمس حتى الساعة العـاشرة من النهار، فلم يسمحوا للصليبيين بأية راحـة، وأخيراً تعبـوا فـانسحبـوا من ميـدان القتـال مع خسـائـر كبيرة، ومجدداً هاجم المسلمـون في يوم الصعـود الصليبيين بطريقتهم المعتادة، براً وبحراً، وبعد حملات متوالية لم يتوصلوا إلى تحقيق غرضهم، لكنهم أ زعجـوهم قرب معسكرهم، وأوقع كـل فريق كثيراً من الجرحى بالفريق الآخر.

الحملة الشديدة الثالثة التي قام بها المسلمون على الصليبيين

وقـام الأعداء بعـد هذا في الحادي والثـلاثين من شهر تموز فجمعـوا جميع القـوات التي استطاعـوا حشـدها، وبعـد حملات متـواليـة عبروا الخندق، بعـدما تغلبـوا على المقاومـة التي أبدتها قوات الداوية، وشقـوا بالقوة صفوفهم، وأرغمـوا الرجالة الصليبيين، على الفرار، وبذلك بات الجيش كله في خطر محيق قريب، وحاول الفرسان مع الخيالة العلمانيين، والجنود الرجـالـة ثلاث مـرات صـدهم، لكن مـن دون تأثير، ورفع المسلمـون وقتهـا أصـواتهم، وتضـاعف رعب الصليبيين، لكن روح الحكمـة والشجـاعـة ألهمت الداوية، لأن مقـدمهم مع المارشـال وبقيـة الفرسـان الرهبان قـاموا بهجوم من خـلال الفتحة الضيقـة وبشجاعتهم أرغموا الأعـداء على الفرار، وعندما رأى الفرسـان الألمان والفريزيون، والفـرسـان مـن مختلف الشعـوب أن عسـاكـر الداويـة كـانوا في خطر، اندفعوا من أماكنهم القـريبة لمساعدتهم، وفقد مـائة من رجالة المسلمين ترستهم وقتلوا، وذلك إلى جانب الذين سقطوا في الخندق وماتوا هناك، ثم قـام الجنود الرجـالة من الصليبيـون بالحملة، وتراجع العـدو لمسافـة

قصيرة، ووقف الجنود الصليبيين وقتها تحت السلاح، حتى وضع حلول الظلام حداً للقتال، وكان المسلمون قد انسحبوا قبل ذلك الوقت، وبقي عدد من الذين قتلوا إلى جانب الخندق، وكان إلى جانبهم كثير من الذين كانت اصاباتهم قاتلة، حيث حملوا إلى المعسكر، وبفضل نعمة الرب، وبسبب شجاعة الداوية كان الذين قتلوا من الصليبيين أووقعوا أسرى عددهم قليل، وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الوقائع ناشبة، جرى احراق جميع مجانيق الصليبيين وسلالمهم التي أقاموها في مواجهة المدينة، وكان الذين تولوا احراقها هم رجال حامية المكان، مما سبب ضرراً كبيراً للصليبيين، وبعدما قام السلطان بهذه الحملات، لم يتجرأ ثانية على الاشتباك مع الصليبيين، بل نصب معسكره قرب الجيش المحاصر للمدينة، ومكث هناك على شكل كمين.

الاشتباك في معركة بين الصليبيين والمسلمين

عندما بذل جيش المسيح جهوده لمدة طويلة لتدمير أسوار المدينة بمجانيقه وعراداته مع بقية أنواع آلات الحرب، من دون تأثير، رأى القسم الأعقل من رجاله واكتشفوا أنه من غير الممكن الاستيلاء على دمياط من دون إرادة الرب وتدخله، وبناء عليه وعلى تذمرهم استيقظ في الصباح جميع الذين كانوا في المعسكر من أجل انزال العقاب بذنوبهم وخلافاتهم، ذلك أن بعضهم رأى وجوب الإشتباك بالقتال في معركة مع السلطان الذي بقي في معسكره على مقربة من الصليبيين في مكمن هناك، وأنهم بغلبته من الممكن السيطرة على دمياط، هذا من جانب ومن جانب آخر، كان من رأي ملك القدس، ورأي آخرين كثر إلى جانبه، أنه طالما أن الحصار ما برح مستمراً منذ مدة طويلة، ينبغي الاستمرار به حتى ترغم حامية المدينة على الاستسلام إما بارغام الرب لها على ذلك، أو بضغط المجاعة، لأن جميع الذين نجوا إما عن طريق الباب الخلفي، أو قاموا بتدلية أنفسهم من أعلى الأسوار، قد تبين من

مظاهر تورمهم وأوضاع الجوع الواضحة عليهم أن أبناء مدينتهم كانوا يعانون من المجاعة، وسيطر بالأخير رأي الذين قرروا الاشتباك بالقتال مع المسلمين، وفي اليوم الذي تقدم على يوم عيد القديس يوحنا المعمدان زحفوا جميعاً على شكل كتلة واحدة —مع أنهم كانوا مختلفين بين بعضهم أنفسهم— ضد معسكر المصريين، وكانوا يضمون الجيش كله حتى أنه بصعوبة بقي هناك رجال يتابعون أعمال الحصار، وتابعوا زحفهم، واكتشفوا وجود أعداء الايمان في معسكرهم بين البحر والنهر، وذلك حيث لا يمكن العثور على مياه نقية للشرب، وقام الأعداء لدى اقترابهم بتقويض خيامهم وتظاهروا بالفرار، وبعد ما توغل الصليبيون بزحفهم ما فيه الكفاية، ورأوا أنهم لا يمكنهم الإشتباك مع الأعداء بمعركة مفتوحة، عقد قادة الجيش اجتماعاً طويلاً، تناقشوا فيه عما إذا كان عليهم متابعة الزحف أم العودة، وانقسمت الآراء بينهم بعمق إلى حد أن التشكيلات المختلفة انفصلت دون الوصول إلى أي قرار، وذلك باستثناء الذين حافظوا على طاعة أطول، وأظهر فرسان قبرص، الذين تمركزوا على الجناح الأيمن أولاً علامات الخوف، وكان ذلك عندما هاجم المسلمون الجناح، وكان جنود الرجالة الرومان أول من لجأ إلى الفرار، وجاء من بعدهم فرسان من مختلف البلدان مع بعض فرسان اسبتارية القديس يوحنا، مع أن النائب البابوي، والبطريرك الذي حمل الصليب التمسا منهم الصمود في وجه العدو، لكن من دون فائدة، وكانت حرارة الشمس عالية جداً، وقد غلب الجنود الرجالة وقهروا بوزن دروعهم وأسلحتهم، وزادت الحرارة من متاعب الزحف، وقام الذين جلبوا خمرة معهم بشربها صرفة من دون ماء بسبب آلام عطشهم، ولحاجتهم إلى الماء، وأما الذين هربوا بعد الهاربين الأوائل، فظلوا يركضون، حتى انقطعت أنفاسهم، وسقطوا أمواتاً ، دون أن يصابوا بجراحة، وصمد —على كل حال— ملك القدس، مع الداوية، وطائفة التيوتون ، واسبتارية القديس يوحنا ، وايرلات : هولاندا،

وويكي Wicke وســـالسبري وتشيستر، وولتر بيرتـولد Bertold، وريانالد دي بونت، والفرنسيون، والبيازنة، وفرسان من مختلف البلدان، صمـدوا في وجـه حملة المسلمين، وكانوا بمثـابة سـور للفـارين، وحيثما أظهـر الأعداء وجـوههم، وتعرض ملك القـدس إلى الدمار شبـه الكلي بنيران النفـوط، ووقع بالأسر أثناء هـذا القتـال من الصليبيين الأسقف المنتخب لبـوفيـاس، مع أخيـه أنـدرودي نانتي، عمـدة دي بومـونت Beaumont ،وولتر حـاجب ملك فـرنسـا وابنه جـون أوف آرك Arc وهنري أوف أولم Ulm ، وقتل ووقـع بالأسر ثلاثـة وثلاثين من فرسان الداوية، وذلك إلى جـانب مارشال فرسـان اسبتارية القديس يوحنا، مع بعض الفـرسان الرهبان من الطائفـة نفسها، ولم ينج فـرسان طائفة التيوتون من دون خسائـر، وإلى جانب هؤلاء جرى قتل الكثيرين وأخذهم أسرى، وكـان فرسـان الداوية دوماً أول من يهاجم وآخـر من ينسحب، وعلى هذا كـانوا آخـر الصليبيين وصـولاً إلى الخنـدق، فقـد تصدوا بشجـاعة إلى الأعداء، وتابعـوا صمودهم حتى تمكن جميع الذين كـانوا قـد دخلوا إلى تحصينـات المسلمين وقتـذاك من العـودة، ثم عـاد المسلمون وحملوا أسراهم ، وجمعوا الغنائم وعلم الصليبيون فيما بعد من المسلمين، أن رؤوس خمسمائـة من الصليبيين قدمت إلى السلطان، وكـان من الواضح أيضاً للصليبيين أن المسلمين عـانوا أيضاً من خسـائر كبيرة بين صفـوف عسـاكـرهم الرئيسيين، لأن السلطان أرسل واحـداً من الصليبيين الأسرى لديـه للتفـاوض لعقـد هـدنة أو سـلام، وتمكن الصليبيـون خـلال مـدة المعـاهدة هذه من تـرميم خندقهم بشكل جيـد وذلك مع آلات الحرب.

كيف غادر عدد من الحجاج دمياط من دون إذن

وقـام في تلك الآونة بعض البحارة، وبعض الخونة للصليبيـة ومعهم عدد من الصليبيين، بالتخلي عن جيش المسيح، قبل موعد العبور المحدد

بالعـادة، وقـد تركـوه في أعظم حـالات خطره، وبمغـادرتهم زادوا من أحـزان الصليبيين ومن جـرأة المصريين، وبناء عليـه خـرق المسلمـون المعاهدة، وقـاموا عشيـة عيد القـديس كوسماس والقـديس داميان، وفي اليوم التالي(٢٦—ايلول)بمهـاجمة الصليبيين بحدتهم المعهودة، وبشدتهم وقسوتهم المشهودة، وذلك مع غلايين مسلحـة وبراكيس، وجاء الهجوم بالبر والبحـر، وتـرافق الهجـوم مع استخـدام المنجنيقـات، والدرايىء، وحزم من الأشيـاء لطم الخندق، وقتلوا بهذا الهجوم المفـاجىء عدداً من الصليبيين، غير أن الذي نصر اسرائيل، وهو الرب القـدير هيأ الأسباب لسلامـة المعسكر، لأن سافـاريك دي موليـون وصل وقتها مـع غلايين مسلحـة وعـدد كبير من الجنود، وعندمـا رأى الصليبيـون هذا وهـم في حالة خـوفهم العظيم رفعوا أصواتهم نحو السماء، وقـدموا شكرهـم إلى الرب، وأصبحوا أكثـر شجاعة، وبجرأة اشتبكوا مع الأعـداء، وأرغموا المسلمين على التراجع بفضل منه هو الذي يحفظ الذين يثقون به.

الموتان بين حامية دمياط

ولسـوف نتحدث الآن ونروي أخبـار بعض الوقـائع التي وقعت في المدينة، فقد عانى أهل دمياط أثناء حصار مدينتهم الطويل من الهجمات، ومن الجوع ومن الأمـراض أكثر مما يمكن وصفـه، وكـانوا قد وضعـوا ثقتهـم في أمل أن يتمكـن السلطان— كما وعـــــد— بـالتعجيل مـن أجلهم،بالتفـــاوض مع الصليبيين والاتفـــاق معهم، حتى يمكـن بذلك نجاتهم من الموت، وفي الحقيقـة كانت المجاعـة في تلك الآونة قد عمت في المدينة، وبات السكان المحاصرون من دون مؤن، لأن القمح المصري غير قابل للخـزن الطويل بسبب نعـومة الأرض التي ينمو فيهـا، وذلك باستثناء المنـاطق العـاليــة قـرب القــاهـرة، حيث كــان يحفظ بشكل [اصطناعي] لمدة سنة تقريباً، وأغلـق المسلمون وقتها أبواب المدينة حتى لا يتمكن أحـد من الخروج ليحـدث الصليبيين بما كـــانوا يعـانون منه،

لأنهم تألموا في كـل يوم بشكـل مـــرعـب، كما بدأت المؤن لـدى جيش السلطان، الذي كان يحاصر الصليبيين في الخارج بالنقـص الشديد عنده، حتى أن تينة واحـــدة بيعت باثني عشر دينارا، وكـــان بين مختلف أنواع الآلام التي عانـى منها أولئك التعساء ليـلاً ونهاراً، أنهم هوجموا من قبل الأمـراض حتى أنهم لم يعـودوا قــادرين على رؤية شيء حتى ولو أنهم فتحـوا أعينهم على اتسـاعهـا، وإلى جانـب هذا، فإن النيل الذي يفيض بالعادة ويغمـر السهول ويسقيها من عيد القـديس يوحنا المعمدان حتى عيد تمجيد الصليب، لم ترتفع مياهه في هذا العام كما هي العادة، بل ترك أجزاء واسعة من الأرض جافـة، ولم يكن من الممكن بذرها أو فلاحتها في ذلك الجزء، ولذلـك سعى السلطان، وهو خـائـف من المجـاعـة، ولرغبتـه بالحفاظ على دميـاط، وبذل جهده للإعـداد لاتفاق سـلام مع الصليبيين، وقويت عزيمته على الوصول إلى اتفاق بالاستيلاء الرائع على البرج، وبثبات الصليبيين أثناء القتال، فقد تمكن هؤلاء الذين كانوا مجرد قوة صغيرة من المؤمنين الحقيقيين، في أغلب الأحيان من مقاتلة القوات الاسلاميـة كلها بشجاعـة وأرغموها على الفـرار، وذلك إلى جانب قتل آلاف كثيرة منهم.

كيف عرض السلطان تسليم مملكة القدس إلى الصليبيين شريطة انسحابهم من دمياط

وعلى هذا استبـد القلـق بالسلطان كثيراً، فعقـد اجتماعـاً مع نبـلائـه ومستشاريـه المخلصين، وخاطبهم كما يلي قـائلاً:«إن رب الصليبيين رب قوي، ومخلص وحليف قوي في القتال، وقـد عرفنا ذلك جميعاً، وبشكل خاص في الحالة الطارئة حالياً، فقد قاتل بشكل واضح من أجل أعدائنا وضدنا، ومما لاشك فيه، أن كل مايمكننـا عمله سوف يكون بلا فائدة، مادامـوا يحصلون على عونه، والاستيـلاء على دمياط بات وشيكاً، وهي مفتـاح مصر، وإذا مـا سقطت سـوف ينجم عن ذلك خسـارة كبيرة لنا

ولشريعتنا، فصحيح أنها حـوصرت مـراراً مـن قبل الصليبيين، هي لم تخضع قط لهم، وبناء عليه أعتقد أنه سوف يكون لمصلحتنا، أن نعيد إلى رب الصليبيين، جميع ما هو عائد إليه، حتـى باسترداده ما هو عائد إليه، لن يقـوم بالاستيـلاء منا على مـا هو عـائـد إلينا، ذلك أنه رب عـادل، ولايشتهي الاستيلاء على أملاك الآخرين، وإذا مارفض الصليبيون هذه العـروض العـادلة من أجل السـلام، التي ستكون مشرفـة كثيراً إليهم، سـوف يثيرون بذلك غضب ربهم ضـدهم، إلى درجـة البغضـاء لهم، وذلك بسبب جشعهم الشرير، وهـو في كـراهيـة منه ومقت لعجـرفتهم سوف يبتعد عنهم، ولسوف يجدون فيـه عدواً لهم، مع أنه هو الذي قدم لهم من قبل مساعـدته الرحيمة، ومع أن هذا الرأي كـان غير مقبول من قبل الكثيريـن، أرسل رسـلاً إلى الصليبيين، وعـرض عليهم إعـادة الصليب الحقيقي، الذي كـان صلاح الدين قـد استولى عليـه قبل بعض الوقـت الذي مضـى، وأن يطلق سراح جميـع الأسرى أي الذيـن يمكن العثـور عليهم أحيـاء في جميع أرجـاء مملكة القـاهرة ودمشق، وأن يدفع النفقـات اللازمـة من أجل ترميم أسـوار القـدس، وأن يعيـد المدينة إلى حالتهـا السالفـة، كما أنه عرض التخلي عن جميع مملكة القـدس باستثناء الكرك والشـوبك، ومن أجل الاحتفاظ بهذين المكانين عـرض أن يدفع سنويا جـزية مقـدارها اثني عشر ألـف دينار مـادام محتفظاً بهما، وهاتان القلعتان موجودتان في العربيـة ولهما سبعة تحصينات قوية، وموجودتان على الطريق الذي يسافر عليه بالعادة تجار المسلمون وحجاجهم من مكة وإليهـا، كما أن الذي يتملك هذين الموقعين يمكنـه أن يلحق الكثير من الأذى بالقـدس، وبالكروم والحقـول، وقـرر ملك القـدس باصرار مع ايرل شيستر وجميع القـادة الفـرنسيين والألمان، بأنه يتـوجب قبـول هذه الشروط المعـروضـة، وأنها سـوف تكون مفيـدة للصليبيين، وعلينا أن لانعجب نحـو هذا، لأن الصليبيين كانـوا من قبل على استعداد للقبـول بشروط للسلام أقل نفعاً من هذه، هي الشروط التي كـانت قد عرضت

عليهم قبل هذه الشروط، لولا أن ذلك قد منع من قبل الآراء الحكيمة، وكـان النائب البابوي على كل حـال راغبـاً بالاستيلاء على دميـاط، وأن تصبح ملكـاً له، وأيده بذلـك البطريرك ورجـــال الدين، ولـذلك تمت معارضة هذه الشروط وأصروا على أنه ينبغي الاستيلاء على دمياط، قبل جميع الأمـاكن وفوقهـا، وسبب هذا الاختـلاف بالرأي شقـاقاً، وبسببـه غادر رسل السلطان وهم مسرورين جداً، وعندما جرى اخبار السلطان بهذا، أرسل بشكل سري قـــوة كبيرة من الجنود الرجـالـة من خـــلال مستنقعـات دمياط، وقـام مائتـان وأربعون من هؤلاء بمهـاجمة معسكر الصليبيين، عندما كـانوا نائمين في ليلة الأحد بعد عيـد جميع القديسين، لكن الجيش استيقظ بوساطة أصوات الحراس، ولذلك وقعوا بالأسر أو قتلوا، وكان عدد الأسرى قد بلغ مائة أو أكثر.

الاستيلاء الاعجازي على مدينة دمياط

وبعد هذه الأحداث قام الجيش الصليبي بحملات شديدة على مدينة دميـاط، وأخيراً شاهدوا أن الشرافـات باتت خاليـة من المدافعين، وبناء عليه وضع الصليبيون بكـل سرعة سلالمهم على الأسوار وبرغبـة عارمة دخلوا إلى المدينة، وهكذا بمـوجب قـرار مخلص العـالم، جرى في اليـوم الخامس من شهـر تشرين الثـاني، الاستيلاء على مـدينة دميـاط من دون مقاومة، ومن دون صوت، ومن دون نهب، لذلك ينبغي أن نعزو النصر إلى ابن الرب وحـده، ومع أنه جـرى الاستيلاء على مـدينة دميـاط على مرأى ومشهد من ملك مصر، هو لم يتجرأ -كما هي العادة -على مهاجمة الصليبيين، بل هرب مضطربـاً وأحـرق معسكره، وتحت قيـادة المسيح، دخلت عساكـره وقتها دمياط، ووجـدوا الشوارع مكتظة بجثث الموتى، وواجهوا رائحة نتانة لايمكن تحملها صادرة عنهم وعن أكثر المخلوقات البشرية بشاعة، فقد قتل الأموات الأحياء، وقتل الزوج زوجته، والأب ابنه، والسيـد خادمـه، فلقـد هلكوا من روائح بعضهم بعضـاً، ولم تكن

الشوارع فقط هي المليئة بالموتى، لأن الجثث كانت ممددة في البيوت وفي غرف النوم، وقد طلب الصبيان والأطفال الخبز، فلم يجدوا أحداً يقطعه لهم، وكان الأطفال الرضع معلقين على صدور أمهاتهم، وكانوا يتدحرجون فوق جثث الموتى، وقد مات الأغنياء المتخمين من الجوع مع أنهم كانوا محاطين بالقمح، فقد مات منذ بداية الحصار ثمانين ألفاً من الناس في تلك المدينة، وذلك باستثناء الذين وجدهم الصليبيون هناك أصحاء ومرضى، وقد بلغ تعداد هؤلاء ثلاثة آلاف أو أكثر، ومن هؤلاء وجد ثلاثمائة من ذوي المراتب العليا، وقد احتفظ بهم الصليبيون أحياء لمبادلتهم بأبناء جلدتهم ممن كانوا أسرى لدى المسلمين، وذلك باستثناء الذين يؤمنون بالمسيح وكانوا معمدين وكانت هذه المدينة قد حوصرت أولاً من قبل البيزنطيين، الذين أخفقوا بالاستيلاء عليها، ثم جرى حصارها من قبل اللاتين تحت قيادة عموري ملك القدس، لكن اللاتين لم ينجحوا، وفي هذه المرة التي هي المرة الثالثة، سلمها ملك الملوك، ومولى الموالي إلى عبيده، وكان مولانا يسوع المسيح هو الذي سيعيش وسيحكم إلى الأبد ثم إلى الأبد.

منهوبات دمياط الثمينة

وجد الصليبيون في المدينة كميات كبيرة من الذهب والفضة، والحرير، والأقمشة، والألبسة الثمينة، مع زين دنيوية، ومختلف أنواع السلع بكميات وافرة، ولقد أقسموا جميعاً على وجوب حمل الأسلاب إلى الخارج، ومن ثم تقسيمها بالتساوي بين المنتصرين، وقد صدر الأمر بهذا من قبل النائب البابوي تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وأخذوا من أجل الاستخدام العام شطراً كبيراً من ثروات مصر من ذهب وفضه ولآلىء، وفواكه، وعنبراً، وخيوطاً ذهبية، وشراريب، ومختلف أنواع الأقمشة الثمينة، وقد جرى توزيعها بين أفراد جيش الرب مع القمح الذي وجدوه في المدينة، وتولى أسقف عكا تعميد جميع الأطفال الذين

عشر عليهم أحياء في المدينة، واتخذ النائب البابوي أيضاً من المسجد الكبير للمدينة كنيسة كرسها تشريفاً للعذراء مريم المباركة مع جميع الرسل، ولمجد ورفعة شأن الايمان بالتثليث، وكانت مدينة دمياط، بالاضافة إلى ماتمتع به مكانها من وضع طبيعي أمن لها الحماية، محاطة بثلاثة أسوار، فقد كان هناك سور منخفض في الخارج لحماية الخندق الخارجي، ثم سور ثاني أعلى من الأول، ثم سور ثالث أعلى من الثاني، وكان في السور المتوسط ثمانية وعشرين برجاً رئيسيا مع متاريس مزدوجة أو ثلاثية، قد بقيت دون التعرض للأذى، وذلك باستثناء واحد كان قد تعرض للرمايات من مجانيق الداوية، لأن الرب رغب في تسليم تلك المدينة إلى عبيده سليمة لتكون مفتاحاً وممهداً لجميع بلاد مصر، وكانت المدينة قائمة فيما بين رعمسيس وسهل تنيس في أرض جيرسين Gersen، وقد قدر الصليبيون أنها المراعي التي هرب منها بنو اسرائيل من فرعون في أيام المجاعة، حسبما وردت الحكاية في العهد القديم (التكوين: ٤٧).

الاستيلاء على قلعة تنيس

وجرى بعد الاستيلاء على دمياط على هذه الصورة، إرسال حوالي الألف رجل في يوم عيد القديس كليمنت (٢٣ -تشرين ثاني) على شكل طلائع في قوارب أبحرت داخل نهر صغير اسمه نهر تنيس، من أجل الحصول على المؤن من القلعة والبلدة، وللقيام بتفحص المواقع بشكل دقيق، ولدى اقترابهم من القلعة التي حملت اسم النهر، ورؤية المسلمين الذين كانوا يتولون حراستها، الصليبيين، اعتقدوا أن الجيش الصليبي كله كان هو القادم، ولذلك أغلقوا الأبواب وهربوا، ودخل الصليبيون، والمسيح قائدهم الوحيد، بتشوق وحماس إلى القلعة، وأعلن الصليبيون بعد عودتهم أنهم لم يشاهدوا قط قلعة في سهل أكثر حصانة منها، ذلك أن السواتر الدفاعية فوقها كلها مستديرة، وكانت محاطة

بخندق مزدوج مسور من على الجانبين مع ستائر خارجية، وكانت هناك منتشرة حول القلعة إلى مسافة بعيدة، ولهذا السبب كان من الصعب الوصول إليها من قبل الجنود الخيالة في الشتاء، وهي منيعة جداً في الصيف ولايمكن الاستيلاء عليها بالحصار من قبل أي جيش، وكانت هذه البحيرة فيها وفرة كبيرة من السمك، وعنه يجري دفع أربعة آلاف مارك سنويا إلى السلطان، وفي المكان أيضاً وفرة عظيمة بالطيور وبالمالح، وكان هناك عدد من القلاع من حولها كلها خاضعة لهذه القلعة، لأن المدينة التي كانت قائمة قبل القلعة، كانت موقعاً معروفاً كثيراً، وأوسع من دمياط، لكنها تحولت فيما بعد إلى ركام من الخرائب، وهذه هي تنيس التي أشار إليها النبي داوود في المزامير، وكذلك أشار إليها اشعيا بقوله: «الرؤساء الحمقى لتنيس» الخ، ويحكى أن إرميا قد رجم في هذه المدينة، وذلك حسبما وصلنا الخبر في العهد القديم، وتقع تنيس على مسافة سفر يوم من دمياط، وهي على الطريق البحري نحو أرض الميعاد، ولذلك سوف يكون من السهل وضع حامية هناك، وارسال المؤن إما بالبر أو البحر من عكا أو من دمياط، وكانت قد ألحقت أضرار كبيرة بالصليبيين أثناء حصار دمياط، عندما كانت سفنهم تذهب إلى أو تأتي من عند الجيش الذي ذهب إلى قرب ذلك المكان، لأن الشاطىء أمام تنيس هو رملي، ولايوجد ميناء هناك، بل هناك خليج واسع، ولايمكن للسفن التي تدفع إلى داخله الخروج من دون ريح طيبة.

وحصل في هذا العام النبيل رالف ايرل شيستر على إذن من النائب البابوي، وجاء ذلك بعدما قاتل لقرابة العامين في خدمة الرب، وعاد إلى الوطن مع المباركة من النائب البابوي، والأماني الطيبة من الجيش كله.

كيف هاجم لويس طولوز وأرغم على التراجع باضطراب

وفي هذه الآونة، حشد لويس، الابن الأكبر لملك فرنسا، جيشاً كبيراً،

بناء على تحريض من أبيه، لمحاربة الألبينيين الهراطقة، وزحف مع قواته كلها لإلقاء الحصار على مدينة طولوز، التي كانت مسكونة من قبل الملوثين بالهرطقة، وبعدما مركز مجانيقه من حول المدينة، شرع الفرنسيون بمهاجمتها من دون توقف، لكن عندما رأى سكان المدينة هذا، استعدوا للدفاع، ونصبوا منجنيقا أمام منجنيق، وبعدما استمر الحصار لمدة طويلة دونما تأثير، وقعت مجاعة كبيرة بين صفوف الجيش الفرنسي، وهي مجاعة تبعها موتان مخيف بين كل من الناس والخيول، وأصيب سيمون أوف مونتفورت قائد الجيش المحاصر للمدينة بجراحة أمام باب المدينة، بوساطة حجر قذفت من عرادة، ولأن جسده قد سحق كليا، فقد توفي في مكانه، وأصيب أخوه أيضاً، أثناء حصار قلعة قرب طولوز، وفق الطريقة نفسها، بحجرة مقذوفة، ومات، مما سبب حزنا عظيماً لكثيرين، ولذلك قام لويس بعد الموتان الكبير الذي لحق بجيشه، وبعدما عانى من خسائر كبيرة في جميع سلعه وعتاده، بالعودة وهو مضطرب إلى فرنسا، مع البقية من عساكره.

التتويج الثاني للملك هنري

عام ١٢٢٠، فيه كان الملك هنري في عيد الميلاد في مارلبورا، وكان مايزال تحت وصاية بطرس، أسقف وينكستر، وفي هذا العام وفي يوم عيد أحد الشعانين الذي كان في السابع عشر من أيار، صار الملك المذكور في السنة الخامسة من حكمه، ولذلك جرى تتويجه ثانية في كانتربري من قبل ستيفن، رئيس أساقفة ذلك المكان، بحضور رجال الدين والناس من مختلف أجزاء المملكة، وفي يوم العيد المقبل للقديس برنابا الرسول اجتمع الملك هنري، ملك انكترا، مع الاسكندر ملك الاسكوتلنديين في يورك، حيث أبرمت معاهدة من أجل عقد زواج بين الاسكندر ملك الاسكوتلنديين واخت ملك انكلترا، وبعدما جرى تثبيت العقد، عاد ملك الاسكوتلنديين إلى وطنه.

تطويب القديس هيوج أسقف لنكولن

وجرى في هذا العام نفسه تطويب هيوج أسقف لنكولن من قبل البابا هونوريوس، وجرى قبوله في تعداد القديسين، وتم في البداية البحث في معجزاته من قبل ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وجون راعي ديرة النبع، ووضعت محصلات ذلك في الشهادة التالية الصادرة عن مولانا البابا: «من هونوريوس الأسقف، عبد عبيد الرب، إلى جميع أولاده المحبوبين والمؤمنين بالمسيح، وإلى الذين سوف تأتي هذه الهدية إليهم بمثابة صحة ومباركة رسولية، فقد عينت الرحمة الربانية مكان هناءة في السماء إلى قديسيها ونخبتها، وفي وقت وجودهم على الأرض شرفتهم بالمعجزات، حتى يمكن إثارة خشوع المؤمنين بذلك من أجل التماس شفاعتهم، وبناء عليه، دوّنا بين أعداد القديسين، هيوج أسقف لنكولن، صاحب الذكرى المقدسة، التي هي واضحة وبينة بالنسبة إلينا، ولذلك حولتها الفضيلة الربانية مشهورة واضحة بوساطة عدد من معجزاته المجيدة، التي وقعت أثناء حياته، وبعدما لبس ثوب الموت، ونحن نأمر، وباسم الرب نحث جميع الرهبان لديكم لأن يلتمسوا بخشوع وساطته مع الرب، وبالاضافة إلى هذا نحن نأمر، أنه يتوجب اتخاذ يوم منذ تاريخ وفاته يكون عيداً له يحتفل به بشكل مهيب في كل سنة من الآن فصاعدا. صدر في فيتيربو في السابع عشر من شهر شباط، في السنة الرابعة من بابويتنا».

الاستيلاء على قلعتي ساني وروكنغهام

في هذا العام نفسه، وفي يوم عيد الرسولين بطرس وبولص (٢٩ -حزيران) استولى الملك هنري فجأة على قلعتي: روكنغهام -Raching ham وساني Sanney، على الرغم من ارادة وليم ايرل ألبيمارل -Albe marle وعندما وصل الملك المذكور إلى القلعتين لمهاجمتها وجدهما فارغتين من جميع أنواع المؤن، حتى أنه لم يكن بهما معا ثلاثة أرغفة من

الخبز.

نقل القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري

وفي العام نفسه، وفي اليوم التالي لثمانية القديسين بولص وبطرس، جرى اخراج جسد القديس توماس الشهيد ورئيس الأساقفة من ضريحه الرخامي، وتولى اخراجه ستيفن رئيس أساقفة كانتربري بحضور الملك، وتقريبا جميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات في المملكة، ثم وضع بتشريف لائق في تابوت جرت صناعته بشكل متقن بالذهب والجواهر وكان حاضراً أيضاً أثناء عملية النقل: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وعدد كبير آخر من المملكة الفرنسية، ومن بلدان أخرى متعددة، لأنهم تشوقوا للاجتماع وحضور هذه المناسبة المهيبة كثيراً، لأنهم اعتقدوا أنه واجب عظيم القيام بتشريف وتبجيل هذا الشهيد المقدس في سبيل المسيح، وهو الذي سفك دمه من أجل الكنيسة المسكونية وقاتل دون توقف في سبيل ديمومتها.

حصار قلعة بيهام والاضطرابات في المملكة

عام ١٢٢١م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في اكسفورد يوم عيد الميلاد، وقد شهد ذلك ايرلات وبارونات المملكة، وفي هذا المكان، بعد إقامة الطقوس والقداسات الملكية بنجاح وسلام، وزع بكرم على الجميع كل حسب استحقاقه، وفقاً للعادة القديمة للملكة، وقد رغب - على كل حال -وليم دي فوريت Foret [إيرل أوف ألبيمارل Albe-marle] أن يعكر صفو الهدوء في المملكة، فغادر دون أن يستأذن، وفعل ذلك في الليلة التالية وزحف بكل سرعة إلى قلعة بيهام Biham، حيث حشد بعد عدة أيام بعض العساكر، وهاجم بلدة تينهام Ten-ham ونهبها، وأخذ معه القمح العائد إلى كهنة برايدلنغتون -Bridling

ton إلى قلعة بيهام، كما أنه نهب بلدة ديبنغ Deping وأماكن أخرى في الكونتية نفسها واتخذ السكان أسرى، وبعدما عذبهم بقسوة أرغمهم على افتداء أنفسهم، وكان الذي حرضه على القيام بهذه الأعمال هم -كما قيل - فالكاسيوس، وفيليب مارك، وبيتر دي موليون، واينغلارد دي آثي، وآخرون كثر، فهؤلاء بعثوا إليه بشكل سري جنوداً لإثارة الاضطراب في المملكة، وفي أثناء هذه الاضطرابات هرب سكان ذلك الجزء من الكونتية إلى الكنائس من أجل السلامة، وحملوا معهم سلعهم إلى المقابر، واحتشد في الوقت نفسه نبلاء انكلترا أمام الملك في ويستمنستر لمناقشة شؤون المملكة، لكن ذلك الايرل الذي استدعي للاجتماع مع البقية، تظاهر بأنه سوف يقدم إلى هناك، لكنه مثل مسافر ماكر غير هدفه، وذهب إلى قلعة فوثرنغيFotheringay، وكانت هذه القلعة آنذاك بعهدة رالف ايرل أوف شيستر، ولكنها كانت شبه خالية من الفرسان والجنود، وعندما عرف الايرل المذكور هذا الوضع وضع سلالمه عليها، وحصل على مدخل إليها مع جنوده، ومالبث أن أخضعها، واعتقل الحرس القليل العدد الذي وجده هناك، وعهد بها إلى بعض من جنوده ووضعهم فيها، وبادر بعد ذلك مسرعاً كل السرعة إلى بلدة بيهام، ثم قام بنهب جميع المنطقة المجاورة بوساطة جنوده، وزود قلعته وشحنها من أسلاب الآخرين، ولكن عندما وصل خبر هذا التمرد إلى الملك وإلى مستشاريه، حشد على الفور جيشاً، وفي اليوم السادس بعد طهارة القديسة مريم، نصب جنود جيشه مجانيقهم حول القلعة، ودمروا في وقت قصير الأسوار والأبنية، حتى أنه لم يعد لدى المحاصرين مكانا آمنا يخبئون رؤوسهم فيه، وبناء عليه غادروا خرائب القلعة، لأنه لم يبق أمامهم مجال آخر، وفي اليوم الثامن من شباط خرجوا ومثلوا أمام الملك، الذي أمر بوضعهم في السجن حتى تشاور حول الذي ينبغي فعله معهم، وجاء في الوقت نفسه ايرل أوف ألبيمارل إلى الملك تحت توجيه وولتر رئيس أساقفة يورك، وقد سامحه الملك بناء على

توصية والو النائب البابوي، وبحكم أنه كان قد خدم بشجاعة واخلاص الملك وأبيه في حروبهما، وجرى اطلاق سراح جميع الفرسان والجنود من دون عقوبة أو غرامة، وجاء اطلاق السراح من قبل الملك، الذي أعطى بذلك مثلاً سيئاً إلى المتمردين الآخرين ضده، وجعلهم يطمئنون في مثل هذه الحالة.

الخلاف الذي نشب بين رتشارد أسقف درم والرهبان

ونشب في هذه الآونة خلاف شديد بين رتشارد دي ماريسكو Ma-risco أسقف درم وبين رهبان تلك الكنيسة، حول بعض الامتيازات القديمة والأعراف، التي تمتع بها الرهبان مدة طويلة في الماضي، وأرسل الأسقف مخادعة رسالة إلى الرهبان المذكورين ليقدموا إليه مع امتيازاتهم وكتابات كنيستهم، حتى إذا كان بهم أي نقص، يمكنه تزويدهم به بقرار منه، ورفض رئيس الرهبان والرهبان رفضاً مطلقاً تمكينه من مشاهدة كتاباتهم، لأنهم توجسوا شراً من خداعه وخافوا من غشه،وبناء عليه، عندما وجد الأسقف نفسه غير قادر على رؤية كتاباتهم، أقسم أنه سوف ينقل جميع ممتلكاتهم ويحولها لاستخدامه الخاص، وأضاف إلى ذلك أنه إذا ما وجد أي واحد منهم خارج باب ديره، هو لن يقبل فدية له أقل من رأسه، وأقسم أيضاً أنه مادام حياً لن تعرف كنيسة درم الهدوء والسلام، وبعد مضي وقت قصير قام أتباع الأسقف بجر واحد من الرهبان وأخرجوه بالقوة من الكنيسة، وعندما قام هذا الراهب بعرض شكواه عن سوء معاملته إلى الأسقف، أجابه ذلك الأسقف بقوله بأن خدمه كانوا سيحسنون صنعاً لو أنهم قتلوه، وكان من ذلك الوقت، هذا الأسقف عدوانيا إلى أبعد الحدود نحو الرهبان المذكورين، وصار ينزل بهم أعظم الأذى، ولذلك اضطروا إلى الترافع والشكوى إلى البابا، ووضعوا أنفسهم وجميع ممتلكاتهم تحت حمايته، ثم إنهم بعثوا بعض رجال الدين والرهبان إلى روما حيث تقدموا بشكاوى كثيرة ضد

الأسقف، وجواباً على ماتقدم له حصلوا على الرسالة التالية من قداسته:
«من هو نوريوس الأسقف، إلى أسقفي سالسبري وايلاي، وإلى الآخرين، تحيات، الخ، من الواضح تماماً أننا نتمتع بسماع الآراء الطيبة لإخواننا ورفاقنا، وأننا لن نتغاضى عن شرور آثام المعتدين، ولن يخطر على بالنا، تقديراً منا لقانوننا ونظامنا، تأييد المذنبين، الذين تجعلهم ذنوبهم جديرين بالموت، وذلك انسجاماً مع ماضربوه من أمثلة في اقتراف الذنوب لشعوبهم، التي تقلد فقط مثل هذه الجرائم التي شاهدوها بأعينهم، وبما أنه عندما يجري في الغالب التقليد، فاننا نشعر بالمسؤولية تجاه مايقوم به أخونا أسقف درم، ولأن أعماله متباينة تماما مع ماتقتضيه الكرامة الأسقفية جرت أخيراً اثارتنا بوساطة الالتماسات التي جذبت انتباهنا، وبناء عليه لن نسمح للأسقف المذكور الاستمرار أية مدة أطول من دون ضبطه وردعه عن شناعاته، لأن شكاوى ساطعة وتهما مكشوفة قد قدمت ضده، من أنه منذ ارتقائه إلى المرتبة الأسقفية صار مجرماً بسفك الدماء، والسيمونية، والزنا، والتجديف، والسرقة، والحنث باليمين، وكثيراً من الجرائم المضاعفة في التهور في ظلم الرهبان وقمعهم، مع اليتامى، ورجال الدين، وبمنع تقديم القربان للناس وقت موتهم، وفي التورط في الدفاع عن امتيازات الملك مراغمه لولدنا المحبوب باندولف الأسقف المنتخب لنورويك، ومع أنه تحت عقوبة الحرمان الكنسي، يتدخل بإقامة الطقوس الدينية والقداسات، وكذلك بالنسبة للشكاوى والمرافعات المقدمة لنا والمعروضة علينا، هو لم يقم تقديراً لكنيسة روما، ولم يلتزم بقرارات المجمع المسكوني، ولم يبشر بكلمة الرب لشعبه، وبسلوكه الفاسد، وبممارسات حياته قد ضرب مثلاً سيئاً إلى الذين هم تحت ادارته، فلقد أقسم بحضور عدد كبير من الناس، بأن كنيسة درم لن تعرف الهدوء والسلام أثناء حياته، وعندما تشكى له واحد من رهبان درم بأنه جرّ من الكنيسة من قبل خدم الأسقف، وضرب حتى سالت الدماء منه، أجابه بأنه كان يفضل لو أن

خـدمه قـد قتلوا الراهب، وعلاوة على هذا، لقـد داس بقدميـه في جميع المناسبـات الأحكام الرسـوليـــة، التي حـددت أي نوع من الأشخـاص ينبغي أن يكون الأسقف، وبناء عليـــه، حتى لانضـاعف أخطاء واحـد آخـر، الأمـر الـذي سنقترفـه لو أننا مـررنا مـــرور الكرام على الذنوب الكبيرة والآثام العظيمـــة للأسقـف المذكـــور، لاسيما بعــدمــا وصلتنا الصرخات حول هذه القضيـة، نحن الآن لايمكننا الاستمرار بالتغاضي عن هذه القضـــايا، ولذلك رأينـا من الأفضل النزول من مقـــام منصبنا الرفيع، للبحث ولـرؤية فيما إذا كـانت هذه الشكـاوى صحيحيـة أم لا، وبناء عليه نحن نأمـركم بوساطة رسـائلنا الرسوليـة هذه القيام بالبحث والتقصي حول هـذه القضايا، وعندمـا تقفون على ما هو صحيــح تماماً، ارســال محصلة أبحاثكم مغلقـة تحت ختمكم، إلينا، وذلك حتى نتمكن بعون الرب مـن اتخاذ قرار حول مـالذي يتوجب فعله في هـذه القضية. صدر في فيتيربو، في السنة الخامسة من بابويتنا».

كيف ذهب أسقف درم إلى روما للاجابة على شكاوى الرهبان

عندما وصلت رسائل مـولانا البابا إلى أيدي وكلائه، قـاموا بموجب الواجب المفـــروض عليهم باستـــدعـــاء أسقف درم مع رعـــاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والشمامسة، والعمـداء في مؤسسة البلاط والمحكمة في درم، وكـــذلك جميـع الآخـــرين من العلمانيين ورجـــال الـدين في تلك المقـاطعة، الذين اعتقـدوا ان لهم عـلاقة تنظيميـة بهذه القضية، وعندمـا مثلوا جميعا في الموعـد المحدد والمكان المقرر أمام هؤلاء الوكـلاء، جرت قـراءة رسـائـل البـابا، على مسمع منهم جميعـاً مـن أجل أن يحصل كل واحد منهم على معلومات واضحة عن القضية، وبعد الفراغ من القراءة وفهم المحتويات نهض رجـال دين الأسقف وعرضـوا بعض التعليلات الحمقاء الفاسدة، وجـاء ذلك رداً على الوكلاء، وأنهم لا يمكنهم متابعة التقصي والبحث، لأنهم سوف يترافعون أمام البـابا، وبعدما قدم إلتماس

استئنافه غادر مع رجال دينه وذلك بعد تحديد موعد من أجل متهميه للظهور ضده في حضرة البابا، وبعدما قدم الأسقف المذكور استئنافه، أخذ طريقة إلى بلاط روما، وجاء ذلك بعدما أرسل أمامه بعضاً من رجال دينه ليحصلوا له على الحظوة عند البابا ضد خصومه، وبناء عليه تمكن رجال الدين المذكورين، قبل وصول رهبان درم إلى روما من اضعاف قضيتهم كثيراً، وبناء عليه وبعد كثير من المشاحنات من على الجانبين في حضرة البابا، وبعدما أنفق الأسقف وكذلك الرهبان مبلغاً كبيراً من المال، جرى إرسالهم عائدين إلى انكلترا، إلى الوكلاء المتقدم ذكرهم، ليقوموا بتقرير وتحديد ما هو صحيح، ومنذ أن تفجر هذا الخلاف فيما بينهم، استمر لوقت طويل، حتى وضع موت الأسقف حداً للنزاع، كما كان هو نفسه قد أعلن.

بناء قلعة جديدة في مونتغمري

وفي العام نفسه، في حوالي عيد ميلاد القديسة مريم ألقى للويلن Llewellyn ملك ويلز الحصار على قلعة إسمها بويت Buet (Builth) وكانت بلدتها تابعة لرينالد دي بروز Brause فالتمس بالحاح المساعدة من الملك، حتى يمكن بوسائله رفع الحصار، بحكم أنه كان غير قادر بوسائطه الخاصة تدبر ذلك، وبناء عليه، ولأن الملك عليه عدم التخلي عن نبلائه، زحف إلى هناك مع جيش كبير، ورفع الحصار، وعمد الويلزيون— كما هي عاداتهم—إلى الفرا ر، وعندها زحف الملك نحو مونتغمري Montgomery مع جيشه، آمراً بجمع جميع سلع وممتلكات الويلزيين الذين قابلوهم مع مواشيهم من أجل دعم أتباعه الذين كانوا معه، ولدى الوصول إلى مونتغمري وبعد الطواف في المنطقة كلها هناك، رأى قادة الجيش أن المكان مناسب لبناء قلعة لأن موقعها بدا أنه لا يرام، وبناء عليه أمر الملك ببناء قلعة هناك من أجل ضمان تلك المنطقة، لأن من المعروف قيام الويلزيين بغارات من هناك، وبعد

هذا حصل الجميع على الإذن،وعـــاد وا إلى مــواطنهــم، وجـرى السماح للنبلاء بالمغادرة بعد دفع ماركين من الفضة عن كل محلجة.

أوضاع الأرض المقدسة بعد الاستيلاء على دمياط وتنيس

[وفي هذه الآونة بعث مقـدم فرسـان الداوية بالرسـالة التـالية حـول شـؤون الأرض المقدسـة:] «إلى أخينا المحترم في المسيح، يرسل إليكم تحيـاته ن.N بنعمـة الرب أسقف إليمنيـوم Elimenum وبطرس دي مونتأليـوت مقدم فـرسان الداوية، نعلم قـداستكم بالرسائل المعـروضة أمـامكم عن سير أمور مـولانا يسـوع المسيح منذ الاستيلاء على دميـاط وعلى قلعة تنيس، وليكـن معلوم لديكم بالمقام الأول أنه بعـد الاستيلاء المذكـور، وصل إلى دميـاط عـدد من الحجـاج، شكلوا مع بقيـة الجيش الذي بقي، مـا فيه كفاية لشحن دميـاط وللدفاع عن المعسكـر، ومولانا النائب البـابوي ورجـال الدين، يرغبون في تقـدم قضيـة جيش المسيح، ولذلك غـالبـاً مـا يقـومـون بحثّ الناس وتحريضهم للهجـوم على المسلمين، لكن نبـلاء الجيش، وكذلك الذيـن من مناطق ما وراء البحـر ومعهم الذين هم من جانبنا من المياه،يرون أن الجيش ليس كافياً للدفاع عن المدينتين المتقـدمتي الذكـر والقلعتين، وفي الوقت نفســه لا يمكن المضي أبعـد في سبيل منفعـة المسيحيـة، ولذلـك هم لم يوافقـوا على هذه الخطة، لأن سلطان مصر مع حشـد لا يحصـى عـدده من المسلمين، قـد نصب معسكره قرب دمياط، وبنى على كل فرع من فروع النهر جسوراً ليعيق تقـــدم الصليبيين، وهو هنـاك مع جيش عمـــلاق، وأن يقـــوم الصليبيـون بـالتقـدم أكثـر، فـإنهم وقتهـا سـوف يكـونون في خطر هو الأعظم، ومـع ذلك لقــد قمنـا بتحصين المدينة المذكـــورة، والمعسكر، والســاحل القـــريب منا بخنادق من جميع الجهــات، متــوقعين أن تتم مواسـاتنا من قبل الرب بوساطة مسـاعدة الذين هم قادمين لمسـاعدتنا، ورأى المسلمون -على كل حال - عدم كفايتنا، فسلحوا جميع غلايينهم،

وبعثوا بهم إلى البحر في شهر ايلول، وسبب هؤلاء خسارة كبيرة ألمت بالصليبيين الذين كانوا قادمين لتقديم العون إلى الأرض المقدسة، وكان هناك في جيشنا عجز كبير بالمال إلى حد أنه لم يعد بإمكاننا الحفاظ على سفننا لأية مدة أطول، ولدى معرفتنا بأن خسائر كبيرة تنزل بالجيش الصليبي، بوساطة غلايين المسلمين تلك، قمنا على الفور بتسليح غلايينا، وسفننا ومراكبنا الأخرى للتصدي لهم، وليكن أيضاً معروفاً لديكم بأن المعظم سلطان دمشق، قد حشد جيشاً كبيراً من المسلمين، ولدى معرفته بأن مدينتي عكا، وصور لم تكونا مزودتين بما يكفي من الفرسان والجنود للتصدي له، قام بشكل مستمر بالحاق الأذى الشديد بهذين المكانين، بشكل سري، وبشكل علني، وبالاضافة إلى هذا، غالبا ماجاء ونصب معسكره أمام معسكرنا، الذي اسمه «المحج» [عثليت]، ملحقاً بنا كل أنواع الأذى، كما أنه حاصر قيسارية في فلسطين واستولى عليها مع أنه كان هناك عدد من الحجاج مقيمين في عكا، وعليّ أيضاً أن أخبركم بأن الأشرف ابن سيف الدين، وأخو سلطاني مصر ودمشق، يقاتل مع جيش قوي ضد المسلمين في المناطق الشرقية، وقد انتصر على أعظم أعدائه قوة، لكن ليس ضد الجميع، لأنه بفضل الرب سوف لن يكون بإمكانه بسهولة قهرهم جميعاً، لأنه إذا مااستطاع انهاء تلك الحرب، سوف يكون من الممكن أن يلتفت باهتمامه نحو كونتيه أنطاكية، أو نحو طرابلس، أو عكا، أو مصر، ولسوف نكون في الخطر الأعظم، إذا كان سيتولى حصار أية واحدة من قلاعنا، لأننا لن نستطيع، بأي حال من الأحوال دفعه وابعاده، هذا والحديث عن وجود خلافات بين المسلمين يمنحنا السرورة والراحة، علاوة على ذلك إننا متوقعون منذ وقت طويل وصول الامبراطور ونبلاء آخرين بهم نأمل أن نتحرر، ونأمل بوصولهم بانهاء هذه المسألة، التي بدأت بأيدي كثيرة، إلى نهاية سعيدة، ولكن إذا خابت آمالنا بشأن هذه المساعدة، ولم تصل في الصيف المقبل -الأمر الذي آمل أن لايحدث- سوف يكون وضع البلدين

اللذين هما مصر وسورية، وماتملكناه مؤخراً ، والذي نمتلكه منذ زمن طويل، في موضع شك، وبالاضافة إلى ما تقدم لقد ظلمنا نحن والناس الآخرين من جانبنا من الغرب بالنفقات العالية جداً في الاستمرار بهذه الصليبية،ووصل الحال والضيق بنا إلى درجة أننا سوف نكون غير قادرين على الانفاق على حاجتنا الضرورية، ما لم نتسلم، بفضل، الرحمة اللاهوتية، بأسرع وقت ممكن المساعدة من أبناء ديننا المسيحيين. صدر في عكا في العشرين من أيلول».

حج فيليب دي ألبيني إلى الأرض المقدسة

عام ١٢٢٢م، فيه أمضى الملك هنري عيد الميلاد في ويستنمستر، حيث زوده بطرس أسقف ذلك المكان بجميع الضروريات للاحتفال، وفي هذا العام أيضاً، انطلق فيليب دي ألبيني، الذي كان فارساً شجاعاً وأميناً وكان موجهاًمخلصاً لملك انكلترا، وأخذ طريقة نحو القدس، وقد وصل إلى هناك بعد رحلة موفقة، دون المعاناة من أية خسارة في الممتلكات والسلع، وما أن تعرف على شؤون الأرض المقدسة حتى بعث الرسالة التالية إلى رالف ايرل شيستر:

حول فقدان دمياط

«إلى صاحب القداسة والمولى والصديق رالف ايرل شيستر ولنكولن، يتمنى له صديقه المخلص فيليب دي ألبيني الصحة وخالص العواطف، عليّ أن أخبر معاليكم أنه في يوم صعود العذراء مريم أبحرنا من ميناء مرسيليا، وفي يوم الاثنين قبل ميلاد العذراء نفسها وصلنا إلى أمام دمياط، وهناك رأينا عدداً كبيراً من السفن تغادر البلدة، ولقد تحدثت مع واحد من المراكب وقدمت هدايا إلى الملاحين، وبناء عليه قدموا وتحدثوا إلينا، وجلبوا إلينا تقارير حزينة جداً، أفادت بأن شعبنا في دمياط، والنبلاء في تلك المدينة، وملك القدس، والنائب البابوي، ودوق

بافاريا، والداوية والاسبتارية ، مع آخرين كثر، بلغ عددهم إلى ألف صليبي وخمسة آلاف من الفرسان الآخرين، مع أربعين ألفاً من الجنود الرجالة، قد مضوا في حملة نحو القاهرة، وذلك على الرغم من معارضة الملك، حيث —كما قيل—قد غادروا في يوم عيد القديس بطرس في الأغلال، وهذا معناه أنه مضى على غيابهم في تلك الحملة ثلاثة أسابيع أو أكثر، وهم الآن في حوالي منتصف الطريق بين دمياط والقاهرة،وقدم وقتها سلطان القاهرة مع أخيه المعظم ومعهما جميع القوات التي تمكنا من حشدها، وغالباً ما هاجما قومنا، وكثيراً ما فقدا بعضاً من رجالها، وعندما رغب شعبنا بالعودة إلى دمياط، أصبح النهر فائضاً، وطاف لعدة أيام على طرفيه، وانحصر شعبنا بين فروع النهر، ثم عمل المسلمون قناة من فرع إلى آخر على مقربة من جيشنا، وفي الوقت نفسه ازداد ارتفاع النهر بشكل كبير جداً، حتى أن شعبنا صار رجاله يخوضون في الماء حتى ركبهم وأوساطهم، مما سبب لهم شقاء عظيماً وآلاماً، وبذلك صاروا عرضة إما للقتل أو الوقوع أسرى بيد سلطان القاهرة، وذلك حسبما يرغب، وفي ظل هذه الأوضاع وافق شعبنا على هدنة لمدة ثمانية أعوام وأبرموها مع السلطان، على شرط تخليهم عن دمياط وتسليمهم لها مع جميع الأسرى الذين لديهم بالأسر، وفي سبيل مراعاة هذه الهدنة وتنفيذها، بقي ملك القدس، والنائب البابوي ودوق بافاريا والشخصيات الهامة الأخرى بمثابة رهائن، وقدم السلطان وأعطى عشرين رهينة من أجل مراعاة الهدنة من جانبه، وعندما سمعنا بهذه التقارير شعرنا بحزن عظيم، كما يتوجب على كل مسيحي أن يشعر، وبناء عليه رأينا أن من الأفضل أن نأخذ طريقنا إلى عكا، لأننا لم نرغب أن نكون حضوراً لدى تسليم دمياط، وقد وصلنا إلى عكا في اليوم التالي لميلاد العذراء مريم، وهو اليوم الذي أعقب يوم تسليم دمياط إلى السلطان، وقد قام السلطان نفسه بإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا لديه، وعليّ أيضاً أن أخبركم أن صاحب الجلالة

ملك القدس، على نية الذهاب إلى بلادكم، ولذلك أرجوكم أن تقدموا له العون، وفقاً للوعود التي عملت نحو الملك والنبلاء الآخرين، لأنه من الصعب وصف فضائله الكبرى التي هي موضع اعجاب».

رسالة أخرى حول القضايا نفسها

«من الراهب ب. pدي مونتأكيوت ، المقدم المتواضع لفرسان الداوية، إلى أخيه المحبوب في المسيح أ. A مارتل Martel الشاغل لمنصب مدرس في انكلترا، تحيات: لقد كنا من حين إلى آخر قد أخبرناكم عن تطور أحوال القضية التي نحن بشأنها والمتعلقة بشؤون يسوع المسيح، ونخبركم الآن بانتظام عن الانتكاسات التي واجهناها في أرض مصر، بسبب ذنوبنا، فلقد مكث الجيش الصليبي بعد الاستيلاء على دمياط وقتاً طويلاً، دونما حراك، في ذلك المكان، ولقد ألقى الناس الذين قدموا من مناطقنا في الغرب والذين جاءوا من مناطق ما وراء، البحر، الملامة والنقد علينا بسبب هذا السلوك، وقد وصل دوق بافاربا بمثابة قائد ممثل للامبراطور، وقد أوضح للناس بأنه قد جاء بغرض الحرب ضد أعداء الايمان المسيحي، وبناء عليه جرى عقد اجتماع ضم مولانا النائب البابوي، ودوق بافاربا، ومقدموا الداوية والاسبتارية وطائفة التيوتون، والايرلات والبارونات، فيه تقرر بالاجماع القيام بالتقدم، وبعدما جرى الارسال خلف ملك القدس المشهور، جاء مع باروناته ومعه اسطول من الغلايين والسفن المسلحة، ووصل إلى دمياط، ووجد جيش الصليبيين مقيماً في معسكره خارج الخطوط، وبعد عيد القديسين بطرس ، وبولص، استأنف وقتها صاحب الجلالة الملك والنائب البابوي ومعهما الجيش الصليبي كله، الزحف بشكل نظامي في كل من البر والماء، وقد اكتشفوا وجود السلطان مع حشد لا يحصى من أعداء الصليب، وقد هرب هؤلاء من أمامهم، وبناء عليه تابعوا زحفهم من دون خسائر حتى وصلوا إلى معسكر السلطان، وكان هذا المعسكر

محاطاً بنهر كانوا غير قادرين على عبوره، ولذلك أقام الجيش الصليبي معسكره على ضفة النهر، وشيد جسوراً للعبور إلى أمام معسكر السلطان الذي كنا مفصولين عنه بوساطة نهر تنيس، الذي هو فرع لنهر النيل العظيم، وبعدما أقمنا بعض الوقت هناك، غادر عدد كبير جيشنا، من دون الحصول على إذن، ولذلك نقص عدد الجيش بعشرة آلاف أو أكثر، وفي الوقت نفسه،عندما فاض النيل أرسل السلطان غلايين وبراكيس إلى داخل النهر لإعاقة سفننا، وفعل ذلك من خلال أقنية كان قد فتحها وأعدها من قبل، وبهذه الطريقة لم يكن من الممكن وصول مؤن إلينا من دمياط، وبذلك حرمنا من المؤن، لأن المؤن تعذر وصولها إلينا عبر البر، بسبب أن المسلمين منعوها من الوصول، وهكذا فإن الطريق بالبحر وبالبر الذي كان من الممكن عبره أن تصل المؤن الضرورية إلينا بات مغلقاً، وعقد الجيش اجتماعاً للتباحث من أجل العودة، لكن أخوا السلطان: الأشرف والمعظم، سلطانا:حلب ودمشق والسلاطين الآخرون، خاصة سلاطنة: حمص،وحماة، وقلعة جعبر مع ملوك مسلمين كثير آخرين، وجيش لا يحصى عدده من المسلمين، كانوا قد جاءوا لمساعدتهم، تولوا قطع طريق تراجعنا وغادر— على كل حال —جيشنا أثناء الليل وسار عبر البر والماء، لكنه فقد كل المؤن في النهر، وذلك إلى جانب عدد كبير من الرجال، لأنه عندما فاض النهر، وجه السلطان الماء في اتجاهات مختلفة من خلال مجاري خفية وأقنية وترع، كانت كلها قد أعدت قبل وقت مضى لإعاقة تراجع الصليبيين وبناء عليه تفرق جيش المسيح بين الأغواط، ولذلك فقد جميع حيوانات الحمولة لديه، ومخزوناته، وجميع حاجياته الضرورية تقريباً، وصار بذلك محروماً من المؤن، وبذلك لم يعد بإمكانه الإشتباك بالقتال مع السلطان بسبب أنه كان محاطاً بالنهر، وهكذا بات معتقلاً في وسط المياه مثل سمكة، وعندما وجد قادة الجيش أنفسهم في هذا المأزق، وافقوا مكرهين على تسليم مدينة دمياط إلى السلطان، مع جميع الأسرى الذين

يمكنهم العثـــور عليهم في صـــور وعكـا، مقــابل الصليـب الحقيقي، والأسرى الصليبيين الموجــودين في مصر ودمشق، وبنـاء عليــه نبنا مع عدد آخـر من الرسل عن الجيش بشكل عام، وذهبنا إلى دميـاط لإخبار الناس في المدينة عن الشروط التي فـرضت علينا، مما أزعج كثيراً أسقف عكا، والمستشار، وهنري كـونت مالطا، الذي وجـدناه هناك، ذلك أنهم رغبوا بالدفـاع عن المدينة، وهو ما توجب علينا الموافقـة عليه، لو أمكن فعله والقيـام بـه مع أية منافع، لأننا كنا بالحري نـؤثر أن نوضع في أسر دائم على تسليم المدينة للمسلمين الذي هـو عـار للصليبيـة، وبناء عليـه قمنا بعملية بحث دقيقـة خلال المدينة، ومع الأفـراد والأوضاع المؤثرة، فلم نجـد مالاً ولا أنا سـاً يمكن بوساطتهم الدفـاع عن المدينة، ولذلك رضخنا لهذه الاتفـاقيـة وربطنا أنفسنا بالإيمان وبـاعطاء رهائن، ووافقنا على هدنة ثابتـة لمدة ثمانيـة أعوام، والتـزم السلطان -حتى الانتهـاء من الترتيبات—بدقة بما كان قد وعد به، وزود جيشنا الجائع بالخبز والدقيق لقرابة خمسة عشر يوماً، ولذلك تعاطف برحمة مع آلامنا، وساعدنا بقدر ما أنت تستطيع ووداعاً».

مباراة مصارعة واضطرابات في مدينة لندن

وفي العام نفسه التقى سكان مدينة لندن في يوم عيد القديس جيمس، في مشفى الملكة مـاتيلدا، خارج المدينة لـلانخراط بمبـاراة مصارعـة مع سكان المناطق القـائمـة حـول المدينـة، لمشـاهدة من منهم يمتلك القـوة الأكبر، وبعـدمـا تصـارعـوا لمدة طويلة وسط الصراخ من على الطرفين، تمكن سكان المدينـة من إحـداث اضطراب وسط خصــومهـم، ونالوا النصر، وكان بين الذين تعرضوا للهزيمة قهرمان راعي دير ويستمنستر، وقـــد غــادر وهـو يفكر بعمق ويبحث عـن وسيلة ينتقم بها لنفســه ولأصحابه، وبعد لأي اعتمـد الخطة التالية للانتقام، فقـد عرض تقديم جـائزة من أجل المصـارعـة، في ويستمنستر، والذي سوف يبرهن نفســه

على أنه المصارع الأفضل، ينبغي أن يتسلم الكبش بمثابة جائزة، وجمع في الوقت نفسه عدداً من المصارعين البارعين والأقوياء، حتى يمكنه بذلك استحواذ النصر، لكن لكون سكان المدينة كانوا راغبين في نيل انتصار آخر، قدموا إلى المباراة في قوة كبيرة، وبدأت المباراة والاصطراع من على الجانبين، واستمروا لبعض الوقت يرمون بعضهم الآخر، وبما أن القهرمان وأتباعه من الضواحي ورفاقهم من الأرياف، أرادوا الانتقام وليس الرياضة، بادروا إلى حمل السلاح وضربوا بحدة سكان المدينة، الذين قدموا إلى هناك غير مسلحين، وسببوا سفك الدماء بينهم، وأصيب سكان المدينة بالجراحة بشكل مخجل، وتراجعوا إلى المدينة وسط اضطراب عظيم وفوضى كبيرة، وبعدما صاروا بالمدينة حدث هياج كبير بين السكان، وأعطيت اشارة إلى السكان من مختلف المراتب للاجتماع، وجرى إخبار الناس بملابسات ماحدث، ولذلك اقترحوا جميعاً طرقاً مختلفة وخططاً متباينة للانتقام، لكن سيرلو Serlo، عمدة المدينة، وكان رجلاً حكيماً ومحباً للسلام، ارتأى أنه ينبغي استدعاء راعي دير ويستمنتسر للإجابة على هذه الاهانة، وإذا ماقدم ترضية مناسبة عن نفسه وعن أتباعه، فسيكون في ذلك رضا لهم جميعاً، وفي جواب على هذا، وقف واحد من أعيان المدينة، واسمه قسطنطين، وسط هتاف جميع السكان وقال إنه يرى وجوب هدم جميع أبنية دير ويستمنستر، وبيت القهرمان المتقدم الذكر وتسويتها بالأرض، وعندما أنهى كلامه، صدر القرار بذلك، وأنه ينبغي تنفيذ خطة قسطنطين، وما الذي يمكن أن يقال أكثر من هذا؟ واندفع السكان الحمقى والطائشين مع الآخرين في المدينة، وتوجهوا بشكل فوضوي، وكان قسطنطين على رأسهم، وقد دخلوا في حرب أهلية، حيث دمروا عدداً كبيراً من الأبنية، وألحقوا ضرراً كبيراً براعي الدير، وبما أن هذه الأحوال كان من غير الممكن إبقاءها سرية لوقت طويل، فقد وصلت إلى مسامع هيوبرت دي بورغ، المسؤول عن العدالة في انكلترا، فحشد قوة، وزحف نحو برج لندن،

ومن هناك أرسل رسلاً إلى المدينة، وأمر شيوخ السكان بالقدوم إليه بأقصى سرعة ممكنة، ولدى مثولهم أمامه سألهم عن رؤساء فعلة هذا الاضطراب، وهذه الفوضى في مدينة الملك، ومن الذي تجرأ على خرق السلم الملكي، ومثلما كان قسطنطين الذي كان هو الأجرأ في هذا الاضطراب، كان الآن هو الأجرأ بالإجابة، حيث أعلن أنه على استعداد للإجابة عن كل ماحصل، ولدى سماعه جميع الشكاوى، قال بأنه فعل الذي هو أقل مما ينبغي فعله، وعندما سمع المسؤول عن العدالة هذا الاعتراف، اعتقله من دون صدور أي صوت مع اثنين آخرين إلى جانبه، وأرسل في الصباح فالكاسيوس مع قوة من الجند عن طريق التيمز، وقد حمل قسطنطين بعيدا لكي يشنق، وعندما وضع الحبل حول عنقه، وفقد كل أمل، عرض دفع خمسة عشر ألف مارك من الفضة مقابل الابقاء على حياته، لكن ذلك كان بلافائدة، وقد جرى شنقه وقتذاك مع حفيده قسطنطين، وواحداً آخر اسمه غيوفري، وهو الذي كان قد أعلن الحكم الذي أصدره قسطنطين في المدينة، وهكذا بما أن سكان المدينة لم يعرفوا ماحدث، فقد جرى تنفيذ القرار الذي صدر بحقه من دون هياج وفوضى، ومضى بعد هذا المسؤول عن العدالة يتجول في المدينة مع فالكاسيوس وقوة من الجند، وقد اعتقل جميع الذين اكتشف أنهم كانوا مجرمين في الفتنة المذكورة وألقى بهم في السجن، وبعدما قطع أقدام بعضهم، وأيدي بعضهم الآخر سمح لهم بالمغادرة، وبسبب هذه الحادثة هرب بعض الناس من المدينة، ولم يعودوا إليها بعد ذلك ثانية، ثم أوقع الملك عقوبة كبيرة، حيث خلع جميع رجال العدالة في المدينة، وعين رجالاً جدد عوضاً عنهم.

عواصف رعدية وأحوال مناخية سيئة

وسمعت في الثامن من شباط من العام نفسه أصوات رعود مرعبة، وكانت أسهم البرق لدى اصطدامها قد أشعلت النار في كنيسة غراهام

في كونتية لنكولن، ومنها صدرت روائح كريهة جداً إلى حد أن الذين كانوا في الكنيسة لم يتحملوها، لذلك هربوا، وبعد مضي بعض الوقت أمكن عن طريق اشعال فتيل الشمع المقدس، ورش الماء المقدس، أمكن بعد بعض الاضطراب إطفاء النار، لكن آثار بعض اللهب ماتزال موجودة في الكنيسة، وكان هناك في العام نفسه، في يوم عيد تمجيد الصليب (١٤ -ايلول) كثيراً من الرعود في جميع أرجاء انكلترا، وقد تبع هذا هطول أمطار غزيرة، مع زوابع شديدة، ورياح عنيفة، واستمرت هذه الأنواء العاصفة مع المناخ الذي لم يكن معتاداً آنذاك حتى عيد طهارة العذراء،محدثاً دماراً عظيماً لعدد من الناس، وبشكل خاص إلى المزارعين، وقد بيع في الصيف التالي عيار القمح بمبلغ اثني عشر شلنا، ومجدداً سمع الرعد في العام نفسه في يوم عيد القديس أندرو الرسول (٣٠ -تشرين الثاني) في جميع أرجاء انكلترا بشكل عام، مما سبب دمار الكنائس، وأبراج الكنائس، والبيوت والأبنية الأخرى، وأسوار القلاع وسواترها الدفاعية، وفي بلدة اسمها بيلاردستون Pi-lardeston في كونتية وورويك Warwickدمرت العاصفة بيت أحد الفرسان، ودفنت زوجته، وثمانية أشخاص من كلا الجنسين، مما أفجع كثيراً من الناس رأوا المأساة، وازدادت العاصفة بعد هذا قوة وغضباً، فسقطت في البلدة نفسها، على بقعة من الحلفاء، كانت محاطة ببحيرة ذات ماء عميق، فجفت على الفور، فلم تترك فيها لاعشب ولاتراب، والذي بقي مجرد حجارة جافة، ومرة أخرى في عشية عيد القديسة لوسي Lucy(١٣ -كانون أول) العذراء، هبت بشكل مفاجيء ريح عاصفة، وقد ثارت بقسوة أعظم مما ذكرناه من قبل من العواصف، ذلك أنها أسقطت خلال انكلترا بشكل عام أبنية كأنها تعرضت للنفخ عليها من قبل الشيطان، وسوت بالأرض كنائس وأبراج، واقتلعت أشجار الغابات من جذورها وكذلك أشجار الفواكه، وبذلك نادراً مانجا انسان دون التعرض للخسارة والمعاناة منها.

كيف طالب ستيفن رئيس أساقفة كانتربري بامتيازات صك الحريات من الملك

عــام ١٢٢٣م، فيــه عقــد الملك هنـري بلاطه في عيــد الميــلاد في أكسفورد، ووصل إلى لندن بعد ذلك في ثمانية عيد الغطاس، لعقد مؤتمر مع البارونات، وهناك سأله رئيس أسـاقفة كانتربري وكـذلك سأله بقية النبلاء أن يؤكـد لهم الامتيازات والأعـراف الحرة، حتى يحصلوا عليها، وهي التي كـانت السبب في دخـول الحرب ضـد والده، ونظرا لما برهن عليه رئيس الأسـاقفة بكل وضوح، لم يتمكـن الملك المذكور تجنب منح هذا المطلوب، لأنه عندمـا غـادر لويس من انكلترا، كـان قـد أقسم هو ونبلاء المملكة على مـراعاة الامتيازات المذكورة، وأن يتدبـروا مراعاتهم من قبل الجميع، ولدى سماع هذا الطلـب، قـام وليم بريوير Briwere، وكان واحداً من مستشاري الملك، فتـولى الرد باسم الملك قائلاً: «بما أن الامتيازات التي تطالب بها قـد استخرجت بالقوة، ينبغي بالحقيقـة عدم مراعاتها»، فأصبح رئيس الأساقفة غـاضباً بسبب هذا الرد، فوجه اللوم إليـه قـائــلاً: «إذا كنت ياوليم تحب الملك، عليك عــدم إفسـاد سـلام المملكة»، وعندمـا رأى الملك بأن رئيس الأساقفة قـد أثير حتى الغضب قال: «لقد أقسمنا على مراعاة جميع هذه الامتيازات، والذي أقسمنا عليه نحن ملتزمون به»، ثم قام على الفور فعقد مؤتمراً، وبعث رسائل إلى كل واحـد من عمد مناطق انكلترا، آمـراً إياهم القيام بعمليـة بحث وتقصي بموجب قسم يؤديه اثني عشر فـارساً أو اقطاعياً أو رجـلاً حراً من كل كـونتية، حتى يعـرفوا أية امتيـازات كانت مـوجودة في أيام جـده الملك هنري وأن يبعثـوا إليـه بنتيجة البحث الخاصـة، إلى لندن في إطار خمسـة عشر يوماً بعد عيد الفصح.

خلاف بين الويلزيين ووليم مارشال

في هذا العام نفسه، عندما كان وليم مارشال ايرل أوف بمبروك في ايرلندا قام للويلين ملك الويلزيين مع جيش قوي، بالاستيلاء على قلعتين كانتا ملكاً لوليم المذكور، وقتل صبراً جميع الذين وجدهم فيهما، ثم غادر مبتعداً، تاركاً أتباعه الويلزيين في هاتين القلعتين، ووصلت أخبار هذه الوقائع بعد عدة أيام إلى مسامع وليم مارشال، فعاد مسرعاً كل السرعة إلى انكلترا، حيث حشد قوة كبيرة، ثم إنه حاصر القلعتين واستولى عليهما، وبما أن جميع أتباعه قد جرى قتلهم صبراً بعد استيلاء للويلين على القلعتين، مثل هذا فعل وليم انتقاماً فقتل صبراً جميع الويلزيين الذين أسرهم، وقام بعد ذلك حتى يزيد من انتقامه لنفسه فغزا أراضي للويلين، وأحدث دماراً في المنطقة حيثما ذهب وتوجه بالسيف والنار، ولدى سماع للويلين بهذا قدم للتصدي للمارشال مع قوة كبيرة، لكن الحظ وقف إلى جانب المارشال، حيث قاتل الأعداء، وبعدما قتل عدداً من الويلزيين، أرغم البقية على الفرار، وطاردهم بحرارة، وقتلهم من دون رحمة، فلقد جرى تعداد تسعة آلاف على أنهم قتلوا ووقعوا بالأسر، وفقط عدد قليل هم الذين نجوا بالفرار.

وفي العام نفسه، في حوالي أيام عيد صعود ربنا، جرى تكريس وليم موكلير Mauclere أسقفاً كارآيل Carlisle ليورك، وفي تلك الآونة نفسها، تدفق سائل زيتي نقي في الكنيسة الكبرى في يورك، من ضريح القديس وليم، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة تلك الكنيسة، وأمطرت السماء في العام نفسه مطراً لونه لون الدم، وقد صبغ الأرض في روما، لمدة ثلاثة أيام، مما سبب الدهشة لكثير من الناس.

موت فيليب ملك فرنسا

وفي العام نفسه، في حوالي أيام عيد القديس بطرس في الأغلال، مات

فيليب ملك فرنسا، وقد كان أشار إلى موته مذنب له ذيل ناري، ظهر قبل أيام قليلة، وما أن بات خبر موته معلوماً، حتى بعث هنري ملك انكلترا، رئيس أساقفة كانتربري مع ثلاثة أساقفة إلى ابنه لويس، وكان ذلك إثر تتويجه، وقد طلب منه إعادة نورماندي، ومناطق ماوراء البحر الأخرى، إليه، وهو ماكان قد أقسم على فعله مع موافقة جميع نبلائه، لدى مغادرته لانكلترا، عندما أقيم السلام بينه وبين ملك انكلترا المذكور، وعلى هذا الطلب رد لويس بأنه متملك لنورماندي وللأراضي الأخرى كحق له، وهو على استعداد للبرهنة على ذلك في بلاطه إذا مارغب ملك انكلترا بالظهور به لتأييد دعواه هناك، وأضاف بأن اليمين الذي عمل من جانب ملك انكلترا قد خرق، وكان ذلك بارغام أتباعه الذين أخذوا أسرى في لنكولن، على دفع غرامة فدية ثقيلة، كما أنه فيما يتعلق بامتيازات مملكة انكلترا، التي من أجل الحصول عليها قد وقعت الحرب، وهي التي جرى منحها أثناء مغادرته، وجرى الاقسام على مراعاتها من قبل الجميع، قد تصرف ملك انكلترا بالنسبة لها بشكل أنه لم يكتف بوضع القوانين السيئة مجدداً موضع التنفيذ، وأعادهم إلى أحوالهم، بل إنه عمل قوانين أخرى أسوأ مما كان موجوداً في جميع أنحاء انكلترا، ولما لم يكن بإمكان رئيس الأساقفة والأساقفة الحصول على جواب آخر، عادوا إلى الوطن، وأخبروا الملك.

الألبينيون ينتخبون بابا مضاد

وفي هذه الآونة قام الألبينيون الهراطقة، في مناطق: بلغاريا، وكرواتيا، ودالماشيا، فاختاروا لأنفسهم بابا مضاد، وهو شخص اسمه بارثولوميو، كانت عقيدته الفاسدة قد نالت تأييداً كبيراً في هذه المناطق، إلى حد أنها أثارت أساقفة وآخرين كثر في هذه البلاد وأغرتهم للالتحاق بهذا الانشقاق، وقد وقف ضده وعارضه أسقف بورتوس Portus الذي كان النائب البابوي في تلك المناطق، وقد كتب كمايلي إلى رئيس أساقفة

روان: «إلى أخينا المبجل، الذي هو بنعمــة الرب رئيس أسـاقفـة روان، وإلى أسـاقفتـه المساعـدين، التحيـات في مـولانا يسـوع المسيح، عندمـا أرغمنا على طلب المســاعــدة منك في سبيل قــرين المصلوب الحقيقي، فنحن نعـاني من التنهـدات والدمـوع، وكل مـارأيناه سـوف نخبرك به، ومثل ذلك سوف نفعل بالنسبة لكل ماسنكون شهوداً له، فذلك الرجل المفقود، الذي ارتفع إلى مافـوق كل شيء، وهو الذي عبد أو الذي دعي باسم رب، له الآن ممثل في كفـره ممثـل بشخص رئيس الهراطقـة، الذين يدعـوه الألبينيــون باسم باباهم، وهو الذي يسكــن الآن ضمن حـدود بلغاريا، وكـرواتيا، ودلماشيـا، على مقربة من سكان هنغاريـا، وقد تدفق عليه الهراطقـة الألبينيون، ليحصلوا منه على أجـوبة لأسئلتهم، والنائب لهذا البابا المضـاد، الذي اسمه بارثولوميـو، هو أسقف للهراطقـة، وكان قد ولد في كـاركاسون Carcasson ، وهو يقدم أعظم اجلال غير تقوي إلى ذلك الرجل، وقد تخلى عن سكنه واقامته في البلدة التي اسمها بــورلـــوس Porlos ، وحمل نفسه إلى منطقة قرب طولوز، وكتب بارثولوميو هذا في مطلـع رسائله التي أرسلها إلى مختلف الجهـات ألقابه كمايلي: «من بارثولوميـو عبد عبيـد الايمان المقدس، إلى فـلان، تحيات»، وكان من بين آثامـه أنه أوجد أساقفـة، وأقدم بشكل شرير على تكريس كنائس، وبناء عليـه، إننا بوسـاطـة سلطات الكرسي الرسـولي، الذي أنا نائبـه في هـذه المنطقـة، نرجـوك بالحاح، ونلتمس منـك بحق دم يسـوع المسيح أن تقـدم في ثمانيـة الرسـولين بطرس وبولص إلى السين Sens، وهو المكان الذي سـوف يجتمع فيـه بقية أسـاقفـة فرنسـا، في ظل فضل الرب، وذلك حتى تقدم نصيحتك حول القضية المذكورة أعلاه، ولتقوم مع الآخـرين الذين سـوف يكونون هناك، في اتخاذ الاجراءات المضـادة والقمعية ضـد هرطقة الألبينيين هذه، وإلاّ فإننا سوف نخبر البـابا بعدم طاعتك، صدر في بلانيوم في الثاني من تموز»، ومالبث موت البابا المضاد المذكور أعلاه، أن وضع على الفور حداً لهذا العصيان والاضطراب.

كيف سعى بعض البارونات لاحداث خصام

وانتشرت في العـام نفسـه اشـاعــات كبيرة بين نبـلاء انكلترا، الذين رغبـوا في افسـاد السلام في المملكة، وكـانت حـول هيـوبرت دي بورغ المسؤول عن العدالة، حيث قـالوا بأنه أثار سخط الملك ضدهم، وعمل بشكل منحـاز في إدارتـه للمملكة، وبالاضـافـة إلى هذا ازدادت سـوء نواياهم لدى وصـول رسل الملك، الذين أرسلهم إلى رومـا، حيث أنهم جلبـوا معهم مـرسـومـاً من مـولانا البـابا إلى رؤسـاء أسـاقفـة انكلترا وأساقفتهم المساعدين، قضى فيـه قداسته بأن ملك انكلترا قد بلغ السن القانونية تماما، ليبـاشر شؤون المملكة وادارتها بشكل رئيسي مع مساعدة مستشاريه، وأمـر البابا أيضاً في هذه الـرسائل، الوكلاء المتقـدم ذكرهم، بموجب السلطات الـرسولية، أن يقـوموا بأمـر الايرلات، والبارونات، والفرسان، وجميع الآخرين، المتولين مسؤولية القلاع، والمناصب العالية، والبلدات، التـي هي تحت سلطان الملك، بـالقيـــام فـــور رؤيتهم لهذه الرسائل، بتسليمهم إلى الملك دونما تأخير، ولإرغـام جميع المغامرين على تقديم ترضيـات تحت طائلة العقوبات الكنسية، وبناء عليـه كانت هناك فئة كبيرة من البارونات، الذين كانـت قلوبهم مليئة بالجشع، قد شعرت بالغضب بسبب هذه الأوامر، وقد اجتمعوا مع بعضهم لإشعال حرب، وبما أن أخبـار مـؤامـرتهم قـد انتشرت بـالخارج ولم تعـد بالخفـاء، لقـد تمسكوا بالقضايا المذكورة كمسوغ لإفسـاد سلام المملكة، فرفضوا أوامر رؤساء الأسـاقفة والأساقفـة، وقدموا اتهامـات كما ورد أعلاه، مفضلين اللجـوء إلى السلاح، على تقـديم ترضيـة للملك حـول القضايا المتقـدم ذكرها، ولسوف نتحدث عن ذلك فيما سيأتي.

جلب صليب مولانا إلى برومهولم

وتكرر في هذا العـام وقوع معجـزات لاهوتية في برومهـولم -Brom holm، وذلك من أجل تمجيـد وتشريـف الصليب المانح للحيـاة، الذي

عليـه تألم المخلص من أجل انقـاذ الجنس البشري، وبما أن بريطانيـا هي مكان واقع في وسط المحيـط، لقـد ارتؤي أنها جـديرة بـالكرم اللاهوتي حتى تتبـارك بمثل هـذا الكنز، وإنه لمن الضروري والموائم، لابـل من الموائم جـداً، أن نغـرس في أذهـان أبنائنا معلومـات تـوضح سلسلة الأحداث التي جلبت ذلك الصليب من مناطق بعيـدة إلى بريطانيا: كان بلدوين كـونت فـلاندرز قـد تحول مـن كـونت ليكـون امبراطورا للقسطنطينيـة، وقـد حكم في ذلك المكان بنشـاط وفعـاليـة لكثير من السنوات، ولذلك جرت مضايقته والاعتداء عليه في وقت واحد بشكل مرعب من قبل الملوك الكفار، وقـد زحف ضدهم دونما استعداد محكم، وأهمل في هذه المرة أن يحمـل معـه صليب الـرب، والآثار المقـدسـة الأخرى التي جرت العادة بحملها أمامه من قبل البطريرك والأساقفة، كل مرة كـان فيها على وشك الانخراط في القتال ضـد أعداء الصليب، وواجـه بسبب إهماله في ذلك اليوم محنة مـرعبة، لأنه عندمـا انقض على الأعداء من دون تدبر مع جيشـه الصغير، دون أن يقيم تقديراً إلى حشد أعـدائـه الذي تفـوق على جيشـه بعشر مـرات، في وقت قصير جـرى تطويقه مع رجاله من قبل أعـداء المسيح، وقتلوا جميعا أو أخذوا أسرى، والعـدد الضيئل الذي نجـا من العـدد العـام لم يعـرف شيئاً عما حـدث للامبراطـور أو إلى أين ذهب، وكـان في تلك الآونة شماس مـن أصل انكليـزي، تولى القيـام بقـداس لاهـوتي مع كهنتـه في بيعـة الامبراطور، وكـان هو واحـداً من الذين تولـوا المسـؤوليـة عن الآثار المقـدسـة للامبراطور وخواتمه والأشياء والمنافع الأخـرى، وبناء عليه عندما سمع بوفـاة مـولاه الامبراطور (لأن الجميع أخبروه بأنه قتل) غـادر مـدينة القسطنطينية بشكل سري مع الآثار المقـدسة المتقدم ذكـرها، ومع أشياء أخـرى كثيرة، ووصل إلى انكلترا، وبعـد وصـولـه إلى هناك ذهب إلى سانت ألبان، وباع إلى أحد الرهبان هناك صليباً مكفتاً بالذهب والفضة، وذلك بالاضـافـة إلى اصبعين من أصـابع القديسـة مـرغـريت، وبعض

الخواتم الذهبية والمجوهرات، وهذه الأشياء كلها محفوظة بتبجيل عظيم في دير القديس ألبان، ثم أخرج الشماس المذكور من عباءته صليباً خشبياً وأراه إلى بعض الرهبان، وأعلن مقسماً، بأنه كان بلاشك قطعة من الصليب الذي عليه تمدد مخلص العالم وتعلق، من أجل انقاذ الجنس البشري، ولكن بما أن تأكيداته لم يتم تصديقها في ذلك المكان، غادر آخذاً معه الكنز الذي لايقدر بثمن، مع أنه لم يكن معروفاً، وكان لذلك الشماس ولدين صغيرين عن الانفاق عليهما وحفظهما كان مشغولا وقلقاً كثيراً، ولهذا السبب كان مقصده من عرض الصليب المذكور على عدد من الديرة، قد جاء مشروطاً، بأن يجري استقباله مع ولديه ليعيشوا مع رهبان الدير، وبعدما تحمل الرفض من الاغنياء في أماكن كثيرة، وصل أخيراً إلى بيعة في كونتية نورفولك، اسمها برومهولم -Brom holm وكانت بيعة فقيرة جداً، وكلها مجرد أبنية معدمة، وهناك بعث وراء رئيس الرهبان مع بعض الرهبان، وأراهم الصليب المتقدم الذكر، الذي كان معمولاً من قطعتين من الخشب وضعتا بشكل متعاكس احداهما عبر الأخرى، وكان عرضهما تقريباً بقدر يد الانسان، ثم إنه توسل إليهم بتواضع أن يستقبلوه في طائفتهم مع هذا الصليب والآثار المقدسة الأخرى التي كانت معه، وكذلك ولديه، وشعر رئيس الرهبان مع رهبانه بسرور عارم تجاه امتلاك مثل ذلك الكنز، وبوساطة من الرب، الذي يتولى دوماً حماية الفقراء المتواضعين، أودع الثقة في كلمات الراهب، ثم إنهم استقبلوا الصليب باحترام لائق، وهو صليب الرب، وحملوه إلى داخل قلايتهم، وحافظوا عليه هناك بكل تقوى وتشريف عظيم، وبدأت المعجزات اللاهوتية تحدث في هذا العام -حسبما تحدثنا من قبل -في ذلك الدير في سبيل مجد وحمد الصليب المانح للحياة، فهنا جرت إعادة الموتى إلى الحياة، واسترد الأعمى نظره، وامتلك العرجان القدرة على المشي، وشفيت جلود المصابين بالجذام وغدت نقية، وتحرر الذين تلبسهم الشياطين منهم، وكل شخص مريض اقترب من الصليب

المذكـور مع اليقين، غـادر المكان وهو سليم معـافى، ولقـد قيل بأن هذا الصليب قد جـرى تعبده مـراراً، ليس فقط من قبل الانكليز، بـل أيضاً من قبـل الناس الذيـن هم من منـاطق نائيـــة، ومن الذيـن سمعـــوا بالمعجـزات اللاهوتيـة التـي اقترنت به [وفي حـوالي ثمانيـة الرسـولين: بطرس وبولص، وصل جـون دي بريين ملك القـدس، والمقـدم الأعلى للاسبتاريـة في ذلك المكان، إلى انكلترا، لطلب المساعدة مـن أجل قضية الأرض المقدسة].

كيف وضع ملك انكلترا بين يديه قلاع التاج على الرغم من رغبات البارونات

عـام ١٢٢٤م، فيـه عقـد الملك هنري بلاطـه أيام عيـد الميـلاد في نورثأمبتون، وكـان معه رئيس أساقفة كانتربري، وكـذلك عدد كبير من الفرسان، وأمـا إيرل شيستر فقد أقام احتفال العيد مع المتـآمرين معه في ليستر، حيث تبجح وتلفظ بتهـديدات ضـد الملك وضـد المسـؤول عن العـدالة، وجـاء ذلك بسبب طلب الملك منه التخلي عن الـوصـاية على قلاعـه وأراضيه، وفي اليوم نفسـه، بعد الفراغ من القـداس المهيب، قام رئيس أسـاقفة كـانتربري وأسـاقفته المسـاعـدون، وهم يرتدون الأردية البيضاء، ومعهم شمـوع مضاءة، فأعلنوا عن الحرمـان الكنسي لكل من يخرق سلام المملكة، وكذلك للذين يغـزون الكنيسة المقدسة، وممتلكات الكنيسة، ثم أرسل رئيس الأسـاقفة المذكور رسالة خـاصة إلى ليستر إلى ايرل شيستر والمتعـاونين معه،مخبراً إياهم جميعـاً، وفـرداً فرداً، أنهم مـالم يقوموا في اليوم التالي، بوضع جميع القلاع والمراتب العالية العائدة للتاج بين يدي الملك، ســوف يقـوم هو مع جميع الأســاقفـة بشكل مـؤكـد بحـرمـانهم كنسياً بالاسم، وذلك حسبما تلقـوا الأوامـر من البـابا بفعل ذلك، وبناء على ذلك بات ايرل شيستر مع جميع المتعاونين معه في مأزق كبير، ولاسيما بعدما جرى اخبارهم من قبل جواسيسهم بأن الملك لديه

فرق عسكرية قوية أكبر من التي لديهم، لأنه لو توفرت لديهم الوسائل الكافية لعملوا حرباً ضد الملك بسبب المسؤول عن العدالة،لكن لإدراكهم لعجزهم كانوا خائفين من الدخول في صراع مشكوك فيه، علاوة على ذلك كانوا خائفين من أن يقوم رئيس الأساقفة والأساقفة بحرمانهم كنسيا، مالم يقلعوا عن قصدهم، ولذلك اتبعوا أحكم خطة وأعقلها، فذهبوا جميعاً إلى الملك في نورثأمبتون، وقام كل واحد منهم، شروعاً بايرل شيستر فتخلوا إلى الملك عن القلاع، والبلدات والمراتب العليا وعن مسؤوليتها وعن كل ما هو عائد للتاج، وبقيت على كل حال، نواياهم السيئة تجاه الملك وضده لأنه رفض صرف المسؤول عن العدالة، وكان الذين أثاروا هذه الاضطرابات ضد الملك هم: ايرل شيستر، وايرل ألبيهارل، وجون قسطلان سيشتر، وفالكاسيوس مع رجال قلاعه، وروبرت دي فيبونت، وبرين دي لاآيل، وبطرس دي موليون، وفيليب مارك، وانغلارد دي آثي، ووليم دي كانتيلو، ووليم ابنه، وآخرون كثر، كانوا يستخدمون غاية جهودهم لافساد سلام المملكة واثارة الاضطراب فيها.

كيف أخضع لويس ملك فرنسا روشيل وبقية بواتو

قاد في العام نفسه لويس ملك فرنسا جيشاً كبيراً إلى روشيل Ro-chelle للاستيلاء عليها بالقوة أو بالرشوة، ولدى وصوله إلى هناك، عرض على السكان مبلغاً كبيراً من المال، مقابل تسليمه المدينة، وتقديم الولاء له، ولإطاعته في المستقبل، وفكر هؤلاء، فرأوا أنهم كانوا مهجورين من قبل ملك انكلترا، وأنهم مغلوبين باغراءات لويس ورشاويه، فتخلوا عنها لصالحه، وعند ذلك وضع فرسانه وجنوده في المدينة والقلعة، وبعدما ضمن جميع منطقة بواتو عاد إلى الوطن بسلام، من دون سفك للدماء، وروشيل هي ميناء بواتو، حيث اعتاد ملوك انكلترا وفرسانهم على الرسو من أجل الدفاع عن تلك المناطق، لكن

الطريق أغلق الآن ضـد الملك، بسبب المؤامـرات التي أعدت ضـده من قبل البارونات في انكلترا.

حصار بدفورد ومؤتمر نورثأمبتون

وفي العـام نفسه، في ثمانيـة الثـالوث المقدس، اجتمع الملك، ورؤسـاء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات والبارونات وعدد كبير آخر، في مؤتمر في نورثأمبتـون للبحث في شـؤون المملكـة، لأن الملك رغب بالحصـول على نصيحة نبـلائه وآرائهم حـول ممتلكات ماوراء البحـر، التي استولى عليهـا لويس بدرجات، وكـذلك المسائل الأخـرى التي وقعت ولم تكن متـوقعة، وكـان مـوجوداً في ذلك الوقـت في دنستيبل بعضاً من رجـال العدالة لدى الملك الذين نسميهم «الجوالين»، وهـم: مـارتن دي بيتشول Pateshulle، وتوماس دي ميـولتون Muleton، وهنري دي بريبروك Braibroc مع آخـرين كـانوا متسلمين هناك مـرافعـات الملك من أجل قضيـة العصيان الأخيرة، وهناك ارتمى فـالكاسيـوس مع آخـرين، تولوا نهب كثير من الناس، على رحمة الملك، من أجل أكثـر من ثلاثين زوجـاً من الرسائل، في كل منهـا كان هو عليه أن يدفع غرامـة إلى الملك مبلغاً قدره مائـة باوند، وعندما جرى اخبار فـالكاسيوس بهذا، غضب غضباً عظيماً، وقـام بطريقـة حمقاء، فأمـر فـرسـانه الذين شكلوا حـامية قلعـة بدفـورد بالزحف نحـو دنستيبـل مع كتلة من الجنود لاعتقـال رجـال العدالة المذكـورين، وبعد ضمان اعتقـالهم، احضارهم إلى قلعـة بدفورد، ووضعهم في سجن محكم، وعرف رجال العدالة بهذا، فغادروا مسرعين إلى حيث قادهم الحظ،وكان من بين هؤلاء قد هرب هنري دي بريبروك من دون مـايكفي من الاحتراز، لذلك جرى اعتقـاله من قبل الفرسـان المذكورين أعلاه، وبعدما عـومل بوحشية كبيرة، سجن في قلعة بدفورد، وانتشر خبر مـاحـدث، فـذهبت زوجـة هنري المذكـور إلى الملك في نورثأمبتـون، وقدمت وهي تبكي شكوى حـول اعتقال زوجهـا، وجاء

ذلك على مسمع مـن المجلس الملكي كله، وانفعـل الملك وغضب كثيراً تجاه هذه الفعلة، وطلب نصحيـة الكهنة والناس الذين اجتمعـوا هناك، حـول ماالذي ينبغي القيـام به لمعاقبـة هذه الجريمة، وكـان رأيهم كلهم بالاجماع هو تأجيل جميع الأعمال الأخـرى، ووجـوب الزحف من دون تأخير مع قوة مسلحـة نحو القلعة المذكـورة، لمعاقبـة مثل هذه الجريمة، ولاقى هذا الرأي قبـول الملك، واتفق مع آرائـه، فأصـدر أوامـره، فطار الجميع إلى السـلاح، وزحف رجـال الديـن والناس كـذلك إلى قلعـة بدفـورد، ولدى وصـول الملك إلى هناك أرسل رسـلاً إلى شحن القلعـة الرئيسيين، وطلب منهم الخضـوع، وأمرهم بإعـادة هنري دي بريبروك، رجل عدالته، وقـام على كل حال وليم دي بروت Breaute وهو أخو فالكاسيـوس مع آخرين مـن الحامية، باخبار الـرسل جواباً على مـاطلبه بأنهم سوف لن يسلمـوا القلعة، مالم يتلقوا أمـراً بفعل ذلك من مولاهم فالكاسيوس، لاسيما وأنهم غير مرتبطين بيمين ولاء أو تابعية إلى الملك، الذي إليـه حملوا هذا الجواب عند عـودتهم، وبذلك كـان الملك غاضباً جـداً، وأمـر وهو غـاضب جنـوده بتطويق القلعـة، وأعـد المحـاصرون أنفسهم أيضاً لمقاومة جنود الملك، وللدفاع عن الأسوار وعن الشرافات في كل مكان، وعندها قـام رئيس الأساقفـة ومعه جميع الأساقفـة بانزال عقـوبة الحرمان الكنسي بفـالكاسيـوس وبجميع حـامية القلعـة، وفعلوا ذلك والشموع مشتعلة، ووضعت القلعة تحت الحصار في السادس عشر من حزيران، الذي وافق يوم الثـلاثاء التالي بعد ثمانية الثـالوث، وجرى بأمـر من الملك، احضـار آلات الحرب من أمثال المجـانيق والعـرادات، وجرى توزيعها من حول المدينة، وشرع الجيش المحاصر يقوم بحملات شـديدة ومتواليـة على القلعـة، ودافع المحاصرون -على كل حـال -عن الأسـوار بشجاعـة، وأرسلوا بمقـذوفات مميتـة على المحـاصرين، ولكي أتحدث باختصـار، لقد جـرت اصابة الكثيرين بالجراحـة وقتلوا من على الجانبين، وفي أثناء حصـار القلعـة، أرسل الملـك مجمـوعـة من الجنود

للبحث عن فالكاسيوس، ولدى العثور عليه، جلبه إلى حضرته، وجرى على كل حال انذار المذكور وتحذيره من قبل جواسيسه، فهرب إلى ويلز، وعاد رسل الملك إليه وأخبروه بأن جهودهم كانت بلاثمار، وغضب الملك كثيراً، فأقسم بروح والده أنه إذا جرى اعتقال رجال الحامية بالقوة، فلسوف يشنقهم جميعاً، وقد استثير هؤلاء أكثر لاقتراف المزيد من الخطأ،بموجب تهديد الملك، فمنعوا رسل الملك من الحديث معهم ثانية حول موضوع تسليم القلعة، وهكذا تضاعفت الكراهية والضغينة بسبب أعداد الذين قتلوا، وبذلك لم يوفر الإخوة اخوانهم ولا الآباء أولادهم، وأخيراً تمكن رجال الملك، بعد مذبحة كبيرة من على الجانبين، من بناء برج خشبي مرتفع، وفق مبادىء الهندسة، وقد وضعوا في البرج رماة قسي زيارة، يمكنهم منها مراقبة كل حركة في القلعة، ومنذ ذلك الحين لم يعد بإمكان أحد في القلعة خلع دروعه، مالم يكن قد تعرض لجراحة مميته، ولم يتوقف المحاصرون لهذا السبب عن قتل أعدائهم، ففي أثناء وجود بعض الفوضى داخل جيش الملك قتلوا فارسين من رجاله، كانا قد عرّضا بطيش كبير نفسيهما للموت، وبذلك أثاروا غضب أعدائهم ضدهم بكل الوسائل الممكنة.

الاستيلاء على القلعة وشنق الفرسان

وأمر الملك في تلك الأثناء بالاستيلاء على قمح فالكاسيوس ومواشيه في قراه وأراضيه في جميع أرجاء المملكة، ومصادرة ذلك كله، حتى يتمكن بهذه الوسائل لدى امتداد أعمال الحصار من الحصول على المؤن على حساب عدوه، وأخيراً أحضر جنود الملك، لكن ليس من دون خسائر كبيرة منجنيقين أطلق على أحدهما الفرنسيون اسم Bru-tesches، وهاجم القلعة من جميع الاتجاهات، وأرغم المحاصرين على التراجع، ودخل وقتها جنود الملك القلعة، فاستولوا على الخيول والدروع والمؤن، ثم هاجم المنتصرون البرج، ودمروا شطراً كبيراً من

الأسوار، ورأى المحاصرون وقتها أنفسهم أنه لم يعد بامكانهم الصمود أي وقت أطول، فقاموا في أمسية صعود القديسة مريم بإرسال بعض رجال الحامية من القلعة، يلتمسون رحمة الملك، لكن الملك أمر باعتقالهم والاحتفاظ بهم في مكان مضمون، وذلك حتى يتمكن من اخضاع البقية، وفي اليوم التالي خرج البقية، وهم مصابون بشكل مرعب ومجروحون، وقد أخذوا إلى أمام الملك، الذي أمر بشنقهم جميعاً، وجرى شنق أربعة وعشرين من فرسان وجنود الحامية، وهؤلاء لم ينالوا الرحمة من الملك بسبب العدوانية التي أظهروها نحوه في الحصار الأخير، وعاد هنري دي بريبروك سالما وصحيحاً إلى الملك،وقدم له شكره، وكان قد خيل لفالكاسيوس بسوء تقديره أن أتباعه يمكنهم الدفاع عن القلعة والحيلولة دون سقوطها لمدة سنة كاملة، وعندما سمع بشكل مؤكد بأن أخاه والبقية من رفاقه قد شنقوا، قدم تحت كفالة الاسكندر أسقف أوف كوفنتري، ووصل إلى الملك في بدفورد، وترامى على قدمي الملك ورجاه اظهار الرحمة نحوه، تقديراً منه لخدماته الكبيرة والنفقات العظيمة الذي بذلها لصالحه ولصالح والده في أيام الحرب، وحصل الملك وقتها على المشورة حول هذا الموضوع، فجرده من قلاعه وأراضيه وأملاكه، وأودعه في السجن لدى يوستاس أسقف لندن، إلى أن يقرر الذي ينبغي عمله معه، وهكذا حدث في لحظة واحدة أن تحول فالكاسيوس من الرجل الأغنى، إلى الرجل الأفقر بين الناس، وهو بذلك قدم مثلاً جيداً لكثير من الناس، وخاصة إلى المجرمين، وفيما يتعلق بهذا التغيير بالحظ، كتب أحدهم هكذا:

«وهكذا في شهر شديد فقد فالكو

الذي كسبه خلال سنين من الصراع؛

جرده القدر الآن مما قد كلفه

إيّاه خلال جميع حياته الماضية».

ومثلت زوجه فالكاسيوس هذا أمام الملك وأمام رئيس الأساقفة، وقالت بأنها لم تتزوجه بموافقتها، ولهذا فانها لما كانت قد اعتقلت بالقوة في أيام الحرب، وتزوجت منه من دون موافقتها، طالبت بالطلاق منه،ولذلك عين رئيس الأساقفة يوماً لتأتي به إليه، حتى يقرر في الوقت نفسه الذي يتوجب عليه عمله، وعلى كل حال، منحها الملك جميع أراضيها وممتلكاتها في جميع أنحاء انكلترا، ووضعها تحت رعاية وليم ايرل وارني Warrenne وبسبب الجهد الكبير الذي بذله الملك والنفقات العالية التي دفعها، فرض ضريبة على الأراضي المفلوحة في جميع أرجاء انكلترا،وقدرها ماركين من الفضة على كل محراث، وفرض ضريبة بدل على النبلاء، وقدرها ماركين من النقود الاستيرلينية على كل محلجة، ثم إنهم عادوا جميعا إلى مواطنهم، وأمر الملك بتهديم القلعة،فتحولت إلى كومة من الحجارة، وأعطى البيوت والأبنية الأخرى إلى وليم بوشامب. Beauchamp

منح جزء من خمسة عشر جزءاً من جميع الأشياء المتحركة إلى الملك

عام ١٢٢٥م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في عيد الميلاد في ويستمنستر، وفيه كان رجال الدين والناس بين الحضور، وكذلك نبلاء المنطقة، وبعد الاحتفال بالعيد بشكل مهيب، طرح هيوبرت دي بورغ، المسؤول عن العدالة الملكية، باسم الملك المذكور، وبيّن بحضور رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات وجميع البقية، الخسائر والأضرار التي عانى منها الملك في مقاطعات ماوراء البحر، وبذلك ليس فقط الملك، بل أيضاً كثيراً من الايرلات والبارونات، بالاضافة له، قد حرموا من مواريثهم، وبما أن كثيرين كانوا مهتمين بهذه الأمور ولهم

علاقة بها، فإن مساعدة الكثيرين سوف تكون ضرورية، ولذلك سأل نصحية ومساعدة الجميع، لتبيان الوسائل التي يمكن بها للتاج الانكليزي أن يسترد المراتب التي فقدها والامتيازات القديمة، ولكي يمكن تفعيل هذا كما ينبغي، اعتقد أنه سيكون كافياً لو أنه جرى منح جزء من خمسة عشر جزئا من الممتلكات المتحركة إلى الملك في جميع أنحاء انكلترا وأن يفعل ذلك رجال الدين والعلمانيين، وبعد طرح الاقتراح، قام رئيس الأساقفة مع جميع المحتشدين من الأساقفة والايرلات، والبارونات، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، بالتباحث حول الموضوع، وبعد شيء من النقاش قدموا جوابهم، بأنهم سوف يقبلون عن طواعية بمطالب الملك، إذا ما منحهم امتيازاتهم التي يطالبون بها منذ زمن طويل، وبناء عليه اقتنع الملك بسبب نهمه بالموافقة على طلبهم، وجرت كتابة صكوك ختمت بخاتم الملك، وجرى ارسال نسخة منها إلى كل كونتية في انكلترا، وأما الكونتيات التي كانت موجودة في داخل غابة، فقد أرسل إليها نسختين، نسخة حول الامتيازات العامة، والأخرى حول امتيازات الغابة، وقد جرت كتابة محتويات هذين الصكين من قبل في تاريخ حكم الملك جون، ولم تختلف صكوك الملكين عن بعضها في أية نقطة، ثم تقرر تحديد يوم في شهر الفصح ليجري اختيار اثني عشر فارسا واقطاعيا، لكل كونتية في المملكة، الذي يتوجب عليهم بعد أداء اليمين تمييز الغابات الجديدة عن الغابات القديمة، من أجل اكتشاف الذي عمل غاباتاً منذ أيام تتويج الملك هنري جد الملك الحالي، حتى تتم على الفور نزع الصفة الغابية عنهم، وهكذا ارفض المؤتمر وأرسلت الصكوك كل واحد منها إلى كونتيته الخاصة، حيث جرى بناء على أمر الملك، ومن خلال قسم مكتوب، وجوب مراعاتها من قبل الجميع.

كيف أرسل الملك الانكليزي أخاه رتشارد إلى غاسكوني

وفي العام نفسه، وفي يوم عيد طهارة القديسة مريم، عمل من رتشارد أخي ملك انكلترا فارساً بنطاق، ومعه عشرة آخرين، جرى تعيينهم لخدمته ورعايته، وفي الربيع التالي، في يوم أحد السعف جرى ارسال رتشارد المذكور من قبل الملك إلى غاسكوني، يرافقه وليم ايرل أوف سالسبري، وفيليب دي ألبيني وأربعين فارساً، وبعد رحلة موفقة، وصلوا جميعاً سالمين إلى مدينة بوردوكس Bourdeaux، ولدى وصولهم أعلموا بذلك رئيس الأساقفة والسكان، فاستقبلوا بالتشريف من قبل الجميع، ثم قام رتشارد باستدعاء السكان للاجتماع مع رئيس الأساقفة وبحضوره، وبحضور رسل الملك، فأراهم رسائل أخيه، التي فيها رجا بتواضع جميع رعاياه المخلصين في تلك المناطق استقبال أخيه بشكل سلمي وودي، وتقديم النصحية له والمساعدة حتى يكون قادراً على استرداد أراضيه الضائعة، واستقبلته جميع الفئات بطرائق صديقة، وقدموا خضوعهم إلى ملك انكلترا من خلاله ، ثم وصل اليه عدد من الفرسان والجنود من تلك المناطق، وبقيوا في خدمته مقابل استلام عطاء كاف منه،لأن الملك كان قد أعطاه قبل ارساله الى مقاطعات ما وراء البحر كونتية كورنوول Cornwall مع جميع بواتو، ولهذا السبب عرف باسم كونت بواتو ،ووقتها زحف الكونت رتشارد مع عمه وليم ايرل— سالسبري وفيليب دي البيني ، يحيط بهم مجموعة كبيرة من الفرسان ، وساروا خلال البلدات وبين القلاع والمناطق ، وكانوا حيثما واجهوا مقاومة ممن لم يقدم الولاء ، ولم يعط الطاعة الى الملك، يتولون محاصرة قلاعهم وبلداتهم ، ويرغموهم على تقديم الطاعة بالقوة والسلاح، واستولى بعد حصار طويل على قلعة ريوكسRieuxمع البلدة، وتملك مدينة القديس ماكير Ma-caire وحاصر قلعة بريغيراك Bregerac وأعاد صاحبها إلى ولائه الى الملك ، لكن أثناء حصاره لقلعة ريوكس ، والهجوم عليها باستمرار ، أرسل لويس ملك فرنسا أوامر الى كونت أوف مارشي

والنبلاء الآخرين في بواتو، بالزحف الى تلك القلعة ، ورفع الحصار عنها ، واحضار الكونت رتشارد أسيراً ليمثل أمامه ، وبناء عليه قام كونت أوف مارشي بعدما التحق به بعض البارونات والفرسان المسلحين، بالزحف مع قوة كبيرة لرفع الحصار عن القلعة المذكورة أعلاه، وعلم بذلك الكونت رتشارد مع رفاقه ، وأخبره كشافته باقتراب وصول الأعداء ، فنصب كميناً لهم، وترك شطراً من قواته لمتابعة الحصار ، وسار هو ومعه كتلة من الجنود المجربين ، الى غابة كانت قريبة ، وانتظر هناك وصولهم ، وعندما كان هؤلاء يمرون عابرين للكمين ، قام الكونت وأتباعه بالانقضاض عليهم وسط زعقات الأبواق ، وهم مادين لرماحهم ومشرعين لها ، ونجم عن ذلك صراع عنيف بين الفئتين ، وأرغم العدو أخيراً على الفرار ، وقد طارد الكونت رتشارد بشدة فلول الأعداء ، وبعدما قتل عدداً من الفارين ، استولى على عرباتهم ، وعلى خيول تحميلهم ، وعلى أوانيهم الفضية وأسلاب أخرى ، وبذلك تمكن في وقت قصير من اخضاع غاسكوني كلها.

ومات في العام نفسه جون أسقف أوف إيلاي، وقد خلفه غيوفري دي بورغ ، رئيس شمامسة نورويك.

نفي فالكاسيوس الخائن

وفي هذه الآونة أي في شهر آذار ، اجتمع ملك انكلترا مع نبلائه في مؤتمر في ويستمنستر، فيه أمرهم الملك بالوصول الى قرار نهائي ، حول ما ينبغي فعله مع الخائن فالكاسيوس ،وقد اتفق النبلاء مع الملك ، أنه قد خدم الكثير من السنوات أباه بإخلاص ، وعلى هذا ينبغي عدم حرمانه من الحياة أو من واحد من الأطراف ، غير أنهم وافقوا بالاجماع على إدانته ، والحكم عليه بالنفي بشكل دائم من انكلترا ، وعندها أمر الملك وليم إيرل وارني warenne

بمصاحبته وهو سليم الى الساحل، وهناك وضعه على ظهر سفينة ، لإرساله على الفور الى عرض البحر ، وعندما وصلا الى الساحل ، وأثناء صعود فالكاسيوس على ظهر السفينة ، قدم رجاء الى الايرل وهو يبكي بأن يحمل تحياته الى مولاه الملك ، وأن يبين له، بناء على قسمه، بأن الاضطراب الذي تسببه في انكلترا، أثير على فعله بتحريض من نبلاء المملكة ، ثم اطلق الأشرعة ومعه خمسة من المرافقين فقط نحو نورماندي ، ولدى وصوله الى هناك اعتقل على الفورمن قبل وكلاء الملك الفرنسي وحمل الى أمام لويس ، ولكن بما أنه كان يحمل شارة الصليب ، فقد أطلق سراحه ، فذهب الى روما، حيث ظهر أمام البابا مع روبرت باسلوpaslew الذي كان كاهنه، وسوف نتحدث عن مثوله أمام البابا في المكان المناسب.

معاينة الغابات لمعرفة أيها ينبغي إعفاءه من قوانين الغابات

في حوالي شهر الفصح من العام نفسه، انطلق هوغ دي نيفيل وبرين دي لآيل مع الأشخاص المعينين الآخرين ، للتجول في جميع أرجاء انكلترا، بغرض اختيار في كل منطقة غابية اثني عشر فارساً ورجلاً حراً واقطاعيين للبحث عن حدود الغابات ، وللتقرير — بناء على أداء اليمين — أي الغابات ينبغي أن تبقى في وضعها الحالي، وأيها ينبغي نزع الصفة الغابية عنها، وجرى تنفيذ أوامر الملك على الفور لكن ليس من دون معارضة كبيرة من كثيرين ، وقام بعضهم أفراداً وجماعات بوضع هذه الامتيازات موضع التنفيذ ، فباعوا منتوجات أحراشهم، وعملوا حظائر ، ومناطق صيد ، وفلحوا الأرض التي كانت من قبل غير مزروعة ، وهكذا فعل الجميع ما اختاروه في الأحراش التي رفعت عنها الصفة الغابية ، ولم يتمتع البشر فقط بهذه الامتيازات ، بل تمتع بذلك الكلاب، الذين اعتادوا من قبل على لبس النعال، وباختصار استفاد من هذه الامتيازات، النبلاء،

والفـــرسان والاقطاعيـــون الأحـــرار، وهكـذا لم يجر حــذف صك الملك.

جمع الجزء من خمسة عشر جزئاً من الممتلكات من أجل استخدامات الملك

وجرى في هذه الآونة جمع نصف جزء من خمسـة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحـركـة من أجل استخدامـات الملك ، وجـرى منح ايصـال من أجل دفـــع الجزء المتبقي حتى عيـد القـــديس ميكائيل، ودفع في هذا العـام أيضـاً هوغ بيغود ايـرل انغليان الشرقيـة - East Anglians دين الطبيعة ، ووضع الملك جميع ممتلكاته ومـراتبه العليا تحت عهدة المسؤول عن العدالة

حول خليلات الكهنة

صـدرت في العـام نفسـه مـذكـرة عـن رئيس أسـاقفـة كـانتربري وأساقفتـه المساعدين من أجل الغـاية التالية :سـوف لن تنال خليلات الكهنة ورجـــال الدين الــذين هم في الطوائف الدينيـــة ويتمتعـــون بالمنافع، دفناً كنسيـاً، ما لم يقمن بإصلاح حيـاتهن بشكل صحيح ، أو أن يبدين توبة كبيرة في أواخر أيام حياتهن تمكنهن من نيل التحليل ، علاوة على ذلك لن يسمح لهن بنيل قبلة السـلام،أو المشاركة في نيل الخبز المكرس في الكنيســة ، طالما عشاقهن يحتفظـون بهن في بيوتهم، أو بشكل مكشوف في مكان آخـر،وكذلك إنهن إذا مـا أنجبن أطفالاً، لن يتطهرن، ما لم يقدمن سلفاً ضمانة الى رئيس الشمامسة، أو لموظفه ، تكون كـــافيـة بـأنهن سـوف يصنعن توبـة مـوائمـــة أثناء الاجتماع الكهنوتي بعـــد طهـارتهن،عـلاوة على ذلك ، إن جميـع الكهنة الذين يسكن في أبرشيـاتهم خليلات من هذا النوع،سـوف يجري تعليقهم، مالم يقوموا بإخبـار رئيس الشمامسة أو موظفة بذلك ، وقبل تحليلهم

سوف يخضعون الى عقوبة قاسية، وكذلك يتوجب على كل امرأة ضبطت بوجود صلات جنسية مع أي كاهن، أن تقوم بتوبة مهيبه ومعلنة وكأنها أدينت بالزنا ، ومع ذلك من الممكن تحليلها، ولكن إذا ما أدينت إمرأة متزوجة بجريمة من هذا النوع سوف تعاقب وكأنها زنت بشكل مضاعف خشية أن الافلات من العقوبة على اقتراف مثل هذه العقوبة سوف يقود آخرين الى اقتراف تلك الجريمة.

كيف نجا ايرل أوف سالسبري من غرق السفينة

وفي هذه الآونة أقلع مبحراً وعائداً الى انكلترا ايرل أوف سالسبري ، الذي كان يقاتل مع الكونت رتشارد في مناطق ما وراء البحر،وقد تعرض الى خطر عظيم ، واقتيد في مختلف الاتجاهات بفعل عنف الرياح،واستمر ذلك لعدة أيام وليال بشكل عام مع بحارته وجميع الذين كانوا على ظهر السفينة، ولدى فقدانه كل أمل بالنجاة، عهد الى الأمواج بخواتمه الثمينة وبجميع ممتلكاته من الفضة والذهب، والملابس الغالية، التي كانت معه على ظهر السفينة، من أجل أنه كما دخل عارياً الى الحياة الفانية،بذلك يمكنه العبور الى مناطق الخلود وهو مجرد من جميع الأمجاد الأرضية، وأخيراً عندما كانوا في حالة اليأس الأخيرة ، شوهد ضوء عظيم مشع من على رأس السارية ، من قبل جميع الذين كانوا على ظهر السفينة ، ورأوا أيضاً واقفاً الى جانب الضوء سيدة ذات جمال عظيم ، حافظت على ضوء الشمعدان، الذي أنار ظلام الليل، حافظت عليه حياً على الرغم من قوة الرياح والمطر الذي تساقط عليه، ومن هذه الرؤيا السماوية للنور، شعر الكونت نفسه وكذلك البحارة بالأمل بالنجاة، وتصور بإطمئنان بأن المساعدة الربانية باتت موجودة، ومع أن بقية الناس في المركب كانوا جاهلين بما بشرت به هذ الرؤيا، فإن الايرل وليم

المتقدم الذكر كـان في اليوم الأول الذي عمل فيه فارساً بنطاق ، قد كرس شمعداناً ليبقى مشتعلاً بشكل دائم أمام مذبح أم الرب المباركة، أثناء القـداس الذي جـرت العـادة بأن يغنـى به كل يوم في سـاعـة الصـلاة، تشريفـاً للعـذراء المذكـورة، وذلك مـن أجل أن يتلقى تعويضاً دائماً من أجل الضوء الدنيوي.

كيف نجا الايرل المذكور من مصائد أعدائه

وعند حلول صباح اليـوم التـالي سيق الايرل مع أصحـابه، بقـوة العاصفة نحو جزيرة رهي Rhe وذلك على بعد ثلاثة أميال عن روشلي Rochelle،وبما أنهم صـاروا في قواربهم الصغيرة، أخـذوا طـريقهم الى الجزيـرة ، وكـــان في تلك الجزيـرة، دير للـرهبـــان السسترشيان ، واليهم أرسل الايرل رسلاً طـالباً السماح له ليخفي نفسه عن أعدائه، حتى تهب رياح موائمة ، وعن طواعية منحه راعي الدير ذلك ، واستقبله مع أتبـاعـه المسـافـريـن بكل ترحـاب، وكـانت هذه الجزيرة آنذاك ، في عهـدة سـافـاريك دي مـوليـون، الذي كـان آنذاك يقاتل تحت قيادة لويس، ملك فـرنسا، وكان يتولى حراسـة عدة جزر مع قوة كبيرة من الجند ، وكان اثنان من أتباعـه يعرفان الايرل معرفة جيـدة، وكان قـد جرى تعيينهما مع آخـرين لحراسـة الجزيرة ، فذهبـا بطريقـة صـديقـة الى الايرل، وبعـدمـا استراح هناك لمدة ثلاثة أيام ، أخبراه أنه مـا لم يغادر الجزيرة قبل صبـاح اليوم التـالي، سوف يجري اعتقاله من قبل أصحابهما الذين كانوا يتـولون حراسة الجزيرة والبحر من حـولها ، وعندها قـدم الايرل الى الجنديين هدية قـوامهـا عشرين باوند من النقـود الاستيرلينيـة ثم أقلع على الفـور، وصـار في وسط البحـــر، حيث مكـث ثلاثة أشهـر قبل أن يتمكـن من الرســو في انكلترا.

كيف وصل المعلم أوتو الى انكلترا لقضاء أشغال قداسة البابا

ووصل الى انكلترا في العام نفسه المعلم أوتو، بمثابة نائب للبابا، وقدم رسائل الى الملك حول مسائل ملحة تتعلق بالكنيسة الرومانية ، لكن الملك عندما علم بمقاصد الرسائل ، أجاب أنه لا يستطيع شخصياً— ولا يجوز له — إعطاء جواب محدد حول القضية، لأن ذلك هو مسؤولية جميع رجال الدين والعلمانيين في المملكة بشكل عام ، ولذلك ، قام بناء على نصيحة ستيفن رئيس أساقفة كانتربري ، بتحديد يوم ، يكون في ثمانية عيد الغطاس، من أجل اجتماع رجال الدين والعلمانيين في ويستمنستر، حتى يتمكنوا وقتها من البحث في القضية المتقدم ذكرها ، ولسوف يقررون الذي سيبدو لهم صحيحاً

كيف سعى أوتو المذكور الى إقامة سلام بين فالكاسيوس والملك

وبعد ذلك بوقت قصير، قام أوتو باسم البابا، بتواضع بتقديم رجاء الى ملك انكلترا حتى يتصالح مع فالكاسيوس،وأن يعيد إليه زوجته،وجميع ممتلكاته التي فقدها،وأن يستقبله ثانية على شروط الصداقة،كما كان قد خدم والده باخلاص وخدمه شخصيا في أيام الحرب،وعلى هذا أجاب الملك بأنه بسبب خيانته المكشوفة،قام بنفيه من انكلترا،وأن ذلك جاء بموجب قرار بلاطه مع موافقة جميع رجال الدين والناس في المملكة،وصحيح أن العناية بالمملكة معهود بها بشكل خاص اليه،هو عليه مراعاة القوانين والأعراف المقررة للمملكة،وعندما سمع اوتو هذا،توقف عن طلب أي شيء آخر من الملك لصالح فالكاسيوس،ثم قام أوتو بأخذ ماركين من الفضة من كل كنيسة ديرية

في انكلترا،تحت عنوان مال الوكالة،وينبغي أن نعرف أيضاً أنه عندما جاء المعلم أوتو الى انكلترا، أرسل البابا رسلاً الى جميع أنحاء الدنيا،طالباً جبايات غير عادلة،كما سنتحدث فيما بعد.

حول احدى الفتيات التي تخلت عن الدنيا وانسحبت الى طائفة الفرنسيسكان

وكان هناك في هذه الآونة فتاة من أصل نبيل في مقاطعة بيرغندي،كان أبواها قد عينالها ميراثاً ممتلكاتاً واسعة،وقد رغبا في اعطائها زوجة الى رجل له أصل مشهور ،لكن الفتاة التي كانت قد تمثلت منذ صغرها التعليم الحر،قد كرست بالسر،من قلبها الطاهر، عذريتها الى الرب، وبناء عليه غادرت مسكن والديها متنكرة بثياب حاج،وكانت الوسيلة الأسهل للفرار من أمام نظرهما،وحملت نفسها الى دير لبعض الرهبان من طائفة الفرنسيسكان، وقامت هناك بناء على طلبها ، وتماشياً مع الأحكام القاسية لتلك الطائفة،فخلعت نعليها،وألبست نفسها المسوح، وبإزدراء قصت شعرها الجميل،وسعت بكل وسيلة في حدود امكاناتها، لأن تحول جمالها الطبيعي الشخصي الى كل نوع مشوه،وبعدما حاولت هذا،لكن من دون فائدة،لأنها لم تكن قادرة،ضد إرادة الرب على تشويه جمال تناسقها الجسدي،الذي كان لايقارن في جميع توزيعاته،صبت جهودها على تكريس نفسها الى القرين الدائم، الذي هو في السماء،حيث أن طهارة الجسد كانت دائمة،وأسهل لتنفيذ غايتها وجعلها مؤثرة،وبناء عليه اختارت عن طواعية حياة الفقر،واتخذت لنفسها عمل الوعظ المقدس،وألبست نفسها ثياباً خشنة،واتخذت حشية من القش لتتمدد عليها،ووسادة من الحجر،وعاقبت الجسد بالسهر الدائم والصوم المتواصل، وتولت في صلواتها الملحة شغل نفسها بالتأمل في الأشياء السماوية، وبعدما أمضت عدة سنوات في تقشفها وحياتها القدسية ، قامت بالدراسة،

ولكي ترضي الرب ، شرعت بالتبشير بانجيل السلام خلال المدن والقلاع، ولاسيما بين النساء، وبات عدو الجنس البشري مزعوجاً جداً من كمالها ، فطوقها لمدة سبعة أشهر بكثير من المغويات الكبيرة، ولولا أنها كانت مؤيدة بالعون الرباني، لفقدت كل فضائل ايحاءات حياتها الماضية، لأن الشيطان أعاد إلى ذاكرتها ليلاً ونهاراً، وفرة أملاك والديها التي تخلت عنها،ومنتجات الكروم المثمرة، والمروج الجميلة المزينة بمختلف أنواع الزهور، والأصوات الجميلة لاندفاع المياه، والجداول الجارية البديعة، والأشجار العالية في الغابات، والخصوبة في الأولاد، ومعانقة الزوج، والتمتع بالحب،والفراش الناعم للأغنياء،وحركات البهجة، والخواتم الفخمة والجواهر، والمذاق الطيب للسمك، والفروج،ولحم الطرائد، وفي وسط هذه المغويات وما يماثلها، كانت الفتاة شبه يائسة ، وغالباً ما انغمست تفكر حول آراء متشعبة، وعما إذا كان عليها العودة إلى تركته، أو المثابرة على العمل الديني، وقد أمضت في هذه الحالة من العذاب في كل من الجسد والتفكير أياماً وليالي، لكن الرب الرحيم الذي لا يسمح للذين يثقون به أن يتعرضوا للغواية فوق طاقة الاحتمال، أعاد الى الفتاة عين الصواب،حتى تمكنت من اكتشاف كم هي عظيمةالأشياء الدنيوية وكم تحتاج من عناية وتعب ، ومعها كذلك المسارّ التي تقدم ذكرها، وكم هو مخجل ومهين الاتصال الجنسي، وكم هو كبير الجهد الذي يبذل في سبيل نيل الثروة الدنيوية وكم هو محزن فقدانها، وكم هو عظيم وهام المحافظة على الطهارة العذراوية مع الرب، الذي رغب في أن تكون أمه منتجة ، وبالوقت نفسه أن تبقى عذراء، والسرور الذي يتبع الأعمال الصالحة،والمتعة المتوفرة في التأمل المقدس واللاهوتي ، ووحدة سكان السماء، وكم هو طيب وممتع سرور الأرواح المقدسة لدى حكمها مع المسيح، حيث لا يوجد تأثير للبرد، والجوع والعطش لا تأثير لهما على أي إنسان، وحيث ما من أحد

يتملكه الغضب أو يؤثر عليه،ولا الخصام ، ولا المجد العابث، ولا الحسد، ولا التكبر، ولا الحقد، ولا الشره ولا الحسد، ولا الغيرة وغالبا ما رعت هذه العذراء المباركة هذه الأفكار وما يماثلها، وفي وسط جميع زوابع الاغواءات ، استمرت بالمحافظة على فضائلها السالفة، ولكونها مسلحة بأسلحة الرب ، هزمت بسعادة جميع المؤامرات الخادعة للشيطان وأرسلت به مضطرباً الى الجحيم.

كيف تحررت هذه الفتاة بوساطة شيطان من مغتصب

وبعد عدة أيام ، عندما تحررت هذه الفتاة تماماً من هجمات الشيطان هذه ، عاد اليها وحياها قائلا:«البقاء لك يا سيدتي ،أيتها العذراء المحبوبة من رب السماء، أنا الشيطان، الذي اقتادك مؤخراً لمدة سبعة أشهر من دون غاية ولا محصلة، الى عدد كبير من المغويات، من أجل ابعادك عن نواياك ، وللايقاع بك في هذه المتاعب، لكن بما أنني هزمت من قبلك، وأخفقت في مساعي المخادعة، لقد فرضت عليّ عقوبة من رب السماء، وهي أنني لن يسمح لي من الآن فصاعداً إغواء أي جنس من المخلوقات أو إعاقة أي واحد عن القيام بالأعمال الصالحة ، علاوة على هذا لقد أمرت من قبل الرب، الذي علي طاعته، أن أقوم على الفور بتنفيذ كل الذي تأمريني به ، وكذلك تحمل أي عقوبة من الممكن أن تفرضيها عليّ، ولدى سماع الفتاة بهذا قالت للشيطان:«إن ربي يحميني من أي تداخل معك، ومن أي واحد من أتباعك، لأنه يعلم بأنني لم أحب قط أي خادم من هذا القبيل»، وحدث بعدما قالت الفتاة هذا ، أنها ذهبت الى إحدى المدن للحصول على مأوى ومبات ، فدخلت إلى بيت امرأة، وحصلت على مأوى منها لتبات فيه معها، وعاد في المساء رجل شاب، كان هو ابن السيدة المذكورة، عاد الى البيت من عمله المعتاد وعندما رأى المرأة الشابة ، التي منحتها والدته مأوى صدوراً عن

الاحسـان والصـدقـة، بـدأ يعجب من التكوين الطبيعـي والتـوزيع لأعضائها التي كانت مغطاة بثيـاب متواضعة جداً، وذلك على الرغم من أنها كانت شاحبـة ونحيفة،لأن فيها جاء تكوين الطبيعـة كاملا تماماً، لأنه لم يكن هناك من عيـب فيهـا من أخمص قـدمهـا حتى أعلى رأسهـا، بل إنها أظهرت بتـوزيع وتناسق جسـدها كله بوضوح نبـالة أصلهـا وعنصرها، واشتعل الرجل الشـاب بالرغبـة لنيل العـذراء، و اقترب منها طالباً منها تلبيـة رغبته، وقد رفضت بـردها بحزم، طلب الشـاب، وأعلنت أنها منذ صغـرها قـد كـرست عـذريتهـا الى الرب، وعلاوة على ذلك أعلنت أنه كفضيلة فـرضت عليها من قبل نذرها الديني ومن قبل طائفتهـا ، أن لا تقوم بخـرق ذلك التكريس، وبهذه الكلمات ابتعدت لتـأخذ مكان إقامتهـا الليلية في إحـدى زوايا البيت، حيث قـامت تماشيـاً مع أحكام طائفتهـا الدقيقـة بمـد حصير تحت جسدها لتكون فراشاً لها،وحجرة لتكون بمثابة وسادة لها تحت رأسها ، وكان الرجل الشـاب متحرقاً تمامـاً برغبته الجنسية ولذلك قـرر في قلبه أنه إذا لم يتمكن من الحصـول على مـوافقـة الفتـاة طواعيـة ، سـوف يحقق غرضـه بالقوة، ولذلك ذهب اليها وأخبرها بها قـرره، وشعرت المرأة المتـدينة وقتهـا بآلام عظيمـة في عقلهـا، وخشيت من تدمير عذريتها الطاهرة ، من قبل الشاب المتحرق رغبة، وهنا تذكرت ما كان الشيطان قـد أخبرهـا به ، وهو أنه سـوف يلبي على الفـور أية رغبـة تريدها، فـرفعت صوتها وقـالت:«أيها الشيطان ، أين أنت»؟ وأجـابها الشيطان على الفـور«يا سيـدة ، أنا هنا ، مـا الذي تريـدينه» ؟ وعندها قـالت الفتـاة:« حـررني من هـذا الشرير الذي أزعجني، ولا يسمح لي بالنوم »، وقـام على الفور، بسحب الرجل الشـاب بالقوة من قـدميه ورمـاه بعيـداً بعيداً ،جـداً عن المرأة الشـابة ، وفعل ذلك ثلاث مـرات خلال تلك الليلة ، وبذلك تحررت بوسـاطة الشيطان من عنف الرجل الشاب،وفي الصبـاح غادرت المدينة عذراء كما دخلتهـا ، لكن ما الذي

حدث للفتاة في النهاية غير معروف بالنسبة إليّ، وبناء عليه لا بد في الذي رويته كفاية ورضا للذين يحبون التقوى والصلاح.

حول إحدى الناسكات التي لم تتناول طعاماً لمدة سبع سنوات

وماتت في العام نفسه إحدى الناسكات في مدينة ليستر، وكانت لم تتناول طعاماً من أي نوع لمدة سبع سنوات قبل وفاتها ، باستثناء أنها في يوم الأحد شاركت في تناول قربان جسد ودم مولانا، وعندما وصلت أخبار هذه المعجزة الى مسامع هوغ أسقف لنكولن لم يضع ثقته في القصة، ورفض تصديقها كلية، وأمر بالناسكة المذكورة فوضعت في سجن محكم تحت حراسة كهنتها ورجال دينها لمدة خمسة عشر يوماً، وعندها برهنت خلال تلك المدة كلها أنها لم تتناول أيا من الأطعمة الجسدية ، وأن بشرتها كانت دوما بيضاء مثل الزنبق، مشربة باللون الأحمر الوردي ، كعلامة على الاحتشام والطهارة العذرية.

كيف رفضت كونتسة سالسبري الزواج

وصلت في هذه الآونة أخبار الى ملك انكلترا بأن عمه وليم ايرل أوف سالسبري قد غرق وهو عائد من مقاطعات ما وراء البحر،وعندما كان غارقاً في أحزان الحدث ، جاء اليه هيوبرت المسؤول عن العدالة في المملكة،وطلب منه اعطاء زوجة الايرل وليم المذكور لتكون زوجة لحفيده ريموند الذي آلت اليه رتبة تلك الايرليه بحق الوراثة ،وأعطى الملك الموافقة على هذا الطلب على شرط تمكنه من الحصول على موافقة تلك الكونتسة نفسها، وأرسل مسؤول العدالة على الفور ريموند المذكور في أبهة فروسيته الى الكونتسة ليسعى للحصول على موافقة تلك السيدة ، وعندما حاول ريموند المذكور بالكلام الناعم والوعود العظيمة أن يحصل على

موافقتها، ردت عليه بغضب عظيم أنها تسلمت مؤخراً رسائل تخبرها بأن زوجها كان سالماً وبحالة طيبة ، ثم أضافت بأنه لو كان زوجها بالفعل قد مات، فإنها لن تقبل به بأي حال من الأحوال زوجاً، لأن نبالة أسرتها تمنع مثل هذا الزواج، ثم قالت له:« ابحث عن زوجة في مكان آخر ، لأنك سوف تجد بالخبرة أنك قدمت الى هنا من دون غرض» ، ولدى تلقي ريموند هذا الرد غادر وذهب وهو مضطرب.

كيف طالب صاحب القداسة البابا بعطاء كهنوتي لاستخداماته

عام ١٢٢٦م،فيه احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في وينكستر،بصحبة بعض الاساقفة وعدد من النبلاء،وبعد الاحتفال بهذا العيد بشكل لائق،ذهب الى مارلبورا،حيث أصابه مرض أقعده بالفراش لأيام كثيرة وهو في حالة ميئوس منها،وحل الآن في الوقت نفسه الموعد المحدد من أجل عقد مؤتمر في ويستمنستر في عيد القديسة هيلاري،حيث كان من المتوجب على الملك،ورجال الدين والنبلاء،العائدين لمملكة انكلترا الحضور لسماع رسالة البابا،وبناء عليه احتشد كثير من الاساقفة مع آخرين من رجال الدين والعلمانيين في المكان المذكور أعلاه،وتولى المعلم أوتو، رسول مولانا البابا، الذي تقدمت الاشارة اليه أعلاه،قراءة رسائل البابا، على مسمع من الجميع،وعرض البابا في هذه الرسائل الاساءات الكبيرة وسوء استخدام كنيسة روما المقدسة،وتولى بصورة خاصة إدانة الجشع،على أنه أصل جميع الشرور،وبشكل خاص أنه لايمكن لأي انسان تدبر أي عمل في بلاط روما،من دون اسراف بانفاق الأموال مع تقديم هدايا كبيرة، لكن بما أن فقر الكنيسة الرومانية هو السبب وراءجميع هذه الذنوب والشرور المسماة،فإن من واجب الجميع إزالة حاجة وفقر أمهم وأبيهم،بحكم أنهم أبناء طبيعين،ولأننا إذا لم نتسلم أعطيات منكم ومن الرجال الآخرين الصالحين والأشراف،سوف نكون

بحاجة للانفاق على ضروريات الحياة، وسوف يكون ذلك كله متنافراً مع كرامة ومكانة الكنيسة الرومانية،وبناء عليه إنه من أجل تدمير هذه الاساءات تدميراً كاملاً توصلنا مع نصيحة إخواننا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة إلى وضع بعض القواعد، التي إذا ما وافقتم عليها سوف نحرر أمنا من الإهانة،ونحصل على العدل في بلاط روما من دون الحاجة الى تقديم هدايا،والقواعد التي وضعناها هي التالية : نحن نريد في المقام الأول الحصول على عطائين(أووقفين)كهنوتيين ليمنحا إلينا من جميع الكنائس الكاتدرائية ،يكون أولهما عطاء من حصة الأساقفة،والثاني من حصة هيئة الكهنة،ومن الديرة وفق الطريقة نفسها،هناك حصص متنوعة لراعي الدير وللدير ،ومن رهبان الديرة،حصة راهب واحد،على أساس توزيع متساوي يعمل على ممتلكاتهم،والشيء نفسه من راعي الدير».

وبعد تقديم هذه المقترحات،تولى المعلم أوتو بناء على تفويض من مولانا البابا،توجيه النصيحة الى أساقفة الكنيسة الذين كانوا حاضرين شخصيا بالموافقة،وأوضح المنافع المذكورة أعلاه في الرسائل،وعندها اعتزل الأساقفة الذين كانوا وقتها بين الحضور جانباً، للتشاور حول القضية، وبعدما تناقشوا حول الاقتراحات لبعض الوقت، أنابوا جون رئيس شمامسة بدفورد فذهب ووقف أمام المعلم أوتو، وأعطاه الجواب التالي على مطالبه قائلا:«سيدي ، إن الأشياء التي عرضتها علينا فيها إشارة الى الملك بشكل خاص، والى المسؤولين عن الكنائس بشكل عام، وفيها أيضاً إشارة الى رؤساءالأساقفة مع مساعديهم من الأساقفة والى أعداد من الكهنة ذوي المراتب في انكلترا، وبناء عليه ، إنه بسبب مرض الملك ، ولغياب بعض رؤساء الأساقفة والأساقفة والكهنة الآخرين من ذوي المراتب ، نحن لا يمكننا — كما انه لا يجوز لنا — بغيابهما اعطاءك جواباً،لأننا إذا

ما أقدمنا على فعل ذلك ، سيكون في ذلك الحاق الضرر بجميع الذين هم غياب»، وبعد هذا جرى ارسال جون المارشال ورسل الملك الآخرين الى الكهنة ذوي المراتب، المستحوذين على مراتب بارونية رئيسية من الملك، ليمنعوهم بكل دقة من اشراك رسومهم المدنية واخضاعها لكنيسة روما، فبذلك سوف يكون حرماناً من الخدمات المستحقة له شخصياً، وعند سماع المعلم أوتو بهذا ، عين يوماً في منتصف الصوم الكبير من أجل الذين كانوا آنذاك حضوراً للاجتماع ، وعندما يتم الحصول على حضور الملك والكهنة الغائبين، وبذلك يمكن وقتها إيصال هذه القضية إلى نهاية ، لكنهم لم يوافقوا على التاريخ الذي حدده من دون الحصول على موافقة الملك مع الآخرين الذين كانوا غياباً، وبهذه الطريقة عادوا جميعاً الى الوطن.

الموت الرائع لوليم ايرل أوف سالسبري

وشفي في تلك الأثناء ملك انكلترا، تماماً من مرضه في مالبورا، وإليه قدم الى هناك وليم ايرل أوف سالسبري ، الذي تمكن بعد صعوبات جمة ، وبعد تعرضه طويلاً للمخاطر في البحر، من الرسو في كورنوول cornwall أيام عيد الميلاد، وقد استقبل بسرور عارم من قبل الملك ، وعلى الفور وضع أمامه شكوى جادة ضد المسؤول عن العدالة ، بين فيها أنه عندما كان في المقاطعات الأجنبية يعمل لصالح الملك ، أرسل مسؤول العدالة رجلاً من نسب منحط، سعى من أجل صنع اتصال اجرامي مع زوجته، وهو ما يزال على قيد الحياة، وأن يعقد معها عقد زواج زنى بالقوة، وأضاف أنه ما لم يقم الملك بجعل مسؤول العدالة يقدم على إعطائه ترضية كاملة ، هو نفسه سينتقم لهذه الجريمة العظيمة ، ولهذا الافساد الكبير لسلام المملكة ، ولأن مسؤول العدالة كان حاضراً، فقد اعترف بخطيئته، وتصالح مع الايرل بوساطة هدايا من الخيول الثمينة والهدايا الكبيرة

الأخـرى، وبذلك صـار صـديقـاً مع الايرل،وإثر ذلك قـام مسـؤول العـدالة هذا بدعوة الايرل الى مـائـدته، حيث يقال بأنه سمـه سراً، لأن الايرل ذهب الى قلعتــه في سـالسبري، فتمـدد في فــراشـه وهو مريض بشكل كبير، وإزداد المرض واستفحل، ولدى شعـوره بعلامات الموت ، بعث الى أسقف المدينـة ليأتي إليــه، حتى يتلقى الطقــوس المتعلقـة بالاعتراف، وليشـارك بقــربان الموت المسيحي ، وأيضـاً لكي يعمل وصية رسميـة فيها يتعلق بأملاكـه،وعندما دخل الأسقف الى الغرفة التي تمدد فيها الايرل، وهو ليس مرتدياً شيئاً سوى سراويله ، قفـز هذا الايرل مـن فـراشـه، ووقف أمـام الأسقـف ، الذي كـان حامـلاً لجسد ربنا ، وربط حبلاً خشناً حول رقبتـه ، وألقى بنفسه على الأرض، واعترف وهو ينوح بشكل متواصل بأنه كـان شخصياً خائناً للملك العظيم ، ولن يسمح لنفسه بالنهوض حتى يقوم بالاعتراف ، ويشارك في قـربان القداس المانح للحيـاة، ليبرهن عن نفسه بأنـه عبد لخالقه، وهكذا استمر في أعظم حالات التوبة لعدة أيام ، حتى أسلم روحه الى مخلصــه، وعندما جـرى حمل جسده من القلعـة الى الكنيسة الجديدة، التي كـــانت على بعـــد حـــوالي الميل،ليـــدفـن هناك، ظلت الشمـوع، التي جـرت العـادة بحملهـا مشتعلة مع الصليب وكـذلك المباخـر، وذلك على الرغم من زخات المطر والرياح العنيفـة، واستمرت الإضـاءة طوال الطريق، وبذلك ظهر بشكل واضح بأن الايرل قـد تاب توبة نصوحة، وأنه صار منتمياً الى تعداد أبناء الضياء.

كيف سعى المعلم أوتو الى مصالحة الملك مع فالكاسيوس

ووصل في تلك الآونة المعلم أوتو رسـول البـابا الى ملك انكلترا، وطلب منه باسم قداسة البـابا استقبال فالكاسيوس في الحظوة ، وأن يعيد إليـه زوجته، وأراضيـه، وأملاكـه، وجميع المقتنيات الأخـرى التي أخذت منه، لكن الملك رد عليـه، بأن فالكاسيوس، قـد حكم عليه ،

بسبب الخيانة المكشوفة بالنفي الأبدي، وصدر هذا الحكم من قبل جميع رجال الدين والناس، وهو حكم لا يمكن ايقافه من دون العمل بشكل معاكس لأعراف المملكة المؤسسة قديماً، ولدى تلقي المعلم أوتو لهذا الجواب، توقف عن القيام بأية مطالب أو مباحث أخرى حول القضية، ثم إنه بعث برسائله الى جميع الكنائس الكاتدرائية أو الديرية في جميع أرجاء انكلترا، طالبا منهن أموال الوكالة المستحقة لرسل الكنسية الرومانية ، وحدد مبلغ كل وكالة بأربعين شلناً.

مجمع بورجي الذي ترأسه رومانوس المندوب البابوي الى الفرنسيين

وفي حوالي هذا الوقت نفسه،جرى ارسال رومانوس من قبل مولانا البابا الى فرنسا ، ليمارس هناك أعمال المندوب البابوي، وبعد وصوله جمع الملك الفرنسي، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورجال الدين الغاليين مع كونت طولوز، لعقد مجمع ، من أجله وغاياته جرى إرساله الى تلك البلاد، كما ستبين الرواية التالية ذلك: فقد عقد المجمع في بورجي Bourges وقد حضره رؤساء أساقفة: ليون، ورايمز، وروان، وتور، وبورجي ،وأوكسين، وكان رئيس أساقفة بوردوكس في روما، وكانت كنيسة نربونة من دون رئيس أساقفة، ولقد اجتمع حوالي مائة من الأساقفة المساعدين من تسع مقاطعات مع رعاة الديرة ورؤساء الرهبان، ومفوضين عن كل هيئة كهنة، وذلك من أجل حمل رسالة البابا، هذا وقد ادعى رئيس أساقفة ليون السيادة على رئيس أساقفة السين، ورئيس أساقفة روان السيادة على رؤساء أساقفة: بورجي، وأوكسين، ونربونة، وخاف أساقفتهم المساعدون من زيادة الخلافات برعايتها ، ولذلك لم يجلسوا كما لو أنهم في مجمع، بل وكأنهم في حالة تداول وتشار وبعد ما جلس الجميع ، وقرئت

رسائل البابا ، مثل أمامهم كونت طولوزمن جانب، وسيمون دي مونتفورت من الجانب الآخر، وقد طالب سيمون بتسليمه أراضي ريموند كونت طولوز ، وهي الأراضي التي كانت قد منحها له فيليب ملك فرنسا ، وكذلك أبوه، وقدم كتابات كل من البابا وفيليب، فيما يتعلق بهذه المنحة ، وعلاوة على ذلك أضاف بأن الكونت ريموند قد حرم في المجمع المسكوني في روما وجرد بسبب الهرطقة ، وشمل الحرمان على الأقل الشطر الأكبر من الأرض التي يمتلكها الآن، وأوضح الكونت ريموند في جوابه بأنه سوف يفعل كل ما ينبغي أن يفعله نحو الملك الفرنسي والكنيسة الرومانية حتى يحتفظ بميراثه ، وهنا طلبت منه الفئة المضادة الالتزام بحكم اثني عشر من نظرائه الاقطاعيين الفرنسيين ، وعلى هذا رد ريموند : « ليقم الملك أولاً بتلقي ولائي، وعندها سوف أكون جاهزاً للمقاضاة ، وبدون ذلك ربما لن يعترفوا بي نظيراً اقطاعياً لهم »وبعد كثير من الردود من على الجنبين، أمر النائب البابوي رؤساء الأساقفة والأساقفة الذين كانوا حضوراً، بأن يجتمع كل منهم مع أساقفته المساعدين على انفراد في مكان خاص للتباحث حول القضية المتقدم ذكرها ، ومن ثم أن يقدموا اليه نتيجة مداولاتهم، بشكل مكتوب، ثم إنه حرم كنسياً كل من يفشي خططه حول هذه القضية ، قائلاً بأنه يود أن يشرحها الى البابا، وأن يخبر بها الملك الفرنسي شخصياً.

كيف أعطى النائب البابوي خداعاً الإذن لمندوبي الكهنة بالمغادرة

وبعد هذا المجمع، أعطى النائب البابوي الإذن خداعاً إلى مندوبي هيئات الكهنة بالعودة الى مواطنهم، وأبقى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين العاديين ، ولهذا السبب كان الأخيرون خائفين ، ولم يكن ذلك من دون سبب ، في غياب أولئك

الأكثر براعة وخبرة، والذين بسبب عددهم، هم الأقدر على معارضة النائب البابوي سوف يتم لذلك اتخاذ بعض القرارات الملزمة أثناء غياب رجال الدين، وبناء عليه قام مندوبو الكهنة بالتداول، وبعد مباحثات طويلة، بعثوا مندوبين من الكنائس المطرانية الى النائب البابوي، وقد شرح له هؤلاء الوضع بقولهم ما يلي: «لقد سمعنا يا مولانا بأن لديك رسائل من بلاط روما تتعلق بالحفاظ على العطاءات الوقفية اللاهوتية في جميع الكنائس الديرية، وأنت لم تقم في اجتماع التداول الأخير بإعلانها على مسامعنا، نحن الذين في موضع المسؤولية الخاصة تجاهها، ولذلك نلتمس منك باسم الرب بأن لا تدع هذا النزاع يتفجر في الكنيسة الفرنسية بوسائطك، لأننا نعلم تمام المعرفة بأن مثل هذه الخطة لا يمكن وضعها موضع التنفيذ من دون اقتراف آثام كثيرة، وإحداث ضرر لا يمكن تصوره، ولنفترض أن أي واحد سوف يوافق على ذلك، إن موافقته لن تكون جائزة في المسألة المتعلقة بنا جميعاً وذلك عندما جميع الشيوخ والناس بشكل عام، وكذلك الملك نفسه والنبلاء على استعداد لنقد ذلك ومعارضته، الى حد لو أن ذلك قاد الى تعريض حياتهم لخطر الموت، ولفقدانهم مراتبهم العالية، وخاصة أنه سيكون بالمطالبة العدوانية بهم دمار المملكة والكنيسة بشكل عام، وشيكاً، والسبب الداعي لخوفنا هو أنك لم تبحث هذه القضية مع الممالك الأخرى وأنك أمرت بعض الأساقفة ورعاة الديرة، أنهم حيثما وجدوا العطاءات الوقفية اللاهوتية شاغرة، الاحتفاظ بها لصالح البابا».

كيف طالب المندوب البابوي بعطائين من الأساقفة لاستخدامات كنيسة روما

ولدى استلام المندوب البابوي للرسالة المذكورة أعلاه، وأثناء مسعاه

لاقناع الجميع بالموافقة على طلبه، قام آنذاك للمرة الأولى بعرض تفويض البابا ورسالته التي طالب فيها بعطائين وقفيين كهنوتيين من كل كنيسة من الكنائس الكاتدرائية، عطاء من الهيئة الكهنوتية والعطاء الآخر من الأسقف، وبالطريقة نفسها بالنسبة للأديرة، حيث هناك حصصاً متنوعة، أي حصص رعاة الديرة، وحصص الدير، هذا ولقد طالب بعطائين، واحد من راعي الدير، والثاني من الدير، وطلب من الدير حصة راهب واحد، أثناء التوزيع المتساوي للممتلكات، وذلك حسبما فسر النائب البابوي ذلك شخصياً، والشيء نفسه من راعي الدير، ثم أخذ يشرح ويبين المنافع التي ستحصل من ذلك، أي أن ذلك سوف يزيل من الكنيسة الرومانية، التي هي الأم لجميع الكنائس، ويرفع عنها تهمة الجشع، التي هي أصل جميع الشرور، فما من أحد سوف يرغم على تقديم أية هدية، من أجل تسهيل العمل في بلاط محكمة روما، وما من أحد سوف يتسلم هدايا عندما يجري تقديمها.

اعتراضات المشرفين المفوضين على المطالب المذكورة أعلاه

وقال مندوب رئيس أساقفة ليون في جواب على هذا الطلب: «نحن ياسيدي لانرغب مطلقاً أن نكون بلا أصدقاء في بلاطك، أو أن لانتمكن من منح الهدايا»، وبين المندوبون الآخرون بالطريقة نفسها انعدام المنافع والمحبطات التي سوف يعملون في ظلها، مثل خسارة الممتلكات، والمشورة، والمساعدة، وأنواع الرعاية الأخرى، فبهذه الطريقة: «سوف يكون هناك باستمرار في كل أسقفية، أو على الأقل في كل مقاطعة، رسولاً، أو وكيلاً رومانياً، هو لن يعيش اعتماداً على وسائله، بل سوف يفرض غرامات ثقيلة وبدلات ويجبيها من الكنائس الأكبر، وربما من الكنائس الأصغر، وبذلك لن يكون هناك أحداً يتمتع بالحصانة، والشخص الذي يسمى المندوب المشرف هو الذي سوف يفرض مكوس وضرائب الأساقفة»، كما أنهم قالوا بأن التوزيع بين

الهيئات الكهنوتية سوف يتبع ذلك، لأن من المحتمل أن يأمر البابا، إذا ما اختار، المشرف المفوض من قبله، أو شخصاً آخر أن يكون حاضراً ممثلاً له في الانتخابات، وهذا سوف يثير الاضطراب بينهم ويزعجهم، وهذا سوف يجعل مع مرور الأيام الانتخابات تتحول إلى الاعتماد على بلاط روما، الذي سوف يتولى تعيين رومان، أو أشخاصاً مكرسين لهم، في جميع الكنائس، أو على الأقل في معظمها، وبذلك لن تكون هناك فئة من رجال الدين المحليين أو من رؤساء رجال الدين، وذلك بقدر ماسيكون هناك رجال لاهوت سوف يقدمون المزيد من التقدير إلى بلاط روما، أكثر مما سيقدمونه إلى الملوك أو المملكة، وأضافوا أيضاً أنه إذا ماتم التوزيع الصحيح للممتلكات، فإن ذلك البلاط سوف يصبح كله غنيا، لأن رجاله سوف يتسلمون أكثر من الملك نفسه، وبذلك لن يصبح الشيوخ أغنياء فقط بل الأغنى بين الناس، وبما أن علة الغنى هي التكبر، فإن المتكبرين نادراً ماسيصغون إلى المتشكين، بل سوف يطردونهم بلاتوقف، والذين دونهم سوف يكتبونهم غير راغبين، والبرهان على هذا واضح، لأنه حتى في هذه الآونة نراهم يؤجلون الأعمال بعد تلقيهم هدايا واستلامهم لضمانات، وهكذا سوف تكون العدالة في خطر، وسوف يرغم الشكاة على الموت عند أبواب رؤسائهم المتحكمين بهم، أي الرومان، وكذلك بما أنه من الصعب لنبع الشره أن يجف، فإن الذي يفعلونه الآن سوف يفعلونه آنذاك بوسائل الآخرين، ولسوف يحصلون على هدايا أكبر بكثير لوكلائهم وقتها، منها الآن، لأن الهدايا الصغيرة توزن الآن مع الأغنياء الجشعين من الناس، وعلاوة على ذلك فإن الثروة الكبيرة سوف تسبب الاحتكاك بين المواطنين الرومان أنفسهم، وبذلك سوف تنشب خلافات كبيرة وخصومات بين مختلف الوكلاء، ويخشى من أن هذا سوف ينعش ويستغل من أجل تدمير المدينة كلها، الأمر الذي ليست متحررة منه حتى في هذه الآونة، كما أنهم أضافوا، بأنه من الممكن للذين هم موجودين الآن أن يصدقوا على

هذا ويتعهدوا به، لكن لايمكنهم ربط خلفائهم به، كما أنهم لن يمتلكوا الارغام على الطاعة كأمر مشروع، واختصروا الموضوع كله أخيراً بقولهم : «من المحتمل يامولاي أن تقوم العاطفة الغيورة للكنيسة كلها وللكرسي الروماني المقدس بعزلك، وإذا ما جرى وضع هذا الظلم العام موضع التنفيذ، علينا أن نخشى أن سيكون الانفصال العام وشيكاً، نرجو الرب أن يجنبنا ذلك»، ولدى سماع النائب البابوي هذا، بدا وكأن مشاعره الطيبة قد تحركت نحوهم، فأجاب بأنه لم يوافق قط على هذا الطلب عندما كان في البلاط في روما، وأنه تلقى الرسائل بعدما وصل إلى فرنسا، وأنه كان آسفاً كثيراً بسبب هذه الأشياء، كما أنه أضاف بأنه يفهم بأن جميع الأوامر في هذه القضية قائمة على الفهم الضمني بأن الامبراطورية والممالك الأخرى سوف توافق عليها، كما أنه قال بأنه لن يقوم بمحاولات أخرى حول هذه القضية حتى يقدم الأساقفة في أرجاء المملكة الأخرى موافقتهم، الأمر الذي لم يعتقد بأنه سيحدث.

كيف عاد المعلم أوتو مرغماً إلى روما

وفي الصوم الكبير من العام نفسه، كان المعلم أوتو، رسول الامبراطور، على طريقه إلى نورثأمبرلاند لفرض ضريبة الوكالة المتقدم ذكرها، وقد وصل إلى نورثأمبتون، وفي ذلك المكان وصلت إليه رسائل من البابا، منحت بناء على طلب من رئيس أساقفة كانتربري، وقد حوت هذه الرسائل أمراً إلى أوتو المذكور، بالعودة فور رؤيتهم إلى روما، لأن نفوذه هناك كان قد تدمر تماما، وما أن ألقى نظرة على هذه الرسائل، حتى ألقى بهم بالنار وهو مكتئب، وقام على الفور بتغيير خططه، وغادر انكلترا وهو مضطرب، حيث أنه أمر ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، حسبما جاء في رسائل البابا، بأن يجمع الملك وجميع رجال دين المملكة للتداول وأن يبعث إلى البابا بجوابهم حول المسألة

التي أرسل أوتو المذكور من أجلها إلى انكلترا، وبعدما أدار ظهره إلى انكلترا، جمع ستيفن، رئيس أساقفة كانتربري جميع المسؤولين عن هذه القضية، ليكونوا في مؤتمر في ويستمنستر بعد عيد الفصح، وهناك قام بحضور الملك وجميع رجال الدين في انكلترا الذين اجتمعوا بناء على دعوته، فقرأ الرسائل المذكورة أعلاه، فيما يتعلق بالهدايا إلى الكنيسة الرومانية، وبعدما سمعوا الرسائل، وفهموا مقاصدها، ضحكوا في قرارة أنفسهم تجاه جشع الرومان الذي لم يفهموا الحكمة الأخلاقية القائلة:

««إنها ليست الثروة بل الفضيلة هي التي سوف تجعل الانسان راضيا،

وليس المحتاج هو الانسان الفقير، بل المنصرف نحو تحصيل الربح».

ثم دعا الملك بعض رجال الدين والنبلاء للاجتماع على انفراد، ثم إنهم أعطوا الجواب التالي إلى رئيس الأساقفة: «إن المنح التي ينصحنا البابا بالموافقة عليها، تتعلق بالجماعة المسيحية كلها، وبما أننا موجودين في أقصى زاوية من العالم، سوف ننظر كيف ستتصرف الممالك الأخرى تجاه هذه المطالب، وعندما نشاهد أمثولتهم سوف يجدنا مولانا البابا أكثر استعدادا في تعاملنا مع هذه المطالب من الآخرين»، وبالتفوه بهذه الكلمات سمح للجميع بالمغادرة.

الحركة الكبيرة التي عملت ضد كونت طولوز

وجرى التبشير في الوقت نفسه بصليبية في جميع مقاطعات فرنسا بشكل عام من قبل النائب البابوي، بأن على جميع الذين يمكنهم حمل السلاح، عليهم حمل شارة الصليب للحملة ضد كونت طولوز وأتباعه، الذين قيل بأنهم تلوثوا بلطخة الهرطقة القذرة، ونتيجة لهذا التبشير حمل عدد كبير من رجال الدين ومن العلمانيين الصليب، وقد اقتنعوا بفعل

ذلك لخوفهم من الملك الفرنسي، أو لنيل الحظوة من النائب البابوي، وكان هذا أكثر من غيرتهم على العدل، لأنه بدا للكثيرين أنه سيكون ذنباً القيام بمحاربة المسيحيين الحقيقيين، لاسيما وأنهم جميعاً كانوا على معرفة، أنه أثناء المجمع الذي انعقد مؤخراً في بورجي، عمل الكونت المذكور توسلات كثيرة ورجا النائب البابوي أن يذهب إلى أية واحدة من مدنه في أراضيه، للبحث في قواعد ايمانهم، وأعلن أنه إذا ما وجد النائب البابوي أيا من سكان أية مدينة يتبنون مواقف وآراء مضادة للإيمان الكاثولكي، هو نفسه سوف يفرض عليهم ترضية كاملة، وأنه إذا وجد أية مدينة في حالة عدم الطاعة، هو سيتولى، بقدر مايملك من طاقة، ارغام تلك المدينة وسكانها على عمل تكفير وتوبة، وبالنسبة له شخصياً، عرض أنه إذا كان قد أذنب بأي حال من الأحوال، الأمر الذي لايتذكر بأنه فعله، أن يقدم ترضية كاملة للرب، وللكنيسة المقدسة، كمسيحي مخلص، وإنه إذا مارغب النائب البابوي هو على استعداد حضور محاكمة من أجل عقيدته، وقد رفض النائب البابوي هذه العروض جميعاً، ولم يستطع هذا الكونت الكاثوليكي الحصول على أية حظوة لديه من دون التخلي عن ميراثه والتنازل عنه بالنسبة له شخصياً ولورثته من بعده، وحمل الملك الفرنسي، بناء على تبشير هذا النائب البابوي، الصليب، ولكنه رفض الذهاب في هذه الحملة، مالم يحصل أولاً على رسائل من البابا إلى ملك انكلترا، يمنعه تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، إذا ماأزعج الملك الفرنسي، أو أثار حرباً ضده، بشأن أية منطقة هي الآن في حوزته، سواء أكان ذلك عادلاً أو غير عادل، وذلك طوال المدة التي سيكون خلالها في خدمة البابا وكنيسة روما، في العمل لاجتثاث الهراطقة الألبينيين ومحرضيهم ومشاركي كونت طولوز، وكل من يقدم له العون والمساعدة والنصيحة بالابتعاد عن طريق الايمان، وعين بعد هذا الملك والنائب البابوي يوم صعود ربنا من أجل جميع الذين حملوا الصليب للاجتماع في ليون، تحت طائلة

الحرمان الكنسي، وأن يكونوا مجهـزين بالخيول والأسلحـة، ليتبعوهما في الحملة المقترحة.

كيف غير ملك انكلترا نيته في عبور البحر

وجمع في الوقت نفسـه ملك انكلترا، الذي كان متشـوقـاً بشدة لغـزو مقاطعات ماوراء البحر، مستشاريه، وقرأ عليهم رسائل البابا، التي كان قـد بعث بها إليـه، وسألهم عن نصيحتهم عن الذي يتـوجب عمله تجاه هذا الحظر، وكـان الرأي الذي قـدمه جميع رجـال الدين مع النبـلاء هو التعبير عن رغبتهم بتأجيـل الحملة المرغـوب بها حتى يروا نتيجـة هذه المغـامـرة الصعبـة والمكلفـة التي تولاها الملك الفـرنسي، وكـان الملك الانكليزي في تلك الاثناء قلقاً جداً حول أخيه رتشارد الذي كان آنذاك في غـاسكوني يتابع الحرب، وقـد تشـوق الى عودته الى الوطن، وعندمـا كان الملـك هكذا قلقاً ومشغـولاً حول أخيه، وكـان يرغب بمساعـدته، وصل رسل اليه من عند أخيه المذكور، أخبروه أنه كان سالماً معافى، وأن كل شيء كان يسير معه بشكل جيد وموافق، وكان بين مستشاري الملك آنذاك المعلم وليـم، الذي كـان لقبـه بييربونت Pierepunt، وكـان منجماً، وقـد أعلن بجـرأة أمام الملك، أنـه إذا ما حـاول الملك الفـرنسي القيـام بالحملة التي كـان على وشك الشروع بها، هو إما لن يعـود حياً، أو أنـه سـوف يعـاني مـن خسـائر كبيرة في الممتلكـات والأتبـاع، وشـعر الملـك بسرور عـارم لدى سماعـه بهذا، ووافـق على خطة مستشاريه.

وفاة رتشارد أسقف درم

وكان في العام نفسـه رتشارد دي ماريسكو Marisco، أسقف درم يسير مسرعـاً مع عـدد كبير من المحـامين الصـاخبين، يريد أن يكون في لندن في اليوم المحدد، ليقوم بالدعـوة المهينة ضد الرهبان، وقد نزل على

الطريق في دير بيتر- بورا peter-borough، حيث أوى الى فراشه ليلاً، بعد عشاء فاخر، وفي الصباح الباكر عندما كانت الشمس آخذة بالاشراق، دخل كهنته الى غرفته بهدف ايقاظه، ووجدوه وقتها ميتاً، وشعروا لهذا جميعاً بانقباض، وأبقوا خبر موته سراًحتى مساء ذلك اليوم، لأنه مات دون اعتراف وتناول القربان، ثم إنهم أخبروا رئيس الرهبان بالواقعة الرهيبة وكذلك رهبان الدير، وقاموا بعمل محفة، وحملوا جسده ونقلوه الى الكنيسة في درم من أجل الدفن،وقد مات هذا الأسقف في اليوم الأول من أيار، بعدما بقي شاغلاً للأسقفية لمدة تقارب التسعة أعوام، وهناك واقعة لها علاقة به، نعتقد أننا لايجوز المرور بها صامتين، وهي واقعة حدثت قبل حوالي العامين من موته، فقد ظهر في المنام في إحدى الليالي الملك جون الأخير، الى واحد من رهبان دير القديس ألبان، وكان آنذاك مقيماً في تاينماوث Tynemouth، وكان هذا الراهب صديقاً مقرباً من الملكين: رتشارد، وجون، وتنفيذاً لأشغالهما قد أرسل في بعض الأحيان الى روما، وبعض الأحيان الى سكوتلندا، والى أماكن أخرى كثيرة جداً، وبانجازه لخدماته كان قد كسب حظوة الملكين المذكورين وعندما كان الراهب آنذاك نائماً على حشيته، وقف الملك المتقدم ذكره أمامه في ملابسه الملكية التي اسمها الثياب الامبراطورية، وعرفه الراهب على الفور، وتذكرأنه كان ميتاً، فسأله كيف هي أحواله، فأجابه الملك قائلاً: «مامن أحد أسوأ مني أنا، لأن ثيابي هذه التي تراها هي محرقة وثقيلة الى درجة أن مامن انسان حي يمكنه أن يلمسهم بسبب حرارتهم، أو يلبسهم بسبب وزنهم، إلاّ ويتعرض للموت، ومع ذلك إنني آمل بوساطة الرحمة الربانية التي لايمكن وصفها، أن أحصل في وقت ما على الرحمة، ولذلك ألتمس بحرارة من أخوتك وأرجو أن تخبر رتشارد مارش، الذي هو الآن أسقف درم، أنه مالم يقم قبل موته بتغيير اسلوب حياته الشريرة، ويقوّمها، بتوبة نصوحة، وبتكفير موائم، هناك مكان معدّ له في جهنم،

وإذا مـا رفض تصـــديق كلماتك ورســالتي، ليقم بـوضع جميع الشكوك جانباً بهذه الشـواهد، فليتذكر أننا عندما كنا معاً لوحـدنا في مكان يعرفه بشكل جيــد، اقترح عليّ خطة، راقت لي وله شخصيـاً، وهـي أن أقـوم بأخـذ محصول سنة من الصـوف من الرهبان السسترشيـان، ولقد اقترح عليّ أيضـاً خططاً أخرى شريـرة، أنا أعاني من أجلهـا عـذاباً لايوصف، وهو ماينتظره، وإذا مااستمر متردداً في تصديق رسالتي، عليه أن يتذكر، بأنه أعطاني في المكان نفســه، وفي الوقت نفســه حجرة كـريمـة كان قـد اشتراها بمبلـغ كبير»، وبهذه الكلمات اختفى الملـك، واستيقظ الـراهب مندهشاً.

وبعد وفاة رتشارد أسقف درم، طلب رئيس الرهبان مع رهبان الدير الاذن من الملك مـن أجل انتخــاب أسقف، وبنـاء عليــه اقترح عليهم الشماس لوقا، ورجاهم أن يستقبلوه بمثـابة أسقف لهم، وأجابه الرهبان — على كل حـال — بأنهم لن يستقبلوا أي واحـد مالم يكـن قد جـرى انتخـابه بشكل قانـوني، وبناء على هذا الرفض، أعلن لهم الملك، وأشفع اعـلانه بالقسم أنهم ينبغي أن يبقـوا من دون أسقف لمدة سبعـة أعـوام، مـالم يقبلوا لوقا المتقـدم الذكر ليحتل منصب الأسقفيـة، وكان الرهبـان -على كل حـال -قــد اعتقـدوا أنه شخص غير لائـق لمثل هذا المنصب الرفيع، فقـاموا بمـوافقـة جماعية من جماعتهـم، بانتخاب كـاهنهم وليم، الذي كــان رئيس شمامسـة ووركستر، وكـــان رجـلاً متعلماً، ومستقيماً، وقـدموه إلى الملـك، وعمل الملك بعض الاعتراضات التـافهـة، ورفض استقباله، وبناء عليه أرسل الرهبان بعضاً منهم إلى روما، للحصول على تثبيت الانتخـاب، بمـوجب سلطة الحبر الأعظـم، وعندمـا سمع الملك بهذا، أرسل أسقف شيستر، ورئيـس رهبـان لانتــوني Lantony إلى رومـا، لمعـارضـة الرهبـان، ولإعاقـة مقـاصـدهم، ولأنهم استمـروا في الخلاف لمدة طويلة استمرت القضية من دون حسم.

حصار أفينون من قبل لويس ملك فرنسا

وحل في الوقت نفسه موعد عيد صعود ربنا، ففي ذلك اليوم صدرت الأوامر إلى جميع الصليبيين الفرنسيين الذين كانوا تحت قيادة الملك والنائب البابوي بالتجمع من دون تأخير، وكان الملك قد أنهى جميع إعداداته في ليون، فأخذ طريقه وارتحل مع قواته، وكانت هذه القوات جيشاً -كما بدت -عملاقاً لايقهر، وقد تبعها النائب البابوي، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورجال الدين الآخرون التابعون للكنيسة، وقدّر تعداد الجيش بأنه حوى حوالي الخمسين ألفاً من الفرسان، والجنود الخيالة، وذلك إلى جانب الجنود الرجالة، الذين كان من الصعب تعدادهم، ثم قام النائب البابوي فأعلن على الملأ الحرمان الكنسي لكونت طولوز ولجميع مشجعيه، ووضع جميع أراضيه تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وكما قلنا انطلق الملك مع الأعلام وهي تخفق والترسة وهي تلمع، وكان زحفه مرعباً حتى بدا وكأنه جيش من القلاع وهو يتحرك، وأخيراً دخل إلى مقاطعة كونت طولوز، وفي يوم أحد الشعانين وصلوا جميعاً إلى أفينون Avignon، التي كانت أول المدن في ممتلكات الكونت يصلون إليها، وقد قرروا على الفور أن يبدأوا هجومهم من هناك، وبالتالي اخضاع جميع أراضي الكونت مع سكانها من البداية حتى النهاية، ولدى وصول الملك والنائب البابوي طلب بشكل مخادع الاذن من السكان السماح لهم بالعبور من خلال المدينة، قائلين بأنهم قدموا إلى هناك بنوايا سليمة، وطلبوا معبراً من خلال المدينة حتى يتمكنوا فقط من تقصير مسافة زحفهم، وقام السكان بالتباحث حول هذا المطلب، وبعد ذلك لم يصدقوا تأكيداتهم، وقالوا إن مقصدهم الحصول داخل المدينة لنوايا عدوانية، وليس لاختصار المسافة، وهنا غضب الملك، وأقسم أنه لن يغادر المكان حتى يستولي على المدينة، وأمر على الفور بصف آلات قذفه حول المكان، وقام بهجوم

حاد، ونشب الآن قتال شديد استخدمت فيه بشكل متواصل: المجانيق، والقسي العقارة، وجميع أنواع الأسلحة الأخرى، وكانت المدينة -من جهة أخرى -لم تتعرض من قبل للهجوم عليها من قبل عساكر معادية، وكانت مدافع عنها بشكل جيد، بوساطة: خنادق، وأسوار، وسواتر دفاعية، وشرافات، وكانت من الداخل مشحونة بشكل جيد بالفرسان، وبآلاف من الجنود، كما كانت مزودة بشكل جيد بالخيول، وبالسلاح، وبأكوام من الحجارة من أجل المجانيق، وتوفرت فيها آلات رمي ومجانيق، كما كانت المؤن فيها وافرة، ولذلك لم يكن هناك خوف من المهاجمين، وقد قام المدافعون عن المدينة بشجاعة برمي حجرة مقابل حجرة، وسلاح مقابل سلاح، ورمح مقابل رمح، وسهم مقابل سهم، وأوقعوا جراحات مميتة بالقوات الفرنسية التي حاصرتهم.

الموتان والمجاعة بين المحاصرين

وبعدما استمر الحصار لوقت طويل، نقصت المؤن لدى المحاصرين وكادت أن تنعدم، وماتت أعداد من العساكر، لأن كونت طولوز، قام قبل وصول الفرنسيين بحكم كونه عسكرياً بارعاً، بنقل جميع أنواع المؤن مع المسنين من الرجال والنساء، وكذلك الأطفال، والخيول والقطعان، ولذلك حرموا من جميع أنواع المواد الأساسية والمؤن، ولم يتألم الناس فقط ويعانون، بل أيضاً خيول ومواشي الجيش، حيث هلكت من المجاعة، فقد كان الكونت قد تدبر من قبل فلاحة جميع الحقول في أرجاء المنطقة، ولذلك لم تتوفر هناك أية مواد للأكل وعلف المواشي، غير ماكانوا قد جلبوه من المناطق الفرنسية، ولذلك أرغمت كتل كبيرة من العساكر على التخلي عن المعسكر، للبحث عن الأطعمة من أجل الناس والأعلاف من أجل الخيول، واستولوا بوساطة هذه الغارات على كثير من البلدات التي وقفت ضدهم، إنما غالبا ماعانوا من خسائر كبيرة من حملات كونت طولوز، ومن كمائنه التي نصبها،

وكان الفرنسيون في هذا الحصار عرضة للموت بطرق كثيرة، منها كان من الموتان الذي انتشر بشكل مرعب بين الرجال والخيول، ومن الأسلحة المميتة، والحجارة القاتلة التي جاءت من عند المحاصرين، ومن المجاعة الشاملة التي استشرت بشكل رئيسي بين الطبقات الأشد فقراً، الذين لم يمتلكوا لا المال ولا الطعام، وذلك بالاضافة إلى التعاسات الأخرى، التي هاجمت الجيش من دون توقف، فقد صدر عن جثث الموتى من الناس والخيول، الذين كانوا يموتون في كل اتجاه روائح نتنه، وكانت بالاضافة إلى ذلك هناك أعداد هائلة من الذباب الأسود الكبير، وكانت تدخل إلى داخل الخيم، والسرادقات، والمقتنيات وتؤثر على المؤن والأشربة، وبما أنهم كانوا غير قادرين على ابعادهم عن كؤوسهم وصحونهم، سببوا موتاً مفاجئا بينهم، وكان الملك والنائب البابوي في وضع حرج جدا، لأنه إذا ماعادت هذه الحملة الكبيرة والقوية دون أن تنجز أهدافها، فلسوف يعاني الفرنسيون والرومان من وصمة عار، وعندما رأى قادة الجيش، أن التأخير صار طويلاً، بسبب أعداد الموتى، التمسوا ممن هم أدنى منهم رتبة وكذلك من رؤسائهم مهاجمة المدينة، ولدى قيام تلك الحشود الهائلة من الجنود بالزحف ضد المدينة، جاء ذلك الزحف فوق جسر كان قد بني فوق نهر الرون، فتدمر الجسر، إما من قبل سكان المدينة، أو بسبب ثقل الجنود الذين كانوا يقاتلون هناك،وقد غرق ثلاثة آلاف رجل في مجرى النهر السريع، ووقتها تصاعدت أصوات سرور من سكان المدينة، لكن ذلك أزعج الفرنسيين، وسيطر الاضطراب والقلق على الجيش الفرنسي، وكان سكان المدينة يترقبون فرصتهم، ولذلك أقلعوا بغارة شعواء من المدينة، وبقوة كبيرة، وجاء ذلك في أحد الأيام عندما كان الفرنسيون قد جلسوا وراء المائدة يأكلون ويشربون، ثم إنهم عادوا إلى المدينة دون المعاناة من خسارة بينهم أنفسهم، وقام سكان المدينة هؤلاء بغارات متواصلة ضدهم، وكان الملك الفرنسي يائساً، وقد أمر برمي جثث القتلى في نهر

الرون، من أجل تجنب روائح النتانة، لأنه بسبب كثرة عدد جثث القتلى لم يتوفر لديهم مكان آخر للدفن، ثم إنهم عملوا خندقاً عميقاً بينهم وبين المدينة، وتمت متابعة أعمال الحصار من على مسافة كبيرة عن المدينة، ولم يتوفر لدى النائب البابوي وحشد الأساقفة في ذلك الحين، من وسائل العقوبة غير انزال عقوبة الحرمان الكنسي بكونت طولوز، وبسكان المدينة، وبجميع سكان المنطقة.

وفاة الملك الفرنسي لويس

وقام في هذه الآونة الملك الفرنسي لويس، من أجل النجاة من الطاعون الذي كان يحدث دماراً هائلاً في المعسكر، باللجوء إلى دير اسمه مونتبنسير Montpensier ، على مقربة من البلدة المحاصرة، لينتظر سقوط المدينة، ووصل إليه إلى ذلك المكان كونت شامبين، وكان قد أمضى أربعين يوماً في الحصار، ووفقاً للعادة الفرنسية، طلب الإذن بالسماح بالعودة إلى الوطن، لكن الملك رفض السماح له، فقال بأنه خدم الأربعين يوماً المتوجبين عليه، وهو ليس مفروضاً عليه البقاء أكثر، ثم إنه لن يبقى أية مدة أطول، وثار غضب الملك، وأعلن مقسماً بأنه إذا ماغادر الكونت، سوف يعيث فساداً في أراضيه بالسيف والنار، وكان الكونت -حسبما ذكرت بعض التقارير -واقعاً بالحب مع الملكة، فتدبر دس بعض السم إلى الملك، وتعجل بذلك، لأن الرغبة بالعودة قد استبدت به، وماعاد بإمكانه الانتظار أية مدة أطول، وقد قيل أنه بعدما غادر الكونت، وقع الملك مريضاً جداً، وسرى السم في عروقه، وأوصله إلى حافة الموت، هذا ويؤكد بعضهم أنه لم يمت بالسم بل بالاسهال الشديد، وعندما مات الملك أخفى النائب الروماني للكرسي الرسولي، الذي كان حاضراً أثناء الحصار، وكذلك الأساقفة الذين كانوا مستشاريه السريين، وكانوا أيضاً هناك، خبر موت الملك حتى تستسلم المدينة، لأنه لو رفع الحصار آنذاك،

لألقيت ملامة عظيمة عليهم، وبناء عليه تظاهر النائب البابوي ورجال الدين الذين كانوا هناك أثناء الحصار، بأن الملك محبوس بسبب مرض شديد، وقالوا بأن الأطباء يرون أنه سوف يتعافى على الفور، وبناء عليه حثوا قادة مختلف الوحدات على مهاجمة المدينة بكل مالديهم من قوة، وقد حفظوا جسد الملك بوساطة كميات كبيرة من الملح، ودفنوا أحشاءه في الدير، وقاموا بتغليف جسده بالشمع وبالكتان وبجلود الثيران، وحفظوه بعد ذلك في مكان أمين في الدير، ثم عاد النائب البابوي ورجال الدين إلى الحصار، وعندما وجد النائب البابوي أنهم لم يتقدموا بل كانوا يواجهون الاخفاق بشكل دائم، بسبب مختلف ألوان سوء الحظ، قام هذا النائب، بناء على نصيحة شيوخ المعسكر، فأرسل رسالة إلى داخل المدينة، وطلب من أهل المدينة ارسال اثني عشر شيخاً منها إليه بعد تسلمهم ضمانة وأمانا، وأن ينفذوا ذلك بأسرع وقت ممكن من أجل الاتفاق على السلام.

كيف تم الاستيلاء على أفينون من قبل الفرنسيين خيانة

وبعدما جرى تقديم رهائن إلى أهل المدينة ضمانة لوفد يأتي من عندهم، خرج من المدينة اثنى عشر رجلاً من سكانها لعقد مؤتمر مع النائب البابوي، وبعد نقاش طويل حول السلام، نصح أهل المدينة باخلاص أن يقوموا بتسليم أنفسهم، وبذلك يصونوا أنفسهم، وممتلكاتهم ومقتنياتهم، وامتيازاتهم إلى أقصى حد تمتعوا به في حياتهم، وعلى هذا رد الرسل بأنهم سوف لن يسلموا أنفسهم بأي شكل من الأشكال ليعيشوا تحت حكم الفرنسيين، الذين عانوا من عجرفتهم ورعونتهم القاسية في غالب الأحيان، وبعد نقاش طويل على الجانبين،طلب النائب البابوي الاذن له بالدخول الى المدينة مع رجال الدين الذين كانوا حاضرين، حتى يتفحصوا إيمان السكان،وأقسم بأنه أطال الحصار فقط من أجل تأمين النجاة والخلاص لأنفسهم،وأضاف

أيضـاً أن صرخـة الكفـر،التـي نالت القـوة في المدينة،قـدوصلت الى البـابا،ولذلك هو يرغب في معـرفة فيما إذا كـانوا يؤيدون هذه الصرخـة بأعمالهم، ووثق السكان هنا بوعـود المندوب البـابوي ، ولم تتوفـر لديهم شكوك بوجـود خيانة، وبعد تأديـة اليمين من على الجانبين حول الشرط المذكـور أعـلاه، أعطوا إلى المندوب البـابوي وإلى رجـال الدين الإذن بدخول المدينـة من دون الآخرين، وبصحبتهم، لكن كما جـرى الإعداد من قبل، قـام الفرنسيـون بشكل خياني، وخـارقين بشكل معيب لليمين الذي أداه المندوب البـابوي، فشقـوا طريقهم بالقـوة إلى داخل المدينة، وجعلوا من السكان أسرى، وبعـدمـا حصلوا هكذا بشكل خيـاني على النصر، دمـروا الأبراج والأسـوار الموجـودة في هذا المكان البهي، وقـام النائب البـابوي بعـد ذلك بـوضع المدينة تحت عهـدة الفـرنسيين، ورفع الحصـار، وأمـر بحمل جسـد الملك إلى باريس، وأن يتـولى ذلك الكهنة الذين كـانوا محتشـدين هنـاك، وذلك من أجل دفنه بين أجـداده، حسبما كانت العـادة مع الملوك، ولقد قـالوا بأن الملك قد مـات في شهر ايلول، وقد أخفوا نبأ موته لمدة شهر أو أكثر، وقد مات من بين الذين ذهبوا إلى الحصـار مع الملك اثنين وعشرين ألفـاً في ذلك المكان، بما في ذلك الذين قتلوا وغـرقـوا، وكـذلك الذين مـاتوا من الطـواعين، أو مـاتوا بشكل طبيعي، وبذلـك توفـر سبب عظيـم للبكاء عليهم وللحـزن من قبل أزواجهم وأولادهم، ومن هذا اتضح تماما بأن حرباً غير عادلة هي التي خيضت، كـانت دوافعهـا الحسـد والنهم أكثـر من الرغبـة في محق الهرطقة.

تتويج لويس ملكاً على فرنسا الذي هو ابن لويس الملك المتوفى

وبعد وفاة لويس الذي كان ملك فـرنسا، دعت زوجته السيدة الملكة بلانشي رؤساء الأساقفـة، والأساقفة، ورجال الدين الآخـرين العائدين لمختلف الكنائس، وكذلك النبلاء الذين يدينون بالولاء للتاج، للاجتماع

في باريس في الثـالث عشر من تشرين الثاني، من أجل تتـويج لويس ابن الملك لويس المتوفى، وطلبت جماعـة النبلاء الرئيسيون قبل اليـوم المحدد -تماشيـاً مع العــادة الفـرنسيـة -اطـلاق سراح جميع السجناء، وبشكل خاص فيراند كـونت فلاندرز، ورينالد كـونت أوف بولون، الذي أبقي في السجن -على الـرغم من امتيــازات المملكة -حتـى الآن اثني عشر عـامـاً، وطالب بعضهم -على كل حـال -بإعـادة أراضيهم إليهم، التي احتفظ بها لويس والد فيليب وجـدّ الملك الشاب، لمدة طويلة، وأبقـاها بحوزته بشكل غير عـادل، وأضافوا أيضاً أنه لايجوز حـرمان أي واحد في المملكة الفـرنسية من حقـوقه، مـالم يكن ذلك بقرار صـادر عن اثني عشر من نظرائـه، وينبغي أن لايعمل أحـد حرباً من دون اشعـار مسبق قبل سنة، وأعلنوا أنه فور تنفيذ هذه الاصلاحات، فإنهم سوف يقدمون من دون تأخير إلى التتويج، وخشيت الملكة أن التأخير قد يسبب خطراً، ولذلك قـامت بناء على نصيحة النائـب البابوي، باستـدعاء رجـال دين المملكة، مع قليل من النبلاء أمكنها جمعهم، وفي يوم عيد القديس أندرو الرسول، تدبرت أمر تتويج ابنها ملكاً، مع أنه كان طفلاً لم يبلغ العاشرة من عمـره، وغيب دوق بيرغندي نفسه، ولم يحضر التتـويج، ومثل ذلك فعل كونت شـامبين، وكونت دي بار، وكونـت سينت بولص، وكونت دي بريتاني، وتقريباً جميع النبلاء المتوجب عليهم طاعة التاج، واستعدوا للقتال أكثر من استعدادهـم للسلام والتابعية الحسنة.

ولدى سماع الملك الانكليـزي بهذه الخلافـات بين النبـلاء المتقــدم ذكرهم، بعث وولتر رئيس أساقفة يورك والفارس فيليب دي ألبيني إلى مقاطعات ماوراء البحر، مع رسل آخرين خاصين، إلى نبلاء نورماندي، وأنجو، وبريتاني، وبواتو، الذين كانوا مرتبطين بولاء التابعية له، وطلب القبـول بينهم، وقدم إليهم بالوقت نفســه وعوداً كبيرةً، إذا مـا استقبلوه باخلاص جيد.

موت فالكاسيوس ونبوءة منذرة بتلك الحادثة

وأنهى في هذا العام نفسه فالكاسيوس حياته الشريرة في سينت سير Cyr ، وجاء ذلك بعد نفيه من انكلترا، وأثناء عودته إلى هناك بعدما رتب الأمور في بلاط روما، وكان هذا اللص الظالم فالكاسيوس، قد قام أثناء حياته، بنهب بلدة سينت ألبان بشكل وحشي، وقتل بعض السكان، وسجن البقية، واستخرج مبلغا كبيراً من المال من راعي الدير، وكذلك من البلدة، وذلك من أجل ابقاء الدير، والبيعة، والبلدة، والحيلولة دون إحراقهم من قبله، وكان قد حدث بعد هذا أن ذهب إلى سينت ألبان ثانية ليلتقي مع باندولف أسقف نورويك، وسأله هذا الأسقف لدى رؤيته له، على مسمع من راعي الدير نفسه وعدد كبير آخر، عما إذا كان قد أساء إلى القديس ألبان بأية طريقة من الطرق، فأجابه فالكاسيوس بأنه لم يقترف شيئاً من هذا القبيل، وهنا أضاف الأسقف قائلاً: «لقد سألتك هذا السؤال، بسبب أنني رأيت في إحدى الليالي الأخيرة، عندما كنت نائماً على حشيتي، في المنام في كنيسة القديس ألبان، نفسي واقفاً أمام المذبح الكبير، ولدى التفاتي بعدما قدمت صلاتي، رأيتك واقفاً في سدة الرهبان، ولدى نظري نحو الأعلى، رأيت حجرة كبيرة وثقيلة تسقط من البرج على رأسك بقوة شديدة، وبذلك سحق جسدك كله ورأسك، واختفيت فجأة، وكأنك قد غرقت في الأرض، ولهذا إني أنصحك، إذا ماكنت قد قدمت أدنى اساءة إلى الشهيد، أن تقوم بتكفير صحيح له ولأتباعه، قبل أن تسقط الحجر على رأسك»، ولكن حدث أن هذا التعيس عندما طلب فيها بعد المسامحة من راعي الدير ومن الرهبان بسبب آثامه، أعلن بوضوح، بأنه سوف لن يعيد أياً من المقتنيات التي استولى عليها، وعلى هذا بات واضحاً أن التوبة التي عملها كانت من دون تأثير لأن: «الذنب لايجري العفو عنه وغفرانه مالم تتم إعادة الممتلكات المسروقة»، كما أنه شعر بسقوط الحجر

على رأسه، عندما حدث بعد ذلك بوقت قصير في بدفورد حيث جرى شنق أخيه مع رفاقه، وهو نفسه أرسل إلى المنفى رجلاً فقيراً، وقد أنهى الآن حياته بميتة تعيسة.

ومات في العام نفسه الأسقف بندكت أسقف روكستر، وباندولف أسقف نورويك، وخلف باندولف توماس دي بلندفيل Blundeville، وكان محاسباً لخزينة الملك، وقد جرى تكريسه من قبل ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك يوم الأحد التالي قبل عيد الميلاد.

استخراج الملك الانكليزي للمال

عام ١٢٢٧م، فيه احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في ردنغ، وفي اسبوع الميلاد نفسه مات وليم ايرل اسكس مما سبب الحزن للكثيرين، لأنه كان شاباً، وكان محبوباً وكريماً، ثم ذهب الملك إلى لندن، واتهم سكان المدينة، أنهم سببوا له الخسارة، عندما دفعوا خمسة آلاف مارك من الفضة، إلى لويس، الملك الفرنسي الذي توفي مؤخراً، وكان ذلك أثناء مغادرته لانكلترا، ولذلك قام الملك بناء على نصيحة مستشاريه مسببي الاضطرابات، بإرغام سكان المدينة على دفع مبلغ مماثل له، وعلاوة على ذلك أخذ منهم الجزء من الخمسة عشر جزءاً من ممتلكاتهم المتحركة، وكذلك من جميع مقتنياتهم الأساسية، وكان هذا الشيء نفسه قد منح إليه من قبل في جميع أرجاء انكلترا، ولقد أخذ أيضاً من سكان بيتربورا Peter borough ونورثأمبريان Northumbrians ألفاً ومائتي باوند، وذلك بالاضافة إلى الجزء من الخمسة عشر جزئا، الذي دفعه الجميع في جميع أنحاء المملكة بشكل عام، ولقد جرى إرغام حتى رجال الدين والكهنة ذوي الموارد على دفع الجزء من الخمسة عشر جزئاً من جميع مقتنياتهم، وكذلك من الممتلكات اللاهوتية والعلمانية، وجاء تقديم

التماس إلى البابا بلا فائدة، لأن نظم الأشياء والأمور، قد جرى تغييرها، وكذلك لحق التغيير رؤساء الأساقفة والأساقفة بموجب سلطات البابا، وتقريع الكنيسة، فقد أرغم هؤلاء على أن يدفعوا ما لاترغمهم السلطة العلمانية عليه، وهكذا حرموا من كل سبل التفريج.

كيف ألغى الملك صكوك الامتيازات في مجمع عقد في اكسفورد

وعقد الملك في شهر شباط من العام نفسه مجمعاً في اكسفورد، وقام أمام جميع الحضور باعلان نفسه بأنه قد وصل إلى السن القانوني، حتى يتحرر من الوصاية، ولكي يتسلم ممارسة شؤون المملكة والقيام بواجباتها، وهكذا تولى الملك الذي كان من قبل تلميذاً لوليم مارشال وتحت وصايته أثناء حياته، ثم بعد موته تحت وصاية بطرس أسقف وينكستر، تحرير نفسه تحريراً تاماً، بناء على نصيحة هيوبرت دي بورغ، المسؤول عن العدالة في انكلترا، من جميع آراء وقيود الأسقف المذكور ورفاقه الذين كانوا من قبل أساتذته، وصرفهم جميعاً من بلاطه، وقطع علاقاتهم كلها به، وقام الملك المذكور في المجمع نفسه أيضاً بإزالة جميع صكوك امتيازات الغابات في جميع كونتيات انكلترا، وذلك بعدما كانوا موضع التطبيق في جميع أنحاء انكلترا لمدة عامين، وأعطى سبباً علل فيه ذلك بأن تلك الصكوك قد منحت، وجرت كتابة الامتيازات، والتوقيع عليها، عندما كان تحت الوصاية، وليس لديه سلطة في ذاته أو في ختمه، وبما أنها اغتصاب غير معقول، لم يعد من المعقول استمرارها لعدم فائدتها، وبناء على هذا ثار عدد كبير بين الذين كانوا في المؤتمر، وقرروا جميعاً بأن هذا الظلم كان مقترفه المسؤول عن العدالة، وأنه هو صانع هذا الاضطراب، لأنه صار بعد ذلك مقرباً كثيراً من الملك، حتى بات جميع مستشاري المملكة وكأنهم بلاقيمة، ثم صدرت الأوامر إلى رجال الدين وإلى الآخرين، الذين كان بودهم التمتع بامتيازاتهم، أن يقوموا بتجديد صكوكهم تحت الختم الجديد للملك، لأنهم علموا بأنه بات

يرى بأن الصكوك القديمة باتت غير فاعلة، ولهذا جرى فرض ضرائب جديدة ليس وفقا لامكانات كل واحد منهم، بل إنهم أرغموا على دفع كل الذي قرره المسؤول عن العدالة وفرضه.

كيف عاد رسل الملك الذين بعثهم إلى فرنسا من دون تحقيق غرضهم

ومات في العام نفسه البابا هونوريوس في الثامن عشر من آذار، وقد خلفه غريغوري أسقف أوستيا، وفي العام نفسه، في حوالي عيد الفصح، عاد رئيس أساقفة يورك، وأسقف كارآيل، وفيليب دي ألبيني، وهم رسل الملك، من القارة، وكانوا قد أرسلوا إلى نبلاء تلك المناطق، التي كانت بموجب الحقوق القديمة تدين بالطاعة إلى ملك انكلترا، وكانوا قد أمروا من قبل الملك بمحاولة إقناعهم بحديث لطيف، وبوعود كبيرة لاستقبال الملك المذكور، وللاعتراف به بمثابة سيدهم الطبيعي، ولكن حتى لانطيل الحديث من دون فائدة، كان الملك الفرنسي، قد عمل سلاماً مع البارونات وتلقى الولاء منهم، وجاء ذلك بناء على تدخل أمه، وبعدما وزع بينهم بكرم زائد الأراضي والقلاع من الممتلكات الملكية، وهكذا اتخذ أصدقاء من «خلال الجشع غير العادل»، وكان هذا كله قد حدث، قبل وصول رسل الملك إلى تلك المناطق، وطلب الرسل المتقدم ذكرهم من كونت بريتاني إعطاء ابنته لتكون زوجة للملك الانكليزي، فرد بأنه قد عمل معاهدة سلام مع ملك فرنسا، وهو لن يقوم بخرقها بأي حال من الأحوال، ولذلك عاد الرسل، وأخبروا الملك بالذي عملوه، وفي شهر أيار من العام نفسه، وصل رتشارد أخو الملك إلى انكلترا، واستقبل بكثير من السرور من قبل الملك والنبلاء، وفي حوالي الوقت نفسه تلقى هنري دي سانفورت Sanfort، رئيس شمامسة شيستر، الذي جرى انتخابه بشكل قانوني أسقفاً لوركستر، السيامة والتكريس على يدي ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وفي

الخامس من شباط من العـام نفسه، جرى تقديم هيـوبرت المسؤول عن العدالة في انكلترا مع سيف كونتيه كنت، من قبل الملك.

كيف ثار البارونات ضد الملك

في التـاسع من تموز من العـام نفسـه، نشب خـلاف بين ملك انكلترا وبين أخيـه رتشارد إيرل أوف كـورنوول، وكـان سببه هو كمايلي: كـان الملك جـون، والد الملك الحالي، قـد منح أثناء حيـاته إلى فـاليران، وهو ألماني، كان آنذاك قسطلان بيركها مستد، إحدى العزب العائدة إلى ايرلية كـورنوول، ولدى سماع الايرل رتشـارد الذي كـان قـد وصل منذ أمـد وجيز من القارة، بأن العزبة عائدة إلى ايرليته، أمر بالاستيلاء على البلدة لصـالحة، حتى يتمكن من معرفـة مـا التي كانتـه حقـوق فاليران فيهـا، وعندمـا سمع فـاليران بهذا قـدم مسرعـاً كل السرعـة إلى الملك، وقـدم شكوى ضد أخيـه رتشارد، وبناء عليه أرسل الملك رسـائل إلى أخيه أن يقـوم فـور تسلمهم بإعـادة العـزبة إلى فـاليران، وعندمـا قـرأ رتشـارد الرسـائل بادر مسرعـاً إلى الملك، وترافع من دون وجـود محامي، بشكل بارع ومنطقي بأن العـزبة عـائـدة له وحق له، ولذلك هو على استعـداد للالتـزام بقـرار محكمـة بلاط الملك وقـرار نبـلاء المملكة، ولقـد غضب الملك غضباً كبيراً وشـاركه في ذلك المسـؤول عن العدالة، لدى سماعهما ذكره للنبـلاء، وأمر الملك أخـاه بلهجة ملكيـة قاسيـة وبطيش، أن يقوم على الفـور بتسليم العزبة إلى فـاليران، أو أن يغادر المملكة وأن لايعـود مطلقـاً، وعلى هذا رد الايرل قائـلاً بأنه لن يتخلى عن حقه إلى فـاليران، كما أنه لن يغادر المملكة، من دون قـرار صادر عن نظرائه، ومـا أن فرغ من كلامـه هذا حتى غادر وقصد بيته، وخشي المسـؤول عن العدالة أن يعكر الايـرل السـلام في المملكـة، فنصح الملك -كما قيل - أن يـرسل بعض الفرسان لاعتقـال أخيه أثناء نومه في الليلة التـالية، وأن يودعه في سجن مضيق عليه، وبذلك يمكن للملك أن يتمتع بسلام دائم، وجرى

-على كل حال - إنذار رتشارد مسبقاً من قبل صديق له، فبادر مسرعاً مع فارس واحد برفقته، ولم يتوقف ويرخي عنان حصانه حتى وصل إلى ردنغ، ولحقت به عساكره في الصباح، وقد وجدوا مولاهم سالماً ومعافى في مكان كان متفقا عليه معهم، ثم أخذ الايرل طريقه نحو مارلبورا، والتقى في ذلك المكان بوليم مارشال، الذي كان صديقه، وحليفه المتعاهد معه، وقد أخبره بكل الذي حدث معه، وعندها ذهب الاثنان إلى ايرل شيستر، وحدثاه تماما عما حدث من وقائع، ثم أقسموا أن يكونوا أوفياء أحدهم نحو الآخر، وأرسلوا رسائل إلى الخارج فحشدوا جيشاً كبيراً، وخلال وقت قصير اجتمع في ستامفورد الايرلات مجهزين بالخيول، ومزودين بالسلاح، وهم: رالف أوف شيستر، ووليم مارشال، ورتشارد أخو الملك، وغيلبرت أوف غلوستر، ووليم أوف وارين Warrenne وهنري أوف هيرفورد، ووليم ايرل فيرير Ferrers، ووليم أوف وورويك Warwick وذلك إلى جانب عدد كبير من البارونات، وكتلة كبيرة من الجنود، ثم إنهم وجهوا إنذاراً شديداً إلى الملك، بوجوب أن يقوم على الفور باصلاح الخطأ الذي اقترفه بحق أخيه، لكنهم لم يضعوا الملامة حول هذا على الملك، بل على المسؤول عن العدالة، وعلاوة على ذلك طالبوا بجرأة أن يقوم الملك من دون تأخير، فيعيد إليهم تحت ختمه صكوك الامتيازات المتعلقة بالغابات التي قام مؤخراً بالغائها في اكسفورد، وإلاّ فإنهم سوف يرغمونه بقوة السلاح على إعطائهم ترضية كافية حول هذه القضايا،ولدى تسلم الملك لهذه الرسالة، أمرهم بالالتقاء به في نورثأمبتون في الثالث من آب، حتى يتمكن وقتها من منحهم عدالة مناسبة، وبناء عليه اجتمع الفرقاء في المدينة المذكورة أعلاه في الموعد المحدد، وقام الملك، بناء على طلب مستعجل من النبلاء، بأعطاء أخيه، الايرل رتشارد بائنة أمه كلها، مضافاً إليها جميع الأراضي العائدة إلى ملكية كونت بريتاني في انكلترا، وجميع ممتلكات كونت بولون الذي

توفي مؤخراً، وبعد هذا عاد الجميع بسلام إلى مواطنهم.

وفي العام نفسه، كان هناك ناسك يسكن في الألب وراء البحر، يقوم كما هي عادته فيقرأ في مزاميره، ولدى وصوله إلى المزمور الذي بدايته «ليقم الرب»، وجد ذلك المزمور محذوفاً، ووجد مكانه قد كتبت هذه الكلمات: «روماني سوف يثور ضد روماني، وروماني سوف يوضع مكان روماني، وعصي الرعاة سوف تضيء، ولسوف يكون هناك هدوء في راحة، ولسوف يتعكر صفو الساهر، وسوف يصلي، وسوف يكون في دموع الحشد راحة، وسوف يلعب القانوني مع المجنون، ولسوف تبرد الحمى المطفأة، وسوف يزحف قطيع جديد إلى القبر، والذين يتولون التنظيف بالأحراش سوف يتغذون بغذاء خفيف، وسوف تعاق ثقة المواسين وراحتهم في التأمين الذي عليه يعتمدون، والذين يسيرون في الظلام سوف يعودون إلى الضوء، والأشياء التي كانت مختلفة سوف تلقى المواساة بأشياء مختلفة، وما من سحابة صغيرة سوف تبدأ بالامطار، لأن مغير العمر قد ولد، وسوف تثور الحظوة ضد البساطة، والبساطة سوف تنفث وهناً، وسوف يتحول الشرف إلى لاشرف، وسرور الكثيرين إلى حزن»، ولسوف يظهر تأويل هذه النبوءة في الأحداث التالية واضحاً أكثر من الضوء، إذا ما جرى البحث فيها بدقة.

كيف جرت إثارة كبيرة في هذه الآونة للمساعدة في الصليبية

جرت في العام نفسه، في نهاية حزيران إثارة حركة كبيرة لمساعدة الصليب من قبل جميع الصليبيين في جميع أرجاء العالم، وكانت أعدادهم كبيرة جداً، حتى قيل بأن أربعين ألفاً من الرجال المجربين من انكلترا وحدها قد زحفوا وإلى جانبهم النساء والشيوخ، وقد أعلن عن هذا المعلم هيوبرت، الذين كان واحداً من المبشرين في انكلترا، وقد أكد أنه في الحقيقة قد دوّن في سجله قدر هذا العدد، وجميع هؤلاء، ولاسيما

الفقـراء الذين عليهم تنزل البهجـة اللاهوتيـه، قـد دخلوا للقيـام بهذه الصليبية بتقوى عـالية وايمان عظيم حتى أنهم قد حصلوا من دون شك على الحظوة والرضـا عند الرب القدير، كما ظهـر ذلك واضحاً في كثير من الاشـارات، ففي ليلة ميـلاد القديس يوحنـا المعمدان، أظهـر الرب نفسه في السماء، مثلما عندمـا صلب، فقد ظهـر صليب مشع كثيراً وعليه جسـد الرب مخروق بالمسامير، ومطعـون بالحربة، وملطخ بالدم، وهكذا أظهر مخلص العـالم بهذا إلى أتباعـه المخلصين في الدنيا، بأنه كـان راضياً بوساطة إيمان شعبـه، ورأى هذا المشهد عـدد كبير من الناس، وكان من بينهم تاجر، كـان يحمل سمكاً للبيع قرب أوكسبردج Uxbridge، فقد أصيب بالدهشة تجاه ذلك المشهـد الغريب، وخاف من لمعـانه، وقد قيل بأنه غـرق في الوجد، ووقف في حـالة دهشة، غير عـارف مالذي عليـه فعله، وكان ابنه رفيقه الوحيد قـد طمأن والده، وسأله أن يوقف عربته، ويقـدم الشكر للرب الذي تلطف بـأن أراهما مثل هذه الرؤيا، وقـام في اليوم التالي - لا بالواقع في كل يوم فيما بعـد عند عرض أسماكه للبيع - بإخبـار كل واحـد بشكل علنـي عن الرؤيا السماوية التـي شـاهدها، وأضاف ابنه شـاهداً عليه وصـدق كثيرون هذه الحكاية، لكن بعضهم لم يصدقـوها حتى اقتنعوا بتصديقها، بوسـاطة الرؤى الكثيرة التي ظهرت في الوقت نفسـه لكثير من النـاس في أمـاكن مختلفـة، ففي هذه الحالات طلب المصلوب بفتح السماء ليري المتشككين مجده الرائـع، ببهـاء عظيم، وكان بين الذين ذهبوا من انكلترا للالتحاق بالحملة الصليبية الأسقفان: بطرس أوف وينكستر، ووليم أوف ايكستر، اللذان وفيـا بعهدهما بالحج منذ قرابة خمسة أعوام.

تطور أحوال الحملة الصليبية في هذه الآونة

سـوف تظهـر تطور شـؤون الصليب في هذه الحملة الصليبيـة بشكل واضح في الرسالة التـالية التي بعث بها البابا غريغـوري إلى جميع الأتباع

المؤمنين للمسيح: «من غـريغوري الأسقـف، عبد عبيـد الرب، إلى جميع المؤمنين المسيحيين، التحيـات، الخ، ليكن معلومـاً لدى جماعتكم كلهـا بأننا قـد تسلمنا رسـائل من بلاد ماوراء البحـر محتـواها هو كمايلي: من جيرالد الـذي هو برحمة الـرب بطريرك القـــدس، ومن ب .P رئيس أساقفـة قيسارية،، الذي هو النائب الحقير والمتـواضع للكرسي الرسولي، ومن ن.N رئيس أسـاقفــة نربونة، ومن ب. P أسقف أوف وينكستر، ومن و. Wأسقف أوف ايكستر، ومن مقـدمي الاسبتـارية، ومقــدمي فـرسـان الداوية، ومن طائفـة اسبتـارية التيـوتون، إلى جميع من سـوف تصلهم هذه الرسـائل، تمنيـات الصحـة في مـولانا يسـوع المسيح، نحن مرغمون على اخبـار جماعتكم كلها عن حاجاتنا الأكثـر إلحاحا وعجلة، وعن تقدمنا في العمل في سبيل قضية مـولانا يسوع المسيح، الذي سفك دمــــه من أجـل جميع المؤمنين الصـــادقين، وإنـه مع كثير مـن القلق والانزعـــاج في العقل، ومع سفح للكثير مـن الدمـوع، تعلمـــون أن صـاحب المقـام السامي، الامبراطـور لم يقدم إلى سـورية، كما كنا جميعـاً نأمل بوصـوله في شهر آب المنصرم، كما كـان قد وعد، ونتيجـة لهذا فإن الحجــاج من تلك المناطق، عندمـا سمعــوا بأن الامبراطور لم يصل في العبور المتقدم، وكان تعدادهـم أكثر من أربعين ألفاً من الرجال الأشداء، عـادوا في السفن نفسها، كما جـاءوا، واضعين ثقتهم في انسـان بدلاً من وضعها في الرب، وبعد مغادرتهم، قد بقي هنا قرابة الثمانمائة فارس، هم الذين مابرحوا يصرخون بصوت واحد: «دعونا إما أن نخرق الهدنة، أو اتركونا نغـادر مع بعضنا»، وهـم قد أبقيـوا هنا ليس من دون صعوبات كبيرة، لأن دوق أوف ليمبـورغ Limburg، وهو رجل من أصل نبيل، قد جـرى تعيينه قائـداً للجيش، في مكان الامبراطور، وجـرى لهذا عقد مـؤتمر ضم بشكل خـاص: الاسبتـارية، والداوية، والاسبتـارية الألمان، وفيه تم الاتفاق على أن يقـوم الدوق المتقدم الذكر بالعمل حسبما يكون الأفضل لصالح المسألة الصليبيـة والأرض المقدسة، ثم إن الدوق سأل،

وتلقى النصيحة حول النقاط التالية، وظهر في اليوم المحدد بشكل خاص من أجل القضية المعروضة، أمامنا وأمام نبلاء تلك البلاد، وهناك أعلن بشكل واضح بأنه يرغب في خرق الهدنة، وسأل المساعدة والنصيحة من الحضور حول كيف يمكنه السير بشكل هو الأكثر منفعة في سبيل تنفيذ تلك النية، وعندما جرى إخبار الدوق ومستشاريه أنه سوف يكون من الخطورة بمكان خرق الهدنة، ولأنها مؤكدة بالأيمان، سوف يكون ذلك غير مشرف أيضاً، أجابوا بأن صاحب القداسة البابا قد حرم كنسيا جميع الصليبيين الذين لن يلتحقوا بهذه الحملة الصليبية، مع أنه يعلم بأن الهدنة ينبغي أن تستمر لمدة عامين أكثر، وبهذا فهموا بأنه لم يرغب بالحفاظ على هذه الهدنة، وبالاضافة إلى هذا لن يبقي الحجاج هنا من دون عمل، وكان هناك أيضاً كثير من الناس قد قالوا بأنه ما أن يغادر الحجاج، حتى سيقوم المسلمون بعد مغادرتهم بمهاجمتهم، دون إقامة تقدير للهدنة، وقال بعضهم بأن الملك الأشرف مشغول بحرب شديدة مع حكام حماه، وحمص، وحلب، ولهذا السبب كان خائفاً أكثر مما هو معتاد من قيام الصليبيين بخرق الهدنة، وإذا ماجرى خرق الهدنة، اعتقدوا بأن الملك الأشرف، عندما سيجد نفسه معرضاً للضغط عليه بالحرب من جميع الجهات، ربما سيقدم شروطاً للسلام، وأخيراً، وبعد مناقشات طويلة حول هذه القضايا، وافقوا كلهم بالاجماع على الزحف إلى المدينة المقدسة، التي كرسها يسوع المسيح بدمه شخصيا، ولكي يكون الوصول إليها سهلاً، تقرر بالاجماع القيام بالمقام الأول بتحصين قيسارية أولاً ثم يافا، الأمر الذي أملوا أن يكونوا قادرين على انجازه قبل العبور الذي سيكون في آب المقبل، وعندها سوف يكونون في الشتاء المقبل قادرين بسرور على الانطلاق نحو بيت الرب، تحت حمايته، وجرى الاعلان عن هذا القرار خارج مدينة عكا، في يوم عيد الرسولين سمعان وجود،وجاء ذلك بحضور جميع الحجاج، وهناك أمروا بشكل صارم ووقور أن يكونوا جاهزين في

اليوم التالي ليوم عيد جميع القـديسين، للانطلاق نحو قيسارية، وبالنسبة للحجاج الذين لم يعرفـوا الخطة التي قررها الجيش، لدى سماعهم بهذا، بعد تحصين القلعتين المتقدم ذكرهما، تملكتهم فجأة رغبة عظيمة بالزحف نحـو القـدس، حتـى أنهم بكوا بكاء كثيراً، وشعـروا بأنهم تمتنوا كثيراً بفضل نعمة الروح القدس، حتى أن كل واحد منهم شعر بأنه قادر على غلبـة ألـف من الأعـداء، وأن اثنين يمكنهما قهـر عشرة آلاف، ولذلك نحن لسنا بحـاجــة إلى استخـدام كثير من المثيرات لحثكم وتحريضكم، لأن هذه الضرورات الملحـة تتحـدث عن نفسهـا، وتطالب بمسـاعـدة فورية، لأن التـأخير يجلب الخطر، والسرعة سوف تكـون منتجة لأعظم المنافع، ويدعو دم المسيح من هذه البـلاد كل واحد منكم، وهذا الجيش الصغير والمتـواضع، لكن التقي، يلتمـس منكم مسـاعـدة سريعـة، وهو يضع أمله وثقتـه بالرب، بأن هذا العمل الـذي بدأ بكل تواضع، يمكن أن ينتهي بفضله نهاية سعيدة، وبناء عليه حثوا أنفسكم جميعا، وليقم كل واحد منكم ببذل غاية جهده لمسـاعدة الأرض المقدسة، لأن هذا يمكن عدّه القضية العامة لكم كمؤمنين ولجميع الشعب المسيحي، ونحن تحت عناية الرب وتوجيهـه لن نتوقف عن رفع شأن هذه القضيـة، آملين بثقة بأنها سوف تتقدم على أيدي المؤمنين المحفـوظين بثقة. صدر في اللاتيران في الثالث والعشرين من كانون الأول من السنة الأولى لبابويتنا».

كيف أعيقت الحملة الصليبية من خلال غياب الامبراطور

وفي الوقت نفسـه عزم الامبراطور فردريك، الـذي كان مع صليبيين آخـرين تحت عقوبة الحرمـان الكنسي من قبل البـابا منذ العبور المتقـدم الذكـر، على الوفـاء بعهـده والقيـام بـالحج، ولذلك ذهب نحـو البحـر المتوسط، وأقلع مع حاشية صغيرة، وبعـد التظاهر بالتوجه نحو الأرض المقدسة لمدة ثلاثة أيام، قال بأنه أصيب بمرض مفاجىء، ولذلك لم يعد بامكانه المخـاطرة بحيـاته، ولا أن يتحمل قسـاوة البحـر، والمناخ غير

الصحي، ولذلك غير اتجاهه،، وبعد ابحـار ثلاثة أيام، عاد وتوقف عند الميناء الذي أقلع منه، وعلى هذا فإن الحجـاج من مختلف أجـزاء العـالم، الذين كانوا قد ذهبوا إلى الأرض المقدسـة، على أمل اتخاذه قائداً وحامياً في القتـال ضـد أعـداء الصليب، قـد أصيبـوا بالرعب والاحبـاط لدى سماعهم بأن الامبراطور ليس قـادمـاً في عبـور آب كما كـان قـد وعـد، ولذلك ركبـوا السفن التي جـاءوا بها إلى الأرض المقـدسة، وعـادوا إلى الوطن، وكـان تعـدادهـم حـوالي الأربعين ألف رجل مسلح، وأدى هذا التصرف من قبل الامبراطور إلى الاساءة إلى سمعته كثيراً، وإلى الإضرار بجميع شـؤون الحملة الصليبيـة، وإنه بسبـب هذا الذي حـدث -برأي كثيرين -أظهر مخلص العالم نفسه، كما تحدثنا أعـلاه، فقد أظهر نفسه إلى المسيحيين، وهو معلق على الصليـب، مخروق بالمسـامير، وملطـخ بالدم، وكأنه كان متقدما بالشكوى إلى كل مسيحي، حول الأذى الذي لحق به من الامبراطور.

موت الراهب الذي أسس طائفة الفرنسيسكان

وفـارق الحيـاة في رومـا في هـذه الآونة، راهب من طائفـة رهبـان الفـرنسيسكان، اسمـه فـرنسيس، وقـد قيل بأنه كـان هو المؤسس لتلك الطائفة ومقـدمها، وكان فـرنسيس المذكور متميزاً بأصـالة مولده ونبله، وقـد شرع منذ أيام طفـولتـه يفكـر مليـا حـول الأشيـاء الجاذبة في هذه الحياة، وحول عدم استقـرار الأشياء الدنيوية، وقدر بشكل دائم كم هي فـارغـة الأشيـاء الدنيـوية كلهـا وزائلة، لأنه تعلم مـن الكتب ومن الدراسات اللاهوتية، التي تابعهـا وتولاها منذ صغره، حتى حصل على معلومات كاملة منهـا، والذي تعلمه هو ازدراء كنز كل ما هو زائل من أشياء، وأن يسعى لاهثاً وراء ملكوت السماء، ولكـي يتماشى مع ماقرره في عقله تمامـا، تخلى عن الميراث الواسع الـذي وصله من أبويـه، وعن جميع مباهج الحياة، ولبس قلنسوة راهب وثوباً من المسوح، وألقى نعليه

جانباً، وأمات جسده بالسهر والصوم، واختار الفقر التطوعي، وقرر أن لايمتلك شيئاً لنفسه، ولكي يبقي جسده تناول ماتلقاه من الآخرين عن طريق الصدقة، وكان بعد المشاركة في وجبة خفيفة، إذا مابقي شيء، لم يكن يحتفظ بشيء من أجل الغد، بل كان يعطي ذلك إلى الفقراء، وكان ينام بثيابه في الليل، وكانت لديه حصير لينام عليها، وحجرة اتخذها وساده، واستخدم غطاء أثناء الليل القلنسوة والرداء الذي كان يسير به أثناء النهار، ووفق هذه الحالة كان يسير حافياً، تماشياً مع الانجيل، وباعتناقه حياة رسول ، قام بواجبات الوعظ في أيام الآحاد وفي أيام الأعياد في الكنائس الأبرشية، وفي التجمعات الأخرى للمسيحيين، وكان كلما ازداد بالامتناع عن ارضاء رغبات الجسد، وعن الحياة الطيبة، كلما ازداد تأثيره على عقول المستمعين إليه، ولكي يضع مقاصده كلها موضع التنفيذ، قام رجل الرب فرانسيس هذا، فأودع كتابة جميع المبادىء التي تقدم ذكرها أعلاه، مع بعض من الآخرين، وقد جرت مراعاتها بدقة متناهية من قبل رهبان تلك الطائفة حتى الوقت الحالي، وقد قدمهم إلى البابا انوسنت، عندما كان جالساً في محكمة بلاط روما، وسأل في الوقت نفسه تثبيت التماسه من قبل الكرسي الرسولي.

كيف ثبت البابا الطائفة المتقدم ذكرها بامتياز

وحدق البابا وثبت نظره على سحنة الراهب المذكور الشاحب، وعلى مظهره الحزين، وعلى لحيته الطويلة وعلى شعره غير المقصوص، والقذر، والمتدلي فوق جبينه، وبعدما سمع قراءة التماسه الذي كان صعباً، ولايمكن تطبيقه، ازدراه وقال له:

«إمض أيها الراهب، اذهب إلى الخنازير، الذين أنت أكثر مواءمة للمقارنة بهم من الناس، وأن تدرج بينهم، وأن تبشر بينهم بالأحكام التي استطعت أن تعرضها»، ولدى سماع فرانسيس هذا، طأطأ رأسه، ومضى، ولدى رؤيته لبعض الخنازير اندرج بينهم بالوحل حتى غطى

جسده وثيابه بالأوساخ من رأسه إلى قدميه، ثم عاد إلى محكمة البلاط، وعرض نفسه أمام البابا، وقال:

«لقد فعلت يامولاي الذي أمرتني به، أرجوك امنحني الذي التمسته منك»، واعترت البابا الدهشة لدى رؤيته للذي فعله، وشعر بالأسف لأنه عامله بازدراء، فأصدر بالوقت نفسه أوامره بوجوب غسل نفسه، والعودة إليه ثانية، وبناء عليه نظف نفسه من أوساخه وعاد مباشرة إلى البابا، وانفعل البابا كثيراً، وعندما وافق على التماسه، وبعدما ثبت تعيينه للتبشير وثبت أيضاً الطائفة التي طالب بتأسيسها، بامتياز من كنيسة روما، صرفه مع المباركة، وبنى عبد الرب فرانسيس هذا مصلى في مدينة روما، حيث يمكنه أن يجني ثمار تأملاته، ومثله مثل مقاتل نبيل، انشغل في المعركة ضد الأرواح الشريرة، وضد الآثام الجنسية.

وعظ الراهب المتقدم ذكره وموته الرائع

ثم إن فرانسيس أدى واجباته بتقوى، وذلك بالوعظ في جميع أرجاء ايطاليا، وممالك أخرى، وخاصة في مدينة روما، لكن الشعب الروماني، أعداء كل عمل صالح ومستقيم، استخفوا كثيرا ومقتوا وعظ رجل الرب هذا، الى حد أنهم كانوا لايرغبون بالاستماع إليه، ولايحضرون أعمال نصحه المقدسة، وبعد لأي، عندما تابعوا لوقت طويل الاستخفاف بوعظه، وجّه اللوم إليهم بشدة، وانتقد قسوة قلوبهم حيث قال:

«إنني حزين جداً من تعاستكم، ليس لأنكم فقط رفضتموني كعبد للمسيح، بل لأنكم ازدريتموه في شخصي، لأنني بشرت بينكم ووعظتكم بانجيل مخلص العالم، ولذلك إنني أدعوه ليكون شاهداً على هجرانكم، فهو شاهدي الأمين في السماء، وأنا ذاهب تارك مدينتكم ليكون ذلك عاراً عليكم، وسوف أذهب لأبشر بانجيل المسيح بين

الحيـوانات المفترسة، ولطيـور الهواء، حتى يستمعوا إلى الكلمات المانحـة للحياة، وهي كلمات الرب، وليكونوا مطيعين لهم»، ثم إنه غادر المدينة، ووجد في الضـواحي غربان بين جثث أمـوات، وطيور الحدأة، والعقعق مع طيور أخرى كلها كانت تطير في الهواء، وقال لهم:

«إنني آمركم بـاسم يسوع المسيح، الذي صلبه اليهـود، والذي رفض الرومان الاصغـاء إلى وعظه، أن تقدمـوا إليّ، وسماع كلمة الرب،وذلك باسمـه هو الذي خلقكم، وحفـظ نوح في السفينة من ميـاه الطوفـان»، ووقتهـا اقتربت منه جميع أسراب الطيـور، وأحاطت بـه، ووقتها صـدر الأمر إليهم بالصمت، وصمتت جميـع أنواع الطيور، فأصغت إلى كلمات رجل الـرب ذاك، لمدة نصف يوم دون أن تتحـــرك من تلك البقعـــة، وكـانـت طوال الوقت تنظر إلى وجـــه الواعظ، وجـرى اكتشـــاف هذه الواقعـة الرائعة من قبل الـرومان الذين كـانوا ذاهبين إلى المدينة أو آيبين منها، وعندمـا تكرر الشيء نفسه من قبل رجل الرب إلى حشـد الطيور، خـرج رجال الدين مع جمع من الناس من المدينة، وأعـادوا معهم رجل الرب مع كثير مـن الاحترام، ثم تمكن بزيت وعظـه التضرعي من تليين قلوبهم غير المثمرة والقاسيـة وحـوّلهم نحو الأحسن، ثم بدأت شهـرته تنتشر في الخارج في جميع أرجاء ايطاليا، ولـذلك احتذى حذوه كثير من ذوي الأصل النبيل، وتخلوا عن العالم وعن شروره، ورغباته، وأخضعوا أنفسهم إلى رغباته، ومالبثت طائفة الرهبـان المذكورة أعلاه أن تضاعف انتشارها في جميع أنحاء العالم، وسكن رهبانها في المدن وفي القلاع، وهم يمضون في هـذه الأيام على شكل سبعة أو عشرة يبشرون بكلمـة الحياة في البلدات وفي كنائس الأبرشيات، لابل في حقول العمال، فهناك زرعوا جـذور الفضيلة، ومنحـوا إلى الرب كميـــات وافـرة من الثمار حتى مع الربا، ولم ينشروا بين المسيحيين فقط بذور كلمـــة الرب، وندى العقيـدة السماوية، بل إنهم ذهبـوا إلى مقاطعـات الشعـوب والمسلمين، يقدمـون

العظة حول الصـدق، وبوسائلهم هذه حصلت كثير من هذه الأمم على مجد الشهادة.

احتشاد الناس عند موت الراهب المتقدم الذكر

وبعـد وقـت طويل، وبعـدمـا قـام فـرانسيس رفيـق الرب هذا، مع إخوانه، بالتبشير بانجيل السـلام لسنوات كثيرة في مدينة رومـا والمنطقة المجـاورة، وكمرابي جيـد أعاد المبلـغ الذي عهد به إليـه، إلى المعطي مع فوائد مضاعفة كثيراً، بعد هذا كلـه جاءت ساعته ليفارق هذا العالم إلى المسيح، وليتسلم نتيجة لجهوده تاج الحيـاة مع الرب، حسبما وعد الذين يحبـونه، وظهرت في اليـوم الخامس عشر قبل مـوته جـروح في يديه وفي قدميه،وكـانت هذه الجروح تنزف الدم باستمرار، مثلما ظهر على مخلص العـالم على الصليب عندمـا صلب مـن قبل اليهـود، وقـد انفتح جـانبـه الأيمن أيضـاً وتلطخ بالدم حتى ان الفجـوات الداخلية من قلبـه باتت مرئية بوضـوح، ولدى انتشار خبر هذا، تدفقت حشود كثيرة من الناس من الجنسين عليـه، ودهشت أمـام مثل هذه الحالة الغـريبـة، وكـان بين الذين قدمـوا كرادلة، وبحثوا عن معنـى هذا المشهد وسألوه عنه، وعلى هذا أجاب:

«لقـد ظهـــر هذا المشهـد بي، حتىٰ تتمكنوا أنتـم الذين بشرت بينكم بأسرار الصليب، فتؤمنون به، وهو الذي من أجل الحفاظ على العالم تألم على الصليب من الجراحة التي ترونها الآن، ولكي تعـرفوا أنني عبد له، وهو الذي بشرت به بينكم، وقد صلب، ومات، وعاد إلى الحياة، ولكي تزول جميع الشكوك، وبـذلك يمكنكم أن تتمسكوا بهذه العقيـــدة حتى النهـاية،وإن هذه الجراحـة التي ترونها بي مفتـوحة وتنزف دمـاً، سـوف تندمل لحظة وفـاتي، وتنغلق، وبذلك سـوف تظهـر مثل بقية جسـدي»، وعلى الفـــور جـــرى تحريره من الجســـد من دون أية آلام جســـدية، أو معاناة، وتخلى عن روحـه وسلمها إلى خـالقه، وبعد مـوته لم تبق أية آثار

جراحة سواء في طرفه أو في يديه أو في قدميه، ودفن رجل الرب هذا في صومعته، وقبله الحبر الروماني بين أعداد القديسين، وأمر باتخاذ يوم وفاته عيداً يحافظ عليه ويحتفل به بكل مهابة.

بعض القوانين الجديدة التي عملها ملك انكلترا

عام ١٢٢٨م، فيه احتفل الملك هنري بعيد الميلاد بكل وقار في يورك، وانطلق بعد ذلك عبر الطريق المستقيم مباشرة إلى لندن، ووجد أثناء هذه الرحلة نقصاً في مقاييس القمح، والخمرة، والبيرة، ولذلك كسر بعضها، وأحرق بعضها الآخر، وأبدلها بمقاييس أوسع، وأمر بعمل الخبز أثقل وزناً، وقضى أن الذين سوف يخرقون هذا القانون سوف يتعرضون لغرامات ثقيلة.

وفي شهر كانون الثاني من العام نفسه، أنهى روجر دي ثيونيTheoney حياته قرب ردنغ، وكان فارساً شجاعاًمن أصل نبيل، وكان رالف الأخ الأكبر لهذا النبيل، غائباً آنذاك وقد رغب بالتحادث معهه قبل موته، وجاء مسرعاً ليراه، لكن قبل وصوله كان أخوه المحبوب قد مات، ولم يجد صوتاً فيه ولااحساس، وكان رالف حزيناً جداً لموت أخيه، وبدأ يصرخ وهو يبكي ويسستحلف أخاه، مع أنه كان ميتاً، ليكلمه صدوراً عن العاطفة الأخوية، وبعدما جدّد صراخه وتوسلاته بحضور جنوده مع آخرين كثر، قال بأنه لن يتناول الطعام ثانية، مالم يتمكن من الحديث معه، وبناء على ذلك جلس الرجل الميت في الفراش، ولام أخاه بحدة لإزعاجه روحه، باستدعائه ثانية إلى الجسد، وقال:

«لقد رأيت العذاب الذي أنزل على الشرير، وسرور المبارك، ورأيت أيضاً بعيني العذاب الشديد الذي قضي عليّ أنا الانسان التعيس، الويل ثم الويل لي، لماذا ورطت نفسي بالمبارزات وأحببتهم بشكل كبير»؟ ثم

سأله أخوه: «أولن بناء عليه تحفظ»؟ وعلى هذا أجابه:

«سوف أحفظ لأنني عملت عملاً واحداً لتشريف مريم المباركة والعذراء الدائمة، فبذلك سوف أحصل على الخلاص»، وعندها قال رالف:

«أوليس من الممكن تخفيف العذاب الذي قضي به عليك —كما أخبرتني— بالأعمال الصالحة، والقداسات، والصدقات»؟ وعلى هذا رد روجر قائلاً: «ذلك ممكن» وهنا قال له رالف:

«إنني أعدك باخلاص بأنني من أجل خلاصنا وخلاص أجدادنا، سوف أبني بيتاً دينياً، وعندما سوف أملأه بالرهبان، سوف يدعون الرب باستمرار لتخليص روحك، وكذلك أرواح أجدادنا»، ثم قال روجر:

«إنني بحاجة ماسة لما وعدت به، لكن لاأريدك أن تعد بشيء أنت غير عازم على الوفاء به»، ثم ودع أخاه مع الآخرين الذين وقفوا هناك، ومن ثم لفظ روحه، ثم قام أخوه رالف في السنة نفسها ببناء دير في غربي انكلترا، ووضع فيه بعض الرهبان من طائفة السسترشيان، وأوقف على المكان أملاكاً كثيرة مع موارد كبيرة.

نقل رتشارد أسقف سالسبري إلى درم

وفي العام نفسه، جرى إلغاء انتخاب المعلم وليم سكوت Scott الذي كان قد انتخب أسقفاً لدرم، وجرى انتخاب رتشارد أسقف أوف سالسبري، ومن ثم نقل إلى تلك الأسقفية، وإثر ترقيته، انتخب كهنة سالسبري المعلم روبرت بنغهام Bingeham وكان كاهناً من رفاقهم، لأن يكون أسقفهم، والمسؤول عن أرواحهم، ونشب في العام نفسه خلاف بين رهبان كوفنتري وكهنة لتشفيلد Lichfield حول انتخاب أسقف، وقد تقرر بوساطة مرسوم محدد من قبل كنيسة روما،

قضى أنه ينبغي منذ ذلك الحين انتخاب الأساقفة بالتبادل والتناوب، بحيث يقوم الرهبان بالانتخاب أولاً، ولدى وفاته يتولى الكهنة انتخاب الأسقف التالي، وبناء على هذا الشرط، كان رئيس رهبان كوفنتري يمتلك دوماً الصوت الأول في الانتخاب، وبدا هذا المرسوم أنه ينتقص كثيراً من امتيازات الرهبان، الذين كانوا حتى ذلك الحين ينتخبون الأساقفة دون طلب موافقة الكهنة.

ودفع في هذا العام أيضاً امبراطور القسطنطينية دين الطبيعة، تاركاً وريثاً له صبياً صغيراً، لم يكن لائقاً لتسلم المقام الامبراطوري.

القرار الذي صدر بحق الامبراطور

وفي هذه الآونة بدا للبابا غريغوري أنه سمح لعصيان الامبراطور، ومعاداته للمسيح بوقت أطول مما ينبغي من دون عقوبة، وأخيراً، ولكي لايبدو أنه مثل كلب غير قادر على النباح، قام بناء على نصيحة كرادلته بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بحق الامبراطور المذكور، وأمر بوساطة رسائل رسولية بنشر هذا القرار في مختلف أنحاء العالم، وكان من بين الذين أمرهم بنشره ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، الذي كتب إليه كما يلي:

«من غريغوري، أسقف، إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، تحيات، إلخ: لقد وضع مركب بطرس الكبير في البحر المحيط الواسع، أو بالحري تعرض للعواصف وللأمواج بشكل مستمر، إلى حد أنه في بعض الأحيان لم يمتلك قباطنته ولامجذفيه الوقت للتنفس وسط الأمطار العاصفة المتدفقة، وإذا ماحاول في بعض الأحيان التوجه إلى أحد الموانىء بأشرعة كلها ممدودة أمام رياح لطيفة، تندفع الريح فجأة عليه من الجهات المعاكسة، وتنقض عليه بوساطة الذي يلفظ لهب النار، ويجري حمل السفينة نحو المياه العميقة، وإلى البحر المحيط الشاسع،

حيث تحيط بها الأمـواج العـاتيـة، ومـع ذلك لم تُـقهر بعـد، لأن الرب، الجالس فيها، قد استيقظ بصراخ تلاميذه، فهزم الأرواح العاصفة، وأمر البحر والريح، فكان هناك هدوء، وأربـع عواصف هي التي تهاجم هذه السفينة، ذلك أن جنود الكفار غير الأتقياء محتفظون ومتملكون للأرض المشهورة، التي صارت مقدسة بوساطة دم المسيح، وغضب الطغاة يتولى نهب الممتلكات الدنيـوية، ويدمـر العـدالة، ويضع تحت قـدميـه حـرية الكنيسـة، ويسعى جنون الهراطقة إلى تمزيق ثوب المسيح، وللقضـاء على تكريس الإيمان، ويتـولى الضـلال المخـادع للرهبـان المزيفين والأبناء بهز أحشـاء أمهم وشق طرفهـا وتمزيقـه، وهكذا يوجـد في الخارج قتـال، ورعب في الداخـل، والسيف يقتل في الخارج، وفي البيـوت يهدد الموت بمثل ذلك، وهكذا غـالباً مـاحدث أن كنيسـة المسيح قد تغلبت عليهـا الاضطرابات، ففي الوقت الذي يخيل إليهـا أنها تربي الأولاد وتغـذيهم، هي بالفعل تغذي في صدرها ناراً، وأفاعي، وثعابين، تسعى بأنفاسها إلى تدمير كل شيء، وكذلك بنهشاتها ولهبها، ولكي يتولى تدمير التنينات من هذا النوع، ويهزم العصابات المعادية، ولكي يلطف الطبـاع الصعبة، قام الكرسي الرسـولي في هذه الآونة، وسـط عناية كبيرة، بتربيـة واحـد من التـلاميذ، اسمـه الامبراطور فردريك، الذي تسلم المسـؤولية كما كـانت من رحـم أمه، ورضع من صدرها، وحملتـه على كتفيها، وهي التي غالباً ماأنقـذته من أيدي الذين استهدفوا حياته، وهي التي ربتـه ورعته حتى وصل إلى كمال الشباب، مقـابل كثير من المتاعب والنفقـات، وارتقت به إلى مقـام الملكية، ودفعتـه أخيراً حتى أوصلته إلى القمـة، أي إلى المحطة الامبراطورية، وكـانت واثقة أنه سـوف يكون صـولجان الدفاع وعصـا الأيام الخوالي.

وعندما ذهب إلى ألمانيـا،ليتولى مقاليد الحكومة وضـع أمام عيني أمه، مااعتقد أنه بشارة سعيدة، لكن حتـى نكون صادقين أكثر، مايمكن عدّه

بشارة خطيرة، لأنه قام بمبادرة منه، وليس بناء على نصيحتنا، ومن دون معرفة الكرسي الرسولي، بتثبيت الصليب على كتفيه، وعمل تعهداً ونذراً ثابتاً، بأنه سوف يذهب لمساعدة الأرض المقدسة، وحصل بعد هذا على قرار بالحرمان الكنسي ضده شخصياً، وضد الآخرين الذين حملوا شارة الصليب، إذا لم ينطلقوا في وقت محدد، وطلب بعد هذا، وتلقى التحليل، لأنه أعطى أولاً يميناً بأن يلتزم بقرار الكنيسة حول هذه المسألة، وأضفى الكرسي الرسولي عليه كثيراً من النعم، ودعاه إلى التتويج، صدوراً عن هدف صحيح، حتى يتمكن بسرعة وبضمان، من الذهاب إلى الأرض المقدسة، وقام هو —ليس من دون رغبة— بناء على كثير من الوساطات، والرسائل الفخمة، باستخدام راية الصليب حتى هذه الآونة، وعندما تسلم التاج من يدي هونوريوس —سلفنا صاحب الذكرى الطيبة— في كنيسة القديس بطرس، جدد حمل الصليب من يدينا، حيث كنا آنذاك نشغل منصباً أدنى، وجدد بشكل معلن تعهده ونذره، وأقنع كثيرين بحمل الصليب، لأملهم بتأييده، وثبت موعداً من أجل عبور البحر، ثم إنه عقد بعد ذلك مؤتمراً مع الكنيسة الرومانية في فيرولي Veroli ووقتها أقسم بشكل علني أنه سوف ينطلق مع كل الأبهة وبما يليق به كامبراطور، وذلك في وقت محدد، تتولى كنيسة روما تثبيته، ثم انه قام بعد هذا في مؤتمر مماثل جرى عقده في فيرينتينو Ferentino فثبت تاريخاً لإقلاعه يكون بعد عامين من ذلك التاريخ، كما انه وعد أيضاً بقسم مهيب بأنه سوف يعبر البحر، وسيتزوج الابنة النبيلة لولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، جون ملك القدس، وهي التي كانت أيضاً وريثة ذلك الملك المشهور، وقد أضاف أنه بهذه الوسائل سوف يربط نفسه بخدمة الأرض المقدسة، ليس مثل الحجاج الآخرين، بل مثل الداوية والاسبتارية، إلى الأبد.

وعندما —على كل حال— اقترب حلول الموعد المحدد، بدأ يعمل

تعليـلات كثيرة، وأعلن أنه غير مستعـد للذهاب وقـدم أعطيـات كثيرة ومنافع وهـدايا، حتى يحصل على تأخير لمدة ثـلاث سنوات، وبسبب أن الأمـور كلها باتت متعلقـة بهذا الأمير، بعـد الكنيسـة الرومانيـة، ولكي لايجري إلغاء المشروع، وتذهب الجهود التي بذلت من دون فـائدة، عقد الكرسي الرسولي مـؤتمراً مع عدد من الأساقفة ورجـال آخرين، وناقش القضيـة، دون أن يسقط أيـاً من اشكاليـاتها وظروفهـا، ثـم بعثنا بأخينا المبجل ب. P أسقف ألبانو، وغ. G الكاردينال الحامل للقب كـاهن القديس مـارتن، حتى يتوليـا تأكيد الوعود التـي عملها الامبراطور عن طواعية، بتقديم المساعدة الى الصليب، ثم انهيا بناء عليه عقدا مؤتمراً مع عـدد من مقدمي وزعماء ألمانيـا في كنيسة القـديس جيرمين Germain وهناك قـام الامبراطور بمبـادرة منه فأقسم أنه خـلال عـامين من ذلك التـاريخ أي في عبـور آب الأخير، سـوف يزيل جميع الأعـذار بالتأخير، وسوف يقلع، وسوف يبقي هناك لمدة عامين، على حسابه الخاص، ألف فارس لتقـديم العون للأرض المقدسة، وأنه سـوف يرسل في العبورات الخمسـة المقبلـة مـائـة ألـف أونصـة Ounces من الذهب لتــــــدفع لأشخـاص محددين هنـاك، ثم قـام الكاردينال الكاهن، فأعلن بناء على موافقة الامبراطور، وبوساطة سلطات الكرسي الرسولي، أمام المقدمين الموجـودين، وعلى مـرأى مـن الناس المجتمعين في الجمع الكنسي، الذي سـوف ينزل بالامبراطور، إذا خالف واحداً من الوعود المذكـورة أعلاه.

وعـلاوة على ذلك تعهـد الامبراطور بجلـب مـائـة سفينة وخمسين غليون، والاحتفـاظ بهم فيها وراء البحـر، وأنـه إلى جـانب هذا سـوف يعطي في أوقـات محددة عبوراً لألفي فـارس، وأقسم بروحه أنه سـوف يفي بهذه الوعود التي ذكرناها، وأبدى رضاه وموافقته على تنفيذ الحكم الصـادر ضده وضـد مملكته، إذا لم يقم بـالوفاء بها وعـد به، وأنت تعلم

الآن كيف وفى بهذه الوعـود، لأنه تحت ضغـوطه، وبسبب التماسـاته، توجّـه عـدة آلاف من الصليبيين، تحت عقـوبة الحرمـان الكنسي، قبل الموعـد المحدد، إلى ميناء برنديزي، وسحب الامبراطور عطفـه من جميع مـدن الساحل تقـريبـاً، ومع أنه غالبـاً مـاأنذر من قبل سلفنا ومن قبلنا نحن حتى يقـوم بجميع الاستعـدادات اللازمـة، وأن يقـوم باخـلاص بالوفـاء بكل مـاوعـد به، قـام بعـدم الاهتمام بهذه الوعـود التي عملهـا بوساطة رسله ورسائله الشخصية، إلى الكرسي الرسولي وإلى الصليبيين، وذلك بإرسال الامـدادات وبقية الأشياء المحتـاجة، ولم يول أدنى اهتمام لخلاصـه الشخصي، واحتفظ بالجيش الصليبي وأعـاقـه في أعلى حـرارة الصيف، لمدة طويلة، في مناخ قـذر ومميت، ولذلك هلك عـدد كبير من عـامـة الجنـد، وليس منهم فقط، بل هلك عـدد لابـأس به من النبـلاء وذوي المراتب، بسبب الأمراض، والعطش، والحرارة، ولأسباب أخرى كثيرة، ومات بينهم أسقفا: أنجو، وأوغسبورغ Augsburgh صاحبا الذكرى الطيبة، وحوّل الذين بقيـوا من الجيش اتجاهاتهم للعودة، ومات عـدد كبير منهم في الغابات وفي السهـول، والجبال، والكهـوف، والذين بقيوا مع الصعوبات، حصلوا على الاذن بالمغادرة، ومع أنه لم يكن هناك مـايكفي من سفن لحمل امـدادات الناس وخيـولهم كما كان قـد وعـد، قامـوا في يوم عيد العذراء المباركـة، عندما حان موسم العـودة، وأقلعوا مبحـرين، معـرضين أنفسهم للمخـاطر، مـن أجل اسم المسيح، وكـانوا يعتقـدون بأن الامبراطـور سـوف يتبع خطواتهم، لكنه خـرق وعـوده، وقطع الروابط التي ربط نفسـه بها، وألقى جانبـاً كل الخوف من الرب، ولم يقـدم الاحترام إلى يسوع المسيح، ولم يهتم بلوم الكنيسـة، وتخلى عن الجيش الصليبي، وترك الأرض المقدسة، عـرضة أمام الكفار، واستخف بتقـوى شعب المسيح، ولكي يسبب العـار لنفسـه وللمسيحيـة انصرف نحو مباهج مملكته، وغادر بعدما تعلل بأوهى الأسباب، مدعياً الضعف الجسدي، كما قال.

وتمعن الآن، وانظر هل هناك من حـزن مثل حزن الكرسي الرسـولي، وأمك، التي غـالبـاً مـاجـرى خداعهـا بوحشيـة وغشهـا بابنهـا، الذي أرضعته، والذي فيـه وضعت الثقة، بأنه سوف يتـولى تنفيذ هذه المسألة، والذي عليه حشدت كثيراً من الآمال والمنافع.

وأخفى في الوقت نفسه نيته بالتخلي عن قضية الأرض المقدسة عندما تتـوفـر الفـرصـة، مـركـزاً انتبـاهه على نفي الكهنة، والسلب، والأسر، وأعمال إيذاء مضاعفـة، أنزلها بالكنائس، وبالممتلكات الدينيـة، وبرجال الدين، ولم يستمع إلى كثير من شكاوى الفقراء، مع كل من سواد الناس والنبلاء، الذين صرخوا ضـده، والذين —كما نعتقد— دخلت أدعيتهم إلى أذني المولى رب السماء.

ومع أن كنيسـة روما قـد توجب عليهـا حماية ابن لها، نشأ وسط مثل هذه العناية، وجـرى الاهتمام به إلى مثل هـذا الحد، إنها الآن تبكي من أجله، وقد قهرت من دون قتال، وتداعت من دون وجود عدو، ولعاره الكلي، انحطـت بشكل مشين، وليـس أقـل من هـذا كلـه أسى، هـلاك الجيش الصليبي، الذي أخفق ليس بسبب سيـوف الأعـداء، أو لفقـدانه للشجاعـة، لكنه تبدد بسبب هذه المصيبة المرعبـة، وهي أيضاً تبكي لأن الجزء المتبقي من العساكر، هم عرضة لمخاطر البحر، وللأمواج الهائجة، من دون دليل، أو قائـد، أو مقدم، مساقين إلى حيث لايدرون، يقـدمون القليل من الفائدة إلى قضية الأرض المقـدسة، ونحن غير قادرين —تبعاً لتعهـدنا— أن نقدم لهم مـواساة أو مسـاعدة، بسبب الوضع العـاصف للبحر، وشدة وسوء أوضـاع الموسم، والكنيسة أكثر من هذا، إنها تبكي دمـار الأرض المقـدسـة، التي كنـا آملين أن تكون الآن قـد أنقـذت من أيدي الكفـار، وأن يكون الجيش الصليبي —كما قيل— قـد استردها، مبـادلة لـدميـاط، لولا أنه منع مـراراً أن يفعل ذلك بوسـاطـة رسـائل الامبراطور، ومـاكان هذا الجيـش نفسه أسيراً في أيدي الكفـار، لو تمت

أعمال تجهيز السفن وتزويده بها، كما كـان قد وعـد من قبله، وكان ذلك من الممكن صنيعـه، لأن دمياط قــد جـرى تسليمهـا —كما قيل— إلى رسله ووضعت تحت عهــدتهم، وتزينت بالنسـور الامبراطـورية، وقـد جـرى نهبهـا في اليـوم نفسـه بشكل وحشي، ثم بعـدمـا جـرى تدميرها بشكل مهين، تمت إعـادتها من قبلهم إلى الكفـار، وقد أضيف أيضـاً إلى أسـانا وخسـائـرنا المتقـدم ذكـرها الجهـود والنفقـات التي تكبـدناها في دميـاط، وذلك بالاضافـة إلى المعنويات بين المسيحيين، وكـذلك الوقت الذي بُـدد، وقد جـرى إنفاق هذا كله من دون محصلة، ولم يتـوفر هناك بين أبناء الكنيسـة ولا واحـد من أبنـائهـا يتـولى مـواسـاتها، أو ليمسح دمـوعهـا من على وجنتيهـا، وبما أنه بناء على ذلك قـد سمع صـوتها في رامـه، وراحيل تندب مع حـزنها الذي لايمكـن شفـائـه، ليس فقط من أجل أولادها بل أيضــاً من أجل جميع تلك المصــائب، فكيف على هذا يمكن للمسيحيين التمنع عن البكاء والنحيب؟ وأي واحـد من الأبناء، عندمــا يرى الدمــوع تتـدفـق من عيني الأم، ســوف يتمنع عن سفح الدموع؟ وأي إنسان سوف لن يرحم أحزان الأم، ولن يشارك في حزنها العميق؟، وأي مسيحي ســوف لن يتحـرق، بناء على هـذه الأحـداث، بمـزيد من الرغبـة الأشـد مـن أجل مسـاعـدة الأرض المقـدسـة، حتى لايمكن ظهور الشباب المسيحيين، وقد انبطحـوا تماماً وأصيبوا بالرعب بسبب هذه الأحــداث غير المتـوقعــة؟ أوليس من المتــوجب أن يكون الرجـال الحكماء وأبناء يسوع المسيح، الأكثـر اندفاعـاً لمساعـدة الأرض المقدسـة، كلما رأوا أكثر الذي لايمكن رؤيته من المصـائب والمآسي وقد تـراكمـت على الأب والابن، المخلـص والمخلَـص، وعلى المسيـح وعلى شعب المسيح؟ وبناء عليـه نظراً لازديـاد تشـوقنا لأن نأخـذ هذا العمل ونضعـه بين أيدينا ثانيـة، ولكي نقترح بوساطة خطـط أكثر إحكامـاً أن نجـد سبلاً للخـلاص وللعـلاج، تتماشى مع حـاجياتنا وتعـوض الحزن الكبير الذي تحملناه، ويكون هذا عندمـا يري الرب نفسه غـاضباً قليـلاً

مع شعبــه، ولايتلقى القـرابين من أيـديهم، ومع ذلك إن رحمة الرب لم ترفع بعـد، كما أن شفقته لم تضمحل كليـاً، ذلك أننا نثق بشفقـة الرب، الذي سيرينا الطـريق الذي يمكن أن نصل عبره إلى محصلـة ناجحــة في هذه القضيـة، وهو سـوف يرسل رجالاً يرتضيهم مـن قلبه، هم سـوف يقودون الجيش الصليبي بقلوب نقية وأيدي نظيفة.

وبناء عليه إننا نلتمس من أخـوتكم بوساطة هذه الرسائل الرسـولية، ونأمـر أخوتكم، أن تقـوموا باخـلاص بعرض هذه القضـايا على الناس وعلى رجـال الدين الذين تحت رعـايتكم، واقناعهم كيما يعـدّوا أنفسهم وعقــولهم للقيـام بهذه المهــام، وأن تحثهم بشكل دائم، وأن تدعــوهم للانتقـام لهذه الاهانة التي لحقت بيسـوع المسيح، وبذلك عندمـا سيرى الكرسي الرسـولي، بعــد المزيد من المناقشـات المتبــادلة أن الوقت بات مناسبــاً ليطلب منهم مسـاعــدتهم، يمكنه وقتهـا أن يجدهم جــاهزين ومستعـدين، وعلى كل حـال، لكي لانبدو مثل كلـب أخرس غير قـادر على النبــاح، وأن لانظهـر أننا غضضنـا النظر عن هذا الرجل في عــدم تقـديـره للرب، من دون معـاقبتــه، وهو الذي ألحق أذى عظيماً بشعب الرب، إننـا نعلن —مـع أننا مكرهين— أمــــام النـاس أن الامبراطور المذكـور فــردريك هو محروم كنسيـاً، طالما أنه لم يعبر البحــر في الوقت المحـدد، ولم يرسل إلى هناك مبلـغ المال الذي جـرى الاتفـاق عليـه من قبل، كما لم يحضر إلى هناك الألف جندي، للبقاء لمدة عـامين على حسابه من أجل مساعدة الأرض المقدسة، لكنه تقاعس عن تنفيذ هذه الشروط الثلاثة الواردة في اتفاقيته، حسبما كان قد ورّط نفسه عن طواعية ووضع نفسـه في شبكة الحرمـان الكنسي المتقدم ذكـره، ونحن نأمـره أن يتجنب بدقة جميع الناس، ونأمركم أن تعلنوا شخصياً هذا القرار على الملأ، وأن تتدبروا نشره مـن قبل أساقفة الكنـائس الآخرين، ولسـوف نتابع السير ضده بحدة أعظم، إذا مااستدعى تمرده ذلك.

ونحن، عـــلاوة على هـذا، نثق برحمة أبينا المقــدس، الـذي لايرغب بهلاك أي إنســان، حتى يمكن لعيني عقله المظلم، عندما يدهن بمـرهـم الكنيسة سـوف —إذا لم يكن متمرداً في قلبـه— أن يستنير، حتى يمكنه بذلك أن يرى عـريه، ويمكنه أن يتجنب العار الذي سقط فيـه، وبذلك يمكنه العـودة إلى الطبيب الصحيح، ويمكنه الرجعـة إلى أمـه الكنيسـة، وبتـواضع مـوائم صحيـح، وبتكفير نقي، يمكنه وقتهـا تلقي الخلاص، لأننا لانرغب أن يكون خـلاصــه الأبدي في الرب معلقـاً، لأننا أحببناه من قبل باخـلاص عندمـا كنا في منصب أدنى. صـدر في اللاتيران، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف أعلن الامبراطور أنه حرم كنسياً بشكل غير عادل

عندما علم الامبراطور بأنـه قد حرم كنيسـاً ارتعب كثيراً، ولأن البابا كـان قد أمـر برسائله بنشر قـرار الحرمـان في جميع بلدان المسيحية، قـام الامبراطور المذكـور بالكتابة إلى جميع الملوك المسيحيين والمقـدمين يشكو إليهم بأن قرار الحكم قد صدر خطـأ بحقه، وأخبرهم واحداً واحداً بأنه لم يتخل عن الحج، ولم يفتعل ذلك بناء على تعليـلات تافهـة، كما اتهمـه البـابا بشكل كـاذب، بل جـاء ذلك بسبب خطير جـداً، وفي هذا المقـام يطلب شهادة الشاهد الصحيح الموجود في السماء، وعلاوة على هذا لقد أعلن أنه مـا ان يمنحـه الرب الصحة الجسـدية، حتى سيقـوم بتشريف مناسب بالوفـاء للرب بعهـد الحج، وبشكل يليق به كـامبراطور، وكـان من بين الملوك الكاثوليك الذين كتب رسائل إليهم مختـومة بخاتم ذهبي الملك الانكليـزي، وأعلن فيهم بأن الكنيســة الرومـانيـة مصـابة بجنون الشره، ومن الشواهد على جشعها أنها لم تعـد راضية باستحواذ ممتلكات الكنائس بارادتها، بل إنها تجرأت حتـى على حـرمـان الأباطرة، والملوك، والأمـراء من مـواريثهم، وجعلهم يؤدون الجزية إليهـا، ويمكن للملك الانكليزي نفسه أن يجد مثلاً شاهداً على ماقاله في حالة أبيه الملك جون،

الذي أبقته الكنيسة المذكورة لمدة طويلة من الزمن حتى جعل نفسه ومملكته يؤدون الجزية إليها، ويمكنهم أيضاً أن يجدوا مثلاً آخر في قضية كونت طولوز، وكثيراً من المقدمين التي سعت لإبقاء أراضيهم وأشخاصهم تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى أنزلتهم إلى وضع التابعية، ونصح في نهاية رسالته جميع أمراء الدنيا، بالاحتراز ضد مثل هذا الشره الظالم، بمثل هذه الكلمات:

«انتبه عندما تحترق بيوت الجيران

فلربما يكون دورك هو المقبل».

كيف أثار الامبراطور روح الاضطهاد ضدّ البابا

أثار الامبراطور بوسائل الاثارة هذه روح الاضطهاد ضد البابا، وميراث الكنيسة الرومانية، وهاجم المدن واستولى على القلاع العائدة إليها، وعن ذلك أخبر البابا مندوب الكنيسة الرومانية في فرنسا بالرسالة التالي نصها:

شكاوى البابا ضدّ الامبراطور

«من غريغوري الأسقف، إلى المندوب الروماني بين الفرنسيين، تحيات، الخ، نرجوك الانتباه، لتعرف هل هناك أسى مثل أسانا، لأننا وجدنا في الابن الذي ربته الكنيسة الرومانية، ورفعته إلى أعلى المراتب، على أمل أن تجد فيه بطلاً ضد الكفار، مضطهداً قاسيا، وعدواً فعالاً، وعلينا أن لانمر بصمت بالأذى الأثيم، والدمار المريع الذي أنزله فردريك الامبراطور المذكور بشكل مستمر بالكنيسة وباللاهوتيين، فهو الآن يقوم بوسائل المسلمين وآخرين، بمهاجمة ميراث الكرسي الرسولي، والذي هو أكثر مقتاً، أنه يبرم الآن معاهدات مع السلطان ومع مسلمين آخرين، ويظهر اللطف نحوهم، ويبدي الكراهية المكشوفة نحو المسيحيين، إلى حد العمل على محق طائفتي الاسبتارية والداوية، مع أن

الآثار المقدسة للأرض المقدسة، قد حميت من قبلهما حتى الآن، لأنه بعدما خرقت المعاهدة بين المسلمين والصليبيين قد خرقت بناء على أوامره، قام المسلمون بغارة داخل أراضي الطائفتين المتقدمتي الذكر، وبعدما قتلوا عدداً كبيراً من أتباعهم أو أخذوهم أسرى، حملوا معهم كميات كبيرة من الغنائم، وبعد ذلك هاجمهم الداوية، وانتزعوا منهم بعضاً من الغنائم يصل ثمنها إلى ستة آلاف مارك، إنما الذي حدث هو أن توماس كونت أتري Aterrae وزير الامبراطور، هاجمهم بحدة عندما كانوا عائدين، وانتزع منهم بالقوة هذه الغنائم، وفي طاعة من الداوية لأحكام طائفتهم، لم يتجرأوا على رفع يد مسلحة ضد المسيحيين، وأعاد توماس المذكور هذه الغنائم إلى المسلمين، باستثناء بعض منها، قد قيل بأنه احتفظ بها من أجل استخداماته الشخصية، وإذا ماأخذ المسلمون أسلاباً من الصليبيين ليس فقط هو لايسعى لاستردادها، بل إنه لايسمح للصليبيين أن يأخذوا أسلاباً من المسلمين، وبهذه الوسائل صار المسلمون أكثر وقاحة وهاجموا بجرأة شعبنا، وخوفاً من شعبنا من الخيانة، كانوا أقل جرأة في مقاومتهم، وهكذا فإن إراقة الدم الصليبي تحولت في بعض الأحيان، لسوء الحظ لصالح كسب الامبراطور، ويقوم توماس المذكور —أو بالحري الامبراطور بحكم النيابة— الآن، باضطهاد الطائفتين المذكورتين أعلاه، وسلب منهما بالقوة بيوتهما وممتلكاتهما التي بين أيديهما، واظهاراً منه لاخضاعه لامتيازات الكنيسة، إنه يسعى الآن إلى حرمانهما من الامتيازات التي منحهما إياها الكرسي الرسولي، ومن ثم وضعهما تحت حكم الادارة الامبراطورية، كما أنه جمع مائة عبد كانوا لدى الاسبتارية والداوية في صقلية وأبوليا، وأعطاهم إلى المسلمين، دون أن يقدم أدنى تعويض عنهم إلى الطائفتين المذكورتين، وهكذا فإنه كما ظهر بشكل واضح من الظروف المتقدمة، هو يهتم أكثر، ويقدر عبيد محمد (صلى الله عليه وسلم) أكثر من تقديره لعبيد المسيح، وعليك أن تصدق حقيقة، أن

الامبراطور المذكور، كما قيل قد أنزل إلى البحر مع قلة من الفرسان، لقد أرسل جيشاً كبيراً من المسيحيين مع حشد من المسلمين، لمهاجمة ميراث الكنيسة، وبذلك قدم برهاناً واضحاً عن جميع آثامه، لكن كما قلت، لدينا الثقة، به، هو الذي أسس كنيسته على صخرة الإيمان، بأنه لن يسمح بالاطاحة بها، مهما كانت قوة الرياح وعنفها المرسلة ضدها، أو المياه التي تسعى لغلبتها، وبما أنه —بناء عليه— يتآمر بشكل شرير من أجل القضاء على الإيمان المسيحي، وعليه يصب جام غضبه، نحن محقون في أن نكون في أقصى حالات الرعب، ولكن مهما استمر ظلم هذا الرجل غير التقي وطال، لايمكنه السيطرة بذنبه، بل بالحري سوف يضيع فيه، وبناء عليه، إنه بموجب الواجب المفروض علينا —مع أننا غير جديرين بذلك— نحن مرغمون على منع نائب محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا، من الاستمرار بصب جام غضبه على عبيد المسيح، لابل بالحري سينال الخزي في عدوانه، وسوف يرتفع شأن مجد الاسم المسيحي، ونحن نأمركم بهذه الرسائل الرسولية أن تذيعوا هذه القضايا في جميع أرجاء بلاد نيابتكم، وذلك من أجل أن يقف الشعب المؤمن بالمسيح بشجاعة في سبيل العقيدة، وتمسكاً بالدين الصحيح، ومراعاة له، وكأن كل واحد يعمل في سبيل الحفاظ على مصالحه، تماشياً مع التشجيع الذي سوف يستخدمه. صدر في اللاتيران، في الخامس من آب، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف ثار شعب روما بفتنة ضدّ الحبر الروماني

خلال الاحتفال بالفصح في السنة نفسها، ثار شعب روما بعصيان وتمرد ضد البابا غريغوري وطردوه من المدينة، ثم إنهم طاردوه إلى قلعة فيتربو، وهناك ازدادوا قوة فطردوه إلى بيروسيوم Perusium ولم يكن لدى البابا أية وسائل لمعاقبتهم، سوى حرمانهم كنسياً جميعاً.

وأرسل في العام نفسه ملك فرنسا حملة عسكرية كبيرة إلى بروفانس،

ضد كونت طولوز، لطرد ذلك النبيل من تلك المناطق، وقد سمعوا بأن الكونت كان وقتذاك في قلعة اسلامية، تابعة لممتلكاته، ولذلك قرروا محاصرته هناك، لكنه —على كل حال— أنذر مسبقاً بقدومهم واقترابهم، ولذلك أعدّ كميناً عند وصولهم، وخبأ نفسه مع قوة كبيرة في غابة، كان على الفرنسيين المرور بها، وهناك جلس ينتظر وصول أعدائه، وعندما وصل الفرنسيون إلى مكان الكمين، انقض الكونت مع قواته عليهم، ونشبت معركة شديدة فيها وقع بالأسر خمسمائة فارس فرنسي، وجرى أيضاً قتل عدد كبير، كما وقع بالأسر حوالي ألفي جندي، وبعدما جرى تجريدهم جميعاً وتعريتهم، أمر الكونت باقتلاع أعين بعضاً منهم، وبجدع آناف آخرين منهم، وببتر أقدام وأيدي بعضهم الآخر، وبعد ذلك سرحهم عائدين إلى مواطنهم، ليكونوا منظراً مشوهاً لبني جلدتهم من الفرنسيين، وأمر بالفرسان الأسرى فوضعوا في سجن مضيق عليهم، بعدما جرّدهم من جميع مقتنياتهم، ووقعت هذه المعركة في الثامن عشر من أيار قرب القلعة الاسلامية، وباختصار يمكن القول بأنه جرى ارسال حملات ثلاث خلال ذلك الصيف، وفي كل مرة جرت هزيمة الفرنسيين أو أسروا، وسجنوا من قبل الكونت المذكور.

موت ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

في التاسع من تموز من العام نفسه، أنهى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري حياته في عزبته في سلندون Slindon وقد دفن في كانتربري في السادس من الشهر نفسه «كذا»، وبعد دفنه حصل رهبان كانتربري على إذن الملك، وفي الثالث من آب انتخبوا المعلم ولتر دي هينزهام Heinesham وكان راهباً من كنيستهم، لكن عندما قدموه إلى الملك، وبعد مداولات طويلة، رفض استقباله على أسس محددة، وكان أول اعتراض ذكره إلى الرهبان هو أنهم قد اختاروا رجلاً كان بلا فائدة لنفسه وللمملكة، وكان الاعتراض الثاني هو أن والد المنتخب كان قد

أدين بالسرقـة، وقد شنق بسبب ذلـك، وكان الاعتراض الثـالث هو أنه شـارك —أي والده— بـالعمل ضـد الملك جـون، في أيام التعليق من شراكة المؤمنين، علاوة على ذلك، اعترض الأساقفـة المساعدون لكنيسة كانتربري، على انتخاب وولتر المذكور، لأنه كان من قبل قد اعتدى على راهبة، وأنجب منها أولاداً، وأضافوا إلى ذلك أن انتخاب رئيس أساقفة لايجوز أن يتم من دون حضـورهم، وتمسك —على كل حـال— رئيس الأسـاقفة المنتخب بـالانتخاب، وعمل مـرافعـة، وأخذ معـه بعضـاً من رهبان كـانتربري، ومثل بحضرة البابا، سائـلاً إياه تثبيت انتخابه، وعند سماع البـابا —على كل حـال— بـأن الانتخـاب قـد عـارضـه الملك والأسـاقفـة، أجّـل القضيـة، حتى يتمكن من معـرفـة الحقـائق حـول القضية، وعندمـا علم الملك مع الأسـاقفة بأن رئيس الأسـاقفة المنتخب قـد ذهب إلى بلاط روما، وضعـوا الاعتراضـات المتقـدم ذكرها كتـابة، وأرسلوهـم، ممهـورين بخاتـم الملك وبـأختام الأسـاقفة إلى البـابا، بعناية أسقفي روكستر وشيستر، وعيّـنوا المعلم جون رئيـس شمامسة بدفـورد ليتـولى معالجة هذه القضيـة، ثم ذهب هؤلاء الرسل إلى روما، وسلمـوا رسـائل الملك والأساقفـة إلى البـابا، الذي قام بعـد تفحص متمعن لهم، وبناء على نصيحـة كرادلتـه، فحدد يومـاً لظهور الفـريقين أمامـه، يكون اليـوم التـالي ليـوم أربعـاء الرمـاد، وذلـك بغيـة التـوصل إلى فض هذا الخلاف بشكل صحيح، وتقرير الأمر بشكل حاسم.

ووقعت خـلال صيف هذا العام كله عـواصف رعـد وبرق مرعبـة، حيث أشعلت النيران في عـدد من الأبنيـة في أماكن متفـرقـة، وأهلكت الناس والماشيـة، وهطلت في الخريف التـالي أمطار فيضـان متـواصلة، سببت كثيراً من الأذى في أيام الحصاد.

حول عصيان الويلزيين

وفي شهـر آب من العام نفسـه، قـام الفرسـان والجنود الذي تشكلت

منهم شحنة قلعة مونتغمري، الواقعة على الحدود الويلزية بغارات مع من كان من تلك المنطقة، في سبيل توسيع الطريق من القلعة، وتحويله إلى طريق أكثر أماناً، وذلك بسبب رجال العصابات الويلزية، الذين نهبوا وقتلوا المسافرين هناك، ولذلك زحفوا نحو المكان مع السيوف، والفؤوس، والهراوات، وأسلحة أخرى، وشرعوا بقطع الأشجار وإزالة الأسيجة والنباتات الشوكية، لجعل الطريق أعرض للمسافرين، ووصلت أخبار هذه الوقائع إلى مسامع الويلزيين، فقدموا في قوة كبيرة، وهاجموهم، وأرغموهم على التراجع إلى داخل القلعة، لكن ليس من دون وقوع قتلى من على الجانبين، ثم إنهم ألقوا الحصار على القلعة، لكن الحامية تمكنت على الفور من ارسال رسالة إلى هيوبرت، المسؤول عن العدالة، الذي كان الملك قد أعطاه مؤخراً تلك المرتبة مع القلعة، وبناء على ذلك زحف الملك شخصياً، نحو ذلك المكان، بكل سرعة، وأرغم الويلزيين على رفع الحصار، وكان الملك قد وصل مع قوة صغيرة، وكان متوقعاً التحاق نجدات به، وبالفعل مالبثت هذه النجدات أن التحقت به، وبناء عليه زحف مع كتلة كبيرة من الجنود نحو الغابة المتقدم ذكرها أعلاه، وقد قيل بأنها كانت واسعة جداً، تمتد نحو خمسة فراسخ، ومع أنها كانت واسعة، ومن الصعب كثيراً تدميرها بسبب كثافة الأشجار النامية فيها، لقد جرى تدميرها واحراقها بعد صعوبات جمة، ثم قاد الملك جيشه، وتوغل أكثر في البلاد، ووصل إلى مكان مسكون من قبل بعض الرهبان من طائفة الرهبان البيض، وكان اسم هذا المكان كريديا Cridia وقد أخبر الملك بأن ذلك المكان مستودع للأسلاب التي أخذت من قبل الويلزيين، وجرى، بناء على أوامر الملك، إلقاء النار في تلك الأبنية، فتحول إلى رماد، ونظر هيوبرت إلى الحصانة القصوى للموقع، فأمر —بناء على موافقة الملك— ببناء قلعة هناك، وقبل أن يكتمل هذا، جرى قتل أعداد من الطرفين، وعندما كان النبيل وليم دي براوس Braose يقوم بحملة جمع للأعلاف، اعتقل من قبل

الويلزيين، وحمل أسيراً، وحدث مثل هذا أيضاً إلى فارس، كان قد عمل مؤخراً فارساً بحزام من قبل الملك، فقد ذهب مع آخرين للاعتلاف، وعندما كان مع مرافقيه تمكن الأعداء من عزله وتطويقه، فانقض عليهم بشجاعة وصار في وسطهم، وبعدما قتل عدداً من الذين تصدوا له، سقط أخيراً قتيلاً، مع بعض الآخرين من جيش الملك، وكان عدد كبير من بين مقدمي جيش الملك متواطئين مع للويلين، مع أنهم تظاهروا بالوقوف إلى جانب الملك، ولهذا السبب، نقصت جميع أنواع الامدادات لدى الجيش، وقد أجبر الملك على عمل صلح مهين، وافق بموجبه على هدم القلعة، التي شارفت على الانتهاء، والتي احتاجت إلى جهد كبير، ونفقات عظيمة، وأن يجري الهدم على حساب الملك، وأن على للويلين أن يعطي إلى الملك مقابل أتعابه ونفقاته ثلاثة آلاف مارك، وما ان جرى التصديق على هذه المعاهدة، حتى عاد كل فريق إلى وطنه، وهكذا عاد ملك انكلترا مجللاً بالعار، فبعدما أمضى قرابة الثلاثة أشهر في بناء القلعة المذكورة، وبعدما بدّد مبلغاً لانهاية له من المال، عاد تاركاً النبيل وليم دي براوس أسيراً بين يدي للويلين، والسخرية التي ثارت من قبل كثيرين، صدرت بسبب أنه لدى الشروع ببناء القلعة، أعطاها المسؤول عن العدالة اسم «حماقة هيوبرت»، ولهذا عندما رأوها بعد كثير من المتاعب والنفقات قد هدمت إلى الأرض، قالوا جميعاً بأن المسؤول عن العدالة لم يكن فقط متنبئاً، لابل أكثر من متنبىء.

كيف وصل الامبراطور فردريك إلى الأرض المقدسة ورفع من شأن القضية الصليبية

وركب في العام نفسه الامبراطور الروماني فردريك سفينة عند البحر المتوسط، ووصل في عيد مريم العذراء إلى عكا، حيث خرج رجال الدين والشعب إلى استقباله، ورحبوا به بتشريف يليق برجل عظيم، لكن عندما اكتشفوا بأنه كان محروماً كنسياً، لم يمنحوه قبلة سلام، كما

أنهم لم يجلسوا على المائدة معه، بل نصحوه بأن يقدم ترضية إلى البابا، وأن يعود إلى جماعة الكنيسة المقدسة.

وكان الداوية والاسبتارية، لدى وصوله، قد حبوا على ركبهم، وبجّلوه، وقبّلوا ركبتيه، وأعطى أفراد الجيش الصليبي الذي كان حاضراً الحمد للرب على وصوله، وأملوا أنه بوصوله سوف يكون هناك خلاص بين أوساطهم، ثم اشتكى الامبراطور بمرارة، إلى الجيش كله، ضد الحبر الروماني، لأن هذا الحبر قد تفوه بشكل غير عادل بحكم أصدره ضده، وأكد أنه تأخر عن الزحف إلى مساعدة الأرض المقدسة، بسبب مرض شديد.

ولدى سماع سلطان القاهرة بوصول الامبراطور إلى سورية، بعث إليه بهدايا ثمينة من الذهب، والفضة، والحرير، والجواهر، والجمال، وعاج الفيلة، والحمير، وأشياء أخرى رائعة ليست موجودة في البلدان الغربية، وعند وصول الامبراطور إلى عكا، وجد الجيش الصليبي تحت قيادة: دوق ليمبورغ Limburgh وبطريرك القدس، ورؤساء أساقفة الناصرة، وقيسارية، ونربونه، والأسقفين الانكليزيين لوينكستر، واكستير، ومقدمي، الاسبتارية، والداوية، وطائفة اسبتارية التيوتون، الذين كان تحت قيادتهم الموحدة حوالي ثمانمائة فارس من الحجاج الحمر، وحوالي عشرة آلاف من الجنود الرجالة، تجمعوا من مختلف أجزاء العالم، وكلهم قاموا مدفوعين بشعور عام من التقوى، بالزحف الى قيسارية وقد شحنوا هناك بعض القلاع، وعلى هذا كان الذي بقي عليهم هو استرداد يافا، ومن ثم الزحف على المدينة المقدسة، ولدى معرفة الامبراطور بأوضاع الأرض المقدسة، وافق تماماً على خطة الحجاج، وبعدما عمل جميع الاستعدادات اللازمة للزحف نحو الأمام، انطلقوا خارجين يتقدمهم الامبراطور، ووصلوا في الخامس عشر من تشرين الثاني من دون إعاقة إلى يافا، ولكن بما أنه كان من غير الممكن بالنسبة

لكل إنسان أن يحمل براً من المؤن مافيه كفـاية له شخصياً ولخيوله لعدة أيام، وذلك مع أثقـاله، تمّ الحصـول على سفـن عند عكا من أجل حمل الإمدادات للجيش، ولكن هبّـت عاصفة مفـاجئة، وصار البحـر هائجاً إلى حـد أن الحجاج الصليبيين مكثـوا لمدة سبعة أيام متـواصلة من دون امـدادات، وانتشر رعب هائل بين كثير منهم، وخيّل إليهم بأن الرب في غضبه سوف يدمّر شعبه، ويزيله من على وجه الأرض، لكن رحمة الرب التي لايمكن وصفهـا، والتي لاتسمـح أن يمتحن أي إنسـان أكثـر من احتماله، قامت أخيراً بسبب شعبه المؤمن، وقد أمر الرياح والبحر، فكان هناك هدوء، ثم وصل عـدد كبير من السفن إلى يافا، تحت قيـادة الرب، وهي محملة بكميات هائلة من القمح، والشعير، والخمر، ومختلف أنواع الامـدادات، ولذلك توفـرت كميـات وافـرة من المؤن في الجيش، حتى كان الفراغ من إعادة بناء القلعة المذكورة.

اليهودي يوسف الذي مازال حياً ينتظر القدوم الأخير للمسيح

وفي هذا العـام وصـل إلى انكلترا، واحـد من رؤسـاء الأسـاقفـة في أرمينيا الكبرى، حاجّـاً، ليرى الآثار المقدسة العائـدة للقديسين، وليزور الأماكن المقدسـة في تلك المملكة، وذلك مثلما فعل في ممالك أخرى، كما أنه قدم رسـائل توصية، مـن صاحب القداسـة البابا، إلى رجـال الدين، وإلى أساقفـة الكنائس، الذين كـان مفروضـاً عليهم استقباله، ومعـاملته بالتقدير والاحترام المتوجبين، وبعد وصوله ذهب إلى دير القديس ألبان، حيث استقبل بكـل الاحترام من قبل راعي الديـر والرهبـان، وفي هذا الدير، كان متعبـاً من جراء رحلته، ولذلك بقي هناك عـدة أيام لإراحة نفسـه مع أتبـاعــه، وبدأت أحـاديث بينه وبين سكان الديـر، بوسـائط تراجمتهم، وخلال ذلـك تقصّى حول عدة أمـور، تتعلق بالدين في تلك البلاد ومراعاتها للأمور الدينية، وروى أشياء كثيرة غريبة تتعلق بالبلدان الشرقيـة، وفي سياق الأحـاديث سئل عما إذا كـان قـد رأى قط شيئاً أو

سمع عن يوسف، الذي كان موجوداً أثناء آلام ربنا، وتحدث إليه، والذي مايزال حياً، بمثابة برهان حول الإيمان المسيحي، وكجواب لذلك رد فارس كان في حاشيته، وكان هو ترجمانه، وقد تحدث بالفرنسية قائلاً:

«مولاي على معرفة جيدة بذلك الرجل، وقبل وقت قصير من أخذه طريقه إلى البلدان الغربية، تناول يوسف المذكور الطعام على مائدة مولاي رئيس الأساقفة في أرمينيا، وغالباً ماعقد أحاديث معه»، ثم سئل بعد ذلك عما دار بين المسيح وبين يوسف نفسه، وعلى ذلك ردّ قائلاً:

في أيام آلام يسوع المسيح، اعتقل من قبل اليهود، واقتيد إلى قاعة المحاكمة، إلى أمام بيلاطيوس الوالي، علّه يحكم عليه بناء على تهمة اليهود له، ولم يجد بيلاطيوس سبباً للحكم عليه بالموت، فقال لهم:

خذوه واحكموا عليه وفقاً لقانونكم، وازدادت صرخات اليهود، وبناء على طلبهم أطلق سراح بارأباس، وسلم يسوع إليهم لكي يصلب، وعندما كان اليهود —بناء على ذلك— يجرون يسوع، ووصلوا إلى الباب، قام كارتافيلوس Cartaphilus وكان بواباً للقاعة، ويعمل في خدمة بيلاطيوس، بضرب يسوع على ظهره وهو خارج من الباب، بيده بشكل غير تقوي، وقال له ساخراً: إذهب أسرع، يايسوع، اذهب أسرع لماذا أنت متباطىء؟ ونظر يسوع إليه بملامح حادة، وقال له: أنا ذاهب، وأنت سوف تنتظر حتى أعود، وبناء على ماقاله ربنا، فإن كارتافيلوس هذا، مابرح ينتظر عودته، وقد كان وقت آلام ربنا في الثلاثين من عمره، وهو كلما وصل إلى سن مائة سنة، يعود دوماً إلى العمر نفسه، كما كان عندما تألم ربنا، وبعد موت المسيح، وتأسس الإيمان الكاثوليكي، جرى تعميد كارتافيلوس هذا من قبل حنانيا «الذي عمّد أيضاً الرسول بولص»، ومنحه اسم يوسف، وغالباً ماسكن مابين قسمي أرمينيا، والبلدان الشرقية الأخرى، ممضياً وقته بين الأساقفة

والآخـرين من رجـال الكنيسـة، وهو رجل له أحـاديث قـدسيـة، وهو متدين، وهو رجل قليل الكلام، ومتحرز في سلوكه، وذلك أنه لايتكلم مطلقـاً، مالم يسئل من قبل الأسـاقفة ورجـال الدين، ثم إنه روى بعض أخبار أحداث العصور القـديمة، وبعض أخبار الأحداث أثناء آلام ربنا وقيـامتـه، وحـدثهم عن شهـود القيـامـة، أي الذين قـامـوا مع المسيح، وذهبـوا إلى المدينة المقـدسة، وظهـروا للناس، كما أنه تحدث عن عقيـدة الرسـل، وعن افتراقهـم وتبشيرهم، وقـــد تحدث عن هـذا كله دون ابتسـامة، أو طيش في الحديـث، وفعل ذلك مثله مثل رجل خبير بالحزن والخوف من الرب، ينظر دوماً بخوف إلى قدوم يسوع المسيح، خشية أن يجده يوم الحساب الأخير غاضباً منه، وهو الـذي عندما كان على طريقه إلى الموت أثاره، لينتقم منه بشكل عادل، وتأتي إليه أعداد من الناس من مختلف أنحـاء العالم لتتمتـع بصحبته وبالحديث معـه، وإليهم، إذا كـانوا رجالاً مـوضع ثقة، كان يوضح جميع الشكوك حول القضـايا التي كانوا يسألونه عنها، وهو يرفض جميع الهدايا التي كانت تقدم إليه، حيث كان راضيـاً بقليـل الطعـام وخفيف الثيـاب، وهـو يضع أمله بالخلاص على أسـاس حقيقـة أنه أذنب من خـلال الجهل، لأن الرب قـام أثناء آلامـه بالدعاء لأعـدائه بهذه الكلمات: «اغفر لهم ياأبي، لأنهم لايعـرفون الذي يفعلونه».

كيف خلف المعلم روجر يوستاس أسقف لندن

وأنهى في هذا العـام نفســه يوستـاس أسقف لندن حيـاته، وانتخب الكهنة مكانه المعلم روجـر، الذي كـان لقبـه الأسـود، وكـان كـاهناً في كنيستهم، وقــد قــدم بعــد ذلك إلى الملك، واستقبل منـه من دون أية معارضـة، وفي العام نفسه أيضاً، مـات في شهر كانون الأول، غيـوفري أسقف إيلاي، وقد دفن في الكنيسة الكاتدرائية في الثاني عشر من الشهر نفسه، وإثر مـوته اختار الرهبان بـاتفاق عام هيـوج، راعي دير القديس

إدمـوند، الذي عندمـا قدّم إلى الملك، استقبل منه عـن طواعية، وجـرى منحه جميع ممتلكات الأسقفية.

كيف دعا نبلاء القارة ملك انكلترا للقدوم إليهم

عـام ١٢٩٩م، فيـه عقـد الملك هنري بلاطه في اكسفـورد، يوم عيـد الميلاد، وفيه كان نبلاء المملكة حضوراً، وإلى ذلك المكان قدم إليه رئيس أسـاقفـة بوردوكس، الذي كـان قـد أرسـل من قبل نبـلاء غـاسكوني، وأكوتين، وبواتو، وقد استقبل بتشريف مناسب من قبل الملك، واحتفل بعيـد الميلاد معـه، وقدم إليـه رسل خاصين أيضـاً من نورماندي، وقـد جاءوا جميعاً لقضاء العمل نفسه معه، وهو لصالح النبلاء المذكورة أسماء مقاطعـاتهم أعلاه، لدعوته للقدوم شخصيـاً إلى مناطقهم، ووعدوه أنهم جميعاً سوف يقـدمون إليه مع الخيول والسـلاح، ولسوف يتبعهم شعب المقاطعـات، ولسوف يقفـون إلى جانبه من دون إحجـام، وبذلك يمكنه استرداد مقـاطعـاته المفقـودة، وكـان هنري لبسـاطتـه لايعـرف كيف يتصرف، ولذلك تشـاورمع المسؤول عن العـدالة، الذي كان مستشـاره الوحيد، والذي نصحـه بتأجيل القضية حتى فرصة مناسبـة أكثر، ولما لم يكن بإمكان الرسل الحصول على أي جواب آخر عادوا إلى الوطن.

كيف كتب منجّمو طليطلة حول مايتعلق بالكواكب

وكتب في العام نفسه منجّمو طليطلة رسائل إلى جميع المسيحيين، كان محتواها كما يلي:

«إلى جميع الأتبـاع المخلصين للمسيح، الذين يمكـن أن تصلهم هذه الرسائل، من المعلم جـون داوود الطليطلي، ومن جميع الآخرين للمكان نفسه، أمـاني الصحة ومـواساة الروح القدس، إنه منذ سنـة مولانا ألف ومائتين وتسع وعشرين، سـوف تكون الشمس في شهر أيلول لمدة سبع سنوات في برج الميزان، وسوف تجتمع وقتها جميع الكواكب مع بعضها،

وسـوف تكون الشمس وقتها في ذيـل التنين، وسوف تكون هذه شـارة على حوادث هائلة ومـرعبة، ولسوف تكون هناك عـواصف ريح خلال زحل والمريخ، وسـوف يرتفع البحـر ويصبح عاليـاً بشكل غير معتـاد، وسيكون هناك تصـادم كبير للـرياح، وكأنها متـواجهـة مع بعضهـا، ولسـوف تحجب وتظلم الدنيا كلهـا، وسيصـدر عنها أصـوات مرعبـة، تسبب خفقـان قلوب الناس وتجعلهـا مضطربـة، وستـدمـر الأبنيـة والأشجار، وسوف ترتفع عدة وديان إلى مستـوى الجبال، وسوف تدمر عدة مدن وتسويها الأرض، خاصة القاهرة، وبغداد، وميتاس Methas وطرابلس، وبشكل رئيسي المدن القـائمـة في مناطق الحصبـاء والمناطق الرمليـة، وأثناء حـدوث هذه الأشيـاء سـوف يكون هناك كسـوف للشمس، ولسوف يكون لون الشمس من الساعة الثالثة من النهار حتى منتصف اليـوم أحمر نارياً، مما يشير إلى سفك كبير للدماء، ولسـوف يتبع هذا خسوف للقمر، له ألوان متمازجة، مما يشير إلى اضطراب بين الأمم، وسيكون بعـد هـذا معـارك ومـذابح في الشرق وفي الغـرب، وستكون هناك هزات أرضية وزلازل في جميع أنحاء الدنيا، وسيكون هناك موتان كبير وخلاف في الأمم والممالك، وبين واحـدة وأخرى، وسـوف يموت امبراطور كبير، وبعـد هـذه العـواصف سيبقى قليل مـن الناس أحيـاء، وسيتمتع الذين سيبقـون أحيـاء بوفـرة من الخيرات والثـروة، وسيثـور خـلاف بين المسلمين، وسيتركـون مساجـدهم وسيلتحقـون بالمسيحيين ويتحـدون معهم، وبناء عليـه عندمـا اكتشفنا نحن بشكل عـام هذه الحقـائق مع جميع القضـاة وأصحـابنا من المنجمين في طليطلة، رأينا من الموائم كشفهـا إليكم، ونفـرض عليكم في سبيـل التخلص من ذنوبكم، ومن أجل خـلاص أنفسكم، أن تقـومـوا بنشرهم إلى أناس ليسـوا على دراية بهم، وأن تعدّوا أماكن سليمة لأنفسكـم للبقاء فيها، مادامت هذه الرياح مستمرة، فهي سوف تهب في شهر أيلول، ووقته سوف يكون من الصعب أن تجدوا على الأرض أمـاكن آمنة للسكنى، ولذلـك أعـدّوا

كهوفاً قائمة على سهول محاطة بجبال، وليست مغطاة بالرمال أو الحصى، وعليكم تغطية الكهوف بالألواح، ووضع تراب عليها، ولاتتركوا أشجاراً قريبة منهم، حتى لاتنغلق أبواب الكهوف بهم، وضعوا في هذه الكهوف أطعمة لأنفسكم كافية لمدة أربعين يوماً، واعلموا أيضاً أنه حول هذا الأمر جميع الفلاسفة والمنجمين في اسبانيا، واليونان، والعربية، وأرمينيا، والعبرانيين، لديهم الموقف نفسه والرأي مثلنا نحن أنفسنا، وسمعنا أيضاً أن ملك Manichin يقوم ببناء برج من مواد فخمة، ويساعده في عمارته جميع الجيران، وسوف يكون البرج من الاتساع مثل جبل، وقد أعلمنا أيضاً ملك صقلية بالمخاطر التي بدت لنا قريبة الحلول، وبناء عليه لم يبق من شيء أمام المسيحيين في الأزمة الحالية، سوى أن يسعوا جميعاً لإعداد أنفسهم من أجل توبة مثمرة، بوساطة اعتراف خالص ومتواضع، وبتكفير موائم، من أجل أنه عندما يأتي العريس، لايقابلونه بمصابيح فارغة، مثل العذراوات الحمقى اللواتي ليس لديهن زيت، واللائي —لاسمح الرب— سيجدون الباب مغلقاً في وجوههن، بل أن يكن مثل العذراوات العاقلات، مع مصابيحهن المليئة، واللائي يمكن أن يسمح لهن بالدخول مع العريس إلى احتفال العرس»، ونحن نعتقد واثقين أننا سوف نرى خلال السنوات السبع المقبلات أشياء من هذا القبيل سوف تقع، وهي سوف تقع حقيقة أو بما يشبه ذلك، ومن الممكن أن نجد بعض مايتكيف مع رسائل المنجمين هذه، لكن هذا سوف يأتي فيما بعد.

كيف عمل البابا غريغوري حرباً ضدّ فردريك الامبراطور الروماني

كان في هذه الآونة البابا غريغوري غاضباً، لأن الامبراطور الروماني فردريك قد ذهب إلى الأرض المقدسة، وهو رجل محروم كنسياً ومتمرد، وصار يائساً بشكل مطلق من توبته، والقيام بعمل ترضية يعيد بها

الوحدة إلى الكنيسة، وبناء عليه قرر —بعدما رأى عصيانه وتمرده— أن يطرده من مقامه الامبراطوري، وأن يعين واحداً آخر مكانه يكون ابناً للسلام ومطيعاً، وبما أن معلوماتنا حول هذه القضية، يمكن أن تصلنا بوسائط الآخرين، سوف نقدم هنا رسالة، من واحد اسمه الكونت توماس، كان الامبراطور قد عيّنه لدى مغادرته، ليكون بالتعاون مع آخرين وصياً ونائباً على الامبراطورية، وقد أرسلت رسالة هذا النبيل إلى الامبراطور حول هذه القضية، وقد حصلنا عليها من واحد من الحجاج:

«إلى فردريك السامي والقدير، الذي هو بنعمة الرب أغسطس وامبراطور الرومان، والملك الأعظم قوة لصقلية، من توماس كونت أوف أتيري Atterae تابعه المخلص والمطيع في جميع المجالات، تمنيات الصحة والنصر على أعدائه، بعد مغادرة جلالتكم، حشد غريغوري، الحبر الروماني، والعدو المكشوف لمعاليكم، جيشاً كبيراً، بوساطة جون دي بريين، الملك الماضي للقدس، وبعض الرجال الجريئين الآخرين، الذين عيّنهم مقدمين على حملته، وغزا أراضيكم، وأراضي رعاياكم، دونما تقدير للشريعة المسيحية، وقد قرر اخضاعكم بسيف الفولاذ، ذلك أن جون المذكور قد جمع جيشاً كبيراً من مملكة فرنسا، ومن البلدان الأخرى المجاورة، على أمل الحصول على الامبراطورية، إذا ماتمكن من التغلب عليكم، وقد زود عساكره بعطاء من خزانة الكرسي الرسولي، ثم قام جون المذكور مع المقدمين الآخرين، بغزو أراضيكم وأراضي رعاياكم، وقد ألقى النيران في الأبنية والبلدات، واستولى على المواشي وعلى غنائم أخرى، وجعل السكان أسرى لديه، بعدما عذبهم بمختلف الطرق، وقد أرغمهم على دفع غرامات ثقيلة، وهم لم يوفروا لاعمراً ولاجنساً، ولم يظهروا رحمة إلى أي انسان خارج الكنائس أو المقابر، وهم يستولون الآن على البلدات وعلى القلاع، دون المبالاة

بحقيقة أنك الآن في خدمة يسوع المسيح، وإذا ماأشار أي انسان إلى الامبراطور، فإن جون بريين هذا يعلن أنه لايوجد امبراطور آخر إلى جانبه نفسه، وأصدقاؤك أيها الامبراطور، الأكثر قدرة، قد اعترتهم الدهشة تجاه هذه الأشياء، ولاسيما رجال الدين، وهم يتساءلون، بأي نصيحة وبأي شعور يمكن للحبر الروماني أن يفعل مثل هذه الأشياء، ويشن حرباً ضد المسيحيين، وخاصة أن الرب قد قال لبطرس، عندما كان على وشك أن يضرب رجلاً بسيفه الفولاذي:

«ضع سيفك في غمده، لأن كل واحد يضرب بالسيف، سوف يهلك بالسيف»، ومثل هذا هم أيضاً يتساءلون بأي حق يمكن للذي يقوم كل يوم بحرمان اللصوص كنسياً، والمحرقين، للمسيحيين والمعذبين لهم، والذي يطردهم من حظيرة الكنيسة، يمكنه أن يفوض، ويعطي موافقته على مثل هذه الإجراءات، وبناء عليه، ألتمس منك أيها الامبراطور الأعظم قدرة، أن تتخذ مايلزم من إجراءات من أجل سلامتك، وأن تحفظ كرامتك حتى لاتتدنس بالمسائل المتقدم ذكرها، لأن عدوك جون دي بريين المتقدم ذكره، قد شحن جميع الموانيء الموجودة على هذا الجانب من الماء، بعدد كبير من الجواسيس المسلحين، من أجل أنه إذا ماحدث وعدت من حجّك، يقوموا باعتقالك، لاسمح الرب بذلك.

وفي العام نفسه، لدى اقتراب حلول أربعاء الرماد، التي كانت اليوم الذي جرى تحديده من أجل رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، ولرسل الملك، لسماع القرار الحاسم للبابا، حول الذي ينبغي عمله بموجب الحق حول قضية الانتخاب، وعمل الرسل المتقدم ذكرهم، ولاسيما المعلم جون دي هوتون Houton مرافعات متوالية إلى البابا والكرادلة، لكنه وجد أنه من الصعب اقناعهم، فقد كانوا خائفين جداً من أن ينخدعوا في توقعاتهم، وبناء عليه عقدوا اجتماعاً بغيضاً حول القضايا المذكورة أعلاه، وأخيراً وعد ملك انكلترا البابا بعشر

جميع الممتلكات المتحركة في جميع انكلترا وايرلاندا، وأن يساند حربه ضد الامبراطور، على شرط أن يقف إلى جانب رغبات الملك وخططه، وكان البابا راغباً فوق كل شيء باذلال الامبراطور المتمرد، ولذلك فرح كثيراً تجاه هذه الوعود، واقتنع بالموافقة على شروطها، وبناء عليه أخذ مقعده في المحكمة اللاهوتية، وأصدر قراره كما يلي:

إلغاء انتخاب وولتر الراهب لرئاسة أساقفة كانتربري

«علمنا مؤخراً بالانتخاب الذي جرى في كنيسة كانتربري، لواحد من الرهبان اسمه وولتر، وقد علمنا بعد ذلك بأن الراهب المذكور قد ترافع عن نفسه ولصالحها من أجل انتخابه، كما سمعنا بالاعتراضات والاستثناءات التي عملت من قبل أساقفة انكلترا، ضد انتخابه المذكور، وضد سمات المنتخب، الذي مثل أمامنا بوساطة أسقفي كوفنتري، وروكستر، مع ابننا المحبوب كثيراً رئيس شمامسة بدفورد، ولقد عهدنا إلى إخواننا المبجلين: اللورد أسقف ألبانو، والمعلم توماس دي ستا سابينا Sta sabina والمعلم ب .P كاردينالنا، أن يقوموا بفحص لإمكانيات رئيس الأساقفة المذكور، وعندما مثل المنتخب المذكور أمامهم، وسئل عن نزول ربنا إلى الجحيم، أكان نزوله بالجسد، أو أنه كان محرراً منه، أجاب بشكل غير مرض، وأيضاً عندما سئل عن تكريس جسد المسيح عند المذبح، جاء جوابه غير صحيح، ومجدداً عندما سئل عن راحيل، كيف بكت من أجل أولادها، أجاب بشكل غير صحيح بأن ذلك «عندما ماتت أولاً»، وعندما سئل عن قرار الحرمان الكنسي إذا ما جرى التفوه به مضاداً للشريعة، فأجاب بشكل غير صحيح، وعندما سئل عن زواج، إذا مات واحد من الطرفين المتعاقدين غير مؤمن، فأعطى جواباً غير صحيح، وقد جرى فحصه حول جميع هذه النقاط بكل دقة من قبل الكرادلة، ونحن نقول إنه لم يجب فقط بلا مبالاة، ولكن بشكل غير صحيح، وبما أن كنيسة

كـانتربري هي كنيسـة جليلة، يلزمهـا رئيس أسـاقفـة جليل، وأن يكون انساناً مستقيماً ومتـواضعاً، وأن يكون واحداً مأخوذاً من صـدر الكنيسة الرومـانيـة، إنه بالنسبـة لهذا المنتخب الآن نحن نعلن أننا لانراه جـديراً بالمنصب، لابل أكثـر من هذا إذا مـاأردنا أن نتماشى مع العـدالة بدقـة، علينا أن نرغم على قول شيء أكثـر: إنه غير موائم تمامـاً لترقيته إلى مثل هذا المقـام العالي، ولـذلك نحن نلغي الانتخاب كليـاً، وهو الانتخـاب الذي عمل بـالنسبـة له، ونحتفـظ لأنفسنا بتـزويـد الكنيسـة المذكـورة [برئيس أساقفة]».

ترقية رتشارد إلى رئاسة أساقفة كانتربري

أما وقد جرى الآن إلغاء الانتخـاب المذكور أعلاه على هذه الصورة، قـام وكلاء ملك انكلترا مـع الأساقفـة المسـاعدين لكنيسـة كـانتربري، بحضـور البـابا، بابراز رسـائل معتمدة مـن الملك ومن الأساقفـة، فيهـا قدمـوا اقتراحاً لصالح المعلم رتشارد، مستشـار كنيسة لنكولن، وأعلنوا أنه انسان صـاحب حكمة عـالية، وثقافـة ممتازة، وأحـاديث طيبة، وأنه سـوف يكون مفيداً جـداً لصـالح كنيسـة روما، وكـذلك لصـالح ملك ومملكة انكلترا، وهكذا بعـدمـا أضفـوا جميع أنواع المديح على شخصـه، أقنعوا البـابا والكرادلة بالموافقـة على انتخابه، وبناء عليـه بها أن رتشارد المتقدم الذكر لم يجر انتخابه، بل أعطي لتولي رئاسة الأساقفة، قام قداسة البابا بإرسال رسائل إلى الأساقفـة المساعدين في كانتربري جاء نصها كما يلي:

«من غـريغـوري، أسقف، الخ، الخ، إنـه بمـوجب رعـايتنا بالمنصب الأسقفي الـذي عهـــد به إلينا، ومنـح إلينا من قبـل الرب —مـع أننا لانستحق ذلك— وبموجب وفـرة سلطاتنا الرسوليـة، وبسبب المشاكل الطارئـة التي تقوم يـومياً، نحن مـرغمـون على العناية بجميع الكنائس وبإدارتها جميعـاً، وعندمـا تقـوم الحاجـة، أن نزودها ونؤمن لها مـايلزم

صدوراً عن العدالة واللطف، وبالرعاية الأبوية، وإنه بين جميع الكنائس المقـدرة والكراسي المطرانيـة، نفتح أعين تقديرنا على كنيسـة كـانتربري، ونهتم بحـاجيـاتها، على أسـاس أنها العضو الأكثـر إجـلالاً بين أعضـاء الكرسي الرسـولي، وبحكم كـونها أم الكنائس، فإن الكـرسي الرسـولي ينبغي أن ينظر إليهـا بتقـدير أعظم وبمـزيد مـن الحظوة، وذلك مثلما سكبت الرحمة الربانيـة فـائضـاً من النعمـة، على الاهتمامـات الدنيـوية والروحيـة لذلك الكرسي، وبالنسبـة لهذه الكنيسـة قـام الأعظم سمـواً، لدى توزيعه للأشيـاء بزرعها مثل فردوس النعيم، وجنة الطيبـات، فيها أخرج شجرة معـرفة الأشياء الخيّـرة والشريرة، وذلك في إقـامته للمقام المطراني، وشجرة الحيـاة في الطائفة المنظمة للرهبان، وفي نظام مـراعاتهم لعقائـدهم، وهي شجرة حملـت ثمارها بأشخاص الأسـاقفة المساعـدين، الذين يعطون بأعمالهم الصـالحة بهجة للناظر، ويقـدمون بعقـائد الإيمان طعماً طيباً، وينعشون بالمواقف الطيبة الرائحة، ونبع من المكان نفسه نهر، تميز بدم توماس الشهيـد الرائع، وهو الذي انقسم أثناء جريانه إلى أربعة فـروع رئيسـة، حيث أنها تعيـد الحيـاة إلى الميت، والصحـة للمـريض، والحرية للعبـد، والشجـاعـة إلى الخانع، وعندمـا بحثنـا في تأمل دقيق معجزاته السـامية، وجدنا البهجـة غير العادية والنادرة للزرع اللاهوتي، وبما أن الوصي على هذا الفـردوس، ستيفن صـاحب الذكـرى الطيبـة، الذي كـان مؤخـراً رئيس أساقفـة كـانتربري، وكاردينالاً لدى الكنيسـة الرومانية، وكان رجلاً متميـزاً تماماً بمواهب العلم، مع النعمة السماوية، بما أنه أخذ من مشغل الجسـد، ونقل —كما نأمل— إلى المتعة والهدوء في الفـردوس السماوي، قـام أولادنـا المحبـوبين في التجمع الـديري في كانتربري بإعلامنا بانتخـاب عملوه لواحد اسمه وولتر، وهو راهب من رهبـان كـانتربري، وبعـدمـا بحثنا —بنـاء عليـه— في فضـائل ذلك الانتخاب، وعملنا فحصـاً لمعارف ذلك الشخص، قمنا بنـاء على تقدير صحيح للعـدل، بإلغـاء ذلك الانتخـاب، ورأينا من الموائم أن نضع في

ذلك الفردوس، لإدارته وحراسته، المعلم رتشارد مستشار لنكولن، وهو رجل صاحب كرامة، وواحد منفرد بحياته ومعارفه، وفهمه، وتكوينه، قد عمل وفق مثال الرب وشبيهاً له، وواحد متميز بصحة عقيدته، امتلك نفس الحياة، وذلك بناء على بينات إخواننا الذين عرفوه، أثناء متابعته لدراسته، واكتشفنا مما بيّنه إخواننا: أسقفا روكستر وكوفنتري، وعدد كبير آخر، أنه رجل صاحب تعليم متميز، وحديث طيب، وشهرة بدون شوائب، وحفاظ جيد، ومحافظ غيور على أرواح وامتيازات الكنيسة، ولقد قمنا بناء على نصيحة إخواننا، وبحضور الأسقفين المتقدم ذكرهما أعلاه، بتعيين رتشارد المذكور، رئيساً لأساقفة كانتربري ومديراً، وبناء عليه إننا في هذه الرسائل الرسولية نحذر ونحث اخوتكم، بحكم كونكم أبناء النعمة والتقوى، أن تستقبلوه، وتصغون إليه، في سبيل تشريف الرب، والكرسي الرسولي، وكنيسة كانتربري، وأن يكون ذلك بتواضع، وتقوى مخلصة، وأطيعوه بتواضع واخلاص بمثابة كونه أبيكم، ومدبر أرواحكم، ولأنه أسقفكم المطراني، ويتوجب عليكم بالحقيقة الابتهاج بالرب، لأنه بالتعاون مع نعمته التي وقت جهودنا وأعانتها، وهو تزويد محمود قد عمل لصالح تلك الكنيسة المترملة. صدر، الخ».

كيف أعيدت الأرض المقدسة إلى الامبراطور فردريك

وزار في العام نفسه ربنا يسوع المسيح، منقذ العالم ومواسيه، شعبه برحمته، وفي استجابة لصلوات الكنيسة العالمية، أعاد للشعب المسيحي بشكل عام، وإلى الامبراطور الروماني فردريك بشكل خاص، مدينة القدس، وجميع البلاد التي كرسها الرب مخلصنا، وابن الرب، بدمه، وهكذا كانت الارادة الطيبة لربنا نحو شعبه، الذي أعلى من شأن الرحمة ورفعها إلى الحياة السرمدية، ولعمله انتقاماً على الشعوب، ولاحداثه تمزقاً بين قبائل المسلمين، لأن سلطان مصر، كان في ذلك الوقت، يعيش

وسط لجّة من الحروب الداخلية الشديدة التي قامت ضده من جميع الاتجاهات، ولأنه لم يعد بإمكانه الصمود أمام حروب أخرى، كان مرغماً على عمل هدنة لمدة عشر سنوات مع الامبراطور، وأعطى الأرض المقدسة إلى الصليبيين من دون سفك للدماء، وهكذا أمكن بحرب جيدة أرسلت من قبل الرب، خرق سلام سيء، وإذا ما أردنا فهم هذا اللطف للرحمة اللاهوتية، واظهاره بشكل أوضح للقارىء، علينا قراءة الرسالة التالية، التي هي إحدى رسائل الامبراطور الروماني، وكان قد أرسلها، مختومة بالذهب، إلى هنري ملك انكلترا.

رسالة الامبراطور إلى الملك الانكليزي حول القضية المذكورة أعلاه

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، أغسطس امبراطور الرومان، وملك القدس، وصقلية، إلى صديقه المحبوب كثيراً، الملك هنري، ملك الانكليز، تمنيات الصحة، والعواطف المخلصة، ليفرح الجميع ويبتهجوا بالرب، وليقم الذين هم مستقيمون في القلب بتمجيده، الذي لكي يجعل قدرته معروفة، لم يتفاخر بالخيول والعربات، بل حصل الآن على مجد لنفسه بندرة في جنوده، حتى يعرف ويفهم أنه عظيم بجلالته، مرعب في عظمته، ورائع بخططه نحو أبناء الناس، يغير المواسم بإرادته، ويجمع قلوب الشعوب المختلفة مع بعضها، لأنه خلال أيام، وصل ذلك العمل الى نهاية، بوساطة معجزة، وليس بوساطة قوة، وهو عمل لم يستطع عدد كبير من الزعماء وحكّام العالم، وسط حشود من الأمم، إنجازه في الزمن الطويل الماضي حتى الآن بالقوة، مهما كانت كبيرة، ولابالرعب، ولكي لانبقيك معلقاً لوقت طويل بوساطة رواية طويلة، نحن نرغب في إعلام قداستكم، بأننا نضع ثقتنا بأن يسوع المسيح، هو ابنه، الذي بخدمته نحن معرضون أجسادنا بتقوى عظيمة جداً، وكذلك حياتنا، وهو لن يتخلى عنا في هذه البلدان النائية وغير المعروفة، وهو

سيقدم إلينا على الأقل نصيحة صحيحة، ومساعدة من أجل تشريفه، وحمده، ومجده، فبجرأة انطلقنا باسمه من عكا في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني، وعبرنا أخيراً، ووصلنا سالمين إلى يافا، عازمين على إعادة بناء القلعة في ذلك المكان بحصانة مناسبة، حتى يكون فيما بعد الوصول إلى مدينة القدس المقدسة ليس فقط أسهل، بل أيضاً أسلم، وأكثر أماناً بالنسبة لنا ولجميع الصليبيين، وبعدما صرنا هناك واثقين تماماً باعتمادنا على الرب، انشغلنا في يافا، وانصرفنا نحو الاشراف نحو بناء القلعة، والاهتمام بقضية المسيح، حسبما تتطلب الضرورات، ووفقاً لما تقتضيه واجباتنا، وفي أثناء انشغال حجاجنا بهذه المسائل، تكرر تبادل الرسل بيننا وبين سلطان مصر، لأنه كان مع السلطان سلطان آخر اسمه الأشرف Xaphat وهو أخوه، وكانا معاً مع جيش كبير عند غزة، على مسافة سفر يوم واحد عنا، في اتجاه آخر لمدينة شكيم، التي تعرف بشكل عام باسم نابلس، وهي قائمة في سهل، وكان ابن أخوه، سلطان دمشق، مقيماً مع عدد كبير من الفرسان، والجنود على مسافة سفر يوم واحد عنا وعن الصليبيين، وأثناء سير المفاوضات من أجل عقد معاهدة بين الطرفين على كلا الجانبين، من أجل استرداد الأرض المقدسة، تجلى أخيراً يسوع المسيح ابن الرب من الأعلى على صبرنا التقوي، ومثابرتنا الخاشعة في سبيل قضيته، وفي عطفه الرحيم علينا، جعل سلطان مصر يعيد إلينا المدينة المقدسة، وهي المكان الذي سار فيه المسيح بقدميه، وحيث عبد المؤمنون الصادقون الأب بالروح وبالحقيقة، وفي سبيل إخباركم عن كل واقعة من وقائع هذا التسليم كما حدثت، ليكن معلوماً من قبلكم أنه ليست المدينة المتقدم ذكرها وحدها هي التي سلمت إلينا، بل المنطقة كلها الممتدة من هناك إلى ساحل البحر، قرب قلعة يافا، وذلك في سبيل أن يمتلك حجاج المستقبل ممراً حراً وآمناً للذهاب إلى الضريح المقدس والعودة منه، على شرط أن مسلمي ذلك الجزء من البلاد —بما أنهم يقدرون الأقصى تقديراً عظيماً— يمكنهم أن

يأتوا إلى هناك ويترددوا عليه بقدر ما يختارون، على شكل زوار للتعبّد هناك، وفقاً لعاداتهم، هذا ولسوف نسمح إليهم بالقدوم من الآن فصاعداً بالعدد الذي نأذن به، من دون سلاح، كما أنهم لايمكنهم الإقامة بالمدينة، بل خارجها، وأن يغادروا فور تأديتهم لعباداتهم، وعلاوة على هذا أعيدت مدينة بيت لحم إلينا مع جميع المنطقة القائمة بين القدس وبين تلك المدينة، وكذلك مدينة الناصرة، والمنطقة كلها القائمة بين عكا وتلك المدينة، وجميع منطقة تورون، التي هي واسعة جداً، ومفيدة جداً للصليبيين، وأعطيت مدينة صيدا إلينا أيضاً مع جميع السهل وأحوازها، وسوف تكون أكثر قبولاً للصليبيين وأكثر منفعة، مثلما كانت حتى الآن بالنسبة للمسلمين، وخاصة أنه يوجد ميناء جيد هناك، ومن هناك من الممكن نقل كميات كبيرة من الأسلحة والحاجيات إلى مدينة دمشق، وفي الغالب من دمشق إلى القاهرة، ومع أنه مسموح لنا بموجب المعاهدة بإعادة بناء مدينة القدس، وأن نجعلها في أحسن حالة كانت عليها قط، وكذلك قلاع: يافا، وقيسارية، وصيدا، وقلعة القديسة مريم التابعة لطائفة التيوتون، والتي بدأ رهبان هذه الطائفة بعمارتها في المنطقة الجبلية لعكا، والتي لم يسمح للصليبيين قط بفعله أثناء أية هدنة سالفة، إنه مع ذلك، غير مسموح للسلطان، حتى نهاية الهدنة بينه وبيننا، والتي مدتها المتفق عليها عشر سنوات، بترميم أو إعادة بناء أياً من حصونه أو قلاعه، وهذا كان في يوم الأحد الثامن عشر من شباط الذي مضى مؤخراً، الذي هو اليوم الذي قام فيه المسيح ابن الرب من الموت، والذي هو بناء على قيامته يرعاه المسيحيون بوقار، ويحتفلون به ويعدونه مقدساً بشكل عام في جميع أرجاء العالم، وتأكدت هذه المعاهدة بتبادل الأيمان بيننا، وحقاً أشع هذا اليوم، على الجميع بشكل مفيد، وهو اليوم الذي فيه تغني الملائكة بحمد الرب:

«المجد للرب في الأعالي وعلى الأرض السلام، وحسن الارادة نحو

الناس»، وفي اعترافنا بمثل هذا اللطف العظيم، وهذا التشريف الجليل، الذي جاء فوق رغباتنا،وعلى عكس آراء كثيرين، والذي أضفاه الرب برحمته علينا، من أجل رحمته الدائمة المشهورة، ومن أجل أن نتمكن شخصياً أن نقدم إليه قرابين شفاهنا الملتهبة، ليكن معلوماً أننا في اليوم السابع عشر من شهر آذار من هذه الخمس عشرية الثانية، قمنا نحن برفقة جميع الحجاج الذين تبعوا معنا باخلاص المسيح ابن الرب، بالدخول إلى مدينة القدس المقدسة، وبعدما تعبدنا الضريح المقدس، جرى في اليوم التالي تتويجنا بحكم كوننا الامبراطور الكاثوليكي، وهو أمر منحنا إياه الرب القدير من عرش جلالته، عندما رقانا بنعمته الخاصة وجعلنا الأعلى بين أمراء العالم، وهكذا إنه أثناء دعمنا لشرف هذا المقام العالي، الذي عائد إلينا بموجب حق السيادة، بات واضحاً أكثر فأكثر إلى الجميع بأن يد الرب قد صنعت هذا كله، وبما أن رحمته فوق جميع أعماله، يتوجب على المؤمنين بالعقيدة السليمة، أن يعرفوا منذ الآن، وأن ينشروا في الطول والعرض في جميع أرجاء الدنيا، بأنه الذي هو المبارك دوماً قد زار شعبه وخلصه، وأنه رفع عالياً صوت الخلاص في بيت عبده داوود، وقبل أن نغادر مدينة القدس، قررنا بفخامة أن نعيد بناء أبراجها وأسوارها، ونوينا أيضاً أن نرتب الأمور بحيث تسير خلال غيابنا ليس بعناية أو رعاية أقل، أثناء سير الأمور كما لو كنا حاضرين شخصياً، ومن أجل أن تكون رسالتنا الحالية مبعث سرور كامل في جميع الأنحاء، وأن تكون نهايتها سعيدة مثل بدايتها، ولكي تبتهجوا بعقلكم الملكي، نرغب بأن يكون معلوماً لديكم، وأنتم حلفاء لنا، أن السلطان قد تعهد أن يعيد إلينا جميع الأسرى، الذين —بموجب المعاهدة المبرمة بينه وبين الصليبيين— لم يطلق سراحهم عند فقدان دمياط منذ بعض الوقت، وأيضاً الأسرى الآخرين الذين وقعوا بالأسر بعد ذلك. صدر في مدينة القدس المقدسة، في اليوم السابع عشر من شهر آذار، من عام تجسيد ربنا، ألف ومائتين وتسعة وعشرين».

العلامات التي تقدمت على استرداد الأرض المقدسة

يتوجب أن نلاحظ أنه فيما يتعلق بهذه الإعادة لأرض المعياد والقدس إلى الصليبيين، أن منجمي طليطلة قد كتبوا، قبل حدوث هذا الفرح العام والسرور بين الصليبيين، عن التقاء الكواكب، وعن عواصف مرعبة من الريح، وأن العواصف سوف تتصادم، وأنه سيكون في الوقت نفسه زلزال، وكسوف للشمس وخسوف أيضاً للقمر، وهذا ماتقدم ذكره في سياق أحداث هذا العام، وبالطريقة نفسها حدث أخذ الأرض المقدسة وصليب ربنا، من قبل صلاح الدين الرجل العنيف والشديد، فقد كتب آنذاك أيضاً بعض المنجمين، الذين كانوا يعيشون وقتها في المدينة نفسها، إلى البابا كليمنت كما يلي:

«إنه من العام الحالي، الذي هو عام ألف ومائة وتسعة وسبعين لتجسيد ربنا، حتى مضي سبعة أعوام، وفي شهر أيلول، سوف تكون الشمس في برج الميزان، وذيل التنين، وسوف إذا أذن الرب يكون اجتماع للكواكب في برج الميزان وذيل التنين، وهذه شارة لها أهميتها حول حوادث ثابتة، وسوف يلي ذلك زلزال مخيف، ولسوف تتدمر أماكن الدمار المعتادة، ويلحقها الخراب من قبل زحل والمريخ، الخ، ولسوف ينتج اتحاد الكواكب هذا، ريحاً قوية، سوف تجعل الهواء كثيفاً ومظلماً، ومشبعاً بالسم، وسيكون صوت هذه الريح مخيفاً، ترتجف منه قلوب الناس، وسوف تثور الرمال من المناطق الرملية، ولسوف تغمر المدن القائمة على مقربة منها في السهول، وسيطال ذلك في المقام الأول المدينتين الشرقيتين: مكة، والقاهرة، وجميع المدن الواقعة قرب أماكن رملية، ومامن أحد سوف ينجو من غمره بالرمال والتراب، هذا ولسوف تتقدم على هذه الحوادث علامات دالة عليها، وسوف يكون بالعام نفسه قبل اجتماع الكواكب في الميزان، كسوف كامل للشمس، وفي الصراع المتقدم سيكون هناك خسوف كامل للقمر، وسوف يكون

كســوف الشمس نارياً، ولوناً غير مــرئي، مما يشير أنــه ستكون هناك حــرب بين الزعماء قرب نهر في الشرق، ومثل ذلـك في البلدان الغربيـة، وسوف يـدب الشك بين اليهود وبين المسلمين، إلى حد يصلـون فيه إلى التخلي عن كنسهم وعن مسـاجدهم، وسوف تتعـرض طائفتهم —بناء على أوامـر الرب— إلى الدمار الكلي، والمحق التـام، وبناء عليه، عندمـا سترى كسوفاً، اعلم أن عليك مغادرة تلك البلاد مع جميع أتباعك».

كيف أنه للذنوب إنسان ضاعت الأرض المقدسة

وكـان في ذلك الـوقت كثيراً من الشرور بين الناس على الأرض، إلى حـد أن «جميع الأجساد قـد أفسـدت طريقهـا أمام الرب»، لأن ممارسـة الذنب قـد تفجر بين الناس وانتشر، إلى حـد أن الجميع قد ألقـوا جانبـاً حجـاب الخجل، وكان الميل في كل مكان إلى الشرور بشكل مكشـوف، وســوف يكون متعبـاً جـداً تعــداد جـرائم: القتـل، والسلب، والزنا، والفحش، والكذب، والخيانة، وجـرائم أخرى، خاصـة بالنسبة لنا نحن الذين ننوي أن نكتب عن الأحداث التي وقعت، وعلى كل حـال بعدما تمكن العدو القديم للانسان من نشر روح الفساد في الطول والعرض في العـالم، غزا سـورية بشكل خـاص، وهي المكان التي منهـا تلقت الأمم الأخـرى دينهــا في المقـام الأول، ثم إنها أخـذت مـن ذلك المكان المثل لجميع الدناســات، ولهذا السبب —بناء عليـه— عندمـا شــاهد الرب مخلص العالم، بأن أرض ميـلاده، وآلامه، وقيامتـه، قد سقطت في أعماق الشرور، رفض ميراثه وازدراه، وسمح لعصـا غضبه، الذي هو صـلاح الدين، بصب جــام غضبــه، لمحق ذلك الجنس العنيــد، لأنه فضّل أن يجري استعبـاد تلك الأرض المقدسـة من قبل الطقوس المدنسـة للأمم، على أن يستمـر أولئك الناس بالازدهار أية مدة أطول، لأنهم كـانوا غير متمنعين عن اقتراف أي عمل غير شرعـي، بوســاطة أي تقــدير لما هو صحيح، وأنذرت حـوادث متنوعـة باقتراب الدمـار الذي كـان سيقع،

وتجلى ذلك بمجاعة كبيرة، وبزلازل متوالية، وبكسوفات للشمس وخسوفات للقمر، أما بالنسبة لعاصفة الرياح، التي قال بوقوعها منجمو طليطلة من خلال مراقبة النجوم، وأنها سوف تأتي من اجتماع الكواكب، وأنها سوف تترافق مع موتان، وأجواء فاسدة، قد تغيرت بدون شك لتدلل على الحادثة التالية، لأنه كان في الربيع رياح قوية، هزت الأركان الأربعة للعالم، وهذه أنذرت بأن مختلف شعوب الدنيا، سوف تثور لإنشاب القتال، ولتدمير الأرض المقدسة، وقد بقيت مدينة القدس المقدسة مع جميع أرض الميعاد، وكذلك الصليب المانح للحياة، والعائد إلى ربنا، في أيدي أعداء المسيح لمدة اثنين وأربعين عاماً، حتى العام الحالي، وهو عام ألف ومائتين وتسعة وعشرين لتجسيد ربنا، عندما حان أخيراً الوقت لمولانا في رحمته، ليصغي إلى صلوات عبيده المتواضعين، وليعيد بناء صهيون، وليظهر بمجده في مكان ولادته المقدسة، وآلامه، وقيامته، وليستمع إلى نحيب شعبه المستعبد، وليحرر أبناء المدمرين، حقاً، وإنه لمما لاشك فيه أن الرب سمع أنين شعبه المستعبد أثناء استعادة الأرض المقدسة، الأمر الذي تحقق في ذلك الوقت من خلال سهر الامبراطور فردريك، بالتعاون مع الرحمة اللاهوتية، ومثل هذا حدث إلى جميع الأسرى الذين كانوا تحت سلطة الكفار، وكانوا خاضعين إلى أسوأ أنواع العبودية، فقد تحرروا من نير العبودية، وقدموا إلى مدينة القدس المقدسة، حيث أظهروا أنفسهم إلى كثيرين، وبعدما فرغوا من عباداتهم في الأماكن المقدسة الموجودة في المدينة المقدسة، عادوا إلى بلدانهم في مختلف أنحاء العالم، يحمدون الرب، ويباركونه في جميع الأشياء، لأنهم سمعوا وشاهدوا الأعمال الرائعة التي عملها الرب من أجلهم، وأراهم إياها.

مصالحة مدينة القدس المقدسة والأماكن الأخرى

وكما سلف وقلنا، دخل الجيش الصليبي إلى مدينة القدس المقدسة،

وقـام البطريرك مع الأساقفـة المسـاعدين بتطهير هيكل الرب، وكنيسـة ضريحه المقـدس وقيـامته، وجميع الكنائـس الأخرى المقـدسـة في المدينة، وغسلوا البـلاط والجدران بالماء المقـدس، وعملوا مسيرات مع الترانيم والمزامير، وصـالحوا لأجل الرب جميع أماكنـه، التي تلوثت لزمن طويل بدنس الكفـار، لكن بحكم أن الامبراطور كان محرومـاً كنسياً، لم يتجـرأ رجل دين، طوال إقامتـه في داخل المدينة، على إقامة قداس فيهـا، وقام، على كل حال واحـد اسمه المعلم وولتر، وكان متـديناً، وحكيماً، ورجلاً مستقيماً، ومن أتباع طائفـة المبشرين، وكان قـد عهد إليه مـن قبل البابا، بواجب وعـظ جيش المسيح، وهو واجب قـام بـه على أحسن مـايرام لوقت طويل، قـام بعمل قـداسـات في كنائس الضـاحيـة، بها أثار كثيراً خشـوع الصليبيين، واستحـوذ بعد هذا جميع الأسـاقفـة من عـاليهم إلى دانيهم، وكـذلـك جميع رجـال الدين على كنائسهـم، وأعيـدت إليهم ممتلكاتهم القـديمة، وفـرحوا كثيراً بسبب هذه الأعطيـات السماوية التي أضفيت عليهم أكثر مما توقعوه، وانطلقوا جميعاً نحو العمل بالتعاون مع بقية الحجـاج، وبذلوا نفقات كبيرة وجهـوداً عظيمة لإعـادة بناء المدينة، ولإحـاطة الأسـوار بخنادق، ولترميم شرافـات الأبراج، ولم ينفـذ عمل هذا في مدينة القدس المقـدسة فقط، وإنما شمل ذلك جميع المدن والقلاع في تلك البلاد، التي سار فوقها يسوع المسيح بقدميه المقدستين، وكرسها بدمه المقدس.

أسباب شكوى البابا ضدّ الامبراطور

ووصل في العام نفسه المعلم ستيفن، الذي كـان قسيس ورسول البابا إلى انكلترا، إلى الملك، ليجمع العشور التي كـان رسل الملك المذكور قد وعدوا بها قداسته من أجل متابعـة حربه ضد الامبراطور الروماني، لأن البابا قد سمع عن جرائم كثيرة مقيتة اقترفت ضد الشريعة المسيحية من قبل الامبراطور المذكـور، وعنهـا قـد أمـر بكتـابـة رواية، وتدبر نشرها

برسائل أرسلت من قبل الكرسي الرسولي، في مختلف أجزاء العالم، وكانت أول التهم التي صدرت بحقه، قيامه في يوم بشارة مريم المباركة، بالدخول إلى كنيسة الضريح المقدس في القدس، مع أنه كان محروماً كنسياً، ووقف هناك أمام المذبح الكبير، فتوّج نفسه بيديه، وبعدما تولى تتويج نفسه، جلس هناك في المقعد البطريركي، وألقى كلمة بالناس لطّف فيها شروره، واتهم الكنيسة الرومانية بأنها عملت بشكل غير عادل ضده، ثم إنه خرج من الكنيسة، يحيط به جمهور من أتباعه، ولم يكن معه أياً من رجال اللاهوت، وكان مرتدياً تاجه، ومضى إلى قصر الاسبتارية، وقد قيل أيضاً، أنه أكل في قصره في عكا وشرب مع مسلمين، وقدم نساء راقصات مسيحيات للرقص أمامهم، وقد قيل بأنهم بعد ذلك تولوا الاتصال بهن، وأيضاً مامن أحد سواه عرف شروط المعاهدة التي أبرمها مع السلطان، وقد ظهر واضحاً —بقدر مايمكن للمرء أن يحكم من المظاهر الخارجية— بأنه توافق مع شريعة المسلمين، أكثر من توافقه مع شريعة إيماننا، إلى حد أنه اتبع عاداتهم في عدة نقاط، وورد كذلك في الاتفاقية المكتوبة بينه وبين السلطان، والتي تدعى باللغة العربية «مصافاه» شرط قضى أنه أثناء الهدنة سوف يساعد السلطان ضد جميع الناس من مسيحيين ومسلمين، سواء، وفي الجهة المقابلة سوف يساعده السلطان بالطريقة نفسها، وأنه أيضاً انتزع من كهنة الصليب المقدس في عكا، بعض مواردهم، التي كانت حقاً لهم في ميناء عكا، وأنه أيضاً نهب رئيس أساقفة نيقوسيا في قبرص، كما أنه في معاداة منه للبطريرك قام بحماية أحد الأساقفة السوريين، بوساطة السلطة المدنية، وكان هذا الأسقف قد رسم من قبل واحد كان محروماً كنسياً، ومنشقاً، كما أنه قام أيضاً بنهب كهنة الضريح المقدس، وحرمهم من منح ذلك الضريح، وسلب البطريرك أيضاً من المنح التي يجري تقديمها عند الجمجمة والجلجلة، وسلب أيضاً كهنة الهيكل المقدس من منحهم، وقد جمع كل هذه المنح بوساطة وكلائه، ولهذا السبب

الإجرامي حـرمه كنسياً أخوه وولتر مع جميع أتبـاعه في مـدينة القدس، وكذلك أمـر في يوم أحد السعف بجـر الوعاظ وانزالهم بـالقوة من على المنابر، حيث كانوا يعظون، وأهانهم وسجنهم، كما أنه قام في حوالي أيام آلام ربنا بحصـــار البطـريرك، وأسقفي وينكستر واكستير والـداوية في بيـوتهم، لكن عندمـا رأى أنه لن يحصل على مـايريـده غـادر مضطرباً، ولهذه الأسباب —مع أنه ليست هناك حاجة لأسباب أخرى— لم يقدر قـداسة البـابا مطلقاً الذي فعله بـالأرض المقدسـة، وعمل حرباً ضـده، مـؤكـداً أنها حـرب عـادلة وضرورية من أجل الإيمان المسيحي، وأن مسبب الاضطراب للكنائس ينبغي خلعه من المقام الامبراطوري، ويظل ماهو أعظم إثماً من جميع هذه الآثام، هو أنه أثار اضطهاداً مخيفاً ضد أمه كنيسة روما، واستولى على ممتلكات قلاعها وأراضيها، والمقتنيات العائدة إليها، وهو حتى الآن محتفظاً بهم، بمثابة عدو معلن.

العشور التي جمعت في انكلترا من أجل البابا غريغوري

وفي حوالي هذا الوقت، تولى المعلم ستيفن قسيس البابا ورسوله شرح أعمال البابا، وبيّـن سبب قدومـه إلى انكلترا إلى الملك، وبناء على ذلك، عقد الملك في الأحـد الثاني بعد الفصح، اجتماعـاً في ويستمنستر لرؤساء الأسـاقفـة، والأسـاقفـة، ورعـاة الديـرة، ورؤسـاء الرهبـان، والداوية، والاسبتـارية، والايرلات، والبـارونات، وقسـاوسـة الكنـائس، وكل المتسلمين لوظائف عـاليـة من قبله، لسماع الرسـالة المتقـدم ذكـرها، وللتباحث حول القضـايا الهامة بشكل عام، وعندمـا بناء عليه اجتمعوا جميعاً، علمانيين ورجـال دين مع أتباعهم، قـرأ المعلم ستيفن بحضورهم جميعاً رسائل البابا، المطالبـة بجزء العشر من جميع الممتلكات المتحركة في جميع أنحـاء انكلترا، وايرلاندا، وويلز، مـن رجـال الدين، وكـذلك من العلمانيين، حتى يتمكن من متـابعـة الحرب التي شرع بها ضد فـردريك الامبراطور الرومـاني، كما أنه أعلن في هذه الرسـائل أنه هو وحـده تولى

القيام بهذه الحملة لصالح الكنيسة العالمية، التي يسعى الامبراطور المذكور إلى قهرها، مع أنه محروم كنيساً منذ وقت طويل ومتمرد، وبما أنه من الواضح أن الكرسي الرسولي لم يكن غنياً بما فيه الكفاية حتى يتمكن من تدميره، فهو قد أرغم على طلب المساعدة من جميع أبناء الكنيسة، فبوساطة هذه المساعدات قد يتمكن من ايصال الحملة المرغوب بها، التي بدأ بها، إلى نهاية، ذلك أنها الآن ببعض المعايير تتقدم، وأخيراً نصح البابا في نهاية رسالته الجميع أفراداً وجماعات، بتقديم مساعدة قوية إلى الكنيسة، لأنهم أطراف الكنيسة، مثلما هم الأولاد الطبيعيين لكنيسة روما، التي هي أم جميع الكنائس، ويخشى —لاسمح الرب— أنهم إذا ماعجزوا عن تقديم المساعدة، أن يستسلم الجسد كله وتتداعى الأطراف، وبمثل هذه المناقشات التي وردت في رسالة البابا، سعى المعلم ستيفن إلى اقناع الذين كانوا حضوراً بالموافقة على الطلب، عارضاً التشريف والمنفعة التي سوف يحصل عليها الذين سوف يكونوا مطيعين، وكان الجميع يأملون أن يقوم الملك بمعارضة هذه الجبايات، لكنه ماكان بإمكانه فعل ذلك، لأنه كان قد وعد بدفع هذه العشور في روما، بوساطة رسله، كما ذكرنا أعلاه، وبما أنه لم يقدم جواباً، بدا بصمته أنه موافق، لكن الإيرلات والبارونات وجميع العلمانيين، أعلنوا بشكل واضح، أنهم لن يوافقوا على هذه العشور، كما أنهم لايرغبون بوضع بارونياتهم، أو ممتلكاتهم المدنية تحت تصرف الكنيسة الرومانية، أما بالنسبة للأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين الآخرين، فقد قاموا بالموافقة، بعد مناقشات صاخبة لمدة يومين أو ثلاثة، ذلك أنهم كانوا خائفين من نيل عقوبة الحرمان الكنسي أو الحرمان من شراكة المؤمنين، إذا ماعارضوا الأوامر الرسولية، ثم أظهر المعلم ستيفن أمام جميع رجال الدين رسائل توكيل من البابا، بها عيّنه وقداسته وكيلاً عنه لجمع العشور المذكورة، وأنه يتوجب جمع هذه العشور، ليس مثلما كان قد فعل في فرض ضريبة جزء العشرين، التي

قد دفعت قبل وقت قصير إلى الملك حتى يحصلوا على امتيازاتهم، بل ينبغي جمعها، وفق أحسن طريقة لصالح البابا ومنفعته، وبناء عليه توجب فرض الضريبة على جميع السلع والمقتنيات المتحركة لكل واحد، حتى يدفع أقصى مايمكن، أي العشر من جميع الموارد، والمرابح السنوية، ومنتجات الأراضي المفلوحة، والمنح، والعشور، والمؤن للناس وللدواب، وجميع موارد الكنائس والممتلكات الأخرى، مهما كان العنوان الذي دونت تحته، دون أن يقوموا في أية مناسبة من المناسبات بحذف ديون أو نفقات، وكان بهذه الرسائل نفسها مخولاً بفرض الحرمان الكنسي على جميع المتذمرين، وأن يضع الكنائس تحت عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وبناء عليه، بعدما عيّن نوابه في كل كونتيه في انكلترا، حرم كنسياً جميع الذين هم أنفسهم، أو بوساطة الآخرين، مارسوا أي تواطؤ، أو خداع، أو عملوا أية اتفاقات غير عادلة، أو قاموا بأي حذف، فيما يتعلق بقضية دفع العشور المتقدم ذكرها، وبما أن المساعدة الفورية كانت ضرورية بالنسبة لهذه المسألة، أمر جميع رجال الدين والآخرين، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، أن يقوموا بين أنفسهم، أو بطرق أخرى أو بآخرين، على الفور بتسليم المال الذي كان قد طلبه، حتى يتمكن من ارساله مباشرة إلى البابا، وأنهم فيما بعد يمكنهم استرداد مادفعوه كاملاً، من العشور التي سوف تؤخذ من كل واحد، لأنه قال بأن البابا متورط بديون كثيرة، إلى حد أنه هو غير عارف كيف يمكنه متابعة الحرب، التي بدأها، ثم أنهى الاجتماع، ومضى كل منهم منصرفاً وهو يتمتم منزعجاً.

الفرض المؤلم للعشور المذكورة

وأرسل بعد هذا المعلم ستيفن رسائل إلى كل واحد من الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين، من مختلف الأوضاع، في جميع أرجاء المملكة، آمراً إياهم، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي،

والحرمـان من شراكـة المؤمنين، أن يرسـل إليهم، في يوم حـدده، مبلغـاً معيناً من المال الذي جرت مؤخـراً الموافقة عليه، وأن يوزن بكـل دقة، حتى يتمكن من إرضـاء الذين أقـرضـوا البـابا، ولكي يتجنبـوا عقـوبة الحرمـان مـن شراكـة المؤمنين، وقـد مـارس في فـرض هـذه الضريبـة واستخراجها، جبايات كانت مؤلمة إلى حد أنه أرغم كل واحد أن يعطيه قيمة العشر، حتى من موسم الخريف المقبل، الذي لم يكن قد أثمر بعد، وعندما لم يجد الأسـاقفة أمامهم مـوارد للدفع، أخذوا كـؤوس القربان، والطوس، والأقـداح، والأواني المقـدسـة الأخـرى، من الكنائس، وقـد باعـوا بعضها، وبعضهـا الآخـر رهنوه مقابل فـائـدة، وامتلأت البـلاد، بشكاوى متـواصلة، وإن كـانت سرية، وصلى الجميـع من أجل أن لا تكون هذه الجبايات منتجة نفعاً للذين فرضوها، وكان رالف ايرل أوف شيستر هو الوحيد الذي رفض اخضاع أراضيه للتابعية، ولم يسمح لأي من رجال الدين والكهنة بتقديم هذه العشور وجبايتها من اقطاعيته، مع أن انكلترا، وويلز، وسكوتلندا، وايرلندا، كلهم أرغموا على دفعهم، وفي جبـاية هذه العشـور، توفـرت ناحيـة واحـدة أعطت شيئاً من المواسـاة والراحة، تمثلت بأن ممالك القارة، والممالك التي وقعت على بعد، لم تكن معفية من هذه الضريبـة، وعندما أخيراً وصل مبلغ المال الذي جمع بهذه الطريقة، إلى الحبر الأعظم، قـدمه بكرم إلى جـون دي بريين، وإلى القادة الآخـرين لجيشه، وسبب هذا أذى عظيماً للامبراطور، لأنهم دمّـروا أثناء غيابه بلداته وقلاعه.

وفي العـام نفسـه، في ٢٧- أيار، جـرت سيـامـة روبرت دي بنغهـام Bingeham الأسقف المنتخب لسـالسبري، من قبـل وليم أسقف ووركستر، وجـرت السيامـة في شيبتـون Shepton وساعـده في ذلك الأسقفان جوسلين أوف باث، والاسكندر أوف كوفنتري.

و في هذا العام أيضاً، في أحد الشعـانين، في الثالث من حزيران، منح

الملك هنري حزام الفروسية إلى جون بن هيوبرت، مسؤول العدالة في انكلترا.

تكريس رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، إلخ

وفي العام نفسه، في أحد الثالوث المقدس، اجتمع الأساقفة المساعدون لكنيسة كانتربري، في تلك المدينة، وجرى في ذلك اليوم تكريس رتشارد، رئيس الأساقفة المنتخب، من قبل هنري أسقف روكستر من دون الطيلسان، وبناء عليه سمح له إما برسم الكنائس أو بتكريسها، ومعه جرى في اليوم نفسه، الذي كان العاشر من حزيران، تكريس روجر الأسقف المنتخب للندن، وهيوج أوف إيلاي، من قبل الأسقف نفسه، أمام المذبح الكبير، في كنيسة الثالوث المقدس.

الاستعدادات الكبيرة لملك انكلترا للعبور إلى فرنسا

وفي هذه الآونة نفسها، أيام عيد القديس ميكائيل، جمع الملك هنري في بورتماوث جميع نبلاء مملكة انكلترا، أي الايرلات، والبارونات، والفرسان، مع حشد كبير من الجنود من خيالة ورجالة، بعدد ليس معتقداً أن أياً من أسلافه قد جمع مثله مع بعضه بعضاً قط، لأن حشداً كبيراً من الفرسان والجنود قد وصل إليه من بلدان: إيرلاندا، وسكوتلندا، وويلز، وغالوي Galway وقد أصيب الجميع بالدهشة، لأن الملك عزم على عبور البحر مع هذه القوة الكبيرة، لاسترداد الملكية على الأراضي التي كان والده قد فقدها، لكن عندما أراد مقدمو جيش الملك وقادته نقل الامدادات والأسلحة ووضعها على ظهر السفن، وجدوا قليلاً منها لم تكن كافية لنقل نصف الجيش، وعندما حملت هذه الأخبار إلى الملك، غضب كثيراً، وألقى اللوم كله حول هذا، على هيوبرت دي بورغ مسؤول العدالة، ودعاه أمام الجميع باسم خائن قديم، واتهمه باستلام خمسة آلاف مارك من ملكة فرنسا، حتى سبب

هذا النقص من أجل إعاقة خططه، وأثناء غضبه جرد سيفه، وحاول أن يقتل المسـؤول عن العـدالة، لكن رالف ايرل اوف شيستر تـدخل مع آخرين كـانوا حاضرين، وأنقذوه من الموت، وقد سحب نفسـه من أمام حضرة الملك، حتى يهدأ غضبـه ضـده ويبرد، وفي الوقت نفسـه، في التـاسع من تشرين الأول، وصل هنري كـونت بريتـاني إلى ذلك الميناء، ليقود الملك آمناً إلى أراضيه، حسبما كان متفقاً عليه، ومؤكداً بالأيمان فيما بينهما، لكنه بالاتفـاق مع بعض الحكماء الآخـرين في الجيش، نصحـوا الملك ليـؤجل الحملة حتى عيـد الفصـح المقبل، لأنه كـان خطراً القيـام بمثل هذه الرحلة الصعبة أثناء الشتاء، وبناء على هذا أعطى الملك الإذن إلى جميع الجيش بالعودة إلى الديار، وتصـالح هو والمسؤول عن العدالة، ثم قـدم كـونت بريتـاني الولاء إلى الملك ضـد جميـع الناس، من أجل بريتاني، وأعـاد الملك إليه جميع حقـوقه في انكلترا، وبعدمـا أعطاه خمسة آلاف مارك للـدفاع عن أراضيـه، أرسله عائـداً إلى مقاطعتـه، وفي العام نفسـه، في ٢٣ تشرين الثـاني، استلم رتشـارد رئيس أسـاقفـة كـانتربري الطيلسـان الذي أرسل إليه من قبل البـابا، وبحضـور الملك والأساقفـة المساعدين عمل قداساً وهو مرتدياً للطيلسان، في الكنيسة الكاتدرائية في كانتربري.

الموت الشرير لمرابي

وعاش في هذه الآونة في بريطانيا الدنيـا واحد من المرابين، الذي كان يقرض مـاله مقابل فائـدة، ومن ذلك جمع ثروة كبيرة، ومع أنه غالبـاً ما أخبر من قبل أسقف ذلـك المكان، أنه كـان أمـراً غير قـانوني أن يزيد أمـواله بوساطة الربا، لم يصـغ للأسقف، وثابر في مسعاه لجمع الثـروة، مع أن ذلك كـان وفق هذه الطريقـة غير الصحيحـة، وبناء على ذلك عندمـا وجـد الأسقف أن الرجل غير قـابل للاصـلاح حـرمـه كنسيـاً، وأبعده عن جماعـة المسيحيين، غير أنه استخف بذلك، لكنه مـالبث بعد

ذلك طويلاً حتى أنهى حياته بشكل تعيس، دون أن يتناول القربان، أو يقوم بالاعتراف، وقد ذهبت زوجته وأولاده إلى كاهن البلدة، وطلبوا منه دفن المتوفى وفق طقوس الكنيسة، لكن الكاهن رفض ذلك، لأنه مات وهو محروم كنيساً، وأمرهم بدفنه خارج البلدة في مكان يلتقي فيه طريقان، وبناء على هذا ذهبت الأرملة مع أولادها إلى الكونت، وتقدمت إليه بشكوى بأن الكاهن رفض أن يدفنه دفناً كنسياً، لكنها أخفت السبب، وهو أنه مات محروم كنسياً، وقد غضب الكونت كثيراً من الكاهن، وأمر خدمه بالذهاب إليه، وأمره باسمه أن يدفن الرجل الميت، وإذا مارفض الكاهن تنفيذ ذلك، أن يربطوه إلى الرجل الميت وأن يدفنوهما معاً، وقد جرى تنفيذ هذا الأمر، وقام جميع أساقفة بريطانيا بحرمان الكونت، وبناء على ذلك جرى نفي اثنين من الكهنة مع جميع الأساقفة من قبل الكونت، وبقي هو نفسه تحت عقوبة الحرمان الكنسي حتى يمكن تثبيت ذلك من قبل البابا.

عودة الامبراطور الروماني فردريك إلى بلاده

وفي العام نفسه، بعدما استرد الامبراطور الروماني فردريك الأرض المقدسة إلى الحكم الصليبي، وبعدما جرى تبادل الأيمان على هدنة لمدة عشر سنوات مع سلطان دمشق، صعد ظهر السفينة وأقلع في يوم العثور على الصليب المقدس، ليعبر البحر المتوسط عائداً إلى بلاده، ولأنه سمع بأن جون دي بريين كان قد أقام له المصائد في موانىء هذا الجانب من المياه، لم يتجرأ على النزول إلى البر من دون حذر، حتى لايحصل أعداؤه على سرور إلقاء القبض عليه، وقد نزل في مكان آمن، وبعث أمامه جواسيس اقتادوه إلى مكان آمن، ووصل أخيراً آمناً مع حاشية صغيرة إلى صقلية، وهناك علم بأن أعداءه قد أخضعوا عدداً كبيراً من قلاعه وبلداته، لابل أكثر من هذا، إنهم كانوا يقومون بغارات داخل المناطق الامبراطورية، حيث مامن أحد كان يعترضهم، لكن عندما بات

خبر وصوله معروفاً من قبل رعاياه الشرعيين، الذين كانوا مرتبطين بالولاء له، تدفقوا عليه، مع أنهم أحيطوا بهؤلاء، وعندما قوي جانبه بآخرين قدموا إليه، انقض بشجاعة على أعدائه، وشرع خطوة خطوة يسترد أراضيه والقلاع التي كان قد فقدها.

كيف أمضى ملك انكلترا عيد الميلاد في يورك

عام ١٢٣٠م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في يورك، برفقة ملك الاسكوتلنديين، الذي كان قد دعاه إلى العيد، وكان رئيس أساقفة المدينة حاضراً هناك مع الايرلات، والبارونات، والفرسان، وكانت هناك حاشية كبيرة، وهناك أيضاً وزع الملكان كثيراً من ملابس العيد بين فرسانهم، وكان الملك الانكليزي مسرفاً بكرمه نحو ملك الاسكوتلنديين، حيث أتحفه بخيول ثمينة، وخواتم، وجواهر، واستمروا بالاحتفال لمدة ثلاثة أيام، مقيمين موائد فخمة في كل يوم، وتفرق الجمع في اليوم الرابع، وعاد الملك الاسكوتلندي الى وطنه، في حين أسرع الملك هنري إلى لندن.

وحدث في هذا العام أيضاً، في يوم تحول القديس بولص واهتدائه، انه عندما كان أسقف مدينة لندن واقفاً أمام المذبح الكبير في الكنيسة الكاتدرائية في تلك المدينة، مرتدياً قلنسوته، وكان على وشك إقامة قداس بحضور سكان المدينة الذين كانوا هناك، والذين اجتمعوا تكريماً للقديس بولص، وقتها فجأة أصبحت السماء مغطاة بغيوم كثيفة، وبذلك باتت الشمس محجوبة، حتى بات بصعوبة يمكن للانسان أن يرى جاره في الكنيسة، وبات الجميع في حالة دهشة، ومتوقعين أن يوم الحساب قد حلّ، ووقتها انفجر صوت تصادم رهيب عاصف فوق الكنيسة، حتى بدا البناء نفسه مع البرج العالي وكأنه على وشك السقوط على رؤوسهم، وصدر عن الغيوم الكثيفة برق هائل، بدت معه الكنيسة وكأنها مشتعلة بالنيران، وتصاعدت وسط هذا كله رائحة نتانة لايمكن

تحملها، إلى حد أن جميع الحضور باتوا خائفين من الاختناق، وكان عدد الموجودين في الكنيسة حوالي الألف من الناس من الجنسين، وقد خافوا من موت من نوع ما، لذلك بادروا مسرعين بالفرار من الكنيسة، وأثناء خوفهم سقط بعضهم أرضاً، فبقيوا هناك لبعض الوقت من دون شعور أو حركة، ومن بين جميع الحضور الذين احتشدوا هناك، بقي فقط الأسقف وواحد من الشمامسة أمام المذبح الكبير، من دون اضطراب، ووقفا مرتديان ثيابهما المقدسة، وهما ينتظران رضا الرب، وبعد لأي عندما صحت الدنيا، واسترد جميع الحشد ثقتهم بالسلامة، دخلوا ثانية إلى الكنيسة، وأكمل الأسقف بخشوع الجزء المتبقي من القداس، وأحدثت هذه الواقعة دهشة عظيمة في جميع أرجاء المدينة، وخشي الجميع من أنها مقدمة لوقوع واقعة عظيمة ومرعبة.

وفي العام نفسه، كان الامبراطور الروماني، قد استرد أثناء الصوم الكبير، كثيراً من القوة ضد أعدائه، حيث أنه استرد بالقوة ملكية جميع القلاع والممتلكات العائدة إلى الامبراطورية، وكل الذين أخذهم أسرى في القلاع إما سلخهم أحياء، أو علقهم على المشانق، وخشي جون دي بريين، الذي كان خصمه المعلن من الوقوع بين يديه، فهرب إلى فرنسا، موطنه الأصلي، وبعد ذلك تمت بناء على وساطة أصدقاء ورجال دين، الموافقة على عقد هدنة بين البابا والامبراطور، وذلك حتى يتوصلا إلى وضع شروط سلام.

وفي شهر نيسان من العام نفسه جرى شنق وليم دي براوس من قبل للويلين الزعيم الويلزي، وكان قد ألقي القبض عليه، وهو —كما قيل— يزني بامرأة ذلك الأمير.

وفي العام نفسه، أعطى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الكهنة في جميع أرجاء انكلترا، إلى الملك، بناء على طلبه، مبلغاً كبيراً من المال، حتى يتمكن من استرداد المقاطعات في القارة، التي

انتزعت من والده، وأرغم سكـان لندن أيضـاً على إنقـاذ أنفسهم بدفع مبلغ ثقيل من أجل الغاية نفسها، وأرغم اليهـود أيضاً، سواء أشاءوا أم رفضوا عل دفع الثلث من جميع ماكانوا يمتلكون.

كيف عبر ملك انكلترا مع جيشه إلى بريتاني

بعد عيد الفصح حشـد الملك هنري جيشاً كبيراً في ردنغ، يضم جميع نبلاء المملكة، الذين كانوا يدينون له بالخدمة العسكرية، مع أعداد كبيرة أخرى من مختلف البلدان، ثم إنه نقل معسكره من ذلك المكان، وزحف إلى بورتماوث، حيث صعد إلى ظهر السفن مع جيشه كله،وأقلع مبحراً، وبفضل جهـود الملاحين في سفنـه نزل إلى اليـابسـة في سينـت مـالو Malo في بريتاني، ولم يستطع جزء من جيشه السير وراء الملك مباشرة، فنزلوا في اليـابسة في أماكن متنـوعة، لكن بعون الـرب وصلوا جميعاً إلى الملك في بريتـاني من دون أذى أو خسارة في مقتنياتهم، واستقبـل كونت بريتـاني الملك باحترام لائق، وبتكـريم، وسلم إليـه بلدات وقـلاع تلك المقـاطعة، ووصل إليـه عدد كبير آخـر من نبـلاء المقاطعـة، وقدمـوا له الولاء، وأقسمـوا على التـابعيـــة له، ورفض أندرو دي فيتري Vitre وعـدد قليل آخر من النبـلاء، تقديم الولاء إلى الملك، وشحنوا قـلاعهم بالمؤن، واستعـدوا ببعض القـوة للمقـاومـــة، ولدى سماع ملك فـرنسـا بوصـــول ملك انكلترا، حشـد جيشـاً قـــوياً، وزحف مع ترسـة تلمع ورايات تخفق إلى مـــدينة أنجـــو، حيث خـط معسكره، وتوقف وقفـة طويلة، لإعـاقة تقـدم الملك الانكليـزي نحو بواتو، وكـان الملك هنري آنذاك في مـــدينة ناتي Nates ينتظر وصـــول المزيد من نجــــدات العساكـر، الذين كانوا قـادمين إليه من مختلف الأنحـاء، وخلال إقـامته هناك ألقى الملك الفـرنسي مع جيشه الحصـار على قلعـة ضعيفة اسمهـا أودون Oudon وكـانت على بعـد حوالي الأربعـة فـراسخ عن ناتي، وبسهولة استحوذ عليها، وهدّمها، وعاد بعد ذلك إلى مدينة أنجو.

وحدث في العام نفسه، في اليوم الرابع عشر من أيار، الذي كان يوم ثلاثاء، في اسبوع الابتهال قبل عيد الصعود، كسوف غير اعتيادي، في الصباح الباكر، بعد اشراق الشمس مباشرة، وأصبحت الدنيا مظلمة إلى حد أن العمال الذي كانوا قد شرعوا بأعمالهم الصباحية، قد أرغموا على ترك أعمالهم، والعودة ثانية إلى النوم في فرشهم، لكن بعد ساعة من الزمان، حدث لدهشة الكثيرين أن الشمس استردت ثانية أشعتها.

وحدث في العام نفسه أيضاً، أن وصل إلى انكلترا، دوق سكسوني، وكان من أقرباء الملك، فاستقبل بكل تكريم من قبل سكان لندن، وكان هذا الدوق عظيم الطول والحجم، إلى حد أنه أثار اعجاب كل انسان، واحتشد الناس لينظرون إليه، وكأنهم ينظرون إلى مهرجان.

حول الخلافات التي نشبت بين البارونات الفرنسيين

وفي تلك الآونة نفسها، كان جميع النبلاء الفرنسيين مشغولين تقريباً بالحروب أحدهم ضد الآخر، وقد روي بأن دوق بيرغندي، وكونتات: بولون، ودروكس Dreux وماكون، وسينت بول، وبار، والنبيلين: انغوراند دي كورسي Enguerrand de Courcy وروبرت دي كورتايني Courtenaye وعدد كبير آخر، قد أقسموا على التحالف مع ملك انكلترا، وأعلن هنري كونت بريتاني الحرب ضد كونتي: شامبين، وفلاندرز، ولدى إكمالهم جميعاً خدماتهم لمدة أربعين يوماً في حصار أنجو، حصلوا على الاذن من الملك الفرنسي، وعادوا إلى مقاطعاتهم، وعندما وجد الملك نفسه غير قادر على ابقائهم لحق بهم من أجل إقامة صلح فيما بينهم، لكنه لم يستطع تحقيق هذا بأية وسيلة من الوسائل، لأن النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه غزوا أراضي كونت شامبين، وشرعوا بالعيث فساداً فيها بالنار والسيف، وجاء هذا الكونت للتصدي لهم مع قوة كبيرة، وأنشب معهم القتال، لكن النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه كانوا أقوياء جداً بالنسبة له، وقد أسروا مائتين من

فرسانه وقتلوا ثلاثة عشر، ورأى كونت شامبين، بأن قواته قد هزمت، فهرب من ميدان المعركة، وذلك بعدما فقد جميع أصحابه، وتولى الأعداء مطاردته، وجعلوا طعمة للسيف كل من قابلهم من مؤيديه، ولم يتوقفوا عن المطاردة حتى ساقوا الكونت، إلى داخل أبواب مدينة باريس، وهنا لم يختاروا متابعة مطاردته، فعادوا إلى شامبين، فنهبوا جميع المقاطعة، وهدموا القلاع والبلدات وسووها بالأرض، وأحرقوا القرى والمدن، وقطعوا الكروم وأشجار الفاكهة، ولم يوفروا شيئاً وجدوه خارج الكنائس، وقام هؤلاء النبلاء بمباشرة الحرب ضد الكونت لخيانته للملك، لأنهم قالوا بأنه قام أثناء حصار أفينون بدس السم إلى مولاهم الملك لويس، بسبب حبه للملكة، ومع أنهم غالباً ماتقدموا بعرض الاتهامات ضده في محكمة بلاط الملك الفرنسي بحضور الملك، ورغبوا في البرهنة على أن الكونت كان مجرماً بمبارزة فردية، قامت الملكة التي تولت ادارة جميع شؤون المملكة، بسبب صغر سن الملك، وانعدام الخبرة لديه، برفض الاصغاء له، ولهذا السبب سحب النبلاء المتقدم ذكرهم ولاءهم من الملك والملكة، وأحدثوا القلاقل في المملكة بوساطة الحرب، وقد رفضوا بإباء أن تكون سيدة مثل الملكة حاكمة لهم، التي —كما قيل— قد تدنست ليس فقط بعلاقتها بالكونت المذكور، لابل بعلاقتها أيضاً بالنائب البابوي.

مذبحة بين الايرلنديين واعتقال ملوكهم

وفي السنة نفسها، عندما علم في شهر تموز واحد من ملوك كونّوت Connaught الصغار في ايرلاندا بأن ملك انكلترا، ووليم مارشال كانا مشغولين بالحرب في القارة، وأن مملكة ايرلاندا كانت خاوية تماماً من القوات العسكرية، جمع جيشاً كبيراً من جميع أرجاء البلاد، وكان يأمل بأن يطرد جميع الانكليز إلى ماوراء الحدود الايرلندية، وبناء عليه غزا مقاطعات الملك الانكليزي، ونشر الدمار، بما في ذلك الاغتصاب

والنهب، وأخيراً وصلت أخبار هذه الغارات إلى غيوفري دي مارش، الذي مارس أعمال المسؤول عن العدالة في ظل الملك في تلك المناطق، وبناء عليه بعث وراء وولتر دي لاسي، ورتشارد دي بورغ للالتحاق به، ومعهما صار لديه قوة كبيرة، فزحف بجرأة ضد الأعداء، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، وأعطى قيادة قسمين من هؤلاء الثلاثة إلى الكونتين، المذكورين: وولتر دي لاسي، ورتشارد دي بورغ، واحتفظ بقيادة القسم الثالث لنفسه، وأخفى القسمين اللذين كانا تحت قيادة وولتر، ورتشارد في الغابات التي كان على العدو العبور بها، وهكذا جعلهما كميناً للأعداء، وعبأ القسم الثالث الذي قاده بنفسه، وأعدّه لمواجهة الأعداء وجهاً لوجه، وليثيرهم للقتال، وعندما وصل الايرلنديون واقتربوا منهم، ورأوا فقط وحدة من الانكليز، انقضوا عليهم، وكأنهم كانوا ضامنين للنصر ومتأكدين منه، وتظاهر الانكليز بالفرار، وقد جرت مطاردتهم من قبل الايرلنديين حتى دخلوا إلى موضع الكمين، ووقتها اندفع الذين كانوا كامنين من مخبئهم، وملأوا الأجواء بصراخهم، وهاجموا الأعداء وقاتلوهم من الجناح ومن الساقه، أما القسم الأول الذي كان قد هرب من أمامهم، فعاد أيضاً نحو الايرلنديين، وأعقب ذلك مذبحة مرعبة، وقد قيل بأن عشرين ألفاً من جنود الايرلنديين قد قتلوا هناك، وأسر ملكهم وسجن.

وفي تلك الآونة، تخلى فولك بيزنل Paisnel وكان نبيلاً من نورماندي، مع أخيه وليم، عن قلاعهما وأراضيهما، ووصلا إلى بريتاني، حيث قدما الولاء، وأقسما على التبعية لملك انكلترا، ووصل معهما آنذاك ستين فارساً جريئاً وشديداً، وكلهم أشاروا على الملك بغزو نورماندي، وأخبروه أنه سوف يتمكن بشكل أكيد من اخضاع تلك المقاطعة، وقبل الملك بخططهم، لكن هيوبرت دي بورغ لم يسمح لهم بتنفيذ الخطط، قائلاً إنها ستكون محاولة خطيرة إلى أبعد الحدود، ولدى سماع الفرسان

هذا، طلبوا وقتها من الملك منحهم مائتي فارس من جيشه، للالتحاق بهم في غزو نورماندي، ووعدوه أنهم سوف يطردون جميع الفرنسيين من دون اخفاق من تلك المقاطعة، وهذا أيضاً رفض هيوبرت المسؤول عن العدالة السماح به، مؤكداً أنه سيكون عملاً ليس حكيماً أن يعرض الملك جنوده للموت فقط لتلبية رغبته ولسروره، وهكذا وجد هؤلاء النبلاء أنفسهم وقد خدعوا بشكل رهيب، لأن الملك الفرنسي، كان قد تولى على الفور حرمانهم من مواريثهم، وحوّل قلاعهم وممتلكاتهم إلى استخداماته الخاصة.

كيف زحف الملك الانكليزي إلى غاسكوني وتلقى الولاء هناك

وقام الملك بعد هذا، بناء على نصيحة هيوبرت دي بورغ، بالزحف من بريتاني مع جيشه خلال أنجو، ووصل إلى بواتو، وتابع زحفه من هذه المقاطعة إلى غاسكوني، حيث تلقى ولاء الناس، وبعدما قام ببعض الترتيبات من أجل أمان تلك المنطقة، عاد إلى بواتو، وهناك تلقى ولاء كثيراً من السكان، وفي هذه الحملة حاصر الملك قلعة ميربيل Mirebelle وبفضل الشجاعة العظيمة للانكليز، الذين استمروا بهجوماتهم الحادة عليها، أرغم الملك المحاصرين على الاستسلام، ثم غادر، آخذاً إياهم معه أسرى.

وفي شهر آب من هذا العام، توصل صاحب القداسة البابا غريغوري، والامبراطور الروماني فردريك، إلى اتفاق سلام، وجاء ذلك بوساطة تدخلات المسيحيين والحلفاء من على الجانبين، وذهب الامبراطور الروماني إلى روما، ونال هناك التحليل مع جميع الأماكن التي كانت تحت سلطان الامبراطورية، وأعادهم إليه بأحوالهم وأوضاعهم السالفة، ثم احتفل هذا الكاهن الأعظم مع ذلك الامبراطور الأعظم قدرة مع بعضهما لمدة ثلاثة أيام، في قصر الحبر الأعظم، وابتهج البابا والكرادلة والنبلاء العائدين للامبراطورية، بهذا

التثبيت المفاجىء للسلام، الذي كانوا قد فقدوا كل أمل بقيامه.

وفي العام نفسه، شحن رالف ايرل شيستر القلعة الموجودة في سينت جون دي بيفيرون Beveron وزودها بالامدادات والسلاح، وكانت هذه القلعة عائدة بموجب حق الوراثة إلى زوجته الكونتسة، لأن هنري كونت بريتاني قد تخلى عن القلعة إلى الايرل، عندما التحق بجانب ملك انكلترا، وتسلم من الملك جميع ممتلكاته وامتيازاته في انكلترا.

السلام الذي عمل بين الملك الفرنسي والبارونات

وفي هذا العام،حدث في شهر أيلول، أن الملك الفرنسي، وأمه الملكة، ونبلاء تلك المملكة، الذين كانوا منذ وفاة الملك لويس في حرب واحدهم ضد الآخر، كما ذكرنا أعلاه، أن التقوا في مؤتمر، لمعالجة إقامة سلام، وقد أعدّ وفق الشروط التالية: لقد تقرر بالاجماع من قبل النبلاء المتقدم ذكرهم، وجوب حمل كونت شامبين، الذي كان السبب الرئيسي في نشوب هذا الخلاف، الصليب، وأن يقوم مع مائة من الفرسان بالحج إلى الأرض المقدسة، ليقاتل هناك ضد أعداء المسيح، وأقسم الملك الفرنسي وأمه على الأناجيل المقدسة، بأنهما سوف يعيدا إلى كل واحد من النبلاء امتيازاتهم، وسوف يمارسان العدل نحو جميع رعايا تلك المملكة، تماشياً مع الأعراف التي كانت صحيحة ومحقة بالنسبة إلى الجميع.

عودة ملك انكلترا من بريتاني إلى انكلترا

كان الملك الانكليزي طوال هذا الوقت كله مقيماً مع جيشه في مدينة ناتي، ويفعل لاشيء سوى انفاق ماله، وكذلك فعل الايرلات والبارونات أيضاً، ولأن هيوبرت مسؤول العدالة لدى الملك ماكان ليسمح لهم بالاشتباك بالقتال ضد الأعداء، كان أحدهم يقوم بأعمال الضيافة لآخر، حسبما كانت عادة الانكليز، وأوقفوا أنفسهم على الأكل

والشرب كل بدوره، وكأنهم كانوا يحتفلون بعيد الميلاد، والذين كانوا فقراء بينهم فقدوا خيولهم وسلاحهم، وعاشوا من تلك اللحظة حياة غير سعيدة، وأخيراً بعدما أكمل الملك عمل جميع الترتيبات الضرورية للمنطقة، ترك هناك خمسمائة فارس، وألف من المرتزقة تحت قيادة رالف ايرل أوف شيستر، ووليم مارشال، ووليم ايرل ألبيمارل، مع نخبة من القادة الآخرين، وإثر هذا حمل نفسه وأخذ سفينة، وبعدما تعرض لمخاطر كثيرة، وصل في السادس والعشرين من تشرين الأول إلى بورتماوث، ونزل فيها، حيث قدم عدد كبير من رعاياه من مختلف المراتب لتقديم احترامهم له مع هدايا متنوعة.

ومات غيلبرت ايرل أوف غلوستر وكلير، أثناء عودته من القارة، وأسند الملك إلى هيوبرت المسؤول عن العدالة جميع أراضيه ومراتبه.

وبعد مغادرة ملكَ انكلترا للقارة، قام ايرل شيستر مع القادة الآخرين لجيش الملك هناك ومعهم كامل قواتهم بغارة داخل مقاطعة أنجو، وظلوا غائبين هناك في تلك المنطقة لمدة خمسة عشر يوماً، واستولوا في تلك الأثناء على قلعة غونورد Gonnord وهدموها حتى سووها بالأرض وأحرقوا البلدة، ثم استولوا على قلعة جديدة على السارت Sarte فدمّروها، وألقوا النار في البلدة في ذلك المكان، وعادوا بعد ذلك ثانية إلى بريتاني مع أسلاب كبيرة جداً، وليس بعد ذلك بوقت طويل نزلوا بهجوم على نورماندي، واستولوا على قلعة بونتويي Pontoise وقد دمروها بعدما أحرقوا البلدة، ثم عادوا إلى بريتاني دون المعاناة من خسائر بالنسبة لهم أنفسهم.

وفي العام نفسه، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، حدث خسوف بالقمر، استمر لمدة ثلاث ساعات، وكان جزء صغير جداً منه مرئياً، وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر يوماً.

فرض ضريبة بدل عسكري من أجل حملة إلى القارة

عام ١٢٣١م، فيه عقد الملك هنري بلاطه أثناء عيد الميلاد، في لامبث، حيث احتفي به من قبل هيوبرت المسؤول عن العدالة، وفي السادس والعشرين من شهر كانون الثاني التالي، دعا الملك الأساقفة والنبلاء الآخرين العائدين للمملكة إلى اجتماع في ويستمنستر، وفيه طالب الملك بضريبة بدل عسكري مقدارها ثلاثة ماركات عن كل رنك، من جميع العلمانيين وكذلك اللاهوتيين، ومن الذين بأيديهم بارونيات، وبجرأة عارض هذا الطلب رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، وعورض أيضاً من قبل بعض الأساقفة إلى جانبه، الذين قالوا بأن اللاهوتيين ليسوا ملزمين بالخضوع إلى الأحكام العلمانية، مثلما منحت ضريبة البدل العسكري في القارة عندما كانوا غير حاضرين، وبعد الكثير من المناقشات من على الجانبين، جرى تأجيل ماتعلق بمعارضة الأساقفة حتى مابعد عيد الفصح باسبوعين، أما بالنسبة للبقية من رجال دين وعلمانيين، وأناس عاديين، فقد استجابوا لرغبة الملك.

الخلاف بين الملك ورئيس الأساقفة

وجاء في هذه الآونة رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى الملك، وقدم إليه شكوى ضد هيوبرت المسؤول عن العدالة، لأنه احتفظ بشكل غير عادل بقلعة تونبردج مع البلدة ومتعلقاتها، وأراض أخرى كانت عائدة إلى غيلبرت ايرل أوف كلير المتوفى، والتي هي عائدة لمسؤول العدالة نفسه وكنيسة كانتربري، ومن أجلها كان الايرل المذكور —وأجداده— قد قدم اعترافاً، وعمل ولاء له ولأسلافه، ولذلك من أجل ذلك السبب طلب من الملك أن يعيد إليه الوصاية على القلعة المذكورة مع متعلقاتها، وللاحتفاظ بامتيازات كنيسة كانتربري سليمة غير متعرضة للأذى، وعلى هذا الطلب رد الملك قائلاً، بأن الايرل المذكور كان مستأجراً اقطاعياً بشكل رئيسي منه نفسه، وأن الوصايات الفارغة لكل

من الايرلات والبارونات وورثتهم «حتى يصلوا إلى سن الرشد» عائدة إلى التاج، وللتاج الحرية في بيعها أو منحها لمن يشاء، وعندما وجد رئيس الأساقفة نفسه غير قادر على الحصول على أي جواب آخر، حرم كنسياً جميع الذين يعتدون على الممتلكات المتقدم ذكرها، وجميع الذين يقيمون اتصالات معهم باستثناء الملك، ومن هذه القضية ومن أجل قضايا أخرى وأسباب، توجه إلى روما للحصول على امتيازاته وامتيازات الكنيسة، ومن جانب آخر أرسل الملك المعلم روبرت دي كانتيلو، وبعض الرسل الآخرين إلى روما للمرافعة من أجل قضيته.

وفي شهر نيسان من هذا العام، بعد عيد الفصح، تزوج رتشارد أخو الملك من كونتسة غلوستر، التي كانت أخت وليم مارشال، ايرل أوف بيمبروك، وماكادت أفراح العرس تنتهي حتى توفي الفارس الشجاع وليم مارشال، وختم حياته، وقد حزن عليه وبكاه الكثيرون، وفي الخامس عشر من نيسان دفن في المعبد الجديد، في لندن قرب والده.

أعمال العيث فساداً المرعبة التي اقترفت من قبل للويلين في ويلز

وفي شهر أيار من هذا العام، خرج الويلزيون من مخابئهم مندفعين، مثل جرذان من جحورها، ونشروا النار والخراب في الأراضي التي كانت من قبل عائدة إلى وليم دي براوس، ولدى زحف الملك نحو هناك مع قوة عسكرية صغيرة، تراجع الويلزيون، كما هي عادتهم، إلى أماكنهم النائية، ثم ذهب الملك إلى الأجزاء الشمالية من البلاد، تاركاً هيوبرت المسؤول عن العدالة في هذه المنطقة، ليصدّ غارات الويلزيين، وكان هؤلاء ما ان سمعوا بمغادرة الملك، حتى استأنفوا حملات نهبهم، وأغاروا على المناطق القريبة من قلعة مونتغمري، وشرعوا باقتراف أعمال عيثهم فساداً في تلك المنطقة، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الحامية في القلعة، نزلوا للاشتباك بالقتال ضد الويلزيين، لمنع تحركاتهم حول المنطقة من دون معارضة، ولقطع الطريق عليهم

للانسحاب، وقد قتلوا عدداً كبيراً منهم كما أنهم أسروا الكثيرين، وقد سلموا جميع الذين أسروهم أحياء إلى المسؤول عن العدالة، الذي أمر بإعدامهم، وبارسال رؤوسهم إلى الملك، وغضب للويلين من هذه الفعلة غضباً شديداً، فجمع جيشاً كبيراً، وأحدث دماراً مريعاً في أراضي وممتلكات البارونات الذين عاشوا على حدود ويلز، ولم يوفر لا الكنائس ولا اللاهوتيين، وأحرق عدة كنائس، مع عدد من النساء النبيلات والفتيات اللائي هربن إلى هناك من أجل السلامة.

كيف حرم للويلين كنسياً وكيف هاجم الملك ويلز

وعندما تلقى الملك هنري خبراً عن هذه الجريمة العظمى، جمع جيشاً كبيراً في اكسفورد في الثالث عشر من تموز، وهناك عندما اجتمع جميع نبلاء المملكة، ورجال الدين والناس، قام الأساقفة مع القساوسة الآخرين للكنائس، بحضور الملك، بحرمان للويلين كنسياً وأتباعه الذين أحرقوا الكنائس، وقاد الملك بعد هذا جيشه وزحف بكل سرعة إلى هيرفورد، وكان للويلين مقيماً آنذاك قرب قلعة مونتغمري، في حقل قرب النهر، مغطى بالسبخ، حيث كان ينتظر في كمين ليقاتل فرسان حامية القلعة، وقد قيل بأنه أرسل من ذلك المكان إلى القلعة واحداً من رهبان دير لطائفة السسترشيان كان موجوداً في الجوار، واسمه كوميرا Cumira وعندما رآه فرسان القلعة قادماً نحوهم، خرجوا من القلعة للتحادث معه، وسألوه عما إذا كان قد سمع أي شيء عن الملك للويلين، وعلى هذا رد الراهب بأنه رآه مع حاشية صغيرة في حقل قريب، حيث كان ينتظر ورود قوة أكبر، ووقتها سأل الفرسان الراهب عما إذا كان بإمكان الخيالة عبور النهر والحقل سالمين، وعلى هذا أجاب:

«إن الجسر الذي يستخدمه المسافرون من أجل عبور النهر، قد جرى تدميره من قبل للويلين، لأنه خشي من هجوم من جانبكم، لكن يمكنكم بأمان عبور النهر والحقل على ظهور الخيل، عندما تريدون

وبوساطة عدد ضئيل من الخيالة يمكنكم غلبة الويلزيين، أو ارغامهم على الفرار»، وصدق وولتر دي غودرفيل Godarville قائد حامية القلعة المعلومات المزيفة التي قدمها الراهب، وأمر على الفور أتباعه من الفرسان والجنود بحمل أسلحتهم، وركبوا خيولهم، ومالبثوا أن وصلوا إلى المكان، وعندما رآهم الويلزيون يتقدمون مسرعين، تظاهروا على الفور بالفرار إلى الغابة التي كانت قريبة، وطاردهم فرسان القلعة بكل اندفاع حتى غطسوا في النهر المتقدم الذكر وفي السباخ حتى بطون خيولهم، ولاسيما الطلائع بينهم، أما الذين ساروا خلفهم فقد تنبهوا بغطس رفاقهم، الذين أسفوا كثيراً لسوء حظهم، ولدى رؤية الويلزيين لأوضاع أعدائهم، انقضوا بكل سرعة وحرارة عليهم، وتسببوا برماحهم بمذبحة قاسية بينهم، أثناء خوضهم في الوحول، وأعقب ذلك قتال عنيف، وبعد مقتلة كبيرة من على الجانبين، كان الويلزيون هم المنتصرون، ووقع في هذه المعركة جايل بن رتشارد دي أرجنتون Argeton وكان فارساً شجاعاً، بالأسر، ومعه بعض الآخرين، الذين لم أسمع بأسمائهم.

الانتقام الذي تولاه الملك بعد خيانة الراهب هذه، إلخ

عندما وصلت أخبار الفاجعة التي نزلت بفرسانه إلى الملك الانكليزي، زحف بكل سرعة إلى الدير الذي انتمى الراهب إليه، أي الراهب الذي خان الفرسان المتقدم ذكرهم، وكعقوبة على خيانته، أحرق مزرعة عائدة للدير، وكان ذلك بعدما نهب كل شيء كان فيها، ثم إنه نهب الدير، وأمر بحرقه أيضاً، وقام راعي الدير من أجل انقاذ المباني التي كلفت كثيراً جداً من المال والجهد، فدفع إلى الملك ثلاثمائة مارك، وهكذا هدأ غضبه لبعض الوقت، وأمر الملك بعد هذا بإعادة بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، بقوة بالحجارة، وهي قلعة كانت قد دمرت قبل بعض الوقت من قبل الويلزيين، وعندما انتهت مقابل نفقات عالية جداً،

وضع فيها حامية من الفرسان والجنود، لمنع غارات الويلزيين.

إبرام معاهدة بين ملكي فرنسا وإنكلترا

في شهر حزيران من العام نفسه، قاد الملك الفرنسي جيشاً كبيراً لغزو بريتاني، لكن هنري كونت أوف بريتاني، ورالف ايرل شيستر، أخبرا باقترابه، فكمنا له، وهاجما العربات ووسائل النقل التي كانت تتولى نقل الأسلحة والإمدادات في الساقة، واستوليا على جميع أثقاله، وأحرقا بعد ذلك جميع آلات حربه، واستوليا على ستين فرساً، وبدأ الفرنسيون بعد هذا يعدّون بريتاني بلداً لايرام، ويئسوا من الوصول إلى محصلة مناسبة مع هذه البداية الضعيفة، لذلك شرعوا بالتفاوض من أجل عقد معاهدة، بوساطة رئيس أساقفة الرايم، وفيليب كونت بولون من جانب الفرنسيين وملكهم، وكونت بريتاني، وايرل شيستر لصالح الملك الانكليزي، وفي الخامس من تموز جرت الموافقة على هدنة لمدة ثلاث سنوات بين الملكين، وجرى تثبيتها بالأيمان.

وفي شهر تموز نفسه، عاد بطرس أسقف وينكستر إلى انكلترا، بعدما أمضى قرابة الخمسة أعوام في أرض الميعاد، وفاء بعهده بالحج، واستقبل في الأول من آب بمسيرة مهيبة في الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر.

ووصل إلى انكلترا في العام نفسه، بعد تثبيت الهدنة، كونت بريتاني، وايرل شيستر، مع رتشارد المارشال من القارة، وانطلقوا نحو الملك، الذي كان مايزال مشغولاً في بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، وقد استقبلوا بترحاب من قبله، وقدم رتشارد مارشال نفسه إلى الملك على أنه الوريث لأخيه وليم مارشال، وعرض تقديم الولاء للملك مقابل ميراثه ومن أجله، ومن أجل كل ماعليه فعله في سبيل امتيازاته، وفي اجابة الملك له —بناء على نصيحة هيوبرت المسؤول عن العدالة— أخبره أنه سمع بأن زوجة أخاه المتوفى كانت حاملاً، وبناء على ذلك هو لايمكنه الاستجابة

لطلبــه، حتى يمكن كشف حقيقــة هذه المسألة، واتهم الملك رتشــارد المذكور بالتعـامل والتعايش مع أعدائـه المعلنين في المقاطعات الفـرنسية، ولهذا أمره بمغادرة المملكة على الفـور وإلى الأبد، وأعلن أنه إذا ماوجد في المملكة خلال خمسـة عشر يوماً، فلسوف يحكـم عليه بالسجن المؤبد، وعندمـا وجد رتشـارد نفسه غير قـادر على الحصول على جـواب آخر، أبحر على الفـور إلى ايرلاندا، حيث استقبل ببهجة من قبل جميع فـرسان وأتباع أخيــه المتوفى، وإليه سلمـوا جميع القلاع العـائدة لأخيه، وقـدموا الولاء له وأعلنوا التـابعيـة لـه، ثم إنه استرد ملكيـة قلعـة بيمبروك، مع جميع الألقاب والمراتب العـائدة إليهـا، ثم جمع جيشاً، وعقـد العزم على استرداد الاستحواذ على ميراثه، حتى ولو كان ذلك ضـد موافقة الملك، إذا مـااقتضى الأمر، لكـن الملك غيّـر أخيراً رأيه، خشيـة منه بأن يقـوم رتشارد المذكور بإثارة الاضطراب، وافسـاد سلام المملكة، فتلقى الولاء منه مع التـابعيـة، ومنحـه جميع امتيـازاته، وأبقى فقط الغـرامـة المعتـادة المستحقة له شخصياً.

كيف ذهب رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى روما ومات أثناء عودته

ذهب في هذا العام رتشـارد رئيس أساقفة كـانتربري إلى بلاط روما، وقدم الشكاوى التـالية إلى البابا، فقد اشتكى في المقـام الأول ضد ملك انكلترا، أنه أدار جميع شـؤون المملكة وفقـاً لنصيحة هيـوبرت المسـؤول عن العـدالة وحـده، مستخفاً بذلك بجميع النبـلاء الآخـرين، واشتكى أيضاً أن المسؤول عن العدالة قد تزوج من امرأة كانت قريبة من زوجته الماضية، وقـد أمسك متلبساً بذلك، وهو مـايزال محتجزاً بعض ممتلكات كنيسة كانتربري، كما أنه اشتكى ضد بعض أساقفته المساعدين، لإهمالهم واجبـاتهم الأسقفيـة، فهم يجلسـون في محكمـة خـزينة الملك، ويتـولون فحص قضـايا العلمانيين، ويصدرون الأحكـام في قضايا الحيـاة والموت،

واشتكى أيضاً أن المنتفعين من الكهنة مع رجال من الطوائف المقدسة يحتفظون بين أيديهم بعدد من الكنائس، التي إليها معهود بوظيفة العناية بالأرواح، ومثل ذلك الأساقفة، حيث حذوا حذوهم، فهؤلاء الناس يتدخلون بالأعمال العلمانية، ويتورطون بالأحكام القضائية العلمانية، وبعدما عرض هذه الشكاوى وأمثالها على البابا، سأل ذلك الحبر استخدام عصا التصحيح لتقويم مثل هذه الآثام، وبعد تقدير صحيح لهذه القضايا، رأى صاحب القداسة البابا، أن شكاوى رئيس الأساقفة كلها مدعومة بالحق والمنطق، فأعطى أوامره على الفور، بوجوب الاعتناء بقضايا شكوى ذلك الأسقف، وأن تنال العدالة المستحقة، وترافع كهنة الملك، وعرضوا أسباباً كثيرة رداً على الشكاوى، لصالح الملك، لكن ذلك جاء بلا تأثير، لأننا إذا ماأردنا الحديث بإيجاز، حصّل نفوذ رئيس الأساقفة له، كل ماطلبه، وبعدما أكمل أعماله حسبما يرضيه، انطلق عائداً، غير أنه مات أثناء سفره، في دير القديس جيمينا Gemina في الثالث من آب، وماتت معه جميع المنافع التي نالها بشأن الأعمال المذكورة أعلاه.

كيف أقلع هنري عن الزواج من أخت ملك اسكوتلندا

في العام نفسه، في شهر تشرين الأول، كان ملك انكلترا، قد أكمل بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، ولذلك عاد إلى انكلترا، وكان قد قرر آنذاك الزواج من أخت ملك الاسكوتلنديين، على الرغم من معارضة جميع الايرلات والبارونات وغضبهم، لأنهم قالوا بأنه من غير اللائق أن يتزوج الملك من الابنة الصغرى، في حين تزوج هيوبرت، المسؤول عن العدالة، الأخت الكبرى، واقتنع أخيراً بالاقلاع عن هذه النية بوساطة كونت بريتاني، وأعطى إلى تلك النبيلة خمسة آلاف مارك من الفضة، ومن ثم عادت إلى بلادها.

انتخاب رالف رئيساً لأساقفة كانتربري وإلغاء ذلك الانتخاب

بعـد وفـاة رتشـارد، رئيس أسـاقفـة كـانتربري، الذي قصصنا خبره أعلاه، قرر رهبان كـانتربري المطالبة بأن يكون رئيساً عليهم، رالف دي نيفيل Neville أسقف شيستر، الذي كان مستشار الملك، وبناء عليه، بعدما عملوا الانتخاب، قاموا في الرابع والعشرين من أيلول بتقديمه إلى الملك، الذي رحب بذلـك وقبله، من جـانبـه وفيما يتعلق به، وقـام على الفـور بمنحه المزارع والممتلكات الأخـرى العـائدة لرئـاسـة الأساقفـة، وعندها ذهب الرهبان الذين كـانوا على نية الذهاب إلى روما، إلى رئيس الأسـاقفـة المنتخب وسألوه المسـاعـدة في تغطيـة نفقـات رحلتهم، لكنه أخبرهم بـوضـــوح أنه لـن يدفع إليهـم ولاحتى درهم من أجـل هذه الغاية، ومـع ذلك، ذهبوا إلى روما، وطلبـوا من البابا أن يثبت بـوساطة السلطات الرسوليـة الانتخاب، أو أن يأخذ بالاقتراح الذي تقـدموا به، وهنا طلب البـابا القيـام بفحص للقضيـة يتـولاه —كما قيل— المعلم سيمون لانغتـون، وأن يتعرف إلى سمات رئيس الأساقفـة المقترح، وبعد هذا ردّ بأن رئيس الأساقفة المقترح هو من رجال الحاشية الملكية وأمي، ولذلك تولى إلغـاء ذلك الانتخاب، وأعطى أوامر إلى مجمـع الرهبان في كانتربري للقيام بانتخاب رئيـس أساقفة مفيد لأرواحهم وأن يعمل على رفع شأن كنيسـة انكلترا وتقـدمها، وبنـاء عليه عـاد الرهبـان، وأخبروا إخوانهم كيف أنهم أخفقوا في تحقيق رغباتهم.

صلف رجال الدين الرومان

ثارت في هذه الآونة في انكلترا انفعالات مـع هياج كبير، من الممكن دعـوتها عمل طائش قـام على التـوهم، بسبب صلف رجـال الدين الرومـان، الذي دفع نبـلاء المملكة، وكذلك الذين هـم من مرتبـة أدنى نحو الانفعال لإنزال عقوبات، كما هو محكي في النص التالي:

«إلى الأسقف الفـلاني، وإلى هيئة الكهنة الفلانيـة، وإلى الجماعة كلهـا من الذين يؤثرون أن يمـوتـوا على أن يهانوا من قبل الرومـان، تحيـات:

نعتقد أنه ليس سراً بالنسبة لكم كيف تصرف الأحبار الرومان ونوابهم حتى الآن بأنفسهم نحونا ونحو اللاهوتيين الآخرين في انكلترا، وكيف أنهم أضفوا منافع المملكة على أتباعهم وعلى مباهجهم في سبيل انزال الأذى والمضار بكم أنفسكم وبجميع الآخرين في المملكة، وكذلك كيف أصدروا وطبقوا أحكام الحرمان الكنسي ضدكم وضد أتباعكم من الأساقفة واللاهوتيين الآخرين، الذين إليهم تعود جمع المنافع بشكل صحيح، من أجل عدم اضفائكم أية منفعة على واحد من أبناء بلدكم حتى ينال خمسة من الرومان ذلك، أسماؤهم غير معروفة بعد، أي ابن رومفرد Rumfred وأبناء فلان وفلان من الناس، فهؤلاء سوف يعينون محلكم في كل واحدة من كنائسكم في جميع أرجاء انكلترا، وكل واحد سوف يكون دخله مائة باوند، بالاضافة إلى اثقالات أخرى، فرضوها على كل من النبلاء والعلمانيين في المملكة، وأرادوا جبايتها من النذور والصدقات التي عينت من قبلهم ومن قبل أجدادهم من أجل الحفاظ على الفقراء، وكذلك على الكهنة، وعلى رجال الدين الآخرين، فيما يتعلق بممتلكاتهم ومنافعهم، وهم غير قانعين بهذا كله، بل يرغبون أن ينتزعوا من كهنة المملكة جميع المنافع التي بأيديهم حتى آخرها، من أجل منحها واضفائها على أتباعهم الرومان، أي ليس وفقاً للعدالة، بل تبعاً لأهوائهم ومسارهم، وهم يسعون بهذه الطريقة إلى تحقيق ماجاء في النبوءة:

«لقد نهبوا المصريين لإغناء العبرانيين، وأن يضاعفوا أناسهم، وأن لايزيدوا سرورهم»، وهكذا كدسوا الأحزان فوق الأحزان، حتى بات الحال بالنسبة لنا الأفضل أن نموت على أن نعيش هكذا ونحن مظلومين، وبناء عليه، مع أنه قد يكون صعباً بالنسبة لنا «الرفس ضد القراميد»، إنه أيضاً الذي يحك أنفه بقسوة كبيرة يسيل الدم، وبناء عليه، نحن نعدّ حدة هؤلاء الذين جاءوا إلى هنا أولاً كرومان غرباء، والذين

نهم الآن لايستهدفون فقط الحكم، بل إدانتنا، وأن يفرضوا علينا أثقالاً لاتحتمل، وهم على غير استعداد لرفع احدى أصابعهم، بناء على ذلك قررنا بموافقة عامة —مع أن ذلك جاء متأخراً— أن نعارضهم، بدلاً من اخضاع أنفسنا أية مدة أطول لظلمهم الذي لايحتمل، أو لتحمل عبودية سيئة، وبناء عليه إننا نمنعكم بكل دقة —أثناء مسعانا لانقاذ الكنيسة، وكذلك الملك والمملكة من نير هذه العبودية الظالمة— من التدخل في قضية هؤلاء المقحمين لأنفسهم في القضايا المتعلقة بالرومان وبمواردهم، واستقروا وكونوا متأكدين أنكم إذا ماخرقتم هذا الأمر، الذي يحرمه الرب، سوف تكون ممتلكاتكم عرضة للحرق، والعقوبات التي سوف ينالها الرومان بأشخاصهم، سوف تنالونها. وداعاً».

التحريم ضدّ بيع المزارع أو الموارد إلى الرومان

«إلى رجال الدين، وإلى الآخرين الذين بأيديهم مزارع مضمونة من الكهنة الرومان، تقدم إليكم الجماعة المذكورة أعلاه التحيات، إنه بعد مظالم لاعدد لها ولاحصر وأضرار هائلة، تعرفونها أنتم جميعاً، وتعلمون أيضاً كيف أنها أنزلت من قبل الرومان بمملكة انكلترا حتى هذا الحين، من أجل إلحاق الأذى بالملك وبنبلاء المملكة، في المجال الذي يتعلق بنذورهم وصدقاتهم وبمنافعهم، وبما أنهم يسعون إلى حرمان رجال دين هذه المملكة من منافعهم، لإضفاء ذلك على الرومان في سبيل إلحاق الأذى الأعظم والعار بالمملكة وبنا أنفسنا، لقد قررنا بموافقة عامة من النبلاء —مع أن ذلك جاء متأخراً— أن نعارضهم، بدلاً من أن نخضع لهم من الآن فصاعداً، وأن نرضخ لظلمهم الذي لايحتمل، وأن نضبطهم بأن نسحب منهم جميعاً منافعهم في جميع أرجاء المملكة، حتى يتوقفوا عن متابعة ظلمهم مدة أطول، وبناء عليه نحن نأمركم بدقة، أن تتوقفوا من الآن فصاعداً عن الدفع للرومان ضمان الكنائس، أو موارد الأراضي التي بين أيديكم منهم، أو مدانين لهم بها، بل أن تجعلوا هذه

الايجارات والموارد جاهزة وأن ترسلوا بها إلى وكيلنا المعين من قبلنا برسالة، من أجل أنه في يوم الأحد الذي يغنى فيه بمزمور «دعوا القدس تبتهج»، سوف يؤكد رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان في كنائسهم والقساوسة الآخرين ورجال الدين، والعلمانيين في كنائسهم، والبقية، بأنكم إذا لم تطيعوا هذا، فإن ممتلكاتكم سوف تكون عرضة للاحراق، ولسوف تجنون الخطر الذي الرومان معرضون له بأشخاصهم، وداعاً»، ونشرت هذه الجماعة المتقدم ذكرها، بوساطة فرسانها ووكلائها، هذه الرسائل، وهي ممهورة بختم جديد، عليه جرى حفر سيفين، وقد نقش النص التالي بين السيفين: «انظر هاهنا سيفين»، حسبما جرت العادة بالاقتباس بالنسبة للكنائس الكاتدرائية، مبينين أن كل من يجدوه معارضاً لهم، سوف يعاقبونه وفقاً لقوانينهم وأوامرهم.

المحكمة اللاهوتية التي عقدت في دير القديس ألبان والقاء القبض على سينشوس

وفي تلك الآونة نفسها، في السابع عشر من كانون الأول جرى عقد محكمة لاهوتية كبيرة في دير القديس ألبان، وضمت رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورؤساء الشمامسة وجميع نبلاء المملكة تقريباً، وقد اجتمعوا جميعاً بموجب أوامر البابا، من أجل احداث طلاق بين كونتسة اسكس وزوجها، إذا توفر سبب جيد لذلك، وفي اليوم التالي بعد انفضاض المؤتمر، وعندما كان الجميع عائدون إلى مواطنهم المختلفة، كان هناك رجل دين روماني، اسمه سينشوس Cincius وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، قد جرى اعتقاله بوساطة توكيل من قبل الجمعية المتقدم ذكرها أعلاه، وقد نقله بعيداً بعض الرجال المسلحين، الذين كانت رؤوسهم مغطاة، وقد نجا المعلم جون الفلورنسي، الذي كان رئيس شمامسة نورويك، فهو كان حاضراً أثناء المؤتمر، وقد نجا من القبض عليه، وهرب إلى لندن، حيث بقي هناك

متخفياً لعدة أيام، وبعد مرور خمسة أسابيع أعيد سينشوس سالماً وصحيحاً إلى لندن، لكن —كما قيل— وحافظة نقوده فارغة.

مصادرة بالقوة للقمح في ونغهام

عام ١٢٣٢م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، حيث قدم بطرس أسقف تلك المدينة الأشياء المحتاجة للاحتفاء به، وقدم هدايا ملابس العيد إلى الملك، وكذللك إلى أتباعه، وخلال أسبوع عيد الميلاد كانت هناك مخازن حبوب مليئة في ونغهام Wingham ملكاً لكاهن روماني وقد جرى نهبها من قبل مجموعة صغيرة من الرجال المسلحين، الذين كانت رؤوسهم مغطاة، وقد عملوا —كما قيل— بناء على أوامر من الجمعية التي تقدم ذكرها أعلاه، وعندما سمع المشرف والوصي على تلك الكنيسة بهذا العدوان، ذهب إلى عمدة الكونتية، وأخبره بهذا الخرق لسلام الملك، وعن الأذى الذي أنزل بمولاه، وماكان من العمدة إلاّ أن أرسل وكلاءه مع بعض الجنود إلى المكان، وأمرهم أن يكتشفوا ماكانته القضية، ولدى وصولهم إلى المخازن، رأى الجنود هناك أولئك الرجال المسلحين الذين كانوا غير معروفين تماماً بالنسبة إليهم، وكانوا آنذاك قد أفرغوا المخازن تقريباً، وباعوا القمح وفق شروط جيدة، لصالح جميع المنطقة، وأعطوا أيضاً من باب الصدقة شطراً منه إلى الفقراء الذين طلبوا ذلك، ولدى وصول الجنود إليهم سألوهم من أين جاءوا، وكيف تجرأوا على خرق سلام الملك، واقتراف مثل هذا العدوان، وبناء على ذلك أخذوا الجنود جانباً، وأروهم على الفور تراخيص من الملك، تمنع أي انسان من اعاقتهم، ولدى رؤية الجنود بأنفسهم ذلك، ومعهم بعض الآخرين الذين أقبلوا إلى هناك، انصرفوا بهدوء، وتمكن هؤلاء الرجال المسلحون، خلال خمسة عشر يوماً من بيع جميع القمح، ومن ثم انصرفوا وجيوبهم مليئة، ونقلت أخبار هذه الواقعة إلى روجر أسقف لندن، وبناء عليه جمع عشرة

أساقفة، وقام في اليوم الذي أعقب عيد القديسة العذراء المباركة سكولا ستيكا Schola stica [١٠-شباط]، في كنيسة القديس بولص في لندن، فحرم كنسياً جميع مقترفي هذه العملية من جرائم العنف، وأدخل في هذا القرار جميع الذين ألقوا أيديهم بعنف على سينشوس، الكاهن في كنيسة لندن، وشمل ذلك أيضاً جميع أعضاء الجمعية المذكورة أعلاه، وكذلك جميع الذين كتبوا وختموا الرسائل التي تقدم ذكرها أعلاه.

كيف طلب الملك هنري مساعدة مالية

في السابع من آذار، في هذا العام، اجتمع نبلاء المملكة، والعلمانيين والأساقفة في مؤتمر جرى عقده في ويستمنستر، وذلك بناء على طلب من الملك، وحضوره، وهناك شرح لهم، أنه متورط بديون ثقيلة، بسبب الحرب التي قام بها مؤخراً في القارة، وهو مدفوع بسبب الحاجة ليطلب المساعدة منهم جميعاً وبشكل عام، وإثر سماع هذا، قام رالف ايرل أوف شيستر، فتحدث باسم بقية النبلاء، وعمل رداً على الملك أوضح فيه بأن الايرلات، والبارونات، والفرسان الذين كانوا مستأجرين اقطاعيين رئيسيين لدى الملك، والذين كانوا حاضرين أيضاً بأشخاصهم، بأنهم صرفوا أموالهم وبددوها من دون هدف وغاية، إلى حد أنهم عندما غادروا القارة، غادروها رجالاً فقراء، وبناء عليه، إنه بموجب الحق، ليس عليهم تقديم عون إلى الملك، وعند ذلك سأل العلمانيون جميعاً من النبلاء الإذن بالانصراف، وغادروا المؤتمر، أما الأساقفة فقد أجابوا على طلب الملك قائلين بأن هناك عدداً كبيراً من الأساقفة، ورعاة الديرة، الذين وجهت الدعوة إليهم، لكن لم يحضروا، ولذلك سألوا تأجيل القضية حتى يتمكنوا من الاجتماع ثانية في يوم يجري تحديده، وبناء على ذلك جرى تحديد يوم، وكان بعد مضي أربعة عشر يوماً، بعد عيد الفصح، ليجتمعوا فيه من أجل تقرير الذي ينبغي فعله بموجب الحق.

وفي العام نفسه، انتخب المجمع الديـري في كانتربري، رئيس الرهبان جـون، ليكـون رئيس أسـاقفتهـم، والمسـؤول عن أرواحهـم، ولدى تقديمهم إياه إلى الملك قبله، ثم إنه انطلق يريد روما ليحصل عل تثبيت صحيح لهذا الانتخاب من الكرسي الرسولي.

رؤيا مدهشة تتعلق بالملك رتشارد

وفي تلك الآونة، كـان هنري أسقف روكستر، يؤدي قداساً إلهيا، في يوم الأحـد، عندمـا يغنى المزمـور الذي فيـه (تعـالوا إلى الماء، أنتم أيها العطاشى جميعـاً)، وكـان ذلـك في مكان اسمـه ستينغبـورن Sit-tingbourn بحضـور رئيـس الأسـاقفـة المنتخـب لكانتربري، ومحاطاً برجال الدين وبالناس، عندما عمل بثقة وجرأة الاعلان التالي:

«اخـواني في الرب الذين أنتم هنـا حضـوراً، افـرحـوا جميعـاً، كـونوا متأكدين وواثقين أنه في اليوم الأخير نفسه، قد خرج رتشارد، الذي كان من قبل ملك انكلترا، وستيفـن، رئيس أسـاقفـة كـانتربري الأخير مع واحـد من قساوسـة رئيس الأساقفـة المذكـور، قد خـرجوا من مـوضع العذاب، وظهروا أمام الجلالة اللاهوتية، وهؤلاء الثلاثة فقط قد غادروا المطهرة في ذلك اليـوم، ويمكنكم أن تثقوا ثقـة مطلقة بكلماتي، لأن هذا قد أبيح لي برؤيا، أو لواحد آخر ثلاث مرات، بكل وضوح، إلى حد أن جميع الشكوك قد زالت من عقلي»، وبما أن الاشارة قد وردت هنا حول الملك النبيل رتشارد، سوف أقص خبر واقعة حدثت له، من أجل تنوير قرائي.

كيف رأى رتشارد تمثال المسيح حانياً رأسه نحو متعبد

كان هناك خلال حكم الملك رتشارد، أحـد الفرسان يعيش في الغابة الجديدة، وقد مـارس لمدة طويلة بشكل سري صيد غـزلان الملك، وقد ألقي القبض عليـه في احـدى المنـاسبـات، ومعـه لحم طرائـد مسروق،

وبقرار من محكمة بلاط الملك المذكور أدين بالنفي، وكان رتشارد الملك الرحيم قد لطف القانون المتعلق بلحوم الطرائد المسروقة، الذي كان لأسلافه قاسياً جداً، حيث كان الذي يقبض عليه متلبساً بهذا العدوان، كانت تقتلع عيناه، وتجتث أعضاؤه مع يديه ورجليه، لكن هذه العقوبات بدت إلى الملك التقي رتشارد أنها غير انسانية، في أن يحرم الانسان، الذي خلق على شكل الرب من حياته أو من أطرافه من أجل حيوان، فالحيوانات، قد أعطيوا —وفقاً لقانون الطبيعة للاستخدام العام من قبل الجميع— فبموجب تلك القوانين بدا الانسان وكأنه أقل أهمية من حيوانات البرية، وقد رأى على كل حال وقدّر، أن العقوبة الكافية تماماً بالنسبة إلى أي انسان أمسك متلبساً باقتراف تلك الجريمة، إما أن ينفى من انكلترا، أو أن يدخل السجن، محتفظاً بحياته وأطرافه، وأرسل الفارس المتقدم الذكر إلى المنفى، وهذا الرجل الذي كان قد تمتع من قبل بجميع مباهج الحياة مع زوجته وأولاده، قد أرغم الآن على التسول من أجل خبزه بين الأجانب، وقرر الفارس بعد تقليب لوجوه القضية، أن يلتمس أخيراً رحمة الملك، وأن يطلب إعادة ملكيته الأرضية له، وبناء عليه ذهب إلى الملك في نورماندي، حيث وجده في الصباح الباكر في كنيسة على وشك الإصغاء إلى قداس، ودخل الفارس الكنيسة وهو يرتجف، ولم يتجرأ على أن يرفع عينيه نحو الملك، الذي وإن كان أكثر الناس رشاقة وبهاء أن تنظر إليه، كان هناك فيه شيئاً مرعباً في نظرته، ولذلك ذهب إلى تمثال المسيح على الصليب، فبكى بدون توقف، والتمس وهو جاث على ركبتيه من المصلوب، من خلال نعمته التي لايمكن وصفها، أن يصنع سلاماً بينه وبين الملك، به يتمكن من استرداد ميراثه المفقود، ورأى الملك الفارس، وهو يصلي هكذا بحرارة، ويبكي بتقوى غير خفية، وهنا شاهد واقعة رائعة جديرة بالحديث عنها، لأنه كان كلما حنى الفارس —الذي لم يعرفه بين حاشيته— ركبتيه ليتعبد التمثال، قام التمثال بكل تواضع بحني رأسه وكتفيه، وكأن ذلك

كـان استجابة للفـارس، وأصيب الملك بالدهشـة والعجب لدى رؤيتـه هذا يتكرر مـراراً، ومـا أن انتهت أعمال القـداس حتـى أرسل خلف الفـارس ليتحدث إليـه، وسأله من كـان هو، ومن أين جاء، وردّ عليـه الفارس آنذاك وهو خـائف، وقال: «إنني يامـولاي من رعيتك التابعين لك، مثلما كان أجدادي أيضـاً»، ثم بدأ يقص عليه تاريخه، وأخبره كيف أنه حـرم من ميراثه، ونفي مع أسرته، لأنه ألقي القبض عليـه مع بعض لحم الطرائـد المسروقـة، ثم سأل الملـك الفـارس: «هـل فعلت قط في حيـاتـك عمـلاً جيـداً صـدوراً عن الاحترام والتشريـف للصليب المقدس؟»، ثم إن الفارس، بعدما تفكر حـول أحداث ماضيه بكل دقة، قص على الملك الحادثة التالية التي قام بها صدوراً عن احترامه للمسيح.

كيف أبقى الفارس على حياة عدوه صدورا عن احترامه للمسيح

ولقـد قال: «اقتسم أبي مع فـارس آخـر، بينهما بلدة، آلت إليهما بحق الميراث، وفي الوقت الذي كان فيه أبي محاطاً بجميع أنواع الثروات، كان الفارس الآخـر على العكس، دائماً فقيراً وبحاجـة، وصار حـاسداً لأبي، وقد قـام بشكل خياني بقتله، كنت آنذاك طفـلاً، لكن عندما وصلت إلى سن الرجولة ونصبت في ميراثي الأبوي، اتخذت قراراً الزامياً بقتل ذلك الفارس، انتقاماً لموت أبي، وقـد جرى تحذيره وانذاره مسبقاً بنيتي، وقد نجا لمدة سنوات ببراعته من المصائد التي نصبتها له، وبعد طويل وقت، كنت في يوم الاستعداد، الذي كان هو اليوم الذي حمل فيه يسوع المسيح صليبـه من أجل خـلاص العـالم، ذاهبـاً إلى الكنيسـة، لسماع القـداس، فرأيت عدوي أمامي أيضـاً وهو على طريقه إلى الكنيسة، فأسرعت أسير خلفه، وجـردت سيفي لأقتله، عندما نظر بالصدفـة نحو الخلف، ولدى رؤيتـه لي أنقض عليـه، هرب نحـو صليـب كـان واقفـاً قـرب الطريق، وحيث أنه كان منهكاً بسبب تقدمه بالسن، لم يكن قادراً على الدفاع عن نفسـه، وعندما حـاولت سـاعياً لقتلـه بسيفي المشهور، ولتحطيم رأسـه

واخـراج ونثـر دمـاغـه، طوق الصليب بـذراعيـه، ورجـاني باسم ذلك المسيح، الذي علق في ذلك اليـوم على الصليب، لتخليص العالم كله، أن لا أقتله، ووعد مخلصاً ونذر، أنه سوف يعين قسيساً يؤدي قداساً اعتباراً من ذلك اليوم من أجل روح والدي الذي قتله، وأن يكون ذلك يومياً، وعندمـا رأيت الرجل العجوز وهـو يبكي أشفقت عليه، وصـدوراً عن حبي وتقديري للذي من أجـل خلاصي وخلاص الجميع قـد صعد إلى الصليب، وكرسـه بدمه الأعظم قداسة، فعفـوت عن ذلك الفارس من أجل مقتل أبي»، وعندها قـال الملك للفـارس: «لقـد تصرفت بحكمـة، لأن ذلك المصلوب قـد سدّد لك الآن حسنة إثر حسنة أخـرى»، ثم إنه استدعى الأسـاقفة والبارونات الذين كـانوا هناك معه، وعلى مسمع من الجميع قصّ عليهـم الرؤيا التي شـاهدها، وكيـف أنه كـان كلما عمل الفارس انحناءة بركبتيه، كان تمثـال المسيح يقوم بتواضع بانحناءة برأسه وبكتفيه، ثم إنه استـدعى مستشاره إليـه، وأمره أن يكتب رسالة مـوثقة يأمر بها العمـدة الذي سوف يسميـه الفارس إليـه، أن يقوم فـور رؤيته الوثيقة، بإعـادة جميع الممتلكات العائـدة إلى الفارس، إليـه، في الأحوال نفسها كما تسلمها أثناء القيام بنفيه.

صبر الملك أثناء مضايقته

في الوقت الذي نتحدث فيـه عن فضائل ذلك الملك النبيل، علينا أن لانحذف ذكر، أنه فور تتويجه، قدم دوماً عدالة دقيقة إلى كل واحد، ولم يسمح قط بحرفها بوساطـة الرشوى، ومنح على الفور جميع الأسقفيات ورعـاة الديرة الشاغـرة إلى من يشغلها، من دون شراء، وجـاء المنح إلى كهنة جرى انتخابهم بشكل قانوني، ولم يمنح هذه المناصب، ولم يعهد بها قط إلى رجـال علمانيين، ونظر إلى جميع رجـال الدين المكرسين، ولاسيما أتباع الطوائف الدينية منهم، نظرة احترام كبيرة، ونظراً لاحترامه ليسوع المسيح، كان يخاف كثيراً من ايذائهم، حتى أنه حـدث في إحدى المرات،

عندما كان أساقفة المملكة جميعاً مجتمعين أمام الملك بناء على أمر من البابا، حتى يعملوا منحة جزء من عشرين من جميع الممتلكات المتحركة لمساعدة الأرض المقدسة، وكانوا جالسين على انفراد يتباحثون حول القضية، قال الملك بصوت منخفض لغيوفري فتز- بيتر، وإلى وليم بريوير اللذان جلسا عند قدميه: «هل تريان أولئك الأساقفة الجالسين هناك؟»، فأجاباه: «نعم نحن نراهما يامولاي»، وعندها قال الملك لهما: «لو علموا إلى أي مدى أحترمهم بالرب، وأنا أخاف منهم، وكيف أنني لاأرغب بايذائهم، سوف يدوسون عليّ وكأنني حذاء قديم مهترىء»، وينبغي أيضاً أن نذكر باعجاب، كيف أنه تخلى عن مسار ومباهج المملكة التي حصل عليها حديثاً، حباً منه للملك الأبدي، وكيف أنه أنفق أمواله وأموال أبيه المتوفى في خدمة المسيح، ومن أجل تحرير الأرض المقدسة، وكيف استولى بشجاعة على جميع أرض الميعاد، إلى جانب مدينة القدس المقدسة، وانتزعها من أيدي أعداء الصليب، وعندما نقصت أمواله هناك، عمل هدنة لمدة ثلاثة أعوام، وحصل على إذن من صلاح الدين بالسماح للكهنة بإقامة قداس للصليب عند ضريح ربنا، وذلك كل يوم حتى انتهاء مدة الهدنة، وأن يكون ذلك على حسابه الخاص، ثم إنه غادر إلى بلاده، وجند قواته، وجمع مالاً، وعند نهاية الهدنة عاد، تاركاً المملكة وجميع الممتلكات التي كانت تحت سلطانه في البلدان الغربية، حتى يتمكن من التتويج ملكاً في مدينة القدس المقدسة، وتولى قيادة قواته، وقاتل في معارك رب السبت، وسعى لاخضاع أعداء الصليب مادام حياً، لكن عدو الجنس البشري الذي هو حسود بشكل دائم للأعمال الجيدة، ولتقدم المسيحية، أثار ضد هذا الملك التقي، دوق النمسا، والامبراطور الروماني، الذي نصب له المصائد، أثناء عودته من الأرض المقدسة، وعندما اعتقل من قبل أعدائه، بيع مثل ثور أو أتان إلى الامبراطور الروماني (١)، ثم سجن، وعومل بسوء بعيداً عما يليق

١- تتناقض هذه الرواية مع جميع الروايات المتداولة.

بشخص عظيم مثله، وأرغم على دفع مبلغ كبير فدية له، وفضلاً عن هذا أعاق الملك الفرنسي خططه بغزوه ممتلكاته، عندما كان مشغولاً في خدمة الصليب، ومع أنه أعيق هكذا من قبل أعدائه في جميع الجهات، ثابر في عقله العمل على نيل الشهادة، التي لم يكن قد نالها بعد بالجسد، وكان قد قرر أن يحصل عليها في أرض الميعاد، لأنه اشتاق إلى العودة ولأن يموت في خدمة الصليب، وبالاضافة إلى هذه المحن كلها، عندما كان الملك المذكور غائباً في الحملة الصليبية، تآمر أخوه الايرل جون لاخضاع انكلترا لحكمه، وحاصر القلاع، وعمل حرباً ضد أخاه، ولكن لإخلاص الانكليز في ولائهم، أحبطت خططه.

ولكم هو رائع ثبات هذا الملك النبيل، الذي لم ينحن قط أمام العدوان، ولم يستبد به العجب أثناء النجاحات، وبدا دوماً مشرقاً، ولم يظهر فيه قط أية اشارة على عدم الثقة بالنفس، ومنحت هذه السمات ومامـاثلها ملكنا رتشارد مجداً في نظر الرب العلي الأعلى، وعلى هذا عندما حان الوقت الآن، وعندما وصلت رحمة الرب، جرى نقله باستحقاق —كما نعتقد— من أماكن العقوبة، إلى المملكة السرمدية، حيث وضع المسيح، ملكه الذي خدمه باخلاص، هناك لجنوده تاج العدالة، الذي وعد به الرب إلى الذين يحبونه، وحيث يعيش بحبور برفقته أولئك القديسين الذي أنقذ آثارهم في أرض الميعاد، وخلصها من صلاح الدين، مقابل اثنتين وخمسين قطعة ذهبية، مع التقدير أن هؤلاء القديسين ينبغي أن يساعدوه وقت الشدائد بوساطتهم بالحصول على حظوة الرب، وكانت هذه الآثار المقدسة قد تولى جمعها المسلمون من أرجاء اليهودية والجليل، في أيام الاستيلاء على الأرض المقدسة، وعلى الصليب المبجل، ووضعت في أربعة صناديق من العاج، كان كل واحد منها ثقيلاً إلى حد أنه ما كان بامكان أربعة رجال أن يحملوه إلاّ بصعوبة، وقد جرت حكاية هذه الوقائع بشكل كامل وأكثر تفصيلاً، أثناء رواية وقائع حكم الملك رتشارد المذكور.

بيع حاصلات رجال الدين الرومان

وجـرى في العـام نفسه الاستيـلاء على قمح رجـال الدين الرومـان، وبيعــه من قبل بعض الناس الذين كــانوا غير معــروفين، وذلك وفق شروط جيـدة لصالح كثيرين، وقـد شرعـوا بهذا العمل الجريء في أيام عيد الفصح، واستمـروا به من دون أية معارضة، وكانوا كـرماء في منح الصـدقـات إلى المحتاجين الذين جاءوا إليهم، ونثـروا أحيـاناً المال بين الفقـراء، وجلس رجال الدين الـرومان متخفين في الديرة، ولم يتجـرأوا على التذمـر من الأذى الذي لحق بهم، ذلك أنهم فضلوا أن يفقدوا جميع ممتلكاتهم على أن يحكم عليهم بالموت.

وكـان الذيـن قـامـوا بهذه الأعمال الجريئة حــوالي الثمانين من حيث التعـداد، وكانوا في بعض الأحيـان أقل من ذلك،وكـان مقدمهم واحـد اسمـه وليم، ولقبـه ويزر Witherوقـد أطاعــوا تعليماته في كل شيء، ومـالبثـت أخبـار هذه الوقـائع أن وصلت إلى مســامع الحبر الأعظم، فغضب غضبـاً عظيماً، وبعث برسالة حـادة إلى ملك انكلترا، لامه فيهـا للسماح لمثل هؤلاء اللصوص بالاعتـداء على اللاهوتيين في مملكته، دون أن يقدم الاحترام إلى اليمين الذي أداه، عندما جرى تتويجه، الذي قضى ليس فقط بالحفاظ على السلام نحو الكنيســة، بل بالالتزام بتطبيق عدالة دقيقـة نحـو رجـال الدين ومثل ذلك نحـو العلمانيين، وأمـره بالرسـالة نفسها بـأن يلتزم بدقة —تحت طـائلة عقوبة الحرمـان الكنسي والحرمان من شراكــة المؤمنين— بـالأمــر بالقيــام ببحث دقيـق عن مقترفي هذه الجريمة، ومعاقبة المجرمين بشدة، من أجل أنه بمعاقبتهم يمكن أن ينزل الخوف والرعب في قلـوب الآخــرين، كما أنه بعث رســالة إلى بطرس أسقف وينكستر، وإلى راعي دير القـديس إدمــوند، بأن يقـومـا ببحث دقيق وأن يتقصيا في الأجزاء الجنوبيـة من انكلترا، وأن يتوليا إدانة جميع الذين يجدونهم مدانين بهذه الجريمة، وأن يعدوهم محرومين كنسياً، حتى

يأتوا إلى رومـــا من أجل التحليل مـن قبل الكرسي الرســـولي، ووفق الطريقـة نفسهـا، عهد في شمالي انكلترا، القيـام بالبحث نفسـه إلى رئيس أساقفـة يورك، وإلى أسقف درم، وإلى جون الذي كـان كاهناً في يورك، ورومـانيا من حيـث المولد، وأمرهم بارسـال الذين هم مجرمين مـدانين بهذه الجريمة، دون الالتفات إلى أي مرافعة استئناف.

البحث الذي عمل في قضية السرقة المتقدم ذكرها

وبناء عليــه أقيم بحث وتقصي حــول هذه القضيـــة من قبل الملك، والأسـاقفة، والوكـلاء الذين تقـدم ذكـرهم أعلاه، وبـوسائط الحرمـان الكنسي بناء على يمين، وعن طريق تقـديم الشهـود جـرى الكشف عن عـدد من المعتـدين، كـــان بعضهم رئيسيين، وبعضهـم الآخـر محرضين، وكان بعض هؤلاء من أسـاقفة الملك ومن رجـال الدين، وكان بعضهم أيضاً من رؤساء الشمامسة والعمـداء، مع عدد من الفرسان والعلمانيين، وكان هناك أيضاً بعضاً من عمد المناطق والرؤساء الإداريين لديهم، وقد اعتقلوا بناء على أوامـــر الملك وسجنوا بسبب هـذه الجريمـة، وأخـذ آخـرون حـذرهم، ورأوا أن سـلامتهم بالفـرار، ولذلك هربوا ولم يعـد بالامكان العثور عليهـم، وقد قيل بأن هيوبرت دي بـورغ المسؤول عن العدالة لدى الملك، كان هو المحرض الرئيسي في هذه القضية، بسبب أنه أعطى هؤلاء اللصـــوص تراخيص من الملك، ومنه شخصيـاً، لمنع أي انسـان من اعتراضهم أثناء السرقـات المذكورة، وكـان بين البقيـة الذين وصلوا إلى الملك، روبرت دي توني Tuinge وكـــان رجـلاً جـــريئاً، وكان قد اتخذ لنفسه اسم وليم ويزر، ومع الآخـرين الذين حرضوه باع محاصيل رجـال الدين الرومـان، وقـد استأجـر خمسـة مسلحين ليكونوا أعواناً له ومسـاعدين في اعتداءاته، وأعلـن هذا الرجل بشكل مكشوف أنه خـرق القـانون كـراهية منه للـرومان، وفي سبيل انتقـام عـادل، لأن أولئك الرومـان المذكـــورين، كـانوا يسعـون بمـــوجب قـرار من الحبر

الروماني، وبشكل غير شرعي، إلى حرمانه من الكنيسة الوحيدة التي امتلكها، وأضاف أيضاً يقول بأنه بالحري يفضل بأن يحرم كنسياً لبعض الوقت على أن يسلب من مصدر رزقه من دون محاكمة، وبناء عليه نصح الملك مع الوكلاء المذكورين هذا الفارس، بعدما حصل على القرار القاضي بحرمانه، بالاسراع بالذهاب إلى روما، وأن يعرض قضيته أمام صاحب القداسة البابا، وليبرهن أنه استحوذ على الكنيسة بشكل شرعي وقانوني، وأعطاه الملك رسائل تشهد له، ليسلمها إلى البابا، والتمس من ذلك الحبر، أن يوافق بلطفه على منح الفارس طلبه.

كيف جرى إلغاء انتخاب رئيس رهبان كانتربري في روما

في اسبوع أحد الشعانين من العام نفسه، ذهب رئيس الرهبان جون، الذي هو رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، إلى روما، وأظهر وثيقة انتخابه وأراها للبابا، الذي بناء عليه أمر المعلم جون دي كولونا Co-lonna وبعض الكرادلة الآخرين بفحصه، واكتشاف فيما إذا كان شخصاً مناسباً ولائقاً للترقية إلى ذلك المقام الرفيع، وبعد امتحان لمدة ثلاثة أيام، سألوه خلالها بدقة حول تسع عشرة نقطة، أعلنوا —كما قيل— إلى البابا أنهم لم يجدوا سبباً شرعياً لرفضه، لكن الذي بدا —على كل حال— للبابا هو أنه كان متقدماً بالسن كثيراً، وبسيطاً، وبالتالي غير لائق لمثل هذا المقام الرفيع، ولذلك نصحه بالاستقالة، وبتواضع قام رئيس الأساقفة المنتخب بالاستقالة من الانتخاب الذي عمل، وطلب الاذن ليعود إلى الوطن، وعندئذ منح البابا اذناً إلى الرهبان لانتخاب واحداً آخر، وأمرهم أن يختاروا واحداً يمكن أن يعهد إليه بواجبه، وبالمسؤولية الأسقفية.

كي صرف الملك الانكليزي بعض وزرائه من مناصبهم

وأغار في هذه الآونة للويلين الزعيم الويلزي على أراضي بعض

البارونات الانكليز، وشرع حسب طريقته المعتادة بالعيث فساداً في المنطقة بالسلب والنار، وبناء عليه ذهب بطرس أسقف وينكستر وبعض المستشارين الملكيين إلى الملك، وأعلنوا أنه عار كبير بالنسبة لتاجه أن يقوم هؤلاء اللصوص الذين لايساوون شيئاً، أي الويلزيين، بالجولان كما يريدون خلال أراضيهم وأراضي هؤلاء البارونات، وهم يعيثون فساداً في جميع المناطق بالنار، ولايتركون شيئاً دون أن يتعرض للأذى، وقال الملك في جوابه لهم:

«لقد أخبرني رجال المال لدي، أن جميع موارد خزينتي بالكاد تكفي لشراء طعام عام لي وملابس، ولدفع العطاءات المعتادة، وبناء عليه الفقر يمنعني من الدخول بالحرب»، ورد مستشارو الملك عليه قائلين:

«إذا كنت فقيراً، ماعليك إلاّ لوم نفسك لذلك، لأنك حولت جميع المناصب الشاغرة، والمسؤوليات، والوظائف السامية، وأبعدتها عن الخزانة، ولذلك لايمكن تسميتك ملكاً لثرواتك، بل فقط بالاسم، لأن أجدادك الذين كانوا نبلاء، وأغنياء بمجد ثرواتهم، قد جمعوا مبالغ من المال لاحد لها ولاحصر، من منتجات المملكة وتعويضاتها»، وقد أثير الملك من قبل هؤلاء الذين سيكون سيئاً أن نذكرهم بالأسماء، وغضب بسبب الاهانات التي تلقاها من مستشاريه، وطلب على الفور من عمد المناطق، ومن النواب، والوكلاء الآخرين التابعين له، تقديم حساب عن الموارد، وعن كل شيء له علاقة بالخزينة الملكية، وكل من وجده بينهم مجرماً بالغش، صرفه من وظيفته، وطالب المعزولين بالمال المستحق له، مع الفائدة، وأبقاهم في السجن حتى دفعوا الدين كله، وعزل رالف الذي لقبه بريتون Breton وكان المتسلم لخزينته الخاصة، من وظيفته، وأخذ منه ألف باوند من الفضة، وعيّن مكانه بطرس دي ريفوكس Rivaux وكان من أهل بواتو، وهكذا قام الملك في وقت قصير، فملأ ثانية وظائفه الشاغرة، لكن ليس اشغالاً كاملاً.

كيف طلب الملك جرد حساب من هيوبرت المسؤول عن العدالة

وفي تلك الآونة، صرف الملك —بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر— هيوبرت دي بورغ المسؤول الرئيسي عن العدالة، وعزله من وظيفته، وفي التاسع والعشرين من تموز، عيّن ستيفن دي سيغريف —وكان فارساً— مكانه، وبعد مضي عدة أيام، غضب كثيراً من هيوبرت الذي عزل مؤخراً، فطالبه بأن يقدم على الفور جرد حساب عن جميع الأموال الذي دفعت إلى خزينته، وعن الديون المستحقة له، خلال أيام أبيه، وأيضاً خلال أيامه، ثم طالبه بتقديم حساب عن ممتلكاته، التي آلت إليه وتملكها يوم وفاة وليم إيرل بيمبروك، الذي كان وقتها المارشال والمسؤول عن العدالة، وكذلك بالنسبة لما استحوذ عليه في انكلترا، وويلز، وايرلاندا، وبواتو، وأيضاً فيما يتعلق بالامتيازات التي كانت آنذاك بين يديه في الغابات، والمطارد، والكونتيات وفي أماكن أخرى، وتبيان كيف أنه احتفظ بهم، وكيف جرى عزلهم، وكذلك فيما يتعلق بضرائب الجزء من خمسة عشر، ومن ستة عشر، والدخول الأخرى المتسحقة لخزينته، وكذلك الحال بالنسبة للمعبد الجديد في لندن وفي أماكن أخرى، وكذلك مايتعلق بالغرامات التي فرضت من أجل التخلي عن حقوقه في الأرض، وكذلك الحال بالنسبة للممتلكات المتحركة، وكذلك مايتعلق بالخسائر التي عانى —الملك— منها بسبب اهمال هيوبرت، ومثل هذه الأموال التي جرى تبديدها بالحرب أو في أي طريقة أخرى، من دون أية فائدة له شخصياً، ومثل ذلك مايتعلق بالامتيازات التي تمتع بها هيوبرت شخصياً في الأراضي، والأسقفيات، والوكالات التي عينت له من دون ترخيص، والتي هي عائدة إلى الملك نفسه، وكذلك ماتعلق بالأضرار وبالأذى الذي لحق بالرومان وبرجال الدين الطليان، وبرسل البابا، وذلك ضد رغبات الملك، من قبل هيوبرت المذكور، الذي لم يقدم أية نصيحة كان من الممكن بها انقاذهم،

وهو ماكان ملزماً بفعله بموجب واجبات مركزه كمسؤول عن العدالة، وكذلـك لمعرفة كيـف جرت المحافظة على سـلام الملك نحو رعـاياه في مملكة انكلترا، وفي ايرلاندا، وغاسكوني وبواتو، وكذلك نحو الأجانب، وكـذلك مـاتعلق بها عمل بضرائـب بدل الخدمـة، وضرائب الأرض المفلوحة، والأعطيات، والهدايا، أو مجريات التعهـدات العائدة إلى التاج، وكذلك ماتعلق بحصص الزواج التي تركت لعنايته من قبل الملك جون أثناء وقت مـوته، والأشيـاء الأخـرى التي عهـد بها إليـه في أيام الملك الحالي.

وجـواباً على هذا، أخبر هيـوبرت الملك، بأن لديه تفـويض من الملك أبيه، قد حرره بموجبـه من تقديم أي حساب عن الأموال التي تسلمها أو التي سيتسلمها في خزينته، ولأنه كان موثـوقاً جداً من اخلاصه نحو الملك، لم يرغـب هذا الملك بسماع أي حسـاب منه، وهنا قـال بطرس أسقف وينكستر بأن ذلك التفويض قد فقـد قوته عند وفاة الملك جون، ولذلك لم يعرف هو ولم يصل إليه أن الملك الحالي ملتزم بتراخيص أبيه، بل إنه يطالب بحسـاب عن القضايا المذكـورة أعلاه، ولقد كـانت تلك بعض القضايا الخفيفة التي طالب الملك بجواب عنها من قبل هيوبرت، وتبع ذلك عدة اتهامـات جدية أخرى، فيها اتهم الملك هيـوبرت بالخيانة ضد شخصه الملكي، وهي كانت كما يلي:

وكـان أول اتهام جرى توجيهـه من قبل الملك ضـد هيـوبرت هو أنه عندمـا أرسل رسـائل، إلى دوق النمسـا يطلب منه ابنة الأمير للزواج، أرسل هيـوبرت في الوقت نفسـه رسـائل إلى الدوق ضـد الملك وضـد المملكة، وأقنع الـدوق بالاقـلاع والامتنـاع عن اعطاء ابنتـه للزواج، وكـذلك عـندمـا قـاد جيشـه إلى القـارة، لاسترداد مناطقـه الضائعـة، أقنعـه هيـوبرت بالامتناع عن غـزو نـورمـاندي، أو المناطـق الأخـرى التـابعـة لسلطـانه، وبنـاء عليـه لقـد أنفـق أمـواله من دون محصلة،

وكـذلك فعل النبلاء الذين رافقـوه، واتهمـه الملك أيضاً بأنه كـانت له صـلات مع ابنة ملك الاسكـوتلنديين، التي عهـد الملك جـون بشأن العناية بها إليـه من أجـل أن يتـزوجها هو نفسـه، وقد حصل منهـا على ولد غير شرعي، وبذلك ضـاجـع سيـدة نبيلة، واحتفظ بها لنفسـه على أمل الحصـول على مملكة اسكوتلندا، إذا مـاعـاشـت هـي بعـد وفـاة أخيهـا، وكـذلك قـام هيـوبـرت فـاختلـس بشكـل سري من خـزينتـه احدى الجواهر، التي تجعل حاملها غير مرئي في المعركة، وقـد بعـث بها بشكل خيـاني إلى عـدوه للويلين الزعيم الويلزي، وأنه بسبـب رسـالة أرسلـت مـن قبـله إلى للـويلين، جـرى شنق النبيل وليم دي براوس مثل لص، وقـد اقترح خصـوم هيـوبرت المذكـور جميـع هـذه التهـم، سـواء أكـانت صحيحـة أو مـزيفـة للايذاء، اقترحـوها إلى الملك، الذي طلب بكل حماس الحصول على ترضية من هيوبرت المذكور، وفقاً لقرار محكمتـه، وفي هذه الضـائقـة طلب مسـؤول العـدالة منحـه فـرصـة للتفكير حول هـذه القضـايا، لأنه لم تكن أمامـه وسيلة أخرى، وأعلن أن الاتهامـات كـانت ثقيـلة، ومـن الصعب الاجابة عليهـا، أي التهم التي عملهـا الملك ضـده، وبنـاء عليـه، حصل بعـد صعـوبة بالغـة على فـرصـة حتى عيـد تمجيـد الصليـب المقـدس، وغـادر هيـوبرت لندن، وذهـب وهو مـرعوب كثيراً إلى ديـر ميرتون Merton وهكـذا فـإن هيوبـرت هذا الذي أثار من قبل حسـد جميع نبلاء انكلترا ضـده، بسبب تقـدير الملـك له، ولعنايتـه بالمملكـة، هـذا هو أصبح الآن من دون أصـدقـاء، ومهجـوراً من قبل الملـك، وبـات وحيـداً ومضطرباً، وكان لوقـا رئيس أساقفة دبلن الرجل الوحيـد الذي تكلم لصالحه عند الملك، وقـد فعل ذلك وهو يبكي وقـدم توسـلات كثيرة، لكن جـرائم المسـؤول عن العـدالة كـانـت كبيرة جـداً، ولذلك لم يمنح الموافقـة على طلبه.

بعض الاتهامات الكبيرة التي عملت ضدّ المسؤول عن العدالة

عندمـا رأى الناس أن تقـدير الملك الذي كـان يمنحـه فيما مضى لهيـوبرت، قـد تغير إلى كراهيـة شـديدة، نهض كثير من أعـدائه ضـده، واتهموه باقتراف أعداد هائلة من الجرائـم، فقد اتهمه بعضهم بأنه تسبب بموت نبيلين هما: وليم ايـرل سالسبري، ووليم مارشـال ايرل بيمبروك بالسم، وأنه قتل فالكاسيوس ورتشارد رئيس أساقفة كانتربري بالوسيلة الشريرة نفسهـا، وتقـدم سكان لندن بشكـوى إلى الملك ضـد هيـوبرت المذكـور، بأنه شنق ابن مـدينتهم قسطنطين بشكل غير عـادل ومن دون محاكمة، وطالبوا من أجل هذه الجريمة بانصافهم وتقديم العدالة إليهم، وبناء عليه أصدر الملك اعلاناً في جميع أرجـاء لندن، دعا فيه جميع الذين لديهم أية شكاوى ضد هيـوبرت، من أجل أي أذى مهما كان قـد صدر عنه، إذا كـانوا يطالبـون بالانصـاف والعـدالة من أجله، وعندمـا سمع هيوبرت بهذا، هرب مذعـوراً إلى الكنيسة في ميرتون، حيث أخفى نفسه بين الكهنة.

وفي خريف العام نفسه جرى انتخاب المعلم جون، الذي لقبه لى بلند Blund الذي كان رجل دين، وتلميذ لاهوت في اكسفـورد، إلى رئاسة أساقفة كـانتربري، وبعدما جرى قبـوله من قبل الملك، أخذ الطريق مع بعض الرهبـان إلى روما، للحصول على تثبيت انتخـابه من قبل الكرسي الرسولي.

المنحة التي أعطيت إلى الملك وتشمل جزئاً من أربعين من الممتلكات، إلخ

وفي الفصل نفسـه، في حـوالي أيام تمجيـد الصليب المقـدس، اجتمع الأساقفـة ورجال الدين الآخريـن من أصحاب الكنائس في المملكة، في مؤتمر أمام الملك في لامبث، عندمـا عملت منحة إلى الملك لوفاء الديون

التي عليه لكونت بريتاني، وكان مقـدار هذه المنحة جزئاً من أربعين من جميع الممتلكات المتحـركـة، من الأسـاقفـة، ورعـاة الديـرة، ورؤسـاء الرهبـان، ورجال الدين والعلمانيين، وفقـاً لما كـان لديهم عندما جرى جمع القمح في الخريف، في هذه السنة السـادسـة عشرة من حكمـه، أمـا بالنسبة لهيوبرت دي بورغ، الذي عيّـن له الملك وقتاً محدداً للظهور من أجل الاجابة على التهم المذكـورة أعلاه، والمطالب التي صـدرت ضده، خـاف من غضب الملك، ولم يتجـرأ على الظهور، لأنه قـد ألمح إليـه بأن الملك عـازم على إدانتـه، والحكم عليـه بمـوت مهين، ولذلك هرب إلى الكنيسة في ميرتون، حتى تتوفر لأموره فرصة تبدو أكثر مواءمة، وأخيراً أرسل الملك رسـالة إليـه للقـدوم إلى محكمـة بلاطه، ليجيب على التهم المثارة ضـده، لكنه أخبر الملك، بوساطة رسـوله ومن خلاله، أنه خـوفاً منه من غضبه، قـد التجأ إلى الكنيسة، التي هي الملجأ الأخير والملاذ لمن يعاني من الأذى، وأنـه لن يغادر حتى يعلم أن مشـاعر الملك نحـوه قد تحولت نحـو الأحسـن، وغضب الملك تجاه هذا كثيراً، ومـع أن الوقت كان مسـاء، أرسل أوامر إلى صـاحب الحركة في لندن، ليأخـذ معه جميع سكان المدينة القـادرين على حمل السـلاح لمهـاجمة ميرتون، وأن يجلبـوا هيـوبرت إلى أمـامـه ميتـاً أو حيـاً، وضرب صـاحب الحركـة عند ذلك الناقوس العام، وأمـر سكان المدينة بالاجتماع، وقرأ عليهم رسالة الملك، وأمرهم أن يطيروا إلى السلاح لتنفيذ أوامـر الملك، في صباح اليوم التالي الباكر، وفـرح سكان المدينة، عندما فهموا مقاصـد الرسالة، لأنهم كانوا يشعـرون ببغض مميت نحـو هيـوبـرت، وبناء عليـه غـادروا المدينة قبل صباح اليـوم التالي، وقد بلغ تعـدادهم عشرين ألف رجل، وزحفوا على شكل أرتال نحو ميرتون في سبيل تنفيـذ أوامر الملك، وأثناء هذا، اقترح على الملك مـن قبل ايرل شيستر، أنـه إذا مـاثار مثـل هذا الصراع بين السكان الحمقى وغير العقـلانيين، لن تتـوفـر هناك فـرصـة، مـا ان بدأ ذلك، إذا مـا أراد تهدئـة الاضطراب، ولذلك غير الملـك رأيه، وبعث

بأوامر إلى صاحب الحركة، أن يعيد القوات التي أرسلها على الفور، وعلى هذا أعاد سكان المدينة في حالة دهشة، دون أن يكملوا تحقيق أهدافهم.

كيف أخرج هيوبرت من الكنيسة بالقوة وألقي به في البرج

وبعد هذه الحوادث، حصل رئيس أساقفة دبلن، بعد كثير من الالتماسات، لهيوبرت على مهلة حتى ثمانية عيد الغطاس، حتى يمتلك مايكفي من الوقت ليفكر حول المطالب المذكورة أعلاه، التي كانت ذات طبيعة مستعجلة جداً، ويمكنه وقتها أن يقدم جواباً معقولاً، مع ترضيات موائمة إلى الملك، وبعد تسلم هيوبرت كفالة تأمين له كما اعتقد، وذلك بوساطة رسائل مصدقة من الملك، ركب الطريق إلى كنيسة القديس إدموند، حيث كانت زوجته مقيمة، ومن هناك عبر خلال اسكس، ثم استقر في بيت أسقف نورويك، في بلدة كانت تحت سلطان الأسقف المذكور، ولقد أغضب هذا الملك كثيراً، الذي كان يخشى أنه إذا ما نجا هيوبرت منه سوف يكون سبباً لإثارة هيجان كبير في المملكة، ولذلك أسف للمهلة التي منحه إياها، وهنا بعث الملك الفارس غودفري دي كروكمب Kraucumbe خلفه مع ثلاثمائة جندي، وأمره، تحت طائلة عقوبة الشنق، أن يعيد هيوبرت معتقلاً، وأن يسجنه في برج لندن، وزحفت هذه الفئة وقتها بكل سرعة، ووجدت هيوبرت في كنيسة قرب مقر إقامته، يحمل صليب ربنا في يد، وجسد المسيح في اليد الأخرى، لأنه كان قد أنذر بوصول هؤلاء الذين يطلبون حياته، فنهض وقتها من فراشه حيث كان نائماً، وهرب عارياً إلى الكنيسة، ودخل غودفري المتقدم الذكر إلى البيعة مع أتباعه المسلحين، وأمره باسم الملك أن يغادر البيعة، وأن يأتي معه إلى لندن ليتحادث مع الملك، وأجابه هيوبرت بأنه لن يغادر البيعة بأية حال من الأحوال، وبناء على ذلك قام غيوفري وصحبه بانتزاع الصليب وجسد مولانا من

يديه، وبعدما أوثقوه، وضعوه على ظهر حصان، واقتادوه إلى برج لندن، حيث وضعوه في سجن مضيق عليه، وبعد الفراغ من هذا كله، أخبروا الملك الذي كان ينتظرهم بقلق، وقد أعلموه بوصولهم، وبالذي فعلوه، وبناء على ذلك عاد راضياً إلى فراشه.

كيف أعيد هيوبرت إلى البيعة

وفي صباح اليوم التالي باكراً، عندما سمع روجر أسقف لندن، بأن هيوبرت قد أخرج بالقوة من البيعة، بادر مسرعاً إلى الملك، وبجرأة لامه لقيامه بخرق حرمة الكنيسة، وأخبره أنه مالم يطلق سراح هيوبرت، ويعيده إلى البيعة، التي أخرج منها بالقوة، سوف يتولى الحرمان كنسياً جميع مقترفي هذه الفعلة من العنف، ثم قام الملك، وهو مرغم، ومع أنه كان يعرف أن هيوبرت كان مجرماً، فأعاده في السابع والعشرين من أيلول، إلى البيعة التي أخرج منها بالقوة من قبل الجنود، وأعطى بعد هذا أوامر إلى عمدتي: هيرفورد، واسكس، تحت طائلة عقوبة الموت لهما شخصياً مع جميع سكان الكونتيتين، أن يقوما بتطويق البيعة، ومراقبة هيوبرت حتى لايهرب، أو يتلقى إمدادات من أي واحد، ومضى عندها العمدتان لتنفيذ أوامرهما التي تلقياها من الملك، وشرعا بمحاصرة البيعة ومعها بيت الأسقف، الذي كان قريباً، وقررا متابعة الحراسة لمدة اسبوعين، وتحمل هيوبرت على كل حال هذه المضايقة، براحة نفس —كما قيل— وعهد بقضيته إلى الرب، وتابع باستمرار يسأل الرحمة اللاهوتية أن تحميه من كل خطر، لأنه شخصياً اهتم ذاتياً بشكل دائم بكرامة الملك وسلامته فوق كل شيء، وأولى الملك —على كل حال— اهتماماً قليلاً لتخليه عن شخص خدمه بغيرة كبيرة، وقد جعل شغله الشاغل والوحيد تلبية رغباته، وأصدر الملك حظراً عاماً إلى الجميع أن لايتكلموا إليه لصالح هيوبرت، أو أن يذكروه أو أن يشيروا إليه بحضوره، والتمس لوقا رئيس أساقفة دبلن، الذي كان صديقه الوحيد،

ورجا الملك بشكل متواصل وهو يبكي، أن يخبره على الأقل عما كان ينويه، فيما يتعلق بهيوبرت، وعلى هذا يقال بأن الملك قد أجابه، بأن هناك عدة خيارات أمامه يمكنه أن يختار واحداً منها، وهذه الخيارات هي:

إما أن يغادر انكلترا بشكل دائم، أو أن يدخل سجناً أبدياً، بعدما يعلن عن نفسه أمام الملأ أنه خائن، أو أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، وعلى هذا رد هيوبرت بأنه لن يقبل بأي من هذه الخيارات، لأنه يشك بنوايا الملك، ثم إنه لايتذكر أنه عمل قط عملاً يستحق هذا النكران، ومع ذلك هو على استعداد لمغادرة المملكة لبعض الوقت، إرضاء للملك، لكنه لن يتخلى عنها ويغادرها بشكل دائم.

وأمضى بعد هذا عدة أيام وليالي محصوراً في هذه البيعة، مع اثنين من الخدم، اللذان زوداه بالمؤن حتى منعوا —بناء على أوامر الملك— من جميع أنواع الأطعمة، وهما شخصياً طردا من البيعة، واعتقد هيوبرت وهو في هذه الشدة، أن من العار أن يموت جوعاً، فغادر البيعة عن طواعية، وسلم نفسه إلى العمدتين، اللذان كانا يراقبانه، ذلك أنه قال بأنه سوف بالحري يؤثر الوثوق برحمة الملك على أن يموت من الجوع، وعند ذلك تدبر العمدتان اعتقاله بشكل مضمون، ثم وضعاه على ظهر حصان، وأخذاه إلى لندن، حيث أودع السجن بشكل محكم، وربط بالأغلال، في برج المدينة.

جمع الجزء من أربعين من الممتلكات الممنوح إلى انكلترا

«من هنري، بفضل نعمة الرب، ملك انكلترا، إلى بطرس دي ثانيو Thaneo ووليم كولوورث Culworth وآدم فتز— وليم، الذين يتولون جمع الجزء من أربعين، التحيات، ليكن معلوماً لديكم أن رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين،

الـذيـن بين أيـديهم أراضي ليسـت ملكـاً لكنـائسهـم، وأن الايـرلات، والبـارونات، والفرسـان، والرجـال الأحرار، والمزارعين في مملكتنا، قـد عملوا منحـة لنـا، لمسـاعـدتنا، ومقـدارها جـزئـاً من أربعين من جميع ممتلكاتهم المتحركة، حسبما كانت بين أيديهم في اليوم التالي لعيد القديس متى، في السنة السادسة عشرة من حكمنا، وهذه الممتلكات هي:

القمح، والمحـاريث، والأغنام، والعجـول، والخنازير، وخيـول التحميل، وخيول جر العربات، والأشياء الأخرى المستخدمة في عزبهم، باستثناء الممتلكات التـي بين أيدي رؤسـاء الأسـاقفـة، والأسـاقفـة، والأشخـاص اللاهوتيين الآخـرين الـذين تقـدم ذكـرهم، لصـالح الأسقفيـات والكنائس الوقفيـة وكـذلك الأوقاف، والأراضي العـائـدة للأوقاف، أو لها علاقة بالأوقـاف، أو الكنائس الأسقفية، ولسوف تقدم بشكل عام من قبل رعايانا التابعين كما تقدم بشكل عام، وذلك بأن يتم تقدير الجزء من أربعين وجمعه كما يلي:

يجري اختيار أربعة أشخاص من أحسن الرجال في كل بلدة وأكثرهم براعة مع رؤساء الكنيسة في كل بلدة، الذين بموجب قسم منهم سوف يجري تقـدير الجزء من أربعين من جميع الممتلكات المتحـركـة المتقـدم ذكرها، وسـوف يجري فرضه ضريبـة على كل واحد، بحضور الفـرسان المقـومين المنتـدبين لهذه الغـاية، وبعـد هذا، بناء علي يمين رجلين تابعين اقطاعيين من البلـدة نفسهـا، سـوف يجري تقـدير الجزء من الأربعين وفرضه ضريبـة على الممتلكات المتحركة العائدة للرجـال الأربعة المتقدم ذكـرهم مع رؤسـاء الكنائس، وينبغي أن يدون بشكـل دقيق وواضح ويدرج اسم البـارونية العائـدة إليها البلدة جـزئياً أو كليـاً، وبعد تسليم الجزء من أربعين، يتوجـب كتابة ذلك بلائحـة فيها جميع الخصـوصيات المتعلقة بكل قرية، وبكل كونتيه، على أن ترسل تلك اللائحة إلى قهرمان كل بارونيـة، أو إلى وكيل كل قهـرمـان، أو إلى نائب الامتيـازية، حيثما

هناك أية امتيــازيـة، أي حيث يمكن أن يكـون بارون الامتيـــازية أو صـاحبها لديه السلطة لجمع الجزء مـن أربعين المتقدم ذكـره واستيفائـه، لكن إذا لم يرغب بذلك، أو كـان غير قادر على فعل ذلك، سـوف يقوم العمـدة بالاستيفــاء المذكـور، وبذلك لن يتسلمـوا شيئاً منه، بل ينبغي تسليم الجزء من أربعين كله إلى الفـرسـان المقومين المتقـدم ذكـرهـم، في أوسع بلدة وأكثـرها أمـاناً في كل كـونتيـة، وسيكون هناك من كل بلدة حساب رئيسي متوفـر بين قهرمان البارون، أو وكيله، أو بين قهـرمانات صـاحب الامتيـازية، وبين المقـومين المتقـدم ذكـرهـم، ولسـوف يودع المقـومون المال في بعـض الأماكن الأمينة في البلـدة نفسها، وأن يضعـوا أختامهم وأقفالهم، ومفاتيحهم على المال المذكور، ومثل هذا سوف يضع عمد المناطق أختامهم، وأقفـالهم، ومفاتيحهم على هذا المال أيضاً، وفور الفـراغ من تقـدير الجزء من أربعين، على المقومين ارسـال قـوائمهم عن جميع الدائرة إلى الخزانة، ووفق الطريقة نفسهـا ما ان يكون المال المذكور قـد جمع، حتى يتـوجب عليهم إرسـال قـوائـم إيصـالاتهم إلى الخزينة، وينبغي حفظ المال المذكـور في المكان الذي أودع فيه، حتى يجرى جلبـه، بناء على أوامـرنا، إلى المعبد الجديد في لندن، ومـامن شيء سوف يؤخـذ من أي انسـان على سبيل الجزء مـن أربعين، إذا لم يكن يمتلك ممتلكات متحـركة تسـاوي بقيمتهـا أربعين بنساً على الأقل، وقـد عيناكم لتقـدير الجزء من أربعين في كونتيـه هارتفورد، وقـد أمرنا عمـدتنا في هارتفورد بأن يجمع كل القـرويين في كونتيتـه، وذلك بناء على أمـرنا، في أن يمثلوا أمامكم في موعـد محدد، ومكان معين، أنت سوف تتولى تعيينه له ليفعل ذلك، وأيضــاً ليسـاعـدك ويطيعـك في جميع المسـائل المتعلقــة بالعمل المذكور. وداعاً».

موت رالف ايرل أوف شيستر

في الشـامن والعشرين من تشرين أول، من العـام نفسـه، مـات رالف

ايرل أوف شيستر ولنكولن في وولنغفورد Wallingford وقد نقل جسده إلى شيستر للدفن، وقد خلفه بالايرلية ابن أخته جون بن داوود، أخو وليم ملك الاسكوتلنديين، واستحوذ ابن أخت له آخر من أخت ثانية على ايرلية لنكولن، وقد كان من قبل باروناً، وصار الآن ايرلاً، وكان ايرل آرونديل ابن أخت آخر له، وقد صار متملكاً لخمسمائة امتيازية.

وفي هذه الآونة، قبل عيد القديس مارتن [١١- تشرين ثاني]، أومي إلى الملك أن هيوبرت مسؤول العدالة المعزول لديه مبلغ كبير من المال في الهيكل الجديد في لندن، مودع بعناية الداوية هناك، وبناء عليه استدعى مقدم الداوية للاجتماع به، وسأله بشكل واضح عما إذا كانت القضية صحيحة، ولم يتجرأ هذا على إخفاء الحقيقة وانكارها أمام الملك، فاعترف له بأن مبلغاً من المال قد أودع لديه ولدى الرهبان، لكنهم لايعرفون مقداره، ولاكميته، وطلب الملك مع التهديد المال من الرهبان، معلناً بأنه قد سرق من قبل هيوبرت من الخزينة، ورد الداوية عليه، أنهم لن يسلموا إلى أي انسان المال الذي عهد به إليهم بثقة، من دون إذن من الشخص الذي أودع المال في الهيكل حفاظاً عليه، وبما أن ذلك المال كان معهوداً به إلى الكنيسة، لم ير الملك أنه عمل عقلاني اللجوء إلى العنف، وبناء عليه أرسل خازن بلاطه مع مسؤولي العدالة في خزينته إلى هيوبرت، الذي كان طوال الوقت مغلولاً في برج لندن، يأمره بتعيين المال المذكور إلى الملك، وعندما أخبر الرسل المتقدم ذكرهم هيوبرت بهذه الرسالة نيابة عن الملك، أجاب على الفور، أنه على استعداد أن يضع نفسه وكل مايملكه تحت إرادة الملك، وبناء عليه أعطى التعليمات إلى فرسان الداوية، أن يسلموا جميع المفاتيح التي هي باسمه إلى الملك، حيث يمكنه أن يفعل مايختاره بالممتلكات المودعة هناك، وجرى تنفيذ هذا، وأمر الملك بتعداد المال بشكل صحيح،

ووضعه في خزينته، وبكتابة لائحة بالممتلكات التي عثر عليها هناك، حتى تؤخذ وتعرض عليه، ووجد محاسبو الملك وخازنه هناك ثمانية آلاف باوند من الفضة، من أفضل النقود، ومائة وأربعين وعاء من الفضة وهي محلاة بالفضة والذهب، مع كمية كبيرة جداً من الجواهر، فاقت قيمتهم —كما قيل— جميع الممتلكات التي وجدت هناك، وعندما انتشر خبر هذه الحادثة وعمّ في الخارج، ذهب مضطهدو هيوبرت الذين لم يتعبوا، وقدموا شكاوى ضده، وقالوا اماوإنه الآن قد أدين بالسرقة والغش، فهو يستحق أن يعاني موتاً مهيناً، وعلى هذا ردّ الملك قائلاً:

«لقد خدم هيوبرت —كما أخبرت— منذ طفولته باخلاص، عمي الملك رتشارد، ثم أبي الملك جون، ومع أنه تصرف بشكل سيء نحوي، هو سوف لن يعاني بوسائطي من موت غير عادل، لأني سوف أعدّ بذلك أحمقاً، وملكاً ليناً، فضلاً عن نعتي بأنني ملك متوحش وطاغية»، وبهذه الكلمات منح إلى هيوبرت جميع الأراضي التي كانت بين يديه من قبل كهدية من أبيه، أو عن طريق الشراء، حتى يتمكن من تزويد نفسه ودعمها مع أتباعه بالحاجات الضرورية من ذلك الوقت فصاعداً، وعلى الفور أصبح بعد هذا الايرل رتشارد، أخو الملك، ووليم ايرل وارني، ورتشارد ايرل مارشال، ووليم ايرل فيرير Ferers كفلاء لهيوبرت، وقد أرسل إلى قلعة ديفزي Devites تحت عهدة الفرسان الأربعة المتقدم ذكرهم، حيث بقي سجيناً تحت الكفالة.

وفي العام نفسه، في اليوم التالي لعيد القديس مارتن سمعت أصوات رعد مخيفة، استمرت متقطعة لمدة خمس عشرة يوماً، الأمر الذي أرعب كثيراً من الناس، ولاسيما سكان لندن، الذين كانوا الآن معتادين تماماً عليهم، لأنهم كانوا كلما وقعوا في انكلترا، كانوا يسمعون في لندن، وقد تبع هذا خلاف محزن في المملكة بين الملك وبين نبلائه، كما سوف تظهر الرواية التالية:

الزيارة التفقدية لرجال الدين من كل طائفة في جميع أرجاء العالم

وفي هذا العام أيضاً عيّـن البابا غريغوري مفتشين لزيارة رجال الدين في جميع أرجاء العـالم المسيحي، بموجب التفـويض التالي: «من الأسقف غريغـوري إلى إخوانه الأساقفة المسـاعدين في كنيسة كـانتربري، تمنيات الصحة، والمباركات الرسـولية، ذهب الشيطان من أمام الحضرة الربانية، واضعاً يده في أعمال الوقاحة، وواثقاً ببراعته، وآماله للتوريط في الشرور الذين انتخبـوا في ميراث الرب، وأعدّ مصـائد أعظم ضـد أولئك الذين أمل أن يجد فيهم الفساد الأعمق، ولهذا وقع تحت مـلاحظتكم أنه غالباً ماوقعت كنائس مناطق كانتربري بشكل مـرعب ونأت في قضايا روحية ودنيـوية، وبسبب العقـول الشريرة وإهمال الـذين استخـدمـوا فيهم، لم نختر المضي مدة أطول والمرور بأغلاطهـم صامتين، خشية اننا إذا سمحنا لهم بالمضي غير مقـومين أن نبدو وكأننا أخـذناهم على عهـدتنا، ولذلك عيّـنا زواراً خـاصين تفقديين، ومصلحين ومقـومين، وكذلك على رأس بعض الأطراف الأخرى، لـزيارة تفقدية لتلك الكنائس القـائمة في تلك المنطقـة، والمعـروف أنها عـائـدة مبـاشرة إلى الكنيسـة الرومـانيـة، وقـد أعطيناهم سلطة كاملة في زيارتهم التفقدية لتلك الكنائس لتقوّم وتصلح المخالفـات، التي هم سيكونوا متأكـدين أنها تحتاج التقـويم والاصلاح، ولكن دون أن تحط من قـدر أو تفسد المؤسسـات، والاصلاحـات التي عملت بشكل صحيح في الكنائس الاقليمية، ونحن —على كل حال— نحتفظ لأنفسنا، إلى أبعد الحدود، بالعناية القصوى بكل ماباشرناه، ومع ذلك إنه واجبكم، أنتم الذين دعيتم للمشـاركـة بما نعتني به، أن تكونوا معتنين ومتيقظين نحـو الرعية التي أسندت الـرعاية الخاصـة بها إليكم، حتى لاتهلك الشاة المريضة، وإنه بناء على ذلك إنها نصيحتنا، لابل أمرنا الدقيق إلى أخـوتكم، فرداً فرداً ولكم جميعـاً، أن تجعلوا شغلكم، في كل من المجال الشخصي، وبوساطة رجـال الدين الموجهين من أجل مقاصد

الزيارات التفقدية، أن تقوموا بزيارة تفقدية لمساكن الرهبان، والراهبات، والكهنة النظاميين والعلمانيين، الخاضعين لكم في كل من المدن والأسقفيات، وأن تقوموا بوساطة سلطاتنا، وكذلك بوساطة سلطاتكم بهذا الاصلاح بشكل عام والتقويم متناولين رؤوسهم والأطراف الأخرى، وذلك حيثما ترون أن مثل هذا الاصلاح والتقويم ضروري، وضعوا جانباً كل إثرة وكل رجاء، وتمسكوا بالأنظمة المتعلقة بالأشخاص الدينيين هناك، وفقاً لقرارات المجامع المسكونية، وأوقفوا أعمال التذمر والأقاويل بوساطة العقوبات الكنسية، وأجلوا جميع مرافعات الاستئنافات، وبتنفيذكم هكذا لتوجيهاتنا، يمكنكم في يوم الحساب العسير والعذاب الشديد، الذي سيجازى فيه كل انسان وفقاً لأعماله، أن لن تطالبوا بدمائهم على أيديكم، وأن لانكون محتاجين لاستخدام عصا العقوبات الرسولية. صدر في سبوليتو Spoleto في هذا اليوم التاسع من حزيران، في السنة السادسة من حبريتنا».

الزيارات التفقدية التي سوف تعمل في الكنائس المستثناة

وبالنسبة إلى الكنائس الأخرى ورجال الدين، الذين كانوا تحت السلطة المباشرة لكنيسة روما، هو لم يعين أساقفة كزوار تفقديين، بل رعاة ديرة، وكان هؤلاء بشكل خاص من طائفة السسترشيان، والبرامونستر تنشيان Praemonstratensians الذين كانوا رجالاً أشداء وغير قابلين للانحراف، ويقومون بواجبات زياراتهم التفقدية بعنف ومن دون رحمة، وهم يتجاوزون حدود واجباتهم في عدة أديرة، حتى أن أعداداً قد أرغموا على اللجوء إلى الشكوى ضدهم، والذين فعلوا ذلك، قد ذهبوا إلى روما، ومع كثير من النفقات والجهد قد حصلوا على زائرين تفقديين آخرين، وباختصار، عملت هذه الزيارات التفقدية ونفذت في جميع أنحاء العالم لافساد وليس لإصلاح عدداً من الطوائف، وبشكل خاص بالنسبة للذين يتبعون نظام القديس بندكت في

مختلف أرجاء العـالم، ونتيجة لهذه الزيارات التفقـدية فإن هذه الطوائف هي الآن على خـلاف، إلى حـد أنه يصعـب أن تجد بين جميع هذه الديرة والبيوت الدينيـة ديران أو بيتان متفقـان في نظاميهما حول الحيـاة، وكان هناك راعي دير في مونتبيلو Montebello قد سـاورته الشكوك حول مـا ينبغي عليه الاستمـرار به في هذه الزيارات التفقـدية، فسأل نصيحـة البابا حول بعض النقاط المشكوك فيها، وعلى ذلك تلقى الجواب التالي:

كيف استشير البابا حول الزيارات التفقدية المتقدم ذكرها

«إن هذه الواجبات التي رسمت بشكل عاقل من أجل كرامة الديانة، وسلامـة الجماعات الدينيـة، ينبغي تقويتهـا بالحماية الرسوليـة، وأن تنفذ بتقوى، وأن تراعى بيقظة، وبناء عليـه فإن أخانا المحبـوب جداً، راعي دير مونتبيلو، قـد عرض علينا بعض النقاط التـي بدت بالنسبة لكرامتنا ولحفظنا نقـاطاً جـديرة بالثناء من أجل تقـويم عـدداً من المخـالفـات والجرائم التي وجدت في بعض الديرة، وقد طلبنا فحص القضية ووفرنا ذلك، وأن يتم تقويمهـا، وأمرناكم بعدم انتهـاك الأنظمة، التي من أجل السـلامـة قــد ختمناها بأختـام إخــواننا المحترمين في أوستيـا Ostia وتوسكولوم Tusculum وإنها ارادتنا، وبوساطة السلطات الرسولية نأمركم، بأن تجمعـوا الزوار التفقديين في جلسة كهنوتية عـامة، ورؤساء الرهبــان حيث لايوجـد رعــاة ديرة بالذات، باستثناء وكــذلك بدون استثناء الذين لايعقدون بالعـادة هيئات كهنوتية، وسـوف يترأسون على هذا الاجتماع الكهنوتي، واضعين جانباً كل معوق قانوني، والذين سوف يرفضـون أو يهملون الحضـور سوف يرغمـون على فعل ذلك بوسـاطة العقوبات الكنسية، ولن يتوقفوا حتى يجعلونهم يقومون بتكفير صحيح، مثلما سيفرضون ذلك عليهم بشكل صحيح، وبوساطة العقوبات نفسها سوف يجعلون قـرارات الهيئة الكهنوتية نفسها تحظى بالتنفيـذ بكل دقة، وهم أنفسهم وكذلك الزوار المتفقدين وبعض الآخرين، سوف يقدمون

في يوم الحساب الأخير تقريراً عن عملهم إلى الرب، الذي لديه كل شيء واضح ومرئي، وأن يجعلوا اهتمامهم أثناء الزيارات التفقدية للديرة منصباً مع كل عناية، وحرصهم على اصلاح وتقويم الانتهاكات للطوائف المتعددة، وعلاوة على ذلك عندما سيقوم الزوار التفقديون —وفقاً لقرارات المجمع العام— بتنفيذ واجباتهم، في الاجتماع الكهنوتي العام لرعاة الديرة، المتعلقة بالزيارات التفقدية، عليهم أن يتفحصوا بكل دقة أوضاع الديرة، وكيفية المحافظة على الأنظمة،وسوف يتولون القيام بأعمال التقويم والاصلاح حسبما يبدو إليهم ضرورياً، في كل من القضايا الروحية والدنيوية، وعلى هذا سوف يجعلون الرهبان المذنبين يتلقون العقوبة على يدي راعي المكان، وأن تفرض عليهم عقوبة كاملة، وفقاً لأحكام القديس بندكت، ولأحكام المؤسسات الرسولية، وليس وفقاً للعادة الشريرة التي تطورت إلى قانون في بعض الكنائس، ويتوجب على الزوار المتفقدين أنفسهم، أن يقوموا بوساطة العقوبات النظامية، ومن دون تقدير لأي أشخاص، عوضاً عنا، بانزال العقوبة بأي راهب يجدونه متلبساً بالتمرد، وأن لايوفروا أحداً بسبب صلاته، أو سلطته، أو أصدقائه، بل عليهم طرد الشاة المريضة من القطيع حتى لاتصيب الشياه الصحيحة، وإذا ما اكتشف بأن رعاة الديرة كانوا مهملين في تقويم أنفسهم، ينبغي وفقاً لسلطات الزوار المتفقدين، أن يعلن عنهم، ويجري اعتقالهم، ومن ثم انزال العقوبة بهم في اجتماع هيئة الكهنوت، وبذلك تكون عقوبتهم مثلاً للآخرين، وإذا ماجرى اكتشاف أي راعي دير —إذا لم يكن مستثنى— من قبل الزوار المتفقدين أنه مهمل ومتقاعس، عليهم توبيخه والشكوى ضده إلى أسقف المكان، الذي عليه أن يعين له وصياً وشخصاً حكيماً ليتعاون معه حتى الاجتماع التالي لهيئة الكهنوت، ولكن إذا ماتبين أنه مذنب بالتخريب، أو يستحق العزل لأي سبب كان، يتوجب إبعاده —بعد اخباره بالقضية من قبل الزائر المتفقد— وعزله من قبل الأسقفية، ومن إدارة ووظيفة الرعية،

ومن الدير من دون ضجـة أو محاكمة، وأن يجري في الوقت نفسـه تعيين مـدير مناسب ليتـولى المسـؤوليـات الدنيـويـة للدير، وذلك حتى يجري تزويد هذا الدير براعـي جديد، ولكن إذا مـاصـدف لسبب مـا ورفض الأسقف أو أهمل القيـام بهذا الواجب، سـوف يقـوم الزوار المتفقـدون أنفسهم، أو الذيـن يترأسـون الهيئة العـامـة للكهنة، بتـزويد الكرسي الرسـولي، من دون تأخير بخطيئـة ذلك الأسقف، وإن أوامـرنا تقضي بوجـوب مراعـاة هذه الأحكام باحترام، بالنسبـة لرعـاة الديرة المعفيين، محتفظين للكرسي الرسـولي بشـؤون عزلهم، وفي أي وقت أعتقـد أن أي راعي دير يستحق العـزل أو التعليـق عن ممارسـة وظيفتـه، ينبغي تعيين مـدير مناسب للدير، إمـا من قبـل الزوار التفقـديين، أو من قبل الذين يترأسـون هيئة الكهنة، وإذا لوحـظ أن آثام هؤلاء الأشخـاص وأشيـاء أخـرى جديرة بالايصـال إلى هيئة الكهنة، على رئيس الهيئة الاتصـال بنا بوسـاطة رسل مـوثوقين وحكماء، سوف يجرى تحمل نفقـاتهم بوسـاطة مسـاهمة عـامـة لرعـاة الديرة، كل واحـد منهـم حسب امكاناته، وعلى الزوار التفقـديين الذيـن يقـدمـون فيها بعـد أن يبحثـوا بكل دقـة وأن يتفحصوا اجـراءات الزوار التفقديين المتقـدمين، وأن يوصلوا أخبار أية ذنوب أو اهمالات صدرت عنهم إلى اجتماع هيئة الكهنة التالي، من أجل أن ينالوا عقـوبتهـم وفقـاً لذنوبهم، وهذه الأشيـاء المتعلقـة بالزوار التفقديين فيها كفاية.

وفي هذا العـام اتهم روجـر أسقف لندن، بين الآخـرين، بالتحـريض على نهب محاصيل الكنيسة الرومانية، ولذلك ذهب إلى روما للبرهنة على براءته.

كيف صرف الملك بعضاً من وزرائه من بلاطه

عام ١٢٣٣م، فيـه، وهو العام السابـع عشر لحكم الملك هنري، عقد هذا الملك بلاطه أيام عيـد الميلاد في ووركستر، حيث قـام —كما قيل—

بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر بصرف جميع الموظفين المحليين في بلاطه من وظائفهم، وعيّـــن في أماكنهـم أجـانب من بواتو، كما أنه صرف وليم دي رودون Rodune وكان فارساً قام بواجبات رتشارد المارشال الأكبر في بلاطه، وبناء على نصيحة الشخص نفسه صرف أيضاً وولتر أسقف كـارآيل من وظيفته كخـازن، ثم أخـذ منه مائـة باوند من الفضـة، وانتـزع أيضـاً منه بالقـوة بعض الودائع والوظائف التي منحـه الملك إياها بصك منه مدى الحياة.

وصرف بشكل مفـاجىء جميع مستشـاريـه السـالفين، وأسـاقفتـه، وايرلاته، وباروناتـه، والنبـلاء الآخـرين، ولم يضع ثقتـه بـأحـد سـوى أسقف وينكستر المتقـدم ذكـره، وابنه بطرس دي ريفـــول Rivaulx وبعد هذا طرد جميع قادة القـلاع في جميع أرجاء انكلترا، ووضع مكانهم قـادة قـلاع تحت اشراف بطرس المذكـور، ولكي يحصل الأسقف على الحظوة الكاملة لدى الملك، ضم إلى نفسـه ستيفن سيغريف Segrave وهو رجل مطواع، وروبرت باسلوي Passelewe الذي تولى حفظ خـزينة الملك تحت اشراف بطرس دي ريفـول، وقد حكم المملكة كلهـا بمسـاعـدة هذين الرجلين ونصيحتهما، ثم دعـا الملك رجـالاً من بواتو وبريتـاني، كانوا فقـراء وشرهين يسعون وراء الثـروة، وقدم إليـه حوالي ألفي فـارس وجندي مزودين بالأسلحـة والخيول، أدخلهم في خـدمته، وجعلهم مسـؤولين عن القـلاع في مختلف أجـزاء المملكة، وبذل هؤلاء غـاية جهدهم لظلـم الرعايا الانكليـز الطبيعيين والنبـلاء، فقد دعـوهم باسم خـونة، واتهمـوهم بالخيانة تجاه الملـك، وصدق الملك، الذي كـان رجـلاً ساذجـاً أكـاذيبهم، وأسند إليهم المسؤوليـة عن جميع الكونتيـات والبـارونيـات، وعن جميع الشبـاب من النبـلاء من كل من النسـاء والرجال، الذين استدرجوا إلى زيجات قذرة ومدنسة، وعهد الملك إليهم أيضاً بأمـر العناية بخـزينتـه، مع إعـادة فـرض قـوانين البـلاد، وإدارة

العدالة، وباختصار لقد عهد بالقضاء إلى غير العادلين، وبالقوانين إلى الخارجين على القوانين، وبالحفاظ على السلام إلى مثيري الخصام، وبالعدالة إلى أولئك الذين هم أنفسهم امتلأوا بالأذى، وعندما قدم النبلاء شكاوى إلى الملك حول الظلم الذي تحملوه، تدخل الأسقف المذكور، ولم يكن هناك من يمنحهم العدل، وعمل بطرس المذكور اتهامات ضد بعض أساقفة المملكة الآخرين، ونصح الملك بتجنبهم على أنهم أعداء مكشوفين.

كيف احتج المارشال لدى الملك

عندما رأى الايرل رتشارد مارشال المملكة أعمال الأذى هذه وأمثالها التي ظلم بها الرفيع والوضيع سواء، وأن قوانين المملكة قد دمرت، أثير بسبب غيرته على قضية العدل، وذهب بجرأة بصحبة بعض النبلاء الآخرين إلى الملك، وقام على مسمع من عدد من الناس، بتوجيه الملامة له، وأنه نصح بشكل مضر بإدخال هؤلاء الأجانب من بواتو لظلم المملكة ورعاياه الطبيعيين ولإزالة الشرائع والامتيازات، ثم إنه بناء على ذلك توجه بتواضع بالرجاء إلى الملك أن يوقف على الفور هذه التجاوزات، التي نتيجة لها سوف يواجه التاج وتواجه المملكة خطراً عظيماً يقود إلى الدمار، وعلاوة على ذلك، أعلن أنه إذا مارفض تصحيح هذه القضية، سينسحب هو ونبلاء المملكة الآخرين من مجالسه مادام مقيماً للاتصالات بهؤلاء الأجانب، وعلى هذا ردّ رتشارد أسقف وينكستر بأن مولاه الملك، من المؤكد كان مسموحاً له أن يستدعي الأعداد التي يريدها من الأجانب من أجل حماية مملكته والتاج، وبقدر مايكون عدد هؤلاء كبيراً سوف يكون قادراً على اخضاع رعاياه المتشامخين والعصاة وانزالهم إلى طاعتهم الطبيعية، وعندما لم يستطع الايرل مارشال مع النبلاء الآخرين وكانوا غير قادرين على الحصول على جواب آخر، تركوا البلاط وهم في غاية الانزعاج، وقرروا بشكل

ثابت أحـدهم مع الآخـر القتـال في سبيل هذه القضيـة، التي تتعلق بهم جميعاً حتى تغادر أرواحهم أجسادهم.

العواصف الرعدية

وفي العام نفسه، في الثالث والعشرين من آذار، سمعت أصوات رعد رهيبـة، تبعتها أمطار متـواصلة طوال الصيف، دمـرت المطارد، وأزالت البرك والطواحين في جميع أنحـاء انكلترا تقـريباً، وفي الأراضي المفلوحـة وحقول الحصاد، وفي الأماكن الأخرى غير الاعتيادية في مختلف المناطق جـرت هنا وهناك على شكل جـداول، وشكلت بحيرات في وسط الغلة المحصـودة، التي فيهـا —لدهشـة كثيرين— شـوهدت أسماك الأنهار، والطواحين التي كـانت واقفة في أمـاكن متنوعة لم تعـد مرئية كما كـانت من قبل.

وفي العام نفســه، في الثامن من نيسان، وفي حوالي السـاعة الأولى من النهار، ظهـر في أحواز هيرفـورد، وووركستر أربع شموس زائفـة حول الشمس الحقيقيـة بألوان مختلفة، وكـان بعضهـا نصف دائري، وبعضهـا الآخر دائري، وشكلت هذه الشموس مشهداً رائعاً، وشوهدت من قبل أكثـر من ألف شخص مـوثوقين، وقـام بعضهم في ذكـرى لهذه الظاهرة غير الطبيعيــة، ولكي لاتهرب هـذه الظاهرة غير الاعتيــاديـة من ذهن الانســان وذاكـرته، فـرسموا شمـوسـاً، ودوائـر من مختلف الألوان على الكاغد، وتبع هذا في العـام نفسه حربـاً مرعبة، وسفكاً مخيفـاً للدماء في هذه البـلاد، وكـان هناك اضطهاد عـام في جميع أرجـاء انكلترا، وويلز، وايرلاندا، وفي حـوالي الوقت نفسه، في شهـر حـزيران، شوهد ثعبـانين ضخمين جـدا من قبـل السكان، على مقـربة ســاحل البحـر، في الجزء الجنوبي من انكلترا، وكـانا يتقاتلان في الهواء، وبعـد صراع عنيف تغلب أحـــدهما على الآخـــر، وجعله يهرب، وطـارده إلى قلب البحــر، حيث ضاعا، ولم يشاهدا بعد ذلك.

إلغاء انتخاب رئيس أساقفة كانتربري

وفي تلك الآونة، كان قد جرى انتخاب المعلم جون، الملقب لي بلند رئيساً لأساقفة كانتربري، وقد أذيع في روما، أنه تسلم بعد انتخابه ألف مارك من الفضة بمثابة هدية من بطرس أسقف أوف وينكستر، إلى جانب ألف أخرى أقرضه الأسقف إياها لمساعدته على الحصول على ترقيته، هكذا تبرهن بشكل جلي أن صداقات الأسقف المذكور كانت مؤذية أكثر منها نافعة له، وبالاضافة الى هذا، لقد روي بأن جون المذكور قد اعترف في روما، أنه مستحوذ على مرتبتين كنسيتين إليهما معهود العناية بالأرواح، وذلك على الرغم من قرارات المجمع العام، وبناء عليه استحق تهمة الوقاحة، لكن بما أن انتخاب ثلاثة أساقفة لكنيسة كانتربري، جرى إلغاؤه مؤخراً، فقد بقيت الكنيسة المذكورة مدة طويلة من دون رئيس لها، ولذلك أعطى البابا إذناً إلى الرهبان الذين قدموا مع رئيس الأساقفة المنتخب المرفوض باختيار المعلم ادموند، الذي كان كاهناً في كنيسة سالسبري ليكون أسقفاً مسؤولاً عن أرواحهم، من أجل عدم بقاء كرسي مطراني له مثل هذه الأهمية، مدة أطول من دون رئيس أساقفة، وأرسل له في الوقت نفسه الطيلسان، وقرر الرهبان —على كل حال— عدم قبوله أو قبول أي واحد آخر، إلاّ بموافقة عامة من جماعتهم كلها.

الخلاف الذي نشب بين الملك وبين نبلاء المملكة

وحقن طوال هذا الوقت بطرس أسقف وينكستر ورفاقه قلب الملك بالكراهية والبغضاء لرعاياه الانكليز، إلى حد أنه سعى بكل ما أوتي من قوة ومن وسائل إلى محقهم، واستدعى فرقاً من شعب بواتو حتى يملأوا انكلترا كلها، وكان حيثما ذهب الملك، كنت تراه محاطاً بحشود من هؤلاء الأجانب، ومامن شيء صنع في انكلترا، إلاّ ماكان أسقف وينكستر وحشده من الأجانب قد قرروه، ثم أرسل الملك رسائل،

واستدعى جميع الايرلات والبارونات التابعين للمملكة للقدوم إلى مؤتمر في اكسفورد، يوم عيد القديس يوحنا، لكنهم رفضوا القدوم إلى الاجتماع، لأنهم خافوا من خيانة من هؤلاء الأجانب، وكذلك بسبب الغضب الذي شعروا به نحو الملك لأنه حشد هؤلاء الأجانب مراغمة للبارونات المذكورين، ولدى حمل رفضهم إلى الملك من قبل مراسلين خاصين، غدا غاضباً جداً، وأمر بإصدار قرار يمكنه فيه إرغامهم على حضور اجتماع بلاطه، ثم إنه تقرر وجوب دعوتهم ثلاث مرات، من أجل معرفة هل سيأتون أم لا، وفي هذا المؤتمر قام واحد من الرهبان من طائفة المبشرين، كان يقوم بالتبشير بكلمة الرب بحضور الملك، و بعض الأساقفة، قام بوضوح باخبار الملك بصوت مرتفع، بأنه لن يتمتع قط بسلام دائم، مالم يقم بصرف بطرس أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول ابنه من ادارته ومن مجالسه، وأخبر كثيرون كانوا حضوراً الملك بالشيء نفسه، وبناء عليه أرسل رسالة إلى النبلاء الذين تقدم ذكرهم للقدوم إلى مؤتمر يعقد في ويستمنستر في ١١- تموز، فوقتها سوف يتشاور معهم حول أي تقويم ينبغي عمله بموجب الحق، وكان النبلاء على كل حال قد سمعوا بأن أعداداً من هؤلاء اللصوص مزودين بالخيول والسلاح، تابعوا وصولهم من وقت إلى آخر بناء على دعوة الملك، ولدى عدم رؤيتهم أنه ليست هناك علامات تدل على الهدوء، رفضوا الحضور في اليوم المحدد، وطلبوا من الملك بوساطة رسل خاصين، أن يقوم على الفور بصرف بطرس أسقف وينكستر ومستشاريه النبلاء البواتيين، وإلاّ سوف يقومون بموافقة عامة بالاتحاد لطرده ولطرد المستشارين الأشرار من المملكة أيضاً، ومن ثم القيام بانتخاب ملك جديد.

كيف طرد الملك بعض نبلائه

أصيب الملك، وكذلك بلاطه كله بالانزعاج والغضب، وباتوا

خائفين جداً، من أن تكون غلطة الابن أكثر سوءاً من غلطة الأب، ذلك أن النبلاء قد قرروا خلعه من العرش وطرده من المملكة، وبناء عليه نصح الأسقف بطرس المتقدم ذكره بالقيام بالحرب ضد نبلائه المتمردين، وأن ينتزع قلاعهم منهم، ومن ثم أن يعطيها إلى النبلاء البواتيين، الذين سوف يدافعون عن المملكة ضد هؤلاء الخونة، وكان أول من ناله غضب الملك غيلبرت باسيت Bassett وكان نبيلاً وقد حرمه من احدى العزب، التي كان قد تسلمها كأعطية من الملك جون، وعندما طلب من الملك أن يعيد إليه امتيازاته، سماه الملك خائناً، وهدده أنه إذا لم يغادر بلاطه سوف يتعرض للشنق، كما أمر برتشارد سيوارد Siward وكان فارساً جريئاً، فأودع السجن، ثم أحضر إلى أمامه لأنه —كما قيل— قد تزوج من أخت غيلبرت المذكور، من دون إذنه، وبما أنه صار شاكاً بجميع النبلاء الآخرين وبالرجال ذوي المراتب في المملكة، طلب منهم تقديم رهائن، وأرسل رسائل إليهم بموجب مذكرات أن يسلموا إليه رهائن، قبل الأول من آب، أي كذا وكذا من الرهائن، وبذلك يمكنه أن يزيل من ذهنه كل ريبته نحوهم.

كيف أنذر المارشال بوجود مؤامرة ضدّه

وزحف الايرلات والبارونات في رتل عظيم من الفرسان إلى لندن في الأول من آب، لحضور المؤتمر المحدد، وكان من بينهم رتشارد الايرل مارشال، الذي سكن عند أخته، زوجة رتشارد أخو الملك، وقد سألته عن سبب قدومه، فأجابها بأنه قد جاء لحضور المؤتمر، وعندها قالت له:

«اعلم ياأخي العزيز، بأن أعداءك يتآمرون لاعتقالك، ولإعطائك إلى الملك وإلى أسقف وينكستر من أجل أن يخدموك وفق الطريقة نفسها التي خدموا بها ايرل كنت»، وكان من الصعب على المارشال أن يصدق هذه الكلمات التي صدرت عن أخته، حتى أرته برهاناً يشهد على طريقة اعتقاله، وبمن سوف يعتقل، ووقتها بدأ يصدقها، وعندما حل المساء

أخـذ الطريق، ولم يرخ عنانه حتى وصل إلى ويلز. هذا وقـدم إلى مـؤتمر لندن كل من ايرلي شيستر، ولنكولن، وايرل فيرار، وايرل رتشـارد، أخو الملك، مع ايرلات آخـرين وعدة بارونات، لكن مـامن شيء عُمل هناك بسبب غياب الايرل مارشال وغيلبرت باسيت، وبعض النبلاء الآخرين الذين لم يقـومـوا بالحضور، وبناء على ذلك قـام الملك بناء على نصيحـة بطرس أسقف وينكستر، وستيفن سيغريف Seagrave بإرسال رسـائل إلى جميع نبـلاء المملكة، الذيـن يدينون له بخـدمـة الفـروسيـة، فـدعـاهم إلى القدوم، مـزودين بالخيـول والسـلاح، إلى غلوستر في يوم الأحـد قبل صعـود مريم العـذراء المبـاركـة، ورفض رتشارد مـارشـال وبعض الآخـرين الذين كانوا متحـالفين الحضور في الوقت المحـدد، فما كـان من الملك إلاّ أن عـاملهم بمثـابـة خـونة، فأحـرق قـراهم، ودمـر حدائقهم ومطاردهم، وحاصر قلاعهم، وقـد قيل كان النبلاء المتحالفين مع بعضهم بعضاً هم:

الايرل مارشال، وغيلبرت باسيت مع أخيه، الذي كان جندياً متميزاً، ورتشـارد سيـوارد، وكـان رجـلاً قـد تدرب على السـلاح منذ صغـره، وولتر دي كيلفورد Clifford وكان فارساً منتخباً مع عدد كبير آخر ممن التحقوا بقضيتهم، وأمر الملك بعدّ هؤلاء جميعاً، من دون أية محاكمة في بلاطه من قبل نظـرائهم، مطرودين، ورجـالاً محرومين من الحقـوق، وأعطى أراضيهم إلى خـدمه البـواتيين، آمـراً باعتقالهم شخصيـاً أينما تمّ العثور عليهم في المملكة.

كيف رشا أسقف وينكستر المتحالفين مع الإيرل مارشال

استطاع بطرس أسقـف وينكستر، الذي بذل كل مـــا توفـــر له من إمكانات ومالمتلكه من قدرة لاضعاف تيـار الايرل مارشال والمتحالفين معـه، أن يرشـــو ايرلي شيستر ولنكولن بأعطيـة مقـــدارها ألف مـارك، للتخلي عن المارشـال، وعن تيار العـدل، والالتحاق بحـزب الملك، لأن

رتشارد، أخو الملك، الذي وقف في البداية إلى جانب تيار المارشال، كان قد عاد قبل بعض الوقت إلى جانب الملك، وعندما اكتشف المارشال هذا، دخل بتحالف مع للويلين، أمير شمالي ويلز، ومع عدد آخر من مقدمي المقاطعة، وتبادلوا الأيمان، أن مامن أحد منهم سوف يعمل سلاماً مع الملك هنري، من دون موافقة الآخرين، وفي اليوم التالي ليوم صعود القديسة العذراء، وصل عدد كبير من الجنود من القارة إلى دوفر، وذهبوا إلى الملك في غلوستر، وبناء عليه قاد جيشه باتجاه مدينة هيرفورد، يحيط به حشد من هؤلاء ومن الآخرين.

الأذى الذي أنزل بوولتر أسقف أوف كارآيل

وفي هذه الآونة، عندما كان وولتر أسقف كارآيل جالساً، بعد بعض الأذى الذي لحق به من قبل الملك، صعد إلى ظهر سفينة في دوفر، ليعبر إلى القارة، لكن بعض عملاء الملك وصلوا، واعتقلوه مع جميع أصحابه، وأخرجوه معهم من السفينة، ومنعوه باسم الملك من مغادرة المملكة، من دون إذن ملكي، وأثناء وقوع هذه الحادثة نزل إلى اليابسة في ذلك المكان روجر أسقف لندن، لدى عودته من بلاط روما، وقد سمع بهذه الاهانة التي وجهت إلى الأسقف المذكور، فحرم كنسياً جميع الذين استخدموا العنف ضده، ثم انه ذهب إلى الملك، الذي وجده مع جيش كبير في مدينة هيرفورد في ويلز، وقام بحضور الملك ووجود بعض الأساقفة، فجدد قرار الحرمان الكنسي الذي تقدم ذكره أعلاه، بسبب العنف الذي تعرض له أسقف كارآيل، وذلك دون أن يعبأ بغضب الملك، الذي منعه من التفوه بالقرار، واتحد معه جميع الأساقفة الذين كانوا حاضرين، بحرمان جميع الذين شاركوا بذلك الاضطراب.

التحدي الذي أرسل إلى المارشال وحصار قلعة عائدة له

وأرسل الملك بعد هذا —بناء على نصيحة أسقف وينكستر—

أسقف القـديـس داوود إلى المارشـال لتحـديه، وأصـــدر الأوامـر بشن الحرب ضـده، وبحصـــار قـلاعـه، وبناء عليــه، دخل الملك إلى أراضي الايرل مارشال، وألقى الحصار على احدى قلاعه، التي لاأتذكر اسمها، وبعد مهاجمتها بحـدة لعدة أيام، بدأت الامدادات لدى الجيش المحاصر بالنقص، ورأى الملك أنه سيكون مرغماً على رفع الحصـار، ولذلك شعر بالعـار الدائم لقـدومـه إلى هنا، وبناء عليـه أرسل بعض الأسـاقفـة إلى الايرل مـارشـــال، وسأله أن يقـوم —صـدوراً عن احترامــه لشخصـه الملكي، ولكي لايبـدو الحصـار أنه غير فعـال— بتسليمـه القلعـة، على شرط أن يعيدها الملك إليه، خلال خمسـة عشر يوماً غير معرضة للأذى، واشترط على نفســه، أنه ســوف يقـوم بالوقت نفســه، بناء على نصيحـة الأســاقفــة الذين ســوف يكـونوا الضــامنين لهذا، بالقيـــام بجميع الاصـلاحـات الموائمـة في المملكة، وفي سبيل تنفيـذ هذه الخطة، عيّــن الملك يوم الأحد الذي سوف يحل بعـد عيد القديس ميكائيل، من أجل المارشال وبقية النبـلاء المجردين من الحقوق للاجتماع به في ويستمنستر، وعند ذلك أعطيت القلعة إلى الملك، ورفع الحصار.

نجاة هيوبرت دي بورغ

وفي هذه الآونة، كـانت رغبة بطرس أسقف وينكستر الأولى، وفـوق كل شيء، موت هيـوبرت دي بورغ، الذي كان سجيناً في قلعـة ديفزي، فالتمس من الملـك بحرارة، ورجاه كثيراً، أن يعهـد إليه بالمسـؤولية عن تلك القلعـة، وذلك دون أن يذكـر اسم هيـوبرت دي بورغ، وقـد أمل بذلك أن يمتلك الفرصة لقتله، وقـد أنذر هيوبرت بهذه الخطط من قبل أصدقـائه الموجـودين في بلاط الملك، وأباحوا بذلـك إلى اثنين من خدم حامية القلعة، وكـانوا يتوليان خدمته، واشفاقاً منهما على مـا كان يعانيه، اخترعا خطة يمكنه فيهـا أن ينجو من الموت، وكذلك رصـدا فرصتهما، وفي عشية عيد القديس ميكئيل، عندما كانت الحامية نائمة، أخذ واحد

منهما هيوبرت، واستمر الآخر بالمراقبة، وقد حمله كما هو مغلولاً على كتفيه، ونزل من البرج وهو حامل للصه التقي، وقد عبر به خلال القلعة كلها، دون أن تسمع الحامية به، وظل حاملاً له حتى وصل إلى الباب الكبير، حيث مرّ من خلاله، وعبر الخندق العميق، إنما بصعوبة كبيرة، وأخذ طريقه إلى الكنيسة الأسقفية، ولم ينزل حمله من على كتفيه حتى وصل إلى أمام المذبح الكبير، ورفض الرجلان اللذان أطلقا سراح هيوبرت أن يتركاه، عادين أنه سيكون مجداً عظيماً لهما إذا ما عانيا من الموت الدنيوي من أجل الحفاظ على حياة مثل هذا الرجل العظيم.

كيف سحب هيوبرت بعنف وأخرج من الكنيسة وسجن

وعندما استيقظت الحامية، ولم تجد هيوبرت في مكانه المعتاد، خافت خوفاً عظيماً، ونزلت بقوات حاملة للمشاعل وللأسلحة، ولم تترك مكاناً في المنطقة بحثاً عنه، وبعد بعض الوقت سمع رجال الحامية بأن هيوبرت كان في الكنيسة، وقد تحرر من أغلاله، وبناء عليه اندفعوا هائجين إلى هناك، فوجدوه أمام المذبح الكبير، والصليب المقدس بين يديه، وقاموا على الفور باعتقاله بالقوة، وضربوه وساقوه أمامهم بالسلاح وبقبضات الأيدي، وأعادوه إلى القلعة ومعه محرريه، حيث سجنوه بشدة أكبر من ذي قبل.

وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة الى مسامع روبرت أسقف سالسبري، ذهب إلى الكنيسة وأمر أولئك الذين خرقوا حرمة الكنيسة، باطلاق سراح هيوبرت على الفور، وبإعادته إلى حرم الكنيسة في الوضعية نفسها التي وجدوه فيها، لكن قادة القلعة أخبروه وهم يصرخون بأن هيوبرت ينبغي شنقه وليس اطلاق سراحه، وبناء عليه رفضوا تسليمه إلى الأسقف، وقام الأسقف بموجب السلطات الممنوحة له، بانزال عقوبة الحرمان كنسياً بجميع الذين احتجزوه بالاسم، والذين استخدموا العنف معه، ثم ذهب الأسقف وبصحبته روجر أسقف

لندن، إلى الملك، وقدما شكوى إليه، حول الأذى الذي لحق بهيوبرت، ولم يتركا الملك حتى حصلا منه على اطلاق سراحه، وهكذا جرى في الثامن عشر من تشرين الأول ارساله عائداً إلى الكنيسة، على كراهية من الملك لذلك، وقام الملك فأرسل أوامر برسالة إلى عمدة تلك الكونتية، بأن يحاصر الكنيسة من أجل إجاعة هيوبرت حتى الموت.

كيف استرد المارشال القلعة التي كان قد سلمها إلى الملك

انقضت في هذه الآونة مدة الخمسة عشر يوماً، منذ تسليم المارشال قلعته إلى الملك على شرط أن يعيدها إليه ثانية، عندما يسأله ذلك، ونظراً لمضي المدة، أرسل إلى الملك يسأله أن يعيد إليه قلعته، وفقا لمعاهدتهما، التي من أجلها عمل أسقف وينكستر، وستيفن سيغريف، الذي مارس أثناء ذلك أعمال المسؤول عن العدالة، كفيلين له، وكانا قد أكدا كفالتهما بقسم، ورد الملك على طلبه غاضباً، وقال بأنه لن يسلمه إياها، بل هو بالحري سوف يستولي على قلاعه الأخرى ويخضعها، وعندما رأى المارشال أنه لا اليمين ولاشروط السلام قد روعيت من قبل مستشاري الملك، جمع جيشاً كبيراً، وألقى الحصار على القلعة التي كانت من قبل قلعته، ووزع آلات حربه من حولها، وبسهولة أعاد الاستيلاء عليها.

وكان الملك في تلك الآونة في ويستمنستر، حيث كان حاضراً في مؤتمر التاسع من تشرين الأول، حسبما كان قد وعد النبلاء من أجل التشاور معهم في سبيل عمل الاصلاحات الضرورية في المملكة، لكن النصائح الشريرة التي اتبعها حالت دون تنفيذ ذلك، وقام عدد من الأساقفة الذين كانوا حاضرين بالتوسل إلى الملك بكل تواضع، وباسم الرب بأن يقيم سلاماً مع باروناته ومع النبلاء الآخرين الذين حكم عليهم بالنفي من دون أية محاكمة من قبل نظرائهم، وأحرق قراهم وأبنيتهم، وقطع أشجار غاباتهم وأشجارهم المثمرة، ودمر حدائقهم وبحيراتهم، وقال الملك —على كل حال— بأنهم كانوا خونة، مع أنه

بمساعدتهم كان من المتوجب إعداد خططه، وإدارة أعمال المملكة، وردّ أيضاً بطرس أسقف وينكستر بأن النظراء في انكلترا ليسوا مثل أولئك في فرنسا، ولذلك فإن ملك انكلترا يمتلك الحق، بوساطة رجال العدالة الذين عيّنهم، أن يقوم بنفي أية أشخاص مجرمين من المملكة، وأن يدينهم بعد المحاكمة، ولدى سماع الأساقفة هذه الكلمات، هددوا بصوت واحد، بأن يحرموا كنسياً بالاسم، الشخص الرئيس بين هؤلاء المستشارين الأشرار، وبين هؤلاء، سموا بشكل خاص:

بطرس أسقف وينكستر، وابنه بطرس دي ريفول، وستيفن سيغريف، المسؤول عن العدالة، وروبرت باسلوي المتسلم للخزينة، وعلى هؤلاء ردّ مهدداً، بطرس أسقف وينكستر، بأنه كرّس أسقفاً من قبل الحبر الأعظم في روما، ولذلك هو معفي من سلطتهم، وقد ترافع إلى الكرسي الرسولي ضد تفوههم بهذا القرار ضده، ثم قام الأساقفة المتقدم ذكرهم بالحرمان كنسياً جميع الذين أبعدوا عواطف الملك عن رعاياه الانكليز الطبيعيين، ومن ثم أفسدوا سلام المملكة.

كيف استدعى الملك جميع الذين يدينون بخدمة الفروسية له للمثول أمامه

أثناء هذا المؤتمر وصل رسل إلى الملك، أخبروه بأن الايرل مارشال، قد استرد قلعته في ويلز، وقد قتل بعض الفرسان الملكيين والموظفين هناك، وغضب الملك غضباً عظيماً لدى سماعه هذه الأخبار، وأمر الأساقفة بحرمان المارشال كنسياً بالاسم، لأنه استولى على القلعة المذكورة، لكن الأساقفة أجابوه بأنه لايستحق الحرمان الكنسي، لاسترداده فقط القلعة التي هي ملكه، وعند ذلك أرسل الملك الغاضب رسائل إلى جميع مناطق انكلترا، أمر فيها جميع الذين يدينون له بخدمة الفروسية، بالاجتماع في غلوستر في اليوم التالي لعيد جميع القديسين، وهم مجهزين بالخيول والسلاح، للزحف إلى حيث يرغب بقيادتهم.

وفي هذه الآونة نفسهـا، جرى حمل هيـوبرت دي بورغ المسـؤول السـالف عن العدالة بعيـداً عن كنيسـة ديفزي، من قبل بعض الرجـال المسلحين، وبعدما ألبسوه بشكل صحيح بلباس فارس، حملوه إلى ويلز، حيث التحق بأعـداء الملك في حـوالي السـاعـة الأولى من يوم ثلاثين تشرين أول.

كيف حارب النبلاء المطرودون جيش الملك عند غروسمونت

وكان الملك قد جمع في هذه الآونة جيشاً قوياً في غلوستر، زحف معه نحو هيرفـورد في ويلز، حيث غـزا أراضي المارشال، وسعى، مستخـدماً جميع الطاقـات التي توفـرت لديه، لأن يحرمـه من ميراثه، ولأن يأسره شخصيـاً، لكن ذلك العسكري الحذر، قـام —على كل حـال— قبل وصـول الملـك بسحب جميع المواشي والامـدادات، ولـذلك لم يستطع الملك الاقـامـة هناك، لانعـدام المؤن لديـه، فـانتقل مع جيشـه إلى قلعـة غـروسمـونت Grosmont وبعـدمـا أقـام هناك عـدة أيام، علم المارشـال مع المطرودين المتحـدين، بـوسـاطة الجواسيس، بأن الملك قـد أمضى الليل داخل تلك القلعـة، في حين عسكر جيشه خـارج الأسوار، لذلك زحفت كتلتهم كلهـا، بـاستثناء المارشـال، الذي رفض أن يقـاتل الملك، إلى هناك مع الزعماء الـويلزيين وجيش كبير، وجـاء زحفهم بعـد حلول الظلام في يوم عيـد القديس مـارتن، وانقضوا على عساكـر الملك الذين كانوا نائمين متمددين في خيامهم، فاستولوا على أكثر من خمسمائة حصـان، مع جميع أثقـالهم وتجهيـزاتهم، وهـرب الرجـال أنفسهم، وهم عـراة تقـريبـاً في جميع الاتجاهات، ولم يـرغب المنتصرون —على كل حال— بجرح أو بأسر أياً منهم، وقد عثر على فارسين قد قتلا من بين العـدد كله، ثـم انهم أخـذوا جميع العـربـات والعجـلات الحاوية للمال، والامـدادات والسـلاح، وبعـدمـا أودعـوا بعنايـة غنائمهم، انتقلوا إلى أماكنهم السليمـة للاختباء، وكان جميـع النبلاء التاليـة أسماؤهم شهوداً

على هذه الواقعة:

بطرس أسقف وينكستر، ورالف أسقف شيستر، وستيفن سيغريف المسؤول عن العدالة، وبطرس دي ريفول المسؤول عن الخزينة، وهيوج بيغود ايرل أوف نورفولك، ووليم ايرل أوف سالسبري، ووليم بوشامب Beauchamp ووليم دوبني Daubeney الأصغر، وعدد كبير آخر، شكلوا الذين هربوا وهم تقريباً عراة، وقد فقدوا جميع مقتنياتهم، وغادر إثر هذا عدد كبير من جنود الجيش، ولاسيما الذين فقدوا خيولهم وجميع أموالهم، وعادوا إلى مواطنهم وهم على درجة عالية من الاضطراب، أما الملك، الذي بقي هكذا وحيداً، في وسط أعدائه، عهد إلى قطاع الطرق من رجاله البواتيين بالمسؤولية عن قلاع ويلز، لصد هجمات أعدائه، وأعطى قيادة جيشه إلى النبيلين: جون أوف مونماوث Monmouth ورالف دي ثوني، وأعطى الأخير أيضاً قلعة ماتيلدا، العائدة إليه بموجب امتياز قديم، وبعدما أكمل الملك هذه الترتيبات، عاد هو شخصياً إلى غلوستر.

وسمعت في بداية شهر تشرين الثاني، من هذا العام نفسه، أصوات رعد، وقد ترافقت مع برق مخيف، واستمر ذلك لعدة أيام، وصار مثلاً عاماً بين العمال، بأن المرأة ينبغي أن لاتبكي لموت أبيها، أو أولادها، بل بسبب العواصف الرعدية، لأنهم يمنعون دوماً وصول المجاعة أو الموت، أو بعض مثل هذه الأشياء.

المعركة الحادة بين المارشال والبواتيين

وفي العام نفسه، وصل المارشال في احدى غاراته لجمع الأعلاف في مناطق أعدائه، إلى بلدة مونماوث، التي كانت معادية بالنسبة له، وفي الوقت الذي أمر فيه جيشه بمتابعة زحفه في حملته، تحول مع مائة من أتباعه الفرسان، وتوجه نحو قلعة ذلك المكان لفحص أوضاعها، ذلك

أنه كان يفكر بحصارها بعد عدة أيام، وعندما كان يتجول حول أسوار البلدة، شوهد من قبل بلدوين دي غوسني Guisnes الذي إليه كان الملك قد عهد بتلك القلعة مع عدد من البواتيين، وفهم بأن المارشال كان هناك مع عدد قليل من أتباعه فقط، من أجل القيام بفحص القلعة، فحمل مع ألف من الجنود الشجعان، والمجهزين بشكل جيد، وطارده بسرعة كاملة، ناوياً أن يأسره مع أتباعه، وأن يحملهم إلى داخل البلدة، وعندما شاهد رفاق المارشال الزحف الشديد للأعداء، نصحوه باللجوء إلى الفرار من أجل السلامة، وقالوا له إنها ستكون عملية تهور لعدد صغير مثلهم الاشتباك مع مثل ذلك العدد من الأعداء، وعلى هذا ردّ المارشال، أنه حتى الآن لم يدر ظهره إلى الأعداء في المعركة، ولن يفعل ذلك الآن، وشجعهم على الدفاع عن أنفسهم بشجاعة، وأن لايموتوا دون الانتقام لأنفسهم، وعند ذلك انقض أفراد العساكر الذين قدموا من القلعة، وحملوا عليهم بكل شدة، وأعقب ذلك قتال عنيف مع أن الفئتين لم تكونا متعادلتين، وكان هناك مئة فقط من جهة المارشال، كان عليها التصدي لألف من خصومهم، ولقد قاتلوا خلال الجزء الأكبر من النهار، وقام بلدوين دي غوسني مع اثني عشر من خيرة جنوده الأشداء والمسلحين بشكل جيد، بالحملة على المارشال شخصياً، وسعى إلى أسره وحمله معه إلى القلعة، وقد أبقاهم المارشال بعيداً عنه، وكان يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، ورمى كل من اقترب منه إما بقتله أو بايقاعه بقوة ضرباته، ولقد استطاع بقوة ذراع ويد واحدة أن يصمد ضد اثني عشر من أعدائه وأن يدافع عن نفسه لمدة طويلة من الوقت، وبعد مضي وقت طويل لم يعد أعداؤه يتجرأون على الاقتراب منه، فقتلوا حصانه الذي كان يمتطيه برماحهم، لكن المارشال الذي كان واسع الخبرة بطرائق الفرنسيين بالقتال، أمسك واحداً من الفرسان الذين كانوا يقاتلونه من قدميه، وسحبه وألقاه أرضاً، ثم امتطى بكل سرعة فرس عدوه، وجدد القتال، وشعر الفارس بلدوين بالخجل، من

أن المارشـال قد دافع عن نفسـه بيـد واحدة، ضـد مثل ذلك العـدد من أعدائه، وحمي غضبـه فقام بحملة يائسة عليه، وأمسك خـوذته وانتزعها بعنف من على رأسـه حتى أن الدم اندفع من فمه ومن فتحتي أنفـه، ثم أمسك حصـان المارشـال من لجامـه، وسعـى إلى جـره مع راكبـه نحـو القلعـة، في حين ساعـده آخرون في ارغـام المارشال ودفعـه من الخلف، وتمكن المارشـال باستخـدام سيفـه والضرب به نحـو الخلف، من إلقـاء اثنين من أعدائـه أرضاً بعدما أصـابهما بالجراحة، لكنه لم يستطع تخليص نفسـه من قبضتيهما، وفي هـذه اللحظة، شـاهد واحـد من رمـاة القسي العقـارة من جماعـة المارشـال، بأن مـولاه في خطر، فأطلـق سهمـه من قـوسه، فأصـاب بلدوين، الذي كـان يجر المارشـال، في صدره، وخـرق درعه، فسقط أرضاً، معتقداً أنه أصيب بجـراح مميتة، وعندما رأى رفاقه هذا، تركـوا المارشال، وذهبوا لانهاض بلدويـن ورفعه من على الأرض، لأنهم ظنوا أنه قد مات.

المذبحة التي أوقعها المارشال عند قلعة مونهاوث

وأثناء وقوع هذه الحوادث، وصلت أخبار إلى جيش المارشال تحدثت عن الخطر الذي كـان به، وبنـاء عليـه زحف جنوده نحـوه بكل سرعـة لمساعدته، وعلى الفور أرغموا أعداءهم على الفرار، وكان هناك جسر في جـوار القلعة، من فـوقه كـان الفـارون يأملون بالنجاة، لكنهم وجـدوه مدمراً، وبناء عليـه رمى عدد كبير منهم بأنفسهم بالنهر، وقـد غرقوا مع أسلحتهم وخيولهم، ولم يكن لدى آخرين وسائل للهرب، ولذلك قتلوا من قبل مطارديهم، واعتقل بعضهم وأخذوا أسرى، وعاد عدد قليل من الذين كـانوا قـد حملوا مـن القلعـة، ووقع بالأسر من جـانب المارشـال توماس سيوورد Siward وكان فـارساً شجاعاً مع اثنين من رفـاقه، ونقلوا إلى القلعة، ووقع من عساكر الحامية بالأسر خمسة عشر فارساً مع عـدد كبير من الجنود، وقـد أخـذهم المارشـال مع خيـولهم وأسلحتهم،

وأسـلاب أخـرى، وبقيت أعـداد من الذين قتلـوا ممددين على أرض المعركة، وكـان من بين الذين شوهدوا منهم ويلزيين وبواتيين، وأجانب آخـرين، وحمل بلدوين دي غـوسني إلى القلعـة وهو مصـاب بجـراحـة كبيرة، ووقعت هذه المعـركـة قرب القلعـة المذكـورة أعلاه في يوم عيـد القديسة كاترين «٢٥- تشرين ثاني».

ونصب بعـد هذه المعـركـة المارشـال مع غيلبرت باسيت، ورتشـارد سيوورد، وآخـرين من المطرودين المتحدين، كمائن للبـواتيين الذي كانوا مسـؤولين عن قـلاع الملـك، وبناء عليـه عندمـا كـان أياً منهم يخرج للاعتـلاف، كانوا يهاجمون، ولذلك لم يمنحـوا أية مكان، ونتيجـة لذلك أنتنت جميع الأجـواء في ذلك الجزء من المنطقـة وجـافت، بسبب أعـداد الأجانب الموتى الذين تمددوا هناك على الطرقات وفي الأماكن الأخرى.

حكمة المارشال العظيمة وتقديره للعدل

وفي حـوالي تلك الآونة نفسهـا، وفي يوم الخميس التـالي قبل الميـلاد، حدث أن كـان الايرل مارشال يمضي الليل في دير مـارغان Margan وفي ذلك المكان قـدم إليه راهب من رهبـان طائفة الفرنسيسكـان اسمه أغنل Agnell وكان تابعـاً للملك ومستشاراً، وقـد أخبره بالذي قيل حـوله في البـلاط من قبل الملك، ومـن قبل مستشـاريه، فقـد ذكـر بأنه «سمع الملك يقول:

إنه مع أن المارشال قـد حمل السلاح ضده بشكل خيـاني وغير عادل، إنه إذا مـا اختار —دون التقدم بشرط آخـر— أن يلقي بنفسـه كلياً على رحمة الملك، فالملك سوف يمنحه أمـاناً على حياته وعلى أطرافه، وسوف يسمح له بجـزء كاف من الأرض في هيرفـورد شـاير، يعيش منه بشكل مشرف، وسمع كـذلك من ستيفـن سيغـريف بأن شروط العفـو عن المارشـال، سوف يتعـرف المارشال عليهـا، بوساطة اثنين من أصـدقائـه

الموثوقين، اللذان سوف يخبران المارشال بأنه يستطيع بأمان أن يثق برحمة الملك، إنما في الوقت نفسه هما لن يخبرا المارشال نفسه أو أي شخص آخر، لأن عليه أن يفعل ذلك، دون أن يعرف الشروط التي منحت له»، كما أنه سمع أيضاً من آخرين في البلاط، أنه سيكون من المفيد للمارشال أن يفعل كما ورد أعلاه، فذلك هو واجبه، وذلك سوف يكون مفيداً له ولصالحه، وسوف يكون سلبياً بالنسبة له أن يفعل ذلك، وأن ذلك كان واجبه، لأنه قد تسبب بإلحاق الأذى بمولاه، لأنه قد قام قبل أن يؤذي الملك ممتلكاته أو شخصه، بغزو أراضي الملك، فدمر وأحرق الحاصلات، وقتل الناس، وإذا ما ادعى المارشال وترافع بأنه قد فعل ذلك للدفاع عن ذاته، وعن ميراثه، فقد قالوا بأن الأمر لم يكن كذلك، لأنه لم تكن هناك أية نوايا شريرة ضده شخصياً أو ضد ممتلكاته، لذلك كان ينبغي عليه، عدم اللجوء إلى العنف ضد مولاه الملك حتى يكتشف بوساطة المشاهدة العينية بأن الملك كانت لديه مثل تلك النوايا الشريرة ضده، فوقتها كان مسوغاً له بأن يعمل الذي عمله».

وعلى هذا كله عمل المارشال الرد التالي إلى الراهب أغنل، حيث قال:

«إنه بالنسبة للحجة الأولى، وأن ذلك كان واجبي، لأنني غزوت أراضي الملك، هذا ليس صحيحاً، لأنني كنت دوماً جاهزاً للالتزام بالقانون، وبقرار نظرائي في بلاطه، وغالباً ماسألت الملك —بوساطة الرسل— أن يمنحني هذا، لكنه رفض دوماً منح ذلك لي، وقام هو نفسه بغزو أراضي، وقاتلني مراغمة لجميع شرائع العدل، وأملاً مني بإرضائه بخضوعي، دخلت بالمفاوضات معه عن طواعية وتقبلت شروط سلم معه، مع أنها كانت مؤذية جداً لي شخصياً، وبموجبها كان قد تم الاتفاق، أنه مالم يقم الملك من جانبه بمراعاة هذه الشروط وتطبيقها نحوي، ينبغي أن أبقى تماماً في الوضع نفسه، كما كنت من قبل الموافقة على السلم المذكور، أي أكون متحرراً من كل ولاء له، وفي حالة

رفض وتحد له، كما كنت من قبل أسقف القديس داوود، وبناء عليه، بما أنه أخفق في مراعاة شروط السلام في كل جانب من جوانبها، إنه كان مسوغاً بالنسبة لي، تبعاً لاتفاقي معه، أن أسعى لاسترداد ما كان ملكاً لي، وأن أضعف قدرته بكل وسيلة ممكنة، ولاسيما وأنه كان يسعى متشوقاً إلى تدميري، وإلى حرماني من ميراثي، ولاعتقالي شخصياً، وأنا من هذا كله متأكد تماماً، وإذا كان الأمر ضرورياً، يمكن أن أبرهن عليه، وزيادة على ماتقدم، أنه بعد هدنة الخمسة عشر يوماً، قبل دخولي إلى ويلز، أو بالحري، قبل اتخاذ أي إجراء للدفاع عن ذاتي ضد أي انسان، قام هو —من دون أية محاكمة— فحرمني من وظيفتي، وظيفة المارشالية، وجردني منها، مع أنها عائدة إليّ، ذلك أنني أحملها بموجب الحق الوراثي، ورفض بشكل قاطع ردها إليّ، عندما سألته ذلك، وبهذا اقتنعت بشكل واضح بأنه لاينوي التوصل معي إلى أية شروط سلام، لأنه هددني بعد الهدنة بشكل أسوأ من ذي قبل، ولذلك أنا لست خاضعاً له، بل متحرر من التابعية إليه، مع أنني سأعود إلى شروط أول حالة رفض، التي ذكرت أعلاه، وفقاً لهذه الاتفاقية، وبناء عليه، كنت مسوغاً ومازلت مسوغاً في الدفاع عن نفسي، وفي الوقوف ضد المؤامرات الشريرة لمستشاريه بكل وسيلة في مقدرتي»، وقال مستشار الملك أيضاً، بأنه سوف يكون لصالح المارشال ومنفعته أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، لأن الملك كان أغنى، وأكثر قوة مما هو عليه، وإذا كان المارشال سيعتمد على عون الأجانب، يمكن للملك أن يجلب سبعة أشخاص مقابل كل واحد يمكن للمارشال أن يقنعه بمساعدته، لأن بعضاً من الأجانب أقرباء للملك، وقد عرضوا عليه تقديم مساعدتهم، وهؤلاء ليسوا اسكوتلنديين، ولافرنسيين، ولاويلزيين، ويمكن لهؤلاء أن يقدموا إلى انكلترا، وأن يجدوا عملاً من أجل جميع أعدائه، وهم يمكنهم أن يقدموا بحشود كبيرة كافية لتغطية وجه البلاد كلها، ورد المارشال على هذه الحجة قائلاً:

«صحيح أن الملك أغنى مني، وأكثر قوة، لكنه ليس أكثر قوة من الرب، الذي هو عادل بذاته، والذي فيه أضع آمالي بالسلامة، وفي الحصول على امتيازاتي في المملكة، وأنا لاأضع ثقتي في أجانب، ولاأنشد تحالفهم وعونهم، ولن أطلب مساعدتهم، مالم —لاسمح الرب— أرغم على فعل ذلك، بضرورات غير متوقعة، ولايمكن تجنبها، وأنا أعرف بشكل جيد أن بإمكان الملك أن يجلب سبعة مقابل واحد أجلبه، وأعتقد أنه سوف يجلب في أقرب وقت ممكن كثيراً منهم لمساعدته، إلى حد أنه لن يكون بامكانه، بأية وسيلة من الوسائل، تحرير نفسه والمملكة منهم، لأنني سمعت من أناس موثوقين، بأن أسقف وينكستر، قد صمم على اخضاع جميع انكلترا لإرادته، وأنه بات مشغولاً بذلك منذ الأيام التي كان فيها في القارة مع الامبراطور، ولذلك بدأ هذه الحرب، لكي يجد الفرصة من أجل طلب المساعدة من الامبراطور، ولكي يتمكن أيضاً من استدعاء الامبراطور للقدوم شخصياً، ويبدو أن هذا الذي سيكون، لأنه عندما نشب خلاف بينه وبين الملك، كان قد غادر انكلترا، وهاهو الآن قد أقسم بأنه سوف يرسل أعداد كبيرة من الأجانب إلى انكلترا، وسوف يتابع ذلك، حتى يغطي وجه البلاد كلها»، ومجدداً قال مستشار الملك أنه سوف يكون أميناً للمارشال وسليماً أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، لأنه يمكنه أن يثق بالملك وبمستشاريه، وأن يثق بالملك، بسبب أنه كان رحيماً، وجديراً بالثقة، وأن يثق بمستشاريه لأنهم لم يتسببوا بأي أذى للمارشال، لأنهم بالفعل يحبونه بقلوبهم، وعلى هذا رد المارشال قائلاً:

«من الممكن أن يكون الملك رحيماً، لكنه مضلل بنصيحة هؤلاء الناس، الذين نشعر بقرارة أنفسنا أننا متأذين كثيراً منهم، وأن يكون الملك موضع ثقة، فهذا واضح بالنسبة له شخصياً، لكن بالنسبة لمستشاريه لدي هذا الذي سوف أقوله، إنه مامن وعد عمل لي قد

حوفظ عليه حتى الآن، والذي قـاله مستشاروه من أنهم لم يتسببوا بأذى قط لي، فهـذا زائف، ذلك أنهم جلبـوا جميع اضطراباتي وأنـزلوها إلي، وإليهم أعـزوها كلهـا بشكل رئيسي، كما انني لاأستطيع أن أصـدقهم عندمـا يقولون بأنهم يحبـونني، حتى أراهم يتصرفون بشكل مغـاير، لما رأيتهم دوماً يفعلونه لأنهم خرقوا عدة أيمان تعاون، أي فيما يتعلق بايرل أوف كنت، الذي إليه عملوا ثلاثة أنواع من الأيمان، التي لم يرعوها، بل حنثـوا بها وخرقـوها، وكذلـك فيما يتعلق بالشروط التي قدمهـا الايرل المتقـدم الذكر، التي حنثـوا بها وتخلوا عنهـا وفق الطريقة نفسهـا، ومثل هذا مـاتعلق باليمين الخاص بـالامتيـازات الموجـودة في الصك العظيم، الذي أيضـاً خـرقـوه، ومن أجل ذلك حـرموا كنسياً على أسـاس أنهم حـانثين باليمين، وقـد حنثـوا باليمين أنفسهم فيما يتعلق بالاستشـارة الصحيحـة التي أقسمـوا أنهم سـوف يعطونها إلى الملك، لأنهم دومـاً يشيرون عليه بما هـو معاكس للعدل، وستيفـن سيغريف الذي كـان قد أقسم على رعاية القـوانين العادلة، يقـوم الآن بافسادهم، ويقـدم قوانين ليست مستخدمة منذ زمن طويل، ولأسبـاب أخرى كثيرة، هو وكذلك المتعاونين معه جديرين بعدم الثقة من قبل الرب ومن قبل الانسان، لأنه أوليس هو، وأوليسوا هم محرومين كنسياً؟»، وكـانت الحجة التالية التي قدمها مستشار الملك ضد المارشال، هي أنه قاتل شخص مولاه الملك في غـروسمونت، قبل أن يدخل الملك إلى أراضيـه، وبذلك سبب أذى له، وبناء عليـه إن واجبه يقضي عليـه أن يسلم نفسـه ويضعهـا تحت رحمة الملك، كما ورد الذكـر أعلاه، في سبيل أن يشرفـه ويكرمه، وأن لايقـدم حجة للآخـرين للقيام بحمـلات معادية ضـده، وعلى هذا رد المارشال، بأنه بالنسبـة لما يتعلق به شخصيـاً، هو زيف وكـذب الإدعـاء بأنه كـان حاضراً أثناء ذلك القتال، وإذا مـاحدث وكان واحد من أتبـاعه حاضراً هناك، لقد قاتلوا أتباع الملك، وليس شخصه الملكي، ثم قال:

«وإنهم إذا مافعلوا ذلك ينبغي أن لاتعجب منه، لأن الملك قد قدم إلى أراضيّ مع جيشه لمهاجمتي ولإلحاق الأذى بي بكل طريقة من الطرق، وهذا مبرهن عليه بكل وضوح بوساطة الرسائل التي استدعى بها الجميع من كل أنحاء انكلترا لمساعدته على تدميري، وبما أن الاعتداءات المذكورة أعلاه قد عزيت إلي بشكل زائف، وأنه صحيح تماماً ان الملك قد تصرف نحوي بشكل سيء في الوقت الذي كنت أنظر فيه إلى رحمته أكثر من أي وقت مضى، وهو مايزال يمتلك النوايا نفسها نحوي كما كان من قبل، ومابرح يعتمد على مشورة هؤلاء الرجال، الذين أعلم أنه بسبب نصائحهم له قد حدثت هذه الأضرار ولحق بي مالحق من أذى، وكذلك بجماعتي، ولذلك ينبغي أن لانخضع لرحمته ولايمكننا فعل ذلك، ثم إنه لن يكون مشرفاً للملك ولا لصالح سمعته، إذا ما رضخت إلى رغباته، إذا لم تكن هذه الرغبات مؤيدة بأي منطق، لابل إن ذلك سيبدو بالحري وكأنني أقدم إهانة له وإلى العدل، العدل الذي من واجب الملك ممارسته ورعايته نحو رعاياه، ولسوف أضرب بذلك مثلاً سيئاً إلى كل انسان، هو التخلي عن قضية العدل، والتجرد والتخلي عن جميع امتيازاتي، بسبب خطأ بالتقدير، معاكس لكل عدل، ولالحاق الأذى برعيته، لأننا في تلك الحالة، سوف يظهر أننا نحب مقتنياتنا الدنيوية أكثر من العدل»، وعلى هذا أوضح المستشار وذكر ضد المارشال مجدداً، أنه قد تحالف مع أعداء الملك الرئيسيين:

الفرنسيين، والاسكوتلنديين، والويلزيين، وأنه بذلك بدا بالنسبة لمستشاري الملك أنه قد فعل ذلك من أجل اغضاب الملك وايذائه وايذاء المملكة، وعلى هذا رد المستشار قائلاً:

«أما بالنسبة للفرنسيين، فهذا زائف بكل وضوح، والحديث أيضاً عن الاسكوتلنديين والويلزيين هو زائف أيضاً، إلاّ باستثناء ملك اسكوتلندا، وللويلين، الأمير الويلزي، لأنهما لم يكونا أعداء، بل تابعين

مخلصين له، وقد بقيا كذلك، حتى نزلت بهما الأضرار من قبل الملك ومن قبل مستشاريه، فأرغما مكرهين مثلي على سحب ولائهما منه، ولهذا السبب شكلت حلفاً مع هذين الأميرين، ذلك أننا نكون أحسن حالاً عندما نكون متحدين، وأفضل مما لو كنا ممزقين، نناضل في سبيل امتيازاتنا، وندافع عن حقوقنا التي حرمنا منها بشكل غير عادل، وسلبت منا بمعيار كبير»، ثم إن مستشار الملك أوضح من جديد بأن المارشال، لايحتاج أن يضع ثقة في حليفيه هذين، لأن الملك يستطيع —دون أن يعرض أراضيه للخطر— ابعادهما عنه عندما يشاء، وعلى هذا ردّ المارشال قائلاً:

«انه لما لاشك فيه أن هذه الواقعة تظهر بوضوح شرور مستشاريه، لأنهم يرغبون في أن يجعلوا الملك يتحمل كل نوع من الأذى، من هذين الذين دعوهما باسم عدويه الرئيسيين، من أجل ايذائي، مع أنهما كانا دوماً من رعاياه المخلصين، وطوال ماسمح لي، أنا سوف أكون كذلك، إذا ما أعاد لي وإلى أصدقائي حقوقهم الصحيحة»، وكانت الحجة الثانية التي قدمها مستشار الملك، بأن لدى البابا والكنيسة الرومانية تقدير خاص إلى الملك وإلى المملكة، والبابا على استعداد لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع أعدائه، ويبدو أن هذا قريب وفي متناول اليد، لأن الملك والمستشارين قد أرسلوا وراء المندوب البابوي، وعلى هذا رد المارشال قائلاً:

«إنني مسرور لسماع مايقولونه حول مايتعلق بالبابا وبالكنيسة الرومانية ومن أجل التقدير العظيم الذي لديهم للملك وللمملكة، فذلك يعني أنهم يرغبون أكثر منه أن يحكم مملكته ورعاياه وفقاً لشرائع العدل، وأنا أيضاً مسرور لسماع بأن البابا سوف يحرم كنسياً أعداء المملكة، لأن الأعداء هم أولئك الذين يشيرون على الملك بما هو ضد العدل، حسبما تبرهن أعمالهم على ذلك، لأن العدل والسلام يسيران معاً

يداً بيد، وعندما يفسد العدل، يخرق السلم أيضاً، ومجدداً أنا مسرور لأن المندوب البـابوي قـادم، لأنه كلما ازداد الناس هنا الذين سيسمعـون بعدالة قضيتنا، كلما ازداد العار الذي سوف يلحق أعداء العدل، والآن مع أنني مقيم بشكل خاص مع أحزاني، يمكنني قول الشيء نفسه فيما يتعلق بأصدقائي، وحلفائي، وباسمهم ولصالحهم أتقدم بالشكوى نفسها التي أتقدم بها باسمي ولصالحي، ومن دونهم لايمكنني أن أعمل أي شيء مطلقاً، في سبيل الوصول إلى ترتيبات دائمة».

كيف احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في غلوستر

سنة ١٢٣٤م، التي كانت السنة الثامنة عشرة لحكم الملك هنري، فيها عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في غلوستر، مع حاشية صغيرة فقط —لأنه هجر من قبل عدد كبير من النبلاء، الذين كانوا قد جردوا قبل وقت قصير مضى من جميع ممتلكاتهم— في قلعة غروسمونت، كما تحدثنا من قبل، ونزل في الوقت نفسه الصقيع بحدة كبيرة، حتى أن الحاصلات في الحقل قد دمرت، وجذور الأشجار في الحدائق قد اهترأت، وتجمدت جذور أشجار التفاح حتى عمق أربعة أقدام وماتت، واستمر هذا من دون تساقط للثلوج حتى عيد طهارة القديسة مريم، وقد أعقب هذا في العام نفسه أجواء غير صحيحة تماماً، وأنواء ليست في مواسمها، وتبع ذلك ندرة كبيرة في جميع منتجات الأرض.

كيف أحدث المارشال مذبحة كبيرة بين أعدائه

بعد يوم عيد الميلاد جمع جون أوف مونماوث، وكان رجلاً نبيلاً، قد قاتل إلى جانب الملك في ويلز، جيشاً كبيراً، ليفاجيء الايرل مارشال، وكان هذا الأخير قد أخبر بما ينويه، فحمل نفسه مع جيشه إلى الغابة التي كان عدوه سيمر بها، من أجل أن يغرر بالذين فكروا بتضليله، وعندما وصل رجال العدو إلى مكان الكمين، انقض المارشال وجيشه

عليهم وسط زعقات الأبواق والنفر، وأخذوهم على حين غرة، وأرغموهم فوراً على الفرار، وطاردوهم عن قرب، وقتلوا أعداد كبيرة من البواتيين ومن الآخرين، ونجا جون نفسه بعد صعوبات جمة وكان ذلك عن طريق الفرار، وبعد ذلك تقدم المارشال زاحفاً مع جيشه، ونهب وأحرق القرى والبيوت، والممتلكات الأخرى العائدة إلى جون المذكور، وبذلك جعله فقيراً ومتسولاً بدلاً من رجل غني، كما كان، ثم عاد إلى مناطقه محملاً بغنائم وأسلاب ضخمة جداً، وهو يسوق قطعان كبيرة من المواشي.

كيف أثار النبلاء المطرودون معارضة كبيرة ضدّ مستشاري الملك

وأثناء عيد الميلاد نفسه، شنت حرب قاسية ومحزنة ضد الملك، وضد مستشاريه، لأن رتشارد سيوورد بالتعاون مع آخرين من النبلاء المطرودين، هاجموا ممتلكات الايرل رتشارد، أخي الملك، على مقربة من بريهل Brehull وأحرقت بيوته ومحاصيله، حتى لحق ذلك المواشي التي كانت واقفة في الاسطبلات، كما أنهم قاتلوا سيغريف، بلد ستيفن المسؤول عن العدالة، وغادروا ذاهبين آخذين معهم بعض الخيول الثمينة ومقتنيات أخرى، كما أنهم دمروا بالنار قرية عائدة لأسقف وينكستر، على مقربة من الموضع الآنف الذكر، وحملوا معهم كميات من الغنائم، وراعى هؤلاء الجنود حكماً واحداً بينهم بشكل عام، هو أنهم لم يلحقوا الأذى أو يهاجموا أي واحد، باستثناء مستشاري الملك غير العادلين، الذين بوسائلهم قد سيقوا إلى المنفى، غير أنهم دمروا كل الذي عاد إلى هؤلاء الرجال، ودمروا وأحرقوا غاباتهم، واقتلعوا أشجار فواكههم من الجذور.

الحملة ضدّ شروبري

وبعد هذا، أثناء ثمانية عيد الغطاس، جمع الايرل مارشال، وللويلين

الزعيم الويلزي كل القوات التي تمكّنا من حشدها، وتوغلا مسافة بعيدة داخل الأراضي الملكية، ناشرين للنار حيثما ذهبا، ولذلك لم يتوفر مكان من حدود ويلز حتى بلدة شروبري Shrewsbury قد نجا من أعمال عيثهما وافسادهما، ثم إنهما أحرقا بلدة شروبري، وعادا بعد ذلك إلى ديارهما مع أسلاب ثمينة، وكان الملك هنري أثناء جميع هذه الاجراءات التي قام بها أعداؤه، مقيماً بدون نشاط في غلوستر مع أسقف وينكستر، لأنه لم تكن لديه قوة عسكرية كافية للتصدي لهم، ولذلك تراجع مقهوراً مجللاً بالعار، إلى وينكستر، تاركاً جميع تلك المنطقة معرضة للنهب من قبل أعدائه، كما كان ذلك واضحاً، ولقد كان منظراً مرعباً للمسافرين لأن يروا جثث القتلى، الذين كانوا لايمكن تعدادهم تقريباً، ممددين على الطرقات، وهم غير مدفونين، وعراة، طعمة للحيوانات المفترسة، ولجوارح الطير، وقد أفسدت الروائح التي صدرت عنهم الهواء إلى حد أن الأموات قد قتلوا الأحياء، وهكذا صار قلب الملك قاسياً جداً ضد المارشال، بسبب النصائح الشريرة التي أصغى إليها، وكان غضبه شديداً إلى حد أنه مع أن الأساقفة نصحوه بأن يعمل سلاماً مع ذلك الرجل النبيل، الذي قاتل فقط في سبيل نيل العدل، أجابهم بأنه لن يتوصل إلى أية اتفاقات تصالح معه، ما لم يتوسل إليه طالباً رحمته، وطوق حول رقبته، وأن يعلن عن نفسه خائناً.

التدبير الخياني الذي خطط له مستشارو الملك ضدّ المارشال

وفي هذه الآونة وجد أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول ابنه، مع بعض الآخرين من مستشاري الملك الأشرار، وجدوا أنفسهم قد هزموا في كل مكان من قبل المارشال، ونظروا بأسى إلى بلداتهم وقد أحرقت فاخترعوا أخيراً خطة لقهره، بوساطة عمل خياني، بحكم أنهم كانوا عاجزين عن فعل ذلك في قتال مكشوف، ولذلك عندما أعيقوا برغباتهم، ورأوا الأعداد التي لاتحصى من القتلى البواتيين الذين لاقوا

مصرعهم في ويلز، كتبوا رسائل تحتوي على خطط للخيانة لم يسمع بمثلها، وأرغموا الملك، وهو جاهل بمقاصدهم، بأن يضع ختمه عليها، وإلى جانبه وضع أحد عشر منهم أختامهم وثبتوها، ثم إنهم أرسلوا هذه الرسالة الدموية الرسمية إلى ايرلاندا، فلقد بعثت هذه الرسالة الخيانية إلى النبلاء الايرلنديين، وإلى موريس فتز —جيرالد، الذي تولى ممارسة أعمال مسؤول العدالة الملكية في تلك المملكة، وإلى وولتر وهيوج دي لاسي، وإلى رتشارد دي بورغ، وإلى غيوفري دي ماريسكو Marisco وإلى آخرين، الذين كانوا آنذاك حلفاء بموجب القسم إلى المارشال المذكور، وكانوا مخلصين له، وكان مقصد هذه الرسائل كما يلي:

لقد ذكر مستشارو الملك في المقام الأول، وأخبروا النبلاء المذكورين، بأن رتشارد، الذي كان من قبل مارشال الملك الانكليزي، قد نفي من انكلترا، بموجب قرار صدر عن محكمة بلاط الملك المذكور، وذلك بسبب خيانة مكشوفة، وأن جميع ممتلكاته، يعني قراه وبيته قد أحرقت، وأن حدائقه وأشجاره المثمرة قد قطعت، وبركه وأسماكه قد أتلفت، وماهو أكثر من هذا كله هو أنه قد حرم بشكل أبدي من ميراثه الأبوي، وعلى الرغم من حرمانه من ممتلكاته على هذه الصورة، هو مايزال يغضب الملك، ومابرح يمارس اعتداءاته ضده:

«وبناء عليه نحن نأمركم، بحكم يمينكم كرعايا مخلصين لمولانا الملك، أن تعتقلوه إذا صدف وجاء إلى ايرلاندا، وأن تحضروه إلى أمام الملك حياً كان أم ميتاً، وإذا فعلتم هذا، فإن جميع ميراثه وممتلكاته في مملكة ايرلاندا، التي هي الآن تحت تصرف الملك، سوف توزع فيما بينكم، وسوف تتملكونها بموجب حق الوراثة، ومن أجل وفاء مخلص بهذا الوعد المقطوع إليكم من مولانا الملك، نحن جميعا، الذين بنصيحتنا تدار أمور الملك والمملكة، سوف نكون ضامنين، لتنفيذ الخطة المذكورة أعلاه، وداعا».

كيف وافق النبلاء الايرلنديون على عرض مستشاري الملك

عندما سمع النبلاء الايرلنديون محتويات رسائل الملك، استولى الشره على عقولهم جميعاً، فتآمروا جميعاً أحدهم مع الآخر، فبعثوا رسلاً مع رسائل إلى مستشاري الملك المتقدم ذكرهم، مع توصية بالسرية، وقد أخبروهم أنه إذا ماجرى تأكيد الوعود الواردة في صك الملك، فلسوف يتولون تنفيذ الخطة، وقام مستشارو الملك بعد هذا، فعملوا بموجب صك ملكي منحة لهم جميع امتيازات المارشال، بحيث يجري تقسيمها فيما بينهم، فوزعوا أولاً الأماكن، ثم المقتنيات، وبعد ذلك الامتيازات التي سوف توزع عليهم جميعاً، وعندما تسلم هؤلاء الخونة الايرلنديون هذه الوثيقة، قاموا على الفور بربط أنفسهم بيمين بأن يتولوا تنفيذ الخطة المقيتة، عندما تتوفر لديهم الفرصة، وهكذا تآمروا ضد حياة انسان بريء، وقاموا على الفور بغزو بلاد المارشال، واستولوا على بعض القلاع العائدة له، وتوازعوا الأسلاب فيما بينهم.

مقتل الهراطقة الألبينيين في معركة قتالية

وصار في هذا العام الهراطقة الألبينيين في اسبانيا وفي تلك المناطق جريئين جداً، إلى حد أنهم رسموا أساقفة هراطقة للتبشير بعقائدهم الشريرة، وأعلنوا أن الديانة المسيحية وبشكل خاص أسرار التجسيد هي زائفة، وينبغي ازالتها كلياً، كما أنهم حشدوا جيشاً وغزوا مناطق المسيحيين، وأحرقوا الكنائس، وذبحوا المسيحيين من كلا الجنسين ومن جميع الأعمار من دون رحمة، لكن عندما انتشرت أخبار هذه الواقعة في الخارج، جرى على الفور ضبط ادعاءاتهم الخرافية، من قبل الأتباع المخلصين للمسيح، الذين حملوا الصليب بناء على دعوة من البابا غريغوري، وقدموا من مناطق الغرب من أجل الدفاع عن الإيمان المسيحي، وفي معركة تصادمية جرت في الربيع، جرى ذبح هؤلاء الهراطقة مع أساقفتهم حتى آخر رجل منهم، ثم استولى الصليبيون على

مدنهم وتملكوها، ووضعوا أتباع المسيح فيها، ورسموا كذلك أساقفة كاثوليك فيهم، ثم عادوا منتصرين إلى بلدانهم، والذين كانوا قد قدموا إلى هناك رجالاً فقراء، عادوا إلى مواطنهم أغنياء.

نصيحة الأساقفة إلى الملك حول الاضطرابات في المملكة

عندما كانت هذه الأحداث تقع في اسبانيا، عقد الملك الانكليزي في يوم طهارة القديسة مريم مؤتمراً في ويستمنستر، فيه وجّه اللوم بحدة إلى بعض الأساقفة، وبشكل خاص إلى الاسكندر أسقف شيستر، لأنه كان صديقاً للمارشال، واتهمهم بالسعي لطرده من العرش ومن المملكة، وعلى كل حال، عندما سمع ذلك الأسقف نفسه قد أتهم على هذه الصورة، وضع على نفسه ثيابه الحبرية، وحرم كنسياً جميع الذين كانوا فعلة هذه الجريمة ومقترفيها ضد الملك، ثم إنه بناء على وساطات الأساقفة الآخرين، صار الملك راضياً عنه، وكان المعلم ادموند، رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، حاضراً مع عدد من أساقفته المساعدين، ولقد عبّروا جميعهم عن أسفهم تجاه عزلة الملك والمملكة، وأخبروا الملك، وهم يتحدثون من قلوبهم قائلين:

«مولانا الملك، إننا سوف نحدثك باسم الرب، ونخبرك أن النصيحة التي تلقيتها الآن وعملت بموجبها، أي نصيحة بطرس أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول، هي ليست حكيمة، وليست سليمة، بل هي على العكس وحشية، وخطرة عليك شخصياً وعلى المملكة كلها، فهما بالمقام الأول يكرهان الشعب الانكليزي، وكلاهما يدعوان أفراده خونة لهما نفسيهما، كما أنهما جعلا الآخرين يدعوانهما كذلك، ولقد نأيا بعواطفك عن شعبك، ونأوا بعواطف شعبك عنك، كما هو واضح من سلوك المارشال، الذي هو أفضل رعاياك في ممالكك، وبالكذب الشرير الذي يخبراك به حول شعبك قد أفسدا جميع أقوال رجال شعبك وأفعالهم، وانه بموجب العمل بناء على نصيحة هذا الرجل نفسه، أي

الأسقف المذكور، قد فقد والدك أولاً عـواطف شعبه، وخسر بعد ذلك نورماندي وبعض المناطق الأخـرى، وأخيراً ثروته، وتقريباً جميع السلطة على انكلترا، ولم يتمتع بعد ذلك بالهدوء، وانه بسبب نصائح هذا الرجل نفسه تشوشت المملكة، ووضعت تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وفي النهاية جلبت هذه الاضطرابات الموت إلى أبيك، وبموجب مشورة هذا الرجل نفسـه، في أيامنا هـذه، جـرى انتـزاع قلعـة بدفـورد منك، ولهذا السبب نفسـه خسرت بلدة روشيـل، ومجدداً إن هذا التمـرد الذي يهدد الآن مملكتك، كـانت أسبابه الآراء الاستشـارية الشريرة لهذين الرجلين، لأنه لو أن شعبك قـد حكم وفقاً لأحكام العـدل، وللشرائع الصحيحة العائـدة للبلاد، مـاكان لهذا الاضطراب أن يحدث، ولما كـانت ممتلكاتك قـد تعرضت للعيث فسـاداً فيها، ولما كـانت أموالك قـد أنفقت، ونحن نقـول أيضـاً، بحكم الولاء الـذي ندين به إليك، بـأن خططك ليست الخطط التـي ســوف تقــدم الســلام إلى مملكتك، بل فقـط ستسبب الاضطراب لأن هـذين الرجلين، بحكـم تكوينهما لايستطيعـــان زيادة ثرويتهما بوســاطة الســلام، وهما لذلك يسعيــان لإثارة الاضطراب بتشـويش شعب المملكة، وبتجريد الآخـرين من ممتلكاتهم، وكـذلك بما أنهما يضعان بين أيديهما قلاعك وقـوة ممالكك، يظهرانك وكأنك لاتضع ثقة بشعبك، وكـذلك بما أن خزينتك بين أيديهما مع ايداعـاتك الرئيسية ومـواريثك مــوجـودة تحت اشرافهما، فإن نوع الحســاب الذي سـوف يقـدمانه لك سـوف تجده فيما بعـد، وكذلك أيضـاً من النادر أن تجد أي عمل له أهميـة في المملكة، موضـوع تحت ختمك ويعمل به بموجبـه أو بمـوجب تفــويضك، هو ليس أيضـاً تحت ختـم وترخيص بطرس دي ريفــول، ومن ذلك واضح تمامــاً أنهما لايعـدانـك ملكاً على الاطلاق، ومجدداً، جـرى في المؤتمر نفسـه صرف جميع الـرعـايا الطبيعيين لمملكتك من بلاطك، ولذلك نحـن نشعـر بالخوف عليك وكـذلك على المملكة، وبقدر مـانعرف هو أنك تحت حكمهما أكثـر مما هما تحت حكمك، فهذا

واضح ومبرهن عليه بكثير جداً من الشواهد، وكذلك هما يضعان تحت اشرافهما أميرة بريتاني وأختك، ومثل ذلك عدداً من النساء النبيلات والفتيات، مع الوصاية عليهن ومع حصص الزواج، وقد حطّا من شأن هؤلاء بتزويجهن من أصدقائهما، وكذلك أساءا تطبيق العدالة وحرفاها، ومثل هذا فعلا بشريعة الأرض، التي أقسمت على الدفاع عنها تحت طائلة الحرمان الكنسي، ولذلك هما يستحقان الحرمان الكنسي، ونحن نخشى أن تنال العقوبة نفسها لتواصلك معهما، وأيضاً هما لم يفيا بوعودهما إلى أي انسان، وهما لايحافظان على الوفاء، ولا على أيمانهما، ولايلتزمان بأية اتفاقية مكتوبة، كما أنهما لايخافان من الحرمان الكنسي، ولذلك فإن الذين ابتعدوا عن الصدق سقطوا في حالة اليأس، أما الذين التزموا بالصدق فهم في حالة خوف وترقب، ونحن نقول هذا بإيمان صالح، ونحن ننصحك أمام الرب والبشر، ونرجوك ونحذرك كي تصرف مثل هذين المستشارين، ومثلما هي العادة في البلدان الأخرى أن تحكم بلدك أيضاً بوساطة مساعدة رعاياك المخلصين والذين أقسموا على الولاء لك من أهل مملكتك، هذا ويتوجب علينا أن نخبرك بحقيقة أنك مالم تقم بتقويم هذه المخالفات في وقت قصير، إننا سوف نسير للترافع بوساطة إجراءات العقوبات الكنسية ضدك وضد جميع الآخرين من المخالفين ونحن فقط ننتظر تكريس أبانا المحترم رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري»، وإثر سماع هذه الكلمات طلب الملك راجياً بكل تواضع منحه فرصة قصيرة من الوقت، قائلاً بأنه لايستطيع صرف مستشاريه هكذا فجأة، حتى يتسلم منهما حساباً عن المال المعهود به إليهما، وهكذا انتهى المؤتمر، وغادر الجميع وهم يحملون آمالاً مؤكدة بالحصول سريعاً على السلام في المملكة.

كيف خرج النبلاء المطرودين وباشروا أعمال الانتقام

وبعد انقضاء ذلك المؤتمر ذهب الملك إلى برومهولم Bromholm

ليهارس تعبـداته، وعبر وهو على طريقـه بكنيسة بلدة القـديس ادمـوند، وقد أثيرت شفقتـه، فمنح إلى زوجة هيـوبرت دي بورغ ثماني عزب من أراضي زوجهـا، التي كانت آنذاك تحت عهـدة روبرت باسلوي، وذلك بناء على أوامـره، ثم إنه بعـدما أدى تعبـداته رجع إلى الجزء الغـربي من المملكة، ووصل إلى بلدة هنتنغدون، وأثناء إقامته في هذا المكان الأخير، ذهب رتشـارد سيـوورد بصحبـة غيلبرت باسيـت وآخـرين من النبـلاء المطرودين إلى ألموندبري Almondbury وكـانت بلدة عـائـدة إلى ستيفن سيغريف، وتبعد ميلين عن المكان الذي كان فيه الملك، وأحرقوا جميع الأبنية العائدة الى ستيفن المتقدم الذكر، ونهبوا المكان، وشاهد ذلك النبيل الذي كـان مع الملك لهب النيران يتصاعـد من بيوته لينير المنطقـة كلهـا من حولها، فبـادر على الفور مسرعـاً مع قوة مسلحـة كبيرة لحماية ممتلكاته، ولكنه عندمـا سمـع بأن رتشـارد سيـوورد كـان الفـاعل لهذه العملية من العنف، أدار ظهره، ونكص على عقبيه وكأنه هارب من قوة معـادية، ولم يوقف حث مطيته، بـل فرّ بكل سرعـة إلى الملك الذي أثير مع جلسـائـه للضحك عليـه، وفي ذلـك الوقت أيضـاً، اعتقل رتشـارد سيـوورد هذا نفسـه ومعـه أتبـاعـه بعض الفـرسـان الذين قـاتلوهم في الأراضي الويلزية، واتخذهم أسرى، ثم أرغمهم بمـوجب قانون الحرب على دفع فدية ثقيلة.

وفي هذا العام، في يوم الأحـد الذي يغنى فيه بمزمور «دعـوا القدس تبتهج»، الذي وقع في الثـاني من نيسـان، جـرى تكريس ادمـوند رئيس أسـاقفـة كـانتربري المنتخب، في كنيسـة المسيح في ذلـك المكان من قبل روجر أسقف لندن، وبحضور الملك، وثلاثة عشر أسقفاً، وأقام في ذلك اليوم قداساً مهيباً، وهو لابس للطيلسان.

كيف صرف الملك أسقف وينكستر والبواتيين

في هذه الآونة، وفي الأحـد الرابع من الصـوم الكبير، الذي وقع في

التاسع من نيسان، جرى عقد مؤتمر في ويستمنستر، حضره الملك، والايرلات، والبارونات، ورئيس الأساقفة الذي جرى تكريسه مؤخراً مع أساقفته المساعدين، ولقد اجتمعوا لإيجاد تراتيب موائمة لاحتواء الاضطرابات في المملكة، واقترب وقتها رئيس الأساقفة مع الأساقفة ورجال الدين الآخرين الذين كانوا حضوراً، من الملك، وقدم له نصيحته، وكذلك نصائح الأساقفة فيما يتعلق بالأوضاع السيئة للمملكة واقتراب المخاطر منها، وكرروا إليه وأعادوا على مسامعه ذكر الأضرار التي عرضت عليه في المؤتمر الذي عقد قبل وقت قصير، وبجرأة أخبره أيضاً أنه مالم يقلع حالاً عن أخطائه، ويعمل سلاماً مع رعاياه المخلصين في مملكته، هو، أي رئيس الأساقفة مع جميع الأساقفة الحضور، سوف يتفوه على الفور بقرار الحرمان الكنسي ضده، وضد الظلمة الآخرين كلهم مع مثيري الاضطراب ومفسدي السلام، وأصغى الملك بشكل لائق وأديب إلى نصيحة الأساقفة، وأجاب بتواضع بأنه سوف يستجيب لنصائحهم في كل جانب، ثم إنه قام بعد عدة أيام، عندما تبينت له أغلاطه، فأمر بطرس أسقف وينكستر بأن يذهب إلى أسقفيته، وأن يتولى معالجة الأرواح، وأن لايتدخل من الآن فصاعداً،بأي شكل من الأشكال بشؤون المملكة، كما أنه أمر بطرس ريفول، الذي كانت انكلترا كلها خاضعة لرغباته، أن يتخلى من دون تردد ولامراجعة ويسلمه القلاع الملكية، وأن يقدم له حساباً عن الأموال الملكية، وأن يغادر بلاطه على الفور، معلناً مع القسم، أنه إذا تبرهن أنه انسان غير مفيد، ولم يعترف بحقوق رجال الدين، سوف يأمر بقلع عينيه، كما أنه طرد جميع البواتيين، من بلاطه ومن المسؤولية عن قلاعه، وأرسلهم عائدين إلى بلدهم، آمراً إياهم أن لايروه وجوههم ثانية، ثم إنه لشدة رغبته في عمل سلام وتحقيق ذلك، أرسل ادموند رئيس أساقفة كانتربري مع أسقفي شيستر وروكستر إلى ويلز لترتيب سلام مع للويلين ومع رتشارد المارشال، وبعدما طرد هكذا جميع المستشارين الأشرار لديه،

أعاد استدعاء رعاياه الطبيعيين إلى خدمته، وأخضع نفسه إلى نصائح رئيس الأساقفة والأساقفة، آملاً أن يتمكن بمساعدتهم من أن يعيد مملكته المضطربة إلى وضعها الطبيعي الصحيح.

كيف ذهب الايرل مارشال إلى ايرلاندا وتابع الحرب

وفي هذه الآونة وصل رسل إلى الايرل مارشال، وأخبروه كيف أن النبلاء الايرلنديين قد غزوا أراضيه، واستولوا على بعض قلاعه، وكانوا يتجولون خلال البلاد متورطين في أعمال النهب، وبما أن الملك، تخلى منذ عيد الميلاد عن حملته ضد ويلز، وذهب إلى الأجزاء الشمالية من المملكة، أقلع المارشال مبحراً إلى ايرلندا، في حوالي يوم عيد طهارة القديسة مريم، ومعه خمسة عشر فارساً، من أجل التصدي للنوايا العدوانية لأعدائه وضبطها، ولدى وصوله إلى هناك، وصل إلى عنده غيوفري دي ماريسكو، وكان تابعه المعتمد، لكنه تبرهن أنه غير مخلص، وأنه قد تحالف مع موريس المسؤول عن العدالة، وهيوج دي لاسي، ورتشارد دي بورغ، وآخرين من أعداء المارشال، وتظاهر هذا الرجل بالالتحاق بحزبه، ونصحه بشن الحرب على أعدائه النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه، ومن ثم اخضاع ايرلاندا، ثم سار المارشال خلال أراضيه، وجمع جيشاً، وهاجم أعداءه، واسترد بعضاً من القلاع التي كانوا قد استولوا عليها وانتزعوها منه، ثم إنه استولى بعد حصار أربعة أيام على لايمريك Limerick وهي مدينة، مشهورة في ايرلاندا، وأجبر السكان على تقديم الولاء له، ثم تابع زحفه فاستولى على بعض القلاع العائدة للملك، وكذلك على بعضها العائد إلى أعدائه، حيث أرغم قادتها على تأدية يمين بعدم إعاقته في أهدافه، ولم يتجرأ النبلاء الايرلنديون على مواجهته، بل هربوا من أمامه إلى أقصى مسافة من البلاد، حيث جمعوا فرساناً وجنوداً خيالة مع حشد لايحصى تعداده من الرجالة، وأعدوا أنفسهم إلى معركة تصادمية، وقد أثاروا أتباعهم

بتوزيع أموال الملك بينهم، وبوساطة وعود كبيرة، وذلك إذا قتلوا المارشال، لأنهم بذلك سوف يصبحون أغنياء، وأرسلوا بعد هذا بعضاً من رهبان الداوية إلى المارشال، ليخبروه بأنه كان يعمل بمثابة خائن لمولاهم الملك، الذي يشن الآن الحرب ضده، مثلما شنها من قبل وفعل في انكلترا، وأضافوا أيضاً، أنه إليهم قد عهد الملك بالمسؤولية عن المملكة في ايرلاندا، لأنهم رعايا مخلصين بموجب القسم للملك المذكور، ولايمكنهم تحمل هذه الإهانة، من دون جنيهم تهمة الخيانة، وبناء عليه طلبوا منه هدنة حتى يعرفوا فيما إذا كان الملك ينوي الدفاع عن ايرلاندا، وأنه إذا مارفض أن يفعل ذلك، وقرر أن يترك البلاد لأجلها، سوف يتخلون على الفور عن البلاد كلها إلى المارشال، من دون قتال وسفك للدماء.

عدالة الحرب التي أنشبها المارشال ضدّ الملك

ولدى تسلم المارشال هذه الرسالة، ردّ على اقتراحاتهم واحداً تلو الآخر كما يلي، حيث قال:

«أقول في المقام الأول وأرد بأنني لم أتصرف بمثابة خائن ضد الملك، لأنه جردني من وظيفتي كمارشال بشكل غير عادل، ومن دون أية محاكمة من قبل نظرائي، وأمر بالاعلان عني منفياً في جميع أنحاء انكلترا، وأحرق بيوتي، ودمر ممتلكاتي، ولقد عدّني مرتين متحد خارج على السلطة، مع أنني كنت دوماً على استعداد للظهور في بلاطه، والاجابة على الاتهامات التي أثيرت ضدي، ومن ثم الالتزام بقرار نظرائي، ولهذا السبب أنا لم أعد تابعاً له، بل متحلل من كل أنواع التابعية والولاء له، وهذا لم يحدث بوسائلي بل بوسائله»، وبالنسبة للعروض التي قدمت إليه، ومسألة الهدنة، فقد بعث المارشال رسالة إلى النبلاء بوساطة الرهبان الداوية المذكورين، بأن يقدموا للاجتماع به في مؤتمر في اليوم التالي في ميدان بينه لهم وحدده، فهناك يمكن القيام

بالترتيبات من أجل السلام، وقـد أعلن —على كل حال— بدون تردد، أنه يمتلك عدالة كـاملة، وتسويغاً في السعي لاسترداد ماهو عـائد إليه، والعمل على اضعاف الملك ومستشاريه بكل وسيلة ممكنة له.

مشورة غيوفري مارش الخيانية

وعندما سمع النبلاء الايرلنديون جـواب المارشال من الداوية، كانوا مسرورين جـداً وراضين بالاقتراح للقدوم إلى المؤتمر، لأنهم عـرفوا أنهم يمتلكون قوة أكبر من قوة المارشال، وكـانوا قد عزموا على أن لايعودوا من دون الاشتباك في معـركة، وطلب المارشال في الوقت نفسـه نصيحة فرسانه حول القضية التي تقدم ذكرها، وقال:

«يبدو لي أنه يتوجب علينا أن نمنح هؤلاء النبلاء الهدنة التي طلبوها، لأن طلبهم كما يبـدو لي عــادل ومنطقي، وأنا أخـاف أننـا إذا مـارفضنا منحهم ماهو عدل، فإن شيئاً سيئاً قد يقع لي، وهنا انفجر موجهاً الكلام إليه، ومجدفاً ضده غيوفـري ماريسكو، وهو حليفة المتظاهر، والذي كان على دراية بالخيـانة المتفـاوض عليهـا، ذلك أنه مشـاركاً فيهـا، ثم أخـذ يتكلم وكأنه كـلام المشفق، قائـلاً إنه ليس ابن لذلك العظيم الذي كـان وليم مـارشـال، الذي تفـوق على جميع فرسـان الامبراطورية الغـربيـة، حكمة وعقلانية، وكذلك في الشجاعة والإقدام، وقال:

«لقـد غـدوت رجلاً ضعيفـاً، فأنت الآن بفسـولتك ترفض فـرصـة الحصول على سيـادة ايرلاندا التي بمقدورك الآن اخضـاعها، والهدنة في الحقيقة، التي يطلبها أعداؤك، هي مخادعة لك، من أجل أن يتمكنوا من إعـاقة تقـدمك، لكن ينبغي عليك أن تكون متأكـداً، بأن جميع أعـداءك عندما سيرونك مسلحاً ومستعـداً للقتال، حتى ولو مع قليل من الأتباع سـوف يديرون ظهورهـم، ويشرعون بالفـرار»، وقـد كان هناك حـوالي ثمانين فارسـاً، أو أكثر، الذين لديهم أراضي من المارشـال، والذين كانوا

قد نالوا الرشوة من أعـدائه، وقد أشاروا عليـه بالخطة نفسها التي تقدم طرحها، فقد كانوا يسعون خيانياً لخداعه.

المؤتمر الذي عقد بين النبلاء الايرلنديين والايرل مارشال

وعند حلول الصباح، وصل لحضور المؤتمر:

مـوريس المسـؤول عن العــدالة، وهيـوج دي لاسي، ورتشـارد دي بورغ، في الحقل المحـدد لهم، وكانوا محاطين بمائـة وأربعين فارساً جـريئاً وشديداً، كانوا قـد انتخبوهم من جميع أرجاء ايرلاندا، منذ اللحظة التي بدأوا فيها بنواياهم الخيانية، بقصـد قتل المارشال، وقد جلبوا لتنفيذ هذه الغـايات بوسـاطة أعطيـات كبيرة ووعود مغـرية، ولذلك كـانوا جميعـاً يرغبون بـالقتال، ويفضلون ذلك على المؤتمر، ووصل المارشـال أيضاً مع فـرسان مسلحين، كـانوا —باستثناء الخمسـة عشر، من خـاصته— قـد تشكلوا من حـاشيـة خـاصـة كـانت معـه، وقـد تظاهروا بأنهم أعـوانه ومؤيديه، وقد أخـذ موقعه على مسافة قـرابة الميل عن أعدائه، ثم بدأت المفاوضات حول السـلام، بوساطة الداوية الذين حملوا الرسائل من كل من الفئتين، وباختصار، عندما عرف النبلاء الايرلنديون أن المارشال قد قدم مع عدد قليل من الأتباع، أخبروه بوضوح، بأن قرارهم الثابت، هو أنه مـالم يمنحهم الهدنة التي طلبـوها، فإنهم يتحـدونه، وسـوف يجربون على الفور بوساطة قوة السلاح، أي الفريقين كان الأقوى، وجرى حث الايرل مـارشـال على القبـول بذلـك، بوسـاطة نصيحـة غيـوفـري دي مـاريسكو وجماعته الآخـرين المتظاهرين بالصـداقة، فـرفض وهو مكره طلب الهدنة، وطالب مـراراً بوساطـة الرسل بأن عليهم أن يعيدوا إليـه بعض قـلاعه، التي استولـوا عليها بشكل غير عادل، ومـازالوا محتفظين بها، ذلك أن الأمـر بدا بالنسبة له أن منح الهدنة مضـاد للحق، في وقت هو مسلوب من أمـلاكـه، ورفض النبـلاء الايـرلنديون أن يفعلوا ذلك، وصفـوا قـواتهم وعبأوها استعـداداً للقتال، وزحفـوا لمحـاربة المارشـال

وكأنهم واثقين من نيل النصر، وعندما شاهد غيوفري دي ماريسكو ذلك قال للمارشال:

«إنني أشير عليك باخلاص صحيح، أن تمنحهم الهدنة، لأن زوجتي هي أخت النبيل هيوج دي لاسي، ولذلك لايمكنني القتال إلى جانبك، ضد الذي أنا متحالف معه بالزواج»، وعلى هذا ردّ المارشال قائلاً:

«إنك خائن شرير، أولم أرفض الهدنة الآن بناء على نصيحتك، مع أن ذلك جاء ضد رغبتي؟، وأنا لاأريد أن أبدو في الحقيقة رجلاً ذا عقل متقلب، إذا ماأقدمت هكذا بسرعة على منحهم الذي كنت قد رفضته قبل وقت قليل مضى، وإنني وقتها سوف أبدو، قد أقدمت على فعل ذلك من خلال الخوف، أكثر من خلال تقديري لهم، هذا وانني مدرك تماماً أنه مقدّر لي أن أموت في هذا اليوم، وانه أفضل بالنسبة لي أن أموت بشرف في سبيل قضية العدل، وأن لاأهرب من الميدان، واتحمل مسبة أتباعي من الفرسان إلى الأبد»، ثم نظر فرأى أخاه وولتر وكان شاباً جميلاً، فقال لأتباعه:

«خذو أخي إلى قلعتي القريبة، ولاتدعو أسرتي كلها تهلك في هذه المعركة، ذلك انني أثق بشجاعته، وأنه عندما يصل إلى سن البلوغ، سوف يظهر نفسه فارساً شجاعاً»، وخشية من النبلاء الايرلنديين من شدة المارشال وبسالته، أعطوا دروعهم إلى الفرسان الذين كانوا قد حشدوهم لغاية قتل هذا الرجل البريء، ذلك أنهم، وإن رغبوا بقتله، لم يرغبوا في أن يظهروا بمثابة مشاركين بهذه الفعلة.

المعركة التي وقع فيها المارشال بالأسر

وعندما صفت العساكر، رأى الايرل مارشال هناك أعداد كبيرة، سوف تشتبك فقط مع عدد قليل، وقام هو —على كل حال— بتشجيع رجاله على القتال، مؤكداً أنه قام بحروبه من أجل العدل والقوانين في

انكلترا، وبسبب ظلم البواتيين، معتقداً بأنهم جميعاً كانوا مخلصين له، في حين كـانوا في الحقيقة خـونة، ثم اندفع بجرأة إلى وسط الأعـداء، وشق طريقـه بينهم بالقوة، وبذلك فتح طـريقاً لفـرسانه بسيفـه، لكن لحق به فقط خمسة عشر فارسـاً، الذين كانوا أتباعـه الشخصيين، وسعوا لتفريق أعدائهم، أما أتباعه الفرسان الذين ارتبطوا به بالقسم، والذين وثق بهم، فقد قـاموا بتسليم أنفسهم، وأخذوا أسرى من دون مقـاومة، وذلك كما تقـدم الاتفاق بين هؤلاء الخونة، فلقـد سلموا أنفسهم دون أن يجرحـوا لابرمح ولابسيف، وكأنهم كـانوا أصـدقـاء، مسرورين بـرؤية أحـدهم الآخر، وقد هرب بعضهم دون أن يضربوا ضربة واحدة، وجاء فرارهم إلى الكنائس والديرة، تاركين المارشـال مع خمسة عشر فارسـاً فقط، وقد دافع هؤلاء عن أنفسهم بشجاعـة، وكانوا غير معـادلين لخصومهم أثناء الصراع، لأنهم كـانوا يقـاتلون ضـد مائـة وأربعين، ووقع ثقل المعـركـة —على كل حال— على المارشـال، الذي عندما اكتشف الخطط الخيـانية ضد حياته، أخذ يقـاتل أعداءه من جميع الجوانب، وثابر على الدفاع عن نفسه، فقتل ستـة منهم، وكان هناك فارس صاحب حجم عمـلاق، إليه أعطى رتشارد دي بورغ دروعـه، ولقد غضب كثيراً عندمـا رأى مافعله المارشـال، فحمـل منقضـاً على المارشـال ليقتله على الفـور، وسعى إلى انتزاع خـوذته من على رأسه بالقوة، وعندمـا رأى المارشال هذا الرجل، اعتقد أنه كان رتشاد دي بورغ، فناداه متعجباً قائلاً:

«اهرب أيها الخائن الشرير حتى لاأقتلك»، وعلى هذا ردّ عليه قـائلاً: «إنني لن أفـر، بل سـوف أقترب منك»، ثم إنه رفع يده ليمسك خـوذة المارشـال، لكن المارشـال تمكن بضربة واحـدة مـن سيفـه من قطع يديه معاً، مع أنه كان مغطى بالدروع، وعندمـا رأى أحدهم رفيقه قد أصيب بالجراحة، اندفع بكل السرعة التي امتلكها حصانه نحو المارشال، وبذل كل طاقتـه لضربه على رأسـه، لكن بفضل الخوذة، جـاءت الضربة من

دون تأثير، ورد المارشال الضربة، فقطع عدوه إلى نصفين حتى الوسط، وبعد ذلك لم يعد أحد منهم يتجرأ على الاقتراب منه لبعض الوقت، وكان قادة الأعداء في حالة احباط، لكنهم مالبثوا أن حثوا رجال حشد الناس الذين قدموا إلى هناك، وهم يحملون الرماح، والمذاري، والفؤوس، والمطارد، أن يطوقوا المارشال، وأن يقتلوا فرسه، وينزلوه إلى الأرض، وقد طوقوه على الفور، وقهروه، وأصابوا حصانه بكثير من الجراحات، ومع ذلك لم يتمكنوا من ترجيله، ولذلك قطعوا قدمي الحصان بفؤوسهم، وعندها سقط المارشال مع حصانه، وقد غلبه التعب، ذلك أنه كان قد بدأ القتال من الساعة الأولى واستمر من دون توقف حتى الساعة الحادية عشرة، وهنا انقض عليه أعداؤه، ونزعوا عنه دروعه، وأصابوه بجراحة قاتلة في الظهر، وعندما علم النبلاء أنفسهم أنه أصيب بجراحة مميتة، وأنه كان متمدداً وكأنه بدون حياة، نقلوه —دون أن تظهر عليه علامات الحياة— إلى قلعته، التي استحوذ عليها موريس المسؤول عن العدالة قبل وقت قصير، وفي القلعة وضعوه في سجن محكم وشديد الاغلاق، ومعه فقط شاب واحد من أتباعه يتولى العناية به، وهناك بقي بين أيدي أعدائه، ووقع القتال في هذه المعركة يوم السبت في الأول من نيسان.

موت الايرل مارشال ودفنه

وبعد مضي عدة أيام بدأ المارشال يسترد قواه، حتى صار بإمكانه الأكل والشرب، ولعب النرد، وأن يمشي ذهاباً وإياباً في غرفته، وعندما شاهد أعداؤه هذا، سألوه باسم ملك انكلترا بأن يتخلى عن قلاعه وأراضيه في ايرلاندا، ذلك أن جسده كان الآن تحت سلطة الملك، وتحت رحمته ومن الممكن تعريضه لأبشع الميتات، حسبما يرضي الملك ويسره، لأن قرار البلاط الملكي، قد قضى أولاً بنفيه، ثم جرى وضعه في حالة التحدي، وهو الآن قد أخذ أسيراً في معركة قتالية جرت ضده،

وقالوا له:

«إنه سوف يكـون لصالحك أن تفعل هذا من دون معارضـة، وبذلك تحصل على رحمة منا»، ثم إنهم أروه ترخيص الملك، الذي أمـروا به، أنه إذا حدث وجاء إلى ايرلاندا، أن يعتقلوه ومن ثم أن يرسلوه ليمثل أمام الملك حياً أو ميتـاً، ولمعرفة المارشال أنه تحت سلطة أعـدائه وفي أيديهم، أعطى أوامـر، بوساطـة رسالة، من أجل تسليـم جميع قلاعـه إلى الملك، وكـان على غير دراية بأن تراخيـص الملك قـد منحت إلى هؤلاء النبـلاء حق توزيع ممتلكاته بين أنفسهم، وأن يتملكوها بموجب الحق الوراثي.

وأخـذت جـراحتـه الآن بالتـورم، وتسبب له آلامـاً مبرحـة، فطلب باحضـار طبيب، وبناء عليه قـام مـوريس المسؤول عن العـدالة، والذي كان تحت مسـؤوليته، باستدعـاء واحد، إنما مع نية قتله وليس معـالجته، وقــام المارشـــال —على كل حـــال— قبل تناولـه أي دواء جســـدي، بالاستعداد للموت بالاعتراف، وبتناول القربـان، وعمل شهادة قانونية، ثم عهد إلى الرب بمسألة بقائه حياً، أو موته.

ثم جاء الطبيب إليه، وقام بفتح جراحاته بأداة طويلة محماة، وجرفهم عدة مرات، وبعمق بوساطة تلك الآلة، وأخرج الدم منهم، ولشدة آلام المارشال أصيب بحمى حادة، وفي الســادس عشر من نيسان، الذي كان اليوم الســادس عشر بعد اصابتـه في المعركـة، نام في الرب، وقد دفن في اليـوم التـالي في كيلكني Kilkenny في قـلاية تابعـه لبعض الرهبــــان الفرنسيسكان، حيث كان عندما كـان حياً شيد قبراً رشيقاً، وهكذا مات الايرل مارشال، وكان فارساً نبيلاً، وبارعاً في المعارف، ومتميزاً بأخلاقه وبفضائله، وقـد فارق هذه الحياة في أحـد السعف، ليتسلم من الرب في السماء سعفـة تكون جائـزة له، فقـد كـان بين أبناء البشر شخصاً جميـلاً جداً، إلى حد بدا فيه أن الطبيعة تصارعت مع الفضائل في تكوينه.

الانتقام الذي أخذه النبلاء المنفيين من مستشاري الملك

ولم يكن قد عرف بعد في انكلترا الذي وقع للمارشال في ايرلاندا، لكن عندما بات ذلك معروفاً، طلب رتشارد سيوورد وبعض الآخرين من النبلاء المنفيين، الانتقام من مستشاري الملك، الذين بوسائلهم قد طردوا، وقاموا في اليوم الرابع من اسبوع الفصح، فأحرقوا بعض الأبنية في سوينبورن Swainbourn كانت ملكاً لروبرت باسلوي، وطال ذلك حاصلات الحصيد، والمواشي، والمقتنيات الأخرى التى وجدوها هناك، وسببوا أذى عظيماً له، وأحرقوا بعد ذلك في السادس والعشرين من شهر نيسان بعض الهري قرب بلدة ستين Stains كانت ملكاً لروبرت المذكور، مع حاصلات الحصيد والمقتنيات التي وجدوها هناك، ومجدداً استولوا في الثاني من أيار، على ستة خيول محملة بالأثقال، كانت ملكاً لستيفن دي سيغريف، وذلك إلى جانب خيول ركب ثمينة، أما كل ماكان ملكاً للملك فقد تركوه يمر بسلام، وفي الثاني عشر من أيار أحرقوا آيفنغهو Ivinghoe وهي قرية كانت ملكاً لبطرس أسقف وينكستر، مع جميع البيوت والممتلكات الأخرى، مما سبب خسارة كبرى للأسقف، واستولى في العام نفسه النبلاء الايرلنديون على قلاع المارشال وعلى امتيازاته في ايرلندا، التي منحت إليهم بموجب ترخيص الملك، واقتسموها فيما بينهم.

كيف وصل جميع النبلاء المطرودين وعملوا سلاماً مع الملك

وفي هذه الآونة، بعد عيد الفصح مباشرة، ذهب الملك إلى غلوستر، بقصد مقابلة رئيس الأساقفة والأساقفة الذين كان قد أرسلهم إلى ويلز، كما روينا من قبل أعلاه، وعند وصوله إلى عزبته في وودستوك Woodstock أمضى الليلة هناك، وفي هذا المكان وصل إليه رسل من ايرلندا، جالبين له أخبار موت المارشال، ولدى سماعه ذلك انفجر بالنواح، مما سبب الدهشة إلى جميع الحضور، فقد بكى موت مثل ذلك

الفارس المتميز، وأعلن أنه عندما مات لم يخلف من يوازيه في المملكة، ثم إنه استدعى على الفور قساوسة بيعته، وأمرهم بغناء صلاة جنازة مهيبة من أجل روحه، وقام في اليوم التالي بعد حضوره القداس، فوزع كميات كبيرة من الصدقات على الفقراء، ولابد أن المباركة جديرة بمثل هذا الملك، الذي أمكنه أن يحب أعداءه، وأن يصلي بدموع إلى الرب من أجل مضطهديه، ثم إنه انطلق من وودستوك فوصل إلى غلوستر، حيث قابل ادموند رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة الذين رافقوه في مهمته إلى للويلين،وأخبر هؤلاء الرسل الملك بأنهم رتبوا من أجل سلام مع للويلين، على شرط، أنه قبل القيام بأي شيء، يتوجب على الملك أن يقوم على الفور، بتلقي النبلاء المنفيين، الذين كان للويلين متحالفاً معهم، والذين طردوا نتيجة للنصائح الشريرة لمستشاريه، وأن ينالوا حظوته، وعند تنفيذ هذا يكون السلم قد جرت الموافقة عليه تماماً، وعند ذلك، أصدر الملك الذي تشوق إلى السلام بأية وسيلة، رسائل دعا فيها النبلاء المطرودين للالتقاء به في مؤتمر في غلوستر، في يوم الأحد بعد وقوع عيد الصعود الذي سوف يكون في التاسع والعشرين من أيار، فهناك وقتها سوف يتلقون عفواً شاملاً وسوف يستردون مواريثهم، وأن بإمكانهم الوصول إلى هناك من دون أي توجس وريبة، تحت أمان رئيس الأساقفة والأساقفة، وبناء عليه وصلوا بناء على وساطات رئيس الأساقفة والأساقفة إلى اتفاق مصالحة مع الملك، وبناء عليه جرى قبول:

هيوبرت دي بورغ،، مسؤول العدالة السالف، وغيلبرت باسيت مع أخيه، ورتشارد سيوورد، وجميع الذين نفيوا معهم ومن أجلهم، بالحضرة الملكية، ونالوا منه قبلة السلام في الثامن والعشرين من أيار، وأعيدت إليهم جميع امتيازاتهم من قبله، وفي ذلك المؤتمر، وصل إلى عند الملك غيلبرت أخو الايرل مارشال، وأخبره بوفاة أخيه، وطلب منه أن

يوضع في ميراثه، وعرض تقديم الولاء إلى الملك، وأن يفعل كل ماعليه فعله نحـو مـولاه، ثم أعـاد الملـك إليـه —بناء على نصيحـة رئيس الأساقفة— جميع ممتلكاته الموروثة في انكلترا وكذلك في ايرلاندا، وتلقى الولاء منه، وفي يوم أحد الشعـانين التالي منح مرتبة الفـروسية مع نطاق إلى غيلبرت المذكـور، وسلم إليه عصـا المارشاليـة لبلاطه، ليحملهـا مع جميع المراتب والتشريفـات التي منحت إلى أجـداده، كما أنه قبـل أيضـاً هيـوبرت دي بورغ، وغيلبرت دي بـاسيت، ورتشـارد سيـوورد بين خاصته وأصدقائه المقربين، ومستشاريه، ثم اكتشف تماماً كيف أن ضلل ببراعـة مستشـاريه الماضين، الذيـن لأنهم كـانوا فـاسـدي الضمير، قـد انسحبوا من حضرة الملك.

الملك يطلب حساباً من بطرس ريفول، إلخ

وفي المؤتمر نفسه، قرأ ادموند رئيس أسـاقفة كانتربري، بحضور الملك ومجمع الأساقفة كلهم، والايرلات، والبارونات، الذين كانوا حاضرين، نسخة من الرسائل الحاوية للأوامـر الخيانية، فيما يتعلق برتشارد، الايرل مـارشـال، والتي أرسلت إلى نبـلاء ايـرلندا، من قبل مستشـاري الملك، ولدى سماع الملك نفســه لها، وكـذلك بقيـة الحضـور، حـزنوا بعمق، وانفعلوا حتى تساقطت دمـوعهم، واعترف الملك بحقيقة، بأنه بناء على اكراه من أسقـف وينكستر، وبطرس دي ريفول، ومستشاريـه الآخرين، قـد أمر بوضع ختمـه على بعض الرسـائل التي وضعت أمامـه، وأعلن مقسماً بأنه لم يعرف قط مقـاصدهم، وفي جواب من رئيس الأسـاقفة له قال:

«تفحص ضميرك يامليكـي، لأن جميع الذين تسببـوا بارســال هذه الرسـائل كانوا على درايـة بالخيانة المنوية، وهـم بذلك مجرمون مـدانون بقتل المارشــال، وكأنهم قتلوه بـأيديهم»، ثم قـام الملك بعـدمــا تلقى نصيحـة، فـأصـدر رسـائل استـدعى فيهـا أسقف وينكستر، وبطرس

ريفول، وستيفن دي سيغريف، وروبرت باسلوي، للالتقاء به بمؤتمر في أيام عيد القديس يوحنا، ليقدموا له حساباً ليس فقط عن أمواله التي تسلموها وصرفت من قبلهم، بل عن سوء استخدام ختمه من دون معرفته، وأمرهم بالظهور في ذلك اليوم للاجابة على التهمة، ولقد وجدوا على كل حال، لدى عودتهم الى ضمائرهم أنهم مجرمون تجاه جميع التهم، وكانوا مرعوبين من غضب الملك من جهة أولى، ومن الجهة الثانية من غضب إخوان المارشال وأصدقائه، الذين تسببوا بموته، ولذلك هرب أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول إلى حرم الكنيسة، وأخفيا نفسيهما في الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، ونأيا بنفسيهما تماماً من أمام الناس، وأخفى ستيفن سيغريف نفسه في كنيسة القديسة مريم في ليستر، وهكذا فإن الذي هرب من قبل من كهنوتيته، وحمل السلاح، عاد الآن إلى واجباته الكهنوتية، واستأنف حمل سبحة صلواته، التي كان قد هجرها، من دون موافقة أسقفه، وطلب روبرت باسلوي الاختفاء في مكان ما من أحد يعرفه، ويؤكد بعضهم أنه ذهب إلى روما، ولم يتجرأوا بناء على دعوة الملك، أن يعبروا عتبة الكنيسة، لأنهم توجسوا من أن أعداءهم الذين أحرقوا قراهم وأبنيتهم ومخازنهم مع محاصيلهم ومع كل شيء آخر ثمين بالنسبة لهم، لن يوفروا حياتهم إذا ماامتلكوا الفرصة لانزال الأذى بهم.

كيف طالب الملك بحساب من بطرس ريفول

وأخيراً استطاع ادموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي توسط بين الفئتين المتصارعتين، الحصول على إذن من الملك لهؤلاء الأشخاص بالظهور أمامه، تحت أمان منه شخصياً ومن الأساقفة، وجرى تحديد يوم لذلك، للاجابة على مطالبه، من أجل إنهاء هذا الشقاق في المملكة، والاستراحة منه، وبناء عليه حدد الملك يوم الرابع عشر من تموز من أجلهم، للظهور في ويستمنستر، وفي ذلك اليوم أحضروا أمام

الملك تحت كفالة رئيس الأساقفة المذكور والأساقفة، وكان أول من ظهر أمام الملك للاجابة على الاتهام بطرس دي ريفول، الذي قدم في ثياب كهنوتية، ورأسه محلوق وهو يرتدي اكليلاً عريضاً، وقدم التحية باحترام إلى الملك الذي كان جالساً على مقعد مع المسؤولين عن العدالة، ونظر الملك إليه نظرة ازدراء بسبب الملابس التي ارتداها، وقال:

«أيها الخائن، لقد وضعت دون أن أعرف، بموجب نصيحتك الشريرة، ختمي على رسائل تحتوي على خطط خيانية ضد المارشال، وإنه أيضاً بوساطة مشورتك الشريرة، قمت بنفيه وآخرين من رعاياي الطبيعيين من مملكتي، وبذلك أبعدت عواطفهم عني وتقديرهم لي، وبنصيحتك السيئة عملت حرباً ضدهم، وبددت أموالي وأموال رعيتي»، ثم طلب منه تقديم حساب حول خزينته، وعن التصرف بادارة الشباب الذين كانوا من أسر نبيلة وعهد إليه بالوصاية عليهم، وكذلك حول المواريث العائدة للدولة والموارد الأخرى التي كانت عائدة إلى التاج، وعندما اتهمه الملك بهذه التهم وبتهم جرائم أخرى كثيرة، واتهمه بالخيانة، هو لم ينكر أياً من هذه التهم ضده، بل سجد على الأرض أمام الملك، واستجدى رحمته، وقال: «مولاي الملك، لقد نشأت وأثريت بالمقتنيات الدنيوية بك، لذلك لاتدمر الرجل الذي عملت، بل أعطني الوقت للتفكر، حتى أتمكن من أن أعطيك حساباً صحيحاً فيما يتعلق بجميع الأشياء التي طلبتها مني»، وعلى هذا أجابه الملك: «إنني سوف أبعث بك إلى برج لندن، وهناك يمكن أن تفكر حول القضية، من أجل أن تقدم لي حساباً صحيحاً موائماً»، وعلى هذا ردّ بطرس قائلاً:

«مولاي إنني كاهن، ولاينبغي أن أسجن، أو أن احتجز في سجن للعلمانيين»، وعند ذلك قال الملك له:

«رئيس الأساقفة موجود هنا، وإذا رضي أن يأخذك تحت ضمانته، سأعهد بك إليه لتكون تحت عهدته، من أجل أن تعطيني جواباً صحيحاً لمطالبي»، وباختصار بعث به الملك إلى البرج، واستولى على ممتلكاته الدنيوية، لأنه كان مرتدياً تحت لباسه الكهنوتي سابغة مع دروع لم تكن موائمة لرجل دين ولانافعة له، وقد بقي في برج لندن يومي الخميس والجمعة بعد اعتقاله، ثم أطلق سراحه من قبل رئيس الأساقفة، الذي بعث به إلى الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، حيث بقي هناك.

كيف ظهر ستيفن سيغريف أمام الملك

ومثل في اليوم نفسه ستيفن دي سيغريف أمام الملك تحت حماية رئيس الأساقفة، للاجابة على التهم التي عملت ضده، ولدى ظهوره أمامه اتهمه الملك بأنه خائن شرير، ووجّه إليه الاتهامات نفسها، كالتي سلف ووجّهها إلى بطرس ريفول، وأضاف إلى ذلك أنه أشار عليه بصرف هيوبرت دي بورغ من وظيفة المسؤول عن العدالة، وبسجنه، وبشنقه، وبنفي النبلاء الآخرين من المملكة، وبعد اتهامه بهذه الجرائم وبجرائم أخرى كثيرة، طالبه الملك بحساب عن الذي تسلمه وعن الذي أنفقه في وظيفته المسؤول عند العدالة، وهي الوظيفة التي مارسها بعد صرف هيوبرت دي بورغ، وفيما يتعلق بهذه التهم، حصل رئيس الأساقفة وبعض الأساقفة على فرصة انتظار حتى عيد القديس ميكائيل من أجل اعطائه فرصة للتفكير، وبالنسبة لتهمة اعطاء نصائح شريرة إلى الملك، ردّ على ذلك، بأنه كان لدى الملك العديد من المستشارين، ولذلك فإن الشر الذي وقع لايجوز أن توضع المسؤولية عنه عليه وحده، وأما روبرت باسلوي، الذي شغل منصب الخازن بعد وولتر أسقف كارآيل، فقد أخفى نفسه، ولم يكن من الممكن العثور عليه من قبل الذين طلبوا حياته.

كيف تخلى كونت بريتاني عن ولائه

وفي ذلك العام نفسه، في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، وهو الوقت الذي انتهت فيه الهدنة، المعمولة بين الملكين الفرنسي والانكليزي في بريتاني، أرسل الملك الانكليزي ستين فارساً وألفي ويلزي إلى كونت بريتاني من أجل حماية الأجزاء الضعيفة من أراضي ذلك النبيل، وعند انتهاء الهدنة، جمع الملك الفرنسي جيشاً كبيراً من جميع قوى مملكته، وألقى الحصار على قلعة كانت ملكاً لكونت بريتاني، وتصدى فرسان الملك الانكليزي مع أتباعهم الويلزيين للفرنسيين، وقتلوا عدداً من خيولهم، وبذلك غيّروا الجنود الخيالة إلى جنود رجالة، واستولوا على عرباتهم وعلى عجلاتهم الحاوية لمؤنهم وأسلحتهم، وحملوا معهم خيولهم وغنائمهم الأخرى، وبعدما أنزلوا جميع هذه الأضرار بأعدائهم، عادوا إلى أماكن استقرارهم دون أية خسارة لحقت بهم أنفسهم، وغضب الملك الفرنسي من هذه الأضرار التي لحقت به، فقسم جيشه، وهاجم بريتاني من جميع الاتجاهات، ووجد الكونت نفسه في هذه الضائقة فطلب منحه هدنة وحصل عليها حتى عيد جميع القديسين، من أجل أن يرى فيها إذا كان الملك الانكليزي الذي هو حليفه، سيأتي شخصياً لعونه، ولكي يحصل على هذه الهدنة سلم إلى الملك الفرنسي ثلاثة من خيرة قلاعه، مع تفاهم أنه إذا لم يقدم الملك الانكليزي شخصياً لانقاذ أراضيه خلال الوقت المحدد، هو سوف يتخلى عن جميع بريتاني مع القلاع والمدن التي فيها، إلى الملك الفرنسي كلياً.

وبعدما عمل هذه الهدنة أعاد دوق بريتاني إلى الملك الانكليزي فرسانه مع أتباعهم الويلزيين، وقد نصح هؤلاء الملك، بأن لايبدد المزيد من أموال المملكة من أجل حماية كونت بريتاني، لأنه قد دخل الآن بمعاهدة مع الملك الفرنسي، بقصد التخلي عنه، وإقامة سلام مع الملك

الفـرنسي، وهو ينتظر فقط تبديد جميع الأمـوال الانكليزية، وبعـد مضي وقت قصير، قـدم الكونت المذكـور نفسـه إلى انكلترا، وأخبر الملك بأنه أنفق جميع الأمــوال التي امتلكهـا للحصـول على هـذه الهدنة من الملك الفـرنسي، وطلب إعـادة تزويده بخمســة عشر ألف مـارك، وهو مبلغ —كما قال— أنفقه في الدفاع عن أراضيه، من أجل شرف وكرامة ملك انكلترا، وفي إجابة على هذا الطلب قـال الملك بأنه هو الذي حصل على الهدنة وهو الذي أبرمها، وأضاف بأن خزينة انكلترا لم تكن كافية للدفاع عن بريتـاني، وذلك كما تبرهن بتجربة السنوات الثـلاث، وهو لايرغب بأن تتضـاعف نفقـاته أكثر بمثـل هذه المشاكل والنفقـات، وإذا مـارأى كـونت بريتاني أنه —على كل حـال— يكفي، فهـو سوف يرسل أربعـة ايرلات من انكلترا مع فــرسـان وجنود فيهم كفـاية للـدفـاع عن تلك المنطقـة ضد الملك الفـرنسي، ولدى سماع الكونت هذا، ترك الملك وهو مغضب، وعبر إلى بلاده، وهـرب إلى الملك الفـرنسي، ولكـي يخفف من وقع خيـانتـه ضد ذلـك الملك، ذهب إليـه وطوق حول رقبتـه، معترفـاً بخيانته مسلماً إليه جميع بريتاني، مع البلدات والقلاع التي فيها، وقد قيل بأن الملك الفرنسي قد أجابه كما يلي:

«مع أنك خـائن شرير، وتستحق موتاً مشيناً، إنني سـوف أحفظ لك حياتك احترامـاً لمرتبتك، وسوف أعطي ابنك بريتـاني لمدى حياته، وبناء عليـه إنه بعد مـوته سوف يرث ملوك فـرنسا تلك المقـاطعة»، وعندمـا وجـد الكونت نفسـه قـد حرم مـن جميع ممتلكاته، وكأنه خـائن، تلطف ثانية وعرض بوساطة الرسل على الملك الانكليزي الولاء الذي عمله له من قبل، غير أن الملك استــولى على جميع ممتلكات كــونت بريتــاني في انكلترا، وحرمه من جميع مراتبه الشرفية.

واقعة اعجازية تتعلق بأحد الأساقفة

في هذه السنة التي كانت السنة الثالثـة بلا ثمار، انتشر الموت والمجاعة

في كل مكان، ومما لاشك فيه أن هذه الطواعين قد جلبت بوساطة ذنوب السكان، وكذلك بوساطة الأوضاع المناخية المتقدمة التي جاءت في غير مواعيدها، فتغيرت الأجواء، وأصيبت الأرض بعقم عام، وأصيب المريض ومات من الجوع، ولم يواجه سامري طيب ليعطيه ضيافة ويطعمه، أو ليداوي جروحه المميتة، وكانت الصدقات التي كانت تقدم بالعادة من قبل الأغنياء، قد تلاشت الآن، أما الأغنياء الذين كانت لديهم وفرة من الممتلكات، فقد أصيبوا بالعمى إلى حد أن المسيحيين كانوا يعانون مع أنهم خلقوا على شكل الرب، وكانوا يموتون لعوزهم للطعام، ولقد كانوا بالفعل عميان، حيث أنهم تفاخروا بتكديس الثروات، ليس عطاء من الرب، بل بفضل جهودهم وأعمالهم، وحالة مخجلة كهذه كانت منتشرة بشكل عام بين المسيحيين، وكانت مهينة أكثر بين الأساقفة، وبين قساوسة الكنيسة، وبين الرجال الرئيسيين الذين كانوا مشهورين بشرههم، أذكر وولتر رئيس أساقفة يورك، كنموذج للبقية، لأنه عندما ذهب إليه رؤساء ووكلاء عدد من عزبه، وأخبروه بأنه كانت لديه كميات كبيرة من الحبوب، صارت عتيقة بعد مضي خمس سنوات عليها، وهم يتوجسون كثيراً أن هذه الحبوب إما قد أكلت من قبل الجراذين، أو أنها اهترأت بسبب العفونة، هو حتى في زمن مثل ذلك العوز، لم يظهر احتراماً للرب، أو تقديراً للفقير، وأعطى أوامر إلى وكلائه وإلى رؤساء العزب بإعطاء القمح القديم إلى العمال في عزبه، وقال بأنه يتوجب عليهم أن يعيدوا إليه مقابل القديم جديد بعد الخريف المقبل، وحدث أن واحداً من وكلاء رئيس الأساقفة المذكور كان يفحص القمح في بلدة ريبون Ripon وقد أخرج القمح إلى خارج المخازن لدرسه، ووقتها ظهرت بين السنابل رؤوس هوام مثل الأفاعي والعلاجيم وزواحف أخرى، وهرب الخدم الذين جاءوا مع الوكيل للنظر إلى القمح وهم في حالة من الرعب، خشية التعرض للأذى من الهوام، وعندما أخبر رئيس الأساقفة بهذا كله، شعر بالخزي،

فبعث قهرمانه ليرى مـاالذي ينبغي فعله، وعندما قدم إلى المكان، ولدى وصــوله إلى الموضع لم يهتـم بحشـود الـزواحف، فــوضع ســلالم على الأكــداس، وأرغم بعض العمال على الصعــود وفحص القمح، ولدى وصولهم إلى القمـة، صدر دخـان أسود من الأكداس، تـرافق بنتانة غير أرضيـــة ولايمكن تحملهـــا، لذلك نزلـوا إلى الأسفل وابتعـــدوا عن الأكداس للنجـاة من الاختناق، معلنين أنهم لم يشموا من قبل مثل هذه النتـانة، كما أنهم سمعـــوا صـوتاً بأن لايضعـــوا أيديهم على القمح، لأن رئيس الأساقفة وكل شيء عائد إليه كانوا ملكاً للشيطان، وعندما شاهد القهرمان والذين جاءوا معه الخطر الذي نجم عن أعداد الزواحف، بنى جـداراً عـاليـاً حـول قمح الشيطان، وألقى النار في هذه الحبـوب حتى احترقت كلها، من أجل أن لاتنجو، وتؤثر على المنطقة كلها.

وضع اعجازي آخر يتعلق بشراهة أحد الكهنة

كـان يوجـد في منطقة يورك نفسهـا أحـد الكهنة الأغنيـاء، وقد تميـز بقـداسـة مـوقعـه بالوعظ، إنما مـع كل الشره، وقـد وقع في هذه الآونة مـريضـاً، واعتقـد الأطبـاء أنه مصـــاب بمـرض مميت، ونظراً لشهـرته بالأفكار الدينيـة التي رعـاها وتبنـاها، والتي كـانت مضـادة لآراء جميع المنطقـة، تمت زيارته من قبل جيرانه من رعـاة الديرة ورؤساء الرهبـان، وهم غير عـارفين أنه مثل ذئب في البهتـان، ومثل ثعبـان في الأعشـاب، وبعدما رحب باحترام برجال الدين الذين جاءوا لرؤيته، لم يعط الرجل المريض الانتباه والتقدير إلى خلاص روحه، بل أخبرهـم أنه صدوراً عن احترامه لهم قـام بمنحهم كمية كبيرة من القمح مـوجودة في بلاطه غير مخزونة في مخازنه، وأن عليهـم اقتســامهـــا فيما بينهم حسبما يظهـــر هو الأفضل بالنسبـة لهم، ثم خـرج رعاة الديرة ورؤسـاء الرهبـان بناء على أوامر الكاهن المريض، ليلقوا نظرة على القمح الممنوح إليهم، لكن لدى وصـولهم إلى الأكداس، رأوا واقفـاً على مقربة منهم رجـلاً كأنه الكاهن

المريض الذي تركوه في البيت، يلبس مثله، وله المظهر الجسدي نفسه، وهو مشابه له من كل جانب من الجوانب، وخاطبهم هذا الشخص بحدة وقال لهم:

«ماالذي تريدونه هنا؟ أريدكم أن تعرفوا بأن هذا القمح كله، وكذلك الشخص الذي هو في كل مظهره مالك له، هو عائد إلي، لأن الكاهن الذي منح القمح إليكم هو خاضع إلي، وكل ما هو ملك له، هو ملك لي، لأنه قدم الولاء إلي بيدين مطبقتين، ويمكنكم أن تكونوا متأكدين بدون شك، أنه في اليوم الرابع من الآن سوف يموت، ووقتها سوف أسترد كل ماهو عائد إلي، مع الرجل الذي عملته غنياً عندما كان فقيراً»، وعندما سمع رعاة الديرة والذين كانوا معه هذا، أصيبوا بالرعب، وعادوا إلى الكاهن فوجدوه بالرمق الأخير، فأخبروه بكل الذين رأوه وسمعوه، وعندما أخبروه بأن الرجل ذاك عائد إلى الشيطان، أجابهم الكاهن بقوله:

«لقد تحدث بما هو صحيح لأنه قد مضى الآن عشرون عاماً من الوقت الذي كنت فيه رجلاً فقيراً، ووقتها قدمت الولاء إلى الشيطان الذي تحدث الآن إليكم، وذلك من أجل أن أتمكن من الحصول على مكانة أرضية وعلى ثروة دنيوية»، وعاد فور ذلك إلى الاستغفار وإلى الاعتراف، وتخلى عن الشيطان وعن جميع أعمال أبهته، ولقد تخلص من هذا كله بفضل الرحمة الربانية، ومن الآلام الجسدية، ومنح وقتاً كافياً للاستغفار، ومن هذا كان واضحاً تماماً بأن الرب لم يرغب بموت المذنبين، بل بالحري هو يفضل هدايتهم وحياتهم.

معجزة مدهشة وقعت خلال هذا العام

ومع أن الفصلين الذين كتبا أعلاه يريان بشكل واضح كيف أن جريمة الشره هي ممقوتة وينبغي أن ينظر إليها هكذا من قبل جميع

المسيحيين، سوف أضيف قضية ثالثة، كل كلمة فيها معتمدة على شهادة اثنين أو ثلاثة من الشهود، فبعدما تقدم العام الذي تحدثنا عنه أعلاه حتى وصل إلى شهر تموز، استمر يضغط بشدة على الفقير، الذي عانى يومياً من العوز، فقد اندفع الفقراء على شكل جماعات نحو حقول المحاصيل، والتقطوا سنابل القمح، مع أنها لم تكن قد نضجت بعد، وفركوها بأيديهم المرتجفة ساعين لدعم بريق الحياة غير السعيدة، الذي لم يكن ينبض في صدورهم، وهذه الحقيقة من الصعب توجيه اللوم إليها بين الفقراء، لأننا نقرأ في أعمال الرسل بأن حواريي المسيح قد فعلوا الشيء نفسه، وكان بعض عمال القرى، الذين لشدة شرههم كانوا دوماً يشكون بالفقراء، قد شعروا بالغضب الشديد لدى مرورهم بحقولهم ومن ثم اكتشافهم لهذه السرقة التقوية، وقام سكان بلدة اسمها البولديسلي Alboldesly في منطقة كمبردج، بالذهاب في الأحد التالي، الذي وافق السادس عشر من تموز، إلى كنيستهم وطلبوا وهم هائجين من الكاهن أن يعلن على الفور عقوبة الحرمان الكنسي، على جميع الذين التقطوا سنابل القمح من حقولهم، وبينما كان جميع الفلاحين يلحون على هذه النقطة، قام واحد من أهل البلدة وكان رجلاً متديناً وتقياً، عندما رأى بأن الكاهن كان جاهزاً للتفوه بالحكم، فرجاه باسم الرب القدير وباسم جميع القديسين، بأن لايدخله هو وحبوبه في الحكم، ثم إنه أضاف بأنه كان راضياً بما أخذه كل واحد من فقراء الناس من حبوب زرعه، وهم في حالة عوزهم، وأنه قد عهد بالذي بقي إلى عناية الرب، وعندما كانت البقية مصرة على متابعة غاياتها المجنونة، وقد بدأ الكاهن تحت الضغط بالتفوه بالحكم، هبت فجأة عاصفة رعدية، وبروق وزوابع، ترافقت بأمطار غزيرة غير معهودة ومعه برد تساقط بشدة، واقتلعت مزروعات القمح من الحقل بوساطة انفجار من الجحيم، والمواشي والطيور مع كل شيء قد نما بالحقول قد تعرض للدمار، وكأنما قد ديست المزروعات بعربات وخيول، وشوهدت في الهواء العالي

ملائكة الشيطان تطير هناك، وقد اعتقد أنهم وكلاء هذا العذاب، لكن بما أن الاحسان اللاهوتي مستمر نحو الناس الصالحين، إنه بعد توقف تلك العاصفة التي سببت الكثير من الأضرار لجيران ذلك الرجل الأمين والمستقيم، الذي زار حقله، فاكتشف أن مزارعه وأراضيه، وإن كانت في وسط ممتلكات الآخرين، أنها لاتحتوي على أي أثر من آثار أضرار العاصفة، وظهر من هذا واضحاً أكثر من النور، أنه مثلما أعطي المجد للرب في الأعالي من قبل ملائكته، هناك سلام ونوايا طيبة على الأرض نحو الناس، وبدأت هذه العاصفة على حدود بدفورد، وعبرت نحو الشرق خلال جزيرة إيلاي، ونورفولك، ووصلت إلى شاطىء البحر، وفي الحقيقة ثارت في هذا العام عدة عواصف من طبيعة مماثلة في أماكن متعددة، وكانت عواصف مرعبة، كما كانت مؤذية لكثيرين، وبدا مثل هذا وضعاً غريباً أن المزروعات التي بقيت بعد العاصفة، قد اكتشف أنها منتنة إلى حد أنه لاالخيول، أو الحمير، أو الثيران، أو الخنازير، أو البط، أو الدجاج، قبلوا أكلها، مع أنها قدمت إليهم للتغذي بها.

الخلاف الذي تفجر بين البابا وبين الرومان

نشب في هذا العام خلاف جدي بين شعب روما وسكانها من جهة وبين البابا من الجهة الأخرى، وكانت أصول أسبابه كما يلي: ادعى سكان المدينة لأنفسهم امتيازاً، هو أن الحبر الروماني لايمكنه لأي جريمة من الجرائم إنزال عقوبة الحرمان الكنسي بأي واحد من سكان المدينة، أو حرمان أي علماني من أهل المدينة من شراكة المؤمنين، وفي جواب على هذا قال الحبر الأعظم، أنه و إن كان أدنى من الرب، هو كان أعلى من أي انسان، وبذلك هو أعلى من سكان روما وسيداً عليهم، وبما أنه كان والدهم الروحي، هو ينبغي أن يعاقب أبناءه المذنبين، وهو أيضاً يمتلك الحق بفعل ذلك لأنهم رعيته في الايمان

بالمسيح، وبناء عليه هو بإمكانه قانونياً انزال عقوبة الحرمان الكنسي وأن يضع المدينة تحت عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وذلك عندما يتوفر سبب منطقي لفعل ذلك.

ومجدداً جبت سلطات روما ومجلس شيوخ المدينة من الكنيسة الرومانية جزية سنوية، وقد دفعها البابوات الرومان بموجب عادة موجودة حالياً وكانت قديمة، واستمرت سلطات المدينة ومجلس الشيوخ بقبضها حتى أيام البابا الحالي، وعلى المطالبة بذلك قال البابا، بإنه إذا كان قد حدث في أيام اضطهاد الكنيسة الرومانية، قد لجأت هذه الكنيسة في سبيل الدفاع عن نفسها، ومن أجل السلام، فأقدمت أحياناً على منح أعطيات كبيرة وهدايا إلى سلطات المدينة، فهذا ينبغي عدم تحويله إلى عادة، فالذي ينبغي عدّه عادة هو ماتأسس على الحق، وكان مؤيداً بالمنطق، والذي هو أكثر من هذا هو أن المسيح على صليبه قد جعلها محررة تماماً بوساطة دمه، حتى أن أبواب الجحيم سوف لن تفوز ضدها، ولهذه الأسباب ولأسباب أخرى نشب الخلاف بينه وبين الرومان، وقام البابا مع كرادلته بمغادرة المدينة، وذهب إلى بيروجيا Perugia للاقامة، طالما الخصام مستمر، وفي الوقت نفسه ازداد الرومان جرأة في معارضتهم له، فهدموا بعض أبنيته في المدينة، ولفعلهم هذا حرموا كنسياً من قبله، كما أنه جعل نفسه موضع حظوة عند الامبراطور، وحشد جيشاً كبيراً ليقاوم حملات الرومان، ثم قامت الجيوش المتخذة للامبراطور وللحبر الأعظم بتهديم حوالي ثمان عشرة قرية، كانت مسكونة من قبل هؤلاء الرومان، وقائمة حول المدينة، وقطعوا أشجارهم في بساتينهم، وغضب سكان المدينة تجاه هذا، وأقلعوا بهجوم من روما في الثامن من تشرين الأول، وقد بلغ تعدادهم مائة ألف رجل مسلح، وذلك من أجل نهب مدينة فيتربو واحراقها، لأنها كانت ملكاً للبابا، ولكن عندما خرج هذا الحشد الأحمق من

المدينة، وكان أفراده يزحفون دونما تقدير للنظام، بل كانوا مجموعات فوضوية، انقضت عساكر البابا والامبراطور المدربة عليهم من أماكن الكمائن، واندفعت نحو الرومان، فأحدثت مذبحة مرعبة بينهم، لكن مع بعض الخسائر لأنفسهم، وسقط من الجانبين حوالي الثلاثين ألفاً، وجاءت الخسائر الأعظم، عندما عهدوا بأنفسهم إلى الفرار نحو المدينة، وفرقوا أنفسهم في جميع الاتجاهات، وامتلأت الآن قلوبهم بحقد كبير ضد البابا، لأن عدداً كبيراً من ذوي المراتب العليا من أهل المدينة قد سقطوا في هذا الصراع، واستمر الخصام بين الفئتين المتنازعتين لمدة طويلة، لكن الرومان وجدوا دوماً أن حظ الحرب كان دوماً ضدهم.

ومات في هذه السنة هيوج فوليوت Foliot أسقف هيرفورد، وقد خلفه المعلم رالف دي ميدستون Maidstone وكان رجلاً مدهشاً بعلومه، وقد تلقى السيامة على يدي ادموند رئيس أساقفة كانتربري.

ختان صبي مسيحي من قبل اليهود

عام ١٢٣٥م، الذي كان العام التاسع عشر لحكم الملك هنري، فيه عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في ويستمنستر، وقد حضره أساقفة ونبلاء المملكة، وفي الوقت نفسه، والمكان عينه جلب إلى أمام الملك سبعة من اليهود، الذين كانوا قد سرقوا طفلاً من بلدة نورويك، واحتفظوا به كلياً بعيداً عن أنظار المسيحيين، وقاموا بختانه، وكانوا عازمين على صلبه في الفصح، وقد وجدوا حول هذه الحقيقة بأنهم مجرمين، وفي حضرة الملك اعترفوا بالحقيقة، وقد بقيوا في السجن وحياتهم وأطرافهم قيد إرادة الملك.

وفي العام نفسه، في السابع من شباط، مات هيوج أسقف لنكولن، وعدو كل الرهبان، وقد دفن في الكنيسة الكاتدرائية في لنكولن في العاشر من الشهر نفسه، وقد خلفه المعلم روبرت غروستيست

Grosseteste وكـان رجـلاً صـالحاً ومتـديناً، وبارعـاً في العلوم المقدسـة، وجرت سيـامته من قبل ادمـوند رئيس أساقفـة كانتربري، في الثـالث من حـزيران في ردنغ، وأبدى رهبان كـانتربري اعتراضهم ضـد تكريسـه، في أي مكان غير بلدته، وأخيراً سمحـوا بذلك بهذه المناسبـة، شرط أن لايتحول ذلك إلى عادة بعد الآن.

وفي تلك الآونة، بعـد عيـد طهـارة القـديسـة مـريم، عمل ستيفن سيغــريف وروبرت بـاسلوي صلحهما مع الملك، بوسـاطـة دفع ألف مارك، لكنهما لم يرجعا إلى مكانتهما وحظوتهما لديه.

وفي حـوالي هذا الوقت أيضاً، في الـرابع والعشرين من شباط، مـات هنري دي سـاندفـورت Sandfort أسقف روكستر، وإثر مـــوته انتخب رهبـان ذلك المكان المعلـم رتشـارد دي ويندين Wendene وكان رجلاً متمكناً من العلوم الحرة، لكن عندمـا جرى تقديمه من قبل الرهبان إلى ادمـوند رئيس أساقفـة كانتربري من أجل تثبيـت انتخابه، لم يجر استقبـاله من قبـل ذلك الأسقف، وبناء على ذلـك عمل الرهبـان مرافعة استئناف إلى البابا.

موت راعي الدير وليم وخلافة جون له

في اليوم التـالي لعيد الرسـول متى في السنة نفسها، مـات وليم راعي دير القديس ألبـان، بعدما أدار تلك الكنيسـة لمدة عشرين سنة، وحوالي الثـلاثة أشهـر، ودفن في السـابع والعشرين من شبـاط في بيت هيئة الرهبـان، ثم حصل المجمع الديري على إذن الملك لاختيـار راعي دير جديد، وفي اليـوم الذي أعقب عيد البشـارة إلى القديسة مـريم، انتخبوا وسط كل المهابة جون رئيس رهبان هيرفـورد، وكان واحداً من رهبانهم المحترفين، وقد اختـاروه مسؤولاً عن أرواحهم، وقد جرى تقـديمه إلى الملك في يوم أحـد السعف، وقـد استقبل بترحـاب مـن قبله، وجـرى

ارسـال بعض رهبان وكهنـة تلك الكنيسة إلى بلاط رومـا، وكـانوا ممن وظيفـة الخاصة وواجبـه ذلك، أي العمل في سبيل الحصـول على تثبيت للانتخـاب، الذي حصلوا عليه دون مصـاعب، وعـادوا إلى وطنهم مع المبـاركة الرسـولية، وفي اليـوم الذي أعقب عيـد ميلاد القـديسة مـريم، الذي كان يوم أحـد، تلقى راعي الدير المنتخب المذكور المباركـة كراعي دير من روجـر أسقف لندن، وخلال هذه المدة الفـاصلة، بقي الدير مع متعلقـــاته بلطف من الملـك تحت عهـــدة الـرهبـان، من دون تـوقف لامتيازاته الضيافة.

وحصل اليهـود في هذا العـام من البـــابا الرومـاني على امتيـاز عـدم تعـرضهم لسـوء المعـاملة من قبل الملـوك أو الأمـراء، وذلك عن طريق استخراج المال منهم، أو تعريضهم للسجن.

وفي الوقت نفســه لدى اقتراب عيـد الفصـح، ذهب بطرس أسقف أوف وينكستر إلى رومـا، بناء على استـدعاء من البـابا، لترتيب متـابعـة اجـراءات الحرب التي كان قـائماً بها ضد الرومـان، لأن ذلك الأسقف، عندما كان شاباً في خدمة المقـاتل المشهور رتشارد، وكذلك جون ملكي انكلترا، معهما تعلم قـــديماً استخـــدام الـدرع قبل أن يرتدي الثـــوب الكهنوتي، وكـان قـادراً على تعبئـة الجيش قبل أن يمارس التبشير بكلمـة الإيمان.

الدعوة إلى حملة صليبية

في هذه السنة التي كـانت السنة الثامنة عشرة التي جـاءت بعد السنة التي عملت فيهـا هدنة العشر سنوات في أرض الميعـاد، بين الامبراطور الرومـاني فـردريك وبين سلطان مصر، جرت الدعـوة إلى حملة صليبيـة خلال جميع أرجـاء المسيحية، بناء على مبادرة من البابا غـريغوري الذي بعث برسائل إلى مختلف أجزاء العالم، جاءت كمايلي:

مذكرة البابا

«من غريغوري، عبد عبيد الرب، إلى جميع العبيد المؤمنين لمولانا يسوع المسيح المقيمين في انكلترا، تمنيات الصحة مع المباركات الرسولية، مثل راحيل من قبل عندما رأت بداية أولئك الذين ترعرعوا في ظل المعركة الحقيقية لخلاصهم، هي أيضاً الكنيسة الرومانية، التي أسفها كبير من أجل الدمار المتبادل لأولادها، قد أصدرت التنهدات ومابرحت تصدر التنهدات مع الآهات والآلام، التي نأمل بأن تسمع في السماء، وأن يستمر المؤمنون بالنحيب وبالبكاء حتى يتولى الرب رحمتهم، والكنيسة تبكي لأن بيت الخبز اللاهوتي، وجبل صهيون، ومن حيث صدرت الشريعة ونشرت، ومن مدينة الملك العظيم التي جاءت عنها كثير من أحاديث المجد، ومن الأرض التي قدسها ابن الرب بسفكه لدمه، هناك من أجلنا ضاعت قوة المملكة وجمالها، وهي تبكي لأنها كانت مرة أرضاً حرة، وهي الآن تحت نير طغيان غير تقي، وهي تبكي، لأنه هناك حيث غنت الحشود السماوية الكثيرة أغاني السلام، ظلم الشعب الذي هو أكثر الناس عدم طهارة، فقد أثار أعمال العدوان، وخبأ الشرور، والانشقاقات، وهو يحرك الحرب ويثيرها، وقد مدّ يده، وطرد من هيكل الرب سيامة الأسقف، وشرائع الطبيعة نفسها من أجل إحلال تلك الدناسة والقذارة محلها، ولهذا تدنست القدس في سبتها، وتلوثت من قبل أعدائها، لأنه مع أن المدينة المذكورة، إلى جانب هيكل الرب، قد استردت منذ بعض الوقت الذي مضى، إلى ولدنا المحبوب جداً في المسيح، فردريك الامبراطور الروماني، وأوغسطس وملك صقلية المشهور، لكن بما أن الرب القدير لم يتلطف آنذاك بمنح المزيد من المجد للمسيحيين عمل الامبراطور المتقدم الذكر هدنة مع السلطان، نهايتها الآن قد اقتربت، إلى حد أن الوقت المتبقي من المعتقد أنه لم يعد كافياً من أجل الاستعدادات، مالم نسرع فنقوم بالاستعدادات الضرورية

بكل عجلة، وبثقة وبإيمان فيه حرارة، لذلك ينبغي أن لايتخلف أحداً عن القيام بالحج من أجل ضمان تلك الأرض، وفي سبيل القتال من أجل بلدهم، مع أمل أكيد بالنصر، أو بالموت في سبيل تاج المجد، ومن أجل الحياة، ومن أجل تحمل الشدائد والمصاعب لبعض الوقت في سبيله ولصالحه، وهو الذي كره الإغواء، وتحمل البصاق عليه، وضرب بقبضات مضطهدية، وجلد وتوج بالشوك، وأخيراً ضرب بالمسامير على الصليب، حيث أعطي المرارة ليشربها، وطعن بحربة، وسلم نسمة الحياة بصوت مرتفع، هكذا أنهى حياته الدنيوية، وهو مقهور بالإهانات، من أجل حفظ الجنس البشري، وهو الذي، إذا ما أردنا الحديث بشكل أكثر تفصيلاً، لم يرفض النزول من عرش مجد أبيه، طاوياً السموات بشكل رائع تحته، وهو الذي من أجل حالة موتنا، لم يرفض التحول من كونه رباً ليصبح انساناً، ومن كونه خالقاً لأن يكون مخلوقاً، ومع أن الرب أخذ شكل عبد، من أجل أننا نحن الذين لايمكن أن نأمل بالغفران بموجب صلاحنا، يمكن أن نحصل على نعمة لم يسمع بمثلها، حتى نصبح ورثة الرب، ونتحد بالوراثة مع المسيح، ونشارك باللاهوتية، وننال نصيبنا في السعادة الأبدية، ومع أنه جرى تبنينا من قبله من خلال نعمته، نحن نقدم يومياً براهين على نكراننا للمعروف، ومع ذلك منحنا وفرة من الأشياء الجيدة، مثلما، حتى يبرهن على إيمان أتباعه، جعل الأرض التي بإرادة منه ولد فيها، ومات، وقام ثانية، تعاني من الاستيلاء عليها مطولاً والاستحواذ عليها من قبل الكفار، مع أن يد الرب لم تضعف، كما أن فضائله لم تزل بأي شكل من الأشكال، لأنه وهو الذي عمل الأشياء كلها من لاشيء، يمكنه بلحظة واحدة أن يجعلها حرة، إنه يطلب من رجال نعمة الحب والرحمة، أن يظهروا الاستيعاب الكامل والتطبيق النهائي للشريعة، فهو أولاً تلطف بالشفقة على الانسان في حالته المدمرة، وهو لن يسمح بأي حال من الأحوال للأيدي غير التقية بأن تقوى كثيراً وتشتد ضد الأتقياء، إذا لم يهتم بأن

أذانا ينبغي الانتقام له من خـلال فوضـانا، وأن يتم الحصول على نظامنا من نصره، وهكذا فإن الغـارقين بأعماق الذنوب، وغير القـادرين بأي حـال، على عمل تكفير، هؤلاء الناس كـانوا سيغـرقـون أكثـر في ذلك البحر من الآثام بشكـل يائس لولا أنه مدّ لهم لوحـاً، ومنحه إليهم على هذه الشـاكلة، حيث صـار بامكانهم عـن طريق الموت في سبيل المسيح، بيسر الوصـول إلى الكمال لسنين طوال، لأن كثيرين ممن رغبـوا في رؤية الأراضي التي وقف عليها مولانا، قد وصلوا إلى هدفهم من دون التعب في السبـاق، ونالوا التـاج من دون محنة السيـف وذلك من خـلاله وهو الذي يجازي عسـاكـره المؤمنين المخلصين، وهـو ينظر فقط إلى الإرادة الطيبـة في خـدمتـه، وهكذا نحن نثق بـرحمة الرب القـدير، وبسلطة رسوليه:

القـديس بطرس، والقديس بولص، وبالقـدرة على الربط وعلى الحل التي أعطاها الرب إلينا، وبموجب ذلك إننا نمنح إلى جميع الذين سوف يشـاركـون بأشخـاصهم، وعلى نفقتهم الشخصيـة، أو الذيـن سـوف يجهزون رجالاً موائمين عوضاً عنهم، أو الذين سوف يذهبون على نفقة آخرين، أو الذيـن سيقدمون مـالاً يمكن به تقديم المسـاعدة إلى الأرض المقدسة، أو الذين سـوف يقدمون النصيحة أو المسـاعدة من أجل الغاية نفسها، هؤلاء جميعاً نحن نمنحهم غفرانـاً كاملاً عن ذنوبهم التي سوف يستغفـرون منها في قلوبهم، وسـوف يعترفون بأفـواههم، ونحن نتكفل بأن يبقى كل الذيـن سـوف يحملون الصليب من كل من رجـال الدين والعلمانيين، بأشخـاصهم وممتلكاتهم آمنين تحت حماية القـديس بطرس ونحن أنفسنا، وحماية رؤساء الأساقفة والأسـاقفة وقساوسـة الكنيسة، حتى الحصـول على معلومـات مؤكـدة عن مـوتهم أو عودتهم، وخـلال تلك الآونة، مامن جباية ربا أو فائـدة سوف تؤخذ منهم أيضاً، أو تجبى سـواء من قبل يهود أو مسيحيين. صـدر في سبـوليتـو Spoleto في

الرابع من أيلول في السنة الثامنة من بابويتنا».

وعيّن البابا أيضاً رهباناً من طائفة الفرنسيسكان والمبشرين للدعوة إلى الصليب في جميع أنحاء العالم، مع معلمين قادرين في اللاهوت، الذين انطلقوا يعملون بالانجيل، وتعاون الرب معهم، وثبت تبشيرهم في العلامات التالية:

فقد امتلكت كل منطقة بوساطة الوصاية الرسولية رئيس شمامسة لها وعمداء تولوا جمع الناس في الأسقفية كلهم من نساء ورجال مكفرين كل من يهمل حضور أعمال وعظهم.

معجزة تتعلق بامرأة كانت أطرافها متقلصة

في الحادي عشر من حزيران من العام نفسه، كان روبرت لاوي Lawes وهو راهب من طائفة الفرنسيسكان، يبشر بالانجيل لصالح الحملة الصليبية في بلدة كلير Clare وكانت هناك احدى النساء، قد حرمت من استخدام جميع أطرافها منذ ثلاث سنوات، وكانت تخشى عقوبة الحرمان الكنسي، وقد أعطت المبلغ الصغير من المال الذي امتلكته إلى أحد الجيران، ليحملها على كتفيه إلى المكان الذي كان روجر يبشر فيه، واستلقت هناك وهي تئن وتنوح حتى أنهى رجل الرب موعظته، وذلك عندما أثيرت عاطفة الرحمة لديه، لدى سماعه نواحها، ورؤيتها وهي مستلقية هناك، فذهب إليها وسألها عن سبب قدومها إلى هناك، فأجابته بأنها من خلال الخوف من الحرمان الكنسي قد جلبت إلى مكان تبشيره، وبناء على ذلك أمرها بالذهاب إلى بيتها، دون أن يعرف بأنها قد فقدت استخدام أطرافها، ولدى اخباره من قبل الموظفين هناك، بأنها فقدت استخدام أطرافها تماماً منذ ثلاث سنوات، سألها عما إذا كانت تعتقد بأن الرب قادر بما فيه الكفاية، أنه إذا رغب بتحويلها صحيحة فعل، وقد ردت على هذا: «إنني أؤمن بهذا ياسيدي»، وعند

ذلك أخـذ رجل الرب بذراعي المرأة، ورفعهـا نحـو الأعلى بثقـة، وهو يقول في الوقت نفسه: «أرجو الرب القدير، الذي تؤمنين به، أن يحوّلك إلى سليمة»، وعندمـا أمرها بالـوقوف والنهوض، فعلت ذلـك، واضعة ثقتها في الرب، ولدى محاولتهـا الوقوف بدأت عظامهـا وأعصابها فجأة تطقطق، حتى أن الواقفين هنا اعتقدوا أن أطرافها قد تكسرت إلى قطع، وقد عـادت هكذا —على كل حال— إلى سلامتها الماضيـة، وعادت إلى بيتهـا مسرورة، تسبّح الرب وتمجـده لإضفـائـه مثل تلك القـدرة على عبده.

كيف طلب الامبراطور أخت ملك انكلترا للزواج منها

وصل في شهــر شبـاط من هـذا العـام اثنان من الـداوية، مع بعض الفـرسـان والرسل الخاصين، إلى الملك في ويستمنستر، مكلفين برسـائل مختومة بالذهب من الامبراطور فـردريك، يطلبون يد ايزابل أخت الملك الانكليـزي للزواج، وقـد وصلـوا إلى الملك في الثـالـث والعشرين من شبـاط، ورجـوه تقـديم جـواب للرسـائـل وللطلب، حتى يتمكنوا من إعلام مـولاهم بكل سرعة بقـرار الملك، وعندها عقد الملـك مداولات دقيقة مع أساقفـة ونبلاء مملكته لمدة ثلاث سنوات، وبعدمـا قلبوا جميعاً وجوه القضيـة، وفحصوها بكل دقة، وافقـوا بالاجماع بأن السيدة ينبغي أن تعطى إلى الامبراطور، وفي السابع والعشرين من شباط، أعطى الملك جـوابه بالموافقة على التحـالف المطلوب، وعند ذلك طلب الرسل الإذن برؤية السيـدة، وبعث الملك بعض الرسل الموثوقين لاحضـار أختـه من برج لندن حيث كـانت محروسة بعناية، ورافقهـا الرسل مع كل التكريم إلى الملك في ويستمنستر، حيث ظهرت أمـام رسل الامبراطور، و كانت سيـدة في العشرين من عمـرها، جميلـة أن تنظر إليهـا، مـزينة بعـذراوية لطيفة، ومتميـزة بملابسهـا الملكية وبأخـلاقها، وبعـدما أنعشـوا نظرهـم لبعض الوقت بالتحـديق بالسيـدة، قـرروا أنها الأعظم جـدارة من جميع

الجوانب للسرير الامبراطوري، وثبتـوا الزواج عن نفس الامبراطور باليمين، وقدموا لها خاتم الزواج باسمه، وبعدما وضعوه باصبعها أعلنوها امبراطورة روما، وصرخوا «عاشت امبراطورتنا»، ثم إنهم أرسلوا رسلاً، بكل سرعة لإخبار الامبراطور بالذي عملوه، فقام بعد عيد الفصح مباشرة بارسال رئيس أساقفة كولون، ودوق لوفين Lou-vaine مع صف طويل من النبلاء إلى انكلترا، لإحضار الامبراطورة إليه، وسط التكريم المستحق، ولإكمال احتفالات الزواج، حتى يتمكن من الدخول بها.

زينة عرس الامبراطورة والتحضيرات الفخمة

كانت هناك وفرة عظيمة من الزينة في هذا الزواج، بدت أنها تفوق الثروة الملكية، لأن الامبراطورة نفسها عمل لها تاج وصنع بشكل دقيق من الذهب الخالص، وزين بالجواهر، وحفر عليه صوراً تشبه الشهداء الأربعة والملوك المعترفين لانكلترا، الذين إليهم عهد الملك بشكل خاص العناية بروح أخته، وقد أشرقت بهذه الوفرة العظيمة من الخواتم والأطواق الذهبية، وجواهر أخرى فخمة، مع ملابس من الحرير والسلك الناظم، مع زينة أخرى مماثلة، التي تجذب بالعادة الأنظار وتثير رغبة النساء إلى حد الحسد، حتى بدوا أنهم لايقدرون بثمن، مع ثياب للعرس من الحرير، والصوف، والسلك الناظم، وكانت مزودة بشكل جيد، حتى بات من الصعب القول أيها سوف يجذب أكثر اهتمام الامبراطور، وكان سريرها ثرياً جداً بأغطيته ووساداته، وبألوانه المتعددة، مع مختلف أنواع الأثاث، وكانت الملاءات مصنوعة من الكتان الناعم الممتاز، إلى حد أنهن بنعومتهن كن يغرين المتمدد عليهن بنوم رائع، وكانت جميع أقداح الشرب من الذهب الخالص ومن الفضة، والذي ظهر أنه متفوق على كل شيء، هو آنية الطبخ، كبيرها وصغيرها، حيث كانت من الفضة الخالصة، ومن أجل ادارة هذا كله، والاهتمام

بهذه الأشيـاء، جرت إنـابة خدم البـلاطات وندبهم لخدمـة الامبراطورة وأسرتها بطريقة ملكيـة، وبعدما جـرى تزويدها بهذا اكله وبهدايا أخرى من أخيها، وبعـدما تسلمت بائنتها منه، بقيـت السيدة ايزابل تحت عناية أسقف اكستير، ورالف فتز— نيقولا، قهرمـان الملك، ونبلاء آخرين من آل بيته، وتولى العناية بها سيـدات نبيلات وعقيلات كن جميعـاً بارعات بالأخلاق الملكية، وكان فيهن كفاية لخدمة الامبراطورة ومرافقتها، وبعد ترتيب الأمور على هذه الصورة، عقـد الملك في يوم عيد القديس يوحنا احتفالاً مهيبـاً أمام البوابة اللاتينيـة في ويستمنستر، برفقة رئيس أسـاقفة كـولون، والرسل الآخـرين للامبراطور، وفي اليـوم التـالي أخـذ الجميع الطريق نحو منطقة دارتفورد مع مـرافقة الملك الذي كان بصحبته قطار كبير من الايرلات والبـارونات، واشترى الامبراطـور للسيـدات اللائي سرن في موكب الامبراطورة عـدداً من الخيول المتميـزة بألوانها المتنوعة، وخطواتها اللطيفة، والتي تحمل ركـابها بمتعة ولطف، دون أن تزعجهم بأية حركة من حركات أقدامهم، وكانت الركابات والسرج مذهبة أيضاً ومحفـورة ومن أنواع كثيرة، وكـانت اللجم والمقـاود محكمـة الصنع ومذهبة، وهي مـريحة للراكب وللمطية أيضاً، وساروا مـن خلال مدينة روكستر، ووصلوا إلى دير فيفـرهام Feversham وشرعـــوا من هناك فـوصلوا إلى كانتربري، ليمارسـوا عباداتهم وليقـدموا تعبـداتهم إلى توماس، رئيس الأساقفة الشهيد، وبعـد تأديتهم لواجباتهم الدينية تابعوا السير إلى ميناء ساندويش، وكـانوا قد بلغ تعدادهم حـوالي الثلاثة آلاف فارس، ومن ذلك الميناء أقلعت الامبراطورة ورئيس أسـاقفة كولون مع النبلاء والسيـدات، الذين جرى تعيينهم في حـاشيتها، وكـان الإقلاع في الحادي عشر من أيار، والانطلاق في البحر تحت أشرعة كاملة، ولم يكن الفـراق —على كل حـال— مـن دون بكاء بين الأخ والأخت، أي بين الملك والامبراطورة.

وصول الامبراطورة إلى كولون

وبعد رحلة استمرت ثلاثة أيام وثلاث ليال، دخلوا إلى مصب نهر الراين، وبعدما ساروا لمدة يوم وليلة صاعدين في النهر، وصلوا إلى أنتويرب Antwerp وهي مدينة كانت تحت الحكم الامبراطوري، ولدى نزولهم إلى اليابسة هناك استقبلوا بحشد كبير جداً من الرجال المسلحين، كانوا قد أرسلوا من قبل الامبراطور، ليعملوا بمثابة حرس للامبراطورة، وليتولوا حراستها بيقظة نهاراً وليلاً، لأنه قيل بأن بعضاً من أعداء الامبراطور، الذين كانوا متحالفين مع الملك الفرنسي كانوا يخططون لخطف الامبراطورة ومنع الزواج، وقد قوبلوا من قبل جميع الكهنة ورجال الدين العائدين للمناطق المجاورة بمسيرات مهيبة، وهم يقرعون الأجراس ويغنون الأغاني المبهجة، وجاء معهم أفضل المعلمين بكل نوع من أنواع الموسيقى مع آلاتهم، وقد رافقوا الامبراطورة مع جميع أنواع الأغاني الزفافية المبهجة خلال رحلتها، التي استغرقت خمسة أيام إلى كولون، وعندما صار موعد اقترابها معروفاً في ذلك المكان، خرج إلى استقبالها، مع الورود، وسعف النخيل، وبثياب العيد، حوالي عشرة آلاف من سكان المدينة وهم يمتطون الخيول الاسبانية، وبرفقة هذه الحشود الفرحة، سارت الامبراطورة خلال الشوارع الرئيسية للمدينة، التي كانت مزينة بمختلف الطرق والأنواع من أجل وصولها، وعندما علمت بأن كل انسان، ولاسيما السيدات النبيلات من أهل المدينة اللائي جلسن في الشرفات، كن يرغبن برؤية وجهها، رفعت قبعتها والغطاء عن رأسها، من أجل أن يراها الجميع، وبعملها هذا نالت الاطراء من كل انسان، وبعدما نظروا إليها وحدقوا بها أعطوها ثناء كبيراً من أجل جمالها، ومن أجل تواضعها، ثم اتخذت مقراً لها خارج أسوار المدينة، بسبب الضجة التي كانت فيها، وانتظرت هناك تعليمات الامبراطور.

زواج الامبراطور والامبراطورة في وورم

في الوقت الذي وصلت فيه الامبراطورة إلى كولون، كان الامبراطور مشغولاً بـالحرب ضد ابنه الذي تمرد ضـده، وقد قاد والـده جيشاً كبيراً جداً ضده، حتى أنه ألقى الحصـار على عشرة من قلاعه في وقت واحد، وقـد اتخذ ابنه مـوقف الدفـاع في واحـدة مـن هذه القـلاع، كـانت هي الأقوى، إنما لدى إلقـاء أبيه الحصار عليهـا، ولخوفه من شـدة أبيه، ترك القلعة، وألقى بنفسه عند قدميه، والتمس منه رحمته، وكان الأب —على كل حـال— بلا رحمة، فأمر به فـوضع بالأغلال، وحمله معـه إلى وورم، ومن هناك أرسل رسالة إلى الامبراطورة بـأن تأتي إليه إلى هناك، وبذلك كانت قد أقامت ستة أسابيع في كولون، وعند ذلك انطلق رئيس أساقفة كولون وأسقـف اكستير، مع النبلاء الآخريـن الذي كانوا في حـاشيتها، وأخذوا طريقهم فوراً نحو الامبراطور، وبعد رحلة سبعة أيام، أحضروا الامبراطورة وسط جميع أنواع الأبهة الاحتفـالية والفـرح، وقد استقبلت لدى وصـولها من قبل الامبراطـور بسرور واحترام، وبفـرح فـاق جميع الحدود بسبب جمالها، وتـم الزواج بشكل مهيـب في ذلك المكـان في يوم الأحد العشرين من تموز، ومع أن جمالها قد أفرح الامبراطور لدى نظرته الأولى إليهـا، هو ابتهج أكثر بعـد الزواج، وبعـد استمرار الاحتفـالات البهيجـة لمدة أربعة أيام متـواصلة، حصل أسقف اكستير والبقيـة الذين رافقـوا الامبراطورة إلى هناك، على الاذن مـن الامبراطور بالمغـادرة، وعـادوا مبتهجين إلى انكلترا، آخـذيـن معهم منـه هدايـا إلى الملك الانكليـزي ثلاثة فهـود مع هدايا أخـرى ثمينة كـانت نادرة في بلدان الغرب، ووعده الامبراطور أيضاً بمساعدته ضد الملك الفرنسي.

النسب النبيل للامبراطورة

ولقـد كـان هناك —على كل حـال— كثيرون، في الامبراطورية الرومانـة، الذي اعتقـدوا، أنه انزال من قـدر الامبراطور، وحط من

شأنه، وهو الذي كان قوياً جداً، وغنياً، وكان بحكم وضعه سيد العالم وحاكمه أجمع، أن يتزوج من أخت ملك انكليزي، لكن كما يعلم كثيرون إن هناك المزيد من الفخار في أن يكون الانسان من أصل نبيل، أكثر منه أن يكون غنياً، وعلى القارىء أن يعرف أن والد هذه الامبراطورة كان جون ملك انكلترا، وأن الملك الحاكم الآن لانكلترا، هو هنري أخاها، وأن الملوك المشهورين:

هنري، ورتشارد، وغيوفري كونت بريتاني، كانوا أعمامها، وهؤلاء الملوك يتمتعون بالشهرة لنبالة أصلهم، وقد حكموا انكلترا وايرلاندا، منذ أن كانوا ملوكاً، وحكموا في نورماندي وأكوتين بمرتبة دوق، وفي بواتو وأنجو بمرتبة كونت، وبالاضافة إلى ذلك امتلاكهم الإدعاء بحق السيادة على: تورين، ومين، وبري، وأوفرين، وكان لديهم في جميع هذه المناطق سبعة رؤساء أساقفة خاضعين لهم، مع ملكي اسكوتلندا، وويلز، وجزيرتي ايرلاندا، ومان، وإلى جانب هؤلاء عدد لايحصى تقريباً من الأساقفة، والايرلات، والبارونات، والفرسان، وكانت أم الامبراطورة ملكة على جميع هذه البلدان، وبالنسبة لأختيها، كانت الأولى ملكة الاسكوتلنديين، وكانت الثانية كونتسة بيمبروك، وكان لها خمس عمات: كانت أولاهن زوجة ألفونسو ملك قشتالة، وأم بلانشي ملكة فرنسا (التي ابنها لويس يحكم الآن في تلك المملكة)، وقد تزوج روجر ملك صقلية بواحدة أخرى، وتزوجت الثالثة من هنري دوق سكسوني، وصارت أم أوتو، الذي صار فيما بعد امبراطور الرومان، والذي أخوه من هنري دوق سكسوني صار فيما بعد ملك القدس، وكانت الرابعة زوجة ريموند كونت طولوز، وقد تزوج روتروك Ro-troc كونت بيرشي Perche من الخامسة، وبهذا وبأشياء أخرى بدت الامبراطورة أنها «انحدرت من نسل الملوك»، لأن أبيها الملك جون المتقدم الذكر، كان ابن الملك هنري المشهور، وكان هنري هذا، هو

ابن الامبراطورة مـاتيلدا، ابنـة هنري الأول، ملك انكلترا، من ملكتـه ماتيلدا، وكـانت ماتيلدا هذه ابنة مـالكوم ملك الاسكوتلنديين، وملكته القديسة مـرغريت، وكانت مرغريت ابنة ادوارد من أغاثا، أخت هنري الامبراطور الرومـاني، وكـان ادوارد هذا ابن ادمـوند الملك الانكليـزي، الذي كان لقبـه «الأطراف الحديدية»، الذي كان ابن الملك إيثلرد Eth-elred وكـان والد إيثلـرد إدغـار Edgar «المسـالم»، وكـــان والد الأخير هو ادموند، وكان والد ادموند هذا ادوارد الأول، الذي كان ابن ألفـرد Alfred الملك الواسع الشهـرة، وأعيـــد نسب هذا الملك في التــواريخ الانكليـزية، إلى آدم، أبـانا الأول، وبهذا وضح أن امبراطورة انحـدرت من أجداد كـانوا محترمين في كل جانب من الجوانب، جـديرة بالزواج من الامبراطور.

وإلى ها هنا وصلت تواريخ المعلم روجر دي ويندوفر.

«وهكذا كان في هذه الصفحات تاريخ عصرنا،

وهناك مايزال في الغيب كتّـاباً سوف يتولون من بعـد الآن إخباركم بالمزيد».

النهاية

المحتوى